







فضيلة الشيخ الدكتور

محمود المصري أبو عمار



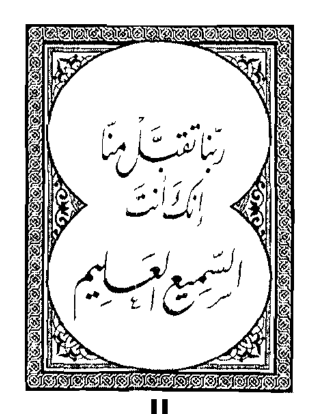





رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

شرح
الأحاديث القدسية

بسم الله الرحمن الرحيم



رقم الإيداع: ٢٠١٦/٩٢٨٠

الترقيم الدولي: 978-977-763-088-7

مكتبة الصفا
للنشر والتوزيع

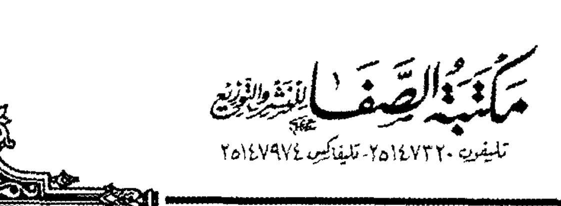
أولاد الحاج عويس أمين صالح

١٢٧ ميدان الأزهر / أمام الجامع الأزهر / القاهرة ت ٢٥١٤٧٣٢٠
١ درب الأتراك / خلف الجامع الأزهر ت ٠١٠١٤٣١١١٤ / تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤



شرح
الأحاديث القدسية

فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري
أبو عمار




بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين، فمازال فضل الله العظيم الكريم يتوالَى علينا بالتوفيق لإخراج ونشر الكتب النافعة، المبينة لشرع ربنا تبارك وتعالى، فقد مَنَّ علينا سبحانه بالتوفيق لإخراج عدة طبعات جديدة للمصحف الشريف، حرصنا فيها على غاية الإتقان فى جميع ما يتعلق بها.

كما وفقنا لإخراج كتب تفسير كتاب الله العزيز، سواء كان كاملًا، أو مفرقًا على هيئة سورة تلو السورة، أو مجموعة سور، أو موضوع تلو موضوع، كآيات الأحكام وغير ذلك من العلوم المتعلقة بالكتاب العزيز، كما وفقنا لإخراج كتب الحديث النبوى الشريف والتى عليها قوام هذا الدين وهى بيان وتفسير لكتاب الله العزيز، والتى قام بها الجهابذة الأولون من سلفنا الصالح علماء الحديث، الذين وفقهم الله عز وجل لتوصيل الدين وتبليغه كتابًا وسنةً، قولًا وفعلًا، نصًا وفَهمًا وعملًا.

قد أخرجنا بفضل الله عدة كتب كموطأ الإمام مالك، وصحيحى الإمامين البخارى ومسلم، وسير أعلام النبلاء، وفتح البارى بشرح صحيح البخارى، وشرح صحيح مسلم وغيرها من الكتب المتضمنة لحديث رسول الله ﷺ رواية ودراية، وشرحًا وبيانًا.

وأيضًا وفقنا لإخراج كتب العلوم الشرعية التى تخدم الكتاب والسنة بشتى الأشكال. والتى قام بها من تبع الأولين بإحسان لبيان مراد الله عز وجل فى كتابه

وسنة رسوله ﷺ، فى صور شتى ما بين المطول والمختصر- رحمنا الله وإياهم وغفر لنا ولهم، وأحسن إلينا وإليهم.

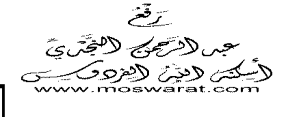
ويسرنا اليوم أن نقدم هذا الكتاب الذى بين يديك أخى القارئ وهو كتاب: «شرح الأحاديث القدسية»، وهو إضافة جديدة لإصداراتنا والتى نرجو من الله عَزَّوَجَلَّ أن يتقبلها منا قبولًا حسنًا، وأن ينفع بها الإسلام والمسلمين.

إنه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مكتبة الصفا

جعلها الله منارًا لخدمة العلم والدين





بين يدى الكتاب

۞ إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[(1)].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ①﴾[(2)].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ⑦⓪ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[(3)].

أما بعد:

فإن الإنسان فى هذه الدنيا مسافر إلى الله (جلَّ وعلا) يقطع المسافات والأوقات فى طاعة رب الأرض والسماوات من أجل الوصول إلى النعيم والرضوان فى أعالى الجنات.

والعاقل هو الذى يعلم أن السفر كله مشقة وأنه لا راحة إلا بعد الوصول... وما عليه إلا أن يُعد الزاد لهذا السفر البعيد.

۞ ولقد أخبرنا الله (جلَّ وعلا) بأعظم زادٍ نتزود به فى طريقنا إلى الله وإلى الدار الآخرة فقال (جلَّ وعلا): ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٠٢).

(٢) سورة النساء: الآية (١).

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان (٧٠، ٧١).

يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[١].

والتقوى هو الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل[٢].

والتقوى أيضًا: أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله ترجو ثواب الله.. وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله تخاف عقاب الله[٣].

۞ ولن تستطيع أن تصل إلى حقيقة التقوى إلا إذا سِرتَ خلف النبى محمد ﷺ فتتخذه أُسوة وقدوة لك فى أقواله وأفعاله وأحواله ﷺ.

والسبيل إلى ذلك لن يكون إلا بالعودة إلى كتابِ الله وإلى سُنة رسول الله ﷺ من أجل إقامة مجتمعٍ مسلمٍ يراه الناس فيرون الإسلام من خلاله.

۞ ومن أجل ذلك كان الناس بحاجة شديدة إلى أن يتعرفوا على الأخلاق والآداب والمعاملات التى جاء بها النبى ﷺ لكى يتعايشوا معها بقلوبهم وجوارحهم فيفوزوا بسعادة الدارين فى الدنيا والآخرة.

۞ وسنجد ذلك كله فى كتاب الله عَزَّوَجَلَّ (القرآن الكريم) وسُنة رسول الله ﷺ ... وكذلك فى الأحاديث القدسية التى تعتنى ببناء النفس الإنسانية وتقويمها وتربيتها على الأغراض الشرعية والمقاصد الربانية وعلى الدعوة إلى كل الفضائل والخيرات ومكارم الأخلاق والترغيب فى الجنة والتخويف من النار.

ومن أجل ذلك أحببت أن أُسطر هذا الكتاب الذى أشرح من خلاله باقة عطرة من الأحاديث القدسية الصحيحة الثابتة من أجل أن يعلم المسلمون

(١) سورة البقرة: الآية (١٩٧).

(٢) هذا تعريف على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) هذا تعريف (طلق بن حبيب) رَحِمَهُ اللَّهُ.

معانى تلك الأحاديث ومقاصدها العظيمة وليعملوا بما فيها.. ليفوزوا فى دُنياهم وآخرتهم.

ولقد تناولت تلك الأحاديث بأسلوبٍ سهلٍ ميسورٍ سائلًا الحق (جلَّ وعلا) أن ينفع بهذا الكتاب وأن يجعله فى ميزان حسناتى يوم أُدرج فى أكفانى.

وأسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجمعنى بكم جميعًا فى الفردوس الأعلى إخوانًا على سُرر متقابلين.. إنه ولى ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على نبينا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار





۞ وها هى بعض الوقفات الهامة التى ينبغى أن نقف عندها قبل أن نشرع فى شرح تلك الباقة العطرة من الأحاديث القدسية.

۞ تعريف الحديث القدسى:

هو ما رواه النبى ﷺ عن ربه تبارك وتعالى على غير النسق القرآنى ونَظْمِه وإعجازه، ولكنه فى نَظْمِه وأسلوبه بسائر الحديث النبوى أشبه... وهو يُعَدُّ فى جملة السُّنة النبوية لكن راويه هو النبى ﷺ.

۞ منزلته:

ليس للحديث القدسى قوة إعجازٍ خاصة كالقرآن الكريم، ولكنه لجلالة نسبته، ولُطف موضوعه كان له موقع خاص فى السمع، واستقبال مُتميِّز فى النفس، وأثر ظاهر فى الشعور والوجدان.

۞ طريقة نقله:

الحديث القدسى أغلبه منقول بطريق الآحاد كعامة الأحاديث النبوية، ولذا فإنه يطرأ عليه ما يطرأ عليها، من صِحَّة وحُسن وضَعف ووَضع، بل إنه لإقبال العامة عليه كان مجالًا لاختراع الكذَّابين واختلاق الوضَّاعين، مما يستلزم ضرورة النظر فى أسانيده، وفحص متونه، ليُعرَف صحيحه من سقيمه.

۞ صيغ الحديث القدسى:

له صيغٌ مُتعددة يُعرَف بها، وأكثر الصيغ التى يُعْرَف بها الحديث القدسى وأشهرها ما كان صريحًا فى بيان هذه النسبة، مثل قول النبى ﷺ: «قال الله» أو «يقول الله» أو «يقول ربكم» أو ما شابه ذلك من الصيغ التى تثبت القول للرب تبارك وتعالى عن طريق إسناد فعل القول أو ما يؤدى معناه إسنادًا صريحًا إليه.

۞ **موضوعه وأغراضه :**

الحديث القدسي لا يتعرض لتفصيل الأحكام الفقهية ولا لبيان الشرائع التعبُّدية كالحديث النبوى، ولكنه يُركز على بناء النفس الإنسانية وتقويمها وتربيتها على الأغراض الشرعية والمقاصد الربانية، وفى التحذير من المعاصى والمنكرات، وفى الدعوة إلى الخير والفضيلة ومكارم الأخلاق وفى الترغيب فى الجنة والتخويف من النار... وبالجملة فإنه يدور فى فلك العقائد والوعظ والتوجيه والتربية.

الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسى

۞ هذا ويفترق الحديث القدسى عن القرآن الكريم من وجوه منها:

(١) أن القرآن الكريم نزل به جبريل عليه السلام، بينما الحديث القدسى قد تكون الواسطة جبريل أو يكون بالإلهام أو غير ذلك.

(٢) القرآن الكريم كله متواتر، والحديث القدسى ليس كذلك.

(٣) القرآن الكريم لا يتطرق إليه الخطأ، وأما الحديث القدسى فقد يرد الوهم إلى أحد رواته، فيرويه على الخطأ.

(٤) القرآن الكريم يُتلى فى الصلاة، ولا يجوز ذلك فى الحديث القدسى.

(٥) القرآن مُقسَّم إلى سور وآيات وأحزاب، وغير ذلك، والحديث القدسى ليس كذلك.

(٦) ثواب قراءة القرآن وتلاوته ثابت، والحديث القدسى ليس له نفس الفضل.

(٧) القرآن معجزة باقية على مَرِّ الدهور والعصور.

(٨) جاحد القرآن يَكفُر، بخلاف مَن جحد حديثًا قدسيًّا (لظنه أنه ضعيف مثلًا).

(٩) تجوز رواية الحديث القدسي بالمعنى، ولا تجوز قراءة القرآن بالمعنى[١].

۞ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

والحديث القدسي: ما رواه النبي ﷺ عن ربه، وقد أدخله المحدثون في الأحاديث النبوية، لأنه منسوب إلى النبي ﷺ تبليغا... وليس من القرآن بالإجماع، وإن كان كل واحد منهما قد بلغه النبي ﷺ أمته عن الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد اختلف العلماء رحمهم الله في لفظ الحديث القدسي هل هو كلام الله تعالى، أو أن الله تعالى أوحى إلى رسوله ﷺ معناه واللفظ لفظ رسول الله ﷺ **على قولين:**

القول الأول: أن الحديث القدسي من عند الله لفظه ومعناه؛ لأن النبي ﷺ أضافه إلى الله تعالى، ومن المعلوم أن الأصل في القول المضاف أن يكون بلفظ قائله لا ناقله، لا سيما والنبي ﷺ أقوى الناس أمانة وأوثقهم رواية.

القول الثاني: أن الحديث القدسي معناه من عند الله ولفظه لفظ النبي ﷺ وذلك لوجهين:

الوجه الأول: لو كان الحديث القدسي من عند الله لفظًا ومعنى، لكان أعلى سندًا من القرآن، لأن النبي ﷺ يرويه عن ربه تعالى بدون واسطة، كما هو ظاهر السياق... أما القرآن، فنزل على النبي ﷺ بواسطة جبريل، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾[٢] وقال: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[٣].

---

(١) صحيح الأحاديث القدسية (ص ٦-٨) للشيخ مصطفى العدوي.

(٢) سورة النحل: الآية: (١٠٢).

(٣) سورة الشعراء: الآيات: (١٩٣-١٩٥).

الوجه الثانى: أنه لو كان لفظ الحديث القدسى من عند الله، لم يكن بينه وبين القرآن فرق، لأن كليهما على هذا التقدير كلام الله تعالى، والحكمة تقتضى تساويهما فى الحكم حين اتفقا فى الأصل، ومن المعلوم أن بين القرآن والحديث القدسى فروقًا كثيرة:

منها: أن الحديث القدسى لا يُتعبد بتلاوته، بمعنى أن الإنسان لا يتعبد لله تعالى بمجرد قراءته، فلا يُثاب على كل حرفٍ منه عشر حسنات، والقرآن يُتعبد بتلاوته بكل حرف منه عشر حسنات.

ومنها: أن الله تعالى تَحدَّى أن يأتى الناس بمثل القرآن أو آية منه، ولم يَرِد مثل ذلك فى الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن محفوظ من عند الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [1] والأحاديث القدسية بخلاف ذلك، ففيها الصحيح والحسن، بل أُضيف إليها ما كان ضعيفًا أو موضوعًا، وهذا وإن لم يكن منها لكن نُسب إليها وفيها التقديم والتأخير والزيادة والنقص.

ومنها: أن القرآن لا تجوز قراءته بالمعنى بإجماع المسلمين، وأما الأحاديث القدسية فعلى الخلاف فى جواز نقل الحديث النبوى بالمعنى والأكثرون على جوازه.

ومنها: أن القرآن تشرع قراءته فى الصلاة ومنه ما لا تصح الصلاة بدون قراءته – كالفاتحة – بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن لا يمسه إلا طاهر على الأصح، بخلاف الأحاديث القدسية.

---

(١) سورة الحجر: الآية: (٩).

ومنها: أن القرآن لا يقرؤه الجُنب حتى يغتسل على القول الراجح، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن ثبت بالتواتر القطعى المفيد للعلم اليقينى، فلو أنكر منه حرفًا أجمع القُرَّاء عليه، لكان كافرًا، بخلاف الأحاديث القدسية فإنه لو أنكر شيئًا منها مُدعيًا أنه لم يثبت، لم يَكفُر، أما لو أنكره مع علمه أن النبى ﷺ قاله، لكان كافرًا لتكذيبه النبى ﷺ

وأجاب هؤلاء عن كون النبى ﷺ أضافه إلى الله، والأصل فى القول المضاف أن يكون لفظ قائله بالتسليم أن هذا هو الأصل، لكن قد يُضاف إلى قائله معنًى لا لفظًا، كما فى القرآن الكريم، فإن الله تعالى يضيف أقوالًا إلى قائليها، ونحن نعلم أنها أُضيفت معنًى لا لفظًا، كما فى «قصص الأنبياء» وغيرهم، وكلام الهدهد والنملة؛ فإنه بغير هذا اللفظ قطعًا.

وبهذا يتبين رجحان هذا القول، وليس الخلاف فى هذا كالخلاف بين الأشاعرة[١] وأهل السُّنة فى كلام الله تعالى، لأن الخلاف بين هؤلاء فى أصل كلام الله تعالى... فأهل السُّنة يقولون: كلام الله تعالى كلام حقيقى مسموع يتكلم سبحانه بصوتٍ وحرف، والأشاعرة لا يثبتون ذلك، وإنما يقولون: كلام الله تعالى هو المعنى القائم بنفسه، وليس بحرفٍ وصوت، ولكنْ الله تعالى يخلق صوتًا يعبر به عن المعنى القائم بنفسه... ولا شك فى بطلان قولهم، وهو فى الحقيقة قول المعتزلة، لأن المعتزلة يقولون: القرآن مخلوق، وهو كلام الله، وهؤلاء يقولون: القرآن مخلوق، وهو عبارة عن كلام الله، فقد اتفقا على أن ما بين دفتى المصحف مخلوق[٢]. أما أهل السُّنة والجماعة فيقولون أن القرآن

---

(١) فرقة من الفرق الضالة – وانظر: «منهج الأشاعرة فى العقيدة» للدكتور سفر الحوالى «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» للدكتور عبد الرحمن المحمود.

(٢) انظر: «العقيدة السلفية فى كلام رب البرية» للشيخ عبد الله يوسف الجديع.

الكريم كلام الله عَزَّوَجَلَّ قديم غير مخلوق ... فقد قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[1]، ولم يقل: الرحمن خلق القرآن.. وقال تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾[2]، ولم يقل: يس والقرآن المخلوق.

ثم لو قيل في مسألتنا- الكلام في الحديث القدسي-: إنَّ الأَولَى ترك الخوض في هذا، خوفًا من أن يكون من التنطُّع الهالك فاعلُه، والاقتصار على القول بأن الحديث القدسي ما رواه النبي ﷺ عن ربه وكفى، لكان ذلك كافيًا، ولعله أسلم والله أعلم.

❁ (فائدة):

إذا انتهى سند الحديث إلى الله تعالى سُمِّي (قدسيًّا)، لقدسيته وفضله، وإذا انتهى إلى الرسول ﷺ سُمِّي مرفوعًا، وإذا انتهى إلى الصحابي سُمِّي موقوفًا، وإذا انتهى إلى التابعي فمن بعده سُمِّي مقطوعًا[3].

❁ فتعالَوا بنا لنتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع شرحٍ بسيطٍ لتلك الباقة العطرة من الأحاديث القدسية.

---

(١) الرحمن: الآيتان: (١، ٢).

(٢) يس: الآيتان: (١، ٢).

(٣) القول المفيد (١/ ٥١-٥٣) بتصرف.



(١) رحلة أرواح المؤمنين والكافرين

۞ قال رسول الله ﷺ: «إنّ العَبْدَ المُؤْمِنَ إذا كَانَ فِي انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنْيا وإقْبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إليه مِنَ السَّماءِ ملائِكَةٌ بِيضُ الوُجُوهِ كأنَّ وجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أكفانِ الجَنّةِ وحَنوطٌ مِنْ حَنوطِ الجَنَّةِ، حَتّى يَجْلِسُوا منهُ مَدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عندَ رَأسِهِ، فيَقولُ: أيتُّها النَّفْسُ الطيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرةٍ مِنَ اللهِ ورِضْوانٍ، فَتَخْرُجُ فتَسِيلُ كَمَا تسِيلُ القَطْرَةُ مِنْ فِيِّ السِّقاءِ، فيأْخُذُها، فَإِذا أخَذَها لم يَدَعُوها فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يأخُذُوها فيَجْعَلُوها فِي ذَلِك الكَفَنِ وَفِي ذَلِك الحَنوطِ، ويَخْرُجُ مِنْهَا كأطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ على وَجْهِ الأَرْضِ فيَصْعَدُونَ بهَا، فَلَا يَمُرونَ على مَلإٍ مِنَ المَلائِكَةِ إلاَّ قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فيَقولونَ: فلانُ بْنُ فلانٍ بأحْسَنِ أسْمائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بهَا فِي الدُّنْيا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى سَماءِ الدُّنْيا فَيَسْتَفْتِحُونَ لهُ، فيُفْتَحُ لهُ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كلِّ سَماءٍ مُقَرَّبُوها إِلَى السَّماءِ الَّتِي تَلِيها، حَتَّى يَنتَهي إِلَى السَّماءِ السَّابعَةِ فيَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: اكْتبُوا كِتابَ عَبْدِي فِي عِلِّيينَ، وأَعِيدُوا عَبْدِي إِلَى الأَرْضِ، فإنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وفيهَا أُعيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تارَةً أُخْرى؛ فتُعادُ رُوحُهُ فيَأْتِيهِ مَلَكانِ فيُجْلِسانِهِ، فيَقولانِ لهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فيَقولُ: رَبِّي اللهُ، فيَقولانِ لهُ: مَا دِينُكَ؟ فيَقولُ: دِينِي الإِسْلامُ، فيَقولانِ لَهُ: ما هذا الرجلِ الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هوَ رسولُ اللهِ، فيَقولانِ لهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فيَقولُ: قَرأْتُ كِتابَ اللهِ فآمَنْتُ بهِ، وصَدَّقْتُ فيُنادِي مُنادٍ مِنَ السَّماءِ: أنْ صَدَقَ عَبْدِي فأفْرِشوهُ منَ الجَنّةِ، وألْبِسُوهُ مِنَ الجَنّةِ، وافْتَحُوا لهُ بَابا إِلَى الجَنّةِ، فيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِها وطيبِها ويُفْسَحُ لهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصرِهِ، ويأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ حَسَنُ الثِّيابِ طَيِّبُ الرِّيحِ، فيَقولُ: أبْشِرْ بالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فيَقولُ لهُ: مَنْ أنتَ؟ فوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجيءُ بالخَيْرِ، فيَقولُ: أَنا عَمَلُكَ الصالِحُ، فيَقولُ: رَبِّ أقِمِ الساعَةَ رَبِّ أقِمِ الساعَةَ حَتّى أرْجِعَ إِلَى أهْلِي ومالِي.... وإنّ العَبْدَ الكافِرَ إذا كانَ

فِي انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنْيا وإقْبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إليهِ مِنَ السَّماءِ مَلائِكَةٌ سُودُ الوُجُوهِ، معهُمُ المُسُوحُ فيَجْلِسُونَ منه مَدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخَبِيثَةُ! اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وغضبٍ... فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُها كَمَا يُنْتَزَعُ السُّفُودُ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ، فيأْخُذُها، فَإِذا أخَذَها لم يَدَعُوها فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَجْعلوها فِي تِلْكَ المُسُوحِ، ويَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ ريحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ على وَجْهِ الأَرْضِ، فيَصْعَدُونَ بهَا فَلَا يَمُرُّونَ بهَا على مَلإٍ مِنَ المَلائِكَةِ إلاّ قالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الخَبِيثُ؟! فيَقولون: فُلانُ بْنُ فلانٍ بأَقْبَحِ أَسْمائِهِ الَّتِي كانَ يُسَمَّى بها فى الدُّنْيا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لهُ ثمَّ قَرأَ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَآءِ﴾ فيَقُولُ الله عَزَّوَجَلَّ: اكتبُوا كِتابَهُ فِي سِجّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا فَتُعادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ؛ ويأْتِيهِ مَلَكان فَيُجْلِسانِهِ فيقُولانِ لهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فيقُولُ: هاهْ هاهْ لَا أدْرِي فيقُولانِ لهُ: مَا دِينُكَ؟ فيقُولُ: هاهْ هاهْ لا أدْرِي فيقُولانِ لهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فيقُولُ: هاهْ هاهْ لا أدْرِي فيُنَادِي مُنادٍ مِنَ السَّماءِ: أنْ كَذَبَ عَبْدِي فأفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ وافْتَحُوا لهُ بَابا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّها وسَمُومِها ويَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أضلاعُه، ويأْتِيهِ رَجُلٌ قَبيحُ الوجْهِ قَبِيحُ الثيابِ مُنْتنُ الرِّيحِ فيقول: أبشر بالذى يسوؤك هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقولُ: مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بالشَّرِّ؟ فيَقولُ: أَنا عَمَلُكَ الخَبِيثُ فيَقولُ: رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعَةَ»[1].

۞ إن أسعد اللحظات وأعزها على المؤمن إذا دنت ساعة الرحيل، تلك الساعة التى لا كرب بعدها على المؤمن أبدًا... ففى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ أنه لما طفقت سكرات الموت عليه، قالت فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «واكرب أبتاه، فقال ﷺ: **لَا كَرْبَ عَلَى أَبِيكِ بَعْدَ الْيَوْمِ**»[2] فقد لقى الحبيب حبيبه، ولقى

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن خزيمة، والحاكم، والبيهقى، والضياء، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٧٦).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٤٦٢) كتاب المغازى.

المؤمن مَن كان يتمنى لقاءه... فكم اشتاق إلى لقاء الرحمن جلَّ وعلا! وكم اشتاق إلى دار الجنان! فى تلك الساعة حيث تتنزل ملائكة الرحمن على ذلك العبد الصالح، تبشره بما عند الله من المثوبة، فيحب لقاء الله، فيحب الله لقاءه... ففى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ، أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ**»[1]، إن العبد إذا دنت ساعته، وحانت قيامته، وبدت سكراته وزفراته، عندها إما محسن سعيد بربه، وإما مسىءٌ شقى بعمله.

دخل أبو حازم رَحِمَهُ اللهُ على سليمان بن عبد الملك، فقال له سليمان: يا أبا حازم! كيف القدوم على الله؟ فقال رَحِمَهُ اللهُ: أما المحسن فكالمسافر يَقدُم على أهله، وأما المسىء فكالعبد الآبق يَقدُم على سيده.

إن المؤمن إذا بدت له معالم الآخرة، تنزلت عليه الملائكة فبشّرته بما عند الله من العفو والرضوان؛ فثبتت له الجِنان وأورثت فى القلب حُبًّا وأورثت فى القلب لهفةً وشوقًا إلى لقاء رب العالمين، واشتاق القلب إلى الجنان وإلى لقاء الصدِّيقين والشهداء والصالحين... فلقد بشرته الملائكة بلقاء الله، فأحب لقاء الله... وقد بيَّن الله تبارك وتعالى تلك اللحظات وقَصَّ بيانها فى التنزيل، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[2].

إذا حضر الموت للمؤمن وجد الحزن والألم على فراق أبنائه... نظر إلى أبنائه فخاف عليهم العالة والفقر من بعده، وخاف ألا يجدوا اليد الأمينة التى ترعاهم بعده، وخاف أن يجدوا من ضنك الدنيا وشدتها، فعند ذلك يحزن قلبه

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٨٤) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٢) سورة فصلت: الآيات: (٣٠-٣٢).

ثم يلتفت ويُقلب عينه، ليرى ما أمامه فى الآخرة فيخاف أهوالها وشدة نكالها، فعند ذلك يُبشَّر بالأمرين: ألا تخافوا مما أنتم قادمون عليه، وألا تحزنوا على فراق الأبناء والذريات، فإن الله تبارك وتعالى تكفل للمطيع أن يرعى ذريته، حتى من بعد فراقه للدنيا... ولذلك انظروا إلى موسى عليه السلام، يبعثه الله تبارك وتعالى مع عبدٍ من عباد الله الصالحين، وهو نبى الله الخضر عليه السلام لكى يرفع جدارًا، فيقول الخضر لموسى عليهما السلام قاصًّا خبره: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾[1].

قال بعض المفسرين: إنه الجد السابع لهما... فالله يحفظ العبد المؤمن فى كل ما تركه فى دُنياه... وفى كل ما يُقبل عليه فى آخرته.

۞ وتعالوا بنا لنبدأ فى شرح هذا الحديث.

ففى بداية الحديث يقول البراء بن عازب رضي الله عنه:

(خرجنا مع النبى ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار) أى إلى البقيع (فانتهينا إلى القبر) أى وصلنا إليه (ولما يلحد) أى وصلنا إلى القبر حال كون الميت لم يُحفَر اللحد له بعد (فجلس رسول الله ﷺ) فى انتظار أن يُحفر اللحد (وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير) وهذا كناية عن غاية السكون أى لا يتحرك منا أحد ولا يتكلم توقيرًا لمجلسه ﷺ... والمعنى جلسنا ساكنين مُتأدبين فى حضرته ﷺ متواضعين بحيث يكاد يقعد الطير على رؤوسنا... والطير لا يكاد يقعد إلا على شيء لا يتحرك ... وكانوا رضي الله عنهم يراعون أوقاته ﷺ فأحيانًا يتكلمون عنده ويضحكون وأحيانًا يتأدبون ولا يتحركون.

(وفى يده عود ينكت به فى الأرض) أى يؤثر بطرف العود الأرض كالمتفكر المهموم.

---

(١) سورة الكهف: الآية: (٨٢).

والصحابة فى غاية الصمت والسكون.

فليس من السُّنة الصياح عند القبور أو الهتافات والدعوات الجماعية، وإنما إن وَعَظ واعظ فليستمع له الناس، وإن لم يكن فليدعُ كل إنسانٍ فى سِرِّه للميت.

قال: (وفى يده عود ينكت به فى الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثًا، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاعٍ من الدنيا وإقبالٍ إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس).

۞ فيُخبر النبى ﷺ هنا أن العبد المؤمن الذى عاش حياته كلها على الإيمان والتوحيد والطاعة والاتباع إذا كان فى انقطاع من الدنيا. أى: إدبار منها فهو فى آخر لحظات حياته يُفارق الدنيا ويودعها بلا رجعة؛ لأنه فى إقبالٍ من الآخرة واتصالٍ بها وانتقال إلى أول منازلها كما قال النبى ﷺ: «**الْقَبْرُ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ**»[1].

فما الذى يحدث للمؤمن فى تلك اللحظة؟.. «**نَزَلَ إليهِ مِنَ السَّماءِ ملائِكَةٌ**» وهم الملائكة الذين يسبقون ملك الموت ليجهزوا له الروح حتى يأتى وينتزعها من ذلك الجسد.. لكن ما هى مواصفات هؤلاء الملائكة؟

«**بِيضُ الوُجُوهِ كأنَّ وجُوهَهُمُ الشَّمْسُ**» فكما كان إيمانه وتوحيده لله ساطعًا واضحًا كالشمس لا غُبار عليه فكذلك تأتيه ملائكة كأن وجوههم الشمس ليستبشر بمنظرهم الجميل بكل ما هو آتٍ.

«**مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أكفانِ الجَنّةِ**» ولك أن تتصور وتتخيل معى كيف يكون شعور المؤمن وكيف تكون سعادته وهو يرى الملائكة يحملون له كفنًا من الجنة مع أنه سيلبس الآن كفنًا من أكفان الدنيا لكن هذا كفنٌ لجسده أما الكفن

(١) حسن: رواه الترمذى، وابن ماجه، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٨٤).

الذى مع الملائكة فهو لروحه... فسوف تُكفن الملائكة روحه بكفنٍ من الجنة قبل أن يلبس ذلك الكفن الدنيوى على جسده.. ومن المعلوم أن كل ثياب أهل الجنة بما فيها أكفانهم تخرج من شجرة طوبى فى الجنة.. كما قال ﷺ: «**طُوبَى شَجَرَةٌ فِى الجَنَّةِ مَسِيرَةَ مائَةَ عامٍ .. ثِيَابُ أَهْلِ الجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا**»(١).

بل ومع الملائكة أيضًا «**حَنوطٌ مِنْ حَنوطِ الجَنَّةِ**» أى: عطر من الجنة... فالبشر يضعون فى الجنازة حنوطًا فى الأرض، ويُعدون الكفن، والملائكة معها كفنٌ للروح، والناس تجعل طِيبًا مع الكفن فى البدن، والملائكة معها أيضًا حنوط، ولكن من حنوط الجنة للروح المؤمنة.

۞ «**حَتّى يَجْلِسُوا منهُ مَدَّ البصر**» كأنه ينظر إلى البحر فلا يدرك آخره... هكذا يجلسون منه إلى غاية ما ينتهى بصره ... وهذا غاية الإكرام من الله عَزَّوَجَلَّ لهذا العبد أن يرسل له كل هؤلاء الملائكة ليستبشر بهم وليثبتوه وليفرح بما أمامه.

ولعلَّ مَن حوله يبكون وهو فَرِحٌ... ولعلَّ زوجته عنده تبكى وهو مستبشر، ولعلَّ أمه تبكى وهو يَطرب فرحًا بلقاء الله جلَّ وعلا... ورؤية الملائكة البيض بشارة فى الدنيا قبل دخول القبر «**ثم يجىء ملك الموت** عَلَيْهِ السَّلَامُ **حتى يجلس عندَ رَأْسِهِ**» ونحن لا نراه ولا نشعر به.. لكن المؤمن الذى ستُقبض روحه الآن هو الذى يراه وحده فى أجمل وأبهى صورة جعلت روحه تفيض بكل سهولة شوقًا للقاء الله عَزَّوَجَلَّ... قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾(٢).

۞ وهنا يبدأ النداء الذى يتحدد عليه مصير هذا العبد وسعادته أو غير

---

(١) حسن: رواه أحمد، وابن حبان، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٩١٨).

(٢) سورة الواقعة: الآيات: (٨٣-٨٥).

ذلك.. فيقول ملك الموت: (أيتُّها النَّفْسُ الطيِّبةُ المُطمَئِنَّة) اطمأنت بأى شيء؟

اطمأنـت بـالقرآن ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[1] اطمأنـت بـبر الوالدين، اطمأنت بصلاة الفجر، وبالسجود والركوع، اطمأنت بذكر الله جلَّ وعلا: «يَا أيتُّها النَّفْسُ الطيِّبةُ المُطمَئِنَّة اخْرُجِى إِلَى مَغْفِرةٍ مِنَ اللهِ ورِضْوانٍ» الله أكبر! يُبشَّر بالمغفرة، يُبشَّر بالرضوان.... إنه النجاح الحقيقى الذى يجب على الإنسان أن يعمل له؛ إذ ليس يُعقَل أن الإنسان يعمل لمستقبل ثلاثين أو أربعين أو خمسين سنة، ثم لا يعمل لمستقبل مئاتٍ أو آلاف السنين، والله أعلم كم سيبقى الإنسان فى قبره وما بعد ذلك من المستقبل؛ لأن يوم القيامة خمسين ألف سنة... إذًا: فأين العمل للمستقبل؟ وبعد هذا الجنة أبدًا أو النار أبدًا.

فإذا نادى ملك الموت على روح المؤمن بهذا النداء ماذا يحدث؟

«فَتَخْرُجُ فتَسِيلُ كَمَا تسِيلُ القَطْرَةُ مِنْ فِيِّ السِّقاءِ».

انظر إلى هذه النقطة وهى تقع من الكأس بكل سهولة... فكذا روح المؤمن تسيل «كَمَا تسِيلُ القَطْرَةُ مِنْ فِيِّ السِّقاءِ»، يعنى: تخرج كانسياب قطرة ماءٍ من فم قِربةٍ أو إناءٍ.

فإذا خرجت الروح أخذها ملك الموت.. فإذا أخذها أسرعت الملائكة لتأخذها من ملك الموت لتضعها فى ذلك الكفن الذى نُسج فى الجنة ولتضع عليها حنوطًا أى عطرًا من الجنة .

قال ﷺ: «فَيَأخذهَا: فَإذا أخَذَها لم يَدَعُوها فِى يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ»، يعنى: الملائكة الأعوان مستعدين للعمل بسرعة... ومشتاقين لتلك الروح الطيبة.

إذًا... كل روح تقع فى يد ملك الموت فيأخذها أعوانه.

ولم يثبت فى حديث صحيح أن اسم ملك الموت عزرائيل، إنما هى آثار غير

---

(١) سورة الواقعة: الآيات: (٨٣-٨٥).

صحيحة.

فيأخذها ملك الموت: «**فَإِذا أَخَذَها لم يَدَعُوها فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يأْخُذُوها، فَيَجْعَلُوها فِي ذَلِك الكَفَنِ وَفِي ذَلِك الحَنوطِ**» الله أكبر! وُضع في كفن الجنة، وفي حنوطٍ من الجنة، فيصلي عليه ملائكة الأرض والسماء.

فإذا وضعوا الروح في الكفن ووضعوا عليها عطر الجنة (الحنوط) فإنه «**يَخْرُجُ مِنْهَا**» أي من الروح «**كأطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ على وَجْهِ الأَرْضِ**» تخرج رائحة طيبة ساعة خروج الروح؛ لأنها كانت روحًا طيبة، وكانت في جسدٍ طيب يعبد الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ قال: «**فيَصْعَدُونَ بهَا**» أي بالروح «**فَلَا يَمُرونَ على مَلإٍ مِنَ المَلائِكَةِ**» أي الذين بين السماء والأرض «**إِلَّا قَالُوا**» أي الملأ من الملائكة «**مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟**» فالرائحة الطيبة تدل على طيب صاحبها الذي طيَّب حياته كلها بذكر الله وشُكره وعبادته. «**فيَقولونَ: فلانُ بْنُ فلانٍ بأَحْسَنِ أسْمائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بهَا فِي الدُّنْيا**»، وذلك أنه كان له ألقاب في الدنيا بعضها حسن، مثل: عابد صائم مجاهد عالم كريم... أي أن الأسماء الطيبة التي كان يُسمَّى بها في الدنيا هي أسماء الأعمال الصالحة التي كان يفعلها، قال: «**حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى سَماءِ الدُّنْيا فَيَسْتَفْتِحُونَ لهُ فيُفْتَحُ لهُ**».

إذًا: هناك أبواب للسماء الدنيا، كما قال عَزَّوَجَلَّ في حق الكفار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾[1]، ونحن قد لا نرى هذه الأبواب؛ لأن أمامنا كل هذه الملايين من السنين الضوئية أو مليارات السنين الضوئية.

۞ فالشَّاهد أنه تُفتح له أبواب السماء الدنيا إكرامًا لهذا العبد المؤمن...

(١) سورة الأعراف: الآية: (٤٠).

«**فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كلِّ سَماءٍ مُقَرَّبُوها إِلَى السَّماءِ الَّتِي تَلِيها**» جنازة تمر فى السماء، فهل تعرف مَن يمر بالجنازة ومَن يُشيعها؟ إنهم أفضل ملائكة فى السماء، وأقرب الملائكة إلى الله، يمشون خلف هذه الجنازة، من سماءٍ إلى سماء، ثم تستقبله ملائكة أخرى... أفضل الملائكة فى كل سماء تستقبل هذه الروح لتصعد بها إلى السماء التى تليها.

«**حَتَّى يَنتَهى إِلَى السَّماءِ السَّابِعَةِ**» فيا له من تكريم لا يخطر على قلب البشرية كلها.. احتفال سماوى ملائكى بروح عبدٍ مؤمن.. ليس فى سماءٍ واحدة بل فى السماوات السبع.. وليس من مَلَكٍ من الملائكة بل من ملائكة السماوات السبع.

«**فيقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: اكْتبُوا**» أى اثبتوا «**كِتابَ عَبْدِى**» فالإضافة هنا للتشريف.. فأعظم نعمة فى الوجود أن تكون عبدًا لله وحده عَزَّوَجَلَّ.. «**اكْتبُوا كِتابَ عَبْدِى فِي عِلِّيينَ**» عليين مأخوذة من العلو.. أى: اكتبوا كتاب عبدى فى مكانٍ عالٍ فى أعلى درجات الجنة فيه كتاب الأبرار والمُقربين ... فكتاب المؤمنين وأرواحهم فى عِلِّيين وأرواح الكفار وكتبهم فى سِجِّين فى الأرض السُّفلى.

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ وزجر أى ليس الأمر كما يزعمون من مساواة الفجار بالأبرار، بل كتابهم فى سِجِّين، وكتاب الأبرار فى عِلِّيين، وهو مكان عالٍ مشرَّف فى أعلى الجنة... قال فى التسهيل: ولفظ ﴿عِلِّيِّينَ﴾ للمبالغة، وهو مشتق من العلوِّ لأنه سبب فى ارتفاع الدرجات فى الجنة، أو لأنه فى مكانٍ عليٍّ رفيع ... فقد روى أنه تحت العرش[1] ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ تفخيمٌ وتعظيم لشأنه أى: وما أعلمك يا محمد ما هو عليون؟ ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ۝٩ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أى كتابُ الأبرار كتابٌ مُسطَّر، مكتوب فيه أعمالهم،

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٨٥).

وهو فى عِليين فى أعلى درجات الجنة، يشهده المقربون من الملائكة.

قال المفسرون: إن روح المؤمن إذا قُبضت صُعد بها إلى السماء، وفُتحت لها أبواب السماء، وتلقتها الملائكةُ بالبُشرى، ثم يخرجون معها حتى ينتهوا إلى العرش، فيخرج لهم رقٌّ فيُكتب فيه ويُختم عليه بالنجاة من الحساب والعذاب ويشهده المقربون[1].

۞ ثم يأمر الله ملائكته ويقول: «**أَعِيدُوا عَبْدِى إِلَى الأَرْضِ**» أى: أعيدوا روحه إلى جسده الذى دُفن فى الأرض.

«**فإنِّى مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وفيهَا أعيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تارَةً أُخْرى ؛ فتُعادُ رُوحُهُ**»، هذا دليل على أن الروح سوف يَحصُل لها اتصال بالبدن الذى يُوضع فى القبر، وأن هذه المرحلة هى التى ما بين خروج الروح وبين وضعه فى قبره، حيث يُشيع الناسُ البدنَ إلى القبر، والروح شُيِّعت وصَعدت إلى السماء، ثم أمر الله أن تُعاد الروح مرة أخرى إلى الأرض.

«**فتُعادُ رُوحُهُ فيَأْتِيهِ مَلَكانِ**» أى: المنكر والنكير فى أبهى وأجمل وأحسن صورة حتى يستبشر مرة أخرى برؤيتهما «**فيُجْلِسانِهِ**» بعد أن كان فى وضع النوم «**فيَقولانِ لهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فيَقولُ: رَبِّى اللهُ فيَقولان لهُ: مَا دِينُكَ؟ فيَقولُ: دِينِى الإِسْلامُ فيَقولان لَهُ: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هوَ رسولُ اللهِ ﷺ فيَقولانِ لهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟**» أى: من أين عرفت وكيف علمت ذلك وما حُجتك؟

«**فيَقولُ: قَرأْتُ كِتابَ اللهِ**» أى: القرآن الذى أكثر من ذكر رسول الله ﷺ ووجوب محبته واتباعه «**فآمَنْتُ بِهِ**» أى: بالكتاب أو بالرسول أو بالاثنين «**وصَدَّقْتُ**» أى تصديقًا قلبيًّا وما اكتفيت بالإيمان اللسانى «**فيُنادِى مُنادٍ مِنَ السَّماءِ: أنْ صَدَقَ عَبْدِى فأفْرِشوهُ منَ الجَنّةِ**» أى: افرشوا القبر من فرش الجنة..

---

(١) ذكره القرطبى عن كعب (١٩/ ٢٦٠).

ومن المعلوم أن من المؤمنين مَن يكون قبره مَدَّ البصر، ومنهم مَن يكون قبره سبعين ذراعًا فى سبعين ذراعًا.. فكل ذلك يُفرَش من الجنة «**وألْبِسُوهُ مِنَ الجَنّةِ**» أى: اكسوه من ثياب الجنة «**وافْتَحُوا لهُ**» أى لأجله «**بَابًا**» أى من القبر «**إِلَى الجَنّةِ فيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِها وطِيبِها**» أى: من نسيمها العليل أو الراحة والسرور وعطرها الجميل «**ويُفْسَحُ لهُ فِى قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ**» أى: يُفسح له ويُوسَع له قبره منتهى بصره لو كان واقفًا فى مكانٍ فسيح وليس أمامه بُنيان «**ويأْتِيهِ**» أى يأتى للمؤمن «**رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ**» على أحسن ما يكون وأجمل ما يكون من صورة فيقول ذلك الميت الصالح: «**مَنْ أنتَ؟ فوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِىءُ بالخَيْرِ فيَقولُ: أَنا عَمَلُكَ الصالِحُ**» أنا قيام الليل، وصيام النهار... ولذلك المؤمن الصالح إذا قام فى ركعة نافلة واستثقلها وأحسَّ بطولها وجاءته السآمة والملالة فى طاعة الله فليتذكر يوم تكون هذه الطاعة أُنسًا له فى القبر... ليتذكر يوم تكون له هذه الركعة والسجدة نورًا له فى القبر... وليتذكر يوم تكون هذه الركعة والسجدة نورًا له على الصراط.

۞ فمن شدة الفرحة يقول: «**رَبِّ أقِمِ الساعَةَ... رَبِّ أقِمِ الساعَةَ حَتّى أرْجِعَ إِلَى أهْلِى ومالِى**».. أى: ما دام كل هذا النعيم وأنا ما زلت فى قبرى فكيف يكون النعيم فى الجنة التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.. فيا رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى من الحور العين والخدم «**وَمَالِى**» من القصور والبساتين وغيرهما... وقيل المراد بالأهل أقاربه من المؤمنين.... وبمالى ما يشتمل الحور والقصور... وقيل: إنه طلب إقامة القيامة لكى يصل إلى ما أُعد له من الثواب والدرجات، ويؤيده ما ذُكر فى الكافر حكاية عنه: رب لا تُقم الساعة لكى يهرب به عما يُعَدّ له من العقاب.

وقال الطيبى: لعلَّه عبارة عن طلب إحيائه لكى يرجع إلى الدنيا ويزيد فى العمل الصالح والإنفاق فى سبيل الله حتى يزيد ثوابًا ويُرفع فى درجاته... لكنه

لمَّا عَلِم أن ليس الإحياء بعد الموت إلا بالبعث يوم القيامة طلب قيام الساعة كناية عن الإحياء... وقيل: يحتمل أن يكون قول المؤمن فى القبر: حتى أرجع إلى أهلى ومالى لفرط سروره وفرحته ويكون تَمنِّيه الرجوع إلى أهله ليخبرهم بذلك... كما يقول ويتمنى المسافر الذى حصل له التنعُّم فى بلد الغربة أن يرجع إلى أهله ليخبرهمْ بذلك.

۞ وفى المقابل قال النبى ﷺ: «**وإنّ العَبْدَ الكافِرَ**» الذى عاش على الكفر وأصر على ذلك حتى مات كافرًا «**إذا كانَ فِى انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنْيا**» أى: إدبارٍ منها فهو فى آخر لحظات حياته يُفارق الدنيا ويودعها دون أن يغرس لنفسه خيرًا ينفعه يوم القيامة.. بل غرس شرًّا بكفره وجحوده.

«**وإقْبالٍ مِنَ الآخِرَةِ**» أى: انتقالٍ إلى الدار الآخرة والتى يكون القبر أول منازلها.

«**نَزَلَ إليهِ مِنَ السَّماءِ مَلائِكَةٌ سُودُ الوُجُوهِ**» وهذا موافقٌ لسواد قلبه الذى امتلأ كفرًا بالله عَزَّوَجَلَّ... ونزول الملائكة بتلك الهيئة وذلك المنظر حتى يعلم الكافر ما ينتظره بعد موته من العذاب والنكال.

«**معهُمُ المُسُوحُ**» أتعرف ما هى المسوح؟ لباس من شعرٍ خشن، يأتون به من وسط جهنم؛ لأنه لباس أهل النار... وقد تتعجب أحيانًا لأنك ترى بعض الناس على فراش الموت يصيح، ويسود وجهه ويزرق ويخاف، ويصيح صياحًا وليس به شىء، فما الخبر؟ إنه يرى أمرًا لا تراه أنت.

«**فيَجْلِسُونَ منه مَدَّ البصر**» فأعدادهم كثيرة فوق ما يخطر على قلب بشر حتى أنه لو كان فى مكانٍ فسيح فلن يستطيع أن يدرك آخرهم... ورؤيته لأى واحدٍ منهم تكفيه ليعرف مصيره الذى ينتظره فما ظنك بكل تلك الأعداد التى تجلس أمامه... ويبدأون فى تجهيز الروح لملك الموت «**ثم يجىء ملك الموت حتى**

يجلس عند رأسه» ولكنه يأتى للكافر فى صورة مُفزعة حتى ينخلع قلبه لرؤية ملك الموت.. ويبدأ ملك الموت فى معالجة روحه ليُخرجها من جسده... ويُنادى عليه ذلك النداء الذى تنخلع القلوب من هوله فيقول له: «**أيتها النفس الخَبِيثَةُ! اخْرُجِى إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وغضبٍ**» فصاحب تلك النفس الخبيثة لم يترك شيئًا يُسخط الله ويُغضبه إلا فعله.. فكان الجزاء من جنس العمل وذلك بأن يكون فى انتظاره سخط الله وغضبه.

«**فتفرق فِى جَسَدِهِ**» أى: تنتشر فى أعماق البدن وفى العروق فزعًا وكراهة للخروج إلى ذلك العذاب الذى ينتظرها.... وفى المقابل فإن روح المؤمن تخرج وتسيل، كما تسيل القطرة من فِيِّ السِّقاء فرحًا إلى ما تقرّ به عينه من الكرامة (فينتزعها) أى ملك الموت يستخرج روح الكافر بعنفٍ وشدة ومعالجة كما يُنتزع (السفود) كتنور الحديدة التى يُشوى عليها اللحم... وفى رواية لأحمد: السفود الكثير الشُّعَب.

۞ فتخيل معى قطعة من الحديد المشرشر وهى تُنتزع من قطعة صوفٍ مبلولة فلا تخرج إلا وقد قطَّعت الصوف وهتكت كل خيوطه.. فكذلك روح الكافر لا تخرج إلا بعد أن تتقطع عروقه وشرايينه.

«**فيأْخُذُها**» أى ملك الموت يأخذ روحه بعد خروجها.

«**فَإِذا أَخَذَها لم يَدَعُوها فِى يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ**» أى أن الملائكة الذين يعاونون ملك الموت يُبادرون لتنفيذ الأمر فيما يُفعل بذلك الكافر وحتى «**يَجْعلوها فِى تِلْكَ المُسُوحِ**» أى: ذلك اللباس الذى أحضروه من نار جهنم.

«**ويَخْرُجُ مِنْهَا**» أى من روح الكافر «**كأَنْتَنِ ريحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ على وَجْهِ الأَرْضِ**» ففى الوقت الذى يخرج فيه من روح المؤمن كأطيب نفحة مسكٍ وُجدت على وجه الأرض فإنه يخرج من روح الكافر تلك الرائحة التى تشمئز

منها ملائكة السماوات والأرض.. فهى رائحة أشد من أنتن ريح جيفة وُجدت على وجه الأرض.

«**فيَصْعَدُونَ بهَا**» افتضاحًا لها وإظهارًا لرداءتها «**فَلا يَمُرُّونَ بهَا على مَلإٍ مِنَ المَلائِكَةِ إلاّ قالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الخَبِيث؟!**» فالرائحة الخبيثة تدل على صاحبها الذى كان قلبه كافرًا خبيثًا.. والجزاء من جنس العمل.

«**فيَقولون: فُلانُ بْنُ فلانٍ بأقْبَحِ أسْمائِهِ الَّتِى كانَ يُسَمَّى بها فى الدُّنْيا**» وذلك لأنه كان له ألقاب فى الدنيا بعضها أسوأ من بعض مثل: الكافر.. العاق.. شارب الخمر.. البخيل... أى أن الأسماء التى كان يُسمَّى بها فى الدنيا هى أسماء الأعمال الخبيثة التى كان يعملها.

«**فيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلا يُفْتَحُ لهُ**» أى يُطلب من ملائكة السماء الدنيا أن يفتحوا الأبواب لروح هذا الكافر فلا يُفتح له حتى يُحرم من أن يُشيعه ملائكة السماوات السبع لأنه لا يستحق ذلك.

ثم قرأ النبى ﷺ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

يخبر تعالى عن عقاب مَن كذَّب بآياته فلم يؤمن بها، مع أنها آيات بينات، واستكبر عنها فلم يَنْقَدْ لأحكامها، بل كذَّب وتولى، أنهم آيسون من كل خير، فلا تُفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا وصعدت تريد العروج إلى الله، فتستأذن فلا يُؤذن لها، كما لم تصعد فى الدنيا إلى الإيمان بالله ومعرفته ومحبته كذلك لا تصعد بعد الموت، فإن الجزاء من جنس العمل.

ومفهوم الآية أن أرواح المؤمنين المنقادين لأمر الله المصدقين بآياته، تُفتح

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان: (٤٠-٤١).

لها أبواب السماء حتى تعرج إلى الله، وتصل إلى حيث أراد الله من العالم العلوى، وتبتهج بالقرب من ربها والحظوة برضوانه.

وقوله عن أهل النار ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ﴾ وهو البعير المعروف ﴿فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ أى: حتى يدخل البعير الذى هو من أكبر الحيوانات جسمًا، فى خرق الإبرة، الذى هو من أضيق الأشياء، وهذا من باب تعليق الشىء بالمحال، أى: فكما أنه مُحالٌ دخول الجمل فى سَمِّ الخِياط، فكذلك المكذبون بآيات الله مُحالٌ دخولهم الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[1] وقال هنا ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أى: الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أى: فراش من تحتهم ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أى: ظُلل من العذاب، تغشاهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم، جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلَّامٍ للعبيد[2].

۞ «**فَيَقُولُ الله عَزَّوَجَلَّ: اكتبُوا كِتابَهُ فِى سِجّينٍ فِى الأَرْضِ السُّفْلى**» قيل: هو كتاب جامع لأعمال الشياطين والكفرة، وقيل: هو مكان فى أسفل الأرض السابعة، وهو محل إبليس وجنوده.

«**فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا**» أى تُلقَى وتُرمى رميًا شديدًا من السماء الدنيا إلى الأرض وذلك بعد أن ترفض الملائكة أن يفتحوا له أبواب السماء ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ أى سقط ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى الأرض ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أى تسلب لحمه وتُقطعه بمخالبها وتذهب به ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أى تقذفه وترمى به. ﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أى بعيد لا يصل إليه أحدٌ بحالٍ... فكأنه قال: مَن أشرك

---

(١) سورة المائدة: الآية: (٧٢).

(٢) تفسير السعدى (١/ ٢٨٨).

بالله فقد أهلك نفسه إهلاكًا ليس بعده هلاك بأن صَوَّر حالة مَن خَرَّ من السماء فاختطفته الطير متفرقًا مُوزَّعًا فى حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض الأماكن البعيدة.

۞ «**فَتُعادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ**» بعد أن سقطت من السماء وارتطمت بالجسد فتُحدث له ألمًا لا يخطر على قلب بشر... فيحدث اتصال بين الروح والجسد فى القبر.

«**ويأْتِيهِ مَلَكان**» أى: المنكر والنكير فى صورة مُفزعة وهو وحده فى القبر ليس معه أنيسٌ ولا جليس.

«**فَيُجْلِسانِهِ فيقُولانِ لهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فيقُولُ: هاهْ هاهْ لا أدْرِى**» كلمة يقولها المبهوت المتحير فى الجواب من الدهشة والخوف.

وكيف يدرى مَن هو ربه إذا كان هو لم يعرفه ولم يعبده فى الدنيا..

أما المؤمن الذى عاش حياته كلها لله عندما يُسأل فى قبره: «**مَن رَبُّك؟**» فإنه يقول بلا تَرَدُّد: ربى الله.

«**فيقُولانِ لهُ: مَا دِينُكَ؟**» فيرد بنفس الجواب «**ويقُولُ: هاهْ هاهْ لا أدْرِى**» فهو لم يعرف دينه فى الحياة الدنيا فكيف يعرفه الآن.. إنه كان مشغولًا بحُطام الدنيا الزائل وشهواتها الفانية وكان مقيمًا على الكفر حتى آخر لحظة فى حياته.

«**فيقُولانِ لهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِى بُعِثَ فِيكُمْ؟ فيقُولُ: هاهْ هاهْ لا أدْرِى**» فلقد كان يعرف كل شىءٍ عن الفنانين والفنانات واللاعبين والراقصين ولم يتبع يومًا سيد المرسلين ﷺ.

«**فيُنَادِى مُنادٍ مِنَ السَّماءِ: أنْ كَذَبَ عَبْدِى**»... كذب هذا الكافر فيما قاله.. بل عرف الله وأشرك به وتَبيَّن الدِّين وما تَديَّن به وظهرت رسالة النبى بالمعجزات عنده وما أطاعه «**فأفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ**» زاد فى رواية أبى داود والحاكم: وألبسوه من

النار.

فالفراش الذى تحته من النار، والملابس من النار، والأغطية أيضًا من النار.. عياذًا بالله.

«**وافْتَحُوا لهُ بَابا إِلَى النَّارِ**» أى: افتحوا لأجله بابًا من القبر إلى النار «**فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّها وسَمُومِها**» أى يأتيه من لفح جهنم وعذابها الحار الشديد.

«**ويَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أضلاعُه**» أى: تضيق عليه جدران القبر حتى تتكسر أضلاعه وتتداخل فى بعضها البعض... وذلك فى الوقت الذى يُفسح فيه للمؤمن فى قبره كمدِّ البصر أو سبعين ذراعًا فى سبعين ذراع.

۞ **أخرج ابن أبى الدنيا عن محمد التيمى قال**: «وكان يُقال: إن ضمة القبر، وإنما أصلها أنها أمهم، ومنها خُلقوا فغابوا عنها الغيبة الطويلة، فلما ردَّ الله تعالى أولادها، ضَمَّتهم ضمة الوالدة التى غاب عنها ولدها، ثم قَدِم عليها، فمن كان لله مُطيعًا، ضمَّتهُ برفقٍ، ومن كان عاصيًا، ضمته بعنفٍ، سخطًا منها عليه».

«**ويأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الوجْهِ قَبِيحُ الثيابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ**».. فكما كان فى الدنيا قبيح القلب واللسان والجوارح وأعماله كلها قبيحة فكان الجزاء من جنس العمل «**فيقول: أبشر بالذى يسوؤك**» وهل مثل هذا يُبشَّر به؟!.. كلا ولكنه قالها على سبيل السخرية والاستهزاء كقول الله عَزَّوَجَلَّ عن الكفار ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وهل العذاب يُبشَّر به؟!... فهنا يريد أن يقول له: لن ترى إلا ما يسوؤك جزاءً لك على كفرك وجحودك «**هَذَا يَوْمُكَ الَّذِى كُنْتَ تُوعَدُ**» فكم سمعت عن لحظة دخول القبر ولم تستعد لذلك بل آثرت أن تعيش كافرًا بعد أن بلغتك الرسالة وأُلقيت عليك الحجة.. فها أنت الآن فيم كنت تُوعَد.. أنت الآن فى قبرك لتذوق من العذاب ألوانًا.. هذا غير ما ينتظرك فى نار جهنم.

۞ فيقول الكافر: «**مَنْ أنْتَ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بالشَّرِّ؟**» أى: أن وجهك

الكامل فى القُبح لا يمكن أن يكون من ورائه خير.. بل لن يكون من ورائه إلا كل شر.

«**فيَقولُ: أَنا عَمَلُكَ الخَبِيثُ**» أنا الكفر الذى كنت تعيش عليه.. أنا عقوق الوالدين الذى فعلته.. أنا أكل الحرام الذى عشت عليه.. أنا شهادة الزور التى شهدتها... أنا...... «**فيَقولُ: رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعَةَ**» أى: إذا كان كل هذا العذاب فى القبر الذى هو أول منازل الآخرة فكيف يكون العذاب بعد ذلك فى النار.. وكأنه يُريد أن يستمرَّ مُعذَّبًا فى القبر بدلًا من أن يُعذَّب فى نار جهنم...

فاللهُمَّ ارزقنا نعمة الإيمان والتوحيد وارزقنا جميعًا حُسن الخاتمة واحفظنا من الكفر والنفاق والذنوب والمعاصى يا رب العالمين.

(٢) فتلقى آدم من ربه كلمات

۞ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[1] قَالَ آدم عليه السلام: أَيْ رَبِّ أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ؟ قَالَ: «بَلَى». قَالَ: أَيْ رَبِّ، أَلَمْ تَنْفُخْ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ؟ قَالَ: «بَلَى». قَالَ: أَيْ رَبِّ، أَلَمْ تُسْكِنِّي جَنَّتَكَ؟ قَالَ: «بَلَى». قَالَ: أَيْ رَبِّ أَلَمْ تَسْبِقْ رَحْمَتُكَ غَضَبَكَ؟ قَالَ: «بَلَى». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ تُبْتُ وَأَصلَحتُ أَرَاجِعِي أَنْتَ إِلَى الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «بَلَى». قَالَ: فَهُوَ قَوْلُهُ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾[2].

۞ لما خلق الله آدم عليه السلام وأسكنه الجنة كان يمشى فيها وحيدًا ليس فيها مَن يجالسه أو يكلمه فأحسَّ بالوحدة والوحشة فأكرمه الله عز وجل فخلق له حواء من ضلع من أضلاعه لتكون جزءًا منه لا يستغنى عنها.. وكانت من ضلعه الأيسر لتكون أقرب إلى قلبه وأحب إلى نفسه.

لقد نام آدم عليه السلام نومة ثم استيقظ فوجد امرأة عند رأسه خلقها الله لتسكن إليها نفسه تُسمى حواء... وسُميت بهذا الإسم لأنها خُلقت من حى وهو آدم عليه السلام.

وهنا جاء الأمر من الله (جل وعلا).

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٣٧).

(٢) صحيح: رواه الحاكم، وقال الألبانى فى كتاب التوسل ص١١٥: قال الحاكم: (صحيح الإسناد) ووافقه الذهبى وهو كما قالا، قلت: وقول ابن عباسٍ هذا فى حكم المرفوع من وجهين: الأول: أنه أمرٌ غيبى لَا يُقال من مجرد الرأى... الثانى: أنه ورد فى تفسير الآية، وما كان كذلك فهو فى حكم المرفوع كما تقرر فى محله، ولا سيما إذا كان من قول إمام المفسرين عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذى دعا له رسول الله ﷺ بقوله: «**اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل**».

﴿يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[(١)].

فسعد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن زوجته سترافقه في الجنة.

ومما زاد من سعادته أن الله عَزَّوَجَلَّ أباح لهما أن يأكلا من ثمار الجنة وأن يَنعما بكل نعيم في الجنة ... فقال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[(٢)].

لكن الله عَزَّوَجَلَّ نهى آدم وحواء عن أن يأكلا من شجرة واحدة حدَّدها لهما (سبحانه وتعالى) وحذرهما من الأكل منها أشد التحذير فقال تعالى: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[(٣)].

۞ سكن آدم وزوجه الجنة وصار يتمتع بكل ما فيها من النعيم الذى لا يخطر على قلب بشر... وكانت زوجته حواء تشاركه كل هذا النعيم.

وفى ظل هذا النعيم العظيم الذى كان يتمتع به آدم وزوجه حواء جاء التحذير من الله عَزَّوَجَلَّ لآدم.. فحذره من كيد هذا العدو اللدود الذى جهر بعدائه لآدم.. ألا وهو إبليس.

وعلى الرغم من أن الله عَزَّوَجَلَّ قد حذر آدم وحواء من عداوة إبليس إلا أنه استطاع أن يحتال عليهما ويوقعهما فى المعصية.

قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[(٤)].

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٣٥).

(٢) سورة طه: الآيتان: (١١٨، ١١٩).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٣٥).

(٤) سورة طه: الآيات: (١١٧- ١١٩).

هكذا جاء التحذير ولكن إبليس كان يتربص بآدم وحواء، فبسبب آدم طُرد من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، إذ عصى الله ولم يسجد لآدم كما أمره عَزَّوَجَلَّ... علم إبليس بخُبثه أن العصيان سبب طرده، فأخذ يفكر كيف يُطرد آدم وزوجه من ذلك النعيم المقيم الذى جعلهما الله فيه.

۞ راح إبليس يوسوس إلى آدم على جهة الإغواء والحسد والمكر، فلم يقبل منه آدم ذلك.

كرر إبليس وسوسته يومًا بعد يوم، كما ذكر الله سبحانه فى محكم التنزيل: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾[1].

۞ فكر إبليس فى طريقه أخرى، لعلَّ آدم وزوجه حواء يسمعان إلى نصيحته المزعومة... لجأ إلى طريق الحيلة وأوهمهما أنه صادق الود لهما، وأنه لا يقصد ضررهما[2].

واستطاع إبليس بمكره وخبثه أن يخدع آدم وحواء وأقسم لهما بالله على أنه يريد الخير لهما: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[3] أى: حلف لهما بالله.

۞ ثم قال لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾[4].

وقال أيضًا لهما: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾[5].

---

(١) سورة طه: الآية: (١٢٠).

(٢) نساء الأنبياء (ص: ٢٩- ٣٠) باختصار.

(٣) سورة الأعراف: الآية: (٢١).

(٤) سورة طه: الآية: (١٢٠).

(٥) سورة الأعراف: الآية: (٢٠).

۞ وهنا نسى آدم عليه السلام أن الله عز وجل حذره من الاقتراب من هذه الشجرة.. بل نسى أن إبليس هو عدوه وعدو ذريته إلى يوم القيامة فأكل آدم وحواء من هذه الشجرة ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[١].

۞ ولم يكد آدم ينتهى من الأكل من هذه الشجرة حتى أحسَّ بالحزن والألم والخجل.. وهنا بدت له عورته لأول مرة وكان الله قد سترها عنه فلم يرها قبل ذلك.

وبدأ هو وحواء يقطعان من أوراق الشجر حتى يغطى كل واحدٍ منهما عورته.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾[٢].

۞ أكل آدم عليه السلام ناسيًا، وعُوتب على نسيانه الوصية،... قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[٣].

۞ خرج آدم وزوجه حواء عن أمر ربهما بمشيئة الله سبحانه، وناداهما ربهما مُذكرًا لهما وقائلًا: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٤].

۞ سمعا هذا العتاب والتأنيب من ربهما على المعصية، وعلى إغفال النصيحة، وأمام النداء العلوى، تذكر آدم وحواء الوصية، فأنابا إلى الله عز وجل، وندما على فعلتهما، وطلبا العون من الله والمغفرة، ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٥].

---

(١) سورة طه: الآية: (١٢١).
(٢) سورة الأعراف: الآية: (٢٢).
(٣) سورة طه: الآية: (١١٥).
(٤) سورة الأعراف: الآية: (٢٢).
(٥) سورة الأعراف: الآية: (٢٣).

۞ نهض آدم من عثرته، وأدركته رحمة الله تعالى، وتاب عليه، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1] [2].

لما عصى آدم ربه وأكل هو وحواء من الشجرة المحرمة ثم تاب وندم على ما فعل تاب الله عليه... وهنا جاء الأمر من الله (جل وعلا) بهبوط آدم وحواء من الجنة إلى الأرض التى أعدها الله وهيأها ليعيش فيها آدم وذريته إلى يوم القيامة... فقد كانت فترة وجوده فى الجنة كأنها فترة إعداد وتعليم وتربية وتدريب على طاعة الأمر واجتناب النهى ومقاومة الشهوات.

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[3].

۞ لقد هبطوا جميعًا إلى الأرض.. آدم وزوجه.. وإبليس وقبيله.. هبطوا ليصارع بعضهم بعضًا.. وليعادى بعضهم بعضًا.. وكُتب على آدم وذريته أن يستقروا فى الأرض، ويُمكَّنوا فيها، ويستمتعوا بما فيها إلى حين.

۞ كتب عليهم ربهم أن يحيوا فيها ويموتوا. ثم يخرجوا منها فيُبعثوا، ليعودوا إلى ربهم فيُدخلهم جنته أو ناره، فى نهاية الرحلة الكبرى، رحلة الحياة الدنيا[4].

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٣٧).

(٢) نساء الأنبياء: (ص: ٣٣).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٣٦).

(٤) نساء الأنبياء (ص: ٣٦).

(٣) لقاء إبراهيم عليه السلام أباه يوم القيامة

❁ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِىِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لاَ تَعْصِنِى، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَاليَوْمَ لاَ أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِى أَنْ لاَ تُخْزِيَنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَىُّ خِزْىٍ أَخْزَى مِنْ أَبِى الأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «إِنِّى حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِى النَّارِ»(١).

❁ لقد كانت البداية عندما رأى إبراهيم عليه السلام أباه آزر يعبد الأصنام من دون الله عز وجل.. بل ويصنع الأصنام لقومه ليعبدوها من دون الله عز وجل.. فما كان منه إلا أن دعاه دعوة فى غاية الرحمة والأدب والتواضع... وتعالوا بنا لنتعايش مع مشهد الدعوة الرحيمة من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه.

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِى ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أى اذكر يا محمد فى الكتاب العزيز خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ أى ملازمًا للصدق مبالغًا فيه، جامعًا بين الصّديقية والنبوة ... والغرضُ تنبيه العرب إلى فضل إبراهيم الذى يزعمون الانتساب إليه ثم يعبدون الأوثان مع أنه إمام الحنفاء وقد جاء بالتوحيد الصافى الذى دعاهم إليه خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم.

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِى عَنكَ شَيۡـًٔا﴾(٢).

أى: لِمَ تعبد أصنامًا، ناقصة فى ذاتها، وفى أفعالها، فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تملك لعابدها نفعًا ولا ضرًّا، بل لا تملك لأنفسها شيئًا من النفع، ولا تقدِرُ على

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٣٥٠) كتاب أحاديث الأنبياء.

(٢) صفوة التفاسير (٢/ ٢٠٠).

شىءٍ من الدفع؟! فهذا برهان جليٌّ دالٌّ على أن عبادة الناقص فى ذاته وأفعاله مُستقبَحٌ عقلًا وشرعًا. ودلَّ بتنبيهه وإشارته، أن الذى يجب ويَحسُن عبادة مَن له الكمال، الذى لا ينال العباد نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم نقمة إلا هو، وهو الله تعالى.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ أى: يا أبتِ لا تَحقِرنى وتقول: إنِّى ابنُك، وإن عندك ما ليس عندى، بل قد أعطانى الله من العلم ما لم يُعطك، والمقصود من هذا قوله: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ أى: مستقيمًا معتدلًا وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته فى جميع الأحوال.

وفى هذا من لُطف الخطاب ولينه، ما لا يخفى، فإنَّه لم يَقُل: «يا أبتِ أنا عالم، وأنت جاهل» أو «ليس عندك من العلم شىء» وإنما أتى بصيغة تقتضى أن عندى وعندك علمًا، وأن الذى وصل إلىَّ لم يصل إليك ولم يأتِكَ، فينبغى لك أن تتبع الحجة وتنقاد لها.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ لأن مَن عَبَدَ غير الله، فقد عبد الشيطان، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ فمن اتَّبع خطواته، فقد اتخذه وليًّا وكان عاصيًا لله بمنزلة الشيطان. وفى ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن، إشارة إلى أن المعاصى تمنع العبد من رحمة الله، وتُغلق عليه أبوابها. كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته، ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أى: بسبب إصرارك على الكفر، وتماديك فى الطغيان ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، فتنزل بمنازله الذميمة، وترتع فى مراتعه الوخيمة... فتدرَّج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه، بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك إياى، وأنك إن أطعتنى، اهتديت إلى صراطٍ مستقيم،

ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذَّره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون وليًّا للشيطان.... فلم ينجع هذا الدعاء بذلك الشقى، وأجاب بجواب جاهل وقال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ فتبجح بآلهته التى هى من الحجر والأصنام، ولام إبراهيم عن رغبته عنها، وهذا من الجهل المفرط، والكفر الوخيم، يتمدح بعبادة الأوثان، ويدعو إليها.

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾أى:عن شتم آلهتى، ودعوتى إلى عبادة الله ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أى: قتلًا بالحجارة ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ أى: لا تكلمنى زمانًا طويلًا ... فأجابه الخليل جواب عباد الرحمن عند خطاب الجاهلين، ولم يشتمه، بل صبر، ولم يقابل أباه بما يكره، وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ أى: ستَسلم من خطابى إياك بالشتم والسَّبِّ وبما تكره، ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ أى: لا أزال أدعو الله لك بالهداية والمغفرة، بأن يهديك للإسلام، الذى تَحصُل به المغفرة، فـ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ أى: رحيمًا رءوفًا بحالى، معتنيًا بى... فلم يزل يستغفر الله له رجاء أن يهديه الله، فلما تبين له أنه عدو لله، وأنه لا يفيد فيه شيئًا، ترك الاستغفار له، وتبرأ منه[1].

۞ فإذا كان يوم القيامة لقى إبراهيم عليه السلام أباه وعلى وجهه قترة وغبرة.. أى: سواد وغُبار على وجهه.. ولا أسوأ أبدًا من اجتماع الغبرة والسواد فِى الْوَجْه. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾[2].

فتأخذه الشفقة عليه ويقول له: ألم أقل لك لا تعصنى؟

أى: ألم أبذل لك النصيحة الخالصة الرحيمة بأن تنتهى عن الشرك وأن تعيش على التوحيد والطاعة لتَسعد فى الدنيا والآخرة؟... فإذا بأبيه آزر يقول:

---

(١) تفسير السعدى (ص ٥٧٠-٥٧١).

(٢) سورة عبس: الآيتان: (٤٠-٤١).

فاليوم لا أعصيك!!!

وهل تنفع التوبة بعد مُعاينة أهوال يوم القيامة؟!.. كلا وألف كلا.

فإذا بإبراهيم عليه السلام يتوجَّه إلى ربه عز وجل راجيًا رحمته قائلًا له: «**يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لاَ تُخْزِيَنِي**» أي: لا تفضحني «**يَوْمَ يُبْعَثُونَ**» أي يوم يُبعث الخلائق «**فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟**» فأي خزي وفضيحة من أن يكون أبي هو الأبعد عن رحمتك ومغفرتك.. فالكافر بعيد عن رحمة الله لأن رحمة الله قريبٌ من المحسنين.

«**فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ**» فلا تجوز الشفاعة لكافرٍ أبدًا.. إنما تكون الشفاعة في عُصاة الموحدين.

«**ثُمَّ يُقَالُ يَا إِبْرَاهِيمَ مَا تَحتَ رِجْلَيْكَ؟. فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلتَطِخٍ فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ**»: فِي رِوَايَةِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ طَهْمَانَ: «**فَيُؤْخَذُ مِنْهُ فَيَقُولُ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ أَبُوكَ؟ قَالَ: أَنْتَ أَخَذْتَهُ مِنِّي، قَالَ: انْظُرْ أَسْفَلَ، فَيَنْظُرُ فَإِذَا ذِيخٌ يَتَمَرَّغُ فِي نَتْنِهِ**» -وَفِي رِوَايَةِ أَيُّوبَ: «**فَيَمْسَخُ اللهُ أَبَاهُ ضَبُعًا**» -«**فَيَأْخُذُ بِأَنْفِهِ فَيَقُولُ: يَا عَبْدِي أَبُوكَ هُوَ؟ فَيَقُولُ: لا وَعِزَّتِكَ**».

فَغُيِّرَ صُورَتُهُ لِيَكُونَ تَسْلِيَةً لِإِبْرَاهِيمَ حَتَّى لَا يُخْزِيَهُ لَوْ رَآهُ قَدْ أُلْقِيَ فِي النَّارِ عَلَى صُورَتِهِ، فَيَكُونُ خِزْيًا وَفَضِيحَةً عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ ؛ فَغَيَّرَهُ سُتْرَةً لِحَالِهِ فِي تَقْبِيحِ مَآلِهِ.

وقِيلَ: الْحِكْمَةُ فِي مَسْخِهِ لِتَنْفِرَ نَفْسُ إِبْرَاهِيمَ مِنْهُ وَلِئَلَّا يَبْقَى فِي النَّارِ عَلَى صُورَتِهِ فَيَكُونُ فِيهِ غَضَاضَةٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ.

وَقِيلَ: الْحِكْمَةُ فِي مَسْخِهِ ضَبُعًا أَنَّ الضَّبُعَ مِنْ أَحْمَقِ الْحَيَوَانِ وَآزَرَ كَانَ مِنْ أَحْمَقِ الْبَشَرِ لِأَنَّهُ بَعْدَ أَنْ ظَهَرَ لَهُ مِنْ وَلَدِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ أَصَرَّ عَلَى الْكُفْرِ حَتَّى مَاتَ.

وَاقْتَصَرَ فِي مَسْخِهِ عَلَى هَذَا الْحَيَوَانِ لِأَنَّهُ وَسَطٌ فِي التَّشْوِيهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا دُونَهُ كَالْكَلْبِ وَالْخِنْزِيرِ وَإِلَى مَا فَوْقَهُ كَالْأَسَدِ مَثَلًا .. وَلِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ بَالَغَ فِي الْخُضُوعِ لَهُ وَخفض الْجَنَاح فَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَأَصَرَّ عَلَى الْكُفْرِ فَعُومِلَ بِصِفَةِ الذُّلِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِأَنَّ لِلضَّبْعِ عِوَجًا فَأُشِيرَ إِلَى أَنَّ آزَرَ لَمْ يَسْتَقِمْ فَيُؤْمِن بَلِ اسْتَمَرَّ عَلَى عِوَجِهِ فِي الدِّينِ[1].

وقِيلَ: هَذَا الْحَدِيثُ مُخَالِفٌ لِظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾[2].

وَأُجِيبَ بِأَنَّهُ اخْتَلَفَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَبَرَّأَ إِبْرَاهِيمُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ، فَقِيلَ كَانَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا لَمَّا مَاتَ آزَرُ مُشْرِكًا، وَقِيلَ إِنَّمَا تَبَرَّأَ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمَّا أَيِسَ مِنْهُ حِينَ مُسِخَ... وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ بِأَنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ لَمَّا مَاتَ مُشْرِكًا، فَتَرَكَ الِاسْتِغْفَارَ لَهُ، لَكِنْ لَمَّا رَآهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَدْرَكَتْهُ الرَّأْفَةُ، فَلَمَّا رَآهُ مُسِخَ أَيِسَ مِنْهُ وَتَبَرَّأَ تَبَرُّءًا أَبَدِيًّا، وَقِيلَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَتَيَقَّنْ بِمَوْتِهِ عَلَى الْكُفْرِ؛ لِجَوَازِ أَنْ يَكُونَ آمَنَ فِي نَفْسِهِ، وَلَمْ يُطْلِعْ إِبْرَاهِيمَ، وَيَكُونُ وَقْتُ تَبَرُّئِهِ مِنْهُ بَعْدَ الْحَالِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي هَذَا الْحَدِيثِ[3].

---

(١) فتح الباري (٨/ ٣٥٨-٣٥٩).

(٢) سورة التوبة: الآية: (١١٤).

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٥١٦).



(٤) قصة موسى مع الخضر عليهما السلام

۞ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفًا الْبِكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى عليه السلام، صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْسَ هُوَ مُوسَى صَاحِبَ الْخَضِرِ عليه السلام، فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوُّ اللهِ، سَمِعْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَامَ مُوسَى عليه السلام خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، قَالَ فَعتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَى: أَيْ رَبِّ كَيْفَ لِي بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُ تَفْقِدُ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ، فَانْطَلَقَ وَانطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ، وَهُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، فَحَمَلَ مُوسَى عليه السلام، حُوتًا فِي مِكْتَلٍ وَانْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يَمْشِيَانِ حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ، فَرَقَدَ مُوسَى عليه السلام وَفَتَاهُ، فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ، حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمِكْتَلِ، فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، قَالَ وَأَمْسَكَ اللهُ عَنْهُ جِرْيَةَ الْمَاءِ حَتَّى كَانَ مِثْلَ الطَّاقِ، فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا، وَنَسِيَ صَاحِبُ مُوسَى أَنْ يُخْبِرَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ مُوسَى عليه السلام، قَالَ لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، قَالَ وَلَمْ يَنْصَبْ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا، قَالَ مُوسَى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[1]، قَالَ: يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا، حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ، فَرَأَى رَجُلًا مُسَجًّى عَلَيْهِ بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: أَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ، قَالَ لَهُ مُوسَى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن

---

(١) سورة الكهف: الآية: (٦٤).

تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قَالَ لَهُ الْخَضِرُ ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[١]، قَالَ: نَعَمْ، فَانْطَلَقَ الْخَضِرُ وَمُوسَى يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمَاهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾[٢]، ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذَا غُلَامٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ، فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ، فَقَتَلَهُ، فَقَالَ مُوسَى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى، ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾[٣]، يَقُولُ مَائِلٌ، قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ هَكَذَا فَأَقَامَهُ، قَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُونَا وَلَمْ يُطْعِمُونَا، لَوْ شِئْتَ لَتَخِذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا، قَالَ: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا» قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا»، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا»، قَالَ: «وَجَاءَ عُصْفُورٌ حَتَّى وَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، ثُمَّ نَقَرَ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنَ الْبَحْرِ» قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: وَكَانَ يَقْرَأُ: «وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ

(١) سورة الكهف: الآيات: (٦٦-٧٠).

(٢) سورة الكهف: الآيات: (٧١-٧٣).

(٣) سورة الكهف: الآيتان: (٧٦-٧٧).

كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا» وَكَانَ يَقْرَأُ: «وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا»[1].

۞ قام موسى عليه السلام فى يوم من الأيام يخطب فى بنى إسرائيل ليدعوهم إلى الله ويُذكرهم ويُرقق قلوبهم بالمواعظ الغالية فكان حديثه شيقًا رائعًا جذب قلوب الناس من حوله.

وبعد أن انتهى من موعظته قام واحد من بنى إسرائيل وسأله: هل هناك على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبى الله؟!

فقال موسى عليه السلام: لا.

وإذا بجبريل عليه السلام ينزل فى تلك اللحظة ليخبر موسى عليه السلام بأن الله عز وجل يعتب عليه أنه لم يَرُدَّ العلم إلى الله ويقول: الله أعلم.

ثم أخبره أن الله يقول له: إن عبدًا من عبادى بمكانٍ يُقال له: مَجمع البحرين هو أعلم منك يا موسى.

هنا اشتاق موسى عليه السلام لرؤية هذا الرجل الذى هو أعلم منه.. واشتاقت نفسه للتزود من العلم، وقال: يا ربِّ كيف أصل إلى هذا الرجل؟ فأمره الله عز وجل أن يحمل حوتًا فى مكتل - أى: يحمل سمكة فى سلة - ويسير فى البحر فإذا جاءت اللحظة التى تعود فيها الحياة للحوت ويقفز فى البحر فسوف يجد هناك هذا العبد العالم.

۞ وانطلق موسى عليه السلام بعدما أخذ الحوت فى المكتل وأخذ معه فتاه يوشع بن نون - الذى صار نبيًّا بعد موسى عليه السلام.

وحمل الفتى السَّلة التى فيها الحوت وانطلقا ليبحثا عن هذا الرجل العالم.

وليس لديهم أى علامة على مكان هذا العالم سوى عودة الحياة للسمكة

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٠١) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (١٧٠) (٢٣٨٠) كتاب الفضائل.

وهروبها إلى البحر.

۞ وكان موسى عليه السلام عنده عزم وإصرار على أن يصل إلى هذا العالم ولو ظل مسافرًا سنوات طويلة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾[1].

۞ المهم أنه وصل موسى عليه السلام وفتاه يوشع إلى صخرة كبيرة بجوار البحر وقد تعبا من السفر.. ونام موسى عليه السلام وبقى يوشع سهرانًا يحرس نبى الله موسى عليه السلام.

وفجأة ساقت الرياح موجة عالية على الشاطئ فجاء رذاذ الماء على الحوت فدبَّت فيه الحياة وقفز إلى البحر ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾[2].. وكانت عودة الحياة إلى الحوت وهروبه إلى البحر علامة أعلم الله بها موسى عليه السلام لتحديد المكان الذى سيجد فيه هذا العالم الجليل الذى جاءه موسى ليتعلم منه.

۞ قام موسى عليه السلام من نومه ولم يعرف أن الحوت قد دبَّت فيه الحياة وهرب إلى البحر.. ونسى فتاه يوشع أن يخبره بما حدث.

وسار موسى وفتاه ليلتهما ويومهما حتى إذا كانا من الغد قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا فقد شعرت بالتعب الشديد.

وهنا تَذكَّر الفتى تلك اللحظة التى دبَّت فيها الحياة فى الحوت فهرب إلى البحر وذلك عندما كانا عند الصخرة.. فأخبر موسى بما حدث واعتذر إليه بأن الشيطان هو الذى أنساه أن يذكر له ما حدث رغم غرابة ما حدث أمام يوشع فقد رأى الحوت يشق الماء فيترك علامة على الماء وكأنه يتلوى على الرمال فيترك

(١) سورة الكهف: الآية: (٦٠).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٦١).

عليها أثرًا.

۞ هنا أحسَّ موسى عليه السلام بسعادة غامرة عندما علم أن الحوت هرب إلى البحر؛ لأن معنى ذلك أنه قد وصل إلى المكان الذى يريده ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾[1].

وعاد موسى عليه السلام وفتاه يبحثان عن المكان الذى هرب فيه الحوت.

وبعد بحثٍ طويل وصل موسى إلى المكان الذى هرب فيه الحوت فى البحر.

وصل هو وفتاه إلى الصخرة التى ناما عندها وهناك وجدا رجلًا مُسجَّى بثوب ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[2].

فسلم عليه موسى عليه السلام.

فقال له الخضر: وهل بأرضك سلام؟.. مَنْ أنت؟

فقال موسى: أنا موسى.

فقال الخضر: موسى نبى بنى إسرائيل.. عليك السلام يا نبى بنى إسرائيل.

ثم قال له الخضر: وماذا تريد منى يا موسى؟

قال موسى: أتيتك لتُعلمنى مما عُلمت رشدًا.

فقال الخضر: أما يكفيك أن التوراة بيديك يا موسى؟!

ثم قال له: يا موسى إنى على علم من علم الله لا تعلمه أنت.. وأنت على علم من علم الله لا أعلمه أنا.

فقال له موسى: هل أتبعك على أن تُعلِّمنى مما عُلّمت رُشدًا؟

---

(١) سورة الكهف: الآية: (٦٤).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٦٥).

فقال له الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾[١].

أي: أنك ستجد فى تصرفاتى أشياء لا تفهم لها سببًا ولا تدرى لها علَّة ولذلك فلن تصبر معى يا موسى.

۞ فاحتمل موسى تلك الكلمات وعاد يرجوه أن يأذن له بصحبته ليتعلم على يديه، فقال له: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾[٢].

- وتأمل معى كيف كان تواضع موسى عليه السلام للخضر عليه السلام.

۞ وهنا اشترط الخضر على موسى عليهما السلام شرطًا من أجل أن يكون فى صُحبته وهو ألا يسأله عن أى شىء حتى يُحدثه هو عنه.. فوافق موسى على هذا الشرط.

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[٣].

۞ وانطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر يتكلمان وفجأة مرت أمامهما سفينة، فكَلَّما أصحابها أن يحملوهما، فوافق أصحاب السفينة وبخاصة أنهم عرفوا الخضر عليه السلام فحملوهما بغير أجر إكرامًا للخضر.

فلما ركبا فى السفينة جاء عصفور، فوقع على حرف السفينة، فنقر فى البحر نقرة أو نقرتين، قال له الخضر: يا موسى! ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر.

۞ وبعد أن وصلوا جميعًا إلى الشاطئ فوجئ موسى عليه السلام بأن الخضر عليه السلام أخذ فأسًا حين غادر الناس السفينة وأخذ يخرق السفينة فاقتلع لوحًا من

---

(١) سورة الكهف: الآيتان: (٦٧، ٦٨).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٦٩).

(٣) سورة الكهف: الآية: (٧٠).

ألواحها وألقاه فى البحر.. فتعجب نبى الله موسى عليه السلام وقال للخضر عليه السلام: لقد حملنا أصحاب السفينة بغير أجر وأكرمونا غاية الإكرام، ثم أنت تخرق لهم سفينتهم التى يعملون عليها لتغرقهم فى البحر فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

- لقد كان هذا التصرف الذى فعله الخضر عجيبًا من وجهة نظر موسى عليه السلام.

۞ وهنا قام الخضر ليُذكر موسى بالعهد الذى أخذه عليه.

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾[1].

وهنا اعتذر موسى للخضر؛ لأنه فعل ذلك نسيانًا وطلب منه ألا يؤاخذه على ذلك ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾[2]. فطلب منه أن يصبر عليه.

۞ ومرة أخرى يسير موسى مع الخضر عليهما السلام فمرَّا على حديقة يلعب فيها الصبيان.. ولما شبع الأطفال من اللعب وتعبوا جلسوا جانبًا وناموا.. وفجأة قام الخضر بقتل غلامٍ منهم فثار موسى وظل يسأل الخضر: ما ذنب هذا الغلام وما جريمته حتى تقتله؟!

فقام الخضر يُذكِّر موسى للمرة الثانية بالعهد الذى أخذه عليه، ﴿ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾[3].

- ويعتذر موسى للمرة الثانية بأنه فعل ذلك نسيانًا وأعطاه العهد بأنه لن يسأله مرة أخرى.. فإذا سأله مرة أخرى فله الحق أن يفارقه هذه المرة.

(١) سورة الكهف: الآية: (٧٢).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٧٣).

(٣) سورة الكهف: الآية: (٧٥).

﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾[١].

۞ وللمرة الثالثة والأخيرة يسير موسى مع الخضر عليهما السلام، فدخلا قرية كان أهلها على درجة عالية من البُخل.. فلما نفد الطعام الذى معهما طلبا من أهل القرية أن يقدموا لهما طعامًا فرفضوا أن يُضيفوهما أو يُقدموا لهما طعامًا.. ومرَّت الساعات عصيبة عليهما بلا طعام ولا شراب.

فجلس موسى والخضر عليهما السلام بجوار جدار مائل يكاد أن يسقط وفجأة قام الخضر ليُصلح هذا الجدار ويبنيه من جديد.

فتعجب موسى من فعل الخضر.. كيف يقوم ويبنى الجدار فى تلك القرية التى بخل أهلها أن يقدموا لهما الطعام والشراب... قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾[٢].

۞ وهنا انتهى الأمر.. وكان الفراق بين موسى والخضر عليهما السلام.

قال الخضر لموسى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾[٣].

۞ لقد حذر الخضر موسى عليه السلام من السؤال عن أى شىء يراه حتى وإن كان أمرًا غريبًا ولكن موسى عليه السلام كان لا يتمالك نفسه من السؤال وبخاصة أنه يرى أشياء غريبة.. ولكنه لم يعلم أن الخضر كان لا يفعل أى شىء إلا بوحى من الله (جل وعلا) ولم يكن يفعل أى شىء من تلقاء نفسه.

۞ وبدأ الخضر يكشف لموسى عليه السلام أسرار تلك الأشياء والأفعال التى كان يتعجب منها.

---

(١) سورة الكهف: الآية: (٧٦).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٧٧).

(٣) سورة الكهف: الآية: (٧٨).

۞ فأخبره أولًا عن أمر السفينة التى خرقها رغم أن أصحاب السفينة أكرموهما وحملوهما بدون أجر.. فقد يظن موسى عليه السلام أن خرق السفينة مصيبة كبيرة لأصحابها لكن الخضر عليه السلام أخبره أنه فعل ذلك لأن الملك الظالم الذى يحكم البلاد كان فى هذه الأيام يستولى على كل سفينة سليمة خالية من العيوب، فأراد الخضر أن يخرقها حتى يتركها الملك، ثم يُصلحها أصحابها بعد ذلك.. ومن المعلوم أن إصلاح لوح فى السفينة خير من ضياع السفينة كلها.. وبذلك استطاع الخضر أن يكون سببًا فى حفظ السفينة من الضياع وبذلك يبقى مصدر رزق هذه الأسرة كما هو فلا يموتون من الجوع ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[1].

۞ ثم وضح له السر فى قتل هذا الغلام.. فقد يعتبر موسى عليه السلام أن قتل الغلام مصيبة كبيرة بالنسبة لوالديه غير أن الخضر عليه السلام وضح له أن هذا الغلام طُبع كافرًا وأنه كان سيرهق والديه عندما يكبرا وسيكون عاقًّا لهما وأن موته سيكون رحمة لهما وأن الله عَزَّ وَجَلَّ سيرزقهما بدلًا منه غلامًا يرعاهما ويُحسن إليهما فى سنِّ الشيخوخة والضعف.

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾[2].

۞ ثم وضح السرَّ فى بناء الجدار من غير أن يطلب أجرًا من أهل القرية.

فأخبره أن الجدار الذى بناه بدون أجر كان تحته كنز لغلامين يتيمين فى المدينة وكان الجدار يكاد أن يسقط.. ولو سقط الجدار لظهر الكنز الذى تحته، فأخذه أهل القرية البُخلاء ولم يستطع الغلامان أن يَحصُلا على كنزهما فلذلك

---

(١) سورة الكهف: الآية: (٧٩).

(٢) سورة الكهف: الآيتان: (٨٠، ٨١).

بنى لهما الجدار ليحفظ لهما كنزهما حتى يَكبُرا فيستخرجا الكنز بإذن الله (جل وعلا).

ولما كان أبوهما صالحًا فقد نفعهما الله بصلاحه فى طفولتهما وضعفهما، فأراد ربُّهما أن يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنزهما وهما قادران على حمايته: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [1].

۞ ثم وضح له الخضر أن هذا كله لم يفعله من تلقاء نفسه، وإنما كان ذلك كله بوحى من الله (جل وعلا).. ولذا قال له: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [2].

۞ ثم اختفى هذا العالم العابد الخضر عليه السلام بعد أن تعلم منه موسى عليه السلام درسين فى غاية الأهمية:

(١) تَعلَّم منه ألا يغتر بعلمه، فإنه فوق كل ذى علمٍ عليم.

(٢) تَعلَّم منه ألا يتسرع ولا يتكلم إلا بما يعلم [3].

---

(١) سورة الكهف: الآية: (٨٢).

(٢) سورة الكهف: الآية: (٨٢).

(٣) قصص الأنبياء للأطفال / محمود المصرى (ص: ٥٠٥ - ٥١٧).

الدروس المستفادة:

(١) ينبغي على المسلم أن يُذكر إخوانه بالله فقد قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]... ولقد رأينا كيف وقف موسى عليه السلام ليُذكر بنى إسرائيل بالله (جل وعلا).

(٢) ينبغي على المسلم أن ينسب العلم إلى الله ولا يقول: أنا أعلم الناس... فإنه من تواضع لله رفعه.

(٣) أن المسلم ينبغي عليه أن يحرص على طلب العلم... فقد رأينا كيف أن نبى الله موسى عليه السلام سافر طلبًا للعلم.

(٤) لا بد لطالب العلم أن يتواضع فى طلب العلم وأن يتأدب بين يدى شيخه حتى ينتفع بعلمه.

(٥) أن هناك أشياء كثيرة لا يعلم العبد ما هى الحكمة من ورائها لكن الله عز وجل يعلم... فعلى العبد أن ينفذ أوامر الله دون أن يسأل عن الحكمة من وراء ذلك.

(٦) أن العبد قد يُحرم الخير بسبب تَسرُّعه وعدم صبره.

۞ تنبيه:

الخضر عليه السلام أُحيط اسمه بحكايات وروايات وآثار كثيرة، وتحدثوا فى كونه باقيًا إلى الآن ثم إلى يوم القيامة! حتى قال بعضهم: إنه يمر بمن يتذكره ويُقرئه السلام!! ولذلك يجب رد السلام عند تَذكُّره.. إلخ.... وهذا كله غير صحيح، كما قال الحافظ ابن كثير: والصواب عند المحققين من العلماء أنه نبى من الأنبياء، وأنه مات كغيره من الرسل والأخيار.

---

(١) سورة الذاريات: الآية: (٥٥).



(٥) قصة موسى عليه السلام والسامرى وعجل بنى إسرائيل

۞ روى الحاكم فى مستدركه عن عليٍّ رضي الله عنه، قَالَ: «لَمَّا تَعَجَّلَ مُوسَى إِلَى رَبِّهِ عَمَدَ السَّامِرِيُّ فَجَمَعَ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْحُلِيِّ: حُلِيِّ بَنِى إِسْرَائِيلَ فَضَرَبَهُ عِجْلًا، ثُمَّ أَلْقَى الْقَبْضَةَ فِى جَوْفِهِ، فَإِذَا هُوَ عِجْلٌ لَهُ خُوَارٌ فَقَالَ لَهُمُ السَّامِرِيُّ: هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَقَالَ لَهُمْ هَارُونُ: يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا؟. فَلَمَّا أَنْ رَجَعَ مُوسَى إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ وَقَدْ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ فَقَالَ لَهُ هَارُونُ مَا قَالَ فَقَالَ مُوسَى لِلسَّامِرِيِّ: مَا خَطْبُكَ؟ قَالَ السَّامِرِيُّ: قَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى. قَالَ: فَعَمَدَ مُوسَى إِلَى الْعِجْلِ فَوَضَعَ عَلَيْهِ الْمَبَارِدَ فَبَرَدَهُ بِهَا وَهُوَ عَلَى شفى نَهَرٍ، فَمَا شَرِبَ أَحَدٌ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ مِمَّنْ كَانَ يَعْبُدُ ذَلِكَ الْعِجْلَ إِلَّا اصْفَرَّ وَجْهُهُ مِثْلَ الذَّهَبِ، فَقَالُوا لِمُوسَى: مَا تَوْبَتُنَا؟ قَالَ: يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا. فَأَخَذُوا السَّكَاكِينَ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَقْتُلُ أَبَاهُ وَأَخَاهُ وَلَا يُبَالِى مَنْ قَتَلَ حَتَّى قُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا .. فَأَوْحَى اللهُ إِلَى مُوسَى: مُرْهُمْ فَلْيَرْفَعُوا أَيْدِيَهُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لِمَنْ قُتِلَ وَتُبْتُ عَلَى مَنْ بَقِىَ»[1].

لما انتهى موسى عليه السلام من ميقات ربه وانحدر من قمة الجبل وهو يحمل ألواح التوراة التى كتبها الله له وكان فى قمة سعادته بتكليم ربه وتكريمه له وإذا به يعلم من ربه (جل وعلا) نبأً يسؤوه فعاد إلى قومه غضبان أَسِفًا.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾[2].

---

(١) أخرجه الحاكم (٣٤٣٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه ووافقه الذهبى.

(٢) سورة طه: الآيات: (٨٣- ٨٦).

۞ لقد تذكر موسى عليه السلام المعاناة التى عاشها مع بنى إسرائيل وكيف أنه تعب فى تعليمهم وتربيتهم وتثبيتهم.. وكان يظن أنهم يسيرون على أثره.

۞ وكانت فتنة السامرى قد وقعت بمجرد خروج موسى إلى ميقات ربه.... وتفصيل هذه الفتنة أن بنى إسرائيل لما خرجوا من مصر أخذوا معهم الكثير من حُلى الفراعنة وذهبهم.

فقد كانت نساء بنى إسرائيل قد استعرن هذا الذهب للتزين به فلما أردن الخروج حملنه معهن .. فلما كتب الله لهن النجاة من بطش فرعون وتعذيبه سألن العلماء عن حكم هذا الذهب الذى أخذنه من الفراعنة بغير حقٍّ فأمرهن العلماء بالتخلُّص من الذهب.. فاستجابت النساء وألقين بهذا الذهب والحُلى لأنها حرام.. فأخذها السامرى وكان أحد علمائهم وصنع منها تمثالاً على شكل عجل ... وكان السامرى عنده مهارة عجيبة فى النحت فصنع عجلًا مُجوفًا من الداخل وأخذه ووضعه فى اتجاه الريح فإذا دخل الهواء من الفتحة الخلفية وخرج من الأنف أَحدث صوتًا يشبه صوت خوار العجول الحقيقية.

ويُقال: إن السر فى هذا الخوار أن السامرى كان قد رأى جبريل عليه السلام عندما نزل إلى الأرض وكان راكبًا فرسًا - وذلك فى معجزة شق البحر - فأخذ قبضة من التراب الذى سار عليه الفرس وخلطها بالذهب الذى صنع منه العجل الذهبى ... فلما صنعه خار العجل كالعجول الحقيقية.

وخرج السامرى على بنى إسرائيل ليريهم هذا العجل الذهبى.

فسألوه: ما هذا الذى صنعته يا سامرى؟

قال: هذا إلهكم وإله موسى.

قالوا: كيف يكون هذا إلهه وقد ذهب موسى لميقات إلهه.

قال السامرى: لقد نسى موسى...، ذهب للقاء ربه هناك، بينما ربه هنا.

۞ وفى يوم من الأيام خرج هارون عليه السلام على بنى إسرائيل فوجدهم يعبدون العجل الذهبى فغضب غضبًا شديدًا، وأخذ ينهاهم عن هذا المنكر الأكبر ويحذرهم ويهددهم ويُذكرهم بالله (جل وعلا) ولكن القوم انقسموا إلى فريقين: فمنهم القلة المؤمنة الصابرة الذين ثبتوا على الحق وعلموا أنه ليس هناك مَن يستحق العبادة إلا الله (جل وعلا).. ولكن أكثر الناس عبدت العجل الذهبى من دون الله (جل وعلا).

۞ وظل هارون عليه السلام ينصح لهم ويقول لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾[1].

ولكن القوم لم يستجيبوا لهارون عليه السلام.. فأخذ هارون يُذكرهم بما أكرمهم الله به من إنقاذهم من بطش فرعون وإنقاذهم من البحر وإغراق فرعون أمام أعينهم لكنهم رفضوا كل ذلك وقالوا كلمتهم الأخيرة.

﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾[2].

۞ وقف القوم يرقصون حول العجل الذهبى.. وإذا بموسى عليه السلام يرجع وهو فى قمة الغضب والحزن فسمع صياح القوم وهم يرقصون حول العجل وما إن رأوه حتى توقفوا جميعًا ودبَّ الرعب فى قلوبهم وساد صمتٌ عجيب فصرخ فيهم موسى قائلًا: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ﴾[3].

بئس ما صنعتم فى غيابى.. بئست الخيانة أن تغيروا دينكم بهذه السهولة.

۞ وفى تلك اللحظة من الغضب العارم الذى انتاب موسى عليه السلام وإذا به يُلقى الألواح غضبًا على قومه الذين أشركوا بالله (جل وعلا).

---

(١) سورة طه: الآية: (٩٠).

(٢) سورة طه: الآية: (٩١).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (١٥٠).

ثـم اتجـه موسـى نحـو هـارون وهـو فى قمـة الغـضب لله (سـبحانه وتعـالى) وأمسك هارون من شعر رأسـه وشـعر لحيتـه وجذبـه بـشدة قـائلًا لـه: ﴿يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾[1].

كأنه يريد أن يقول: حتى أنت يا هـارون!!... كيـف عـصيت أمـرى؟.. كيـف تسكت على هذه الفتنة الكبيرة؟.. كيف تركتهم يعبدون العجل ولم تُنكر عليهم أو تخرج وتتركهم؟

۞ وإذا بهارون يتحدث إلى أخيه موسى ويرجو منه أن يـترك رأسـه ولحيته وهـو يُـذكره بأنهما أبناء أُمٍّ واحـدةٍ ليكـون ذلـك أَدعـى لاستحـضار كـل مـشاعر الرحمة والحنان.

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾[2].

وأخبره بـأن القـوم استـضعفوه وكـادوا أن يقتلـوه عنـدما أنكـر علـيهـم ذلـك وطلـب مـن أخيـه موسـى أن يـترك لحيتـه ورأسـه حتـى لا يُـشمت بـه الأعـداء ويستخف به القوم.

﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[3].

وهنا أدرك موسى أنـه قـد تعجَّـل فى حُكمه علـى أخيـه هـارون وأنـه نـسى فى غضبه أن هارون نبى كـريم لا يمكـن أن يرضـى بوقـوع القـوم فى الـشرك وأنـه قـد أنكر عليهم لكنـه لـم يـستطع وحـده أن يُوقـف هـذا الطوفـان مـن الـشرك.. فـترك

(١) سورة طه: الآيتان: (٩٢، ٩٣).

(٢) سورة طه: الآية: (٩٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (١٥٠).

موسى رأس أخيه ولحيته واستغفر الله لنفسه ولأخيه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[١].

۞ ثم نظر موسى إلى القوم الذين عبدوا العجل الذهبى وقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾[٢].

كأنه يريد أن يقول لهم: هل جزاء الإحسان إلا الإحسان.. لقد أنعم الله عليكم وأكرمكم ونصركم على أعدائكم وأنجاكم من بطش فرعون ووعدكم بالجنة والنعيم المقيم إن عبدتموه فلماذا فعلتم كل هذا؟

ثم أخبرهم بالعاقبة الوخيمة لهذه الفعلة الشنيعة فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾[٣].

۞ وهنا أحسَّ القوم بتلك الجريمة التى وقعوا فيها وكيف أن موسى عليه السلام بذل معهم الكثير والكثير من أجل أن يكونوا مؤمنين صالحين ومن أجل أن يحملوا أمانة التوحيد فى الأرض.

وهنا علم موسى عليه السلام أنه لا بد أن يقضى على الفتنة من جذورها ولذلك توجَّه إلى السامرى الذى صنع لهم العجل الذهبى ليعبدوه وهو فى قمة الغضب ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴾[٤]؟.. ما حملك على ما صنعت؟

قال السامرى بكل عُجب وغرور: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ ﴾[٥]..

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٥١).

(٢) سورة طه: الآية: (٨٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (١٥٢).

(٤) سورة طه: الآية: (٩٥).

(٥) سورة طه: الآية: (٩٦).

وهذه هى لغة أهل الكبر.. بَصُرت ولم يُبصروا.. وفهمت ولم يفهموا.. وعرفت ولم يعرفوا... !!

۞ ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾[1] .. زعم أنه رأى جبريل عليه السلام وهو راكب فرسًا ... فلا تضع قدمها على شىء إلا دبَّت فيه الحياة.. وأنه قبض حفنة من التراب الذى سار عليه جبريل وألقاها على الذهب ﴿فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾[2] .

۞ ولذلك لم يناقشه نبى الله موسى عليه السلام فى هذا الكلام لأنه كلام لا يستحق الرد عليه وإنما أخبره بثمرة هذا العمل الخبيث والجريمة المنكرة وأخبره بحكم الحق فى هذه الجريمة: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾[3] .

وفى هذا الحديث بيان للكيفية التى نسف بها موسى العجل، فقد أمر ببرده بالمبارد، كى يرى بنو إسرائيل تفاهة العجل الذى عبدوه... وتَحوَّل العجل إلى مسحوقٍ دقيق كان يُذرَى فى النهر الذى كانوا بجانبه، ومن عجيب صنع الله أن كل الذين عبدوا العجل اصفرَّت وجوههم عندما شربوا من ماء النهر، وأصبحت بلون الذهب[4] .

۞ وبعد أن نسف موسى عليه السلام ذلك الصنم وأبلغ السامرى بعقوبته فى الدنيا والآخرة أخبر الذين عبدوا العجل أن أمامهم حلٌّ واحد للتوبة وهو أن يقتل

---

(١) سورة طه: الآية: (٩٦).

(٢) سورة طه: الآية: (٩٦).

(٣) سورة طه: الآية: (٩٧).

(٤) صحيح القصص النبوى/ د. عمر الأشقر رحمه الله (ص: ١١٠).

المطيع من بنى إسرائيل كل مَن عصى وعَبَد العجل من دون الله.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

فيقال: إنهم أصبحوا يومًا وقد أخذ مَن لم يعبد العجل فى أيديهم السيوف، وألقى الله عليهم ضبابًا حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه، ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم ... فيُقال إنهم قتلوا فى صبيحة واحدة سبعين ألفًا، ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[2][3].

(١) سورة البقرة: (٥٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٥٤).

(٣) قصص الأنبياء: (ص ٤٢٥، ٤٢٦) بتصرف.



(٦) المسيح الدجال... ويأجوج ومأجوج



۞ عن النَّواس بنِ سَمْعانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: ذَكَرَ رسُولُ الله ﷺ الدَّجَّالَ ذاتَ غَدَاةٍ، فخَفَّض فيه، ورَفَّع حتَّى ظَنَنَّاه فى طائفةِ النَّخْلِ، فلَمَّا رُحنا إليه، عَرَف ذلكَ فِينَا، فقال: «ما شأنكم؟» قُلنا: يا رسُولَ الله ذَكَرتَ الدَّجَّال الغدَاةَ، فخَفَّضْتَ فيهِ ورَفَّعتَ، حتَّى ظَنَنَّاه فى طائفةِ النَّخْلِ، فقال: «غَيْرُ الدَّجَالِ أخْوفنى عَلَيْكُم، إنْ يخْرُجْ وأنا فيكُم، فأنا حَجِيجُه دونكُمْ، وإنْ يَخْرج ولَسْتُ فيكمْ، فكلُّ امرئٍ حَجِيجُ نَفْسِهِ، والله خَليفتى على كُلِّ مُسْلِمٍ. إنَّه شابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِيَةٌ، كأنِّى أُشَبِّهُه بعَبْدِ العُزَّى بنِ قَطَنٍ، فمَنْ أدركَه مِنْكُم، فَلْيَقْرأ علَيْهِ فَواتِحَ سُورَةِ الكَهْفِ... إنَّه خارجٌ خَلَّةً بينَ الشَّامِ والعِراقِ، فعَاثَ يمينًا وعَاثَ شِمالًا، يا عِبادَ الله فاثْبُتُوا».

قُلنا: يا رسُولَ الله، وما لُبْثُه فى الأرضِ؟ قال: «أربَعُونَ يَوْمًا: يومٌ كَسَنَةٍ، ويَوْمٌ كشَهْرٍ، ويَوْمٌ كجُمُعةٍ، وسائرُ أيَّامِهِ كأيَّامكُم».

قُلنا: يا رسُولَ الله، فذلكَ اليَوْمُ الذى كَسَنَةٍ أتكْفِينَا فيهِ صلاةُ يَوْمٍ؟ قال: «لا، اقْدُرُوا لهُ قَدرَهُ» قُلْنَا: يا رسُولَ الله، وما إسْراعُهُ فى الأرض؟ قال: «كالغَيْثِ استَدبَرَتْه الرِّيحُ، فيَأتى على القَوْم، فيَدعُوهم، فيؤمنُونَ بهِ، ويَسْتجِيبونَ لهُ فيأمُرُ السَّماءَ فتُمْطِرُ، والأرضَ فتُنْبِتُ، فتَرُوحُ عليهم سارِحتُهُم أطْوَلَ مَا كانتْ ذُرًى، وأسْبَغَه ضُرُوعًا، وأمَدَّهُ خَواصِر، ثُمَّ يأتى القَوْمَ فيَدعُوهم، فيَرُدُّون عليه قَوْلَهُ، فيَنْصَرِف عنهم، فيُصبِحُون مُمْحِلينَ ليْسَ بأيْدِيهم شَىءٌ من أمْوالِهم، ويَمُرُّ بالخَرِبَة فيقول لهَا: أَخْرجِى كُنُوزَكِ، فتَتْبَعُه كُنوزُها كيَعَاسِيب النَّحلِ، ثُمَّ يَدعُو رَجُلًا مُمْتَلِئًا شَبابًا فيَضْرِبُهُ بالسَّيْفِ، فيَقْطَعُهُ جِزْلَتَيْن رَمْيَةَ الغَرَضِ، ثُمَّ يَدعُوهُ، فيُقْبِلُ، ويَتَهَلّلُ وجْهُهُ يَضْحَكُ.

فَبينما هُو كذلكَ إذْ بَعَثَ الله تعالَى المسيحَ ابْنَ مَرْيم ﷺ، فيَنْزِلُ عِنْد المَنارَةِ البَيْضَاءِ شَرقِىَّ دِمَشْقَ بينَ مَهْرُودتَينِ، واضعًا كَفَّيْهِ على أجْنِحةِ مَلَكَيْنِ، إذا

طأطأَ رأسَهُ قَطَرَ، وإذا رَفَعَهُ تَحدَّر مِنْهُ جُمَانٌ كاللُّؤلُؤ، فلا يَحِلُّ لِكَافِر يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إلا ماتَ ... ونَفَسُهُ يَنْتَهِي إلى حَيْثُ يَنْتَهي طَرفُهُ، فيَطْلُبُه حتَّى يُدرِكَهُ بِبَاب لُدٍّ فَيَقْتُلُه.

ثم يأتي عِيسَى ﷺ قَوْمًا قَد عَصَمَهُمُ الله مِنْه، فيَمْسَحُ عَنْ وجُوههِمْ، ويُحدِّثُهُم بدرَجاتِهم فى الجنَّةِ. فبَينَما هُو كذلِكَ إذْ أوْحَى الله تعالى إلى عيسى ﷺ وأصحابِه رضي الله عنهم: أنِّى قَد أخرَجْتُ عِبَادًا لى لا يَدَان لأحَدٍ بِقتَالهم، فحرِّزْ عِبادى إلى الطُّور ... ويَبْعَثُ الله يأجُوجَ ومأجوج وهُمْ مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فيَمُرُّ أوَائلُهُم على بُحَيْرةِ طَبَرِيَّة فيَشْربون ما فيها، ويَمُرُّ آخِرُهُم فيقولونَ: لَقَد كانَ بهذهِ مرَّةً ماءٌ.

ويُحصَرُ نبى الله عيسَى ﷺ وأصحَابُهُ حتَّى يكُونَ رأسُ الثَّوْرِ لأحدِهمْ خيْرًا مِن مائةِ دِينارٍ لأحَدِكُم اليومَ، فيرغَبُ نبى الله عيسَى ﷺ وأصحابُهُ رضي الله عنهم إلى الله تَعَالى، فيُرسِلُ الله تعالى عَلَيْهم النَّغَفَ فى رِقَابِهِم، فيُصبحُون فَرْسَى كموْت نَفْسٍ واحِدَةٍ، ثم يهْبِطُ نبى الله عيسَى ﷺ وأصحابهُ رضي الله عنهم إلى الأرضِ، فلا يجِدُونَ فى الأرضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إلا مَلأهُ زَهَمُهُمْ ونَتَنُهُمْ، فيَرغَبُ نبى الله عيسَى ﷺ وأصحابُه رضي الله عنهم إلى الله تعالى، فيُرسِلُ الله تَعَالى طَيرًا كأعنَاقِ البُخْتِ، فتَحمِلُهُمْ، فتَطْرَحُهم حَيْثُ شاءَ الله، ثُمَّ يُرسِلُ الله عز وجل مطرًا لا يُكنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ، فيَغْسِلُ الأرض حتَّى يترُكَها كالزَّلَقَةِ -وفى رواية: كالزَّلَفَة-.

ثُمَّ يُقالُ للأرضِ: أنْبتى ثَمرتَكِ، ورُدِّى بَرَكَتَك، فيَومئذٍ تأكُلُ العِصَابة مِن الرُّمانَةِ، ويَسْتظِلون بقِحْفِهَا، ويُبارَكُ فى الرِّسْلِ حتَّى إنَّ اللَّقْحَة مِن الإبِل لتكْفِى الفئامَ مِن النَّاسِ، واللَّقْحَة مِن البَقرِ لَتَكْفى القَبِيلة مِنَ النَّاس، واللَّقْحَةَ مِن الغَنمِ لَتَكْفى الفَخِذَ مِن النَّاس.

فبَيْنَما هُم كذلك إذْ بَعَثَ الله تعالَى رِيحًا طَيِّبَةً، فتأخُذُهم تَحتَ آباطِهِمْ، فتَقْبِضُ

رُوحَ كُلِّ مُؤمِن وكُلِّ مُسْلِمٍ، ويَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارجُون فيها تَهارُج الحُمُرِ فعَلَيْهِم تَقُومُ السَّاعَةُ»[١].

۞ النبى ﷺ ذكر الدجال لأصحابه ذات غداة.. يعنى فى الصباح.. فتكلم عنه بكلام طويل وذكر الأمر بتفاصيله حتى ظن الصحابة أن الدجال فى طائفة النخل.. أى: ظنوا أنه قد جاء إلى المدينة.. ولكن الأمر لم يكن كذلك.. لأن الدجال مُحرمٌ عليه أن يدخل مكة والمدينة.

ثم إن النبى ﷺ عرف ذلك فيهم فسألهم فقالوا: إنك ذكرت الدجال الغداة وخفضت فيه ورفعت فظننا أنه فى النخل. فقال: «**غير الدجال أخوفنى عليكم**» يعنى أخاف عليكم شيئًا أشد من الدجال... ومن ذلك الرياء حيث ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**أَخْوَفُ مَا أخافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**»، فسُئِل عنه فقال: «**الرِّيَاءُ**»[٢] أن الإنسان يُرائى فى عباداته: يصلى لأجل الناس، يتصدق لأجل الناس، يحسن الخُلق لأجل الناس.. فهذا رياء والعياذ بالله... والمُرائى حابطٌ عمله، والرياء من صفات المنافقين كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ**

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٧) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

قوله: «خَلَّةٌ بين الشَّامِ والعِراقِ» أى: طريقًا بَيْنَهُما. وقوله «عاثَ»: وَالعَيْثُ أَشَدُّ الفَسادِ.

و«الذُّرَى»: وهوَ أعالى الأَسْنِمَةِ. وهُو جَمْعُ ذِروَةٍ. «واليَعاسِيبُ»: ذكور النَّحل. و«جزْلَتين» أى: قِطْعَتينِ و«الغَرَضُ»: الهَدَفُ الذى يُرمَى إليهِ بالنِّشابِ، أى: يَرمِيه رَمْيَةً كَرَمْى النِّشَابِ إلى الهَدَفِ.

و«المهْرُودَةُ»، وهى: الثَّوْبُ المصبُوغ. قولُهُ: «لا يَدان» أى: لا طاقة. و«النَّغَفُ»: دُودٌ. و«فَرسَى»: جَمْعُ فَرِيسٍ، وهُو القَتِيلُ، و«الزَّلَقَةُ»، ورُوِىَ «الزُّلْفَةُ»، وهى المرآةُ. و«العِصَابَة»: الجماعةُ، و«الرِّسْلُ»: اللَّبنُ، و«اللَّقْحَة»: اللَّبُونُ، و«الفئام»: الجماعةُ، و«الفَخِذُ» مِن النَّاسِ: دُونَ القَبيلةِ.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٥٥).

إِلَّاقَلِيلًا ﴾[١]. واعلم أيها المرائى أن الله سيفضحك عن قُرب ؛ لأن النبى ﷺ قال: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ وَمَنْ يُرَائى يُرَائى اللهُ بِهِ»[٢] يعنى أظهر مُراءاته وعيوبه عند الناس... ثم قال ﷺ: «**إن يخرج وأنا فيكم فأنا حَجيجُه دونكم**»: يعنى لو خرج الدجال وأنا موجود فأنا أكفيكم إياه، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه... يعنى كل إنسان يُحاج عن نفسه، «**والله خليفتى على كل مؤمن**» فاستخلف ربه عَزَّوَجَلَّ أن يكون مؤيدًا للمؤمنين واقيًا لهم من فتن الدجال الذى ليس بين خلق آدم وقيام الساعة فتنة أشد منها..نسأل الله أن يقينا وإياكم فتنته[٣].

❁ ثم بدأ النبى ﷺ يذكر لهم قصة المسيح الدجال ونزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليقتله فى آخر الزمان... وسوف أشرحها لكم مختصرة.

❁ أما الدجال: فهو مبالغة من الدجل وهو الكذب.. والدجال يعنى: كثير الكذب الذى لا يُوصف إلا بالكذب فهو يغطى الحق بالباطل.

وسُمى بالمسيح لأن عينه الواحدة ممسوحة.. وقيل: لأنه يمسح الأرض كلها.

❁ وأخبر النبى ﷺ أنه أكبر فتنة وُجدت على وجه الأرض منذ خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وإلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها... وذلك بسبب ما يخلق الله معه من الخوارق العظيمة التى تُبهر العقول.... ولذا كان كل نبىٍّ يُحذر قومه من فتنة المسيح الدجال مع أنهم لن يدركوه أبدًا ولن يدركهم.. ولكن من شدة فتنته كانوا يُحذرون أُممهم من فتنته.

❁ وأما عن صفته فلقد وصفه النبى ﷺ وصفًا دقيقًا حتى إذا عرفه المؤمنون لا يُفتنون به.

---

(١) سورة النساء: الآية: (١٤٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٩٩) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٩٨٦) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٠٢) للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومن هذه الصفات أنه رجل، شابٌّ أحمر، قصير، أفحج، جعد الرأس، أجلى الجبهة، عريض النحر، ممسوح العين اليمنى، وهذه العين ليست بناتئة[١]، ولا جحراء[٢]، كأنها عنبة طافئة... وعينه اليسرى عليها ظفرة[٣] غليظة، ومكتوب بين عينيه (ك ف ر) بالحروف المقطعة، أو (كافر) بدون تقطيع، يقرؤها كل مسلم كاتب وغير كاتب... ومن صفاته أنه عقيم لا يُولد له.

۞ وقد رأى تميم الدارى المسيح الدجال على حقيقته رأى العين فى إحدى الجُزر وعاد وأخبر النبى ﷺ بذلك.. وقد وجده وهو مُسلسَل بالحديد فى ديرٍ بإحدى الجُزر[٤].

۞ وأما عن الإرهاصات التى تكون قبل خروج الدجال فهى كثيرة: (منها) قلة العرب وخروج الملحمة التى تكون بين المسلمين والنصارى والتى سينتصر فيها المسلمون.. ثم فتح القسطنطينية والتى بمجرد فتحها يعلم المسلمون بظهور الدجال.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«عُمْرَانُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَرَابُ يَثْرِبَ، وَخَرَابُ يَثْرِبَ خُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ، وَخُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ فَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَفَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ خُرُوجُ الدَّجَّالِ»**[٥].

---

(١) (ناتئة) مأخوذة من النتوء، وهو الارتفاع والانتفاخ؛ أى: أن عينه ليست بارزة. انظر: «ترتيب القاموس» (٤/ ٣١٨)، و«عون المعبود» (١١/ ٤٤٤).

(٢) (جَحراء): أى: ليست غائرة منجحرة فى نقرتها. انظر: «لسان العرب» (٤/ ١١٨)، و «عون المعبود» (١١/ ٤٤٤).

(٣) (ظفرة): لحمة تنبت عند المآقى، وقد تمتد إلى السواد فتغشاه. انظر «النهاية فى غريب الحديث» (٣/ ١٥٨). و(المآقى): هو مقدمة العين. انظر: «النهاية فى غريب الحديث» (٤/ ٢٨٩).

(٤) راجع ذلك فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه (٢٩٤٢) كتاب الفتن.

(٥) صحيح: رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٠٩٦).

وقبل خروج الدجال بثلاث سنوات يَحدُث جدبٌ وقحط شديد فتمنع السماء مطرها وتحبس الأرض نباتها كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ حيث قال: «... **وَإِنَّ قَبْلَ خُرُوجِ الدَّجَّالِ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ شِدَادٍ، يُصِيبُ النَّاسَ فِيهَا جُوعٌ شَدِيدٌ.. يَأْمُرُ اللهُ السَّمَاءَ فِي السَّنَةِ الْأُولَى أَنْ تَحْبِسَ ثُلُثَ مَطَرِهَا، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ فَتَحْبِسُ ثُلُثَ نَبَاتِهَا، ثُمَّ يَأْمُرُ السَّمَاءَ، فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ فَتَحْبِسُ ثُلُثَيْ مَطَرِهَا، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ فَتَحْبِسُ ثُلُثَيْ نَبَاتِهَا، ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ السَّمَاءَ، فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ، فَتَحْبِسُ مَطَرَهَا كُلَّهُ، فَلَا تَقْطُرُ قَطْرَةً، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ، فَتَحْبِسُ نَبَاتَهَا كُلَّهُ، فَلَا تُنْبِتُ خَضْرَاءَ، فَلَا يَبْقَى ذَاتُ ظِلْفٍ إِلَّا هَلَكَتْ، إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ**»، قِيلَ: فَمَا يُعِيشُ النَّاسَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ؟ قَالَ: «**التَّهْلِيلُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالتَّحْمِيدُ ويُجزئ ذَلِكَ عَلَيهِم مجزأة الطَّعَام**»[1].

۞ ويكون المسلمون عند خروج الدجال لهم شأنٌ كبير وقوة عُظمى.. بدليل انتصارهم على النصارى وفتح القسطنطينية.

۞ وأما عن كيفية خروج الدجال فإنه يخرج بسبب غضبة يغضبها فيكسر السلاسل التى رُبط بها ويخرج إلى الدنيا ليعيث فيها فسادًا وإفسادًا.

۞ وأما عن مكان خروجه فإنه يخرج من المشرق من خُراسان من يهودية أصبهان.. ويُقال أنه سيخرج خلة بين الشام والعراق.. يعنى يخرج من طريق بين الشام والعراق من قِبَل إيران.

۞ وأول ما يخرج يدَّعى أنه نبى ثم يزداد الأمر ويدَّعى أنه رب العالمين – عياذًا بالله-.

۞ وأما عن أتباعه فإنه يتبعه سبعون ألفًا من يهود أصبهان عليهم الطيالسة والتيجان.. وكأنهم يجتمعون هناك ليتبعوا الدجال لأن اليهود أهل دجل وكذب وغدر وخيانة لا يؤمنون.

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٧٥).

ويكون أكثر أتباع الدجال من اليهود والعجم والتُّرك وأخلاط من الناس غالبهم من الأعراب والنساء.

۞ وأما عن القدرات والإمكانات التى ستكون مع الدجال... والتى ستكون سببًا فى فتنة أصحاب القلوب المريضة فهى:

(١) جنته وناره:

فقد ورد أن معه ما يشبه الجنة والنار أو أن معه ما يشبه نهرًا من ماء ونهرًا من نار... وليس الأمر كما يراه الناس فإن الذى يرونه نارًا فإنما هو ماءٌ بارد وإن الذى يرونه ماءً باردًا فإنه نارٌ.

۞ قال رسول الله ﷺ: «**مَعَهُ** -أى الدجال- **جَنَّةٌ وَنَارٌ، فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ**»[١].

(٢) سرعة انتقاله بين البلدان:

ومن فتنة الدجال أنه يتجول بين البلدان بسرعة تفوق الخيال.

فلقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ فقالوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِى الْأَرْضِ؟ قَالَ: «**كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ**»[٢].

ولذلك فهو سيدخل كل بلد على وجه الأرض فيما عدا مكة والمدينة.

(٣) استجابة السماء والأرض لأمره!!!

ومن فتنته أنه يأمر السماء فتُمطر ويأمر الأرض فتُنبت ويدعو الماشية فتتبعه ويأمر الخرائب أن تُخرج كنوزها المدفونة فتستجيب.

۞ قال ﷺ: «... **فَيَأْتِى عَلَى الْقَوْمِ فَيَدعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ فَتُنْبِتُ، وَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِى الْقَوْمَ فَيَدعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ**

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٤) كتاب الفتن.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٧) كتاب الفتن.

عَنْهُمْ، فَتَتْبَعُهُ أَمْوَالُهُمْ وَيُصبِحُونَ مُمْحِلِينَ مَا بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَيَنْطَلِقُ وَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحلِ...»(١)(٢)(٣).

هكذا يُمكِّن الله عَزَّوَجَلَّ لذلك الدجال ليكون فتنة للكافرين والمنافقين والمجرمين.. وأما أهل الإيمان فيحفظهم الله من فتنة الدجال.

هكذا يُمكِّن الله للدجال فيأتي القوم يدعوهم فيستجيبون له ويؤمنون به، «فيأمُرُ السَّماءَ فتُمْطِرُ، والأرضَ فتُنْبِتُ»، يشاهدون ذلك بأعينهم، يقول: أيتها السماء: أمطرى، فتمطر... أيتها الأرض أنبتى فتُنبت، لكن ليس بقدرته وقوته بل بإرادة الله عَزَّوَجَلَّ ... لكن الله مكَّن له ابتلاءً وامتحانًا، «فيصبحون فتَرُوحُ عليهم سارِحتُهُم» يعنى الغنم والإبل أكثر وأوفر ما تكون ذُرًا وأمدها خواصر، تمتلئ بطونها، وتمتلئ ضروعها، ويكون عليها الشحم، ويأتى القوم فيدعوهم فلا يستجيبون له يردونه، فينصرف، فيصبحون مُمحلين ليس لهم من أموالهم شيء... الأرض خربت، والسماء لا تمطر والمال يمور... ولكن هؤلاء هم الذين لهم الأجر والثواب، وعاقبتهم حميدة، أما الأولون الذين آمنوا به وأمطرت السماء وأنبتت الأرض فهم خاسرون وإن ظنوا أنهم رابحون...

ويأتى إلى الخربة - أرض خربة ما بها بناء وما بها أُناس- فيقول: أيتها الأرض

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٧) كتاب الفتن.

(٢) قال الإمام النووى: أما (تروح) فمعناه ترجع آخر النهار، و(السارحة) هى الماشية التى تسرح أى تذهب أول النهار إلى المرعى، وأما (الذُّرى) وهى الأعالى، و(الأسنمة) جمع ذروة وقوله: (وأسبغه) أى أطوله لكثرة اللبن، وكذا (أمده خواصر) لكثرة امتلائها من الشبع.
قوله ﷺ: (فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل) هى ذكور النحل هكذا فسره ابن قتيبة وآخرون قال القاضى: المراد جماعة النحل لا ذكورها خاصة لكنه كنَّى عن الجماعة باليعسوب وهو أميرها، لأنه متى طار تبعته جماعته والله أعلم. [مسلم بشرح النووى (١٨/ ٨٩)].

(٣) قصة النهاية / د. محمود المصرى (ص ٥٠٧-٥٠٩).

أخرجى كنوزك فتُخرج كنوزها وما بها من معادن: من ذهب، وفضة وغير ذلك، فتتبعه كيعاسيب النحل -أى: كذكور النحل-.

(٤) الدجال يستعين بالشياطين:

قال ﷺ: «... **وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَقُولَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، أَتَشْهَدُ أَنِّى رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِى صُورَةِ أَبِيهِ، وَأُمِّهِ، فَيَقُولَانِ: يَا بُنَيَّ، اتَّبِعْهُ، فَإِنَّهُ رَبُّكَ..**»(١).

۞ وأما عن المدة التى يمكثها فى الأرض فإنه يمكث فى الأرض أربعين يومًا: اليوم الأول طوله سنة... اثنا عشر شهرًا، (٣٦٠) يومًا..هذا اليوم الأول. والثانى مقداره شهر (٣٠) يومًا، والثالث مقداره جمعة يعنى أسبوعًا، وباقى الأيام وهى سبعة وثلاثون يومًا كالأيام المعتادة...ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ نبّه الصحابة قالوا: يا رسول الله هذا اليوم الذى كسنة تكفينا فيه صلاة واحدة؟ فيكون عليهم فى هذا اليوم كم؟ خمس صلوات؟..قال لهم: «**لا..اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ**»(٢) يعنى صلوا صلاة السَّنة كاملة فى يوم واحد، وهذا مما يُؤخَذ على سبيل الطرفة...يُقال: إنسان وجب عليه صلاة سنة كاملة فى يوم واحدٍ..وأيضًا يُؤخَذ به من جهة أخرى: رجلٌ وجبت زكاة ماله فى يوم واحدٍ...وأيضًا فيُقال: يصوم رمضان بعض يوم يعنى جزءًا من اثنى عشر جزءًا من هذا اليوم...نقول: هذا يوم الدجال...وسبحان الله الحكيم الذى أكمل لنا الدين قبل أن يموت سيد المرسلين ﷺ...أنطق الله الصحابة أن يسألوا عن هذا اليوم: هل تكفى فيه صلاة واحدة أم لا؟...لأنه يوجد الآن فى الأرض مَن يومهم ستة أشهر، وليلهم ستة أشهر، عند المدار القطبى...ستة أشهر والشمس تُشرق عليهم، وستة أخرى والشمس لا يرونها فكيف يصلى هؤلاء؟ يصلون صلاة

(١) صحيح: رواه ابن ماجة والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٧٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٧) كتاب الفتن.

يوم وليل فقط أو يقدرون لها قدرها؟ نقول: يقدرون لها قدرها كيوم الدجال تمامًا.. أى يحسبون أوقات الصلاة بعدد الساعات التى بينها...

اليوم الثانى من أيام الدجال كشهر كيف تكون فيه الصلاة؟.. يصلون صلاة شهر، واليوم الثالث يصلون صلاة أسبوع، واليوم الرابع وما بقى كالعادى... ثم سأله الصحابة ﵃ عن سَيره فى الأرض هل هو كالسير المعتاد ... كسير الإبل أو سَير الأرجُل؟ قال ﷺ: «**يسير كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ**»... والله أعلم كيف يكون إسراعه؟... هل يُحدث الله له آلات، أو طائرات، أو غيرها؟ ما تدرى، لكن هذا الذى أخبر به النبى ﷺ أنه يكون كالغيث.

وذكر أيضًا فى هذه الأحاديث أن رجلًا شابًّا مسلمًا يخرج إذا سمع به ليبين للناس كذبه فيتلقاه حرس الدجال المتسلحون ويقولون: أين تريد، يقول: أريد هذا الرجل الذى خرج، فيأخذونه ويقولون: أتؤمن بربنا؟ فيقول: لا، إنه الدجال، فيريدون أن يقتلوه، ولكن بعضهم يقول لبعض: أليس قد قال ربنا: - أى الدجال- لا تقتلوا أحدًا دونى، فيتركونه، ثم يأتون به إلى الدجال فيشهد هذا الرجل المسلم أنه هو الدجال الذى أخبر به النبى ﷺ فيغضب عليه، ويأمر بالمنشار فيُنشر من رأسه إلى ما بين رجليه...يعنى يشقه طُولًا ويجعل كل فرقة منه فى جانب، ويمشى بينهما، ثم يدعوه فيخرج ويقوم يتهلل وجهه، وهو يقول: والله ما ازددت فيك إلا بصيرة، ثم يريد أن يقتله ويعجز[١] ..لأن الله ﷻ يجعل ما بين رقبة هذا الشاب إلى تَرقُوته نُحاسًا فلا يستطيع أن يقتله.

۞ إن الدَّجَّال سيسير فى الأرض كلها ولن يترك قرية إلا نزل فيها.. إلا مكَّة والمدينة فإنَّ الله ﷻ قد حفظ مكة والمدينة من الدَّجَّال فلا يستطيع أن يدخلهما أبدًا.

---

(١) بتصرف من كتاب (شرح رياض الصالحين).

۞ قال ﷺ: «عَلَى أَنْقَابِ المَدِينَةِ مَلاَئِكَةٌ لاَ يَدْخُلُهَا الطَّاعُونُ، وَلاَ الدَّجَّالُ»[١].

فإذا عجز الدجال عن دخول مكة والمدينة فلا بد أن يخرج إليه المنافقون حتى يتبعوه... ولذا أخبرنا النبى ﷺ عن كيفية خروج المنافقين من المدينة المنورة فقال ﷺ: «لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ، إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، وَلَيْسَ نَقْبٌ مِنْ أَنْقَابِهَا إِلَّا عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ صَافِّينَ تَحْرُسُهَا، فَيَنْزِلُ بِالسَّبْخَةِ[٢]، فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ، يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْهَا كُلُّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ»[٣].

۞ وبعد خروج الدجال وإفساده فى الأرض طوال هذه الفترة يُنزل الله عَزَّوَجَلَّ عيسى ابن مريم رسول الله ﷺ... ينزل واضعًا كفَّيه على أجنحة ملكين ؛ لأن الملائكة أولو أجنحة... ينزلان به من السماء؛ لأن عيسى الآن حيٌّ فى السماء، ينزل عند قيام الساعة ليقتل الدجال... ينزل، وكأنه والله أعلم قد اغتسل بماءٍ طيب، إذا طأطأ رأسه قَطَّرَ ماءً، وإذا رفعه تَحدَّر منه مثل الجُمان، فيحتمل أن هذا ماء ويحتمل أنه عرق والله أعلم... ثم إنه يطلبه أى يطلب الدجال الخبيث الماكر الأعور فلا يحل لكافرٍ يجدُ ريح نَفَس عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا مات.

- سبحان الله - نَفَسُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يقتل الكافر... ونَفَسُه ينتهى حيث ينتهى طرفه... وهذا أيضًا من آيات الله... يعنى أنفاسنا نحن لا تَعدُو إلا شِبرًا أو نحوه، لكن نَفَس عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ينتهى حيث ينتهى طرفه.

ومعنى ذلك أنه يقتل أُناسًا كثيرين من الكفار؛ لأن هذا النَّفس يطير فى الهواء، ولا يحل لكافر يجد نَفَسَه إلا مات... ينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق هكذا وصفه النبى ﷺ وهى لا بد أن تُوجَد عند نزول عيسى ابن مريم ﷺ... وبعد

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٨٨٠) كتاب فضائل المدينة، ومسلم (١٣٧٩) كتاب الحج.

(٢) السبخة: الأرض الرملية التى لا تنبت لملوحتها... وبعض أراضى المدينة كذلك.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٨٨١) كتاب فضائل المدينة، ومسلم (٢٩٤٣) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

نزوله يتبع الدجال فيُدركه عند باب لُدٍّ... وهو الآن في فلسطين التي استعمرها اليهود عليهم لعائن الله إلى يوم القيامة... يدرك عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ المسيحَ الدجال فيقتله هناك، وبهذا ينتهي المسيح الدجال، ويبقى المسيح رسول الله عيسى ﷺ.

ثم يأتي عيسى ابن مريم قومًا قد عصمهم الله عَزَّوَجَلَّ من فتنة الدجال، فيمسح على وجوههم ويبشرهم بمنازلهم في الجنة... فبينما هم كذلك - يعني على حالهم - إذ يوحي الله عَزَّوَجَلَّ إلى عيسى أني قد أخرجت عبادًا لي لا يَدان لأحدٍ بقتالهم... وهؤلاء العباد ليسوا عبادَ دين بل عباد قدر. ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[1]، هؤلاء العباد هم يأجوج ومأجوج من كل حدبٍ يَنسِلون - أي من كل مكانٍ مرتفع ينسلون - لأن الشعاب والأودية لا تسعهم فتجدهم يصعدون الجبال لينزلوا إلى الأرض من كثرتهم... هؤلاء من بني آدم ليسوا جنًّا ولا جنسًا ثالثًا بل هم من بني آدم.

ودليل ذلك أن النبي ﷺ قال: «**يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: يَا آدَمُ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ قَالَ: فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ**» قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: «**أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، وَمِنْكُمْ رَجُلٌ**» قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ**» فَحَمِدْنَا اللهَ وَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ**» فَحَمِدْنَا اللهَ وَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ.. إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الْأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ**»[2].

(١) سورة مريم: الآية: (٩٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٤٨) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (٢٢٢) كتاب الإيمان.

۞ ولقد ورد عن النبى ﷺ أن أهل الجنة مائة وعشرون صفًا منهم ثمانون من هذه الأمة..المهم أن يأجوج ومأجوج من بنى آدم، شكلهم شكل بنى آدم لا يختلفون عنهم، أما ما ورد فى بعض الآثار أن منهم القصير المفرط فى القِصَر، والطويل المفرط فى الطول، وأن بعضهم يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى كل هذا لا صحة له... بل هم من بنى آدم ومثلهم، لكنهم أمم عظيمة كما قال تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[1]، أى من كل مرتفع ؛ لأن الأرض السهلة لا تسعهم من كثرتهم ﴿يَنسِلُونَ﴾ أى يسرعون كأنهم مُسلَّطون على بنى آدم، فيقول الله عَزَّوَجَلَّ لعيسى: إنى قد بعثت عبادًا لا يدان لأحدٍ بقتالهم-يعنى ما لأحدٍ على قتالهم من قوة - فحرِّز عبادى إلى الطور - يعنى احترزوا فيه -.

والطور جبلٌ معروف، فيصعد عيسى ﷺ ومَن معه إلى الطور ويُحصَرون فيه حتى إنهم يلحقهم من الجوع وشدة المؤنة ما يكون رأس الثور أحب إلى أحدهم من مائة دينار... وحينئذٍ يرغب عيسى وقومه إلى الله عَزَّوَجَلَّ يدعون الله تعالى أن يصرف عنهم هذه الأمم التى حاصرتهم فى هذا الجبل، فيرسل الله تعالى عليهم النَّغَف وهو عبارة عن دودٍ يكون فى أُنوف الإبل والغنم... فيرسله الله فى رقابهم فيُصبحون فَرَسَى - جمع فريسة يعنى موتى - كنفسٍ واحدة... كل هذه الأمم التى لا يُحصيها إلا الله تموت فى ليلة واحدة ؛ لأن الأمر بيد الله عَزَّوَجَلَّ ... فهذا النغف حينما يدخل فى أعناقهم يموتون على الفور.

ثم ينزل عيسى ابن مريم وقومه إلى الأرض..وإذا الأرض مملوءة من هذه الجثث نَتنًا ورائحة خبيثة، فيرغب عيسى وقومه إلى الله عَزَّوَجَلَّ أن يُخلصهم من هذا، فيرسل الله تعالى طُيورًا كأعناق البُخت - يعنى مثل أعناق الإبل - طيورًا كبيرة قوية تأخذ الواحد منهم وتُلقيه فى البحر... ومعنى هذا أنها طيورٌ عظيمة لا

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٦٩).

يعلم عددها إلا الله عَزَّوَجَلَّ... كل هذا بقدرة الله سبحانه وتعالى ؛ لأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن فيكون... لا تستغرب، لا تَقُل من أين جاءت الطيور؟ وكيف توالدت؟ الله على كل شيء قدير... هذه الطيور مثل أعناق الإبل تحمل الواحد وتُلقيه في البحر ولا يبقى منهم أحد...

لكن كما تعلمون لا بد أن يبقى في الأرض شيء من القذر والأذى والرائحة بعد هذه الجثث... فيرسل الله تعالى مطرًا عظيمًا يغسل الأرض لا يُكَنُّ منه مَدَر ولا وَبَر.. كل الأرض تمتلئ ماء حتى تكون كالزَّلقة! -أي: كالمرآة- تنظف تنظيفًا تامًا بإذن الله عَزَّوَجَلَّ... ويأمر الله الأرض أن تُخرج بركاتها، وثمراتها فيكون فيها الثمرات العظيمة، والخير والبركة، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي فئامًا من الناس... ومن البقر تكفي القبيلة من الناس... ومن الغنم تكفي الفخذ من الناس... وهي واحدة لكن الله يُنزل فيها البركة فتكفي أُممًا، وتكثر الخيرات والبركات...وكل هذا يدل على عظمة وقدرة الله عَزَّوَجَلَّ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1]، بدلًا من حصرتهم في الطور لا يجدون شيئًا إذا بالأرض تنبت وتنزل فيها البركة والثمار.. وغير ذلك، كل هذا بأمر الله عَزَّوَجَلَّ[2].

❊❊❊

(١) سورة الشرح: الآيتان: (٥، ٦).

(٢) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (٤/ ٣٠٤-٣٠٥) بتصرف كبير.

(٧) المُجاهد فى سبيلى هو علىَّ ضامنٌ

۞ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: المُجَاهِدُ فِى سَبِيلِى هُوَ عَلَىَّ ضَامِنٌ، إِنْ قَبَضْتُهُ أَوْرَثْتُهُ الجَنَّةَ، وَإِنْ رَجَعْتُهُ رَجَعْتُهُ بِأَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»(١).

۞ وفى رواية: عن أبى هُريرة رضي الله عنه، قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «تَضَمَّنَ الله لِمَنْ خَرَجَ فى سبيلِهِ، لا يُخْرجُهُ إلا جِهَادٌ فى سَبيلى، وإيمانٌ بى وتَصدِيقٌ برُسُلى فَهُو عَلَىَّ ضامِنٌ أنْ أُدخِلَهُ الجنَّة، أوْ أرجِعَهُ إلى مَسكَنِهِ الذى خَرَجَ منهُ بما نَالَ مِن أجْرٍ، أوْ غَنِيمَة، والذى نَفْسُ مُحمَّدٍ بيَدِهِ ما مِنْ كَلْمٍ يُكلَم فى سبيلِ الله إلا جاءَ يومَ القِيامةِ كهَيْئَتِهِ حينَ كُلِم، لونُهُ لَوْن دم، ورِيحُهُ ريحُ مِسْك، والذى نَفْسُ محمَّدٍ بيده لوْلا أنْ يَشُقَّ على المسلمينَ ما قَعَدتُ خلاف سرِيَّة تَغْزُو فى سَبيلِ الله أبَدًا، ولكنْ لا أجِدُ سَعَةً فأحمِلَهُم ولا يجدُون سَعَةً، ويَشُقُّ عليهِم أن يتخَلَّفُوا عنِّى، والذى نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ، لوَدِدتُ أن أغزوَ فى سبيلِ الله، فأُقْتَل، ثمَّ أغْزو، فأُقتل، ثمَّ أغزو، فأُقتل»(٢).

وعنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «ما مِنْ مَكلوم يُكْلَمُ فى سبيلِ الله إلا جاءَ يومَ القِيامةِ، وكَلْمُهُ يُدمى: اللوْنُ لونُ دمٍ والريحُ ريحُ مِسْكٍ»(٣).

۞ ففى هذا الحديث يقول الحبيب المصطفى ﷺ: «تَضَمَّنَ الله» وفى رواية: «تكفَّل الله» أى: أوجب الله عز وجل على نفسه فضلًا منه وإحسانًا «لِمَنْ خَرَجَ فى سبيلِهِ» مجاهدًا فى سبيل الله عز وجل «لا يُخْرجُهُ إلا جِهَادٌ فى سَبيلى، وإيمانٌ بى وتَصدِيقٌ برُسُلى» أى: لا يُخرجه إلا الجهاد فى سبيل الله عز وجل... فلم يخرج من أجل دنيا ولا غنيمة ولا رياء ولا سُمعة ولا عصبية وإنما خرج جهادًا فى سبيل

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨١٣٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٧٦) كتاب الإمارة - وروى البخارى بعضه (٣٦) كتاب الإيمان.
«الكَلْمُ»: الجرح.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٣٣) كتاب الذبائح والصيد - ومسلم (١٨٧٦) كتاب الإمارة.

الله وإيمانًا بالله وبوعده وتصديقًا برسله وإخبارهم ورسالتهم... فالله عَزَّوَجَلَّ تكفل لمن فعل ذلك بأن يضمن له دخول الجنة والفوز بما فيها من النعيم المقيم دون سابقة عذاب إن مات شهيدًا.. أو أن يُسلِّمه من كل مكروهٍ فيعود إلى منزله الذى خرج منه بما نال من الأجر والثواب والغنيمة.

وَهَذَا الضَّمَانُ وَالْكَفَالَةُ مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «**أَنْ أُدخِلَهُ الْجَنَّةَ**» قَالَ الْقَاضِى: يَحتَمِلُ أَنْ يَدخُلَ عِنْدَ مَوْتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِى الشُّهَدَاءِ: ﴿**أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ وَفِى الْحَدِيثِ: «**أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فِى الْجَنَّةِ**» قَالَ: وَيَحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ دُخُولَهُ الْجَنَّةَ عِنْدَ دُخُولِ السَّابِقِينَ وَالْمُقَرَّبِينَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ وَلَا مُؤَاخَذَةٍ بِذَنْبٍ وَتَكُونُ الشَّهَادَةُ مُكَفِّرَةً لِذُنُوبِهِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِى الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ.

وَمَعنَى الْحَدِيثِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى ضَمِنَ أَنَّ الْخَارِجَ لِلْجِهَادِ يَنَالُ خَيْرًا بِكُلِّ حَالٍ فَإِمَّا أَنْ يُسْتَشْهَدَ فَيدخُلَ الْجَنَّةَ، وَإِمَّا أَنْ يَرجِعَ بِأَجْرٍ وَإِمَّا أَنْ يَرجِعَ بِأَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ.. قَوْلُهُ ﷺ: «**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده مامن كَلْمٍ يُكْلَمُ فِى سَبِيلِ اللهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ**» أَمَّا الْكَلْمُ فَهُوَ الْجُرحُ وَيُكْلَمُ أَىْ يُجْرَحُ... وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الشَّهِيدَ لَا يَزول عنه الدم بغسل ولا غيره... وَالْحِكْمَةُ فِى مَجِيئِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى هَيْئَتِهِ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ شَاهِد فَضِيلَتِهِ وَبَذْلِهِ نَفْسَهُ فِى طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى... وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْيَمِينِ وَانْعِقَادِهَا بِقَوْلِهِ: «**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ**» وَنَحوِ هَذِهِ الصِّيغَةِ مِنَ الْحَلِفِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الذَّاتِ وَلَا خِلَافَ فِى هَذَا... قَالَ أَصحَابُنَا: الْيَمِينُ تَكُونُ بِأَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ أَوْ مَا دَلَّ عَلَى ذَاتِهِ[1].

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٣٠-٣١) بتصرف.

قوله ﷺ: «**لَوْلا أنْ يَشُقَّ على المسلمينَ ما قَعَدتُ خلافَ سرِيَّة تَغْزُو فى سَبيلِ الله أبَدًا، ولكنْ لا أجِدُ سَعَةً فأحمِلَهُم ولا يجدُون سَعَةً فيتبعونى**»، فالنبى ﷺ يود ويحب أن يخرج فى كل غزوة وسرية ولا يتخلف أبدًا عن الجهاد، ولكن هناك فئة من المسلمين ليس عندهم مؤنة ليخرجوا للجهاد، وليس عند النبى ﷺ مؤنة تكفيهم..فستضطر هذه الفئة أن تتخلف عن الخروج، وستشعر بالحرج الشديد لعدم الخروج وعدم الصحبة، لذلك أشفق عليهم النبى ﷺ ورأف بحالهم وقعد خلف السرايا.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِيهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ ﷺ مِنَ الشَّفَقَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالرَّأْفَةِ بِهِمْ وَأَنَّهُ كَانَ يَتْرُكُ بَعضَ مَا يَخْتَارُهُ لِلرِّفْقِ بِالْمُسْلِمِينَ وَأَنَّهُ إِذَا تَعَارَضَتِ الْمَصَالِحُ بَدَأَ بِأَهَمِّهَا وَفِيهِ مُرَاعَاةُ الرِّفْقِ بِالْمُسْلِمِينَ وَالسَّعيِ فِي زَوَالِ الْمَكْرُوهِ وَالْمَشَقَّةِ عَنْهُمْ.

قَوْلُهُ ﷺ: «**لوددت أن أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ**» فِيهِ فَضِيلَةُ الْغَزْوِ وَالشَّهَادَةِ... وَفِيهِ تَمَنِّي الشَّهَادَةِ وَالْخَيْرِ وَتَمَنِّي مَا لايمكن فِي الْعَادَةِ مِنَ الْخَيْرَاتِ... وَفِيهِ أَنَّ الْجِهَادَ فرض كفاية لا فرض عَيْنٍ[١].

۞ وفى الحديث فوائد جَمَّة تظهر فى الفوائد التالية:

الفائدة الأولى: حرص النبى ﷺ على أعمال الخير والتقرب إلى ربه عَزَّوَجَلَّ: «**لَوْلا أنْ يَشُقَّ على المسلمينَ ما قَعَدتُ خلاف سرِيَّة**»، وقوله: «**لوددت أن أغزو فى سبيل الله**».

الفائدة الثانية: عِظَم أمر الجهاد فى سبيل الله وجزيل ثوابه، حتى إن النبى ﷺ يقسم بربه أنه يود أن يخرج فى كل سرية لولا إيثار رفع الحرج عن بعض أفراد الأمة.

الفائدة الثالثة: قد يريد المسلم عمل خير يبتغى به وجه الله عَزَّوَجَلَّ ولكن يُحال

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٣٢).

بينه وبين هذا العمل، لسببٍ خارج عنه، مثل عدم وجود المئونة.

الفائدة الرابعة: فى الحديث ما يثبت أن النبى ﷺ عبدٌ من عباد الله، يفتقر إلى الله فيما يفتقر إليه كل العباد، مثل الرزق والصحة وطلب جلب النفع ودفع الضُّر، إلا أنه فُضِّل على الأنبياء وجميع الناس بما ورد فى الكتاب والسُّنة.

الفائدة الخامسة: أن الله لا يُكلف نفسًا إلا وسعها..فهؤلاء لم يخرجوا لعدم الاستطاعة، ومع عدم خروجهم لم يتوجه إليهم اللوم أو العتاب... بل قعد الرسول ﷺ خلف السرية تطييبًا لخاطرهم.

الفائدة السادسة: هل الذى يقعد خلف السرية لعذر له أجر أم لا؟

نعم له أجر، لحديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال: «**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: «**وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**»[(١)].

الفائدة السابعة: يُشترط لضمان حصول المجاهد على أجر الجهاد، ثلاثة شروط:

الأول: النية الخالصة: التى لا تشوبها شائبة، مثل الرياء، والسمعة، والحمية قال: «**لا يُخرجه إلا جهادٌ فى سبيلى**».

الثانى: الإيمان بالله: فهو الذى دفعه للخروج يحتسب الأجر والثواب من الله.

الثالث: التصديق برسل الله: ويتضمن الإيمان بكل ما جاء به الرسل من أوامرٍ ونواهٍ، والتصديق بما أبلغونا عن أجر وثواب الخروج فى سبيل الله.

وهذا هو الذى دفعهم للخروج..وهذا ينطبق على جميع الأعمال التى نتقرب بها إلى الله.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٤٢٣) كتاب المغازى.

الفائدة الثامنة: قوله: «**حقٌّ على الله**»، أوجبه هو على نفسه، أن يكافئ المجاهد في سبيله بإحدى الثلاثة على الأقل، إما الجنة في حال موته في سبيل الله، وإما الأجر في حال عدم النصر في المعركة، وإما الغنيمة والأجر في حال النصر، وهذا من البركة العظيمة للجهاد ألا يخرج منه المسلم صفر اليدين.

الفائدة التاسعة: في الحديث عظيم حب الصحابة للنبى ﷺ إذ يَشُق عليهم أن يخرج الرسول ﷺ في الغزو، ويتخلفوا عنه.

الفائدة العاشرة: في الحديث أن للخروج في سبيل الله شروطًا حتى يتكفل الله بالثواب، «**لا يُخرجه إلا جهادٌ في سبيلى**»، وقال: «**ما من كَلْمٍ يُكلَم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة**»، فاشترط أن يكون لله وإن كان جرحًا يسيرًا.

ولما كانت النيات لا يعلمها إلا الله، فلا يحق لنا أن نحكم لأحدٍ أنه مات شهيدًا، أو نحكم على أحدٍ أنه لم يَمُت شهيدًا.

الفائدة الحادية عشرة: يُستثنى من ذلك- أى حكمنا بالشهادة على أحد من المسلمين بعينه- مَن حكم له الله أو رسوله ﷺ أنه مات شهيدًا أو سيموت شهيدًا... كعمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره من الصحابة كثير.

الفائدة الثانية عشرة: ينبنى على ذلك أن الشهداء ثلاثة أقسام:

الأول: شهيد الدنيا والآخرة: وهو الذى قاتل لتكون كلمة الله هى العليا بإخلاصٍ ونية.

والثانى: شهيد الدنيا دون الآخرة: وهو الذى يموت سُمعة ورياء.

والثالث: شهيد الآخرة دون الدنيا: وقد عدَّهم النبى ﷺ في الحديث الذى رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال النّبىُّ ﷺ: «**الشهداء: الغرق، والمطعون، والمبطون، والهدم**»[1] وغيرهم كثيرٌ.. فقد ورد ذكرهم في أحاديث كثيرة.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٧٢٠) كتاب الأذان.

۞ **وأحكام الشهداء على النحو التالى:**

الأول: لا يُغسَّل ولا يُكفَّن فى الدنيا ويدخل الجنة بحول الله.

والثانى: لا يُغسل ولا يُكفن فى الدنيا، وأمره فى الآخرة إلى الله عَزَّوَجَلَّ إن شاء عذَّبه وإن شاء غفر له.

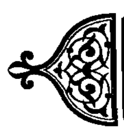
والثالث: يُغسَّل ويُكفن ويُصلَّى عليه، وفى الآخرة يُرجى له الجنة بشهادته[١].

---

(١) شمائل الرسول ﷺ/ الشيخ أحمد عبد الفتاح (١/ ٣٨٥-٣٨٨) بتصرف كبير.



(٨) موسى عليه السلام .. وعجوز بني إسرائيل



۞ روى الحاكم في مستدركه عَنْ أَبِي مُوسَى: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَزَلَ بِأَعْرَابِيٍّ فَأَكْرَمَهُ، فَقَالَ لَهُ: «يَا أَعْرَابِيُّ سَلْ حَاجَتَكَ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَاقَةً بِرَحلِهَا وَأَعنُزَ يَحلبُهَا أَهْلِي. قَالَهَا مَرَّتَيْنِ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَعَجَزْتَ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟» فَقَالَ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا عَجُوزُ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟

قَالَ: «إِنَّ مُوسَى لَمَّا سَارَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ ضَلُّوا الطَّرِيقَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ عُلَمَاؤُهُمْ: نَحْنُ نُحَدِّثُكَ: إِنَّ يُوسُفَ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَخَذَ عَلَيْنَا مَوْثِقًا مِنَ اللهِ أَنْ لا نَخْرُجَ مِنْ مِصْرَ حَتَّى نَنْقُلَ عِظَامَهُ مَعَنَا، قَالَ: فَمَنْ يَعْلَمُ مَوْضِعَ قَبْرِهِ، قَالُوا: ما ندرى أين قبر يوسف إلا عَجُوزٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا فَأَتَتْهُ، فَقَالَ: دُلُّونِي عَلَى قَبْرِ يُوسُفَ، قَالَتْ: لا والله لا أفعل، حَتَّى تُعْطِيَنِي حُكْمِي، قَالَ: وَمَا حُكْمُكِ؟ قَالَتْ: أَكُونُ مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ. فَكَرِهَ أَنْ يُعْطِيَهَا ذَلِكَ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: أَنْ أَعْطِهَا حُكْمَهَا، فَانْطَلَقَتْ بِهِمْ إِلَى بُحَيْرَةٍ؛ مَوْضِعِ مُسْتَنْقَعِ مَاءٍ، فَقَالَتْ: أَنْضِبُوا هَذَا الْمَاءَ، فَأَنْضَبُوا، قَالَتِ: احفروا وَاسْتَخْرِجُوا عِظَامَ يُوسُفَ، فَلَمَّا أَقَلُّوهَا إِلَى الْأَرْضِ؛ إِذَا الطَّرِيقُ مِثْلُ ضَوْءِ النَّهَارِ»[١].

۞ هذه قصة عجوز من عجائز بنى إسرائيل، أُتيحت لها فرصة عظيمة فاهتبلتها، لا لتحصل منها على مال الدنيا ومتاعها، ولكن لتحصل على الدرجات العالية فى جنات النعيم... فقد طلب منها موسى أن تدله على قبر يوسف ليأخذ جسده معه عند خروجه ببنى إسرائيل من مصر، فأبت إلا إذا أعطاها طلبها بأن تكون معه فى الجنة يوم القيامة، فأعطاها الله طلبها،

---

(١) صحيح: رواه أبو يعلى، والحاكم، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٣١٣).

وهكذا تكون الهمم العالية، والنفوس التى ترغب فى بلوغ المنازل الرفيعة، وقد تطلَّع جَمعٌ من الصحابة إلى بلوغ هذه المنزلة... من هؤلاء عُكَّاشة بن مِحصن الذى طلب من الرسول ﷺ أن يكون من صفوة البشرية، وهم سبعون ألفًا أخبر الرسول ﷺ أنهم يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم على صورة القمر ليلة البدر، فأخبر الرسول ﷺ عكاشة أنه منهم... ومنهم أبو بكر الذى تَطلَّع إلى أن يُدعَى من جميع أبواب الجنة.

ومنهم ذلك الصحابى الذى طلب من الرسول ﷺ أن يكون رفيقه فى الجنة، فقال له: أعنِّى على نفسك بكثرة السجود.

وكان سبب تحديث الرسول ﷺ بقصة عجوز بنى إسرائيل التى تضمنها هذا الحديث أن أعرابيًّا استضاف الرسول ﷺ فأكرم وفادته، فطلب منه الرسول ﷺ أن يأتيه، ليجزيه بالإحسان إحسانًا، فلما جاءه سأله الرسول ﷺ حاجته، فطلب منه قليلًا من متاع الدنيا وعَرَضها... إنه يُريد ناقة برحلها لركوبه، وأَعنُزًا لأهله يقتاتون بحليبها.

هنا استصغر رسول الله ﷺ حاجته وطلبه، وحدَّث حديث عجوز بنى إسرائيل التى طلبت من موسى عليه السلام طلبًا عظيمًا عندما أُتيحت لها الفرصة، فقد اشترطت عليه حتى تُجيب طلبه أن تكون معه فى الجنة.

لم تطلب من رسولها فضّة ولا ذهبًا، ولم تطلب جِمالًا أو بقرًا أو غنمًا، فلو طلب هذا الأعرابى من الرسول ﷺ مثل طلبها عندما قال له الرسول ﷺ سَلْ حاجتك، لأفلح أيما فلاح . فالرسول ﷺ مُجاب الدعوة، ولو طلب منه أن يدعو له بخير الآخرة لنال خيرًا كثيرًا.

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن سبب اشتراط هذه العجوز على موسى مرافقته فى الجنة أنها كانت تعلم علمًا لا يعلمه غيرها من بنى إسرائيل، فقد كانت تعلم

موضع قبر يوسف عليه السلام، وكان يوسف قد أخذ العهد على مَن كان عنده من بنى إسرائيل أن يجعلوا عظامه معهم عندما يخرجون من أرض مصر إلى الأرض المقدسة.

فلما أذن الله لموسى بالخروج هو وقومه، ضَلُّوا الطريق، فتعجَّب موسى من ذلك، وعلم أن فى الأمر سرًّا، فسأل مَن كان معه عما رأى من ضياعهم، فأعلمه علماؤهم بالميثاق الذى أخذه يوسف على آبائهم، عند ذلك سأل موسى عن قبر يوسف لينفذ طلبه، فلم يجد أحدًا يعرف قبره إلا عجوزًا من عجائز بنى إسرائيل، فطلب منها أن تدلهم على قبر يوسف، فأبت إلا إذا حقَّق لها موسى طلبها، وعندما استفسر منها عما تطلبه، وجدها تطلب أمرًا عظيمًا، إنها تريد أن تكون معه فى الجنة.

فكَرِهَ أن يُعطيها طلبها، إما لأنه استكثر عليها هذه المنزلة، ورأى أن هذا العمل الذى ستقوم به لا يُساوى تلك المنزلة التى تطلبها، وإما أنه لا يستطيع أن يُعطيها أمرًا لا يملكه، فأوحى الله إليه أن يُعطيها حكمها.. ومَن طلب من الله معالى الأمور حقَّق الله له طلبه، وإن لم يبلغ مبلغ الذين يستحقون تلك المنزلة، فالذى يطلب الشهادة بصدق يبلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه، والذى يطلب منازل المنفقين أو العلماء يبلغه الله منازلهم، وإن لم يعمل عملهم.

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ بأن العجوز بعد أن أعطاها موسى حكمها ذهبت بهم إلى موضع مستنقع ماء، وطلبت منهم أن ينضحوا ذلك الماء .. واستخرجوا جسده من ذلك الموضع، فلما رفعوه وساروا به، أضاء لهم الطريق كأنَّما هم فى ضوء النهار.

عِبر الحديث وفوائده

(١) حثَّ الرسول ﷺ أصحابه وأمته على طلب المنازل العالية كما فعلت هذه العجوز فى طلبها من موسى عليه السلام ... وقد صحَّ عن الرسول ﷺ أنه طلب من صحابته أن يسألوا الله الفردوس، وهو وسط الجنة، وأعلى الجنة، وسقفه عرش الرحمن.

(٢) إخبار الرسول ﷺ ببعض الوقائع الدقيقة التى وقعت لأهل الكتاب مما لا يعرفه أهل الكتاب، ومن ذلك قصة هذه العجوز.

(٣) تصويب الحديث لبعض ما ذُكر فى التوراة من وقائع وأحداث.

(٤) وجود النساء الخيرات صاحبات الهمم العاليات فى بنى إسرائيل.

(٥) خبر أخذ يوسف العهد على بنى إسرائيل بنقل عظامه إلى الأرض المقدسة، وخبر نقل بنى إسرائيل لها، ولكننا لا نعلم الموضع الذى دُفنت فيه.

(٦) جواز أخذ الأنبياء والصالحين العهود على أتباعهم وأقاربهم بفعل ما فيه صلاحهم.

(٧) العهود التى أُخذت على أوائل الأمم لازمة لمن جاء بعدهم، فعهد يوسف الذى أخذه على مَن كان معه لَزِمَ الذين جاؤوا من بعد، وكذلك عهود بنى إسرائيل التى أُخذت على أوائلهم من الله أو من رسلهم لازمة لهم، وكذلك العهود التى أُخذت على رسولنا ﷺ وصحابته.

(٨) قد يُحرَم العباد التوفيق إن لم يُنفذِّوا مراد الله وشرعه، كما ضاع بنو إسرائيل عند تركهم عظام يوسف حال خروجهم.

(٩) لا يُناقض هذا الحديث ما صحَّ عن رسولنا من أن الله حرَّم على الأرض أكل أجساد الأنبياء، والمراد بعظام يوسف فى الحديث جثته، وليس المقصود أنه

بَلِيَ، ولم يبقَ منه إلا عظامه.

(١٠) عدم اهتمام بنى إسرائيل فى العهد الأول تقديس قبور الأنبياء بدلالة عدم معرفة بنى إسرائيل - وفيهم نبى الله موسى - بموضع قبر يوسف عليه السلام[1].

(١) صحيح القصص النبوى / د. عمر الأشقر (ص ١٠٥-١٠٨).

(٩) قصة موسى مع ملك الموت عليه السلام

۞ عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عليه السلام . فَقَالَ لَهُ: أَجِبْ رَبَّكَ(١) قَالَ: فَلَطَمَ مُوسَى عليه السلام عَيْنَ مَلَكِ الْمَوْتِ فَفَقَأَهَا، قَالَ: فَرَجَعَ الْمَلَكُ إِلَى اللهِ تَعَالَى، فَقَالَ: إِنَّكَ أَرْسَلْتَنِى إِلَى عَبْدٍ لَكَ لا يُرِيدُ الْمَوْتَ، وَقَدْ فَقَأَ عَيْنِى، قَالَ: فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ عَيْنَهُ وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى عَبْدِى فَقُلْ: الْحَيَاةَ تُرِيدُ؟ فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ(٢) ، فَمَا تَوَارَتْ يَدُكَ(٣) مِنْ شَعْرَةٍ، فَإِنَّكَ تَعِيشُ بِهَا سَنَةً، قَالَ: ثُمَّ مَهْ؟(٤) قَالَ: ثُمَّ تَمُوتُ، قَالَ: فَالآنَ مِنْ قَرِيبٍ، رَبِّ أَمِتْنِى مِنَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، رَمْيَةً بِحَجَرٍ»(٥) ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «وَاللهِ لَوْ أَنِّى عِنْدَهُ لأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ، عِنْدَ الْكَثِيبِ الأَحْمَرِ(٦) »(٧) .

۞ يخبرنا الرسول ﷺ أن من كرامة الأنبياء عند ربهم (جل وعلا) أنهم يُخيَّرون عند الموت بين البقاء فى هذه الحياة وبين الرحيل والانتقال إلى الرفيق الأعلى.

ومن هنا يحكى لنا النبى ﷺ قصة موسى عليه السلام أن الله أرسل إليه ملك الموت فى صورة رجل فدخل عليه بيته دون أن يستأذن عليه وقال له: أجب ربك.. وكان ذلك إيذانًا بأن أجله قد حضر وأن ساعة موته قد أتت.

---

(١) أجب ربك: أى للموت، ومعناه: جئت لقبض روحك.

(٢) متن الثور: ظهره.

(٣) فما توارت يدك: أى ما سترت ووارت.

(٤) مه: استفهام، أى: ثم ماذا؟ أحياة أم موت؟

(٥) رمية حجر: قدر ما يبلغه الحجر إذا رُمى.

(٦) الكثيب الأحمر: الكثيب: الرمل المجتمع.

(٧) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٣٩) كتاب الجنائز – ومسلم (٢٣٧٢) كتاب الفضائل.

فلم يعرف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن هذا هو ملك الموت لأنه جاءه فى صورة رجل.. فما كان منه إلا أنه قام ولطم وجه ملك الموت ففقأ عينه - أى: عينه البشرية التى تَمثَّل بها وإلا فلو كان ملك الموت فى صورته الملائكية لما استطاع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يلطم وجهه ولا أن يقدر عليه -.

فرجع ملك الموت إلى ربه (جل وعلا) ليشكو إليه ما أصابه من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال له: إنك أرسلتنى إلى عبدٍ لك لا يريد الموت وقد فقأ عينى.

فما كان من الله (جل وعلا) إلا أن ردَّ إلى ملك الموت عينه كما كانت.

ثم أمره أن يعود مرة أخرى إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأن يسأله إن كان يريد الحياة فعليه أن يضع يده على ظهر ثَور ثم يعد الشعرات التى غطتها يده فيكون له بكل شعرة من تلك الشعرات سنة يعيشها فى هذه الحياة ويكون أجله من السنوات بعدد تلك الشعرات وبذلك يعيش حياة طويلة جدًّا إن كان يريد الحياة.

ولكن موسى عندما استعلم من ملك الموت عما وراء تلك الحياة المديدة قال له: الموت... فاختار الموت من قريب. فما عند الله لرسله وأنبيائه والصالحين من عباده خيرٌ وأبقى.

إذا كانت أرواح الشهداء فى حواصل طيرٍ خُضر، تسرح فى رياض الجنة وتأكل من ثمارها، وتشرب من أنهارها، وتأوى إلى قناديل مُعلَّقة فى سقف عرش الرحمن، فإن حياة الرسل والأنبياء فوق ذلك كله، وماذا كان سينال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لو بقى حيًّا إلى يومنا...كان سيعانى من مصائب الحياة وبلاياها، وسيعاصر تلك الأحداث الكبار على مَرِّ التاريخ التى تشغل الفكر، وتُدمى القلب، أَوَليس خيرًا له أن يكون فى الرفيق الأعلى مع الرسل والأنبياء يتقلب فى جنات النعيم، من أن يبقى فى دار الشقاء والبلاء؟!!

لقد خُيِّر موسى فاختار... اختار لقاء الله على حياة مديدة طويلة، فما عند الله خير وأبقى، والآخرة خير من الأولى.

وقد طلب من ربه عند قبض روحه أن يُدنيه من الأرض المقدسة حتى يكون منها رمية بحجر.

واستجاب الله دعاء موسى، وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن قبر موسى هناك على مشارف الأرض المباركة عند الكثيب الأحمر، وأنه لو كان هناك لأراه أصحابه[1].

۞ قال بعض العلماء: وإنما سأل الإدناء ولم يسأل نفس بيت المقدس لأنه خاف أن يكون قبره مشهورًا عندهم، فيفتتن به الناس.

وفى هذا استحباب الدفن فى المواضع الفاضلة، والمواطن المباركة، والقرب من مدافن الصالحين. والله أعلم).

۞ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَالَ ابن خُزَيْمَةَ: أَنْكَرَ بَعْضُ الْمُبْتَدِعَةِ هَذَا الْحَدِيثَ وَقَالُوا: إِنْ كَانَ مُوسَى عَرَفَهُ فَقَدِ اسْتَخَفَّ بِهِ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَعْرِفْهُ فَكَيْفَ لَمْ يُقْتَصَّ لَهُ مِنْ فَقْءِ عَيْنِهِ؟.

وَالْجَوَابُ: أَنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْ مَلَكَ الْمَوْتِ لِمُوسَى وَهُوَ يُرِيدُ قَبْضَ رُوحِهِ حِينَئِذٍ، وَإِنَّمَا بَعَثَهُ إِلَيْهِ اخْتِبَارًا، وَإِنَّمَا لَطَمَ مُوسَى مَلَكَ الْمَوْتِ لِأَنَّهُ رَأَى آدَمِيًّا دَخَلَ دَارَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ وَلَمْ يَعْلَمْ أنه ملك الْمَوْت، وَقد أَبَاحَ الشَّارِع فقء عَيْنِ النَّاظِرِ فِي دَارِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ إِذْنٍ، وَقَدْ جَاءَتِ الْمَلَائِكَةُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِلَى لُوطٍ فِي صُورَةِ آدَمِيِّينَ فَلَمْ يَعْرِفَاهُمِ ابْتِدَاءً، وَلَوْ عَرَفَهُمْ إِبْرَاهِيمُ لَمَا قَدَّمَ لَهُمُ الْمَأْكُولَ، وَلَوْ عَرَفَهُمْ لُوطٌ لَمَا خَافَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَوْمِهِ.

وَعَلَى تَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ عَرَفَهُ فَمِنْ أَيْنَ لِهَذَا الْمُبْتَدِعِ مَشْرُوعِيَّةُ الْقِصَاصِ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْبَشَرِ؟ ثُمَّ مِنْ أَيْنَ لَهُ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ طَلَبَ الْقِصَاصَ مِنْ مُوسَى فَلَمْ يُقْتَصَّ لَهُ؟

---

(١) صحيح القصص النبوى (ص: ٩٩-١٠٠) بتصرف.

ولخص الْخطابِيّ كَلَام ابن خُزَيْمَةَ وَزَادَ فِيهِ: أَنَّ مُوسَى دَفَعَهُ عَنْ نَفْسِهِ لِمَا رُكِّبَ فِيهِ مِنَ الْحِدَّةِ، وَأَنَّ اللهَ رَدَّ عَيْنَ مَلَكِ الْمَوْتِ لِيَعْلَمَ مُوسَى أَنَّهُ جَاءَهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَلِهَذَا اسْتَسْلَمَ حِينَئِذٍ.

وَقَالَ النَّوَوِيُّ: لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمُوسَى فِي هَذِهِ اللَّطْمَةِ امْتِحَانًا لِلْمَلْطُوم.

وَقَالَ غَيْرُهُ: إِنَّمَا لَطَمَهُ لِأَنَّهُ جَاءَ لِقَبْضِ رُوحِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخَيِّرَهُ، لِمَا ثَبَتَ أَنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ حَتَّى يُخَيَّرَ، فَلِهَذَا لَمَّا خَيَّرَهُ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ أَذْعَنَ.

قِيلَ: وَهَذَا أَوْلَى الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ، وَفِيهِ نَظَرٌ لِأَنَّهُ يَعُودُ أَصْلُ السُّؤَالِ فَيُقَالُ: لِمَ أَقْدَمَ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَى قَبْضِ نَبِيِّ اللهِ وَأَخَلَّ بِالشَّرْطِ؟ فَيَعُودُ أَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ امْتِحَانًا.

وَقَالَ ابن قُتَيْبَةَ: إِنَّمَا فَقَأَ مُوسَى الْعَيْنَ الَّتِي هِيَ تَخْيِيلٌ وَتَمْثِيلٌ وَلَيْسَتْ عَيْنًا حَقِيقَةً، وَمَعْنَى رَدَّ اللهُ عَيْنَهُ أَيْ أَعَادَهُ إِلَى خِلْقَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ... وَقِيلَ: عَلَى ظَاهِرِهِ، وَرَدَّ اللهُ إِلَى مَلَكِ الْمَوْتِ عَيْنَهُ الْبَشَرِيَّةَ لِيَرْجِعَ إِلَى مُوسَى عَلَى كَمَالِ الصُّورَةِ فَيَكُونُ ذَلِكَ أَقْوَى فِي اعْتِبَارِهِ، وَهَذَا هُوَ الْمُعْتَمد.

وَجوَّز ابن عَقِيل: أَنْ يَكُونَ مُوسَى أُذِنَ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ بِمَلَكِ الْمَوْتِ وَأُمِرَ مَلَكُ الْمَوْتِ بِالصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ كَمَا أُمِرَ مُوسَى بِالصَّبْرِ عَلَى مَا يَصْنَعُ الْخَضِرُ.

۞ وَفِيهِ أَنَّ الْمَلَكَ يَتَمَثَّلُ بِصُورَةِ الْإِنْسَانِ، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ فِي عِدَّةِ أَحَادِيثَ، وَفِيهِ فَضْلُ الدَّفْنِ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ.

وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ: «**فَلَكَ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ**» عَلَى أَنَّ الَّذِي بَقِيَ من الدُّنْيَا كثيرًا جدًّا؛ لأن عَدَدَ الشَّعْرِ الَّذِي تُوَارِيهِ الْيَدُ قَدْرَ الْمُدَّةِ الَّتِي بَيْنَ مُوسَى وَبَعْثَةِ نَبِيِّنَا - مَرَّتَيْنِ وَأَكْثَرَ.

وَاسْتُدِلَّ بِهِ عَلَى جَوَازِ الزِّيَادَةِ فِي الْعُمُرِ وَقَدْ قَالَ بِهِ قَوْمٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا

يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾[١] أَنَّهُ زِيَادَةٌ وَنَقْصٌ فِى الْحَقِيقَةِ.

وَقَالَ الْجُمْهُورُ: وَالضَّمِيرُ فِى قَوْلِهِ: ﴿مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ لِلْجِنْسِ لَا لِلْعَيْنِ، أَىْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِ آخَرَ، وَهَذَا كَقَوْلِهِمْ عِنْدِى ثَوْبٌ وَنِصْفُهُ أَىْ وَنِصْفُ ثَوْبٍ آخَرَ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ أَىْ وَمَا يَذْهَبُ مِنْ عُمُرِهِ فَالْجَمِيعُ مَعْلُومٌ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى.

وَالْجَوَابُ: عَنْ قِصَّةِ مُوسَى أَنَّ أَجَلَهُ قَدْ كَانَ قَرُبَ حُضُورُهُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا مِقْدَارُ مَا دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَلَكِ الْمَوْتِ مِنَ الْمُرَاجَعَتَيْنِ فَأُمِرَ بِقَبْضِ رُوحِهِ أَوَّلًا مَعَ سَبْقِ عِلْمِ اللهِ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَقَعُ إِلَّا بَعْدَ الْمُرَاجَعَةِ وَإِنْ لَمْ يَطَّلِعْ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَى ذَلِكَ أَوَّلًا وَاللهُ أَعْلَمُ[٢].

---

(١) سورة فاطر: الآية: (١١).

(٢) فتح البارى (٦/ ٥١٠-٥١١).

(١٠) قصة شفاء أيوب عليه السلام

۞ أيوب العبد الصالح، الذى يُضرب به المثل فى الصبر، وتُروى قصته ليُواسَى بها المصابون فى أنفسهم وأهليهم وأموالهم ... كان صحيحًا فمرض، وغنيًّا فافتقر، وذا أهلٍ وولد، فأخذ الله أهله وولده، فصبر على ذلك كله صبراً جميلًا، لم يشتكِ، ولم يتأفف، وطال بلاؤه، ولم تهن عزيمته على طول البلاء، وجاء الفرج من الله عندما دعاه أيوب وناداه، فأصحَّ جسمه، وردَّ إليه ضِعفَى ما كان عنده من مالٍ وولدٍ، وبقى خبره من بعده حكاية تُروى، وقصة تُحكى، إنها قصة إمام الصابرين نبى الله أيوب.

۞ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ نَبِىَّ اللهِ أَيُّوبَ ﷺ لَبِثَ بِهِ بَلَاؤُهُ ثَمَانِىَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَينِ مِنْ إِخْوَانِهِ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ ذَاتَ يومٍ: أَتَعْلَمُ، وَاللهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ العَالَمِينَ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مُنْذُ ثَمَانِىَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ فَيَكْشِفُ مَا بِهِ.

فَلَمَّا رَاحا إِلَى أَيُّوب لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ: لَا أَدْرِى مَا تَقُولَانِ غَيْرَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنِّى كُنْتُ أَمُرُّ بالرَّجْلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ، فَيَذْكُرَانِ اللهَ، فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِى فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا، كَرَاهِيَةَ أَنْ يُذْكَرَ اللهُ إِلَّا فِى حَقٍّ.

قَالَ: وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَى حَاجَتِهِ فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهَا، وَأُوحِىَ إِلَى أَيُّوبَ أَنِ: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[١] فَاسْتَبْطَأَتْهُ فَتَلَقَّتْهُ تنظُر، وَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ، وَهُوَ أَحْسَنُ مَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: أَىْ بَارَكَ اللهُ فِيكَ، هَلْ رَأَيْتَ نَبِىَّ اللهِ

(١) سورة ص: الآية: (٤٢).

هَذَا الْمُبْتَلَى؟ وَاللهِ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا، قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هُوَ.

وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ (أي بيدران): أَنْدَرٌ لِلْقَمْحِ وَأَنْدَرٌ لِلشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللهُ سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ الْقَمْحِ أَفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَ، وَأَفْرَغَتِ الْأُخْرَى فِي أَنْدَرِ الشَّعِيرِ الْوَرِقَ – أي الفضة– حَتَّى فَاضَ»[١].

شرح الحديث

۞ أيوب عليه السلام أحد أنبياء الله الكرام الذين أوحى الله إليهم في جملة من أوحى إليه من أنبيائه: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾[٢].

وهو من ذرية إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٣].

۞ وقد أخبرنا الله عن قصته في موضعين من كتابه:

الأول: في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾[٤].

والثاني: في سورة ص في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ

---

(١) رواه أبو يعلى، وأبو نعيم، والحاكم، وصححه الألباني في الصحيحة (١٧).

(٢) سورة النساء: الآية: (١٦٣).

(٣) سورة الأنعام: الآية: (٨٤).

(٤) سورة الأنبياء: الآيتان: (٨٣-٨٤).

ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾[1].

وقد جاء فى السُّنة ما يزيد قصة أيوب وضوحًا وتفصيلًا...ويُستفاد من مجموع ما ورد فى القرآن والحديث فى شأن أيوب أنه كان قبل بلائه مُنَعَّمًا، يرفل فى بحبوحة من العيش، وقد رزقه الله المال والأهل والولد، ثم شاء الله أن يبتليه، فأذهب ماله وولده، وأُصيب فى جسده، فانفضَّ عنه مَن جمعتهم النعمة حوله، وجفاه القريب والبعيد، ولم يبقَ بارًّا به إلا زوجته، واثنان من كرام أصحابه، كانا يغدوان عليه ويأنس بهما.

وقد تَفكَّر أحد الرجلين فى حال أيوب، وامتداد بلائه، فقد مضى على البلاء الذى حَلَّ به ثمانى عشرة سنة، ولم يكشف الله عنه ما أصابه به، وجال بخاطره أن هذا البلاء ربما كان بسبب ذنبٍ عظيم ارتكبه أيوب، وأطلع هذا الرجل صاحبه على ما دار فى خلده، فلم يصبر أن صارح أيوب بما قاله عنه صاحبه، فآلم ذلك أيوب أشد الألم، وكشف لهما من حاله ما ينفى تلك المقالة، فقد بلغ به الأمر فى حال سلامته وعافيته أنه كان يرى الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فيرجع إلى منزله فيتصدق عنهما، كراهة أن يُذكر الله إلا فى حق.

هنالك توجه إلى ربه بالدعاء، طالبًا منه كشف البلاء، ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[2].

والثانى: فى سورة ص فى قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾[3].

---

(١) سورة ص: الآيات: (٤١-٤٤).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٨٣).

(٣) سورة ص: الآية: (٤١).

واستجاب الله دعاءه، وكشف عنه بلاءه، فالله على كل شىء قدير، وإذا شاء شيئًا كان، لا يُعجزه شىءٌ فى الأرض، ولا فى السماء.

وكان من عادته أنه إذا خرج ليقضى حاجته جاءته زوجته، فأمسكت بيده لضعف بدنه، فإذا أوصلته إلى المكان المقصود، تركته ريثما يقضى حاجته، ثم عادت إليه تمسك به، تُعينه على الرجوع إلى مكان إقامته... وقد أبطأ عليها فى ذلك اليوم الذى دعا فيه ربه، فقد أوحى الله إليه أن يضرب برجله الضعيفة الأرض، فانبثق الماء من موضع ضربته، فأمره الله أن يشرب من ذلك الماء ويغتسل منه، فأذهب الماء أمراضه التى فى ظاهر جسده وباطنه، وعادت إليه الحيوية والنشاط فى الحال، ورجعت إليه صحته وعافيته كأن لم يكن به مرض.

وعاد إلى زوجته يتدفق حيوية ونشاطًا، كحاله قبل أن يُداهمه المرض، فلما رأته لم تعرفه مع أنها رأت فيه شبه الزوج أيام كان صحيحًا مُعافًى، وسألته عن زوجها النبى المُبتلى، وذكرت له ما لاحظته من شبهه به أيام كان سويًّا صحيحًا، ولم تكن تتوقع أن يصلح حاله، ويشفى من مرضه فى هذه المدة الوجيزة التى غابها عنها، وكم كان فرحها وسرورها عظيمًا عندما رأت نعمة الله عليه فى رَدِّه عافيته وصحته إليه.

وكما رَدَّ الله عليه عافيته وصحته، رَدَّ عليه ضِعفَى المال الذى فقده، ورزقه ضِعفَى ما كان عنده من الأولاد... بل وفوق ذلك فقد أرسل الله سحابتين، لا تحملان مطرًا، بل ذهبًا وفضة، وكان لأيوب بيدران: أحدهما للقمح، والآخر للشعير، فأفرغت إحدى السحابتين الذهب فى بيدر القمح، وأفرغت الأخرى الفضة فى بيدر الشعير.

وكان قد غضب على زوجته فى مرضه، فنذر إن شفاه الله أن يضربها مائة

ضربة، وعزَّ عليه بعد شفائه أن يكون جزاؤها منه على صبرها ورعايتها الضرب والجلد، وشقَّ عليه أن لا يفى لربه بنذره، فجعل الله له فرجًا ومَخرجًا، إذ أمره أن يأخذ حزمة من قش القمح أو الشعير، فيضربها بها ضربة واحدة، فيكون قد وفَّى بنذره، ولم يضرب زوجته... قال تعالى لأيوب: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾[١].

وقد ذهب الإمام أحمد إلى جواز ضرب مَن أصاب حَدًّا كالزانى غير المُحصَن والقاذف بمثل ما ضرب به أيوب إن كان المحدود مريضًا يُخشى هلاكه بالضرب، وقد أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يضربوا رجلًا مريضًا زَنا بجارية بعثكال من نخل فيه مائة شمروخ ضربة واحدة[٢].

وكان أيوب عليه السلام خفيف الظل، ندى الروح، فيه دعابة فى صدق، فقد أخبرنا الرسول ﷺ فى الحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ قَالَ: «**بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَحْثِى فِى ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، وَلَكِنْ لاَ غِنَى لِى عَنْ بَرَكَتِكَ**»[٣].

ولعلك تخيلت منظر أيوب، وهو يَثِبُ عُريانًا، يجمع ذلك الجراد ويحثيه فى ثوبه، ويُناديه ربه: ألم أُغنك عما ترى، أى بما أفاضته السحابتان من الذهب والفضة فى بيدريه، ويأتى الجواب: لا غِنى لى عن بركتك يا رب.

---

(١) سورة ص: الآية: (٤٤).

(٢) انظر: إغاثة اللهفان لابن القيم: (٢/ ٩٨)، والحديث المشار إليه عزاه الشيخ ناصر الدين الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦/ ١٢١٥) ورقمه (٢٩٨٦) إلى النسائى فى السنن الكبرى وابن ماجه، والبيهقى وأحمد وغيرهم.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٧٩) كتاب الغسل، و(٣٣٩١) كتاب أحاديث الأنبياء، و(٧٤٩٣) كتاب التوحيد – والرِّجل من الجراد: السرب من الجراد.

عِبر الحديث وفوائده

(١) فضل نبى الله أيوب عليه السلام فى صبره على ما ابتلاه الله به مِن فَقْدِ المال والأهل والولد، وسقم الجسد، وتَفرُّق الأحباب عنه.

(٢) الصبر عاقبته إلى خير فى الدنيا والآخرة، فقد عافى الله أيوب بعد ذلك المرض الطويل، وردَّ إليه صحته وعافيته، ورزقه المال الوفير، والأولاد الصالحين.

(٣) مدى تعظيم أيوب لربه، فقد كان يُكفِّر عن الذين يتنازعون، فيذكرون الله خشية أن يُذكر الله إلا فى حق.

(٤) عِظَم وفاء زوجة أيوب لزوجها، وبرها به، وكذا صديقاه، فالمصائب تكشف معادن البشر، وعلى الرغم من قلة الذين تصفو معادنهم، فإنه لا يخلو منهم عصر ولا مصر إلا ما شاء الله.

(٥) قدرة الله على إزالة البلاء وشفاء المريض، فقد أعاد أيوب إلى عافيته وصحته فى لحظات.

(٦) قدرة الله على أن يرزق عباده بطرق لم يألفها البشر، فقد جاء أيوب بالمال الوفير من الذهب والفضة سحابتان، وخَرَّ عليه الجراد مصنوعًا من الذهب.

(٧) جعل الله لأيوب فرجًا ومَخرجًا فى نذره، فوفَّى بنذره، ولم يُؤذِ زوجه، وقد ذكر الإمام ابن القيم أنه لم يكن فى شرعهم كفارة، فإنه لو كان فيها كفارة لعدل إلى التكفير، ولم يحتج إلى ضربها، فكانت اليمين موجبة عندهم كالحدود، وقد ثبت أن المحدود إذا كان معذورًا خُفف عنه، وامرأة أيوب كانت معذورة، لم تعلم أن الذى خاطبها الشيطان، وإنما قصدت الإحسان، فلم تكن تستحق العقوبة، فأفتى الله نبيه أيوب عليه السلام أن يُعاملها معاملة المعذور، هذا مع

رفقها به، وإحسانها إليه، فجمع الله له بين البر في يمينه، والرفق بامرأته المحسنة المعذورة التي لا تستحق العقوبة[١].

(٨) في الحديث تبرئة لأيوب مما ألصقه به اليهود من مفتريات، وتقويم وإصلاح لما حرَّفوه وبدَّلوه من سيرته[٢].

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/ ٩٧).

(٢) صحيح القصص النبوي / د. عمر الأشقر (ص ١٦٠-١٦٤) بتصرف.

 (١١) أيوب عليه السلام.. وجراد من الذهب

۞ عَنْ أبى هريرة رضي الله عنه عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قال: «بيْنَا أَيُّوبُ عليه السلام يَغتَسلُ عُريَانًا، فَخَرَّ عَلَيْه جَرَادٌ مِن ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحثِى فى ثَوبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ عز وجل: يَا أَيُّوبُ، أَلَم أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عمَّا تَرَى؟، قال: بَلَى وَعِزَّتِكَ، وَلكِن لا غِنَى بى عَن بَرَكَتِكَ»[1].

وفى رواية: عن أبى هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لما عافى الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جرادًا من ذهب، فجعل يأخذ منه بيده، ويجعل فى ثوبه، فقيل له: يا أيوب: أما تشبعُ؟ قال: يا رب ومَن يشبع من رحمتك..».

۞ كان أيوب عليه السلام رجلًا كثير المال، آتاه الله جملة عظيمة من الثروة.

فقد أنعم الله عليه من سائر صنوف أنواع النعم، وفى مقدمتها الأراضى المتسعة الخصبة، وكانت له من الخيل ما يُدهش الأبصار، كما كانت له أعداد وفيرة من الإبل والبقر والغنم وسائر الماشية... وقد كان لأيوب ألف شاة بِرُعاتها، ناهيك بالعبيد الذين يقومون برعاية الأرض وخدمة الأنعام.

۞ وكان أيوب عليه السلام بَرًّا تقيًّا رحيمًا، يُحسن إلى المساكين، ويكفل الأيتام والأرامل، ويكرم الضيف، ويبلغ ابن السبيل... وكان شاكرًا لأنعُم الله عليه، مؤديًا لحقِّ الله عز وجل.

۞ وكان لأيوب عليه السلام أولاد وأهلون كثير، وكانت زوجه (ليا) تَرفُل فى هذا النعيم، شاكرة عابدة عارفة حق الله على العباد فى الشكر، فقد كانت تُكثر الحمد والشكر والثناء على الله عز وجل، إذ رزقها من البنين والبنات ما تقرّ به عينها ولا تحزن، وأوسع عليها وعلى زوجها من الرزق شيئًا مباركًا، وفضَّلهما على كثيرٍ من خلقه.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٧٩) كتاب الغسل.

۞ كانت (ليا) تدرك أن سِرَّ بقاء النعمة هو شكر المُنعم.. فكانت دائمة الذكر والحمد، تؤدى إلى كل ذى حقٍّ حقه، فتواسى عباد الله وتبر بهم، وتُحسن إليهم، وتستنير بذلك فى ضوء إرشاد زوجها نبى الله أيوب عليه السلام[١].

۞ وفى يوم من الأيام جاءه أحد عبيده ليخبره أن ولدًا من أولاده قد مات فصبر واحتسب... ثم مات ولدٌ آخر بعد ذلك بأيام فصبر واحتسب وظل أولاده يموتون الواحد وراء الآخر حتى مات كل أولاده.

۞ بل وفى نفس الوقت كانت المواشى والأغنام والخيل تموت أمامه حتى فنيت جميعًا وهو صابر محتسب.

۞ وابتُلى فى جسده بأنواع من البلاء، ولم يبقَ منه عضوٌ سليم سوى قلبه ولسانه يذكر الله عز وجل بهما، وهو فى ذلك كله صابر محتسب ذاكرٌ لله عز وجل فى ليله ونهاره، وصُبحه ومسائه.

وطال مرضه وانقطع عنه الناس، ولم يبقَ أحدٌ يحنو عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها، وشفقته عليها، فكانت تتردد إليه فتُصلح من شأنه وتُعينه على قضاء حاجته، وتقوم بمصلحته.

وضَعُف حالها، وقَلَّ مالها، حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتُطعمه، (رضى الله عنها وأرضاها) وهى صابرة معه على ما حلَّ بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج، وضيق ذات اليد، وخدمة الناس، بعد السعادة والنعمة، والخدمة والحرمة.

ولم يزد هذا أيوب عليه السلام إلا صبرًا واحتسابًا وحمدًا وشكرًا.

حتى إن المثل ليُضرب بصبره عليه السلام، ويُضرب أيضًا بما حصل له من أنواع

---

(١) نساء الأنبياء (ص: ١٤٣، ١٤٤).

البلايا[١].

۞ وبعد ما قضى فى البلاء سنواتٍ طوال توجَّه إلى ربه بالدعاء، طالبًا منه كشف البلاء ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[٢]، ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾[٣].

واستجاب الله دعاءه، وكشف عنه بلاءه... فالله على كل شىء قدير، وإذا أراد شيئًا فإنه لا يُعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

۞ جاء الفرج الإلهى.. وجاءت الوصفة الطبية الربانية لأيوب.

أما صفة هذه الوصفة الربانية فموجودة فى القرآن الكريم والذكر الحكيم فى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾[٤].

هكذا عادت إليه صحته وعافيته مرة أخرى.

۞ وكما رَدَّ الله عليه عافيته وصحته، رَدَّ عليه ضِعفَى المال الذى فقده، ورزَقَه ضِعفَى ما كان عنده من الأولاد... فقد أرسل الله سحابتين، لا تحملان مطرًا، بل ذهبًا وفضة، وكان لأيوب بيدران أحدهما للقمح، والآخر للشعير، فأفرغت إحدى السحابتين الذهب فى بيدر القمح، وأفرغت الأخرى الفضة فى بيدر الشعير[٥].

وبينما كان يغتسل عريانًا، ليس عنده أحد، أمطر الله عليه جرادًا من ذهب.

وكان هذا الجراد من الذهب كثيرًا... سمَّاه رسول الله ﷺ فى رواية أخرى

---

(١) قصص الأنبياء / للحافظ ابن كثير (ص: ٢٥٧-٢٥٨).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٨٣).

(٣) سورة ص: الآية: (٤١).

(٤) سورة ص: الآية: (٤٢).

(٥) صحيح القصص النبوى (ص: ١٦١).

عند البخارى: رِجْلَ جراد. فقال عليه الصلاة والسلام: «بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ...»[(١)].

وشاء الله الحكيم أن يرزقه الذهب على صورة جراد، وصَبَّ عليه الجراد من الذهب صبًّا أثناء اغتساله، وأمطره عليه، فكأن هذا الذهب كان مطرًا غزيرًا نازلًا عليه، وكان هذا معجزة من الله سبحانه.

فلما رأى أيوب هذا الذهب مصبوبًا عليه تناول ثوبه الذى وضعه بجانبه أثناء الاغتسال، وصار يجمع الذهب بكلتى يديه، ويحثوه، ويضعه فى ثوبه!!

فعجب الله من صنيعه، وناداه: يا أيوب: ألم أَكُن أغنيتك عما ترى؟

أى أن الله أغناه بما وهبه من رزق، فلِمَ يجمع الذهب بثوبه؟

فقال أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: بلى. لقد أغنيتنى، ولكن لا غِنى لى عن بركتك؟

أى أن هذا الذهب بركة منك يا رب، وبركة الله لا غِنى عنها، فهى تُبارك مال مَن كانت عنده... فأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس بحاجة إلى الذهب، وهو زاهد فى متاع الدنيا، لأن الأنبياء هم أئمة الزاهدين، وجَمْعُه للذهب بثوبه طلبًا للبركة، وليس سدادًا لحاجة.

وفى الرواية الثانية أن الله لما عجب من فعله قال له: يا أيوب: أما تشبع؟

فقال أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا رب ومَن يشبع من رحمتك؟

لقد اعتبر هذا الذهب من مظاهر رحمة الله... ورحمة الله لا يشبع منها مؤمن... فجَمْعُه للذهب بثوبه ليس بسبب نهمه، بل للتقلُّب برحمة الله.

وهذا التصرف من أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ دليلٌ على أنه يجوز للمؤمن أن يجمع المال، وأن يستكثر منه، وأن يحتفظ به، بشرط أن يأتيه من مصدرٍ حلال، وأن لا

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٧٤٩٣) كتاب التوحيد.

تستشرفه نفسه، ولا يملأ عليه تفكيره، وأن يُخرج حق الله فيه.

ويُعتبر هذا المال بركة من الله، ولا يستغنى أحدٌ عن بركة الله... ورحمة من الله، ولا يشبع أحدٌ من رحمة الله. ويقتدى فى ذلك بأيوب عليه السلام[1].

---

(١) القصص القرآنى/ د. صلاح الخالدى (٤/ ٢٦-٢٧).



(١٢) إن الله أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات

۞ قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ أمَرَ يَحْيى بْنِ زَكَرِيَّا بِخَمْس كلِماتٍ أنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ وأنْ يَأْمُرَ بَنِى إسْرَائِيلَ أنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ.. فَكأَنَهُ أبْطَأَ بِهِنَّ فأوْحَى اللهُ إلَى عِيسى: إمَّا أنْ يُبَلِّغَهُنَّ أوْ تُبَلِّغَهُنَّ.. فأتاهُ عِيسى فَقَالَ لهُ: إنَّكَ أُمِرْتَ بِخَمْسِ كلماتٍ أنْ تَعْمَلَ بهنَّ وتأْمُرَ بَنِى إسْرائِيلَ أنْ يَعْمَلوا بِهِنَّ فإمّا أنْ تُبلّغَهُنَّ وإمّا أنْ أُبَلِّغَهُنَّ فقالَ لهُ: يَا رُوحَ اللهِ إنِّى أخْشَى إنْ سَبقْتَنِى أنْ أُعَذَّبَ أوْ يُخْسَفَ بِى... فَجَمَعَ يَحْيَى بَنِى إسْرَائِيلَ فِى بَيْتِ المَقْدسِ حَتَّى امْتلأَ المَسْجِدُ فَقَعَدَ على الشُّرُفاتِ فَحَمدَ اللهَ وأثْنَى عليهِ ثمَّ قالَ: إنّ اللهَ أمَرَنِى بِخَمْسِ كَلِماتٍ أنْ أعْمَلَ بِهِنَّ وآمُرَكمْ أنْ تَعْمَلوا بِهِنّ.

وأولُهُنَ: أنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا .. فإنّ مَثَلَ مَنْ أشْرَكَ بِاللهِ كَمَثَلِ رَجلٍ اشْتَرَى عَبْدًا منْ خالِصِ مالِهِ بِذَهَبٍ أوْ وَرِقٍ -أى: فضة- ثمَّ أسْكَنَهُ دارًا فقالَ: اعْملْ وارْفَعْ إلىَّ فَجعَلَ العَبْدُ يَعْمَلُ ويَرْفَعُ إلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ فأَيُّكُم يرْضَى أنْ يَكونَ عَبْدُهُ كذلِكَ؟ وإنّ اللهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فاعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكوا بِه شَيْئًا.... وأمَرَكمْ بالصّلاةِ وَإذا قمْتمْ إلَى الصَّلاةِ فَلَا تلْتفِتُوا فإنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُقْبِلُ بوجْهِهِ على عَبْدِهِ مَا لمْ يَلْتَفِتْ.... وأمَرَكمْ بالصِّيام ومَثَلُ ذلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ معَهُ صُرَّةُ مِسْكٍ فِى عِصابَةٍ كلُّهُمْ يَجدُ ريحَ المِسْكِ وإنّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ أطْيَبُ عِنْدَ اللهِ منْ رِيحِ المِسْكِ.... وأمَرَكُمْ بالصَّدَقةِ ومَثَلُ ذلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أسَرَهُ العَدُوُّ فَشَدُّوا يَدَيْهِ إلَى عُنُقِهِ وقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ فقالَ لَهُمْ: هلْ لكمْ أنْ أفْتَدِى نَفْسِى مِنْكُمْ؟ فجَعَلَ يَفْتَدِى نَفْسَهُ مِنْهُمْ بالقَليلِ والكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ ... وأمَرَكُمْ بِذِكْرِ اللهِ كَثِيرًا ومَثَلُ ذلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ العَدُوُّ سِرَاعًا فِى أثَرِهِ فأتَى حِصْنًا حَصِينًا فأَحْرزَ نَفْسَهُ فِيهِ وإنّ العَبْدَ أحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطانِ إذا كانَ فِى ذِكْرِ اللهِ تَعالَى.... وَأنا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ أمَرَنِى اللهُ بِهِنَّ: الجَماعَةِ والسّمْعِ والطَّاعَةِ والهِجْرَةِ والجِهادِ فِى سَبيلِ اللهِ..فإنّهُ مَنْ فارَقَ الجَماعَةَ قيدَ شِبْرٍ فقدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإسْلامِ مِنْ عُنْقِهِ إلاّ أنْ يُراجِعَ.. ومَنْ دَعا

بِدَعْوَةِ الجاهِلِيّةِ فَهُوَ منْ جُثاءِ جَهَنّمَ وإنْ صامَ وصَلّى وزَعَمْ أنَّهُ مُسْلِمٌ فادْعُوا بِدَعْوَةِ اللهِ الّتى سَمَّاكُمْ بهَا المُسْلِمِينَ المُؤْمِنينَ عِبادَ اللهِ»[1].

۞ ففى هذا الحديث يُخبر رسول الله ﷺ أن الله عَزَّوَجَلَّ أمر نبيه يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات..وذلك من أجل أن يعملوا بهن وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن.. لكن يحيى عليه السلام أبطأ فى تبليغ بنى إسرائيل .. ولعله كان يظن أن الأمر فيه سعة من الوقت ... وكون أن يحيى عليه السلام أبطأ فى تبليغ بنى إسرائيل لا ينفى أنه عمل بتلك الكلمات الخمس التى أمره الله عَزَّوَجَلَّ أن يعمل بهن.

۞ فلما أبطأ يحيى عليه السلام فى تبليغ بنى إسرائيل تلك الكلمات الخمس أوحى الله عَزَّوَجَلَّ إلى عيسى عليه السلام قائلًا له: إما أن يبلغهن أو تُبلغهن.. يعنى: إن لم يُبلغ يحيى عليه السلام بنى إسرائيل بتلك الكلمات الخمس فاذهب أنت يا عيسى عليه السلام وبلغهم بتلك الكلمات.. ومعنى ذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ أخبر عيسى عليه السلام بتلك الكلمات الخمس.

فما كان من عيسى عليه السلام النبى الكريم صاحب المروءة إلا أن ذهب إلى ابن خالته يحيى عليه السلام وقال له: إنك أُمرت بخمس كلمات أن تعمل بهنَّ وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهنَّ فإما أن تُبلغهن.. أى: كما أمرك الله عَزَّوَجَلَّ.. وإما أن أُبلغهن كما أمرنى الله عَزَّوَجَلَّ أيضًا إن لم تفعل ذلك.

فقال يحيى عليه السلام: يا روح الله إنى أخشى إن سبقتنى أن أُعذَّب أو يُخسَف بى... أى: إنى أخشى إن سبقتنى بتبليغ بنى إسرائيل بتلك الكلمات أن أكون قد خالفت أمر الله عَزَّوَجَلَّ أو قصَّرت فى طاعته فيحق علىَّ العذاب أو الخسف.. فدعنى أنا أبلغهم بتلك الكلمات.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٢٤).

۞ فما كان من يحيى عليه السلام إلا أن جمع بنى إسرائيل فى بيت المقدس.. فجاءوا جميعًا حتى امتلأ المسجد فقعد يحيى عليه السلام على الشرفات.. أى على مكانٍ مرتفع يُشرف على الناس حتى يراه بنو إسرائيل وهو يكلمهم.

وبدأ يكلمهم.. فحمد الله عز وجل وأثنى عليه بمَ هو أهله عز وجل... وهذا من أدب الأنبياء أنهم لا يبدأون كلامهم إلا بحمد الله ... وقد كان النبى ﷺ يبدأ كلامه بخطبة الحاجة والتى فى أولها قوله ﷺ: إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره.... إلى آخره.

ثم قال يحيى عليه السلام: إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهنَّ وآمركم أن تعملوا بهنَّ... وكأنه يقول: فأما أنا فقد عملت بهن لكنى تأخرت فى تبليغكم بتلك الكلمات... ثم ذكر لهم تلك الكلمات قائلًا:

۞ وأولهنَّ: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا:

فهذا هو حق الله على العباد.. ولذا قال النبى ﷺ لمعاذ بن جبل: «**يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِى حَقَّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ؟**»، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلاَ أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: «**لاَ تُبَشِّرْهُمْ، فَيَتَّكِلُوا**»[1].

ولقد ذكر الله عز وجل الغاية التى خلقنا من أجلها فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]، فالله خلقنا لتوحيده وعبادته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه... فإن فعلنا ذلك فإنَّ حق العباد على الله أن يُدخلهم الجنة.. ولا يظن أحد أن هذا الحق قد أوجبه أحد على الله - حاشا لله - بل أوجبه الله على نفسه وألزم نفسه بذلك بفضله وكرمه سبحانه وتعالى.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٥٦) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٣٠) كتاب الإيمان.

(٢) سورة الذاريات: الآية: (٥٦).

۞ ثم وضَّح يحيى عليه السلام مغبة الشرك فقال:

«فإنّ مَثَلَ منْ أشْرَكَ بِاللهِ كَمَثَلِ رَجلٍ اشْتَرَى عَبْدًا منْ خالِصِ مالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ ثمَّ أَسْكَنَهُ دَارًا فقالَ: اعْمَلْ وارْفَعْ إلَيَّ فَجَعَلَ العَبْدُ يَعْمَلُ ويَرْفَعُ إلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ فَأَيُّكُمْ يرْضَى أنْ يَكونَ عَبْدُهُ كذلِكَ؟» فتخيل معى لو أن رجلًا اشترى من سوق العبيد عبدًا ليخدمه ويعمل عنده ويعينه على أعباء الحياة.. فاشتراه من خالص ماله الحلال بذهب أو وَرِقٍ - أى فضة- أى أنه دفع ثمنه كاملًا من ماله وهو ينتظر ثمرة ما دفعه فى هذا العبد.. ثم إنه بالغ فى إكرام العبد بأن أسكنه دارًا حتى إذا أراد أن يتزوج بعد ذلك يكون عنده دار ليتزوج فيها - بإذن سيده- وقال له: هذه دارى وهذا متجرى فاعمل هنا وأحضر إلَيَّ كل يومٍ حصيلة ما تبيعه فى كل يوم... فما كان من ذلك العبد إلا أن ذهب ليعمل فى متجر سيده وفى آخر اليوم كان يعطى المال لرجلٍ آخر.. فأيكم يرضى بذلك وأيكم يرضى أن يكون عبده هكذا.

ولله المثل الأعلى... ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(١) فالله خلق عبده وسَوَّاه وأكرمه وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ورزقه من الطيبات وكلفه بعبادته.. فهل يجوز بعد ذلك أن يصرف العبادة لغير الله ويشرك بالله... ولذا قال يحيى عليه السلام: **«وإنّ اللهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فاعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكوا بِهِ شَيْئًا»**.

۞ والشرك هو اتخاذ العبد من دون الله ندًّا يسويه برب العالمين...

يحبه كحب الله، ويخشاه كخشية الله، ويلتجئ إليه، ويدعوه، ويخافه، ويرجوه، ويرغب إليه، ويتوكل عليه، و يطيعه فى معصية الله، أو يتبعه على غير مرضاة الله، وغير ذلك... قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ

(١) سورة الشورى: الآية: (١١).

(٢) سورة النساء: الآية: (٤٨).

بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[١] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[٢].

ويستوى فى الخروج بهذا الشرك عن الدين المجاهر به ككفار قريش وغيرهم، والمُبطن له كالمنافقين المُخادعين الذين يُظهرون الإسلام ويُبطنون الكفر...قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣]، وغير ذلك من الآيات[٤].

۞ وللشرك الأكبر ثلاثة أقسام رئيسة هى:

القسم الأول: الشرك فى الربوبية:

وهو أن يجعل لغير الله تعالى معه نصيبًا من المُلك أو التدبير أو الخلق أو الرزق.

القسم الثانى: الشرك فى الأسماء والصفات:

وهو أن يجعل لله تعالى مُماثلًا فى شىء من الأسماء أو الصفات، أو يصفه تعالى بشىء من صفات خلقه.

ومن صور هذا الشرك:

الشرك بدعوى علم الغيب، أو باعتقاد أن غير الله تعالى يعلم الغيب...فمن ادَّعى أن أحدًا من الخلق يعلم الغيب، فقد وقع فى الشرك الأكبر المُخرج من الملة.

---

(١) سورة النساء: الآية: (١١٦).

(٢) سورة المائدة: الآية: (٧٢).

(٣) سورة النساء: الآيتان: (١٤٥-١٤٦).

(٤) ٢٠٠ سؤال وجواب فى العقيدة (ص ٤١-٤٢).

القسم الثالث: الشرك فى الألوهية:

وهو: اعتقاد أن غير الله تعالى يستحق أن يُعبد أو صَرْفُ شيءٍ من العبادة لغيره[١].

۞ وقد يسأل سائل ويقول: ما هى العبادات التى لا يجوز أن يُقصد بها غير الله؟

والجواب: أن العبادات التى لا يجوز أن يُقصَد ويُراد بها غير الله أنواع:

الأول: عبادات اعتقادية:

وهذه أساس العبادات كلها، وهى أن يعتقد العبد أن الله هو الرب الواحد الأحد الذى له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر .. الذى لا شريك له، ولا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه، وأنه لا معبود بحقٍّ غيره.

الثاني: عملية قلبية:

والعبادات القلبية التى لا يجوز أن يُقصد بها إلا الله وحده،... وصرفها لغيره شركٌ: كالخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، والخشوع والخشية، والحب، والإنابة، والتوكل، والخضوع.

الثالث: قولية: كالنُّطق بكلمة التوحيد... إذ لا يكفى اعتقاد معناها، بل لا بد من النُّطق بها... وكالاستعاذة بالله، والاستعانة والاستغاثة به، والدعاء له، وتسبيحه، وتمجيده، وتلاوة القرآن.

الرابع: بدنية: كالصلاة، والصوم، والحج، والذبح، والنذر، وغير ذلك.

الخامس: مالية: كالزكاة، وأنواع الصدقات، والكفارات، والأضحية، والنفقة[٢].

---

(١) عقيدة الطفل المسلم / د. محمود المصرى (ص ٦٠).

(٢) العقيدة فى الله/ د. عمر الأشقر (ص ٢٨٤، ٢٨٥).

۞ ثم قال لهم يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«**وأَمَرَكُمْ بالصَّلاةِ**» وإذا قمتم إلى الصلاة فلا تلتفتوا فإن الله عَزَّوَجَلَّ يُقبل بوجهه على عبده ما لم يلتفت.

ولا بد أن نعلم أن الصلاة هى أعظم الأركان بعد الشهادتين وهى أم العبادات وميزان تعظيم الدين فى قلب المؤمن... فهى التى أمر الله بها وهى الوصية الأخيرة لرسول الله ﷺ وهى ملجأ المؤمن فى الكربات وهى التى يرفع الله بها الدرجات ويغفر بها الخطيئات وينجو بها العبد من عذاب رب الأرض والسماوات وهى أمنية المُعذَّبين والأموات وهى العاصمة من الشهوات والناهية عن المنكرات وهى الحادى للنعيم المقيم فى الجنات.

لقد بلغت الصلاة مبلغًا عظيمًا وقدرًا عاليًا فى قلب النبى ﷺ حتى كانت أغلى من نسيم الهواء الذى يتنفسه الإنسان.

وحسبُنا أن نتأمل قول النبى ﷺ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»[1].

وقد كان النبى ﷺ يفزع إلى الصلاة.... ففزع إليها ليلة الأحزاب.

قال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**رَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ، وَهُوَ مُشْتَمِلٌ فِي شَمْلَةٍ يُصَلِّي، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى**»[2].

وفزع إليها يوم بدر:... عن (علىٍّ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلى ويدعو حتى أصبح.

۞ وكان يفزع إليها كذلك عند تجدُّد النعم.

فمن ذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ لما أنعم على نبيه ﷺ بفتح مكة اغتسل وصلى ثمانى

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائى، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٣١٢٤).

(٢) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، وحسنه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٤٧٠٣).

ركعات شكرًا لله عَزَّوَجَلَّ.

وكان ﷺ يحب الصلاة حُبًّا جمًّا لدرجة أنه كان يقول لبلال: «**يَا بِلاَلُ! أَقِمِ الصَّلاَةَ أَرِحنَا بِهَا**»(١).

بل إنه ﷺ فى مرض الموت وفى آخر لحظات حياته كان يُغشى عليه ثم يفيق ويقول: «**أَصَلَّى النَّاسُ؟**» فيقولون له: لاَ، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللهِ، ويُغشى عليه ثم يفيق ولا يسأل إلا نفس السؤال: «**أَصَلَّى النَّاسُ؟**»(٢).

۞ وكان أصحاب النبى ﷺ ومَن تبعهم بإحسان يحبون الصلاة، ويشتاقون إليها... فلقد استولت على قلوبهم واستغرقت نفوسهم.

إن الصلاة شأنها عظيم عند الله (جل وعلا) ولذلك فقد تميزت على ما عداها من الفرائض بخصائص لا تُعَدُّ ولا تُحصى.

وحسبُنا أنها العبادة الوحيدة التى منحها الله لنبيه محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج بلا واسطة من فوق سبع سماوات لعُلو قدرها ومكانتها عند الله (جل وعلا) فهى الفريضة الوحيدة التى فُرضت فى السماء.

۞ ومن أجل ذلك فإنه يجب على كل مسلم أن يحافظ على الصلاة وأن يعرف قدرها وأن يعرف ما هى الآداب التى ينبغى أن يتحلى بها كل مسلم فى صلاته.

۞ وهنا قال لهم يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وَإِذا قمْتمْ إِلَى الصَّلاةِ فَلا تلْتفِتُوا**».

والالتفات المنهى عنه فى الصلاة قسمان؛ أحدهما: التفات القلب عن الله عَزَّوَجَلَّ إلى غير الله تعالى. والثانى: التفات البصر. وكلاهما مَنهِىٌّ عنه. ولا يزال الله مُقبلًا على عبده ما دام العبد مُقبلًا على صلاته، فإذا التفت بقلبه أو بصره،

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٧٨٩٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٧) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٨) كتاب الصلاة.

أعرض الله تعالى عنه.... وقد سألت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا رسول الله ﷺ عن الالتفات فى الصلاة فقال: «**هُوَ اخْتِلاَسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلاَةِ العَبْدِ**»[1].

وفى أثر: إذا التفت العبد فى صلاته يقول الله تعالى: (إلى خيرٍ منى، إلى خيرٍ منى؟). ومَثل مَن يلتفت فى صلاته ببصره أو بقلبه مثلُ رجل قد استدعاه السلطان، فأوقفه بين يديه، وأقبل يناديه ويخاطبه، وهو فى خلال ذلك يلتفت عن السلطان يمينًا وشمالًا، وقد انصرف قلبه عن السلطان، فلا يفهم ما يخاطبه به؛ لأن قلبه ليس حاضرًا معه، فما ظنّ هذا الرجل أن يفعل به السلطان؟ أفليس أقل المراتب فى حقّه أن ينصرف من بين يديه ممقوتًا مُبعَدًا قد سقط من عينيه؟... ولله المثل الأعلى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2].

فهذا المصلِّى لا يستوى مع المصلِّى الحاضر القلب المقبل على الله تعالى فى صلاته، الذى قد أشعر قلبه عظمة مَن هو واقف بين يديه، فامتلأ قلبه من هيبته، وذَلَّت عُنقه له، واستحيى من ربه تعالى أن يُقبل على غيره، أو يلتفت عنه. وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض.

۞ «**وأمَرَكمْ بالصِّيامِ.. ومَثَلُ ذلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ معَهُ صُرَّةُ مِسْكٍ فِى عِصابَةٍ كلُّهُمْ يَجدُ رِيحَ المِسْكِ وإنّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ أطْيَبُ عِنْدَ اللهِ منْ رِيح المِسْكِ**».

فذكر يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ لبنى إسرائيل أن الله عَزَّ وَجَلَّ أمرهم بالصيام.. وقد ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ أنه كتب الصيام علينا وعلى الذين من قبلنا فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3] وأخبر الحق (جلَّ وعلا) أنه اختصَّ الصيام لنفسه من بين سائر الأعمال لأنه سِرٌّ

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٧٥١) كتاب الأذان.

(٢) سورة الشورى: الآية: (١١).

(٣) سورة البقرة: الآية: (١٨٣).

بين العبد وربه ولأنه العبادة الوحيدة التى لا يتطرق إليها رياء... قال ﷺ:

«قال الله عَزَّوَجَلَّ: كُلُّ عملِ ابنِ آدم لهُ إلا الصِّيام، فإنَّه لى وأنَا أجْزِى به. والصِّيام جُنَّةٌ فإذا كان يومُ صومِ أحدِكُمْ فلا يَرفُثْ ولا يَصخَبْ، فإنْ سابَّهُ أحدٌ أوْ قاتَلَهُ، فَلْيَقُل: إنِّى صائمٌ. والذى نَفْس مُحمَّدٍ بيدهِ لَخُلُوفُ فَم الصَّائِمِ أطْيَبُ عِنْد الله مِن رِيحِ المِسْكِ. للصَّائم فرحَتَانِ يفرحُهُما: إذا أفْطَرَ فَرِحَ بِفطْرِه، وإذا لَقى ربَّهُ فرِح بِصَوْمِه»(١).

وهذا لفظ رواية البُخارى... وفى رواية له: «يَترُكُ طَعَامَهُ، وشَرابَهُ، وشَهْوتَهُ، مِن أجْلى، الصِّيامُ لى وأنا أجْزِى به، والحسنةُ بِعَشْرِ أمْثَالِهَا».

وفى رواية لمسلم: «كُلُّ عَملِ ابنِ آدَمَ يُضاعفُ الحسنةُ بِعشْر أمْثَالِهَا إلى سَبْعمائة ضِعف. قال الله تعالى: «إلا الصَّوْمَ فإنَّهُ لى وأنا أجْزى به: يدعُ شَهْوَتَهُ وطَعامَهُ مِن أجْلى. للصَّائم فَرحَتانِ: فرحة عند فطره، وفرحةٌ عِنْدَ لقاء ربِّهِ. ولخُلُوفُ فِيهِ أطْيَبُ عِنْدَ الله مِنْ ريح المِسْكِ».

«والذى نَفْس محمَّدٍ بيدهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أطْيَبُ عِنْد الله مِن رِيحِ المِسْكِ» لأن تلك الرائحة إن كانت كريهة بالنسبة للبشر إلا أنها طيبة عند رب البشر لأنها خرجت من طاعة يتقرب بها العبد إلى الله عَزَّوَجَلَّ... قَالَ الْقَاضِى: يُجَازِيهِ اللهُ تَعَالَى بِهِ فِى الْآخِرَةِ فَتَكُونُ نَكْهَتُهُ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ كَمَا أَنَّ دَمَ الشَّهِيدِ يَكُونُ رِيحُهُ رِيحَ الْمِسْكِ... وَقِيلَ يحصل لصاحبه من الثواب أكثر ممن يَحصُلُ لِصَاحِبِ الْمِسْكِ... وَقِيلَ: رَائِحَتُهُ عِنْدَ مَلَائِكَةِ اللهِ تَعَالَى أَطْيَبُ مِنْ رَائِحَةِ الْمِسْكِ عِنْدَنَا وَإِنْ كَانَتْ رَائِحَةُ الْخُلُوفِ عِنْدَنَا خِلَافَهُ(٢).

قال أبو حاتم: شعار المؤمنين فى القيامة التحجيل بوضوئهم فى الدنيا فرقًا

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٠٤) كتاب الصوم - ومسلم (١١٥١) كتاب الصيام.

(٢) مسلم بشرح النووى (٨/ ٤٣).

بينهم وبين سائر الأمم... وشعارهم فى القيامة بصومهم طيبُ خلوفهم أطيب من ريح المسك ليُعرَفوا بين ذلك الجمع بذلك العمل..نسأل الله بركة ذلك اليوم... قال مكحول: يُروَّح على أهل الجنة برائحة فيقولون: ربنا ما وجدنا ريحًا منذ دخلنا الجنة أطيب من هذا الريح..فيقال: هذه رائحة أفواه الصائمين.

۞ «وأمَرَكُمْ بالصَّدَقةِ... ومَثَلُ ذلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أسَرَهُ العَدُوُّ فَشَدُّوا يَدَيْهِ إلَى عُنُقِهِ وقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ فقالَ لَهُمْ: هلْ لكمْ أنْ أفْتَدِى نَفْسِى مِنْكُمْ؟ فجَعَلَ يَفْتَدِى نَفْسَهُ مِنْهُمْ بالقَليلِ والكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ».

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[١].

الزكاة هى العبادة المالية الاجتماعية الهامة.

وهى الفريضة الثانية فى الإسلام، قرنها القرآن بالصلاة فى عشرات المواضع، وذكرها تارة بلفظ الزكاة، وتارةً بلفظ الصدقة، وأحيانًا بلفظ الإنفاق.

وفى مفتتح سورة البقرة يصف الله المتقين الذين ينتفعون بهدى كتابه ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٢] وفى آيات أُخر من السورة ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ﴾[٣] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾[٤].

وهى فى معناها البسيط -معونة الفقير بجزءٍ من المال- عبادة قديمة عُرفت فى الرسالات السماوية السابقة، وذكرها الله فى وصايا رسله إلى أممهم.

---

(١) سورة التوبة: الآية: (١٠٣).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٣).

(٣) سورة البقرة: الآية: (١١٠).

(٤) سورة البقرة: الآية: (٢٧٧).

فقال عن الخليل إبراهيم وابنه إسحاق وحفيده يعقوب عليهم السلام: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾[1].

وامتدح إسماعيل عليه السلام بقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾[2].

وذكر الله فى مواثيقه لبنى إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[3].

۞ وهنا يخبر يحيى عليه السلام بنى إسرائيل أن الله عز وجل أمرهم بالصدقة.. ثم ضرب لهم مثلًا على ذلك فقال: «**وَمَثَلُ ذلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ العَدُوُّ فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى عُنْقِهِ**» ولا شك أن الذى يحدث له ذلك يكون فى كربٍ شديد لهذا الذى فُعِلَ به وقد يضيق صدره إذا طالت الفترة عليه وهو على ذلك الحال... ثم ازداد الأمر سوءًا بأن قدَّموه ليضربوا عُنقه ويقتلوه.. فما كان منه إلا اقترح عليهم اقتراحًا ينجو به من تلك المحنة فقال لهم: هل لكم أن أفتدى نفسى منكم؟ والحديث لم يوضح أنهم وافقوا على ذلك لكن السياق يدل على ذلك بدليل أنه جعل يفتدى نفسه منهم بالقليل فلم يرضوا فافتدى نفسه منهم بالكثير حتى رضوا وأطلقوا سراحه وكأنه قد كُتبت له الحياة من جديد.

وهذا هو حال الذى يدفع الزكاة الواجبة عليه فإنه يفدى نفسه من غضب الله وعذابه.. فقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا

---

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٧٣).

(٢) سورة مريم: الآية: (٥٥).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٨٣).

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [(١)].. بل إن من دفع الزكاة الواجبة عليه فقد عصم دمه وماله إلا بحق الإسلام.. فقد قال ﷺ «**أُمِرتُ أنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنَّ مُحَمَّدًا رسُولُ الله، ويُقِيمُوا الصَّلاةَ، ويُؤتُوا الزَّكاةَ، فإذا فَعَلوا ذلكَ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وأمْوالَهم إلا بحقِّ الإسلامِ وحِسابُهُم على الله**»[(٢)].

❁ «**وأمَرَكُمْ بِذِكْرِ اللهِ كَثِيرًا ومَثَلُ ذلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ العَدُوُّ سِرَاعًا فِي أثَرِهِ فأتَى حِصْنًا حَصِينًا فأَحْرَزَ نَفْسَهُ فِيهِ وإنّ العَبْدَ أحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطانِ إذا كانَ فِي ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى**».

ففي نَصِّ الحديث: أن يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لهم: «**وأمَرَكُمْ بِذِكْرِ اللهِ كَثِيرًا ومَثَلُ ذلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ العَدُوُّ سِرَاعًا فِي أثَرِهِ**» يعني: أعداؤه لحقوه، وأخذوا يطاردونه بسرعة شديدة «**فأتَى حِصْنًا حَصِينًا فأَحْرَزَ نَفْسَهُ فِيهِ**» فدخل الحصن وأغلق الأبواب جيدًا وأوثقها وأَحكَم إغلاقها، وتحصَّن بذلك من هذا العدو الذي كان يريد أن يفتك به، يقول: «**وإنّ العَبْدَ أحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطانِ إذا كانَ فِي ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى**» فهذا أعظم ما يحمي الإنسان من كيد الشيطان، سواء بتسويل المعاصي، أو بالوساوس، أو غير ذلك من الآفات والأمراض التي تُفسد على الإنسان حياته، فإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله تعالى.

❁ **قال الإمام ابن القيم** رَحِمَهُ اللهُ:

فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقًا بالعبد أن لا يَفتُر

---

(١) سورة التوبة: الآيتان: (٣٤، ٣٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥) كتاب الإيمان، ومسلم (٢٢) كتاب الإيمان.

لسانه من ذكر الله تعالى، فإنَّه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده، فإذا غفل، وثب عليه وافترسه، وإذا ذكر الله تعالى، انخنس عدو الله وتَصاغَر، وانقمع، حتى يكون كالذباب، ولهذا سُمى الوسواس الخناس ؛ أى: يوسوس فى الصدور، فإذا ذُكر الله خنس... أى كَفَّ وانقبض.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله تعالى خنس.

فمعك سلاح، وأنت قادر على أن تهزم شيطان الجن فى أول جولة، فإنك إذا قلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، يُولِّى الأدبار... أما شيطان الإنس فلو قرأت عليه القرآن كله يقول لك: إنَّا ها هنا قاعدون... فأنت تغلب شيطان الجن من أول جولة، وهو مهزومٌ دائمًا؛ لأنك إذا استعذت بالله منه، فَرَّ وهرب.

فإذا كنت مستيقظًا تذكر ربك سبحانه وتعالى وتستغفره، وكلما رأيت شيئًا فى هذا الكون ذكرت الله، فلن يقترب منك الشيطان، لكن حين تنام وتُلقى سلاحك (الذكر)، فإن عدوك سوف يغتالك؛ لأنك قد ألقيت سلاحك؛ ولذلك فإن الرسول ﷺ علَّمنا عندما نأتى لننام أن نقول: «**اللهُمَّ إنِّى وَجَّهت وجهى إليك، وألجأت ظهرى إليك**»، وحين تقول: وألجأت ظهرى إليك، كأنك تقول: يا رب! لن أُوتَى وقد ألجأت ظهرى إليك أبدًا.

يا رب! أنا سأنام، وقد ألقيت سلاحى، فأنت الذى ستتولى حفظى، وأنا حينما كنت مستيقظًا فإننى كنت أذكرك ولا أَفتُر عن ذكرك... فقد ألجأت ظهرى إليك فاحمنى.

۞ ثم قال النبى محمد ﷺ: «**وَأَنا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ أَمَرَنِى اللهُ بِهِنَّ:**» فيا ترى ما هى؟... قال ﷺ: «**الجَماعَةِ**» أى عليك بالجماعة فإنما ينال الذئب من الغنم

القاصية.. ونحن ننتمى جميعًا إلى أهل السُّنة والجماعة.

وأهل السُّنة والجماعة:

هم أصحاب رسول الله ﷺ ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم القيامة.

وهم: المتمسكون بالعقيدة الصحيحة الخالية من شوائب البدع والخرافات وهى العقيدة التى كان عليها رسول الله ﷺ واتفق عليها أصحابه رضي الله عنهم.

وقد سُمُّوا (أهل السنة) لعملهم بمقتضى سُنة النبى ﷺ المبينة للقرآن.

وسُمُّوا (الجماعة) لأنهم اجتمعوا على اتباع سُنة النبى ﷺ وما أجمع عليه سلف هذه الأمة، فهم قد اجتمعوا على الحق، وعلى عقيدة الإسلام الخالية من الشوائب.

وأيضًا فقد سَمَّى النبى ﷺ الفرقة الناجية المتبعة لسنته وطريقة أصحابه - وهم أهل السنة والجماعة - سماهم (الجماعة) [(١)].

ولذلك لما سأل حذيفة بن اليمان رسول الله ﷺ عما يفعله المسلم فى زمن الغربة والفتن، قال ﷺ: «**تَلزم جماعة المسلمين وإمامهم**».. وها هو الحديث الذى ذكر فيه النبى ﷺ ماذا يصنع المسلم فى زمن الفتن.

عَن أَبِى إِدْرِيسَ الخَوْلاَنِىُّ، أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ يَقُولُ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِى، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا كُنَّا فِى جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**» قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ**» قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «**قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِى، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**» قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا؟ فَقَالَ: «**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ**

---

(١) مختصر تسهيل العقيدة الإسلامية (ص٤-٥) بتصرف.

بِأَلْسِنَتِنَا» قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِى إِنْ أَدْرَكَنِى ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ «**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**»[١].

۞ «**والسّمْعِ والطَّاعَةِ**» يعنى: وأمرنا النبى ﷺ بالسمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ ولأُولى الأمر من المؤمنين الصالحين.. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[٢].

وقال ﷺ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِىٌّ...**»[٣].

ففيه السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين الذين يحكمونهم بشرع الله عَزَّوَجَلَّ... وهذا الإطلاق مُقيَّدٌ فى مواضع أُخرى كقوله ﷺ: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِى الْمَعْرُوفِ**» يعنى فيما يُقره الشرع أما ما يُنكره الشرع فلا طاعة لأحدٍ فيه... كما قال الصدِّيق الأكبر أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما استُخلف: أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت الله فلا طاعة لى عليكم.

وقصة عبد الله بن حذافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذى أمَّره النبى ﷺ على سرية فأغضبوه فأمرهم أن يوقدوا نارًا ثم أمرهم بالدخول فيها، فقالوا: إنما آمنا برسول الله ﷺ هروبًا من النار، فلما عُرض ذلك على النبى ﷺ قال: «**لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا**».

فطاعة الأمراء، والعلماء، والوالدين لا تكون فى معصية الله عَزَّوَجَلَّ...

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٦٠٦) كتاب المناقب، ومسلم (١٨٤٧) كتاب الإمارة.

(٢) سورة النساء: الآية: (٥٩).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٤٩).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾(١).

فطاعة الله عَزَّوَجَلَّ مطلقة، وطاعة الرسول ﷺ مطلقة ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾(٢). أما طاعة أُولى الأمر فهى مُقيدة بما لا يخالف أمر الله عَزَّوَجَلَّ أو أمر رسوله ﷺ.

فمثلًا: لو أمر ولى الأمر أن تترك رعيته الصلاة وأن تخلع النساء الحجاب قلنا له: لا سمع ولا طاعة.. لأن الصلاة فريضة والحجاب واجبٌ على المرأة ولا طاعة لمخلوقٍ فى معصية الخالق.

لكن يجب أن يُطاع فى غير هذا... يعنى ليس معنى ذلك أنه إذا أمر بمعصية تسقط طاعته مطلقًا، لا... إنما تسقط طاعته فى هذا الأمر المعين الذى هو معصية لله، أما ما سوى ذلك، فإنه تجب طاعته...وقد ظن بعضُ الناس أنها لا تجب طاعة ولى الأمر إلا فيما أمر الله به، وهذا خطأ؛ لأن ما أمر الله به فإنه يجب علينا أن ننفذه، ونفعله، سواء أمرنا به ولىُّ الأمر أم لا.

فالأحوال ثلاثة: إما أن يكون ما أمر به ولى الأمر مأمورًا به شرعًا، كما لو أمر بالصلاة مع الجماعة مثلًا، فهذا يجب امتثاله لأمر الله ورسوله ولأمر ولى الأمر. وإما أن يأمر ولى الأمر بمعصية الله، مِن تَركِ واجبٍ أو فعل محرم، فهذا لا طاعة له ولا سمع، وإما أن يأمر الناس بما ليس فيه أمر شرعى، ولا معصية شرعية، فهذا تجب طاعته فيه؛ لأن الله قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾(٣). فطاعة ولى الأمر من غير معصية طاعة لله ولرسوله ﷺ(٤).

---

(١) سورة النساء: الآية: (٥٩).

(٢) سورة النساء: الآية: (٨٠).

(٣) سورة النساء: الآية: (٥٩).

(٤) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٤٨).

۞ «والهِجْرَةِ».

والهجرة وإن كانت قد انتهت منذ زمن النبى ﷺ فإنه ما زالت هناك هجرة لا تنتهى أبدًا إلى قيام الساعة.. وهى هجر البدع والذنوب والمعاصى وكل ما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه.

فيجب على المسلم أن يهجر كل ما نهى الله عنه من البدع والذنوب والمعاصى فقد قال ﷺ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**»[1]... ويجب على المسلم أن يهجر كل ما حرم الله سواء كان مما يتعلَّق بحقوق الله عَزَّوَجَلَّ أو ممَّا يتعلق بحقوق عباد الله.

ويجب عليه أن يُهاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام إذا كان لا يستطيع أن يُظهر دينه وأن يُقيم شعائر دينه.

۞ «والجِهادِ فِى سَبيلِ اللهِ».

فالجهاد فى سبيل الله عَزَّوَجَلَّ هو ذروة سنام الإسلام.. ولن تعود العزة للأمة إلا إذا جاهدت أعداء الله عَزَّوَجَلَّ... ولن تجد عملًا يوازى الجهاد مهما بلغ قدر ومكانة ذلك العمل الصالح.

عن أَبِى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قِيلَ: يا رسُولَ الله، ما يَعدِلُ الجِهَادَ فى سبيلِ الله؟ قال: «**لا تَسْتَطيعُونه**» فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثًا كل ذلك يقول: «**لا تستطيعونه**». ثُمَّ قال: «**مَثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصَّائمِ القائمِ القَانِتِ بآياتِ الله لا يَفْتُرُ: مِن صلاةٍ، ولا صيامٍ، حتى يرجِعَ المجاهدُ فى سبيل الله**»[2].

وفى روايةِ البخارى، أنَّ رجلًا قال: يا رسُولَ الله دُلَّنى على عملٍ يَعدِلُ

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٠) كتاب الإيمان - ومسلم (٤٠) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٨٥) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٧٨) كتاب الإمارة، واللفظ له.

الجهَادَ؟ قال: «لا أجدهُ» ثمَّ قالَ: «**هل تستطيعُ إذا خرَجَ المُجاهِدُ أن تدخُلَ مَسجِدَكَ فتقُومَ ولا تَفْتُرَ، وتَصُومَ ولا تُفطِرَ**» فقال: ومَن يستطيعُ ذلك؟

۞ ففى هذا الحديث أنه قال جماعة للنبى ﷺ: يا رسول الله ما يعدل الجهاد فى سبيل الله؟.. فهم يعلمون أن الجهاد ذروة سنام الإسلام.. لكنه قد لا يكون هناك جهاد فى كل وقتٍ.. فهم يريدون عملًا يُعوضهم عن أجر الجهاد فى سبيل الله ليس من أجل ترك الجهاد ولكن من أجل أن ينشغلوا بهذا العمل إلى أن يحين وقت الجهاد.. فلما سألوا النبى ﷺ عن الشىء أو العمل الذى يعدل الجهاد قال لهم النبى ﷺ: «**لا تستطيعونه**» أى أن هناك ما يعدل الجهاد لكن لا يقدر عليه أحد...

فأعادوا السؤال عليه مرتين أو ثلاثًا.. والنبى ﷺ مُشفقٌ عليهم فيقول لهم: «**لا تستطيعونه**».. فلما رأى إصرارهم على معرفة ذلك قال لهم ﷺ: «**مثل المجاهد فى سبيل الله**» أى: صفته العظيمة الشأن التى كادت أن تكون كالمثل «**كمثل الصَّائمِ القائمِ القَانِتِ بآياتِ الله لا يَفْتُرُ: مِن صلاةٍ، ولا صيامٍ، حتى يرجِعَ المجاهدُ فى سبيل الله**» وكأن النبى ﷺ يقول لهم: إن أراد أحدكم أن يعمل عملًا يوازى أو يكون قريبًا من عمل المجاهد فى سبيل الله.. فعليه أن يظل صائمًا قائمًا مطيعًا لله تاليًا لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ منذ أن يخرج المجاهد من بيته للجهاد وإلى أن يرجع.. وقد يمكث المجاهد عامًا أو عامين فى الجهاد أو أكثر من ذلك.

ومَن فى الدنيا يستطيع أن يفعل ذلك... فالمجاهد منذ أن يخرج وإلى أن يعود له مثل أجر الصائم الذى لا يُفطر والقائم الذى لا يَفتُر... فمن أراد أن ينال مثل أجره فليفعل مثله... وهذا دليل على أنه لا شىء يوازى أجر الجهاد فى سبيل الله.

۞ ولذا جاء فى الرواية الأخرى أن رجلًا قال للنبى ﷺ: **دُلَّنى على عملٍ**

يعدل الجهاد؟ قال له النبى ﷺ: «**لا أجدهُ**».. فلو علم النبى ﷺ عملًا يوازيه لأخبره بذلك.. ثم قال له: «**هل تَستَطيعُ إذا خَرَجَ المُجاهِدُ أن تدخُلَ مَسجِدَك فتَقُوم ولا تَفتُر، وتَصُومَ ولا تُفطِر؟**». فقال الرجل: ومَن يستطيع ذلك؟

۞ «**فإنّهُ منْ فارَقَ الجَماعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فقدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإسْلامِ مِنْ عُنْقِهِ إلاّ أنْ يُرَاجِعَ**».

وهنا يعيد النبى ﷺ التأكيد مرة أخرى على لزوم الجماعة وهم أهل السُّنة والجماعة الذين يسيرون على نهج النبى ﷺ وأصحابه، ومَن تَبِعهم إلى يوم الدين.. فإنما ينال الذئبُ من الغنم القاصية... ولو ابتعد المسلم عن الجماعة وعن منهجهم الصافى القائم على الكتاب والسُّنة فربما يتلقفه أهل البدع أو أصحاب الفكر المُنحرف فيهلك معهم ويُضيع دنياه وآخرته.

ومعناه: أن من فارق جماعة المسلمين وخرج عليهم أو خرج عن طاعة الإمام فإنه يكون بذلك قد ضَلَّ وتاه... والربقة قيل: هى ما يوضع فى رقبة البعير من أجل حفظه وربطه به، أو تُربط الدابة به حتى لا تذهب وتضيع، وإذا انفلتت تلك الربقة التى رُبطت بها فإنها تضيع وتذهب عن صاحبها، فيكون الذى خرج من الجماعة بمثابة تلك الدابة التى كانت محاطة بسياج الجماعة، ولما خرجت صارت عُرضة للضياع وللتلف.

وبالجملة: فمن فارق الجماعة قيد شبرٍ فقد خلع ربقة الإسلام:

أى: فقد نزع ما يشد به نفسه من عُرى الإسلام وحدوده وأحكامه وأوامره ونواهيه فجعل نفسه عُرضة للتيه والضلال .. كالدابة التى تُربَط بقيدٍ حتى لا تكون عُرضة للضياع ... قال صاحب عون المعبود: وهذا لا يدل على تكفيرٍ... وقوله: «إلا أن يُراجع» أى: إلا أن يرجع إلى جماعة المسلمين وإمامهم وإلى الأمر المُجمع عليه.

۞ **«ومنْ دَعا بِدَعْوَةِ الجاهِلِيّةِ فَهُوَ منْ جُثاءِ جَهَنّمَ وإنْ صامَ وصَلّى وزَعَمْ أَنّهُ مُسْلِمٌ فادْعُوا بِدَعْوَةِ اللهِ الّتى سَمَّاكُمْ بهَا المُسْلِمِينَ المُؤْمِنينَ عِبادَ اللهِ».**

وهنا يحذرنا النبى ﷺ من العصبيات المقيتة التى تقوم على الانتساب إلى الآباء والافتخار بهم ومتابعتهم على باطلهم ومُناصرتهم على غير الحق.... ولذا لما سمع النبى ﷺ بعضهم يقول: «يا للأنصار» وآخرين يقولون: «يا للمهاجرين» قال ﷺ: **«دعوها فإنَّها مُنتنة»**.

عن أُبى بن كعب رضي الله عنه قَال: انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، فَمَنْ أَنْتَ لا أُمَّ لَكَ؟ فقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: **«انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ مُوْسَى عليه السلام، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ حَتَّى عَدَّ تِسْعَةً؛ فَمَنْ أَنْتَ لا أُمَّ لَكَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ابْنُ الإِسْلَامِ. قَالَ: فَأَوْحَى اللهُ إِلَى مُوْسَى عليه السلام أَنْ قُلْ لهَذَيْنِ المُنْتَسِبَيْنِ: أَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا المُنْتَمِى - أَوِ المُنْتَسِبُ - إِلَى تِسْعَةٍ فِى النَّارِ! فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا هَذَا المُنْتَسِبُ إِلَى اثْنَيْنِ فِى الجَنَّةِ! فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِى الجَنَّةِ»**[1].

۞ إن الفخر بالآباء ولمز الآخرين؛ لأنهم لا يساوونه فى النسب مرضٌ فتَّاك قاتل، يُخبث النفوس ويُدنسها، ويُشعل العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع الواحد، وقد يؤدى إلى القتال وسفك الدماء، ويقطع الأواصر بين أبناء الإسلام، وقد اشتد الرسول ﷺ فى محاربة هذا المريض الخبيث.

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا إِنَّما هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الجُعْلِ الَّذِى يُدَهْدِهُ**[2] **الخُرْءَ بِأَنْفِهِ .. إِنَّ اللهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عِبِّيَةَ الجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بالآباء إنما هو مؤمن تقى أو فاجر شَقِيٌّ .. النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ من التراب»**[3].

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٤٩٢)، والصحيحة (١٢٧٠).

(٢) يدحرجه.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٤٨٢).

وقد أمرنا الرسول ﷺ أن نغلظ القول لمن تعزَّى بعزاء الجاهلية، فقال: «مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَعِضُّوهُ بِهَنِ أَبِيهِ، وَلَا تَكْنُوا»[١].

وقد ترعرعت العصبيات فى هذا القرن وتعددت وتكونت، وفرقت جماعة المسلمين، وأصبحت معولًا لهدم الأمة الإسلامية... لقد فشت فى المجتمعات الإسلامية، بل والمجتمعات الإنسانية العصبيات القومية، والإقليمية، بل وعصبية الألوان والحرف، وأشعلت هذه العصبيات نيران الحروب فى العالم كله، واصطلى الناس بِحرِّها، وذاقوا منها العلقم، وإذا كان غير المسلمين لهم شىء من العذر فى الغرق فى حمئة العصبيات فما عذر المسلمين؟!![٢]

(١) صحيح: رواه أحمد، والبخارى فى الأدب المفرد، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٢٦٩).

(٢) صحيح القصص النبوى / د. عمر الأشقر (ص ٣٣٤-٣٣٥).



(١٣) توبة قاتل الـ(٩٩) نفسًا

۞ عَنْ أبى سعيد سَعد بْنِ مالك بْنِ سنان الْخُدرىِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن نَبِىَّ الله ﷺ قَال: «كان فيمنْ كَانَ قَبْلكُمْ رَجُلٌ قتل تسْعةً وتسْعين نفْسًا، فسأل عن أعلَم أَهْلِ الأَرضِ فدُلَّ على راهبٍ، فَأَتاهُ فقال: إِنَّهُ قَتَل تِسْعةً وتسعِينَ نفْسًا، فَهلْ لَهُ مِنْ توْبَة؟ فقال: لا فقتَلهُ فكمَّلَ بِهِ مائةً ثمَّ سأَلَ عن أعلم أهلِ الأرضِ، فدُلَّ على رجلٍ عالم فقال: إنهَ قَتل مائةَ نفسٍ فهلْ لَهُ مِنْ تَوْبة؟ فقالَ: نَعَمْ ومَنْ يَحُولُ بينَهُ وبينَ التوْبة؟ انْطَلِقْ إلَى أرضِ كذا وكذا، فإنَّ بها أُناسًا يَعبُدُونَ الله تعالى فاعبُدِ الله مَعَهُمْ، ولا ترجع إلى أرضِكَ فإنَّها أَرضُ سُوء، فانطَلَق حتَّى إذا نَصَف الطَّريقُ أَتَاهُ الْموْتُ فاختَصمتْ فيه مَلائكَةُ الرَّحمَةِ وملائكَةُ الْعَذابِ. فقالتْ ملائكةُ الرَّحمَةِ: جاءَ تائِبًا مُقْبلًا بِقلْبِهِ إلى الله تعالى، وقالَتْ ملائكَةُ الْعذابِ: إِنَّهُ لَم يَعمَلْ خيرًا قطُّ، فأَتَاهُمْ مَلكٌ فى صُورَةِ آدميٍّ فجعلوهُ بينهُمْ -أى: حَكَمًا - فقال: قِيسُوا ما بَين الأَرضَين فإلَى أَيَّتهما كَان أدنى فهُو لَهُ، فقاسُوا فوَجَدُوه أدنى إِلى الأَرضِ التى أَرَادَ فَقَبضَتْهُ مَلائكَةُ الرَّحمةِ»[١].

۞ وفى روايةٍ فى الصحيح: «فكَان إلى الْقَرْية الصَّالِحةِ أَقْربَ بِشبْرٍ، فجُعِل مِنْ أَهْلها» وفى رواية فى الصحيح: «فأَوْحَى الله تعالى إلى هَذِهِ أن تَبَاعَدى، وإلى هَذِهِ أن تَقرَّبى وقَال: قِيسُوا مَا بينهمَا، فَوَجدُوه إلى هَذِهِ أَقَربَ بِشبْرٍ فَغُفِرَ لَهُ». وفى روايةٍ: «فنأى بِصَدرِهِ نَحوهَا».

۞ هذه قصة تفتح باب الأمل لكل عاصٍ، مهما عَظُم ذنبه، وكبر جُرمه... قصة رجل أسرف على نفسه فى المعاصى والذنوب، فقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن هذا الرجل قتل مائة نفس، ولكن هذه الذنوب لم تقتلع من نفسه كل نوازع

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٧٠) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٧٦٦) كتاب التوبة.

الخير ودوافعه، بل بقى فى أعماق نفسه بصيصٌ من نور، وبقية من مخافة ربه... ولعله تساءل فيما بينه وبين نفسه، هل انقطعت علاقته بربه، فلا يمكنه أن يعود إليه، ويرجع إليه، أم أن هناك أملًا، وأين هو من ربه إن آب إليه؟

لم يستطع أن يُفتى نفسه، فمثله من الغَرقَى فى الذنوب لا علم عندهم، ولذا خرج من بيته يبحث عن عالِمٍ يُفتيه، ويجيب عن سؤاله، وهو يعلم أن مسألته كبيرة، لا يستطيع أن يُفتيه فيها إلا من عَظُم علمه، ولذا فإنه لم يسأل عن أى عالم، بل سأل عن أعلم أهل الأرض.

ولم يُقدَّر لمن دلَّه على مَن يُفتيه أن يدله على أعلم أهل الأرض فعلًا، وإنما دَلُّوه على رجلٍ راهبٍ ... والرُّهبان كثيرو العبادة، قليلو العلم، والعوام قد يُخدعون بأمثال هؤلاء، فيظنون أن كثرة العبادة، تعنى كثرة العلم، فيُقبلون على هؤلاء يتعلمون منهم، ويستفتونهم ... ويخطئ أمثال هذا الراهب إن خُدِعَ بإقبال الناس عليه، فأفتاهم بغير علم...والواجب على هؤلاء أن يُصرِّحوا للناس بحقيقة أمرهم، ويقولوا لهم فيما لا يعلمونه: الله أعلم، اسألوا غيرنا ممن عنده علم.

أقبل ذلك الرجل إلى ذلك الراهب الذى دُلَّ عليه، واستمع الراهب لمسألته، فاستعظم ذنبه، وظن أن رحمة الله تضيق عنه، وأن مثل هذا الرجل لا تسعه رحمة الله.... وحسبُك بذلك جهلًا.

ولو كان الأمر على ما ظنه ذلك الراهب لازداد أهل الفجور جُرمًا ... فالمجرم عندما يَيأس من رحمة الله، ويعلم أنه لا سبيل له للعودة إلى الله، فإن ذلك يُغريه بالإيغال فى الإفساد والإجرام... يَدُلك على صدق هذا فعل هذا الرجل، فعندما علم منه أن التوبة محجورة عنه، وأن رحمة الله لا تسعه ازداد طُغيانًا، ومَدَّ يده إلى هذا الراهب فقتله، وأتمَّ بقتله المائة.

ويبدو أن ذلك الراهب كان مع قلة علمه، غير عارف بطبائع الرجال، ولو كان عالمًا بذلك لما سارع بالإجابة قبل أن يحتاط لنفسه بالحيطة المناسبة، كأن يُحضر حوله بعض أتباعه من الرجال الأشداء، أو يجيبه من وراء جدران صومعته... فأمثال هذا الرجل لا يُبالون بالقتل لأتفه الأسباب، لاعتيادهم القتل والولوغ فى الدماء.

قتل ذلك الرجلُ الراهبَ، ولكنه لم يقتنع بجوابه، فالأمل عنده بالله عظيم... وهذا الذى أفتاه جاهلٌ بالله، ولكنه يحتاج إلى مَن يؤكد له ذلك، ويُعرفه بالصواب... وبحث مرة أخرى عن عالِم يعرض عليه مُعضلته، فَدُلَّ على عالم بالله، وكان عالمًا حقًّا، ولذلك قال العالم لذلك الرجل مُستغربًا: ومَن يَحُول بينك وبين التوبة؟! وهذا السؤال الذى يحمل معنى الاستنكار والاستغراب يدل على أن هذا العلم كان عنده بديهيًّا لا يحتاج إلى كثير تفكير، ولا يحتاج إلى سؤال... إن رحمة الله واسعة، تَسَع هذا وأمثاله، ولا يَعظُم على الله ذنبٌ أبدًا مهما عَظُم وكَثُر.

ولم يكن هذا الرجل عالمًا فحسب، بل كان مُربيًا ومُرشدًا، ولذا فإنه لم يكتفِ بإجابته بأن باب التوبة مفتوح على مصراعيه، بل دَلَّه على الطريق الذى يجب عليه أن يسلكه...فالغارق فى الذنوب يجب أن يغير منهج حياته، فيترك القوم الضالين الذين يصحبهم ويعيش معهم، وعليه أن يترك ما كان عليه، وينتقل إلى بيئة صالحة، تفعل الخيرات، وتنأى عن المنكرات، وقد أمر ذلك العالم هذا التائب بأن يترك دياره فإنها بلاد سوء، ويهاجر إلى أرضٍ أخرى حددها له، فيها قوم يعبدون الله فيصحبهم، ويعبد الله معهم.

ولم يُضع هذا الرجل وقته، فقد مضى إلى تلك الديار، يطلب حياة جديدة، حياة الطُّهر والصلاح والاستقامة، ليغسل نفسًا تقذَّرت بالذنوب، ويحييها

بالإيمان والصلاح.

وعندما وصل منتصف الطريق حضر أجله، ودَنَتْ ساعته، ولشدة رغبته فى التوبة نأى بصدره جهة الأرض الطيبة وهو فى النزع الأخير، ومات مُقبلًا على الله، راحلًا إلى الديار الصالحة ليعبده، تاركًا وراءه حياة مليئة بالخطايا والذنوب...فما مصيره؟ وما موقعه من ربه؟

أخبرنا الرسول ﷺ أن ملائكة الرحمة وملائكة العذاب اختصموا فيه، كل واحدٍ من الفريقين يريد أن يلى أمره، ويتكفل به... هؤلاء يقولون: هذا قتل مائة نفس، وأولئك يقولون: لقد تاب وأناب، وجاء مُقبلًا.

فأرسل الله لهم مَلَكًا فى صورة إنسان، فأمرهم أن يقيسوا ما بين الأرضين: أرض الظلم والفساد، وأرض الأخيار الصُّلحاء، فأمر الله الأرض الخيِّرة أن تتقارب، والأرض الظالم أهلها أن تتباعد، فوجدوه أقرب إلى أرض الصالحين بشبر...ولعله الشبر الذى تَحرَّكه عندما نأى بصدره وهو فى النزع، فتولته ملائكة الرحمة، وغُفرت له ذنوبه العظيمة:

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(١).

ففى هذا الحديث دليل على فوائد كثيرة منها:

(١) سعة رحمة الله بقبول توبة التائبين، مهما كثرت ذنوبهم، وكثرت خطاياهم، ولذا فإن الذين ييأسون من رحمة الله جُهلاء بالله، لا يعلمون سعة رحمته.

(٢) قبول توبة القاتل إن تاب توبة صادقة...وقد نازع فى ذلك بعض أهل العلم، والحديث صريح فى قبول توبته، وهذا ليس قصرًا على الأمم السابقة...

---

(١) سورة الزمر: الآية: (٥٣).

ويدل له قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

فقد استثنى الله التائبين الذين يعملون الصالحات من الذين يُضاعَف لهم العذاب من المشركين والقتلة المجرمين والزناة.

وعقيدة أهل السنة والجماعة أن كل ذنبٍ دون الشرك فهو قابل للمغفرة، إن شاء الله عذَّب صاحبه، وإن شاء غفر له: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾[2].

(٣) على العالِم أن يرشد التائبين إلى الأعمال التى تُرسخ الإيمان فى قلوبهم، وتخلصهم من الشرور التى كانوا يعيشونها كما دَلَّ هذا العالِم الرجل التائب إلى ترك أرضه والرحيل إلى قومٍ صالحين يعبد الله معهم.

(٤) فضل العالم على العابد...فقد أفتى العالِم بعلم، وأفتى الراهب بجهل.

(٥) الملائكة الموكلون ببنى آدم قد يختلف اجتهادهم فى الحكم عليهم، وقد يرفعون الأمر إلى ربهم للقضاء بينهم فيما اختلفوا فيه.

(٦) خصص الله ملائكة يتولون أرواح المؤمنين حين تقبض أرواحهم يُسمَّون بملائكة الرحمة، أما الملائكة الذين يتولون أرواح الفجرة الظالمين فهم ملائكة العذاب.

(٧) قدرة الملائكة على التشكُّل فى صورة البشر، كما فعل ذلك المَلَك الذى قضى بين ملائكة الرحمة وملائكة العذاب.

---

(١) سورة الفرقان: الآيات: (٦٨-٧٠).

(٢) سورة النساء: الآية: (٤٨).

(٨) فضل بنى آدم حيث أرسل الله المَلَك الذى قضى بين الملائكة فى صورة رجل من بنى آدم.

(٩) لا يجب على العالِم الذى لم يتولَّ منصب القضاء أن يقيم حكم الله فى المجرمين، فهذا العالِم اعترف له هذا الرجل بقتل مائة نفس فلم يسجنه، ولم يحقق فى أمره، بل أرشده إلى التوبة والهجرة[1].

---

(١) صحيح القصص النبوى / د. عمر الأشقر (ص ٢٤٧-٢٥٠) بتصرف.



(١٤) رحلة الإسراء والمعراج.. وفرض الصلوات الخمس

۞ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ، وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ، فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ ﷺ: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِابْنَيْ الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا، فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ ﷺ، إِذَا هُوَ قَدِ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[1]، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ ﷺ، فَرَحَّبَ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟

---

(١) سورة مريم: الآية: (٥٧).

قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى ﷺ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلَالِ، فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلاةً، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ، فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَبَيْنَ مُوسَى عليه السلام حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً، فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ»[١].

۞ كان النبي ﷺ نائمًا في بيت أم هانئ بنت أبي طالب وكان بيتها عند شِعب أبي طالب.

وفجأة انفتح سقف بيتها ونزل جبريل عليه السلام فتعجب النبي ﷺ وسأل جبريل عن سبب نزوله فأخبره جبريل أنه لابد أن يخرج معه الآن إلى المسجد.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٩) كتاب الصلاة، ومسلم (١٦٢) كتاب الإيمان.

فخرج معه النبى ﷺ إلى المسجد وإذا بجبريل عليه السلام يشق صدر النبى ﷺ ثم يغسله بماء زمزم ثم جاء بطست من الذهب قد امتلأ حكمة وإيمانًا فأفرغها فى صدر النبى ﷺ ثم أغلق صدره.

ونحن نعلم يا أحبابى أن جبريل عليه السلام شق صدر النبى ﷺ ثلاث مرات:

المرة الأولى: وهو صغير يلعب مع الغلمان فأخذه جبريل فصرعه فشق صدره واستخرج القلب واستخرج منه علقة وقال له: هذا حظ الشيطان منك ثم غسل صدر النبى فى طست من ذهب بماء زمزم ثم أعاد صدره كما كان.

والمرة الثانية: عند بعثة النبى... فقد فعل جبريل معه مثلما فعل فى المرة الأولى لكن زاد فى هذه المرة أن ختم فى ظهر النبى ﷺ خاتم النبوة.

والمرة الثالثة: عند رحلة الإسراء والمعراج.

النبى ﷺ يركب البُراق

وبعد أن غسل جبريل صدر النبى ﷺ أتاه بالبُراق.

والبُراق: هو دابة أبيض طويل وهو أكبر من الحمار وأصغر من البغل.

وهو سريع جدًّا يضع حافره عند آخر شىء يراه ببصره.

فخطوته كبيرة جدًّا يقطع بها المسافات الطويلة فى وقتٍ قصير.

۞ فلما أراد النبى ﷺ أن يركب البراق استصعب عليه فلم يتمكن النبى ﷺ من ركوبه.. فقال جبريل للبراق: أتفعل هذا بمحمد ﷺ؟ فوالله ما ركبك أحدٌ أكرم على الله منه ﷺ.

۞ وما هى إلا دقائق معدودات حتى وصل النبى ﷺ إلى بيت المقدس ثم ربط جبريل البراق بالحلقة التى كان يربط بها الأنبياء (صلوات ربى وسلامه عليهم).

ثم دخل النبى ﷺ المسجد وصلى فيه ركعتين.

ثم خرج النبى ﷺ بعد ذلك وإذا بجبريل ينتظره فى الخارج ومعه إناء فيه خمر وإناء آخر فيه لبن.

فنظر جبريل إلى النبى ﷺ وقال له: يا رسول الله: أيهما تختار: الخمر أم اللبن؟

فاختار النبى ﷺ اللبن.

فقال له جبريل عليه السلام: لقد اخترت الفطرة.

رحلة المعراج

وبعد أن انتهت رحلة الإسراء بدأت رحلة المعراج فجاء جبريل عليه السلام بالمعراج العظيم الذى يصل من الأرض إلى السماء.. وهو السُّلَّمُ الكبير الذى صعد عليه النبى ﷺ فى جزء يسير من الليل إلى السماوات السبع.

ويا لها من رحلة عظيمة يعجز القلم عن وصفها.

فالنبى ﷺ أُسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عُرج به إلى السماوات السبع ثم عاد فى جزء يسير من الليل.

المشاهد التى رآها النبى ﷺ فى رحلة الإسراء والمعراج

لقد رأى النبى ﷺ فى رحلة الإسراء مشهدًا عجيبًا !!!

يا ترى ما هو المشهد الذى رآه النبى ﷺ فى رحلة الإسراء؟

لقد رأى موسى عليه السلام وهو يصلى فى قبره.

قال ﷺ: « **مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى لَيْلَةَ أُسْرِىَ بِى عِنْدَ الْكَثِيبِ الأَحْمَرِ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِى قَبْرِهِ** »(١).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٧٥) كتاب الفضائل.

النبى ﷺ يرى الأنبياء ويسلم عليهم

ففى رحلة المعراج لما صعد النبى ﷺ مع جبريل عليه السلام إلى السماء الدنيا فقالت الملائكة لجبريل: مَن هذا الذى معك.

قال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

فرحبت به الملائكة ترحيبًا شديدًا وفرحوا بلقاء النبى ﷺ فرحًا عظيمًا... فالنبى ﷺ هو حبيب أهل الأرض والسماء.

صعد النبى ﷺ إلى السماء الأولى فوجد فيها رجلًا وقورًا عن يمينه أُناس كثيرون وعن يساره أُناس كثيرون.

فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عنْ شماله بكى.

فسأل النبى ﷺ جبريل عليه السلام وقال له: «**مَن هذا الرجل؟**».

فقال جبريل: هذا آدم عليه السلام وهؤلاء الذين عن يمينه وشماله هم أولاده... فالذين عن يمينه هم أهل الجنة.فإذا نظر إليهم ضحك..

والذين عن شماله هم أهل النار فإذا نظر إليهم بكى.

فاقترب النبى ﷺ من أبينا آدم عليه السلام وسلَّم عليه فردَّ عليه السلام وقال له: مرحبًا بالنبى الصالح والإبن الصالح.

۞ ثم صعد النبى ﷺ إلى السماء الثانية فسألت الملائكة جبريل عليه السلام: مَن هذا الذى معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا... وفتحت له أبواب السماء الثانية.

فلما صعد النبى ﷺ إلى السماء الثانية وجد فيها عيسى ويحيى عليهما السلام، فقال له جبريل عليه السلام: هذا يحيى وعيسى فسلِّم عليهما فسلم النبى ﷺ عليهما فردَّا عليه السلام وقالا له: مرحبًا بالنبى الصالح والأخ الصالح.

۞ ثم صعد النبى ﷺ إلى السماء الثالثة فسألت الملائكة جبريل عليه السلام مَن هذا الذى معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا.. وفتحت له أبواب السماء الثالثة.

فلما صعد النبى ﷺ إلى السماء الثالثة وجد فيها يوسف عليه السلام.

فقال له جبريل عليه السلام: هذا يوسف فسلِّم عليه.

فسلم النبى ﷺ عليه فردَّ السلام وقال له: مرحبًا بالنبى الصالح والأخ الصالح.

۞ ثم صعد النبى إلى السماء الرابعة فسألت الملائكة جبريل عليه السلام مَن هذا الذى معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا... وفتحت له أبواب السماء الرابعة فلما صعد النبى ﷺ إلى السماء الرابعة وجد فيها إدريس عليه السلام فقال له جبريل عليه السلام: هذا إدريس فسلِّم عليه.

فسلم النبى ﷺ عليه فردَّ السلام وقال له: مرحبًا بالنبى الصالح والأخ الصالح.

۞ ثم صعد النبى ﷺ إلى السماء الخامسة فسألت الملائكة جبريل عليه السلام: مَن هذا الذى معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا... وفتحت له أبواب السماء الخامسة.

فلما صعد النبى ﷺ إلى السماء الخامسة وجد فيها هارون عليه السلام.

فقال له جبريل عليه السلام: هذا هارون فسلِّم عليه.

فسلم النبى ﷺ عليه فردَّ عليه السلام وقال له: مرحبًا بالنبى الصالح والأخ الصالح.

۞ ثم صعد النبى ﷺ إلى السماء السادسة فسألت الملائكة جبريل عليه السلام مَن هذا الذى معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا.. وفتحت له أبواب السماء السادسة.

فلما صعد النبى ﷺ إلى السماء السادسة وجد فيها موسى عليه السلام.

فقال له جبريل عليه السلام: هذا موسى فسلِّم عليه.

فسلم النبى ﷺ عليه فردّ السلام وقال له: مرحبًا بالنبى الصالح والأخ الصالح.

فلما جاوزه النبى ﷺ ليصعد إلى السماء السابعة وإذا بنبى الله موسى يبكى فقيل له: ما يُبكيك؟.

قال: أبكى لأن محمدًا ﷺ يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتى.

۞ ثم صعد النبى إلى السماء السابعة فسألت الملائكة جبريل عليه السلام: مَن هذا الذى معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا... وفتحت له أبواب السماء السابعة.

فلما صعد النبى ﷺ إلى السماء السابعة وجد فيها إبراهيم عليه السلام فقال له جبريل عليه السلام: هذا إبراهيم فسلِّم عليه.

فسلم النبى ﷺ عليه فردَّ السلام وقال له: مرحبًا بالنبى الصالح والإبن الصالح.

۞ فرأى النبى ﷺ إبراهيم عليه السلام مُسندًا ظهره إلى البيت المعمور فى السماء السابعة.

فسأل النبى ﷺ جبريل عليه السلام: ما هذا البيت؟

فقال جبريل: هذا البيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك فإذا خرجوا لم يعودوا إليه... يعنى كل يوم يدخله سبعون ألف ملك غير الذين قبلهم.

النبى ﷺ يرى سدرة المنتهى

ثم رأى النبى ﷺ سدرة المنتهى ووجد أن الثمرة الواحدة فيها مثل الجرَّة الكبيرة التى كانت تُصنع فى قرية هجر فى البحرين... ورأى ورقها مثل آذان الفيلة.

فسأل النبى ﷺ جبريل عليه السلام: ما هذا.

فقال: هذه سدرة المنتهى.

۞ ورأى النبى أربعة أنهار: نهران ظاهران ونهران باطنان فسأل النبى ﷺ جبريل عليه السلام وقال: «**ما هذا؟**».

فقال جبريل: أما النهران الباطنان فنهران فى الجنة وأما النهران الظاهران فالنيل والفرات.

۞ ثم أتى جبريل للنبى ﷺ بإناءٍ من خمر وإناءٍ من لبن وإناءٍ من عسل فاختار النبى ﷺ اللبن.

فقال جبريل: هذه هى الفطرة التى أنت عليها وأمتك.

فرض الصلاة على النبى ﷺ وأمته

ثم فُرضت الصلاة على النبى ﷺ وأمته خمسين صلاة كل يوم.

فعاد النبى ﷺ... وفى طريق العودة مرَّ النبى ﷺ على موسى عليه السلام فسأله موسى وقال: بأى شىء أمرك الله (جل وعلا).

فقال النبى ﷺ: «**أُمرت بخمسين صلاة كل يوم**».

فقال موسى عليه السلام: إن أمتك لا تستطيع أن تصلى خمسين صلاة كل يوم وإنى والله قد جربت الناس قبلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

فعاد النبى ﷺ إلى ربه وسأله التخفيف فوضع الله عنه عشرًا فأصبحت أربعين صلاة.

فعاد النبى ﷺ إلى موسى عليه السلام فقال له نفس الكلام وقال له: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

فعاد النبى ﷺ إلى ربه وسأله التخفيف فوضع عنه عشرًا فأصبحت ثلاثين صلاة.

وظل النبى ﷺ على تلك الحالة حتى أصبحت الصلاة خمس صلوات... فلما قال له موسى عليه السلام: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

قال له النبى ﷺ: «**لقد سألت ربى حتى استحييت ولكن أرضى وأُسلِّم**».

فإذا بالحق (جل وعلا) يجعلها خمس صلوات ولكن بأجر خمسين صلاة.

النبى ﷺ يرى الجنة والنار

وفى هذه الرحلة المباركة رأى النبى ﷺ الجنة والنار... لقد رأى النار.. ورأى بعض مشاهد العذاب لأهل النار... ورأى الجنة.. ورأى بعض مشاهد نعيم أهل الجنة.. بل وشَمَّ النبى ﷺ رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها كأجمل وأطيب عطرٍ فى الدنيا كلها.

الدروس المستفادة:

(١) أن المسلم لابد أن يتحمل الأذى من أجل أن يحافظ على دينه فقد رأينا كيف تحمل النبى ﷺ وأصحابه إيذاء كفار قريش من أجل أن يحافظوا على دينهم وإيمانهم.

(٢) أن المسلم لابد أن يُبتلى لكى يرفع الله درجته فى الجنة.

(٣) أن المسلم إذا وجد أن أهل بلده لا يستجيبون لدعوته فعليه أن يبحث عن مكان آخر لدعوته.. ولقد رأينا كيف أن النبى ﷺ لما رأى كفار قريش لا يستجيبون لدعوته خرج ليدعو أهل الطائف.

(٤) أن الله عَزَّوَجَلَّ يكرم عبده بأن يجعله يرى ثمرة دعوته وسط المحن والابتلاءات.

ولقد رأينا كيف أن النبى ﷺ لما أُوذى فى الطائف ودخل البستان فرارًا من إيذاء أهل الطائف أكرمه الله بأن يُسْلِم على يديه عدَّاس النصرانى.... بل ويُسلم على يديه جماعة من الجن.

(٥) أن رحلة الإسراء والمعراج كانت تكريمًا لشخص النبى ﷺ وتسلية له عما تَعرَّض له من الإيذاء والابتلاءات.

(٦) أن مقام النبى ﷺ أعلى من مقام كل الأنبياء والمرسلين فهو سيد الأولين والآخرين.

(٧) أن الصلاة من أعظم أركان الإسلام ولذا فرضها الله (جل وعلا) على النبى ﷺ وأمته من فوق سبع سماوات.

(٨) أن ثبات المؤمن على الابتلاءات يرفع قدره عند الله.

ولقد رأينا كيف أن ثبات ماشطة ابنة فرعون كان سببًا فى أن يشم النبى ﷺ رائحتها الطيبة هى وأولادها فى رحلة المعراج.

(٩) أن الواجب على كل مسلم أن يصدق النبى ﷺ فى كل ما أخبر عنه.

ولقد رأينا أبا بكر لما قيل له: إن محمدًا يزعم أنه أُسرى به الليلة إلى المسجد الأقصى فى جزءٍ من الليل ونحن نقطع هذه المسافة فى شهرٍ كامل فماذا تقول يا أبا بكر؟.. قال: إن كان النبى ﷺ قال ذلك فقد صدق.

(١٥) فضل الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ وخشيته

۞عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ، لِأَهْلِهِ: إِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ، ثُمَّ اذْرُوا نِصْفَهُ فِى الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِى الْبَحْرِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَلَمَّا مَاتَ الرَّجُلُ فَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ، فَأَمَرَ اللهُ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ، يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَغَفَرَ اللهُ لَهُ».

۞ وفى رواية: «أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَى بَنِيهِ فَقَالَ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِى، ثُمَّ اسْحَقُونِى، ثُمَّ اذْرُونِى فِى الرِّيحِ فِى الْبَحْرِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّى لَيُعَذِّبُنِى عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا، قَالَ فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ، فَقَالَ لِلْأَرْضِ: أَدِّى مَا أَخَذْتِ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: خَشْيَتُكَ، يَا رَبِّ - أَوْ قَالَ مَخَافَتُكَ - فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ» (١).

۞هذه قصة رجل أنعم الله عليه فى الدنيا بالمال الكثير، ورزقه الأولاد، ولكنه لم يشكر ربه على نعمه التى أولاه إياها، بل كان غارقًا فى الذنوب والمعاصى طيلة عمره، فلما حضره الموت تَذكَّر حاله مع ربه وعصيانه له، فخاف خوفًا شديدًا، وعلم أنه متى قَدِمَ على الله فإنه مُعذبه عذابًا شديدًا، فزينت له نفسه أن يهرب من عذاب الله، وتَفتَّق تفكيره عن طريقة ظن أنه يهرب بها من ذلك العذاب، فجاء بأولاده، وخاطبهم مُذكرًا إياهم بإحسانه ورعايته لهم، وخاطبهم قائلًا: أى أب كنت لكم؟ فقالوا: خير أب.

فحدثهم بالذى يُقلقه ويؤرقه، وأخبرهم بكثرة معاصيه وذنوبه، وأن الله إن قدر عليه، فإنه مُعذبه عذابًا لا يعذبه أحدًا، وطلب منهم أن يحرقوه ويذروه فى

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٧٨) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٧٥٦) كتاب التوبة.

الهواء، كى يتخلص من عذاب الله، ظانًّا أنه إن فعلوا به ذلك لا يقدر الله على جَمعه وإحيائه.

ورسم لهم الطريق التى يسلكونها به بعد وفاته... وخلاصة ما طلبه منهم، أن يجمعوا له حطبًا، ويُشعلوا فيها النار، ثم يتركوه فيها حتى يصبح فحمًا، ثم يسحقون ما تَبقَّى من رُفاته، حتى يصبح رمادًا، ثم ينظرون يومًا صائفًا حارًّا، ذا ريحٍ عاصف، فيأخذون نصف رماده، فيذرونه فى البحر، ونصفه الآخرَ فيذرونه فى البر، وهو يظن أنه بذلك قد أحكم التدبير، فلا يستطيع ربه إعادته وإحياءه بعد كل ما فعله أولاده به.

لقد غفل هذا المسكين عن أن الله على كل شىء قدير، وأنه يبعث عباده فى يوم القيامة.... ومنهم الذى أكلته أسماك البحار، ومنهم الذى أكلته الطيور المفترسة أو وحوش البرارى، ومنهم الذى تَحوَّل إلى تراب، وقد يكون تغذت بترابه الأشجار، ومع ذلك فإن الله قادر على بعثهم وإحيائهم، وجمعهم من بطون الأسماك، وحواصل الطير وبطون السباع، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾(١).

وطلب ذاك الرجل من أولاده أن يعطوه عهودهم ومواثيقهم على فعل ما طلبه منهم، وتهددهم إن لم يعطوه العهود والمواثيق بحرمانهم من ميراثهم بالإيصاء به إلى غيرهم، فعاهدوه على أن يفعلوا به ما طلب، وأقسموا له على ذلك.

وقد فعلوا ما طلبه أبوهم بعد موته، فأمر الحق - تبارك وتعالى - الأرض والبحر بجمع ذرَّاته، وقال لها: كونى فلانًا، فإذا هو قائم، ولما سأله عن السبب

---

(١) سورة مريم: الآيات: (٩٣-٩٥).

الذى جعله يأمر بما أمر به، قال - وهو أعلم به-: خشيتك والخوف منك، فغفر له ذنوبه بمخافته منه، وعذره فى ظنه عدم قدرته على إعادته بجهله، وسبحان الغفور القادر.

فوائد القصة وعبرها

(١) الخوف من الله من أعلى مقامات الصالحين، يغفر الله به الذنوب الكثيرة، فقد غفر الله لهذا الرجل ذنوبه العظيمة، لما وقع فى قلبه من مخافة ربه.

(٢) قد يعذر الله المرء بجهله كما عذر هذا الذى ظن أن الله لا يقدر عليه إن ذرى أولاده رماده فى يومٍ عاصف.... ودعوى بعض أهل العلم أن هذا الرجل كان مدهوشًا لا يدرى ما يقول، مثله مثل الذى أخطأ من شدة الفرح، فقال: أنت عبدى وأنا ربك، غير صحيح.

يدل على عدم صحته ما وصى به أهله بذلك الترتيب الذى يدل على أنه كان واعيًا لما يقول، فقد رسم لأولاده ما يفعلونه من الحرق والسحق والتذرية بدقة، وحاور أولاده، وأخذ عليهم العهود والمواثيق، وكل ذلك ينفى الزعم بأنه كان لا يدرى ما يقول، والصواب أن الله عذره بجهله، ولا يجوز تكفير الجاهلين بمثل هذا الذى ظنه هذا الرجل، وأمر به.

(٣) قدرة الله تبارك وتعالى على البعث والإحياء، فقد أمر الله الأرض والبحر بجمع ما تَفَرَّق من ذرات رماده، وأمر الله تلك الذرات فعاد ذلك الرجل كما كان، وكذلك يُحيى الله فى يوم القيامة الخلائق بعد أن بليت عظامهم، وتقطعت أوصالهم.

(٤) لا يجوز تكفير العباد بالذنوب، فالمؤمن المذنب الذى لم يَتُب أمره إلى الله إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له، كما يقول أهل السنة والجماعة، خلافًا للخوارج والمعتزلة، وهذا ثابت فى شريعتنا كما هو ثابت عند أهل الكتاب من

قبلنا، ومن ذلك غفران الله لهذا الرجل الذى أسرف على نفسه فى الذنوب.

(٥) العاصى المسرف على نفسه فى الذنوب قد يكون مُحبًّا لأولاده، حريصًا على رعايتهم، وتقديم الخير لهم... فقد أقرَّ أبناء هذا الرجل أن أباهم كان خير أب لهم.

(٦) كان الواجب على أولاد هذا الرجل أن لا يطيعوه، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، وأبوهم أمرهم بمعصية.



(١٦) ثم لتسألن يومئذٍ عن النعيم

۞ عن أبى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ العبدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وَنُرْوِيَكَ مِنَ المَاءِ البَارِدِ**»(١).

۞ فهنا يخبر النبى ﷺ أن الله عز وجل يسأل العبد يوم القيامة عن النعيم الذى أنعم الله به عليه.. ومن أول ما يُسأل عنه من النعيم: صحة الجسد الذى أنعم الله به عليه ليستطيع أن يعبد الله عز وجل وأن يسعى لتحصيل الرزق وأن يستعمله فى شئون الدنيا والآخرة.. وكذلك يسأله عن الماء البارد الذى به قوام الحياة فقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(٢)... ومن المعلوم أن الإنسان يستطيع أن يعيش شهورًا بلا طعام ولكنه لا يستطيع أن يعيش أسبوعًا واحدًا بلا ماء وإلا فسوف يموت.

۞ وهذا الحديث يذكرنى بقصة حدثت مع رسول الله ﷺ:

عَنْ أبى هُريرةَ رضي الله عنه قال: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ ذات يَوْمٍ أَوْ لَيْلَة، فإذا هَوَ بِأبى بكْرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما، فقال: «**ما أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكما هذِهِ السَّاعَةَ؟**» قالا: الجُوعُ يا رسولَ الله. قالَ: «**وَأَنا، والَّذِى نَفْسى بيَدِهِ، لأَخْرَجَنى الَّذى أَخْرَجَكُما، قُوما**» فقَاما مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الأَنْصارِ، فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فى بيتِه، فَلَمَّا رَأَتْهُ المرَأَةُ قالَتْ: مَرحَبًا وَأَهْلًا. فقال لها رَسُولُ الله ﷺ: «**أَيْنَ فُلانٌ**» قالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعذِبُ لَنَا الماءَ، إذ جاءَ الأَنْصارىُّ، فَنَظَرَ إلى رَسُولِ الله ﷺ وَصَاحِبَيْه، ثُمَّ قالَ: الحَمْدُ لله، ما أَحَدٌ اليَوْمَ أَكْرَمَ أضيافًا منِّى فانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وتَمْرٌ ورُطَبٌ، فقال: كُلُوا، وَأَخَذَ المُديَةَ،فقال لَهُ رسُولُ الله ﷺ: «**إِيَّاكَ وَالحَلُوبَ**» فَذَبحَ لَهُم، فَأكلُوا مِنَ

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٢٢).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٣٠).

الشَّاةِ وَمِنْ ذلكَ العِذْقِ وشَرِبُوا. فلمَّا أَنْ شَبعُوا وَرَوُوا قال رسولُ الله ﷺ لأَبي بكر وعُمَرَ رضي الله عنهما: **«وَالَّذى نَفْسى بيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هذَا النَّعيم يَوْمَ القِيامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هذا النَّعِيمُ»**[1].

۞ رسول الله ﷺ أفضل هذه الأمة وخيرته من خلقه، وأفضل أنبيائه ورُسله صلوات الله وسلامه عليه.... وصاحباه ووزيراه أفضل هذه الأمة بعد نبيّها، يُخرجهم الجوع من منازلهم، فلا يجدون فيها ما يَسُدُّ رمقهم، ولو شاؤوا لادَّخروا فيها ما يجعل بطونهم وبطون ذويهم ملأى، ولكنهم كانوا يبذلون ما عندهم فى حاجة المسلمين، وقد خَيَّر اللهُ رسوله ﷺ بين أن يكون مَلَكًا رسولًا أو عبدًا رسولًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا يشبع يومًا، ويجوع يومًا، واستمر على ذلك صلوات الله عليه إلى أن توفّاه الله تعالى.

ويُحدِّث أبو هريرة رضي الله عنه فى هذا الحديث: أن رسول الله ﷺ خرج يومًا من منزله... وجاء فى رواية الترمذى: أن خروجه كان فى ساعة لم يكن من عادته الخروج فيها... وفى رواية الموطأ: أن خروجه كان إلى المسجد، فإذا هو يُفاجأ بقدوم أبى بكر وعمر عليه فى موضعه ذاك وساعته تلك.

وعندما استعلم منهما عن سبب خروجهما، وجد أن الذى أخرجهما هو الذى أخرجه: الجوع.

فانطلق بهما إلى منزل أحد أصحابه من الأنصار... وقد حددت رواية الترمذى ورواية الموطأ اسم هذا الصحابى، وهو أبو الهيثم بن التَّيِّهان، وكان

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٣٨) كتاب الأشربة.

قَوْلُها: «يَسْتَعذبُ» أىْ: يَطْلبُ الماءَ العَذْبَ، وهُوَ الطَّيبُ - و«العِذْقُ»: وَهُو الكِباسَةُ، وهِىَ الغُصنُ. و«المُديةُ»: هى السِّكِّينُ. و«الحلُوبُ» ذاتُ اللبَن. وَالسؤالُ عَنْ هذا النعِيم سُؤالُ تَعديدِ النِّعَم لا سُؤالُ توْبيخ وتَعذيبٍ. والله أَعلَمُ...وهذا الأنصاريُّ الَّذِى أَتَوْهُ هُوَ أَبُو الهَيْثمِ بنُ التَّيِّهان رضي الله عنه، كَذا جاءَ مُبيناً فى رواية الترمذى وغيره.

رجلًا كثير النخل والشاء، فلم يجدوه فى منزله وبستانه... فرحبت بهم زوجته أجمل ترحيب، وأخبرتهم أن زوجها ذهب يستعذب لهم الماء.

أى: يأتى بماءٍ عذب من عينٍ أو بئرٍ يتصف ماؤه بالعذوبة.

وقد صرح الترمذى فى روايته: أن أبا الهيثم لم يكن له خادم يخدمه، ولذلك كان يقوم بحاجاته من استعذاب الماء والحرث وجنى الثمر بنفسه، ولم يَطُل غياب أبى الهيثم، فقد وصل يحمل قِربة الماء العذب على ظهره، فوضعها سريعًا، وأقبل على رسول الله ﷺ وصاحبيه تبرق أسارير وجهه فرحًا، وأخذ يلتزم رسول الله ﷺ -أى: يحتضنه- ويفديه بأبيه وأمه، أى يقول له: فداك أبى وأمى، ويقول: الحمد لله، ما من أحدٍ اليوم أكرم أضيافًا منى، ثم انطلق بهم إلى حديقته فبسط لهم بساطًا، ثم انطلق إلى نخلة من نخله فجاءهم بقطفٍ من قطوفها، ويُسمَّى القطف فى مثل هذا (القنو) وعندما قال له رسول الله ﷺ: **«أفلا تنقّيت لنا من رُطَبِه؟»** قال: يا رسول الله، إنى أردت أن تختاروا، أو قال: تخيَّروا من رُطَبِه وبُسْرِه، ثم أخذ أبو الهيثم المُدية وهى السكين، فعرف الرسول ﷺ أنه يريد أن يذبح لهم، فقال له: **«إياك والحَلوب»**.

والحلوب: الشاة ذات اللبن... نهاه عن ذبحها، لأنه ينتفع بلبنها، وقد يكون ولدها حيًّا فيتضرر بذبح أمه لفقده حليبها، فذبح لهم شاة. وأمر لهم بشعير فعمل منه خبزًا، فلما نضج الطعام قدّم لهم خبز الشعير ولحم الشاة فأكلوا وشبعوا، وسقاهم من ذلك الماء العذب بعد أن برد... فقال الرسول ﷺ لأبى بكر وعمر: **«وَالَّذى نَفْسى بيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هذَا النَّعيم يَوْمَ القِيامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتكُمُ الجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هذا النَّعِيمُ»**.

وفى رواية الترمذى: أن الرسول ﷺ قال لصاحبه: **«هَذَا وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِى تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ظِلٌّ بَارِدٌ، وَرُطَبٌ طَيِّبٌ، وَمَاءٌ بَارِدٌ»**.

وكانت مقالته تلك بعد أَكْلِهم الرُّطب وشُربهم الماء، وقبل أن يأكلوا لحم الشاة.

۞وجاء في رواية الترمذي أن الرسول ﷺ سأل أبا الهيثم: «**هَلْ لَكَ خَادِمٌ**»؟ قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَإِذَا أَتَانَا سَبْيٌ فَأْتِنَا**» فَأُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَأْسَيْنِ لَيْسَ مَعَهُمَا ثَالِثٌ فَأَتَاهُ أَبُو الهَيْثَمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «**اخْتَرْ مِنْهُمَا**»، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ اخْتَرْ لِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «**إِنَّ المُسْتَشَارَ مُؤْتَمَنٌ، خُذْ هَذَا فَإِنِّي رَأَيْتُهُ يُصَلِّي وَاسْتَوْصِ بِهِ مَعْرُوفًا**»

وعندما أخذ أبو الهيثم عبده الذي أعطاه الرسول ﷺ إياه، وعرَّف زوجته بما وصّاه الرسول ﷺ به، وكانت امرأة دَيِّنة عاقلة، نصحته بعتقه، فإن قمة تحقيق وصية الرسول به لا يتم إلا بالعتق... وقد استجاب الرجل الصالح لنصيحة زوجه، وعاد ليعتمد على نفسه في العمل في بستانه، وعندما بلغ الرسول ﷺ خبرُ ما أشارت به زوجة أبي الهيثم قال: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا وَلَا خَلِيفَةً إِلَّا وَلَهُ بِطَانَتَانِ بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ المُنْكَرِ، وَبِطَانَةٌ لَا تَأْلُوهُ خَبَالًا، وَمَنْ يُوقَ بِطَانَةَ السُّوءِ فَقَدْ وُقِيَ**»[1].

وقول الرسول ﷺ يشير إلى سُنة من سُنن الله في خلقه من بني آدم، فلكل واحدٍ منَّا بطانتان من أهله وأقاربه ومعارفه... بطانة تأمره بالخير، وبطانة تأمره بالشر، والسعيد هو الذي يُوقَى بطانة الشر... وقد كان أبو الهيثم من هؤلاء الذين يَسَّر الله لهم زوجة صالحة تأمره بالخير، وتنهاه عن الشر[2].

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٧١٩٨) كتاب الأحكام.

(٢) قصص الرسول ﷺ وأصحابه/ د. عمر الأشقر (ص ٥١-٥٤) بتصرف.



(١٧) حُسن الخاتمة.. وسوء الخاتمة

۞ عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ، قَالَ عَبْدُ اللهِ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ، قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ.. وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ»(١).

۞ وهذا الحديث أصلٌ فى باب القدر والعناية بذلك، والخوف من السوابق والخوف من الخواتيم... وكما قيل: قلوب الأبرار مُعلَّقة بالخواتيم.

يقولون: ماذا يُختم لنا... وقلوب السابقين أو المقربين مُعلقة بالسوابق يقولون: ماذا سبق لنا؟ وهذا هو الإيمان بالقدر والخوف من الكتاب السابق والخوف من الخاتمة.. هذا من آثار الإيمان بالقدر خيره وشره.

فإن هذا الحديث دَلَّ على أن هناك تقديرًا عُمريًّا لكل إنسان، وهذا التقدير العمرى يكتبه المَلك بأمر الله عَزَّوَجَلَّ كما جاء فى هذا الحديث.

إذًا... هذا الحديث مَسُوقٌ لبيان التقدير العمرى لكل إنسان؛ وليخاف المرء السوابق والخواتيم؛ وليؤمن بأن ما أصابه لم يكن ليُخطئه وما أخطأه لم يكن ليُصيبه... والسوابق فى عمل العبد والخواتيم متصلة... كما قيل: الخواتيم ميراث السوابق.

فالخاتمة ترثها لأجل السوابق، فما من خاتمة إلا وسببها بلطف الله عَزَّوَجَلَّ

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٠٨) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٦٤٣) كتاب القدر.

ورحمته أو بعدله وحكمته. سوابق المرء فى عمله وهى جميعًا متعلقة بسوابق القدر[١].

۞ قال ابن مسعود رضي الله عنه: حدَّثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق... يعنى الصادق فيما يقول، والمصدوق فيما يُوحَى إليه من الوحى، وفيما يُقال له من الوحى... فهو صادق لا يُخبر إلا بالصدق، مصدوق لا يُنبأ إلا بالصدق صلوات الله وسلامه عليه.

وإنما قدم هذه المقدمة؛ لأنه سيُخبر عن أمرٍ غيبى باطن يحدث فى ظلماتٍ ثلاث.

۞ وقول ابن مسعود هنا: وهو الصادق المصدوق... هذه تهيئة،...وهذه فيها أدب للمعلم أن يهيئ العلم لمن يعلمه ومَن يخبره بالعلم؛ لأن هذا الحديث فيه شىء غيبى لا يُدرَك بالحِسِّ ولا بالتجربة، وإنما يُدرَك بالتسليم والعلم بالخبر لصدق المُخبِر به (عليه الصلاة والسلام).

ومعلوم أن الصحابة فى ذلك الوقت لم يكونوا يعلمون تطور هذه المراحل بعلمٍ تجريبى أو برؤية أو بنحو ذلك، وإنما هو الخبر الذى يصدقونه... فكانوا علماء لا بالتجريب وإنما بخبر الوحى الذى ينزل على النبى صلوات الله عليه وسلامه[٢].

۞ قوله ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فى بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً**» أى أنه إذا أتى الرجل امرأته فى الحلال وألقى الماء فى رحمها بقى أربعين يومًا وهو نطفة على ما هو عليه ماء... لكنه يتغير شيئًا فشيئًا... يميل إلى الحُمرة، حتى يتم عليه أربعون يومًا.

---

(١) شرح الأربعين النووية (ص٧٣).

(٢) شرح الأربعين النووية (ص٧٤) بتصرف.

فإذا تم عليه أربعون يومًا... إذا هو قد استكمل الحُمرة وصار قطعة دم علقة، فيمضى عليه أربعون يومًا أُخرى وهو علقة... يعنى قطعة دم، لكنها جامدة، ولكنه يثخن ويغلظ شيئًا فشيئًا، حتى يتم له ثمانون يومًا.

فإذا تَمَّ له ثمانون يومًا فإذا هو مضغة (قطعة لحم)، هذه المضغة قال الله تعالى فيها: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾[1]. فتبقى أربعين يومًا، تُخلَّق من واحدٍ وثمانين يومًا إلى مائة وعشرين يومًا، ولا يتبين فيها الخلق تبينًا ظاهرًا إلا إذا تم لها تسعون يومًا فى الغالب.

فإذا مضى عليها أربعون يومًا وهى مضغة، أرسل الله إليها الملك الموكّل بالأرحام؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[2].

فالملائكة جنود الله عَزَّوَجَلَّ.. وكُلٌّ منهم مُوكَّلٌ بشيءٍ؛...منهم المُوكَّل بالأرحام، ومنهم المُوكل بالنفوس يقبضها، ومنهم المُوكَّل بالأعمال يكتبها، ومنهم المُوكل بالأبدان يحفظها.. وظائف عظيمة للملائكة أمرهم الله عَزَّوَجَلَّ بها.

فيأتى ملك الأرحام إلى كل رحم، فينفخ فيه الروح بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذه الروح أمرٌ لا يعلمه إلا ربّ العالمين...قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3]

ينفخها فى هذا البدن، الذى هو قطعة لحم فى الرحم، ليس فيها حِراك ولا إحساس ولا شىء.... فإذا نفخ هذه الروح دخلت فى هذا البدن، فتسير فيه كما تسير الجمرة فى الفحمة بإذن الله، أو الطين فى المدر اليابس، فتدبُّ فى هذا الجسد حتى تدخل فى الجسد كله، فيكون إنسانًا، ويتحرك، وتحس الأم بتحرُّكه بعد مائة وعشرين يومًا، وحينئذ يكون إنسانًا، أما قبل هذا فهو ليس بشىء.

---

(١) سورة الحج: الآية: (٥).

(٢) سورة المدثر: الآية: (٣١).

(٣) سورة الإسراء: الآية: (٨٥).

ولو سقط الجنين قبل تمام مائة وعشرين يومًا، فليس له حُكمٌ من جهة الصلاة عليه، بل يُؤخَذ ويُدفَن فى أى حفرة من الأرض، ولا يُصلَّى عليه.

أما إذا تم مائة وعشرين يومًا، يعنى أربعة أشهر، حينئذ صار إنسانًا، فإذا سقط بعد ذلك، فإنه يُغسَّل، ويُكفَّن، ويُصلَّى عليه... ولو كان قدر اليد، فإنه يُصلَّى عليه، ويُدفَن فى مقابر المسلمين إن كان مُسلمًا.

ويُسمَّى، ويُعَقُّ عنه على الأرجح ليشفع لوالديه يوم القيامة؛ لأنه يُبعث يوم القيامة.

قال النبى عليه الصلاة والسلام: «ويُؤمر» يعنى المَلكَ «**بأربع كلمات؛ بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم سعيد**».

فيكتب رزقه: وكَتب الرزق يعنى: هل هو قليل، أم كثير؟ ومتى يأتيه؟ وهل ينتقص أم لا ينتقص؟ المهم أنه يُكتَب كاملًا[1].

ويكتب أجله أيضًا: فى أى يوم؟ وفى أى مكان؟ وفى أى ساعة؟ وفى أى لحظة؟ وعن بُعدٍ أم عن قُرب؟ وبأى سبب من الأسباب موته؟ والمهم أنه يُكتب كاملًا.

ويُكتب عمله: هل هو صالح، أم سيئ، أم نافع، أم قاصر على الشخص نفسه؟ والمهم أنه يُكتب كل أعماله.

ويُكتب مآله: وما أدراك ما المآل! فيُكتَب هل هو شقى أم سعيد.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[2]

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٥٠-١٥١) بتصرف.

(٢) سورة هود: الآيات: (١٠٦-١٠٨).

كل هذا يُكتَب، لكن أين يُكتب؟ وردت آثار أنه يُكتَب فى جبينه على جبهته.

فإن قال قائل: كيف تتسع الجبهة لكتابة هذه الأشياء كلها؟

قلنا: لا تسأل عن أمور الغيب، ومَن أنت حتى تسأل عن أمور الغيب؟ قل: آمنت بالله وصدقت بالله وبرسوله ﷺ ولا تسأل: كيف.

وقد وقع الآن فى وقتنا ما يشهد لمثل هذا.... كمبيوتر قدر اليد يكتب به الإنسان ملايين الكلمات، وهو من صنع البشر. فما بالك بصنع الله عز وجل!

۞ قال ﷺ: «**فَوَالَّذِى لا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدخُلُهَا**».

وقد يقول قائل: وما ذنب هذا الرجل حتى يعمل عملًا صالحًا طوال تلك السنوات ثم يُختم له بخاتمة أهل الشقاء فيدخل النار؟

أقول: يتضح ذلك فى الرواية الأخرى فقد قال النبى ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ**» أى أنه لم يكن يعمل هذا العمل لله وإنما كان مُرائيًا...فلذلك أخرج الله ما فى قلبه قبل موته فكانت تلك الخاتمة السيئة.

۞ وهناك قصة توضح لنا خاتمة مَن عمل عملًا لغير وجه الله سبحانه وتعالى... ففى الصحيحين، أن رجلًا كان مع النبى ﷺ فى غزوة، وكان شُجاعًا مِقدامًا، لا يترك للعدو شاذة ولا فاذة إلا قضى عليه، فتعجب الناس منه؛ ومن شجاعته، ومن إقدامه، فقال النبى ﷺ ذات يوم: «**إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»[1].

أعوذ بالله... هذا الشجاع الذى يفتك بالعدو من أهل النار؟

فكَبُر ذلك على المسلمين، وعَظُم عليهم، وخافوا، كيف يصير هذا من أهل النار؟

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٢٠٢) كتاب المغازى، ومسلم (١١٢) كتاب الإيمان.

فقال رجل: والله لألزمنَّه... سوف أتابعه وأراقبه؛ لأرى نهايته كيف تكون؟ فمشى معه، وفى أثناء القتال أصاب هذا الرجل الشجاع السهم فجزع، فأخذ بسيفه فسلَّه، فوضعه فى صدره، واتكأ عليه حتى خرج من ظهره... قتل نفسه جزعًا... فجاء الرجل إلى النبى ﷺ وقال: يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله... قال: وبِمَ؟

قال: الرجل الذى قلت: إنه من أهل النار. حصل له كذا وكذا.

فقال النبى ﷺ: **«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعمَلُ الزَّمان الطَّويل بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»**.

وفى هذا درسٌ عظيمٌ أن نتعلم جميعًا ألا نعمل العمل إلا لله عَزَّوَجَلَّ وأن ندعو دائمًا بدعاء النبى ﷺ: **«يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِىَ عَلَى دِينِكَ»**(١).

۞ ثم قال النبى ﷺ: **«وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدخُلُهَا»**.

هذا عكس الأول.

وهذا له أيضًا شاهد فى الواقع... رجلٌ يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها... وقع هذا على عهد الرسول ﷺ... كان هناك رجل يُقال له الأُصيرم من بنى عبد الأشهل، كافر مُنابذٌ للدعوة الإلهية... كان ضد المسلمين، فلما كان فى غزوة أُحد، وخرج الناس من المدينة يغزون، ألقى الله فى قلبه الإسلام، فأسلم وخرج يجاهد.

فلما حصل ما حصل للمسلمين وقُتل منهم مَنْ قُتِلَ وذهب الناس ينظرون فى قتلاهم، فوجدوا الأُصيرم فى الرمق الأخير فقال له قومه: ما الذى جاء بك؛ فقد عهدناك ضد هذه الدعوة... أَحَدَبٌ على قومك، يعنى عصبية، أم رغبة فى الإسلام؟

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٨٧).

قال: بل رغبة فى الإسلام، وأقرئوا الرسول ﷺ منى السلام، وأخبروه أنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ثم مات... فأخبروا بذلك النبى ﷺ فقال: «**إنه من أهل الجنة**»[١] ... فهذا الرجل أمضى عمره كله فى الكفر، ضد الإسلام وضد المسلمين، وكان خاتمته هذه الخاتمة.

عمل بعمل أهل النار، حتى لم يكن بينه وبينها إلا ذراع، فسبق عليه الكتاب، فعمل بعمل أهل الجنة، فكان من أهل الجنة[٢].

---

(١) حسن: رواه أحمد فى مسنده (٥/ ٤٢٨) من حديث ابن إسحاق وقد صرح بالتحديث، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط فى أحمد (٢٣٦٨٤): إسناده حسن.

(٢) شرح رياض الصالحين/ الشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ١٥١-١٥٣) بتصرف.



(١٨) طلوع الشمس من المغرب

۞ عَن أَبِى ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَيْهِ بَرْذَعَةٌ أَوْ قَطِيفَةٌ، قَالَ: وَذَلِكَ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَقَالَ لِى: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، هَلْ تَدْرِى أَيْنَ تَغِيبُ هَذِهِ؟**».

قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «**فَإِنَّهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَامِئَةٍ، تَنْطَلِقُ حَتَّى تَخِرَّ لِرَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ سَاجِدَةً تَحتَ الْعَرْشِ، فَإِذَا حَانَ خُرُوجُهَا أَذِنَ اللهُ لَهَا فَتَخْرُجُ فَتَطْلُعُ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُطْلِعَهَا مِنْ حَيْثُ تَغْرُبُ حَبَسَهَا، فَتَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّ مَسِيرِى بَعِيدٌ فَيَقُولُ لَهَا: اطْلُعِى مِنْ حَيْثُ غِبْتِ، فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا**»[١].

۞ نحن نعلم أن الشمس منذ أن خلقها الله عَزَّ وَجَلَّ وهى تُشرق من المشرق وتغرب من المغرب بصورة منتظمة لم تتغير ولو مرة واحدة... فقد جعل الله لها نظامًا ومدارًا لا تحيد عنه أبدًا.

قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾[٢].

۞ ولذلك حينما ناظر خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا الكافر المتمرد (النمرود بن كنعان) حدث بينهما ذلك الحوار.

قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٢٨)، وأصله فى الصحيحين.

(٢) سورة يس: الآية: (٣٨).

ﵟٱلظَّٰلِمِينَﵞ(١).

۞ ومع ذلك فإنه فى آخر الزمان يصبح الناس كعادتهم ينتظرون طلوع الشمس من المشرق - كما هو حالها منذ خلقها الله - فإذا بالشمس تطلع من المغرب... وعندها يُغلق باب التوبة.

قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم. ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ﴾ مقدمات العذاب، ومقدمات الآخرة، بأن تأتيهم ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم. فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال، لم ينفعهم الإيمان، ولا صالح الأعمال. ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ لفصل القضاء بين العباد، ومُجازاة المحسنين والمُسيئين. ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ الدالة على قرب الساعة.

﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ الخارقة للعادة، التى يعلم بها أن الساعة قد دنت، وأن القيامة قد اقتربت.

﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ أى: إذا وُجد بعض آيات الله، لم ينفع الكافر إيمانه أن آمن، ولا المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك. بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك. وما كان له من الخير الموجود، قبل أن يأتى بعض الآيات.

والحكمة فى هذا ظاهرة... فإنه إنما كان الإيمان ينفع، إذا كان إيمانًا بالغيب، وكان اختيارًا من العبد. فأما إذا وُجدت الآيات، صار الأمر شهادة، ولم يبقَ للإيمان فائدة، لأنه يشبه الإيمان الضرورى، كإيمان الغريق، والحريق،

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٥٨).

ونحوهما، ممن إذا رأى الموت، أقلع عمّا هو فيه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾.

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة، عن النبى ﷺ أن المراد ببعض آيات الله، طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رأوها، آمنوا، فلم ينفعهم إيمانهم، ويُغلَق حينئذ، باب التوبة.

ولما كان هذا وعيدًا للمكذبين بالرسول ﷺ منتظرًا وهم ينتظرون بالنبى ﷺ وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور قال: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ فستعلمون أيُّنا أحق بالأمن[1].

۞ ومن هنا يتضح لنا أنه **لا تُقبل توبة العبد فى حالتين:**

(١) عند الغرغرة.. أى: عندما تبلغ الروح الحلقوم:

قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**»[2].

(٢) إذا طلعت الشمس من مغربها.. كما جاء فى الحديث:

أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[3].

وقال ﷺ: «**إنّ مِنْ قِبَلِ مَغْرِبِ الشَّمْسِ بَابا مَفْتُوحـًا عَرْضُهُ سَبْعُونَ سَنَةً فَلَا يَزَالُ ذلِكَ الْبَاب مَفْتُوحـًا حَتّى تَطْلُعَ الشَّمْس نَحْوَهُ فَإِذا طَلَعَتْ مِنْ نَحْوِهِ لـمْ يَنْفَعْ نَفْسـًا إيمانُها لمْ تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانِها خَيْرًا**»[4].

---

(١) تفسير السعدى (١/ ٤٥٢-٤٥٣) ط. مكتبة أبى بكر.

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٠٣).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٩) كتاب التوبة.

(٤) حسن: رواه ابن ماجه، وأحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٢٢٩).

۞ قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ مَعَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ أَحْدَثَ إِيمَانًا أَوْ تَوْبَةً بعد طلوع الشمس من مغربها لا يُقبَل مِنْهُ، وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ وَاللهُ أَعْلَمُ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَكْبَرِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَعَلَامَاتِهَا الدَّالَّةِ عَلَى اقْتِرَابِهَا وَدُنُوِّهَا، فَعُومِلَ ذَلِكَ الْوَقْتُ مُعَامَلَةَ يوم القيامة»[1].

فجعل ﷺ غاية قبول التوبة هو طلوع الشمس من مغربها.

۞ وقد ذكر ابن حجر أحاديث وآثارًا كثيرة تدلُّ على استمرار قفل باب التوبة إلى يوم القيامة، ثم قال: «فهذه آثار يَشُدُّ بعضها بعضًا مُتَّفقة على أن الشمس إذا طلعت من المغرب؛ أُغلق باب التوبة، ولم يُفتح بعد ذلك وأن ذلك لا يختصُّ بيوم الطلوع، بل يمتدُّ إلى يوم القيامة»[2].

۞ قال القرطبي: «قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَإِنَّمَا لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، لِأَنَّهُ خَلَصَ إِلَى قُلُوبِهِمْ مِنَ الْفَزَعِ مَا تَخْمَدُ مَعَهُ كُلُّ شَهْوَةٍ مِنْ شَهَوَاتِ النَّفْسِ، وَتَفْتُرُ كُلُّ قُوَّةٍ مِنْ قُوَى الْبَدَنِ، فَيَصِيرُ النَّاسُ كُلُّهُمْ لِإِيقَانِهِمْ بِدُنُوِّ الْقِيَامَةِ فِي حَالِ مَنْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ فِي انْقِطَاعِ الدَّوَاعِي إِلَى أَنْوَاعِ الْمَعَاصِي عَنْهُمْ، وَبُطْلَانِهَا مِنْ أَبْدَانِهِمْ، فَمَنْ تَابَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ، كَمَا لَا تُقْبَلُ تَوْبَةُ مَنْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ»[3].

---

(١) «النهاية في الفتن والملاحم» (١/ ٢١٩-٢٢٢).

(٢) «فتح الباري» (١١/ ٣٥٤-٣٥٥).

(٣) «التذكرة» (ص ٧٠٦)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ١٤٦).



(١٩) أنا الملك... أين ملوك الأرض

۞ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِى السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ»[١].

۞ ففى هذا الحديث يخبر الحق عَزَّ وَجَلَّ عن مشهد من مشاهد قيام الساعة، وذلك حين يأمر الله عَزَّ وَجَلَّ إسرافيل بالنفخ فى الصور (نفخة الصعق).

فإنه بعد نفخة الصعق تموت الخلائق كلها.. يموت كل حى ويبقى الحى الذى لا يموت (جل وعلا) فيصبح الكون كله فى سكونٍ رهيب موحش فيطوى الله السماوات بيمينه ويطوى الأرض بشماله ويقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟.

قال ﷺ: «يَطْوِى اللهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِى الأَرَضِينَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»[٢].

قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[٥].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨١٢) كتاب التفسير، ومسلم (٢٧٨٧) كتاب صفة القيامة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٨٨) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

(٣) سورة الرحمن: الآيتان: (٢٦، ٢٧).

(٤) سورة القصص: الآية: (٨٨).

(٥) سورة غافر: الآيتان: (١٥، ١٦).

فلا أحد يسأل ولا أحد يجيب إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم يُحيى اللهُ إسرافيل مرة أخرى ويأمره بأن يَنفخ فى الصور نفخة البعث لتقوم الخلائق كلها من القبور إلى أرض المحشر للفصل والحساب بين يدى الكريم التواب (جل وعلا).

۞ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله ﷺ: «**يطوى**»: المراد بالطى الطى الحقيقى.

قوله: «**ثم يقول: أنا الملك**»:

يقول ذلك ثناءً على نفسه - سبحانه-، وتنبيهًا على عظمته الكاملة وعلى مُلكه الكامل، وهو السلطان، فهو مالك ذو سلطان، وهذه الجملة كلا جزأيها معرفة، وإذا كان المبتدأ والخبر كلاهما معرفة، فإن ذلك من طرق الحصر، أى: أنا الذى لى الملكية المطلقة والسلطان التام لا ينازعنى فيهما أحد.

قوله: «**أين ملوك الأرض؟**»: الاستفهام للتحدى، فيقول: أين الملوك الذين كانوا فى الدنيا لهم السُّلطة والتجبُّر والتكبُّر على عباد الله؟

وفى ذلك الوقت يُحشرون أمثال الذَّر -النمل الصغير- يطأهم الناس بأقدامهم[1].

(١) القول المفيد (٢/ ٣٩٥).



(٢٠) يا آدم... أخرج بعث النار

۞ عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الخُدرىّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ: يَا آدَمُ**، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ فِى يَدَيْكَ، قَالَ: يَقُولُ: **أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ**، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾» فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ قَالَ: «أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ» ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، إِنِّى لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ» قَالَ: فَحَمِدْنَا اللهَ وَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، إِنِّى لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ، إِنَّ مَثَلَكُمْ فِى الأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعَرَةِ البَيْضَاءِ فِى جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، أَوِ الرَّقْمَةِ فِى ذِرَاعِ الحِمَارِ»[1].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ عن مشهدٍ عجيب من مشاهد يوم القيامة... وذلك حين يُنادى الحق (جلَّ وعلا) على أبينا آدم عليه السلام ويقول له: يا آدم... فإذا بآدم يقول لله عز وجل: لبيك وسعديك والخير فى يديك.

۞ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: قَوْلُهُ: «**فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِى يَدَيْكَ**» فِى الِاقْتِصَارِ عَلَى الْخَيْرِ نَوْعُ تَعْطِيفٍ وَرِعَايَةٌ لِلْأَدَبِ وَإِلَّا فَالشَّرُّ أَيْضًا بِتَقْدِيرِ اللهِ كَالْخَيْرِ.

۞ قَوْلُهُ: «**أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ**».

فِى حَدِيثِ أَبِى هُرَيْرَةَ: «**بَعْثَ جَهَنَّمَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ**». وَفِى رِوَايَةِ أَحْمَدَ: «نَصِيبَ» بَدَلَ: «بَعْثَ» وَالْبَعْثُ بِمَعْنَى الْمَبْعُوثِ وَأَصْلُهَا فِى السَّرَايَا الَّتِى يَبْعَثُهَا الْأَمِيرُ إِلَى جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ لِلْحَرْبِ وَغَيْرِهَا ... وَمَعْنَاهَا هُنَا مَيْزُ أَهْلِ النَّارِ مِنْ غَيْرِهِمْ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٣٠) كتاب الرقائق – ومسلم (٢٢٢) كتاب الإيمان.

وَإِنَّمَا خُصَّ بِذَلِكَ آدَمَ لِكَوْنِهِ وَالِدَ الْجَمِيعِ وَلِكَوْنِهِ كَانَ قَدْ عَرَفَ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَقَدْ رَآهُ النَّبِيّ ﷺ لَيْلَةَ الإِسْرَاءِ وَعَنْ يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ وَعَنْ شِمَالِهِ أَسْوِدَةٌ فالَّذين عن يمينه هم أهل الجنَّة..والَّذِينَ عن شماله هم أهل النَّار.

❁قوله: «**قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ**».

الْوَاوُ عَاطِفَةٌ عَلَى شَيْءٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ سَمِعْتُ وَأَطَعْتُ وَمَا بَعْثُ النَّارِ. أَيْ: وَمَا مِقْدَارُ مَبْعُوثِ النَّارِ..وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «**فَيَقُولُ يَا رَبِّ كَمْ أُخْرِجُ**».

❁ قَوْلُهُ: «**مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ**».

ففى تلك اللحظة يشيب الطفل الصغير لهول الموقف وتضع كل ذات حمل حملها... ولذا قال النبى ﷺ: «**فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ الله شديد**» معناه موافقة الآية فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**﴾[1] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا**﴾[2] وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي وَقْتِ وَضْعِ كُلِّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَغَيْرِهِ مِنَ الْمَذْكُورِ.

فَقِيلَ: عِنْدَ زَلْزَلَةِ السَّاعَةِ قَبْلَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا... وَقِيلَ: هُوَ فِي الْقِيَامَةِ.

فَعَلَى الْأَوَّلِ هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ وَعَلَى الثَّانِي يَكُونُ مَجَازًا لِأَنَّ الْقِيَامَةَ لَيْسَ فِيهَا حَمْلٌ وَلَا وِلَادَةٌ ... وَتَقْدِيرُهُ يَنْتَهِي بِهِ الْأَهْوَالُ وَالشَّدَائِدُ إِلَى أَنَّهُ لَوْ تُصُوِّرَتِ الْحَوَامِلُ هُنَاكَ لَوَضَعْنَ أَحْمَالَهُنَّ ... كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ أَصَابَنَا أَمْرٌ يَشِيبُ مِنْهُ الْوَلِيدُ... يُرِيدُونَ شِدَّتَهُ وَاللهُ أَعْلَمُ.

---

(١) سورة الحج: الآيتان: (١، ٢).

(٢) سورة المزمل: الآية: (١٧).

وَأَقُولُ: يَحْتَمِلُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى حَقِيقَتِهِ فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يُبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ فَتُبْعَثُ الْحَامِلُ حَامِلًا وَالْمُرْضِعُ مُرْضِعَةً وَالطِّفْلُ طِفْلًا فَإِذَا وَقَعَتْ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ. وَقِيلَ ذَلِكَ لِآدَمَ وَرَأَى النَّاسُ آدَمَ وَسَمِعُوا مَا قِيلَ لَهُ وَقَعَ بِهِمْ مِنَ الْوَجَلِ مَا يَسْقُطُ مَعَهُ الْحَمْلُ وَيَشِيبُ لَهُ الطِّفْلُ وَتَذْهَلُ بِهِ الْمُرْضِعَةُ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بَعْدَ النَّفْخَةِ الْأُولَى وَقَبْلَ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ وَيَكُونُ خَاصًّا بِالْمَوْجُودِينَ حِينَئِذٍ وَتَكُونُ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «**فَذَاكَ**» إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُوَ صَرِيحٌ فِي الْآيَةِ وَلَا يَمْنَعُ مِنْ هَذَا الْحَمْلِ مَا يُتَخَيَّلُ مِنْ طُولِ الْمَسَافَةِ بَيْنَ قِيَامِ السَّاعَةِ وَاسْتِقْرَارِ النَّاسِ فِي الْمَوْقِفِ وَنِدَاءِ آدَمَ لِتَمْيِيزِ أَهْلِ الْمَوْقِفِ لِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ ذَلِكَ يَقَعُ مُتَقَارِبًا كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾[1] يَعْنِي أَرْضَ الْمَوْقِفِ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾[2].

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُطْلَقُ عَلَى مَا بَعْدَ نَفْخَةِ الْبَعْثِ مِنْ أَهْوَالٍ وَزَلْزَلَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِلَى آخِرِ الِاسْتِقْرَارِ فِي الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ.

وَقَرِيبٌ مِنْهُ مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو فِي أَشْرَاطِ السَّاعَةِ إِلَى أَنْ ذَكَرَ النَّفْخَ فِي الصُّورِ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ ثُمَّ يُقَالُ: «**أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ...**» فَذَكَرَهُ قَالَ: «**فَذَاكَ يَوْمٌ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا**».

وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ الطَّوِيلِ عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ مَعْبَدٍ وَغَيْرِهِ مَا يُؤَيِّدُ الِاحْتِمَالَ الثَّانِيَ وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي بَابِ النَّفْخِ فِي الصُّورِ وَفِيهِ بَعْدَ قَوْلِهِ: «**وَتَضَعُ الْحَوَامِلُ مَا فِي بُطُونِهَا وَتَشِيبُ الْوِلْدَانُ وَتَتَطَايَرُ الشَّيَاطِينُ**»: «**فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ تَصَدَّعَتِ**

---

(١) سورة النازعات: الآيتان: (١٣، ١٤).

(٢) سورة المزمل: الآيتان: (١٧، ١٨).

الْأَرْضُ فَيَأْخُذُهُمْ لِذَلِكَ الْكَرْبُ وَالْهَوْلُ» ثُمَّ تَلَا الْآيَتَيْنِ مِنْ أَوَّلِ الْحَجِّ.

۞ وهنا فزع أصحاب الرسول ﷺ، وقالوا: يا رسول الله أَيُّنَا ذلك الرجل؟

أى: إن كان سينجو رجلٌ واحدٌ من بين كل ألفٍ من النار فمن سيكون ذلك الرجل الذى سينجو؟.. وما هو العمل الذى سينجى من النار لنعمله؟.

فما كان من نبى الرحمة ﷺ إلا أن قال لهم: « **أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ**».

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: قَوْلُهُ: «**فإِن مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا**» أَيْ: مِنْهُمْ وَمِمَّنْ كَانَ عَلَى الشِّرْكِ مِثْلَهُمْ. وَقَوْلُهُ: «**وَمِنْكُمْ رَجُلٌ**» يَعْنِى: مِنْ أَصحَابِهِ وَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا مِثْلَهُمْ.

قُلْتُ: وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْإِشَارَةَ بِقَوْلِهِ: مِنْكُمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ فِى حَدِيثِ بن مَسْعُودٍ بِقَوْلِهِ: «**إِنَّ الْجَنَّةَ لا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ**»[(١)].

وهكذا ينبغى للإنسان أن يستعمل البشرى لإخوانه ما استطاع. ولكن أحيانًا يكون الإنذار خيرًا لأخيه المسلم، فقد يكون أخوك المسلم فى جانب تفريط فى واجب، أو انتهاكٍ لمُحرَّم، فيكون من المصلحة أن تُنذره وتُخوفه... فالإنسان ينبغى له أن يستعمل الحكمة، ولكن يُغلِّب جانب البُشرى... فلو جاءك رجلٌ مثلًا، وقال: إنه أسرف على نفسه، وفعل معاصى كبيرة وسأل هل له من توبة؟ فينبغى لك أن تقول له: نعم.. أبشر فإنك إذا تُبت تاب الله عليك.

۞ ثم قال النبى ﷺ : «**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، إِنِّى لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثلث أهل الجنَّة**».. فما كان من الصحابة إلا أن قالوا: الحمد لله.. الله أكبر.

وذلك من شدة فرحهم أنه سيكون عدد المسلمين فى الجنة هو ثلث أهل

---

(١) فتح البارى (١١/ ٣٩٧-٣٩٩) بتصرف.

الجنة مع أن أمة النبى محمد ﷺ هى أمة من بين سبعين أمة ستكون فى أرض المحشر يوم القيامة.

قال ﷺ : «**إِنَّكُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ**»[١].

۞ ثم قال النبى ﷺ بعد ذلك: «**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، إِنِّى لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ**». أى: نصف أهل الجنة.

ولم يخبرهم ﷺ أنهم النصف ابتداءً؛ لأن التدريج أوقع فى النفس وأبلغ فى الإكرام، لأن الإعطاء مرةً بعد أخرى دليلُ الاعتناء بالمُعطَى، أو لتتكرر منهم عبادة الشكر، ولا يبعد أن يكون قد أُوحى إليه ﷺ فى البداية أنهم ثُلث أهل الجنة، ثم أُوحى إليه بعد ذلك أنهم نصف أهل الجنة.

بل لقد ثبت عن النبى ﷺ أنه أخبر أن أمته ستكون يوم القيامة ثُلثى أهل الجنة.

قال ﷺ : «**أهلُ الجَنَّةِ عِشْرُونَ ومائةُ صَفٍّ... ثَمانونَ مِنْها مِنْ هذِهِ الأُمَّةِ وأَرْبَعونَ مِنْ سائِرِ الأُمَمِ**»[٢].

فثلثا أهل الجنة من أمة النبى ﷺ.. والثلث الباقى يُقسم بين (٦٩) أمة من الأمم السابقة.. وذلك من فضل الله عَزَّوَجَلَّ على هذه الأمة الميمونة المباركة.

۞ ثم قال ﷺ : «**إِنَّ مَثَلَكُمْ فِى الأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعَرَةِ البَيْضَاءِ فِى جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، أَوِ الرَّقْمَةِ فِى ذِرَاعِ الحِمَارِ**».

فعلى الرغم من قلة أعدادنا بالنسبة لأعداد الأمم من قبلنا إلا أننا نكون ثُلثى أهل الجنة.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قَوْلُهُ ﷺ : «**كَالرَّقْمَةِ فِى ذِرَاعِ الْحِمَارِ**» هِىَ بِفَتْحِ

---

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٣٠١).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٢٦).

الرَّاءِ وَإِسْكَانِ الْقَافِ. قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الرَّقْمَتَانِ فِى الْحِمَارِ هُمَا الأَثَرَانِ فِى بَاطِنِ عَضُدَيْهِ، وَقِيلَ: هِىَ الدَّائِرَةُ فِى ذِرَاعَيْهِ، وَقِيلَ: هِىَ الْهَنَةُ النَّاتِئَةُ فِى ذِرَاعِ الدَّابَّةِ مِنْ دَاخِلٍ. وَاللهُ أعلم بالصواب»[1].

(١) شرح مسلم للنووى (٢/ ١٠٠).

(٢١) يوم يُكشف عن ساق

۞ عن أبى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا جَمَعَ اللهُ الْعِبَادَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، نَادَى مُنَادٍ: لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، فَيَلْحَقُ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَيَبْقَى النَّاسُ عَلَى حَالِهِمْ، فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ: مَا بَالُ النَّاسِ ذَهَبُوا وَأَنْتُمْ هَا هُنَا؟ فَيَقُولُونَ: نَنْتَظِرُ إِلَهَنَا، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: إِذَا تَعَرَّفَ إِلَيْنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَكْشِفُ لَهُمْ عَنْ سَاقِهِ فَيَقَعُونَ سُجُودًا، فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾(١) وَيَبْقَى كُلُّ مُنَافِقٍ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْجُدَ، ثُمَّ يَقُودُهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ»(٢).

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ عن مشهدٍ عظيمٍ من مشاهد يوم القيامة.. وذلك عندما تُحشَر الخلائق كلها فى أرض المحشر للفصل والحساب... وبينما هم على تلك الحالة التى وصفها النبى ﷺ بقوله: «**يُحشر الناس يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرلًا**» إذ «**نَادَى مُنَادٍ: لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ**». وفى رواية: «**إذا كان يوم القيامة يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فتتبع اليهود عُزيرًا، وتتبع النصارى معبودها فيتساقطون فى النار...**»... ويبقى الناس على حالهم واقفين فى أرض المحشر فى ذلك الكرب العظيم، وقد أُلقى الكفار فى النار، ولم يبقَ إلا أهل الإيمان، ومعهم المنافقون الذين كانوا يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر.

«**فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ: مَا بَالُ النَّاسِ ذَهَبُوا وَأَنْتُمْ هَا هُنَا؟**» والمقصود بالناس هنا: هم الكفار الذين لحقوا بما كانوا يعبدون...

---

(١) سورة القلم: الآية: (٤٢).

(٢) صحيح: رواه الدارمى، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٥٨٤).

فيقول المؤمنون: «نَنْتَظِرُ إِلَهَنَا»... وكأنهم يقولون: نحن لا يشغلنا أى شىء إلا أن نرى ربنا عَزَّوَجَلَّ ونستمتع بلذة النظر إلى وجهه الكريم.

«فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَهُ؟».. أى: هل تعرفون ربكم إذا رأيتموه.

«فَيَقُولُونَ: إِذَا تَعَرَّفَ إِلَيْنَا، عَرَفْنَاهُ»... وذلك لأنهم لم يروه (جلَّ وعلا) قبل ذلك.

وفى تلك اللحظة يحدث ما لا يخطر على البال!!!

فيكشف الله عَزَّوَجَلَّ عن ساقه فإذا رآه المؤمنون وقعوا ساجدين له عَزَّوَجَلَّ وأما المنافقون فلا يستطيعون السجود لله عَزَّوَجَلَّ فقد حِيل بينهم، وبين السجود... ثم يُقاد المؤمنون إلى الجنة.

۞ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾[1].

۞ قال الشيخ السعدى رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أى: إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من القلاقل والزلازل والأهوال ما لا يدخل تحت الوهم، وأتى البارى لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم فكشف عن ساقه الكريمة التى لا يشبهها شىء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه، فحينئذ ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله، طوعًا واختيارًا، ويذهب الفجَّار المنافقون ليسجدوا فلا يقدرون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصى البقر، لا يستطيعون الانحناء، وهذا الجزاء من جنس عملهم، فإنهم كانوا يُدعَون فى الدنيا إلى السجود لله وتوحيده وعبادته وهم سالمون، لا علة فيهم، فيستكبرون عن ذلك ويأبون...فلا تسأل يومئذ عن حالهم وسوء مآلهم، فإن الله قد سخط عليهم،

(١) سورة القلم: الآيتان: (٤٢-٤٣).

وحقَّت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة ولا الاعتذار يوم القيامة... ففى هذا ما يزعج القلوب عن المقام على المعاصى، ويوجب التدارك مدة الإمكان[١].

۞ ولقد سُئِلَ الشيخ الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ:

هل يلزم من إثبات الساق لله عَزَّوَجَلَّ تشبيهه بالمخلوقات؟

الجواب: لا يَلزم من إثبات ما أثبته الله لنفسه من الصفات شىء من التشبيه أصلًا، كما لا يلزم من إثبات ذاته تعالى التشبيه، فكما أن ذاته تعالى لا تشبه الذوات وهى حَقٌّ ثابت، فكذلك صفاته تعالى لا تشبه الصفات وهى أيضًا حقائق ثابتة تتناسب مع جلال الله وعظمته وتنزيهه، فلا محذور من نسبة الساق إلى الله تعالى إذا ثبت ذلك فى الشرع... وأنا وإن كنت أرى من حيث الرواية أن لفظ «ساق» أصح من لفظ «ساقه» فإنه لا فرق بينهما عندى من حيث الدراية لأن سياق الحديث يدل على أن المعنى هو ساق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ...وأصرح الروايات فى ذلك رواية هشام عند الحاكم بلفظ: «**هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللهِ مِنْ آيَةٍ تَعْرِفُونَهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمُ السَّاقُ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ...**»[٢].

قلت: فهذا صريح أو كالصريح بأن المعنى إنما هو ساق ذى الجلالة تَبَارَكَ وَتَعَالَى[٣].

۞ وهكذا يكون إكرام أهل الإيمان والتوحيد والصلاة.. وهكذا تكون الإهانة لأهل النفاق الذين كانوا يُراءون الناس بصلاتهم أو كانوا لا يصلون.. أو

---

(١) تفسير السعدى (ص ١٠٤٥).

(٢) أخرجه البخارى (٧٤٣٩) كتاب التوحيد، ومسلم (١٨٣) كتاب الإيمان. بلفظ: «**هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ**»، والحاكم (٨٧٣٦) واللفظ له.

(٣) دروس ومحاضرات مفرغة من تسجيلات الشبكة الإسلامية - والفتوى للشيخ الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ.

كانوا كما وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[١].

۞ فمن سجد لله عَزَّوَجَلَّ هنا فى الدنيا وكان عمله خالصًا لوجه الله عَزَّوَجَلَّ أُذن له بالسجود لله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة عندما يكشف الملك (جلَّ جلاله) عن ساقه.. ومَن أَبَى أن يسجد لله عَزَّوَجَلَّ هنا فى الدنيا حيل بينه وبين السجود لله عَزَّوَجَلَّ... فيا ليتنا نعرف قدر الصلاة وقدر السجود بين يدى الله عَزَّوَجَلَّ.

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُول الله ﷺ: «**مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ غَمْرٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ**»[٢].

وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسُول الله ﷺ قال: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ**»[٣].

وقال النبى ﷺ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ - وسخه - شَيْءٌ؟» قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا**»[٤].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رجلًا أصاب من امرأة قُبلة، فأتى النبى ﷺ فأخبره فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ[٥] وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ

---

(١) سورة النساء: الآيتان: (١٤٢-١٤٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٦٨) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٣٣) كتاب الطهارة.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٨) كتاب مواقيت الصلاة- ومسلم (٦٦٧) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٥) طرف النهار: الصبح والعصر أو الظهر - وزلفا من الليل: ساعات منه والمراد به: العشاء أو المغرب والعشاء.

﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾[(١)] فقال الرجل: أَلِيَ هذا؟ قال: «**لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ**»[(٢)].

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، قَالَ: وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَصَلَّى مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا، فَأَقِمْ فِيَّ كِتَابَ اللهِ، قَالَ: «**هَلْ حَضَرتَ الصَّلَاةَ مَعَنَا؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**قَد غُفِرَ لَكَ**»[(٣)].

وعن حنظلة الكاتب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ: رُكُوعِهِنَّ، وَسُجُودِهِنَّ، وَوُضُوئِهِنَّ، وَمَوَاقِيتِهِنَّ، وَعَلِمَ أَنَّهُنَّ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ**» أَوْ قَالَ: «**وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ**» أو قال: «**حُرِّمَ عَلَى النَّارِ**»[(٤)].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَهُ عَنْ أَفْضَلِ الْأَعمَالِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الصَّلَاةُ**»، قَالَ: ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ الصَّلَاةُ**» قَالَ: ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ الصَّلَاةُ**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالَ: ثمَّ مَهْ؟ قَالَ: «**الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[(٥)].

---

(١) سورة هود: الآية: (١١٤).

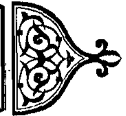
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢٦) كتاب مواقيت الصلاة- ومسلم (٢٧٦٣) كتاب التوبة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٧٦٤) كتاب التوبة.

(٤) حسن لغيره: رواه أحمد وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٣٨١).

(٥) صحيح لغيره: رواه أحمد وابن حبان وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٧٨).





(٢٢) سُبحانك ما عبدناك حق عبادتك

۞ عَنْ أَبِى عُثْمَانَ، عَنْ سَلْمَانَ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ، قَالَ: «يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِى، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ مِثْلَ حَدِّ الْمُوسَى فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: مَنْ تُجِيزُ عَلَى هَذَا؟ فَيَقُولُ: مَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِى، فَيَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»(١).

۞ ففى هذا الحديث يُخبر النبى ﷺ أنه بعدما يُحشر الناس جميعًا يوم القيامة يُوضع الميزان... ثم ذكر النبى ﷺ سعة ذلك الميزان وأنه لو وُزِنَ فيه السماوات والأرض لَوَسِعَت.

وقد دلَّت النصوص الشرعية على أن الميزان ميزان حقيقى له كِفَّتان، تُوزَن به أعمال العباد. وهو ميزان عظيم لا يقدر قدره إلا الله تعالى..وقد اختلف أهل العلم هل هو ميزان واحد تُوزن به أعمال العباد أم أن الموازين متعددة ولكل شخص ميزانه الخاص..فمن قال بالتعدُّد استدلوا بأن الميزان قد ورد فى بعض الآيات بصيغة الجمع، مثل قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾(٢).

ومَن قال بأنه واحد استدلوا بمثل قول النبى ﷺ: «يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِى...». وحملوا الآية التى ورد فيها الميزان بصيغة الجمع على تَعدُّد الموزونات من الأعمال والأقوال والصحف

---

(١) صحيح: رواه الحاكم، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٩٤١).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٤٧).

والأشخاص. فقالوا: إنه جُمِع الأشياء التى تُوزَن فيه.

۞ والقول فى الموزون على أربعة أوجه:

(١) أن الأعمال هى التى تُوزن:

وأن أفعال العباد تُجسَّم فتوضع فى الميزان.. قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1].

ويقول النبى ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِى المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحمَنِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ**»[2].

(٢) أن صحائف الأعمال هى التى تُوزن:

يدل على ذلك حديث البطاقة عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ سيُخلِّصُ رجلًا من أُمّتى على رُؤُوس الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلَ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِى الحافظون؟ فَيَقُول: لا يارب فَيَقُول: أَفَلَكَ عُذر؟ قَالَ: لا يارب فَيَقُولُ: بَلَى. إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ لا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ... فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ: احضُرْ وَزْنَكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيَقُولُ: فَإِنَّكَ لا تُظْلَمُ فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِى كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِى كِفَّةٍ فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَىْءٌ**»[3].

(٣) أن الموزون ثواب العمل:

كما جاء فى حديث أبى أمامة الباهلى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ،**

---

(١) سورة الزلزلة: الآيتان: (٧، ٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٠٦) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٩٤) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) صحيح: رواه أحمد والترمذى والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٧٦).

وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصحَابِهِمَا... اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ»[1].

قال معاوية: بلغنى أن البطلة: السحرة.

قال الترمذى رحمه الله: معنى هذا الحديث عند أهل العلم أنه يجىء ثواب قراءته.

(٤) أن الموزون هو العامل نفسه:

والدليل على ذلك ما جاء عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كنت أجتنى لرسول الله ﷺ من الأراك (ليأتيه بالسواك) قال: فضحك القوم من دقة ساقى فقال النبى ﷺ مِمَّ تَضحَكُون؟ قالوا: من دِقَّةِ سَاقَيهِ. فقال: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَهِىَ أَثْقَلُ فِى الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ»[2] أى من جبل أُحد.

وفى المقابل يقول النبى ﷺ: «إِنَّهُ لَيَأْتِى الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ... اقْرَءُوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾»[3][4].

والذى أستظهر من النصوص والله أعلم أن العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يُوزَن...بالجمع بين النصوص ولا منافاة بينهم والله أعلم[5].

۞ فعندما ترى الملائكة ذلك الميزان يقولون: يا رب لمن يَزِن هذا؟

فيقول الله تعالى: لمن شئتُ من خلقى ... فتشعر الملائكة بالخوف والخشية والحياء من الله عز وجل فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك...

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٠٤) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) صحيح: رواه أحمد وابن سعد، والبزار، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٧٥٠).

(٣) سورة الكهف: الآية: (١٠٥).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٤٧٢٩) كتاب التفسير، ومسلم (٢٧٨٥) كتاب صفة القيامة.

(٥) معارج القبول لحافظ بن أحمد الحكمى (٢/ ١٨٢-١٨٥) بتصرف.

مع أن منهم ملائكة واقفين منذ أن خلقهم الله إلى قيام الساعة ينفذون أوامر الله عَزَّوَجَلَّ.. ومنهم ملائكة راكعين منذ أن خلقهم الله إلى قيام الساعة.. ومنهم ملائكة ساجدين منذ أن خلقهم الله إلى قيام الساعة.. فإذا قامت الساعة قاموا من تلك السجدة، وقالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

۞ ثم أخبر النبى ﷺ فى هذا الحديث أنه يُوضع الصراط مثل حَدِّ الموسى فتتعجب الملائكة من منظر الصراط الذى هو أحدُّ من السيف وأدق من الشعر فيسألون الله ويقولون: مَن تُجيز على هذا؟ فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: مَن شئتُ من خَلقى... فتشعر الملائكة مرة أخرى بالخوف والخشية والحياء ويقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك..

يقولون ذلك وهم الذين ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[1].

وأيضًا: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[2].

۞ والصراط أهواله عظيمة شديدة إلا على أهل الإيمان والتوحيد فإنه بعد وزن الأعمال والفراغ منها، وبيان السعيد من الشقى فى الجملة، يضطر الناس إلى المرور على الصراط، وهو جسرٌ دقيق منصوب على ظهر جهنم وهى عقبة فى طريق الذاهبين إلى دار السلام (الجنة) وممر خطير للغاية يشهد لخطورته أن الرسول ﷺ يقف على جنباته والناس يمرون، وهو: يدعو «**رب سَلِّمْ سَلِّمْ**»[3]. ويكون مرور الناس بحسب أعمالهم فى الدنيا، فمنهم مَن يَمُر بسرعة مدهشة حتى لكأنه البرق الخاطف. ومنهم مَن يمر دون ذلك إلى أن ينجو مَن ينجو ولو حبوًا على يديه وركبتيه، ويهلك مَن يهلك بسقوطه فى جهنم دار الشقاء،

---

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٢٠).

(٢) سورة التحريم: الآية: (٦).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٩٥) كتاب الإيمان.

والهوان، والبوار، والخسران[١].

۞ فتأمل معى كيف كان حياء الملائكة مع ما هم عليه من العبادة فكيف يكون حياء مَن ترك الصلاة؟ وكيف يكون حياء من تركت الحجاب وخرجت كاشفة عن جسدها؟ وكيف يكون حياء كل من عصى الله وخالف أمر رسول الله ﷺ؟

۞ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

الحياء عشرة مظاهر -من بينها-:

حياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يُسبحون الليل والنهار لا يَفتُرون، فإذا كان يوم القيامة استحوا وقالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك. فينظرون إلى نورٍ من نور الرب فيخرون له سُجَّدًا فيناديهم الرب يا عبادى ارفعوا رؤوسكم فإنها ليست بدار عمل إنما هى دار ثواب ... فيرفع الحجاب الثانى فينظرون أمرًا هو أعظم وأجلُّ فيَخِرُّون لله حامدين ساجدين فيُناديهم الرب أن ارفعوا رؤوسكم إنها ليست بدار عمل إنما هى دار ثوابٍ ونعيمٍ مقيم ... فيرفع الحجاب الثالث فعند ذلك ينظرون إلى وجه رب العالمين، فيقولون حين ينظرون إلى وجهه: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك... فيقول: كرامتى أمكنتكم من النظر إلى وجهى وأحلَّتكم دارى فيأذن الله للجنة أن تكلمى فتقول: طوبى لمن سكننى وطوبى لمن يَخلُد فىَّ وطوبى لمن أُعددت له... وذلك قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾[٢].

---

(١) عقيدة المؤمن/ الشيخ أبو بكر الجزائرى (ص: ٣٦٠).

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (٤٢٣).

(٢٣) شهادة الجوارح والأركان على جرائم الإنسان

۞ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِى الظَّهِيرَةِ، لَيْسَتْ فِى سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَيْسَ فِى سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لا تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ، إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قَالَ: فَيَلْقَى الْعَبْدَ، فَيَقُولُ: أَىْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّى أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِى... ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِىَ فَيَقُولُ: أَىْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ، وَتَرْبَعُ، فَيَقُولُ: بَلَى، أَىْ رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّى أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِى... ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ... وَيُثْنِى بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِى نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِى يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِى، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِى يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ»(١).

۞ ففى هذا الحديث أنه صلى الله عليه وسلم سأله أصحابه رضي الله عنهم: هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِى الظَّهِيرَةِ، لَيْسَتْ فِى سَحَابَةٍ؟»، يعنى ليس هناك سحاب يمنع من رؤيتها، بل هى واضحة جلية، وذلك فى منتصف النهار.

قوله: «هَلْ تُضَارُّونَ» يعنى: هل يضر بعضكم بعضًا من أجل أن تتمكنوا من

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٦٨) كتاب الزهد والرقائق.

رؤيتها، أم أن كُلًّا يراها دون أن يكون بحاجة إلى أن يزاحم غيره بحيث يتضرر به بسبب الازدحام؟ والمعروف أنهم يرون الشمس إذا لم يكن دونها سحاب بسهولة ويُسرٍ، وبدون تعب ومشقة، وبدون مضرة تحصل لأحد؛ لأنها فى السماء، وهى آية من آيات الله، وإذا كان هذا فى مخلوق من مخلوقات الله، فأَولَى أن يُرى الله عَزَّوَجَلَّ وهو الخالق لكل شىء ولا يتضرر الناس فى رؤيته.

وكذلك القول بالنسبة للقمر ليلة البدر ليس فى سحاب... فهذا الحديث فيه تشبيه الرؤية بالرؤية، وليس تشبيه المرئى بالمرئى.

ثم إن النبى ﷺ لما قرر لهم هذا الشىء وأخبرهم أنه لا يحصل لهم تضار فى رؤية الشمس ولا رؤية القمر، أقسم وقال: «**وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لا تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَتِه**»، ومعناه: أن رؤية الله فى الآخرة مُحقَّقة لكم كما أن رؤيتكم للشمس والقمر فى الدنيا محققة [١].

❁ وفى رواية:

عنْ جرِيرِ بنِ عبْد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا عِنْدَ رسُولِ الله ﷺ فنَظَرَ إلى القَمَرِ لَيْلَةَ البَدرِ وقال: «**إنَّكُمْ سَتَرَوْنَ ربَّكُمْ عيانًا كما تَرَوْنَ هذا القَمرَ، لا تُضامُونَ فى رُؤيتِهِ**» [٢].

وعن صُهَيْب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «**إذا دَخَلَ أهْلُ الجنَّةِ الجنَّةَ يقُولُ الله تباركَ وتعالى: تُرِيدُونَ شَيئًا أَزِيدُكُم؟ فيقولُون: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجوهَنَا؟ أَلَمْ تُدخِلْنَا الجنَّةَ وتُنَجِّنَا مِن النَّارِ؟ فيَكْشِفُ الحِجابَ، فما أُعطُوا شيئًا أحبَّ إليهِمْ مِن النَّظَرِ إلى رَبِّهِمْ**» [٣].

---

(١) شرح سنن أبى داود للعباد.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٤) كتاب مواقيت الصلاة – ومسلم (٦٣٣) كتاب المساجد.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٨١) كتاب الإيمان.

۞ ما من مسلم يعيش على وجه الأرض إلا وهو يتمنى أن يدخل الجنة ليعيش فى نعيم الجنة التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.. لكن هناك مَن لا يريد الجنة فحسب بل يريد أن يستمتع بالنظر إلى وجه الله (جل وعلا)... إنه أعظم نعيم فى الجنة.

ولذلك يخبرنا النبى ﷺ أنه إذا حُشر الناس يوم القيامة ووقفوا بين يدى الله للحساب فإن الله سيقضى بين الناس وسوف ينقسم الناس إلى قسمين: فمنهم مَن يدخل الجنة ومنهم مَن يدخل النار.

فأما الذين يدخلون الجنة فإنهم يعيشون فى نعيم لا يخطر على قلب بشر ومع ذلك فإن الله (جل وعلا) سينادى عليهم ويقول: يا أهل الجنة هل تريدون شيئًا أزيدكم؟

فيتعجب أهل الجنة لأنهم يعيشون فى نعيم لم يحلموا به.. فيقولون: ألم تُبيض وجوهنا.. ألم تُدخلنا الجنة وتُنجنا من النار.

وكأنهم يريدون أن يقولوا للحق (جل وعلا): لقد أعطيتنا فوق ما نريد فنحن لم يخطر على بالنا هذا النعيم الذى أكرمتنا به.

وإذا بالحق (جل وعلا) يُفيض عليهم من كرمه ورحمته فيكشف الحجاب فينظرون إلى وجه الله (جل وعلا) فعند ذلك يتضاءل أى نعيم رآه أهل الجنة أمام لذة النظر إلى وجه الله (جل وعلا).

ومن المعلوم أن كل أهل الجنة يتلذذون بالنظر إلى ربهم (جل وعلا) لكن من المؤكد أنه سيكون هناك تفاوت بينهم فى تلك اللذة... فكما أنه سيكون بينهم تفاوت فى دخول الجنة فكذلك سيكون هناك تفاوت فى النظر... فمنهم مَن يدخل بغير حساب ولا عذاب... ومنهم مَن يدخل الجنة بعد الحساب والعذاب الشديد ومنهم مَن يدخل الجنة قبل أخيه بخمسمائة عام.. ومنهم مَن يكون فى أعلى

درجات الجنة فى الوقت الذى يكون فيه مَن هو أدنى منه فى درجات الجنة.

۞ ولذلك فإن الناس سيتفاوتون فى لذة النظر كما بين السماء والأرض لأن «لذة النظر إلى وجه الله يوم القيامة تابعة للتلذُّذ بمعرفته ومحبته فى الدنيا، فإن اللذة تتبع الشعور والمحبة... فكلما كان المُحب أعرف بالمحبوب وأشد محبة له كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم»[١].

۞ بل هناك تفاوت فى عدد المرات التى يتلذذ بها العبد برؤية وجه ربه (جل وعلا) كما يقول ابن سعدى فى قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٢].

«أى تنظر إلى ربها حسب مراتبهم: منهم مَن ينظره كل يوم بُكرة وعَشيًّا، ومنهم مَن ينظره كل جمعة مرة واحدة... فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم وجماله الباهر، الذى ليس كمثله شىء».

۞ ومن أجل ذلك فإن الله (جل وعلا) قد جمع لعباده المؤمنين بين التمتُّع بنعيم الجنة وبين التمتع برؤية وجهه (جل وعلا) فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾[٣].

۞ ثم ذكر النبى ﷺ هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة حين يَلقى العبد ربه عَزَّوَجَلَّ فيقول الله له: «**أَيْ فُلْ**» يعنى: يا فلان. «**أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ**» أى: أما أكرمتك وأغدقت عليك من نعمى الظاهرة والباطنة وجعلتك سيدًا على الناس وزوَّجتك زوجة تأنس إليها وتقضى حوائجك كلها «**وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ**» أى: سخرت لك الخيل والإبل لتسافر عليها وتقضى حوائجك عليها.. ولولا أنى سخرتها لك ما استطعت أن تقترب منها ولا أن تنتفع بها «**وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ**

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٣) بتصرف.

(٢) سورة القيامة: الآيتان: (٢٢-٢٣).

(٣) سورة المطففين: الآيتان: (٢٢، ٢٣).

وَتَرْبَعُ؟» أى: وجعلتك رئيس القوم وكبيرهم فكنت رئيسًا مُطاعًا فلا تحتاج إلى مشقة وتعب بل كنت تعيش فى سعة ونعيم وراحة وسرور.

۞ ثم قال له تعالى بعد ذكر بعض نعمه عليه: «أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ؟» فيقول العبد: لا... فقد كان هذا العبد لا يذكر الله ولا اليوم الآخر.. ولذا فقد كان يعيش حياته من أجل المتعة واللهو والانشغال بحُطام الدنيا الزائل ولم يعبد الله عَزَّوَجَلَّ أبدًا.

فيقول الله له: «فَإِنِّى أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِى» أى: أمنعك من الرحمة كما امتنعت عن الطاعة... وليس المقصود هنا أن الله عَزَّوَجَلَّ ينسى - حاشا لله- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

۞ ويَلقى اللهُ عَزَّوَجَلَّ الرجلَ الثانى فيجيب مثل ما قال الأول... وعندما لقى الرجل الثالث أشهد الله عليه جوارحه.

وهذا يذكرنا بالحديث الآخر عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالَ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِى مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّى لا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِى إِلَّا شَاهِدًا مِنِّى، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِى، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»(١).

ففى يوم من الأيام تواعد النبى ﷺ مع أصحابه على أن يجلسوا سويًّا وقبل الموعد المحدد ذهب الصحابة إلى المسجد وجلسوا فى غاية الأدب والسكون احترامًا لشخص النبى ﷺ.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٦٩) كتاب الزهد والرقائق.

وبعد وقتٍ قصير جاء النبى ﷺ وجلس معهم ورحَّب بهم.

وفجأة.. ضحك النبى ﷺ ثم سأل الصحابة: هل تدرون لماذا أضحك؟

فقالوا: الله ورسوله أعلم.

فأخبرهم النبى ﷺ عن سبب ضحكه فقال لهم: أضحك من مخاطبة العبد لربه يوم القيامة !!!

فإنه سيأتى عبدٌ من عباد الله ويقف بين يدى الله (جل وعلا) ليحاسبه الله على أعماله.

وإذا بهذا العبد يقول لربه (جل وعلا): يارب ألم تُحرم الظلم على نفسك وعلى عبادك فقلت: «**يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**» فيقول الله (جل وعلا): بلى.. قد حرمت الظلم.

فيقول هذا العبد: فإنى لا أريد أن يشهد أحدٌ علىَّ.. بل أريد أن أشهد أنا على نفسى.

فيقول له الحق (جل وعلا): كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا.

ثم يُختم على فم هذا العبد فلا يستطيع أن يتكلم كلمة واحدة.

ثم يأمر الله عين هذا العبد أن تتكلم فتقول: يا رب أنا نظرت إلى الحرام.

ويأمر أذنه أن تتكلم فتقول: وأنا استمعت إلى الحرام.

ويأمر يديه أن تتكلما فتقولا: لقد فعلنا الحرام.

ويأمر رجليه أن تتكلما فتقولا: لقد مشينا إلى الحرام.

ثم يأمر الحق (جل وعلا) هذا العبد أن يتكلم فيقوم ويدعو على جوارحه التى شهدت عليه ويقول: بُعدًا لَكُنَّ وسُحقًا فعنكن كنت أدافع وأكذب حتى تدخلوا الجنة وتنجوا من النار.

۞ وقد ذكر الله (جل وعلا) ذلك في كتابه فقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾[3].

---

(١) سورة النور: الآية: (٤٢).

(٢) سورة يس: (٦٥).

(٣) سورة فصلت: الآيات: (١٩ - ٢٤).

(٢٤) يا ليتنى كنت ترابا

۞ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، فِى قَوْلِهِ عز وجل ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[1] قَالَ: «يُحْشَرُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... الْبَهَائِمُ، وَالدَّوَابُّ، وَالطَّيْرُ، وَكُلُّ شَىْءٍ فَيَبْلُغُ مِنْ عَدْلِ اللهِ أَنْ يَأْخُذَ لِلْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ، ثُمَّ يَقُولُ: كُونِى تُرَابًا فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾[2][3].

۞ وفى رواية: «يَقْضِى اللهُ بَيْنَ خَلْقِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ، وَإِنَّهُ لَيَقِيدُ يَوْمَئِذٍ الْجَمَّاءَ مِنَ الْقَرْنَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ تَبِعَةً عِنْدَ وَاحِدَةٍ لأُخْرَى، قَالَ اللهُ: كُونُوا تُرَابًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ: ﴿يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾»[4].

۞ وفى رواية:

عَنْ أبى هريرة رضي الله عنه أَن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيامَةِ حَتَّى يُقَادَ للشَّاةِ الْجَلْحَاء مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاء»[5].

۞ ففى هذا الحديث يُقسم الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم أن الحقوق لَا بُدَّ أن تُؤدَّى إلى أهلها يوم القيامة ولن يضيع حق أحدٍ من البشر.. بل حتى البهائم لن يضيع حقُّها.. فتأتى الشاة الجلحاء التى ليس لها قرن فيقتص الله لها من الشاة القرناء التى لها قرن فنطحتها به فى الدنيا.. ومع أن البهائم لا تعقل ولا تفهم إلا أن الله بحكمته وعدله يحكم بينهم ليُرى عباده كمال عدله وليعلموا أن الحقوق لا تضيع بين البهائم فكيف ببنى آدم عليه السلام.

---

(١) سورة الأنعام: الآية: (٣٨).

(٢) سورة النبأ: الآية: (٤٠).

(٣) رواه الحاكم، وقال الذهبى: على شرط مسلم.

(٤) صحيح: أخرجه ابن جرير فى تفسيره، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٩٦٦).

(٥) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٢) كتاب البر والصلة والآداب.

عن عبد الله بن عمرو قال: «إذا كان يوم القيامة مُدَّ الأديم، وحُشر الدواب والبهائم والوحش، ثم يَحصُل القصاص بين الدواب... يُقتص للشاة الجَمَّاء من الشاة القرناء نطحتها، فإذا فُرغ من القصاص بين الدواب، قال لها كوني ترابًا... قال: فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾(١)».

۞ وروى أحمد بإسنادٍ صحيح عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ رَأَى شَاتَيْنِ تَنْتَطِحَانِ، فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ تَدرِى فِيمَ تَنْتَطِحَانِ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «لَكِنَّ الله يَدرِى، وَسَيَقْضِى بَيْنَهُمَا»(٢).

۞ قال الإمام النووى: هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة وإعادتها يوم القيامة كما يُعاد أهل التكليف من الآدميين وكما يُعاد الأطفال والمجانين ومَن لم تبلغه دعوة... وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسُّنة... قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾(٣) وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقلٌ ولا شرع، وجب حَمْلُه على ظاهره...

قال العلماء: وليس من شرط الحشر والإعادة فى القيامة المُجازاة والعقاب والثواب، وأما القصاص من القرناء للجلحاء فليس هو من قصاص التكليف إذ لا تكليف عليها بل هو قصاص مقابلة،... والجلحاء: هى الجَمَّاء التى لا قرن لها(٤).

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: أمَّا القصاص فيشمل البهائم؛ لأنَّه ثبت عن النبى ﷺ: «أَنَّهُ يُقْتَصُّ للشَّاةِ الجَلْحاءِ مِن الشَّاةِ القَرْنَاءِ»(٥)، وهذا قصاصٌ، لكنَّها لا

(١) سورة النبأ: الآية: (٤٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٢١٤٧٦)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٥٨٨).

(٣) سورة التكوير: الآية: (٥).

(٤) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٢٠٥، ٢٠٦).

(٥) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٢) كتاب البر والصلة والآداب.

تُحاسَب حساب تكليفٍ وإلزامٍ؛ لأنَّ البهائم ليس لها ثوابٌ ولا عقابٌ[1].

۞ وقال الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

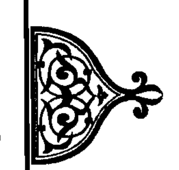
«فإن قيل: الشاة غير مُكلَّفة، فكيف يُقتص منها؟ قلنا: إن الله تعالى فعَّالٌ لما يريد، ولا يُسأل عما يفعله... والغرض منه إعلام العباد أن الحقوق لا تضيع، بل يُقتص حق المظلوم من الظالم»[2].

---

(١) شرح الواسطية (ص ٣٦٥).

(٢) السلسلة الصحيحة (٤/ ٦١٢).





(٢٥) اتباع كل أمة ما كانت تعبد.. وسقوط الكفار فى النار.. والمرور على الصراط.. وشفاعة النبيين والملائكة والمؤمنين وشفاعة أرحم الراحمين.. ورؤية المؤمنين ربهم عَزَّوَجَلَّ فى الآخرة

۞ عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ نَاسًا فِى زَمَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «مَا تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِى رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ: لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِى النَّارِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ... فَيُدْعَى الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحطِمُ بَعضُهَا بَعضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِى النَّارِ...ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحطِمُ بَعضُهَا بَعضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِى النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِى أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِى رَأَوْهُ فِيهَا قَالَ: فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا، فَارَقْنَا النَّاسَ فِى الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ

مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا (مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا)، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللهُ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَقُولُونَ: اللهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: «دَحْضٌ مَزَلَّةٌ، فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ، فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدِ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ، وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ، فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا، ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا، ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا»، وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقُولُ: إِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ

حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾[١] «فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ... قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهَرُ الْحَيَاةِ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ، أَوْ إِلَى الشَّجَرِ، مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ؟» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بِالْبَادِيَةِ، قَالَ: «فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ .. هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ اللهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، ثُمَّ يَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا، أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا، أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ: رِضَايَ، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[٢].

۞ ففى هذا الحديث يخبر أبو سعيد الخدرى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن ناسًا من الصحابة سألوا النبى ﷺ من شدة حبهم لله عَزَّوَجَلَّ وقالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فبشرهم النبى ﷺ بأن ذلك سيحدث فقال لهم: «نَعَم».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: قوله: «هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟».

فى التقييد بيوم القيامة إشارة إلى أن السؤال لم يقع عن الرؤية فى الدنيا. وقد أخرج مسلم من حديث أبى أُمامة: «وَاعْلَمُوا أَنَّكُم لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا».

۞ ثم قال لهم: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟» فلما قالوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ... بشَّرهم بالبُشرى الثانية فقال: «مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللهِ

---

(١) سورة النساء: الآية: (٤٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٤٣٩) كتاب التوحيد، ومسلم (١٨٣) كتاب الإيمان.

تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا»... أى كما أنه لا يضر أحدكم أحدًا فى رؤية الشمس والقمر ولا يزاحم أحدٌ أحدًا فكذلك ترون ربكم لا يحجب أحدكم الرؤية عن أخيه ولا يُنازعه فيضيره بذلك...

ووقع فى رواية البخارى: «**لا تُضامون أو تُضاهون**» بالشك كما مضى فى فضل صلاة الفجر، ومعنى الذى بالهاء: لا يشتبه عليكم ولا ترتابون فيه فيعارض بعضكم بعضًا، ومعنى الضيم الغلبة على الحق والاستبداد به أى لا يظلم بعضكم بعضًا.

۞ ثم أخبرهم النبى ﷺ بمشهدٍ من مشاهد يوم القيامة.. فأخبر أنه فى يوم القيامة يؤذن مؤذن: «**لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ**» فكل مَن كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب يتساقطون فى النار ولا يبقى إلا أهل الإيمان والتوحيد، وكذلك يبقى المنافقون الذين ظنوا أنهم لن تظهر حقيقتهم يوم القيامة.. وكذلك يبقى اليهود والنصارى «**فَيُدْعَى الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ**».

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1].

ثم يُسألون: فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ فيقولون: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ، فيتساقطون فى النار».

۞ ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، ويُفعل بهم كما فُعِلَ باليهود ويتساقطون فى النار..أى أن النصارى أقروا أنهم كانوا يعبدون المسيح ابن الله - تعالى الله عما يقولون عُلوًّا كبيرًا-.

۞ وهنا لا يبقى فى أرض المحشر إلا مَن كان يعبد الله تعالى من بَرٍّ وفاجرٍ

---

(١) سورة الإخلاص.

فيأتيهم الحق (جلَّ وعلا) فى أدنى صورة من التى رأوه فيها فيقول لهم: «**فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ**» فإذا بهم - وهم الذين عاشوا على طاعة الله وتوحيده وماتوا على ذلك- يقولون: فَارَقْنَا النَّاسَ فِى الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ.

فَيَقُولُ الله عَزَّوَجَلَّ: «**أَنَا رَبُّكُمْ**»، وقد أتاهم عَزَّوَجَلَّ فى صورة أدنى صورة من التى رأوه فيها.. «**فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ لا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا**».. ويكرروا تلك الكلمات مرتين أو ثلاثة للدلالة على أنهم لن يعبدوا غير الله، ولن يتبعوا أحدًا حتى ولو كان فى ذلك ما يكون.. فهم الذين تركوا كل شىء فى الدنيا من أجل أن يعيشوا على التوحيد ويموتوا على ذلك فلن يفرطوا فى دينهم أبدًا.

وهنا يسألهم الحق (جلَّ وعلا) ويقول: «**هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ**».. وهنا تَحدُث المفاجأة التى لم تَخطُر على بالهم أبدًا.. ففى تلك اللحظة يكشف الحق (جلَّ وعلا) عن ساقه فإذا رآها الموحدون خَرُّوا ساجدين بين يديه (جلَّ وعلا) ... أما أهل الرِّياء والنِّفاق فلا يستطيع أحدهم أن يسجد مع المؤمنين؛ لأن ظهره تَيبَّس وأصبح طبقة واحدة.. فإذا أراد أن يسجد خَرَّ على قفاه... فإذا رفع المؤمنون رؤوسهم بعد السجود رأوا الحق (جلَّ وعلا) على صورته الحقيقية بعد أن تحول فى صورته التى رأوه فيها أول مرة.. وإذا به عَزَّوَجَلَّ يقول لهم: «**أَنَا رَبُّكم**» وهنا تنشرح صدورهم وقلوبهم وتُضىء وجوههم ويقولون: «**أَنتَ رَبُّنَا**».

قَالَ ابن بَطَّالٍ: فِى هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَتَأَخَّرُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ رَجَاءَ أَنْ يَنْفَعَهُمْ ذَلِكَ بِنَاءً عَلَى مَا كَانُوا يُظْهِرُونَهُ فِى الدُّنْيَا فَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ يَسْتَمِرُّ لَهُمْ، فَمَيَّزَ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْغُرَّةِ وَالتَّحْجِيلِ إِذْ لَا غُرَّةَ لِلْمُنَافِقِ وَلَا تَحْجِيلَ.

قُلْتُ: قَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْغُرَّةَ وَالتَّحْجِيلَ خاصٌّ بِالْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، فَالتَّحْقِيقُ أَنَّهُمْ

فِى هَذَا الْمَقَامِ يَتَمَيَّزُونَ بِعَدَمِ السُّجُودِ وَبِإِطْفَاءِ نُورِهِمْ بَعْدَ أَنْ حَصَلَ لَهُمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَحْصُلَ لَهُمُ الْغُرَّةُ وَالتَّحْجِيلُ ثُمَّ يُسْلَبَانِ عِنْدَ إِطْفَاءِ النُّورِ.

وَقَالَ الْقُرْطُبِىُّ: ظَنَّ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ تَسَتُّرَهُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ يَنْفَعُهُمْ فِى الْآخِرَةِ كَمَا كَانَ يَنْفَعُهُمْ فِى الدُّنْيَا جَهْلًا مِنْهُمْ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا حُشِرُوا مَعَهُمْ لِمَا كَانُوا يُظْهِرُونَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ فَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ حَتَّى مَيَّزَهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنْهُمْ.

۞ وهنا يُضرب الصراط على متن جهنم ... فإنه بعد وزن الأعمال والفراغ منها، وبيان السعيد من الشقى فى الجملة، يضطر الناس إلى المرور على الصراط، وهو جسرٌ دقيق منصوب على ظهر جهنم وهى عقبة فى طريق الذاهبين إلى دار السلام (الجنة) وممرٌ خطير للغاية يَشهد لخطورته أن الرسول ﷺ يقف على جنباته والناس يمرون، وهو: يدعو «رب سَلِّمْ سَلِّمْ»[1]. ويكون مرور الناس بحسب أعمالهم فى الدنيا، فمنهم مَن يمر بسرعة مدهشة حتى لكأنه البرق الخاطف. ومنهم مَن يمر دون ذلك إلى أن ينجو مَن ينجو ولو حَبوًا على يديه وركبتيه، ويهلك مَن يهلك بسقوطه فى جهنم دار الشقاء، والهوان، والبوار، والخسران[2].

۞ ثم أخبر النبى ﷺ عن مُناشدة المؤمنين لله عَزَّوَجَلَّ - بعد نجاتهم- على الصراط وعبورهم عليه- فى أن يُخرج إخوانهم من عُصاة المؤمنين من النار.. ويقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويُصلون ويحجون.. فيأذن لهم فى المرة الأولى أن يُخرجوا كل مَن يعرفوه من النار ... فيُحرم الله على النار أن تأكل أجسادهم فيدخلون النار ويُخرجون خلقًا كثيرًا ممن يعرفون.. ثم يرجعون ويناشدون ربهم مرة أخرى فيأذن لهم فى المرة الثانية أن يُخرجوا مَن كان فى قلبه مثقال دينارٍ من خيرٍ.. فيُخرجون خلقًا كثيرًا بعد أن يُحرم الله على النار أن تأكل

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٥) كتاب الإيمان.

(٢) عقيدة المؤمن/ الشيخ أبو بكر الجزائرى (ص: ٣٦٠).

أجسادهم.. ولكن كيف يعرفون من كان فى قلبه مثقال دينارٍ من إيمان؟.. إما أن يُطلعهم الله عَزَّوَجَلَّ على ذلك أو يجعل معهم مَلَكًا من الملائكة ليدلهم على هؤلاء الناس.. والله أعلم...

ثم يأذن الله عَزَّوَجَلَّ لهم فى المرة الثالثة فى أن يُخرجوا من النار مَن كان فى قلبه مثقال نصف دينار من خيرٍ.. فيُخرجون خلقًا كثيرًا.. وهذا دليلٌ على أن الناس يتفاوتون فى درجات الإيمان، وكذلك يتفاوتون فى دركات العصيان.

ثم إن هؤلاء المؤمنين ما زالوا يُناشدون ربهم فى خروج عُصاة الموحدين من النار.. وذلك لأنهم أصحاب قلوبٍ طاهرةٍ تحب الخير للناس جميعًا ولو كانوا عُصاة... فيأذن الله عَزَّوَجَلَّ لهم فى المرة الرابعة أن يُخرجوا من النار مَن كان فى قلبه مثقال ذرة من خير.. فيُخرجون خلقًا كثيرًا... ثم يقولون: ربنا لم نَذر فيها خيرًا.

أى أن كل مَن بقى فى النار من عُصاة الموحدين لم يعمل خيرًا قط.

وفى رواية: أنهم يعرفون عُصاة الموحدين فى النار بعلامة آثار السجود فى وجوههم...

قَوْلُهُ: «**فَيَعْرِفُونَهُمْ بِعَلَامَةِ آثَارِ السُّجُودِ**».

وفِى رِوَايَةِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ: «**فَيَعْرِفُونَهُمْ فِى النَّارِ بِأَثَرِ السُّجُودِ**».

قَالَ الزَّيْنُ بْنُ الْمُنِيرِ: تُعْرَفُ صِفَةُ هَذَا الْأَثَرِ مِمَّا وَرَدَ فِى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ لِأَنَّ وُجُوهَهُمْ لَا تُؤَثِّرُ فِيهَا النَّارُ فَتَبْقَى صِفَتُهَا بَاقِيَةٌ.

وقَوْلُهُ: «**وَحَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ من ابن آدمَ أَثَرَ السُّجُودِ**».

هُوَ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ تَقْدِيرُهُ كَيْفَ يَعْرِفُونَ أَثَرَ السُّجُودِ مَعَ قَوْلُهُ فِى حَدِيثِ أَبِى سَعِيدٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ: «**فَأَمَاتَهُمُ اللهُ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أَذِنَ اللهُ**

بِالشَّفَاعَةِ» فَإِذَا صَارُوا فَحْمًا كَيْفَ يَتَمَيَّزُ مَحَلُّ السُّجُودِ مِنْ غَيْرِهِ حَتَّى يُعْرَفَ أَثَرُهُ؟

وَحَاصِلُ الْجَوَابِ: تَخْصِيصُ أَعْضَاءِ السُّجُودِ مِنْ عُمُومِ الْأَعْضَاءِ الَّتِى دَلَّ عَلَيْهَا مِنْ هَذَا الْخَبَرِ، وَأَنَّ اللهَ مَنَعَ النَّارَ أَنْ تُحرِقَ أَثَرَ السُّجُودِ مِنَ الْمُؤْمِنِ، وَهَلِ الْمُرَادُ بِأَثَرِ السُّجُودِ نَفْسُ الْعُضْوِ الَّذِى يَسْجُدُ أَوِ الْمُرَادُ مَنْ سَجَدَ؟ فِيهِ نَظَرٌ، وَالثَّانِى أَظْهَرُ.

قَالَ الْقَاضِى عِيَاضٌ: فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَذَابَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُذْنِبِينَ مُخَالِفٌ لِعَذَابِ الْكُفَّارِ، وَأَنَّهَا لَا تَأْتِى عَلَى جَمِيعِ أَعْضَائِهِمْ إِمَّا إِكْرَامًا لِمَوْضِعِ السُّجُودِ وَعِظَمِ مَكَانِهِمْ مِنَ الْخُضُوعِ لِلَّهِ تَعَالَى أَوْ لِكَرَامَةِ تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِى خُلِقَ آدَمُ وَالْبَشَرُ عَلَيْهَا وَفُضِّلُوا بِهَا عَلَى سَائِرِ الْخَلْقِ.

قَالَ النَّوَوِىُّ: وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ أَنَّ النَّارَ لَا تَأْكُلُ جَمِيعَ أَعْضَاءِ السُّجُودِ السَّبْعَةِ وَهِىَ الْجَبْهَةُ وَالْيَدَانِ وَالرُّكْبَتَانِ وَالْقَدَمَانِ... وَبِهَذَا جَزَمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ.

۞وكان أبو سعيد الخدرى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول للصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم: إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾[1].

۞ وهنا يقول الحق (جلَّ وعلا): شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون... ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين... أى أن الله عَزَّ وَجَلَّ أذن لكلِّ هؤلاء فى الشفاعة.. لأن الشفاعة لا تكون إلا بأن يأذن الله عَزَّ وَجَلَّ بالشفاعة: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾[2]، وأن يرضى الله عن الشافع: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾[3]، وأن يرضى الله عن المشفوع له.. وذلك بألا

---

(١) سورة النساء: الآية: (٤٠).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٢٥٥).

(٣) سورة طه: الآية: (١٠٩).

يكون المشفوع له مشركًا أو كافرًا فإن الله لا يقبل شفاعة أحدٍ فى مشركٍ أو كافر ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[2]...فإذا أذن الله للملائكة والأنبياء والمؤمنين بالشفاعة وشفعوا فإنه يقول بعدها: «**شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**».. فَيَقْبِضُ الله عَزَّوَجَلَّ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ... وإن أردت أن تعرف قدر تلك القبضة فتأمل معى قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[3]، وهؤلاء الذين يُخرجهم الله عَزَّوَجَلَّ من النار من أهل التوحيد والإيمان ولكنهم كانوا عُصاة ولم يفعلوا خيرًا قط... فيُخرجهم بعد أن احترقت أجسادهم من النار... فيُلقيهم فى نهرٍ فى أفواه الجنة يُقال له: نهر الحياة فيخرجون منه كأنهم اللؤلؤ المنضود، وفى رقابهم الخواتم.. فإذا دخلوا الجنة بعد خروجهم من نهر الحياة ورآهم أهل الجنة قال: هؤلاء عُتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عملٍ عملوه ولا خيرٍ قدَّموه.

۞ ثم يقول الله عَزَّوَجَلَّ لهؤلاء الناس بعد خروجهم من نهر الحياة: «**ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ**».. أى أن كل ما تقع عليه أبصاركم فهو مِلكٌ لكم.. فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تُعطِ أحدًا من العالمين... يقولون هذا وهم الذين احترقوا فى النار ثم أدخلهم الله نهر الحياة، ثم أَذِنَ لهم بدخول الجنة.. لكنهم لما رأوا الجنة نسوا كل ما رأوه من العذاب فى النار... ونحن نعلم أن النبى ﷺ قد أخبر أن أشد الناس عذابًا فى الدنيا من أهل الجنة سينسى كل شقاءٍ وبلاءٍ مع أول غمسة فى الجنة.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٢٨).

(٢) سورة المدثر: الآية: (٤٨).

(٣) سورة الزمر: الآية: (٦٧).

۞ ثم يقول لهم الله عَزَّوَجَلَّ بعد كل ما رأوه فى الجنة: «لَكُمْ عِنْدِى أَفْضَلُ مِنْ هَذَا فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا، أَىُّ شَىْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ: رِضَاىَ، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

فاللهُمَّ اغفر لنا وارحمنا وأدخلنا جنتك وارضَ عنَّا وارزقنا لذة النظر إلى وجهك الكريم فى غير ضَرَّاء مضرة ولا فتنة مُضلة.

(٢٦) أربعة يحتجون يوم القيامة

۞ قال رسول الله ﷺ: «أَرْبَعَةٌ يَحتَجُّونَ يَوْمَ القِيامَةِ: رَجُلٌ أَصَمٌّ لا يَسْمَعُ شَيْئًا وَرَجُلٌ أحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ، وَرَجُلٌ ماتَ فِي فَتْرَةٍ: فأَمَّا الأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جاءَ الإِسْلامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا.. وأمَّا الأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ جاءَ الإِسْلامُ وَمَا أعقِلُ شَيْئًا والصِّبْيانُ يَحْذفُونَنِي بالبَعرِ...وأمَّا الهَرِمُ فَيَقُولُ: رب لقد جاءَ الإِسْلاَمُ وَمَا أعقِلُ شَيْئًا...وأمَّا الَّذِي ماتَ فِي الفَتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ مَا أتانِي لَكَ رَسُولٌ...فَيأْخُذُ مَواثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ فَيُرْسَلُ إِلَيْهِمْ أنِ ادْخُلُوا النَّارَ...فَمَنْ دَخَلَها كانَتْ عليهِ بَرْدًا وَسَلامًا ومَنْ لَمْ يَدْخُلْها سُحِبَ إِلَيْها»[(١)].

۞ جلس النبى ﷺ يومًا مع أصحابه ليُعلمهم أمور دينهم ويُذكرهم بالله عَزَّوَجَلَّ وبالدار الآخرة.

وفى هذا اليوم أخبرهم النبى ﷺ عن قصة الأربعة الذين يحتجون يوم القيامة.. فيا تُرى ما هى قصتهم؟

تعالوا بنا لنتعرف على قصتهم.

إنهم أربعة من الرجال: رجل أصم لا يسمع أى شىء.. ورجل أحمق لا يفقه ولا يعقل أى شىء.. ورجل كبير جدًّا فى السن لا يعقل أى شىء.. ورجل عاش فى الفترة التى بين الرسل فهو لم يدرك أى رسول ولم يدرك أى رسالة.

فيأتى هؤلاء الأربعة يوم القيامة ويحتجون؛ لأن بعضهم لم تبلغه أى رسالة... والبعض الآخر لم يكن يعقل أى شىء.

فجاء الرجل الأول - وهو الأصم الذى لا يسمع - فوقف بين يدى الله (جل وعلا) فقال: يا رب.. لقد جاء الإسلام وأنا رجلٌ أصم لا أسمع أى شىء

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٨١).

فلم تبلغنى رسالة الإسلام.

وجاء الرجل الثانى - وهو الأحمق الذى لا يعقل أى شىء - فوقف بين يدى الله (جل وعلا) وقال: يا رب.. لقد جاء الإسلام وأنا رجل أحمق لا أعقل أى شىء حتى كان الصبيان يضربوننى بالحجارة.

وجاء الرجل الثالث - وهو الكبير جدًّا فى السن الذى لا يعقل أى شىء - فوقف بين يدى الله (جل وعلا) فقال: يا رب.. لقد جاء الإسلام وأنا رجل كبير جدًّا فى السن لا أعقل أى شىء.

وجاء الرجل الرابع - وهو الذى مات فى الفترة بين الرسل فلم يدرك أى رسول ولا أى رسالة - فوقف بين يدى الله (جل وعلا) فقال: يا رب.. لقد عشت فى الفترة فلم أدرك أى رسالة ولا أى رسول.

۞ فلما استمع إليهم الحق (جل وعلا) أخذ منهم العهود والمواثيق على أن يُطيعوه.. ثم أمرهم أن يُلقوا بأنفسهم فى النار.. فمن أطاعه وألقى بنفسه فى النار وجدها بردًا وسلامًا ثم دخل الجنة.. ومَن عصاه ولم يدخلها سحبته الملائكة وألقته فى النار فوجدها نارًا حقيقية.

۞ ولا بد أن نعلم أن تكليف الشخص متعلق بالعقل فقط، وليس بالسمع واللسان، فما دام الشخص عاقلًا بالغًا يستطيع أن يعلم ما يجب عليه وما يَحرُم عليه فإنه مُكلَّف ولو كان لا يسمع ولا يتكلم، فإنه يستطيع أن يقرأ ويتعلم.... وهو مُحاسَب على المعصية إن لم يغفر الله له، كما أنه مُثاب على الطاعة إن شاء الله تعالى.

أما عن كيفية حسابه على ارتكاب المخالفات التى يعلم أنها مخالفة للشرع فلا نعلم فرقًا بينه وبين غيره فى ذلك....أما فيما لم يبلغه فيه شىء أى لم يَصِل إليه ولم يدرِ أن هذا الأمر محرم مثلًا، فإنه معذور فيما لم يبلغه ... بل قد دَلَّ

الحديث على أنه إن جاءه الإسلام ولم يفهم منه شيئًا فإنه سيُمتحَن يوم القيامة. كما جاء فى هذا الحديث. والله أعلم.

الدروس المستفادة:

(١) أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

(٢) أن هناك مَن يعذره الله يوم القيامة؛ لأنه كان لا يعقل أو لأنه لم تَبلغه الدعوة.. فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[١].. وقال النبى ﷺ: **«رُفِعَ القَلَمُ عَنْ ثَلاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَشِبَّ، وَعَنِ المَعْتُوهِ حَتَّى يَعْقِلَ»**[٢].

(٣) أن الخير كل الخير فى طاعة الله (جل وعلا).. وأن الشر كل الشر فى معصيته ومخالفة أمره.

---

(١) سورة الإسراء: الآية: (١٥).

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥١٤).

(٢٧) البطاقة والسجلات

﴿ قال ﷺ: «إنّ اللهَ سَيُخَلّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِى على رءوس الخَلائِق يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنشُرُ عليْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سجلًّا كلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ ثمَّ يَقولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أظَلَمَكَ كَتَبَتِى الحافِظُونَ؟ فَيَقولُ: لا يَا ربِّ فيقولُ: أفَلَكَ عُذْرٌ؟ فيقولُ: لا يَا ربِّ فَيَقولُ: بَلَى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عَلَيْكَ اليَوْمَ.. فَتُخْرجُ بِطاقةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أنْ لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فيقولْ: احْضُرْ وَزْنَكَ فيَقولُ: يَا رَبِّ مَا هذِهِ البِطاقَةُ مَعَ هذِهِ السّجِلاّتِ؟ فيُقالُ: فإنّكَ لا تُظْلَمُ .. فَتُوْضَعُ السِجِلاتُ فِى كِفَّةٍ والبطاقة فى كِفَّةٍ فطاشت السجلات وثَقُلت البِطاقَةُ وَلا يَثْقُلُ مَعَ اسْم اللهِ تَعَالَى شَىْءٌ»[١].

﴿ جلس النبى ﷺ يومًا مع أصحابه رضي الله عنهم وحكى لهم قصة رجل من أمته سيُخلصه الله وينجيه من أهوال يوم القيامة.

فأخبر النبى ﷺ أن هذا الرجل سيأتى يوم القيامة ويقف بين يدى الله عزوجل فيأمر الله ملائكته أن يعرضوا عليه تسعة وتسعين سجلًا كلها ذنوب وسيئات... السجل الواحد يصل حجمه إلى آخر ما ينتهى إليه بصر الإنسان إذا نظر أمامه فى الصحراء الخالية.

ثم يسأله الله عزوجل: عبدى... أهذه أعمالك؟

فلا يستطيع هذا العبد أن ينكر أبدًا بل يقول: أجل هذه أعمالى... ثم يسأله الله عزوجل: هل ظلمك ملك من الملائكة فكتب عليك ذنبًا لم تفعله؟

فيقول العبد: لا يا رب... فهذه كلها أعمالى التى عملتها.

﴿ فيخبره الله عزوجل بأن له حسنة كبيرة... فيأمر الله ملائكته فيُخرجوا لهذا

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٧٦).

العبد بطاقة مكتوب فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

ثم يأمر الله هذا العبد بأن يُحضر هذه السجلات التى يبلغ عددها تسعة وتسعين سجلًا لتُوضَع فى الميزان.

فيتعجب هذا العبد ويقول: يا ربّ! وماذا تصنع هذه البطاقة الصغيرة مع تلك السجلات الكبيرة التى يبلغ عددها تسعة وتسعين سجلًّا؟!

فيقول تعالى: احضر وزنك وسجلاتك فإنك لن تُظلم أبدًا...

۞ فوُضعت السجلات فى كفة الميزان ووضعت البطاقة فى الكفة الأخرى، فطاشت السجلات ورجحت الكفة التى فيها البطاقة والتى فيها كلمة التوحيد: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

وفاز الرجل وكان من أهل الجنة؛ لأنه كان من أهل التوحيد الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

ولا ريب أنَّ هذا الرجل قد قام بقلبه من الإيمان ما جعل بطاقته التى فيها لا إله إلا الله تطيش بتلك السِجلاّت... إذ الناس مُتفاضلون فى الأعمال بحسب ما يقوم بقلوبهم من الإيمان، وإلا فكم من قائلٍ لا إله إلا الله لا يحصل له مثل هذا لضعف إيمانه بها فى قلبه.... فقد ورد فى الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنَّه قال: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفِى قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفِى قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفِى قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ**»[1]، فدلَّ ذلك على أنَّ أهل لا إله إلا الله متفاوتون فيها بحسب ما قام فى قلوبهم من إيمان.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤) كتاب الإيمان - ومسلم (١٩٣) (٣٢٥) كتاب الإيمان.

وليس كل مَن تكلم بالشهادتين كان بهذه المنزلة لأن هذا العبد صاحب البطاقة كان فى قلبه من التوحيد واليقين والإخلاص ما أوجب أن عَظُم قَدرُه حتَّى صار راجحًا على هذه السيئات.

ومن أجل ذلك صَارَ المُدّ من الصَّحابة رضي الله عنهم أفضل من مثل جبل أُحدٍ ذهبًا من غيرهم.

ومَن ذَلِكَ حديث البَغى التى سَقت كَلْبًا فَغُفِرَ لها... فلا يُقال فى كل بَغِيٍّ سَقَتْ كلبًا أنه قد غُفِرَ لها لأن هذه البغى قد حصل لها من الصدق والإخلاص والرحمة بخلق الله ما عادل إثم البغى وزاد عليه ما أوجب المغفرة والمغفرة تَحصُل بما يَحصُل فى القلب من الإيمان الذى يعلم الله وحده مِقدَاره وصِفته... وهذا يفتح باب العمل فيجتهد به العبدُ أن يأتى بهذه الأعمال وأمثالها من مُوجبَات الرَّحمَة وعزائم المغفرة ويكون مع ذلك بين الخوف والرجاء كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾.

۞ قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

إن هذا الرجل حقق التوحيد، ووقع فى ذنوب دون الشرك..فليست هذه بطاقة كل مسلم شَهِدَ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله...والله تعالى يقول: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1]، ولكن هذا الرجل قام بالتوحيد حق القيام، ووقع فى ذنوب دون الشرك، فنجا ببركة التوحيد وفضله، فينبغى للعبد أن يُخلص توحيده لله عز وجل...فالتوحيد هو الإكسير الأعظم الذى لو وُضعت منه ذرة على جبال من الذنوب لنسفتها نسفًا.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[2].

---

(١) سورة يوسف: الآية: (١٠٦).

(٢) سورة النساء: الآية: (٤٨).

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[1].

فينبغي للعبد أن يحقق التوحيد بقلبه وجوارحه، حتى يكون على رجاء المغفرة من الله عَزَّوَجَلَّ... اهـ.

الدروس المستفادة:

(١) أن المسلم يعلم يقينًا أنه سيقف بين يدى الله يوم القيامة وأنه سوف يحاسبه على كل صغيرة وكبيرة... ومن أجل ذلك كان واجبًا عليه أن يستعد من الآن للقاء الله بكثرة الأعمال الصالحة والبعد عن المعاصى... وإن وقع فى معصية فلا بد أن يسارع إلى التوبة.

(٢) أن أعظم نعمة فى الكون كله أن يعيش المسلم موحدًا لله - جل وعلا- وأن يكون آخر كلامه من الدنيا: لا إله إلا الله. فقد قال النبى ﷺ: **«مَن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة..»**[2].

(٣) سعة رحمة الله - جل وعلا- فقد أمر ملائكته بأن يُخرجوا لهذا العبد بطاقة التوحيد بعد أن كان يظن أنه لن ينجو من النار.

(٤) أنه لا يوجد أثقل ولا أعظم من كلمة التوحيد، فإنها أثقل شيء فى ميزان العبد.

---

(١) سورة المائدة: الآية: (٧٢).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٧٩).

(٢٨) هذا فكاكك من النار

۞ عَنْ أَبِى مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تُحْشَرُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَصِنْفٌ يُحَاسَبُونَ حِسَابًا يَسِيرًا ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَصِنْفٌ يَجِيئُونَ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَمْثَالُ الْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ ذُنُوبًا، فَيَسْأَلُ اللهُ عَنْهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ - فَيَقُولُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ فَيَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ عَبِيدٌ مِنْ عِبَادِكَ فَيَقُولُ: حُطُّوهَا عَنْهُمْ وَاجْعَلُوهَا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَأَدْخِلُوهُمْ بِرَحْمَتِى الْجَنَّةَ**»[1].

۞ وعَنْ أبى موسى الأَشعرى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ الله إِلى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أو نَصرَانِيًّا فَيَقُولُ: هَذَا فِكَاكُكَ مِنَ النَّارِ**».

وفى رواية عنهُ عن النبىِّ ﷺ قال: «**يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاسٌ مِنَ المُسْلِمِين بِذُنُوبٍ أَمْثَالِ الجبَالِ فَيَغفِرهَا الله لهمُ وَيضعها عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى**»[2].

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

قوله: «**دَفَعَ إِلى كُلِّ مُسْلِمٍ يهوديًّا أَوْ نَصرانيًّا فَيَقُولُ: هَذا فكَاكُكَ مِنَ النَّارِ**» معناهُ مَا جَاءَ فى حديث أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**لِكُلِّ أَحَدٍ مَنزِلٌ فى الجَنَّةِ، ومَنزِلٌ فى النَّارِ، فالمُؤْمِن إِذَا دَخَلَ الجنَّةَ خَلَفَهُ الكَافِرُ فى النَّار**»، لأنَّه مُسْتَحِقٌّ لذلك بكُفرِهِ...ومعنى «**فِكَاكُكَ**»: أَنَّكَ كُنْتَ مُعرَّضًا لِدُخولِ النَّارِ وَهَذا فِكَاكُكَ، لأَنَّ الله تعالى قَدَّرَ لِلنَّارِ عددًا يَمْلَؤُهَا، فإذا دَخَلَهَا الكُفَّارُ بِذُنُوبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، صَارُوا فى مَعنى الفِكَاك لِلمُسلِمِينَ. والله أعلم[3].

---

(١) حسن: رواه الحاكم بإسنادٍ حسن.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٦٧) كتاب التوبة.

(٣) رياض الصالحين (ص١٦٠).

۞ وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ فَذَلِكَ قَوْلُهُ** عز وجل: ﴿**أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ** ۝١٠﴾[(١)]»[(٢)].

فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم خُلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له... فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أُمروا به مما خُلقوا له، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل.

فالعبد المؤمن إذا كان فى قبره وأجاب على أسئلة الملكين يُقال له: انظر.. فينظر إلى مكانٍ فى النار فيُقال له: هذا منزلك لو مُتَّ على غير ذلك... أو لو كنت كافرًا من أهل النار.. ولكن انظر فهذا منزلك.. فينظر فيرى منزله فى الجنة فيفرح ويقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى... أى: حتى أدخل منزلى فى الجنة.

أما الكافر فإنه لا يُجيب على أسئلة الملكين فيُقال له: انظر فهذا منزلك لو كنت مُتَّ على الإيمان.. فيرى منزلًا فى الجنة.. فيُغلق هذا المشهد وتُفتح له نافذة على النار ويرى منزله فى النار فيُقال له: هذا منزلك لأنك كفرت بالله (جل وعلا)... فالمؤمن يرث منزل الكافر فى الجنة لأن الكافر دخل النار... والكافر يرث منزل المؤمن الذى فى النار لأن المؤمن دخل الجنة...وإذا دخل الكفار النار تظل النار تشتعل وتضطرم على أصحابها وتقول: «**هل من مزيد**» حتى يضع الجبار قدمه فيها فتقول: قط قط.. أى: قد اكتفيت لا أريد شيئًا بعد ذلك.. أما الجنة فإنه من رحمة الله (جل وعلا) أنه بعد أن يدخل أهل الجنةِ الجنةَ ويظفر كل واحدٍ منهم بنعيمٍ لا يخطر على قلب بشر فإنه يبقى فى الجنة فضلٌ فيخلق الله

---

(١) سورة المؤمنون: الآية: (١٠).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٩٩).

خلقًا جديدًا ويُسكنهم فضل الجنة.

عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ أنَّه قال: «**لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ...وَلا يَزَالُ فِى الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا، فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ**»(١).

وأما اللفظ الذى وقع فى صحيح البخارى فى حديث أبى هريرة: «**وإنه ينشئ للنار مَن يشاء فيُلقى فيها فتقول هل من مزيد**» فغلط من بعض الرواة.

فإن الله سبحانه أخبر أنه يملأ جهنم من إبليس وأتباعه... فإنه لا يُعذب إلا مَن قامت عليه حُجته وكَذَّب رُسله... قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾(٢)....... ولا يظلم الله أحدًا من خلقه.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَأَمَّا رواية: «**يجىء يوم القيامة ناسٌ من المسلمين بِذُنُوبٍ**» فَمَعنَاهُ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَغْفِرُ تِلْكَ الذُّنُوبَ لِلْمُسْلِمِينَ وَيُسْقِطُهَا عَنْهُمْ وَيَضَعُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِثْلَهَا بِكُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ... فَيُدخِلُهُمُ النَّارَ بِأَعمَالِهِمْ لا بذنوب المسلمين... ولا بد من هَذَا التَّأْوِيلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ وَقَوْلُهُ: «**وَيَضَعُهَا**» مَجَازٌ وَالْمُرَادُ: يَضَعُ عَلَيْهِمْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ كَمَا ذَكَرْنَاهُ.

لَكِنْ لَمَّا أَسْقَطَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الْمُسْلِمِينَ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَبْقَى عَلَى الْكُفَّارِ

---

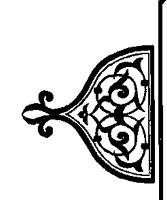
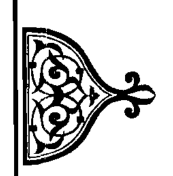
(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٦١) كتاب الأيمان والنذور - ومسلم (٢٨٤٨) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٢) سورة الملك: الآيات: (٨-١٠).

سَيِّئَاتِهِمْ صَارُوا فِي مَعنَى مَنْ حَمَلَ إِثْمَ الْفَرِيقَيْنِ لِكَوْنِهِمْ حَمَلُوا الإِثْمَ الْبَاقِي وَهُوَ إِثْمُهُمْ... وَيُحتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ آثَامًا كَانَ لِلْكُفَّارِ سَبَبٌ فِيهَا بِأَنْ سَنُّوهَا فَتَسْقُطُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ بِعَفْوِ اللهِ تَعَالَى وَيُوضَعُ عَلَى الْكُفَّارِ مِثْلُهَا لِكَوْنِهِمْ سَنُّوهَا وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ كُلِّ مَنْ يَعمَلُ بِهَا.. والله أعلم[1].

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/ ١٣٣-١٣٤).

(٢٩) أهون أهل النار عذابًا يريد أن يفدى نفسه بملء الأرض ذهبًا

۞ عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِى الأَرْضِ مِنْ شَىْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِى بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِى صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لاَ تُشْرِكَ بِى شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِى»[١].

وفى رواية: «يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِى صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ»[٢].

وفى رواية: «فَيُقَالُ لَهُ: قَدْ كُنْتَ سُئِلْتَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ»[٣].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ عن مشهدٍ عظيم من مشاهد يوم القيامة.. وذلك عندما يقول الحق (جلَّ وعلا) لأهون أهل النار عذابًا يوم القيامة: «لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِى الأَرْضِ مِنْ شَىْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِى بِهِ؟».. إنه عَزَّ وَجَلَّ يقول ذلك لأهون أهل النار عذابًا والذى وَصَفَ النبى ﷺ عذابه قائلًا: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ تُوضَعُ فِى أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ، يَغْلِى مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»[٤].

فماذا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ لأشد الناس عذابًا يوم القيامة؟!

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٥٧) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٠٥) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٠٥) (٥٣) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٦١، ٦٥٦٢) كتاب الرقاق - ومسلم (٢١٣) كتاب الإيمان.

إذا كان هذا حال أهون أهل النار عذابًا ويتمنَّى أن يفدى نفسه بكل ما فى الأرض... ولذا فإنه عندما يسأله الله عَزَّوَجَلَّ هذا السؤال: «**لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِى الأَرْضِ مِنْ شَىْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِى بِهِ؟**» لا يتردد لحظة واحدة بل يقول: «**نعم**» مع أنه فى الدنيا كان مشغولًا عن ربه عَزَّوَجَلَّ بجمع حُطامٍ من الدنيا لا يُساوى ذرة مما فى الأرض.. ولو أنه أطاع ربه وانشغل بطاعته ولم يحرم نفسه من السعى فى دُنياه لكان جديرًا بأن ينجو من النار.. مع أنه فى الدنيا كان يأبى أن يُضحى بدقائق يقف فيها بين يدى الله ليُصلى.. أما الآن فهو على أتمِّ الاستعداد لأن يُضحى ويفدى نفسه بكل ما فى الأرض لو كان معه.

فإذا قال: «**نعم**» يقول له الحق (جلَّ وعلا): «**أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِى صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لاَ تُشْرِكَ بِى شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِى**».

۞ وهذا يذكرنا بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[١].

يخبر تعالى عن شناعة حال الكافرين بالله يوم القيامة ومآلهم الفظيع، وأنهم لو افتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبًا ومثله معه ما تُقبل منهم، ولا أفاد، لأن محل الافتداء قد فات.

ولم يبقَ إلا العذاب الأليم، الموجع الدائم الذى لا يخرجون منه أبدًا، بل هم ماكثون فيه سرمدًا[٢].

۞ قال الشيخ الألبانى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله: «**فيُقال له: كذبت**» قال النووى: «معناه لو

(١) سورة المائدة: الآيتان: (٣٦-٣٧).

(٢) تفسير السعدى (ص ٢٤٢)

رددناك إلى الدنيا لما افتديت لأنك سُئلت أيسر من ذلك، فأبيت ... فيكون من معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، وبهذا يجتمع معنى هذا الحديث مع قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾[1].

قوله: «قد أردت منك» أي أحببت منك، والإرادة في الشرع تُطلَق ويُراد بها ما يَعُم الخير والشر والهدى والضلال كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾[2]. وهذه الإرادة لا تتخلف.

وتُطلَق أحيانًا ويُراد بها ما يُرادف الحب والرضا، كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[3]، وهذا المعنى هو المراد من قوله تعالى في هذا الحديث: «أردت منك» أي أحببت.

والإرادة بهذا المعنى قد تتخلف، لأن الله تبارك وتعالى لا يُجبر أحدًا على طاعته، وإن كان خلقهم من أجلها ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[4].

وعليه فقد يريد الله تبارك وتعالى من عبده ما لا يحبه منه. ويحب منه ما لا يريده.

وهذه الإرادة يسميها ابن القيم رحمه الله تعالى بالإرادة الكونية أخذًا من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[5].

ويسمى الإرادة الأخرى المرادفة للرضا: بالإرادة الشرعية.

---

(١) سورة الرعد: الآية: (١٨).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (١٢٥).

(٣) سورة البقرة: الآية: (١٨٥).

(٤) سورة الكهف: الآية: (٢٩).

(٥) سورة يس: الآية: (٨٢).

وهـذا التقسيم، مَن فهمه، انحلَّت لـه كثير من مشكلات مسألة القضاء والقدر، ونجا من فتنة القول بالجبر أو الاعتزال وتفصيل ذلك فى الكتاب الجليل «شفاء العليل فى القضاء والقدر والحكمة والتعليل» لابن القيم رحمه الله تعالى.

۞ قوله: «وأنت فى صلب آدم»: قال القاضى عياض: يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾[1] الآية.

فهذا الميثاق الذى أُخذ عليهم فى صلب آدم، فمن وفَّى به بعد وجوده فى الدنيا فهو مؤمن، ومن لم يوفِ به فهو كافر... فمراد الحديث: أردت منك حين أخذت الميثاق، فأبيت إذ أخرجتك إلى الدنيا إلا الشرك... ذكره فى «الفتح»[2].

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٧٢).

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٣٣٢-٣٣٤).



(٣٠) فضل الشهداء

۞ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عز وجل لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، خَيْرَ مَنْزِلٍ. فَيَقُولُ: سَلْ وَتَمَنَّ. فَيَقُولُ: مَا أَسْأَلُ وَأَتَمَنَّى، إِلَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا، فَأُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مَرَّاتٍ، لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ»[١].

۞ وفى رواية: عن أنسٍ رضي الله عنه، أنَّ النبى ﷺ قال: «ما أحدٌ يدخُلُ الجنَّة يُحِبُّ أنْ يَرجِعَ إلى الدُّنيا وله ما على الأرضِ منْ شيءٍ إلا الشَّهِيدُ، يتمنَّى أنْ يرجِع إلى الدُّنيا، فيُقْتَل عشْرَ مرَّاتٍ، لِما يرى مِن الكَرَامة».

وفى رواية: «لِمَا يَرَى مِن فَضْلِ الشَّهادةِ»[٢].

۞ هذا الحديث أورده الإمام البخارى تحت باب: «تمنِّى المجاهد أن يرجع إلى الدنيا»...

وَلمُسلم من حَدِيث ابن مَسْعُودٍ رَفَعَهُ فِي الشُّهَدَاءِ قَالَ: «فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ اطِّلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَروَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى...» وَلِابْنِ أَبِي شَيْبَةَ مِنْ مُرسَلِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِذَلِكَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَمُصعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ... وَلِلتِّرمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَّا أُخْبِرُكَ مَا قَالَ اللهُ لِأَبِيكَ؟ قَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ تَمَنَّ عَلَيَّ أُعطِكَ قَالَ: يَا رَبِّ تُحيِينِي فَأُقْتَلُ فِيكَ ثَانِيَةً. قَالَ: إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لا يُرجَعُونَ»[٣].

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٩٦) - وأصله فى صحيح مسلم.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨١٧) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (١٨٧٧) كتاب الإمارة.

(٣) فتح البارى (٦/ ٣٩).

فعن عبد الله، قال: لما قُتل عبد الله بن عمرو بن حرام، يوم أُحدٍ، قال رسول الله ﷺ: «يَا جَابِرُ، أَلَا أُخْبِرُكَ مَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لِأَبِيكَ؟»، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَكَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا[1]، فَقَالَ: يَا عَبْدِي، تَمَنَّ عَلَيَّ أُعطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، تُحيِينِي فَأُقْتَلُ فِيكَ ثَانِيَةً. فَقَالَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ: إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرجِعُونَ. قَالَ: يَا رَبِّ، فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِي. قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾»[2].

۞ فمن خلال تلك الروايات يتضح لنا أنه ليس هناك أحد يدخل الجنة يتمنى أن يرجع إلى الدنيا مرة أخرى حتى لو كان له كل ما على الأرض من شيء... وذلك لما فى الجنة من النعيم الذى لا يخطر على قلب بشر... فلا وجه للمقارنة بحالٍ من الأحوال... فلا أحد يتمنى الرجوع إلى الدنيا إلا الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا.. لا من أجل أن يستمتع بما فيها.. كلا.. فقد رأى نعيم الجنة الذى لا يخطر على قلب بشر.. ولكنه يريد أن يرجع إلى الدنيا من أجل أن يُقتَل فى سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.. وذلك لِمَا رأى من الكرامة وفضل الشهادة فى الجنة.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هَذَا مِنْ صَرَائِحِ الْأَدِلَّةِ فِى عَظِيمِ فَضْلِ الشَّهَادَةِ وَاللهُ الْمَحمُودُ الْمَشْكُورُ... وَأَمَّا سَبَبُ تَسْمِيَتِهِ شَهِيدًا فَقَالَ النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ: لِأَنَّهُ حَيٌّ فَإِنَّ أَرواحَهُمْ شَهِدَتْ وَحَضَرَتْ دَارَ الإسلام وَأَرواح غَيْرِهِمْ إِنَّمَا تَشْهَدُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ... وَقَالَ ابن الْأَنْبَارِيِّ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ (عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) يَشْهَدُونَ لَهُ بِالْجَنَّةِ. وَقِيلَ: لِأَنَّهُ شَهِدَ عِنْدَ خُرُوجِ رُوحِهِ مَا أَعَدَّهُ اللهُ تَعَالَى لَهُ مِنَ الثَّوَابِ وَالْكَرَامَةِ... وَقِيلَ: لِأَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحمَةِ يَشْهَدُونَهُ فَيَأْخُذُونَ رُوحَهُ.

---

(١) أى: مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول..وهذا بعد موته أما قبله فلا.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٠٥).

وَقِيلَ: لِأَنَّهُ شُهِدَ لَهُ بِالْإِيمَانِ وَخَاتِمَةِ الْخَيْرِ بِظَاهِرِ حَالِهِ... وَقِيلَ: لِأَنَّ عَلَيْهِ شَاهِدًا بِكَوْنِهِ شَهِيدًا وَهُوَ الدَّمُ... وَقِيلَ: لِأَنَّهُ مِمَّنْ يَشْهَدُ عَلَى الْأُمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِإِبْلَاغِ الرُّسُلِ الرِّسَالَةَ إِلَيْهِمْ ... وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ يُشَارِكُهُمْ غَيْرُهُمْ فِي هَذَا الْوَصفِ[١].

۞ وفى رواية:

عن أبى هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: **«تَضَمَّنَ الله لِمَنْ خَرَجَ فى سبيلِهِ، لا يُخْرِجُهُ إلا جِهادٌ فى سَبيلى، وإيمانٌ بى وتَصدِيقٌ بِرُسُلى فَهُو علىَّ ضامِنٌ أنْ أُدخِلَهُ الجنَّة، أوْ أرجِعَهُ إلى مَنْزِلِهِ الذى خَرَجَ منهُ بما نَالَ مِن أجْرٍ، أوْ غَنِيمَة، والذى نَفْسُ مُحمَّدٍ بيَدِهِ ما مِنْ كَلْمٍ يُكلَم فى سبيلِ الله إلا جاءَ يومَ القِيامةِ كهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِم، لونُهُ لَوْن دم، ورِيحُهُ ريحُ مِسْك، والذى نَفْسُ محمَّدٍ بيده لوْلا أنْ يَشُقَّ على المسلمينَ ما قَعَدتُ خلاف سرِيَّة تَغْزُو فى سَبيلِ الله أبَدًا، ولكنْ لا أجِدُ سَعَةً فأحمِلَهُم ولا يجدُون سَعَةً، ويَشُقُّ علَيهِم أن يتخَلَّفُوا عنِّى، والذى نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ، لوَدِدتُ أنِّى أغزوَ فى سبيلِ الله، فأُقْتَل، ثمَّ أغْزو، فأُقتل، ثمَّ أغزو، فأُقتل»**[٢].

وعنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: **«ما مِنْ مَكلوم يُكْلَمُ فى سبيلِ الله إلا جاءَ يومَ القِيامةِ، وكَلْمُهُ يُدمى: اللوْنُ لونُ دمٍ والريحُ ريحُ مِسْكٍ»**[٣].

۞ ففى هذا الحديث يقول الحبيب المصطفى ﷺ: **«تَضَمَّنَ الله»** وفى رواية: **«تكفَّل الله»** أى: أوجب الله عَزَّ وَجَلَّ على نفسه فضلًا منه وإحسانًا **«لِمَنْ خَرَجَ فى سبيلِهِ»** مجاهدًا فى سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ **«لا يُخرِجُهُ إلا جِهادٌ فى سَبيلى، وإيمانٌ بى وتَصدِيقٌ بِرُسُلى»** أى: لا يُخرجه إلا الجهاد فى سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ... فلم يخرج من

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٣٥-٣٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٧٦) كتاب الإمارة - وروى البخارى بعضه (٣٦) كتاب الإيمان. «الكَلْمُ»: الجرح.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٣٣) كتاب الذبائح والصيد - ومسلم (١٨٧٦) كتاب الإمارة.

أجل دنيا ولا غنيمة ولا رياء ولا سُمعة ولا عصبية وإنما خرج جهادًا فى سبيل الله وإيمانًا بالله وبوعده وتصديقًا برسله وإخبارهم ورسالتهم... فالله عَزَّوَجَلَّ تكفل لمن فعل ذلك بأن يضمن له دخول الجنة والفوز بما فيها من النعيم المقيم دون سابقة عذاب إنْ مات شهيدًا.. أو أن يُسلِّمه من كل مكروهٍ فيعود إلى منزله الذى خرج منه بما نال من الأجر والثواب والغنيمة.

وَهَذَا الضَّمَانُ وَالْكَفَالَةُ مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾.

۞ قَوْلُهُ تَعَالَى: «أَنْ أُدخِلَهُ الْجَنَّةَ» قَالَ الْقَاضِى: يَحتَمِلُ أَنْ يَدخُلَ عِنْدَ مَوْتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِى الشُّهَدَاءِ: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وَفِى الْحَدِيثِ: «أَرواحُ الشُّهَدَاءِ فِى الْجَنَّةِ» قَالَ: وَيَحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ دُخُولَهُ الْجَنَّةَ عِنْدَ دُخُولِ السَّابِقِينَ وَالْمُقَرَّبِينَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ وَلَا مُؤَاخَذَةٍ بِذَنْبٍ وَتَكُونُ الشَّهَادَةُ مُكَفِّرَةً لِذُنُوبِهِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِى الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ.

وَمَعنَى الْحَدِيثِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى ضَمِنَ أَنَّ الْخَارِجَ لِلْجِهَادِ يَنَالُ خَيْرًا بِكُلِّ حَالٍ فَإِمَّا أَنْ يُسْتَشْهَدَ فَيَدخُلَ الْجَنَّةَ، وَإِمَّا أَنْ يَرجِعَ بِأَجْرٍ وَإِمَّا أَنْ يَرجِعَ بِأَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ.. قَوْلُهُ ﷺ: «وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده مامن كَلْمٍ يُكْلَمُ فِى سَبِيلِ اللهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ» أَمَّا الْكَلْمُ فَهُوَ الْجُرحُ وَيُكْلَمُ أَىْ يُجْرَحُ... وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الشَّهِيدَ لَايَزول عنه الدم بغسل ولا غيره... وَالْحِكْمَةُ فِى مَجِيئِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى هَيْئَتِهِ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ شَاهِد فَضِيلَتِهِ وَبَذْلِهِ نَفْسَهُ فِى طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى... وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْيَمِينِ وَانْعِقَادِهَا بِقَوْلِهِ: «وَالَّذى نَفْسِى بِيَدِهِ» وَنَحوِ هَذِهِ الصِّيغَةِ مِنَ الْحَلِفِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الذَّاتِ وَلَا خِلَافَ فِى هَذَا... قَالَ أَصحَابُنَا: الْيَمِينُ تَكُونُ بِأَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ أَوْ مَا دَلَّ عَلَى ذَاتِهِ[1].

(١) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٣٠-٣١) بتصرف.

قوله ﷺ: **«لولا أن يَشُقّ على المسلمين ما قعدت خلاف سريّة تغزو فى سبيل الله أبدًا، ولكن لا أجد سعة، فأحملهم ولا يجدون سعة فيتبعونى»**، فالنبى ﷺ يود ويحب أن يخرج فى كل غزوة وسرية ولا يتخلف أبدًا عن الجهاد، ولكن هناك فئة من المسلمين ليس عندهم مؤنة ليخرجوا للجهاد، وليس عند النبى ﷺ مؤنة تكفيهم..فستضطر هذه الفئة أن تتخلف عن الخروج، وستشعر بالحرج الشديد لعدم الخروج وعدم الصحبة، لذلك أشفق عليهم النبى ﷺ ورأف بحالهم وقعد خلف السرايا.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَفِيهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ ﷺ مِنَ الشَّفَقَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالرَّأْفَةِ بِهِمْ وَأَنَّهُ كَانَ يَتْرُكُ بَعضَ مَا يَخْتَارُهُ لِلرِّفْقِ بِالْمُسْلِمِينَ وَأَنَّهُ إِذَا تَعَارَضَتِ الْمَصَالِحُ بَدَأَ بِأَهَمِّهَا.

وَفِيهِ مُرَاعَاةُ الرِّفْقِ بِالْمُسْلِمِينَ وَالسَّعيِ فِى زَوَالِ الْمَكْرُوهِ وَالْمَشَقَّةِ عَنْهُمْ.

قَوْلُهُ ﷺ: **«لوددت أن أَغْزُو فِى سَبِيلِ اللهِ فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ»** فِيهِ فَضِيلَةُ الْغَزْوِ وَالشَّهَادَةِ... وَفِيهِ تَمَنِّى الشَّهَادَةِ وَالْخَيْرِ وَتَمَنِّى مَا لا يمكن فِى الْعَادَةِ مِنَ الْخَيْرَاتِ... وَفِيهِ أَنَّ الْجِهَادَ فرض كفاية لا فرض عَيْنٍ[1].

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٣/ ٣٢).



(٣١) مشهد ذبح الموت

۞ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُوقَفُ عَلَى الصِّرَاطِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَنْطَلِقُونَ خَائِفِينَ وَجِلِينَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ مَكَانِهِمُ الَّذِى هُمْ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَنْطَلِقُونَ فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ مَكَانِهِمُ الَّذِى هُمْ فِيهِ، فَيُقَالُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ رَبَّنَا هَذَا الْمَوْتُ، فَيَأْمُرُ بِهِ فَيُذْبَحُ عَلَى الصِّرَاطِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْفَرِيقَيْنِ كِلاهُمَا: خُلُودٌ وَلا مَوْتَ فِيهِ أَبَدًا»[١].

۞ وفى رواية: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِى: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ الأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ (وَهَؤُلاَءِ فِى غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا) وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ»[٢].

۞ وفى رواية أخرى فى الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ، جِىءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يُنَادِى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، لا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ لا مَوْتَ، فَيَزْدَادُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ، وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ».

فيا لها من حسرة شديدة حيث يعلم الإنسان أنه من المُخلَّدين فى النار فلا ماله ينفعه ولا ولده يشفع له ولا منصب ينجيه... ولذا يقول أحد الصالحين:

---

(١) صحيح: رواه ابن حبان، وصححه الألبانى فى التعليق الرغيب (٤/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٧٣٠) كتاب تفسير القرآن – ومسلم (٢٨٤٩) كتاب الجنة.

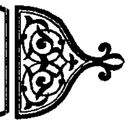
والله لو علم أهل النار أنهم يمكثون فى النار مليون سنة لكانوا أسعد الناس!! فتعجب أحدهم وقال كيف ذلك؟ فقال له الرجل: لأنهم سيفرحون أنهم سيخرجون بعد مليون سنة... ولكنهم سيُخلَّدون فى النار.

ووالله إن أجسادنا لضعيفة لا تتحمل نار الدنيا فكيف بنار الآخرة التى هى أشد من نار الدنيا بسبعين مرة....... أُوقد عليها ألف عام حتى احمرَّت وألف عامٍ حتى ابيضَّت وألف عام حتى اسودَّت فهى الآن سوداء قاتمة!!

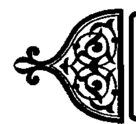
فيالها من فرحةٍ شديدة لأهل الجنان عندما يعرفون أنهم مُخلَّدون فى الجنة يشربون من أنهارها ويأكلون من ثمارها وأشجارها ويتلذذون بالحور العين ثم يتم لهم النعيم الأعظم برؤية وجه الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1].

۞ فالموت نفسه يُذبح لأن الله عَزَّوَجَلَّ كتب الخلود لأهل الجنة فى الجنة... وكتب الخلود للكفار فى النار.. أما أصحاب المعاصى من أهل التوحيد فهم فى مشيئة الله.. إن شاء عذبهم وإن شاء عفا عنهم.. فإن عذبهم فى النار بقدر ذنوبهم فلا بد أن يُخرجهم بعد ذلك ليدخلوا الجنة خالدين فيها أبدًا.

(١) سورة القيامة: الآيتان: (٢٢، ٢٣).



(٣٢) ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم



۞ عن شُرَحْبِيل بْنِ شُفْعَةَ، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**يُقَالُ لِلْوِلْدَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ**». قَالَ: «**فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ حَتَّى يَدْخُلَ آبَاؤُنَا وَأُمَّهَاتُنَا**»، قَالَ: «**فَيَأْتُونَ**»، قَالَ: «**فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: مَا لِي أَرَاهُمْ مُحْبَنْطِئِينَ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ**»، قَالَ: «**فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ آبَاؤُنَا وَأُمَّهَاتُنَا**»، قَالَ: «**فَيَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ**»(١).

۞ ففي هذا الحديث يخبر أحد أصحاب النبي ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول هذا الحديث... وهذا دليل على مدى حرص النبي ﷺ على أن يُعلم أصحابه الخير كله، ويُعلم أمته من بعدهم... فالصَّحابة نقلوا للأمة كل ما تعلموه من النبي ﷺ.. وظلَّت الأجيال تتناقل هذا العلم حتى وصل إلينا.

۞ فالشَّاهد أن النبي ﷺ أخبرهم أنه يُقال للولدان يوم القيامة - أي الأطفال الذين ماتوا واحتسبهم آباؤهم وأمهاتم- فيُقال لهم يوم القيامة: ادخلوا الجنة... وهل هناك أحدٌ لا يشتهي أن يدخل الجنة؟!... لكن الذي حدث أن هؤلاء الأطفال رفضوا أن يدخلوا الجنة حتى يدخل معهم آباؤهم وأمهاتهم.. ولذا فإنهم يقولون: يا رب حتى يدخل آباؤنا وأمهاتنا.. ويظل هؤلاء الأطفال ممتنعين عن دخول الجنة حتى تكتمل سعادتهم بدخولهم الجنة مع آبائهم وأمهاتهم الذين احتسبوهم عند موتهم وتجرعوا مرارة الصبر وألم الفراق... فيقول لهم الحق (جلَّ وعلا): «**مَا لِي أَرَاهُمْ مُحْبَنْطِئِينَ**» والمحبنطئ هو الممتنع امتناع طلب لا امتناع رفض... فهم لا يرفضون دخول الجنة ولكنهم ممتنعين حتى يتحقق لهم هذا الطلب العظيم: ألا وهو دخول آبائهم وأمهاتهم الجنة

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وقال الأرناؤوط: إسناده جيد.

معهم.. ويا له من وفاءٍ يعجز القلم عن وصفه...هنا يقول لهم الحق (جل وعلا) بعد أن رأى من هؤلاء الأطفال تلك الصورة الفريدة من الوفاء: «**ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ**» والمقصود هنا: الآباء والأمهات.

۞ فلو لم يكن للصبر والاحتساب عند موت الأبناء إلا هذا الحديث لكان كافيًا.. فاللهُمَّ احفظ أبناءنا وارزقنا الصبر والاحتساب إذا فقدنا واحدًا منهم يا أرحم الراحمين.




(٣٣) ما أعدَّه الله لعباده الصالحين فى الجنة

۞ عن أبى هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قال رسُولُ الله ﷺ: «**قال الله تعالى: أعدَدتُ لِعِبادِىَ الصَّالِحينَ، مَا لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، واقرءوا إنْ شِئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[١]**»[٢].

۞ الجنة هى الجزاء العظيم، والثواب الجزيل، الذى أعده الله لأوليائه وأهل طاعته... وهى نعيمٌ كامل لا يَشُوبه نقص، ولا يُعكر صفوه كَدَر.

وما حدثنا الله به عنها، وما أخبرنا به الرسول ﷺ يُحير العقل ويُذهله، لأن تَصوُّر عظمة ذلك النعيم يَعجز العقل عن إدراكه واستيعابه.

وتظهر عظمة النعيم بمقارنته بمتاع الدنيا... فإن متاع الدنيا بجانب نعيم الآخرة تافهٌ حقير، لا يساوى شيئًا... ففى صحيح البخارى عن سهل بن سعد الساعدى قال: قال رسول الله ﷺ: «**موضعُ سوطٍ فى الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها**»[٣].

ولذا كان دخول الجنة والنجاة من النار فى حكم الله وتقديره هو الفلاح العظيم، والفوز الكبير، والنجاة العُظمى[٤]... قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[٦].

---

(١) سورة السجدة: الآية: (١٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٤٤) كتاب بدء الخلق - ومسلم (٢٨٢٤) كتاب الجنة.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٢٥٠) كتاب بدء الخلق.

(٤) الجنة والنار/ د. عمر الأشقر رَحِمَهُ اللهُ (ص ١١٣).

(٥) سورة آل عمران: الآية: (١٨٥).

(٦) سورة التوبة: الآية: (٧٢).

۞ يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فى كتابه القيم «حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح»: «وكيف يقدر قدر دار غرسها الله بيده وجعلها مقرًّا لأحبابه، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم ومُلكها بالملك الكبير، وأودعها جميع الخير بحذافيره، وطهرها من كل عيبٍ وآفة ونقص، فإن سألت عن أرضها وتُربتها فهى المسك والزعفران، وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن، وإن سألت عن بلاطها فهو المسك الأذفر، وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجوهر وإن سألت عن بنائها فلبنة من فضة ولبنة من ذهب.

وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب وفضة، لا من الحطب والخشب. وإن سألت عن ثمرها فأمثال القلال ألين من الزبد وأحلى من العسل.

وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون من رقائق الحُلل، وإن سألت عن أنهارها فأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسلٍ مُصفًّى. وإن سألت عن طعامهم ففاكهة مما يتخيرون، ولحم طيرٍ مما يشتهون، وإن سألت عن شرابهم فالتسنيم والزنجبيل والكافور، وإن سألت عن آنيتهم فآنية الذهب والفضة فى صفاء القوارير.

وإن سألت عن سعة أبوابها فبين المصراعين مسيرة أربعين من الأعوام، وليأتين عليه يوم وهو كظيظٌ من الزحام، وإن سألت عن تصفيق الرياح لأشجارها، فإنها تستفز بالطرب لمن يسمعها، وإن سألت عن ظلها ففيها شجرة واحدة يسير الراكب المُجدّ السريع فى ظلها مائة عام لا يقطعها، وإن سألت عن سعتها فأدنى أهلها يسير فى مُلكه وسُرره وقصوره وبساتينه مسيرة ألفى عام وإن سألت عن خيامها وقبابها، فالخيمة الواحدة من دُرة مجوفة، طولها ستون ميلًا

في السماء، وإن سألت عن علاليها وجواسقها فهى غُرف من فوقها غُرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار، وإن سألت عن ارتفاعها فانظر إلى الكوكب الطالع أو الغارب فى الأفق الذى لا تكاد تناله الأبصار. وإن سألت عن لباس أهلها فهو الحرير والذهب، وإن سألت عن فراشها فبطائنها من إستبرق مفروشة فى أعلى الرُّتَب، وإن سألت عن أرائكها فهى الأَسِرَّة عليها البشخانات -وهى الحِجال مُزررة بأزرار الذهب- فما لها من فروج ولا خلال.

وإن سألت عن وجوه أهلها وحُسنهم فعلى صورة القمر. وإن سألت عن أسنانهم فأبناء ثلاثٍ وثلاثين على صورة آدم عليه السلام أبى البشر، وإن سألت عن سماعهم فغناء أزواجهم من الحور العين وأعلى منه سماع أصوات الملائكة والنبيين وأعلى منهما خطاب رب العالمين.

وإن سألت عن مطاياهم التى يتزاورون عليها، فنجائب إن شاء الله مما شاء تسير بهم، وحيث شاءوا من الجنان. وإن سألت عن حُليهم وشارتهم فأساور الذهب واللؤلؤ على الرؤوس ملابس التيجان. وإن سألت عن غلمانهم فولدان مُخلدون كأنهم لؤلؤ مكنون.

وإن سألت عن عرائسهم وأزواجهم، فهن الكواعب الأتراب، اللائى جرى فى أعضائهن ماء الشباب... فلَلورد والتفاح ما لبسته الخدود، وللرمان ما تضمنته النهود، وللؤلؤ المنظوم ما حوته الثغور، وللرقة واللطافة ما دارت عليه الخصور، تجرى الشمس من محاسن وجهها إذا برزت، ويضىء البرق من بين ثناياها إذا ابتسمت، إذا قابلت حبها فقل ما تشاء فى تقابل النَّيرين -الشمس والقمر- وإذا حادثته فما ظنك بمحادثة الحبيبين. وإن ضمَّها إليه فما ظنك بتعانُق الغصنين، ويرى وجهه فى صحن خدها، كما يرى فى المرآة التى جلاها صقيلها، ويرى مخ ساقها من وراء اللحم ولا يستره جلدها ولا عظمها ولا

حُللها. لو اطلعت على الدنيا لملأت ما بين الأرض والسماء ريحًا. وأفواه الخلائق تهليلًا وتكبيرًا وتسبيحًا، ولتزخرف لها ما بين الخافقين، ولأغمضت عن غيرها كل عين، ولطمست ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم، ولآمن مَن على ظهرها بالله الحى القيوم، ونَصيفُها على رأسها خيرٌ من الدنيا وما فيها، ووصالها أشهى إليه من جميع أمانيها، ولا يزداد على طول الأحقاب إلا حُسنًا وجمالًا، ولا يزداد لها على طول المدى إلا محبة ووصالًا، مُبرأة من الحمل والولادة والحيض والنفاس، مُطهَّرة من المُخاط والبصاق والبول والغائط وسائر الأدناس، لا يَفنى شبابها، ولا تَبلى ثيابها ولا يَخلق ثوب جمالها، ولا يمل طِيب وصالها، قد قَصَرت طرفها على زوجها، فلا تطمح لأحدٍ سواه وقصر طرفه عليها فى غاية أمنيته وهواه، وإن نظر إليها سَرَّته وإن أمرها بطاعته أطاعته، وإن غاب عنها حفظته، فهو منها فى غاية الأمانى... هذا ولم يطمثها قبله إنسٌ ولا جان، كلما نظر إليها ملأت قلبه سرورًا،وكلما حدثته ملأت أذنه لؤلؤًا منظومًا ومنثورًا، وإذا برزت ملأت القصر والغرفة نورًا.

وإن سألت عن السن فأتراب فى أعدل سن الشباب، وإن سألت عن الحُسن، فهل رأيت الشمس والقمر، وإن سألت عن الحدق فأحسن سواد فى أصفى بياض فى أحسن حَور، وإن سألت عن القدود فهل رأيت أحسن الأغصان، وإن سألت عن النهود فهن الكواعب، ونهودهن كألطف الرمان، وإن سألت عن اللون فكأنه الياقوت والمرجان، وإن سألت عن حسن الخلق فهن الخيِّرات الحِسان، اللاتى جُمع لهن بين الحسن والإحسان، فأُعطين جمال الباطن والظاهر فهن أفراح النفوس وقرة النواظر وإن سألت عن حُسن العشرة ولذة ما هنالك فهن العُرُب المتحببات إلى الأزواج بلطافة التبعُّل التى تمتزج بالروح أى امتزاج.

فما ظنك بامرأة إذا ضحكت فى وجه زوجها أضاءت الجنة من ضحكها. وإذا انتقلت من قصرٍ إلى قصر قلت: هذه الشمس متنقلة فى بروج فلكها، وإذا حاضرت زوجها، فيا حُسن تلك المحاضرة، وإن خاصرته فيا لذة المعانقة والمخاصرة.

وإن غنَّت فيا لذة الأبصار والأسماع، وإن آنست وأمتعت فيا حبذا تلك المؤانسة والإمتاع. وإن قبَّلت فلا شيء أشهى إليه من التقبيل، وإن نوَّلت فلا ألذ ولا أطيب من ذلك التنويل.

هذا وإن سألت عن يوم المزيد وزيارة العزيز الحميد ورؤية وجهه المُنزَّه عن التمثيل والتشبيه، كما ترى الشمس فى الظهيرة والقمر ليلة البدر كما تواتر عن الصادق المصدوق النقل فيه. فاستمع يوم ينادى المنادى: يا أهل الجنة، إن ربكم تبارك وتعالى يستزيركم فحى على زيارته، فيقولون: سمعًا وطاعة، وينهضون إلى الزيارة مبادرين، فإذا بالنجائب قد أُعدت لهم فيستوون على ظهورها مسرعين، وحتى إذا انتهوا إلى الوادى الأفيح الذى جُعل لهم موعدًا. وجُمعوا هناك فلم يغادر الداعى منهم أحدًا، أمر الرب تبارك وتعالى بكرسيه فنُصب هناك، ثم نُصبت لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة. وجلس أدناهم وحاشاهم أن يكون فيهم دنى على كثبان المسك ما يرون أن أصحاب الكراسى فوقهم فى العطايا، حتى إذا استقرت بهم مجالسهم واطمأنت بهم أماكنهم نادى المنادى: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا ويُثقل موازيننا. ويُدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار. فبينما هم كذلك إذ سطع لهم نور أشرقت له الجنة فرفعوا رؤوسهم فإذا الجبار جلَّ جلاله وتقدست أسماؤه: وقد أشرف عليهم من فوقهم. وقال: يا أهل الجنة، سلام عليكم، فلا

تُرد هذه التحية بأحسن من قولهم: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، فيتجلى لهم الرب تبارك وتعالى ويضحك إليهم، ويقول: يا أهل الجنة، فيكون أول ما يسمعون منه تعالى: أين عبادى الذين أطاعونى بالغيب، ولم يرونى، فهذا يوم المزيد، فيجتمعون على كلمة واحدة: قد رضينا فارضَ عنا، فيقول: يا أهل الجنة إنى لو لم أرضَ عنكم لم أُسكنكم جنتى.

هذا يوم المزيد فاسألونى، فيجتمعون على كلمة واحدة: أَرِنا وجهك ننظر إليه. فيكشف لهم الرب -جل جلاله- الحُجُب، ويتجلى لهم فيغشاهم من نوره ما لولا أن الله تعالى قضى أن لا يحترقوا لاحترقوا. ولا يبقى فى ذلك المجلس أحد إلا حاضَره ربه تعالى محاضرة حتى إنه يقول: يا فلان أتذكر يوم فعلت كذا وكذا؟ يُذكره ببعض غدراته فى الدنيا، فيقول: يا رب ألم تغفر لى؟ فيقول: بمغفرتى بلغت منزلتك هذه.

فيا لذة الأسماع بتلك المحاضرة ويا قرة عيون الأبرار بالنظر إلى وجهه الكريم فى الدار الآخرة، ويا ذلة الراجعين بالصفقة الخاسرة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾[1].

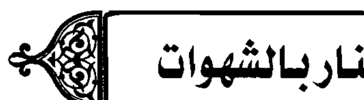
فحى على جنات عدنٍ فإنها ... منازلنا الأولى وفيها المخيمُ

ولكننا سَبى العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونَسلمُ[2]

---

(١) سورة القيامة: الآيات: (٢٢-٢٥).

(٢) حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح / للإمام ابن القيم (ص: ٢٦٢ - ٢٦٥).



(٣٤) حُفَّت الجنة بالمكاره.. وحُفَّت النار بالشهوات

۞ عن أبى هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَىْ رَبِّ! وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا .. ثُمَّ حَفَّهَا بِالمَكَارِهِ ثُمَّ قال: يا جبريل! اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَذَهَبَ ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جاءَ فَقَالَ: أَىْ رَبِّ! وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لاَ يَدْخُلَهَا أَحَدٌ فَلَمَّا خَلَقَ اللهُ النار قال: يا جبريل! اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فيدخلها .. فحفَّها بالشهوات ثم قال: يا جبريل اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ: أَىْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لاَ يبقى أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا»(١).

۞ وفى رواية:

عَن أَبِى هُرَيرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «حُجِبَتِ النَّارُ بالشَّهَوَاتِ، وَحُجِبَتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ»(٢).

۞ قال الإمام النووى رحمه الله:

قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا مِنْ بَدِيعِ الْكَلَامِ وَفَصِيحِهِ وَجَوَامِعِهِ الَّتِى أُوتِيَهَا ﷺ مِنَ التَّمْثِيلِ الْحَسَنِ... ومعناه لايوصل الْجَنَّةَ إِلَّا بِارتِكَابِ الْمَكَارِهِ .. وَالنَّارَ بِالشَّهَوَاتِ، وَكَذَلِكَ هُمَا مَحجُوبَتَانِ بِهِمَا فَمَنْ هَتَكَ الْحِجَابَ وَصَلَ إِلَى الْمَحجُوبِ... فَهَتْكُ حِجَابِ الْجَنَّةِ بِاقْتِحَامِ الْمَكَارِهِ، وَهَتْكُ حِجَابِ النَّارِ

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢١٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٨٧) كتاب الرقاق - ومسلم (٢٨٢٢) كتاب الجنة.

وفى رواية لمسلم: «حُفَّتْ» بدل «حُجِبَتْ» وَهُوَ بمعناه: أى بينه وبينها هَذَا الحجاب فإذا فعله دخلها.

بِارْتِكَابِ الشَّهَوَاتِ... فَأَمَّا (الْمَكَارِهُ) فَيَدخُلُ فِيهَا الِاجْتِهَادُ فِى الْعِبَادَاتِ وَالْمُوَاظَبَةُ عَلَيْهَا وَالصَّبْرُ عَلَى مَشَاقِّهَا، وَكَظْمُ الْغَيْظِ، وَالْعَفْوُ، وَالْحِلْمُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْإِحسَانُ إِلَى الْمُسِيءِ، وَالصَّبْرُ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَنَحْو ذَلِكَ. وَأَمَّا (الشَّهَوَاتُ) الَّتِى النَّارُ مَحفُوفَةٌ بِهَا، فَالظَّاهِرُ أَنَّهَا الشَّهَوَاتُ الْمُحَرَّمَةُ كَالْخَمْرِ، وَالزِّنَا، وَالنَّظَرِ إِلَى الْأَجْنَبِيَّةِ، وَالْغِيبَةِ، وَاسْتِعمَالِ الْمَلَاهِى، وَنَحوِ ذَلِكَ... وَأَمَّا الشَّهَوَاتُ الْمُبَاحَةُ فَلَا تَدخُلُ فِي هَذِهِ لَكِنْ يُكْرَهُ الْإِكْثَارُ مِنْهَا مَخَافَةَ أَنْ يَجُرَّ إِلَى الْمُحَرَّمَةِ، أَوْ يُقَسِّى الْقَلْبَ، أَوْ يَشْغَلَ عَنِ الطَّاعَاتِ، أَوْ يُحوِجَ إِلَى الِاعتِنَاءِ بتحصيل الدنيا للصرف فيها ونحو ذلك[1].

وهكذا فقد أخبر النبى ﷺ أن النار قد أُحيطت بالشهوات وأن الجنة قد أُحيطت بالمكاره.. يعنى: أُحيطت بما تكرهه النفوس.. وذلك لأن الباطل محبوبٌ للنفس الأمارة بالسوء والحق مكروهٌ لها.. فإذا جاهد الإنسان نفسه الأمارة بالسوء وتجاوز هذا المكروه بفعل الواجبات وترك المحرمات فسوف يصل إلى الجنة بفضل الله ورحمته.

۞ فالزنى - عياذًا بالله - محبوبٌ إلى النفس الأمارة بالسوء.. فإذا هتك الإنسان هذا الحجاب فإن ذلك سيكون سببًا لدخوله النار.

وكذلك شُرب الخمر.. فهو محبوب إلى النفس الأمَّارة بالسوء وبخاصة حينما يكون الإنسان فى صحبة أصدقاء السوء.. ولذلك جعل الشارع لشرب الخمر عقوبة رادعة بأن يُجلد شاربها.

فإذا هتك الإنسان ذلك الحجاب وشرب الخمر فإن ذلك سيكون سببًا لدخوله النار والعياذ بالله.

وكذلك الغيبة والنميمة محبوبة إلى النفس الأمَّارة بالسوء وبخاصة عند

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٢٤١-٢٤٢).

اجتماع الأصدقاء.. فإذا هتك الإنسان ذلك الحجاب وخاض فى أعراض الناس فإن ذلك سيكون سببًا لدخوله النار.

وهكذا فى كل شهوة محرمة كالسرقة والغش وسائر المحرمات، وعلاج ذلك كله فى قوله ﷺ: «**وحُفَّت الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ**»، فإذا تجاوز المسلم تلك الشهوات ولم يهتك حجابها... وانشغل بفعل الطاعات التى هى قد تكون مكروهة إلى النفس فإن ذلك سيكون سببًا لدخوله الجنة.

ولهذا قد تجد الإنسان يسمع صوت المؤذن فى صلاة الفجر وهو نائمٌ فى فراشه الوثير الدافئ فى الشتاء البارد.. فإذا آثر الراحة فاته الخير الكثير وإذا هتك حجاب المكروه فقام وتوضأ بالماء البارد وذهب إلى المسجد ليُصلى صلاة الفجر وصل إلى الجنة.. فقد قال النبى ﷺ: «**من صلَّى البَرْدَين دَخل الجنة**»(١) والبردان هما صلاة الفجر وصلاة العصر..

۞ وكذلك الصدقة مكروهة إلى النفس الأمارة بالسوء.. فإذا اقتحم الإنسان تلك العقبة وهتك حجاب المكروه فأخرج المال وتصدق فقد سار فى طريقه إلى الجنة.

۞ وكذلك الحجاب مكروهٌ جدًّا إلى النفس الأمارة بالسوء... فالفتاة المسلمة قد تحب أن تخرج مُتزينة حتى تشعر بجمالها وأن الكل يمدحها ويمدح ثيابها الجميلة وشعرها الناعم.. فإذا هتكت حجاب المكروه فارتدت حجابها وتشبهت بأمهات المؤمنين زوجات النبى ﷺ فسوف يكون ذلك سببًا فى دخولها الجنة.

۞ وكذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. قد يكون مكروهًا شديدًا على النفوس؛ لأن الإنسان يخشى أن يكون ثقيلًا على الناس إذا أمرهم بالمعروف

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٤) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٣٥) كتاب المساجد.

ونهاهم عن المنكر فإذا هتك حجاب المكروه وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ابتغاء مرضاة الله فإن هذا سيكون سببًا لدخوله الجنة.

۞ وكذلك الجهاد في سبيل الله مكروه إلى النفس ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]... بلى إنه مكروهٌ للنفس فإذا هتك الإنسان هذا الحجاب كان ذلك سببًا لدخول الجنة.

واستمع إلى قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. فإذا كسر الإنسان هذا المكروه وصل إلى الجنة.

۞ وهكذا.. فالنار حُفَّت بالشهوات والجنة حُفَّت بالمكاره.. فجاهد نفسك على ترك المحرمات وفعل الواجبات وإن كرهت ذلك.. واعلم أنك إن أكرهت نفسك على طاعة الله فسوف تحب الطاعة وتألفها حتى تُصبح أحب إلى نفسك من كل متاع الدنيا الزائل... وهذا كله من باب مُجاهدة النفس.. ولن يكون ذلك إلا بالاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ ثم مجاهدة النفس.

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٢١٦).

(٢) سورة آل عمران: الآيات: (١٦٩-١٧١).

(٣٥) احتجاج الجنة والنار

۞ عَنْ أَبِي سعيد الخدرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «احتجَّت الجنَّةُ والنَّارُ فقالت النَّارُ: فِيَّ الجبَّارُونَ والمُتكبِّرُونَ، وقَالت الجَنَّةُ: فِيَّ ضُعفَاءُ النَّاسِ ومسَاكِينُهُم فَقَضَى الله بَيْنَهُما: إِنَّك الجنَّةُ رحمتِي أَرحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَإِنَّكِ النَّارُ عَذابِى أُعذِّب بِكِ مَنْ أَشَاءُ، ولِكلَيكُمَا عَلَىَّ مِلؤُها»[١].

۞ فى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أنه «احتجَّت الجنة والنار» يعنى تَحاجَّا فيما بينهما، كل واحدة تُدلى بحُجتها... وهذا من الأمور الغيبية التى يجب علينا أن نؤمن بها حتى وإن استبعدتها العقول وحار الإنسان فيها، وقال: كيف تتحاجّ الجنة والنار وهما جمادان!.

فلقد أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ أنه قال للسماوات والأرض ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[٢] وهما جمادان.. وأخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ أنه أمر القمر فانشقَّ نصفين لما طلب النبى ﷺ منه ذلك لتكون معجزة يراها المشركون فيؤمنوا ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[٣] بل وأخبر النبى ﷺ أن عرش الرحمن (جلَّ وعلا) قد اهتزَّ لموت سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. أى: فرحًا بقدوم روحه إلى السماء. وأخبرنا الحق (جلَّ وعلا) أن الأيدى والألسُن والجلود ستشهد على الإنسان يوم القيامة مع أنها جماد... بل وأخبر الحق (جلَّ وعلا) أن الكون كله يُسبح بحمد الله ويسجد لله عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٥٠) كتاب التفسير - ومسلم (٢٨٤٧) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٢) سورة فصلت: الآية: (١١).

(٣) سورة القمر: الآية: (١).

وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[٢].

فالجنة احتجت على النار، والنار احتجت على الجنة،.... النار احتجت بأن فيها الجبارين والمتكبرين.

الجبارون أصحاب الغلظة والقسوة، والمتكبرون أصحاب الترفُّع والعلو، الذين يغمطون الناس ويردون الحق... كما قال النبى ﷺ فى الكبر أنه: «**بَطَرُ الحق وغَمطُ الناس**»[٣].

فأهل الجبروت وأهل الكبرياء هم أهل النار والعياذ بالله.

وربما يكون صاحب النار حسن الأخلاق لين الجانب مع أهله وأصحابه؛ لكنه مستكبرٌ جبارٌ عنيدٌ بالنسبة للحق.. فلا يقبل الحق ويرفض الدين جملة وتفصيلًا.. ولذلك فلا ينفعه لين جانبه وحُسن أخلاقه لاستكباره على الحق ورفضه له.

أما الجنة فقالت: إن فيها ضعفاء الناس وفقراء الناس، فهم فى الغالب الذين يلينون للحق وينقادون له... وأما أهل الكبرياء والجبروت، ففى الغالب أنهم لا ينقادون.

فقضى الله عَزَّوَجَلَّ بينهما قال: «**إِنَّك الجنَّةُ رحمتِى أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ**» وقال للنار: «**إِنَّكِ النَّارُ عَذابِى أُعذِّب بِكِ مَنْ أَشَاءُ**» إنك الجنة رحمتى: يعنى أنها الدار

(١) سورة الإسراء: الآية: (٤٤).

(٢) سورة الحج: الآية: (١٨).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

التى نشأت من رحمة الله، وليست رحمته التى هى صفته؛ لأن رحمته التى هى صفته وصفٌ قائمٌ به... لكن الرحمة هنا مخلوق.

أنت رحمتى يعنى: خلقتك برحمتى، أرحم بك مَن أشاء.

وقال للنار: أنت عذابى أُعذِّب بك مَن أشاء... كقوله تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾[1]. فأهل الجنة هم أهل رحمة الله - نسأل الله أن يجعلنى وإياك منهم - وأهل النار هم أهل عذاب الله.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: «**ولِكلَيكُمَا عَلَىَّ مِلؤُها**» تكفل عَزَّوَجَلَّ وأوجب على نفسه أن يملأ الجنة ويملأ النار... وفضل الله سبحانه وتعالى ورحمته أوسع من غضبه، فإنه إذا كان يوم القيامة أُلقى مَن يُلقى فى النار، وهى تقول: هل من مزيد، يعنى أعطونى، أعطونى[2].

زيدونى... ولكن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُدخل جهنم إلا مَن كفر بالله وقامت عليه الحُجة.. فيضع الله قدمه - وفى رواية: رجله- فينزوى بعضها إلى بعض وينضم بعضها إلى بعض من أثر وضع الرب عَزَّوَجَلَّ قدمه عليها وتقول: قَط قَط.. أى: حسبى ويكفينى هذا.. فهذا ملؤها.... أما الجنة فإن الجنة واسعة، عرضها السموات والأرض يدخلها أهلها ويبقى فيها فضلٌ زائد على أهلها، فيُنشئ الله تعالى لها أقوامًا فيُدخلهم الجنة بفضله ورحمته؛ لأن الله تكفل لها بملئها.

فمن كمال رحمة الله (جل وعلا) أنه بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة ويظفر كل واحدٍ منهم بنعيم لا يخطر على قلب بشر فإنه يبقى فى الجنة فضلٌ فيخلق الله خلقًا جديدًا ويُسكنهم فضل الجنة.

عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ: «**لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ**

---

(١) سورة العنكبوت: الآية: (٢١).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٩).

مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ...وَلا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا، فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ»[1].

وأما اللفظ الذى وقع فى صحيح البخارى فى حديث أبى هريرة: «وإنه يُنشئ للنار مَن يشاء فيُلقَى فيها فتقول هل من مزيد» فغلط من بعض الرواة[2].

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَوْلُهُ ﷺ: «وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ ينشئ لها خلقًا» هَذَا دَلِيلٌ لِأَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الثَّوَابَ لَيْسَ مُتَوَقِّفًا عَلَى الْأَعمَالِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يُخْلَقُونَ حِينَئِذٍ وَيُعطَوْنَ فِى الْجَنَّةِ مَا يُعطَوْنَ بِغَيْرِ عَمَلٍ... وَمِثْلُهُ أَمْرُ الْأَطْفَالِ وَالْمَجَانِينَ الَّذِينَ لَمْ يَعمَلُوا طَاعَةً قَطُّ فَكُلُّهُمْ فِى الْجَنَّةِ بِرَحمَةِ اللهِ تَعَالَى وَفَضْلِهِ... وَفِى هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى عِظَمِ سَعَةِ الْجَنَّةِ فَقَد جَاءَ فِى الصَّحِيحِ أَنَّ لِلْوَاحِدِ فِيهَا مِثْلُ الدُّنْيَا وَعَشْرَةِ أَمْثَالِهَا ثُمَّ يَبْقَى فِيهَا شَىْءٌ لِخَلْقٍ يُنْشِئُهُمُ اللهُ تَعَالَى[3].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٦١) كتاب الأيمان والنذور - ومسلم (٢٨٤٨) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٢) يوم فى الجنة / الشيخ محمود المصرى (ص ٤٢٨).

(٣) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٢٦٧).



(٣٦) أول من تُسعر بهم النار ثلاثة

۞ عن أبى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَولَ النَّاسِ يُقْضَى يَومَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِىَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعمَتَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ! فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِىَ فى النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ القُرآنَ، فَأُتِىَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأتُ فِيكَ القُرآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ! وَقَرَأتَ القُرآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ؛ فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِىَ فى النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأعطاهُ مِنْ أصنَافِ المَالِ، فَأُتِىَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، ولكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ! فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِىَ فى النَّارِ»[1].

۞ فهؤلاء الثلاثة لو أخلصوا النية لله (جلَّ وعلا) ولم يقعوا فى الرياء وحُب الثناء من الناس عليهم لكانوا فى أعلى درجات الجنة.. ولكن لما تبدلت نياتهم وفسدت مقاصدهم وأرادوا بأعمالهم الصالحة الثناء من الناس ولم يُريدوا وجه الله تعالى كانوا أول مَن تُسعَّر بهم النار يوم القيامة.

۞ ففى هذا الحديث ذكر النبى ﷺ ثلاثة أصناف:

المتعلم والمقاتل والمتصدق.. فأما المتعلم فهو الذى تعلَّم العلم وتعلم القرآن وأخذ يُعلم الناس العلم والقرآن... فلما أُتى به يوم القيامة.. فعرَّفه الله نعمته فعرفها وأقرَّ واعترف، فسأله ماذا صنعت؟ يعنى فى شكر هذه النعمة،

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٥) كتاب الإمارة.

فقال: تعلمت العلم وقرأت القرآن فيك، فقال الله له: كذبت، ولكن تعلمت ليُقال: عالم، وقرأت القرآن ليُقال: قارئ... ليس لله، بل لأجل الرياء، ثم أمر به فسُحب على وجهه فى النار... وهذا دليل على أنه يجب على طالب العلم فى طلب العلم أن يخلص نيته لله عَزَّوَجَلَّ وألا يبالى أقال الناس أنه عالم أو شيخ أو أستاذ أو مجتهد أو ما أشبه ذلك. لا يهمه هذا الأمر... لا يهمه إلا رضا الله عَزَّوَجَلَّ وحفظ الشريعة وتعليمها ورفع الجهل عن نفسه ورفع الجهل عن عباد الله حتى يُكتب من الشهداء الذين مرتبتهم بعد مرتبة الصدِّيقين. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾[١]،

وأما مَن تعلم لغير ذلك، ليُقال إنه عالم وإنه مجتهد وإنه علَّامة وما أشبه ذلك من الألقاب فهذا عمله حابط والعياذ بالله، وهو أول مَن يُقضَى عليه ويُسحَب على وجهه فى النار ويُكذَّب يوم القيامة ويوبَّخ.

أما الثانى فهو رجلٌ مُقاتل، قاتل فى سبيل الله وقُتل، فلما كان يوم القيامة أُتى به إلى الرب عَزَّوَجَلَّ فعرَّفه نِعَمَه فعرفها... يعنى: أنه سبحانه وتعالى أمدَّه وأعدَّه ورزقه وقوَّاه حتى وصل إلى هذه المرتبة إلى أن قاتل، ثم سُئل ماذا صنعت فيها؟ قال: يا رب قاتلت فيك- أى من أجلك- حتى قُتلت.... فيُقال: كذبت.. بل قاتلت من أجل أن يُقال فلان شجاع جرىء، وقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه فى النار والعياذ بالله... فالمقاتلون فى سبيل الله لهم نوايا متعددة.... منهم مَن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله، كما قال النبى ﷺ...وأما مَن قاتل وطنية ففى سبيل الطاغوت، ومَن قاتل حَمية على قومية فهو فى سبيل الطاغوت، ومَن قاتل لينال دنيا فهو فى سبيل الطاغوت... لأن الله يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾[٢].

(١) سورة النساء: الآية: (٦٩).

(٢) سورة النساء: الآية: (٦٧).

لكن لو قاتل الإنسان، لا من أجل القومية ولا الوطنية، ولكن من أجل حماية وطنه المسلم أن يعتدى عليه الكفار فهذا فى سبيل الله.

أما الثالث فرجل أنعم الله عليه بالمال وصار يتصدق ويعطى وينفق... فإذا كان يوم القيامة أُتى به إلى الله وعرَّفه نعمه فعرفها ثم سأله ماذا صنعت فيها؟ فيقول: تصدقت وفعلت وفعلت... فيُقال: كذبت ولكنك فعلت ليُقال فلان جواد يعنى أنه كريم، وقد قيل... ثم أمر به فسُحب على وجهه فى النار... هذا أيضًا من الثلاثة الذين تُسَّعر بهم النار يوم القيامة ... وفى هذا دليل على أنه يجب على الإنسان أن يُخلص النية لله فى جميع ما يبذله من مالٍ أو بدنٍ أو علم أو غيره، وأنه إذا فعل شيئًا مما يُبتغى به وجه الله تعالى وصرفه إلى غير ذلك، فإنه آثمٌ به. والله الموفق[1].

---

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٤/ ١٧٠-١٧١).



(٣٧) حوض النبى ﷺ

۞ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟. قَالَ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ» فَقَرَأَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[1] ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟» فَقُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ»[2].

۞ يُحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا وأعطش ما كانوا وأعرى ما كانوا.. فيقفون فى أرض المحشر حُفاة عُراة غُرلًا غير مختونين... والشَّمس تدنو من الرؤوس حتى تكون كمقدار ميل.

فيشتد العطش على الناس أكثر وأكثر.. ويطول الوقوف والانتظار وقد ازدحمت الأمم من لَدُن آدم عليه السلام إلى آخر رجل يموت فى هذا الكون... واشتاق النَّاس جميعًا إلى شربة ماء بعد أن تشققت حلوقهم من العطش.

۞ وهنا يظهر لكلِّ أمة حوض نبيها.. فيشرب منه أتباعه الذين آمنوا معه ويُحرَم منه الذين كفروا فتطردهم الملائكة عن الحوض.

۞ ويظهر حوض نبينا لأمته فيهرع الناس إليه.. فمنهم مَن يشرب - وهم أهل الإيمان - ومنهم مَن يُطرد - وهم الذين ارتدوا عن دينه والذين ابتدعوا فى دينه.

---

(١) سورة الكوثر.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٠٠) كتاب الصلاة.

۞ وحوض النبى ﷺ واسع الأرجاء.. ماؤه أبيض مَن اللبن وطعمه أحلى من العسل، وريحه أطيب من المسك.. كيزانه عدد نجوم السَّماء.. تَرِدُ عليه أمته ﷺ.. فمن شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا.

هل الحوض هو نهر الكوثر؟

كلا.. فالكوثر نهرٌ فى الجنة أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ للنبى ﷺ... أما الحوض فهو فى أرض المحشر يأتى ماؤه من نهر الكوثر.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾(١).

وقال ﷺ: «**بَيْنا أَنا أَسِيرُ فِى الجَنَّةِ إِذْ عَرَضَ لِى نَهْرٌ حافَتاهُ قِبابُ اللُّؤلُؤِ المُجَوَّفِ قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قالَ: هَـذَا الكَـوْثَرُ الَّذِى أعْطاكَهُ الله ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ إِلَى طِينِهِ فاسْتَخْرَجَ مِسْكًا، ثُمَّ رُفِعَتْ لِى سِدْرَةُ المُنْتَهَى، فَرَأَيْتُ عِنْدَها نُورًا عَظِيمًا**»(٢).

وقال ﷺ: «**دَخَلْتُ الجَنَّةَ، فإِذا أَنا بِنَهْرٍ حافَتاهُ خيامُ اللُّؤلُؤ، فَضَرَبْتُ بِيَدِى إِلى مَا يَجْرِى فِيهِ المَاءُ، فإِذا مِسْكٌ أَذْفَرُ فَقُلْتُ: مَا هَذا يا جِبْرِيلُ؟ قالَ: هَذا الكَوْثَرُ الذِى أَعْطاكَهُ الله**»(٣).

وقال ﷺ: «**الْكُوْثَرُ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ الله فِى الجَنَّةِ، تُرَابُهُ مِسْكٌ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، تَرِدُهُ طَائِرٌ أَعْنَاقُهَا مِثْلُ أَعْنَاقِ الجُزُرِ آكِلُهَا أنعمُ منها**»(٤).

وقال ﷺ: «**الْكَوْثَرُ نَهْرٌ فِى الجَنَّةِ، حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ رِيحًا مِنَ المِسْكِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَشَدُّ بَيَاضًا**

(١) سورة الكوثر.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٥٨١) كتاب الرقاق.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٥٨١) كتاب الرقاق.

(٤) صحيح: رواه الحاكم عن أنس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٦١٤).

مِنَ الثَّلْجِ»[(١)].

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ الْقَاضِى عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَحَادِيثُ الْحَوْضِ صَحِيحَةٌ، وَالْإِيمَانُ بِهِ فَرْضٌ وَالتَّصْدِيقُ بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَهُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَا يُتَأَوَّلُ وَلَا يُخْتَلَفُ فِيهِ.

أما «اختلجوا» فمعناه اقتطعوا.

قَالَ الْقَاضِى: هَذَا دَلِيلٌ لِصِحَّةِ تَأْوِيلِ مَنْ تَأَوَّلَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الرِّدَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ فِيهِمْ: سُحْقًا سُحْقًا، وَلَا يَقُولُ ذَلِكَ فِى مُذْنِبِى الْأُمَّةِ بَلْ يَشْفَعُ لَهُمْ وَيَهْتَمُّ لِأَمْرِهِمْ. قَالَ: وَقِيلَ: هَؤُلَاءِ صِنْفَانِ: أَحَدُهُمَا: عُصَاةٌ مُرْتَدُّونَ عَنِ الِاسْتِقَامَةِ لَا عَنِ الْإِسْلَامِ وَهَؤُلَاءِ مُبَدِّلُونَ لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بِالسَّيِّئَةِ. وَالثَّانِى: مُرْتَدُّونَ إِلَى الْكُفْرِ حَقِيقَةً، نَاكِصُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَاسْمُ التَّبْدِيلِ يَشْمَلُ الصِّنْفَيْنِ»[(٢)].

۞ قال الشيخ ابن عثميين رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحوض لغة: الجمع، يُقال حاض الماء يحوضه إذا جمعه، ويُطلق على مجتمع الماء.

وشرعًا: حوض الماء النازل من الكوثر فى عرصات القيامة للنبى ﷺ.

ودلَّ عليه السُّنة المتواترة وأجمع عليه أهل السُّنة.

۞ والكلام على الحوض من عدة وجوه:

أولًا: هذا الحوض موجود الآن؛ لأنه ثبت عن النبى ﷺ أنه خطب ذات يوم فى أصحابه، وقال: «**وَإِنِّى وَاللهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِى الْآنَ**»[(٣)]. وأيضا؛ ثبت عن النبى عليه الصلاة والسلام؛ أنه قال: «**وَمِنْبَرِى عَلَى حَوْضِى**»[(٤)]. وهذا يحتمل أنه فى

---

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذى وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٦١٥).

(٢) شرح مسلم (٨/ ٧٣).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٤٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٢٩٦) كتاب الفضائل.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (١١٩٦) كتاب فضل الصلاة فى مسجد مكة والمدينة–ومسلم (١٣٩١) كتاب الحج.

هذا المكان، لكن لا نشاهده؛ لأنه غيبى، ويحتمل أن المنبر يوضع يوم القيامة على الحوض.

ثانيًا: هذا الحوض يَصُب فيه ميزابان من الكوثر، وهو النهر العظيم، الذى أُعطيه النبى ﷺ فى الجنة؛ ينزلان إلى هذا الحوض.

ثالثًا: يَرِد هذا الحوض المؤمنون بالله ورسوله ﷺ المتبعون لشريعته، وأما مَن استنكف واستكبر عن اتباع الشريعة؛ فإنه يُطرد منه.

رابعًا: فى كيفية مائه: فيقول: « **مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ**»: هذا فى اللون، أما فى الطعم، فقال: «**وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ** » ، وفى الرائحة أطيب من ريح المسك، كما ثبت به الحديث عن النبى ﷺ.

خامسًا: فى آنيته: يقول: «**آنيته عدد نجوم السماء**». هذا كما ورد فى بعض ألفاظ الحديث، وفى بعضها: «**آنيته كنجوم السماء**»، وهذا اللفظ أشمل؛ لأنه يكون كالنجوم فى العدد وفى الوصف بالنور واللمعان؛ فآنيته كنجوم السماء كثرة وإضاءة.

سادسًا: آثار هذا الحوض: قال: «**مَن يشرب منه شربة؛ لا يظمأ بعدها أبدًا**»: حتى على الصراط وبعده. وهذه من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الذى يشرب من الشريعة فى الدنيا لا يخسر أبدًا كذلك.

سابعًا: مساحة هذا الحوض: يقول: «**طوله شهر وعرضه شهر**»: هذا إذًا يقتضى أن يكون مدورًا أو مُربَّعًا؛ لأنه لا يكون بهذه المساحة من كل جانب؛ إلا إذا كان مدورًا أو مُربَّعًا ، وهذه المسافة باعتبار ما هو معلوم فى عهد النبى ﷺ من سير الإبل.

ثامنًا: يَصُب فى الحوض ميزابان من الكوثر الذى أعطاه الله تعالى محمدًا ﷺ»[(١)].

---

(١) شرح لمعة الاعتقاد (ص ١٢٢)، وشرح العقيدة الواسطية (ص ٣٩٢-٣٩٣) بتصرف.




(٣٨) رجلٌ من أهل الجنة يستأذن ربه فى الزرع

❁ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ كَانَ يَوْمًا يُحَدِّثُ، وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ البَادِيَةِ: «أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِى الزَّرْعِ، فَقَالَ لَهُ: أَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّى أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ، قَالَ: فَبَذَرَ، فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ، فَكَانَ أَمْثَالَ الجِبَالِ، فَيَقُولُ اللهُ: دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، فَإِنَّهُ لاَ يُشْبِعُكَ شَىْءٌ»، فَقَالَ الأَعْرَابِىُّ: وَاللهِ لاَ تَجِدُهُ إِلَّا قُرَشِيًّا، أَوْ أَنْصَارِيًّا، فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ، وَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ، فَضَحِكَ النَّبِىُّ ﷺ[(١)].

❁ يتمنى بعض أهل الجنة فيها أمانى تتحقق على نحوٍ عجيب، لا تشبه حال ما يحدث فى الدنيا،... وقد حدَّثنا الرسول ﷺ عن بعض هذه الأمانى وكيفية تَحقُّقها.

فهذا واحد من أهل الجنة يستأذن ربه فى الزرع، فيأذن له، فما يكاد يُلقى البذر، حتى يضرب بجذوره فى الأرض، ثم ينمو، ويكتمل، وينضج فى نفس الوقت.

❁ **قال الإمام ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا يدل على أن فى الجنة زرعًا وذلك البذر منه وهذا أحسن من أن تكون الأرض معمورة بالشجر والزرع.

فإن قيل: فكيف استأذن هذا الرجل ربه فى الزرع فأخبره أنه فى غنية عنه؟.

قيل: لعله استأذنه فى زرعٍ يباشره ويزرعه بيده وقد كان فى غنية عنه وقد كُفى مؤونته... ولا أعلم ذكر الزرع فى الجنة إلا فى هذا الحديث والله أعلم[(٢)].

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٣٤٨) كتاب المزارعة، و(٧٥١٩) كتاب التوحيد.

(٢) حادى الأرواح (ص: ١٧٢).

۞ وهذا آخر يتمنى الولد، فيحقق الله له أمنيته فى ساعة واحدة، حيث تحمل المرأة وتضع فى ساعة واحدة.

قال ﷺ: **«الْمُؤْمِنُ إِذَا اشْتَهَى الْوَلَدَ فِى الْجَنَّةِ، كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وَسِنُّهُ فِى سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، كَمَا يَشْتَهِى»**[1].

۞ بل هناك ما هو أعجب من ذلك.

ماذا مثلًا لو أردت التحرُّك والانتقال فى الجنة من مكان إلى آخر، فكيف يكون ذلك؟!

لا أحد يعلم ذلك تحديدًا، فلعلَّ ذلك يتم فى لحظة واحدة أو أقل كما فعل الذى عنده علم من الكتاب حين نقل عرش بلقيس قبل أن يرتد طرف نبى الله سليمن عليه السلام إليه، وهذا فى الدنيا التى لا تساوى ذرة بجوار الآخرة، فكيف تكون سرعة الانتقال فى الجنة إذن؟!

۞ أو لعلك تحب أن تُجرب وسيلة أخرى إن كنت من عشاق أحدث أنواع السيارات وتتابع أخبار الطائرات التى هى أسرع من الصوت أو البرق، لذا يُنصح أمثالك بركوب دابة من دواب الجنة التى لا تشترك مع دواب الدنيا إلا فى الاسم لكنها خَلقٌ آخر،... وهو ما حدث مثلًا مع عبد الرحمن بن ساعدة رضي الله عنه حين قال: كنت أحب الخيل، فقلت: يا رسول الله!! هل فى الجنة خيل؟! فقال: **«إِنْ أَدْخَلَكَ اللهُ الْجَنَّةَ يَا عَبد الرَّحْمَن أُتيت بفرسٍ من ياقوتة لَهُ جَنَاحَانِ فحُملت عليه ثم طار بِكَ حَيْثُ شِئْت»**[2].

وفى حديث آخر أن رجلًا آخر سأل رسول الله ﷺ بعدها فقال: يا رسول الله!! هل فى الجنة من إبل؟! فلم يقل له ما قال لصاحبه بل أوصد الباب فى وجه

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٤٩).

(٢) حسن لغيره: رواه الترمذى والطبرانى، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (٣٧٥٥)، والصحيحة (٣٠٠١).

كل مَن أراد أن يسأل بأن فتح له باب الأمنيات قائلًا: «**إِنْ يُدْخِلْكَ اللهُ الجَنَّةَ يَكُنْ لَكَ فِيهَا مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ**»(١).

لكن.. هل يقف الأمر على حدود ما شاءه العبد وتمناه فحسب؟!

بل يتفضل الله عليه بفوق ما تخيله وتمناه، وليس ذلك لأعلى أهل الجنة منزلة، بل لأدناهم منزلة، نعم والله!! ... فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ أَدْنَى مَقْعَدِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ أَنْ يَقُولَ لَهُ: تَمَنَّ فَيَتَمَنَّى، وَيَتَمَنَّى، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَمَنَّيْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَا تَمَنَّيْتَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ**»(٢) (٣).

❀❀❀

---

(١) حسن لغيره: رواه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٣٧٥٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٢) (٣٠١) كتاب الإيمان.

(٣) ليلى بين الجنة والنار (ص: ٥٩-٦١) بتصرف.



(٣٩) الشَّفاعة

❁ عنْ أبى هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً فَقَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِى، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لا يُطِيقُونَ، وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّى غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِى عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِى نَفْسِى، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِى، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّى قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِى دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِى، نَفْسِى نَفْسِى، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّى قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ، نَفْسِى نَفْسِى، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِى، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَاتِهِ، وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّى قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ،

وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ﷺ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونِّي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَأَنْطَلِقُ، فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى»[(١)].

۞ وفي رواية أحمد: عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: فَقَدَ النَّبِيَّ ﷺ لَيْلَةً أَصْحَابُهُ، وَكَانُوا إِذَا نَزَلُوا أَنْزَلُوهُ أَوسَطَهُمْ فَفَزِعُوا، وَظَنُّوا أَنَّ اللهَ تبارك وتعالى اخْتَارَ لَهُ أَصحَابًا غَيْرَهُمْ، فَإِذَا هُمْ بِخَيَالِ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَبَّرُوا حِينَ رَأَوْهُ وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَشْفَقْنَا أَنْ يَكُونَ اللهُ اخْتَارَ لَكَ أَصحَابًا غَيْرَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا بَلْ. أَنْتُمْ أَصْحَابِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ... إِنَّ اللهَ أَيْقَظَنِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ نَبِيًّا وَلَا رَسُولًا إِلَّا وَقَدْ سَأَلَنِي مَسْأَلَةً أَعْطَيْتُهَا إِيَّاهُ، فَسَلْ يَا مُحَمَّدُ تُعْطَ. فَقُلْتُ: مَسْأَلَتِي شَفَاعَةٌ لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الشَّفَاعَةُ؟

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٧١٢) كتاب التفسير - ومسلم (١٩٤) كتاب الإيمان.

قَالَ: «أَقُولُ يَا رَبِّ شَفَاعَتِي الَّتِي اخْتَبَأْتُ عِنْدَكَ، فَيَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: نَعَمْ. فَيُخْرِجُ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَقِيَّةَ أُمَّتِي مِنَ النَّارِ فَيَنْبِذُهُمْ فِي الْجَنَّةِ»[1].

۞ ففى هذا الحديث يحكى أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنهم كانوا جالسين مع النبى ﷺ فى دعوة فقُدمت إلى النبى ﷺ ذراع الشاة وكانت تُعجبه لأن لحمها طيب ومفيد.. فنهس النبى ﷺ منها نهسة صغيرة بأطراف أسنانه.. فقد كان النبى ﷺ لا يأكل بكل أسنانه بل كان يأكل بأطرافها حتى يتعلم الناس جميعًا كيف تكون ذوقيات الطعام.

ثم قال لهم النبى ﷺ: «أنا سَيِّد الناس يومَ القِيَامَةِ» ولا شك فى ذلك أبدًا.. فالنبى ﷺ هو سيد الأولين والآخرين فى الدنيا والآخرة.

ثم قال لهم النبى ﷺ: «هَلْ تَدرُونَ مِمَّ ذَاكَ؟» فساق لهم بيان شرفه وفضله ﷺ على جميع بنى آدم.. فذكر ﷺ أن الناس يُحشرون يوم القيامة فى صعيدٍ واحد من أولهم لآخرهم كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾[2]، يُجمعون فى صعيد واحدٍ... والأرض يومئذ ممدودة ليست كهيئتها اليوم كروية لا ترى - إذا مددتَ بصرك - إلا ما يواجهك من ظهرها فقط... أما يوم القيامة فإن الأرض تُمَدُّ مدَّ الجلد وليس فيها جبال ولا أودية ولا أنهار ولا بحار ... تُمَدُّ مَدًّا واحدًا والعالم فيها يُسمعهم الداعى ويَنفذهم البصر - يعنى لو تكلم الإنسان يسمعه آخر واحد - والبصر ينفذهم؛ فيراهم جميعًا؛ لأنه ليس بها تكوُّر حتى يغيب بعضٌ عن بعضٍ ولكن كلهم فى صعيدٍ واحد... ولذا قال تعالى: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾.

وفى ذلك اليوم تدنو الشمس من الخلائق حتى تكون كمقدار ميل ويفيض

---

(١) رواه أحمد بإسنادٍ حسن.

(٢) سورة الواقعة: الآيتان: (٤٩، ٥٠).

العرق على أجسادهم.. فمنهم مَن يبلغ العرق إلى كعبيه.. ومنهم مَن يبلغ العرق إلى رُكبتيه.. ومنهم مَن يبلغ العرق إلى حِقويه.. ومنهم مَن يُلجمه العرق إلجامًا.. ويُؤتَى بجهنم لها سبعون ألف زمامٍ مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها.. فلا يبقى مَلَكٌ مُقرَّب ولا نبيٌّ مُرسَل إلا جَثى على رُكبتيه وقال: يا رب سلِّم سلِّم.

فيصبح الناس فى غَمٍّ وشدة وكرب لا يعلمه إلا الله.. فتضيق بهم الأرض.. فيقول الناس: ألا تَروْنَ إلى مَا أنْتُم فيه، ألا ترون إلى ما قد بَلَغَكُم؟ ألا تَنْظُرُونَ مَن يشْفَعُ لكُمْ إلى ربِّكُم؟

فيقولُ بعضُ النَّاسِ لبَعضٍ: ائتوا آدَم، فيأتُونَ آدم فيقولون: يَا آدَمُ أنْتَ أبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ الله بيَدِهِ، ونَفَخَ فِيكَ مِن رُوحِهِ، وأمَرَ الملائكةَ فسَجَدُوا لكَ وأسْكَنَكَ الجَنَّةَ، ألا تَشْفَعُ لَنا إلى ربِّكَ؟ ألا تَرى إِلَى ما نَحنُ فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بَلَغَنا؟ فيقول آدم: إنَّ رَبِّى غَضِبَ اليومَ غَضَبًا لَم يغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. وَلَنْ يَغْضَبَ بَعدَهُ مِثْلَهُ، وإنَّهُ نَهَانى عنِ الشَّجَرةِ، فعَصَيْتُه. نَفْسِى نَفسِى نَفسِى. اذهَبُوا إلى غَيْرى، اذْهَبُوا إلى نُوحٍ.

إنه عليه السلام تَذكَّر أنه أكل من تلك الشجرة التى نهاه الله عنها.. ولكن إبليس استطاع أن يُغويه حتى أكل منها هو وزوجه حواء فأُخرجا من الجنة وأُهبطا إلى الأرض لحكمة يريدها الله عز وجل.. فقال آدم عليه السلام هنا: نفسى نفسى.. يعنى: عسى أن أستطيع أن أُنقذ نفسى.. اذهبوا إلى غيرى.. اذهبوا إلى نوح.. ونوح عليه السلام هو الأب الثانى للبشرية.. وهو أول رسول أرسله الله عز وجل إلى أهل الأرض..

فيأتُون نُوحًا عليه السلام فيقُولُون: يا نُوحُ، أنْتَ أوَّلُ الرُّسُل إلى أهْلِ الأرضِ، وقَد سمَّاكَ الله عَبْدًا شَكُورًا، اشفع لنا إلى ربك .. ألا تَرَى إلى مَا نَحنُ فيه، ألا ترى إلى ما قد بلغَنَا، فيقُولُ: إنَّ ربِّى غَضِبَ اليوْمَ غَضَبًا لمْ يغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، ولَنْ

يَغْضَبَ بَعدَهُ مِثْلَهُ، وأَنَّهُ قد كانَتْ لى دَعوةٌ دَعَوْتُ بِها على قَوْمِى، نَفْسِى نَفْسِى نَفْسِى. اذهَبُوا إلى غَيْرى، اذْهَبُوا إلى إبْراهِيمَ.

لقد تذكر دعوته التى تعجَّلها ودعا بها على قومه وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[1]، وفى رواية أنه يذكر دعوته التى دعا بها لابنه ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2]... يذكر ذنبه، والشافع لا يشفع إلا إذا كان ليس بينه وبين المشفوع عنده ما يوجب الوحشة والمعصية بين العبد وربه... فيذكر معصيته ويقول: نفسى نفسى نفسى ويُحيلهم إلى إبراهيم ﷺ.

فيأتُونَ إبْراهِيمَ، فيقُولُون: يا إبْراهيمُ أنْتَ نَبِىُّ الله وخَلِيلُهُ مِن أهْلِ الأرضِ، اشْفَع لَنَا إلى ربِّكَ؟ ألا تَرى إلى ما نَحنُ فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟

فيقولُ لهم: إنَّ رَبِّى قد غَضِبَ اليومَ غَضَبًا لَم يغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. ولنْ يَغْضَبَ بَعدَهُ مِثْلَهُ، وإنِّى كُنْتُ كَذَبْتُ ثلاثَ كَذِبَاتٍ. نَفْسِى نَفْسِى نَفْسِى. اذهَبُوا إلى غَيْرى، اذْهَبُوا إلى موسَى.

والكذبات هى قوله: (إنى سقيم) وهو ليس بسقيم، لكنه قال ذلك مُتحديًا لقومه الذين يعبدون الكواكب وحتى لا يخرج معهم فى احتفالهم بأحد أعياد أصنامهم.

والثانية قوله للملك الكافر: (هذه أختى) يعنى زوجته وأخته فى الإسلام ليَسلم من شره وهى ليست كذلك.

---

(١) سورة نوح: الآية: (٢٦).

(٢) سورة هود: الآيتان: (٤٥، ٤٦).

والثالثة قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[1]، أى الأصنام ؛ لأن إبراهيم ﷺ ذهب إلى أصنامهم فهشَّمها، فلما رجعوا وجدوها مُهشَّمة قالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾[2]، فقالوا: فعله فتى يُقال له إبراهيم وجرى بينهم وبين إبراهيم عليه السلام ما جرى، فقال لهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾[3]، وهو ما فعل، وإنما الذى فعله هو إبراهيم ﷺ لكن ذكر ذلك على سبيل التحدى لهؤلاء الذين يعبدون الأوثان.

هذه كذبات فى ظاهر الأمر لكنها فى الحقيقة وبمناسبة تأويله ﷺ لم تكن كذبات، لكنه لشدة ورعه وحيائه من الله (تبارك وتعالى) اعتذر لهذا الإثم وقال: نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى...

فيأْتُونَ مُوسَى، فيقُولُون: يا مُوسَى أنْتَ رسُولُ الله، فضَّلَكَ الله بِرِسالاته وبِتكليمِه على النَّاس، اشْفَع لَنَا إلى ربِّكَ؟ ألا تَرى إلى ما نَحنُ فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقولُ: إنَّ رَبِّى قد غَضِبَ اليومَ غَضبًا لَم يغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. ولنْ يَغْضَبَ بَعدَهُ مِثْلَهُ، وإنِّى قَد قتَلْتُ نَفسًا لَمْ أُومَر بِقَتْلِهَا. نَفْسِى نَفسِى نَفْسِى. اذهَبُوا إلى غَيْرى، اذْهَبُوا إلى عِيسَى.

لقد ذكر لهم موسى عليه السلام ذنبه.. وهو أنه قتل الرجل القبطى الذى كان فى خصامٍ مع رجل من بنى إسرائيل.. أى: من قوم موسى عليه السلام.. وكان القبطى من قوم فرعون ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾[4]. دون أن يُؤمَر بقتله، فرأى ﷺ أن هذا مما يَحول بينه وبين الشفاعة

---

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٣٦).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٥٩).

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٦٣).

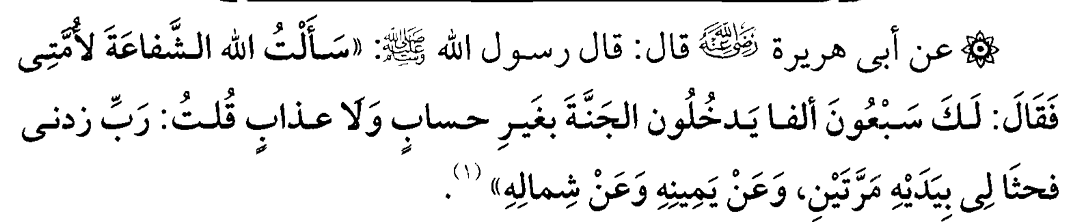
(٤) سورة القصص: الآية: (١٥).

للخلق حيث قتل نفسًا لم يُؤمر بقتلها، وقال: نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى.

فيذهبون إلى عيسى عليه السلام ويذكرون فضل الله عليه ومِنَّته بأنه خلقه بلا أب ونفخ فيه من روحه وأنه كلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه.. فلم يذكر عيسى ذنبًا واحدًا ولكنه أحالهم إلى النبى محمد ﷺ... وهذا شرفٌ عظيم للنبى ﷺ فقد اعتذر هؤلاء الأنبياء والرسل جميعًا ورأوا أن محمدًا ﷺ هو أولَى الرسل بهذه الشفاعة وبذلك المقام العظيم... فإذا جاءوا إلى النبى ﷺ فإنه يقوم فى التو واللحظة ليشفع للناس جميعًا لبدء الحساب.. وهذا هو المقام المحمود.. لأن أهل المحشر يحمدونه جميعًا.

فيذهب النبى ﷺ وينطلق إلى تحت عرش الرحمن (جل وعلا) فيَخِرُّ ساجدًا لله عز وجل فيفتح الله عليه من المحامد والثناء على الله ما لم يفتحه على أحدٍ غيره ثم يُقال له: **«يَا مُحَمَّدُ ارفَع رأسكَ، واشْفَع تُشَفَّع»** فيشفع النبى ﷺ ويقول: يارب أُمتى أُمتى.. فيتقبل الله شفاعة النبى ﷺ ويُقال له: يا محمد أدخِل مِن أُمَّتِكَ مَن لا حِسَابَ عَلَيهِم مِن البابِ الأيْمَنِ مِن أبوابِ الجَنَّةِ وهُم شُركاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَىَ ذلِكَ مِن الأبواب» ثم قال: **«والذى نَفْسِى بِيدِهِ إنَّ مَا بَيْنَ المصراعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ كَما بَيْنَ مَكَّةَ وهَجَر، أوْ كما بَيْنَ مَكَّةَ وبُصرَى»**.

وهكذا يعلم أهل المحشر جميعًا – مؤمنهم وكافرهم- أن النبى ﷺ هو سيد الأولين والآخرين.. ويحمدونه جميعًا على تلك الشفاعة لبدء الحساب.. وهذا هو المقام المحمود الذى وعده الله إياه فقال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾



(٤٠) إلى الجنة بغير حساب ولا عذاب

۞ عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سَأَلْتُ الله الشَّفاعَةَ لأُمَّتِى فَقَالَ: لَكَ سَبْعُونَ ألفا يَدخُلُون الجَنَّةَ بغَيرِ حسابٍ وَلا عذابٍ قُلتُ: رَبِّ زدنى فحثَا لِى بِيَدَيْهِ مَرَّتَيْنِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمالِهِ»(١).

۞ وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَىَّ الأُمَمُ بِالْمَوْسِمِ، فَرَأَيْتُ أُمَّتِى، فَأَعْجَبَتْنِى كَثْرَتُهُمْ وَهَيْئَتُهُمْ، قَدْ مَلَؤُوا السَّهْلَ وَالْجَبَلَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرَضِيتَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ أَىْ رَبِّ، قَالَ: وَمَعَ هَؤُلاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ...الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ، وَلا يَكْتَوُونَ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، فَقَالَ عُكَّاشَةُ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِى مِنْهُمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَالَ رَجُلٌ آخَرُ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِى مِنْهُمْ، قَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»(٢).

۞ وها هى رواية الصحيحين:

عَن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَىَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبىَّ ومَعَهُ الرُّهَيطُ، والنبىَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ، والنبىَّ وَلَيْس مَعَهُ أَحَدٌ، إذْ رُفِعَ لى سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِى، فقيلَ لِى: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، ولكنِ انْظُر إِلَى الأُفُقِ، فَنَظَرتُ فَإِذا سَوادٌ عَظِيمٌ، فقيلَ لى: انْظُر إِلَى الأُفُقِ الآخَرِ، فَإِذَا سَوادٌ عَظيمٌ، فقيلَ لِى: هذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ ألفًا يَدخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ»، ثُمَّ نَهَضَ فَدخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فى أُولئكَ الَّذِينَ يَدخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذينَ صَحِبوا رسولَ الله ﷺ.. وَقَالَ بعضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ وُلِدُوا فى الإِسْلامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بالله شَيئًا - وذَكَرُوا أشيَاءَ

---

(١) صحيح: رواه هناد، والبغوى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٩٠).

(٢) صحيح: رواه ابن حبان بإسنادٍ صحيح، وصححه الألبانى فى التعليقات الحسان (٦٠٥٢)، وأصله فى الصحيحين.

- فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رسولُ الله ﷺ فَقَالَ: «مَا الَّذِى تَخُوضُونَ فِيهِ؟» فَأَخْبَرُوهُ، فقالَ: «هُمُ الَّذِينَ لاَ يَرقُونَ، وَلا يَسْتَرقُونَ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ؛ وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوكَّلُون» فقامَ عُكَّاشَةُ بنُ محصنٍ، فَقَالَ: ادعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلنى مِنهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخرُ، فقَالَ: ادعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلنِى مِنهُمْ، فقَالَ: «سَبقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»(١).

۞ قوله ﷺ: «عُرِضَت علىَّ الأُمَمُ» أى أن النبى ﷺ رأى الأمم وأنبياءهم.. وقد ورد فى رواية أخرى أن ذلك العرض كان فى ليلة الإسراء والمعراج.

۞ «فَرَأيْتُ النَّبِىَّ وَمعَه الرُّهْيطُ» أى أن النبى ﷺ رأى نبيًّا ومعه عددٌ قليل من الناس الذين آمنوا معه.. وعددهم ما بين الثلاثة إلى العشرة.

ونحن نعلم أن نوحًا عليه السلام الذى ظلَّ يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا.. وكان يدعوهم ليلًا ونهارًا.. سرًّا وجهرًا.. ومع ذلك لم يؤمن معه إلا عددٌ قليلٌ جدًّا.. فقد قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(٢).

۞ «والنَّبِىَّ ومَعُه الرَّجُل وَالرَّجُلانِ، وَالنَّبِىَّ ليْس مَعهُ أحدٌ» وهذا يوضح لنا مدى المعاناة التى كان يُعانيها كل نبىٍّ فى دعوته لأُمته... فتخيل معى أن نبيًّا كريمًا من صفوة خلق الله يبعثه الله لأمة يُقدَّر عددها بالآلاف فلا يؤمن معه إلا رجلٌ أو رجلان.. بل منهم مَن لم يؤمن معه أحد!!!.. فهذا درس للدعاة حتى يصبروا على دعوتهم إن لم يستجب لهم أحدٌ.. فنحن لسنا أفضل من أنبياء الله ورسله الكرام (عليهم الصلاة والسلام).

۞ قوله: «إذ رُفِعَ لِى سوادٌ عظيمٌ» أى: عددٌ كبير من الناس «فظننتُ أَنَّهُمْ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٠٥) كتاب الطب - ومسلم (٢٢٠) (٣٧٤) كتاب الإيمان.
«الرُّهَيْطُ»: تصغير رَهْط، وهُم دُونَ عشرةِ أَنْفُس - «والأفُق»: النَّاحِيةُ والْجانِب.
«وعُكاشَة» بِضَمِّ الْعيْن وتَشْديد الْكافِ وَبِتَخْفيفها، والتَّشْديدُ أفْصحُ.

(٢) سورة هود: الآية: (٤٠).

أُمَّتِى، فَقِيلَ لى: هذا موسىَ وقومه».. وذلك لأن موسى عليه السلام كان من أكثر الأنبياء أَتباعًا بعد رسول الله ﷺ.

۞ ثم قيل للنبى ﷺ: **«ولكن انظر إلى الأفق، فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيمٌ فقيل لى: انظر إلى الأُفق الآخر فإذا سوادٌ عظيمٌ فقيل لى: هَـذه أُمَّتُكَ»** وذلك لأن النبى ﷺ هو أكثر الأنبياء أَتباعًا على الإطلاق.. وذلك لأنه خاتم الأنبياء.. فكل مَن آمن به إلى يوم القيامة يكون من أمته ويكون فى ميزان حسناته.. ومن أجل ذلك كانت أمته ﷺ تُمثل ثُلثى أهل الجنة.. والثلث الباقى يُوزَّع على (٦٩) أمة وذلك لأن الأمم يوم القيامة تكون سبعين أمة... كما أخبر النبى ﷺ.

قال ﷺ: **«إِنَّكُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُم خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ»**[1].

وقال ﷺ: **«أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ»**[2].

۞ قوله: **«فقيل لى: هَـذه أُمَّتُكَ، ومعهُمْ سبْعُونَ أَلْفًا يَدخُلون الْجنَّةَ بِغَيْرِ حسابٍ وَلا عذابٍ»**.

سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.. وكل هذا بفضل الله ورحمته.. فرحمته وسعت كل شىء.

فلما علم النبى ﷺ بتلك المنحة العظيمة طلب المزيد لأمته ﷺ لأنه يحب الخير لأمته.. فلما طلب المزيد لأمته أعطاه الله ما لا يخطر على قلب بشر.

قال ﷺ: **«لَيَدخُلَنَّ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِى سَبْعُونَ أَلْفًا أَوْ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ مُتَماسِكُونَ آخِذٌ بَعضُهُمْ بِيَدِ بَعضٍ لا يَدخُلُ أَوَّلُهُمْ حَتَّى يَدخُلَ آخِرُهُمْ.. وُجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدرِ»**[3].

---

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٣٠١).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٢٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٤٣) كتاب الرقاق - ومسلم (٢١٩) كتاب الإيمان.

وقال ﷺ: «وَعَدَنِى رَبِّى أَنْ يُدخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِى سَبْعِينَ أَلْفًا بِلاَ حِسَابٍ عَلَيْهِمْ وَلاَ عَذَابٍ مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا وَثلاَثَ حَثَيَاتٍ من حثيات ربى»[1].

وقال ﷺ: «أُعطِيتُ سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ أمَّتِى يَدخلونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسابٍ وُجُوهُهُمْ كالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدرِ قُلُوبُهُمْ على قلب رجلٍ واحد فاستزدت ربى عَزَّوَجَلَّ فَزادَنِى مَعَ كلِّ واحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا»[2].

فيا لها من فرحة لمن يدخل الجنة بغير حساب... وذلك لأن المؤمن يعلم أنه لو جاءه مَن يُبشره بالجنة، ولكن بعد أن يُحاسبه الله ثم يُدخله الجنة لكان ذلك عذابًا شديدًا... لأن النبى ﷺ قال: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ»[3].

وفى رواية: «مَنْ نُوقِشَ الْمُحَاسَبَةَ هَلَكَ»[4].

فمجرد مناقشة الحساب عذابٌ شديد... فحسبُك أيها المؤمن أن يُعدِّد الله عليك ذنوبك وأوزارك.

فكيف بمن يحاسبه الله وهو لا يدرى هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار؟! وبذلك تستطيع أن تستشعر مدى فرحة هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب «فاللهم اجعلنا منهم».

۞ «ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِى أُولَئِكَ...قَالَ بَعْضُهُمْ: لعلهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ الله ﷺ، وقَالَ آخَرُونَ: لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِى الإِسْلامِ، فَلَمْ يُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا - وذَكَرُوا أَشْيَاءَ»...وكُلٌّ أتى بما يظن أنه الصواب.

فخرج عليهم النبى ﷺ فسألهم عما يخوضون فيه فأخبروه فقال ﷺ: «هُمُ

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذى وابن حبان وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧١١١).

(٢) صحيح: رواه أحمد عن أبى بكر وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٥٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٠٣) كتاب العلم، ومسلم (٢٨٧٦) كتاب الجنة.

(٤) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥٧٩).

الَّذِينَ لاَ يَرقُونَ، ولا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَكْتَوون، ولا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِـمْ يَتَوكَّلُونَ» هذا لفظ مسلم، وفيه: «**لا يرقون**».

قال الشيخ الألباني: قلت: قوله: «**لا يرقون**»، هو مما تفرَّد به مسلم دون البخاري وغيره، ثم هو شاذٌّ سَندًا ومَتنًا، كما بيَّنته في محلٍّ آخر!....وحسبُك دليلًا على شذوذه أن النبي ﷺقد رقى غيره أكثر من مرة!.. بل ورقاه جبريل عليه السلام.

۞ وهنا يخبر النبي ﷺأن الصحابة من شدة حرصهم على الخير أخذوا يتكلمون عن هؤلاء السبعين ألفًا عسى أن يعرفوا سبب دخولهم الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب فيفعلوا مثلهم.

فخرج عليهم النبي ﷺوسألهم عما يخوضون فيه فلما أخبروه قال لهم: «**هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ**» أي: لا يطلبون من أحدٍ أن يرقيهم.. وطلب الرقية ليس حرامًا ولكن إن سألت أحدًا أن يرقيك فقد حُرمت من أن تكون مع هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب.

ومن أجل ذلك أُوصي إخواني بأن يرقي كل واحدٍ منهم أخاه دون أن يطلب منه حتى لا يُحرَم من هذا الفضل العظيم.. وكذلك أُوصي أخواتي بأن ترقي كل واحدةٍ أختها دون أن تطلب منها حتى لا تُحرَم من هذا الفضل العظيم.

۞قوله: «**ولا يَكْتَوون**» أي: لا يطلبون من أحدٍ أن يكويهم إذا مرضوا؛ لأن النبي ﷺنهى عن الكي.

روى البخاري أن النبي ﷺقال: «**الشِّفَاءُ فِي ثَلاَثَةٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيَّةِ نَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنْ الْكَيِّ**»[1].

۞ قوله:«**ولا يَتَطَيَّرُونَ**» أي: لا يتشاءمون.

فمن الناس مَن يتشاءم عند حدوث أمرٍ ما أو عند رؤية شخصٍ ما..

---

(١) صحيح:رواه البخاري (٥٦٨٠) كتاب الطب.

والتشاؤم والتطير هو اعتقاد وقوع السوء أو حدوث المكروه عند حالٍ مُعين يحدث لمن يتطير... وهذا من الشرك؛ لأن فيه معنى علم الغيب بهذه المجريات... وعلم الغيب لا يكون إلا لله وقد صَحَّ الحديث فى وصف هذا الأمر بأنه شرك... فقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود: «**الطيرة شرك**»[(١)].

وقال ﷺ: «**لا طِيَرَةَ وَخَيْرُهَا الْفَأْلُ، قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ قَالَ: الْكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ**»[(٢)]. وهذا الباب بابٌ عظيم الفساد فى الاعتقاد والأقوال والأعمال.

وقد كان العرب فى الجاهلية يتطيرون.. فإذا طار الطائر نحو اليسار تشاءموا وإذا طار نحو اليمين تفاءلوا ومضوا إلى الأمر الذى عزموا عليه.

۞ «**وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**» أى: لا يعتمدون ولا يتوكلون إلا على الله عَزَّوَجَلَّ.

والتوكل هو صدق اعتماد القلب على الله فى استجلاب المنافع ودفع المضار فى أُمور الدنيا والآخرة.

۞ «فقام عُكَّاشةُ بنُ محصن فَقَالَ: ادعُ الله أنْ يجْعَلَنى منْهُمْ» فلقد كان عكاشة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صاحب همة عالية.. فبمجرد أن سمع تلك البُشرى من النبى ﷺ لم يصبر بل قام وطلب من النبى ﷺ أن يدعو الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعله منهم.. فنزل جبريل فى تلك اللحظة ليُخبر النبى ﷺ أن عُكاشة من هؤلاء السبعين ألفًا... فقال النبى ﷺ لعكاشة: «**أَنْتَ منهم**».. ويا لها من منقبة عظيمة.. فعكاشة هو الرجل الوحيد الذى نعلم يقينًا أنه سيدخل الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب.

فقام رجل آخر، فقال: ادعُ الله أن يجعلنى منهم.

قال: «**سَبَقَك بها عكاشة**» فَرَدَّه النبى عليه الصلاة والسلام، لكنه ردٌّ لطيف.

لم يقل: لست منهم، بل قال: «**سبقك بها عكاشة**»، واختلف العلماء لماذا

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى رَحِمَهُ اللهُ فى صحيح الجامع (٣٩٦٠)، والسلسلة الصحيحة (٤٣٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٥٤) كتاب الطب - ومسلم (٢٢٢٣) كتاب السلام.

قال له: سبقك بها عكاشة؟ فقيل: لأنَّه كان يعلم بأن هذا الذى قال: ادعُ الله أن يجعلنى منهم... قد علم الرسول ﷺ بأنه منافق ... والمنافق لا يدخل الْجنة فضلًا عن كونه بغير حساب ولا عذاب.

وقال بعض العلماء: بل قال ذلك من أجل ألا ينفتح الباب فيقوم مَن لا يستحق فيطلب أن يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

وعلى كل حال، فنحن لا نعلم علمًا يقينيًّا بأن الرسول ﷺ لم يدعُ الله له إلا لسببٍ معيَّن... فالله أعلم.

لكننا نستفيد من هذا فائدة وهو الرَّدُّ الجميل من رسول الله ﷺ لأن قوله: «**سبقك بها عكاشة**» لا يجرحه ولا يُحزنه.

وسبحان الله... صارت هذه مثلًا إلى يومنا هذا... كلما طلب الإنسان شيئًا قد سُبق به قيل: سبقك بها عكاشة.

۞ أورد بعض العلماء إشكالًا على هذا الحديث وقال: إذا اضطر الإنسان إلى القراءة، أى: أن يطلب من أحدٍ أن يقرأ عليه مثل أن يُصاب بعين أو بسحر أو أُصيب بجنٍّ هل إذا ذهب يطلب مَن يقرأ عليه يخرج من استحقاق دخول الْجنة بغير حساب ولا عذاب؟

فقال بعض العلماء: نعم هذا ظاهر الحديث وليعتمد على الله وليتصبر ويسأل الله العافية.

وقال بعض العلماء: بل إن هذا فيمن استرقى قبل أن يصاب أى بأن قال: اقرأ علىَّ أن لا تصيبنى العين أو أن لا يصيبنى السِّحر أو الجن أو الحُمى فيكون هذا من باب طلب الرقية لأمرٍ مُتوقَّع لا واقع ... وكذلك الكى.

فإذا قال إنسان: الذين يكوون غيرهم هل يُحرَمون من هذا؟

لا، لأنَّ الرسول ﷺ يقول: «**ولا يكتوون**» أى: لا يطلبون مَن يكويهم، لم يَقُل:

ولا يكوون....وهو عليه الصَّلاة والسَّلام قد كوى أكحل سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سعد بن معاذ الأوسى الأنصارى أُصيب يوم الخندق فى أكحله فانفجر الدَّم، والأكحل إذا انفجر دمه قضى على الإنسان.

فكواه ﷺ فى العرق حتى وقف الدَّم.... والنبى ﷺ هو أول مَن يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

فالذين يكوون مُحسنون والذين يقرءُون على الناس محسنون ولكن الكلام على مَن يستَرْقون أى: يطلبون مَن يقرأ عليهم أو يكتوون أى: مَن يطلبون مَن يكويهم[1].

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٨٩-٢٩٠) للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.




(٤١) غمسة فى الجنة.. وغمسة فى النار

۞ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ كَانَ بَلَاءً فِى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: اصْبُغُوهُ صَبْغَةً فِى الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ فِيهَا صَبْغَةً، فَيَقُولُ اللهُ عز وجل لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ، أَوْ شَيْئًا تَكْرَهُهُ؟ فَيَقُولُ: لا وَعِزَّتِكَ، مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَكْرَهُهُ قَطُّ... ثُمَّ يُؤْتَى بِأَنْعَمِ النَّاسِ كَانَ فِى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيَقُولُ: اصْبُغُوهُ فِيهَا صَبْغَةً، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ، أَوْ قُرَّةَ عَيْنٍ قَطُّ؟. فَيَقُولُ: لا وَعِزَّتِكَ، مَا رَأَيْتُ خَيْرًا قَطُّ، وَلا قُرَّةَ عَيْنٍ قَطُّ».

هذه رواية الإمام أحمد.. وإليكم رواية الإمام مسلم.

۞ عَنْ أَنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِن أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصبَغُ فى النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ: يا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خيرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيقول: لا والله يارَبِّ.

ويُؤْتى بأَشَدِّ النَّاس بُؤْسًا فى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الجَنَّة فَيُصبَغُ صَبْغَةً فى الجَنَّة، فَيُقَالُ لَهُ: يابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقولُ: لا، وَالله، مَا مَرَّ بِى بُؤْسٌ قَطُّ، وَلا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»[١].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن الخير كل الخير فى طاعة الله ولو كان صاحبها فقيرًا مُعدَمًا.. وأن الشر كل الشر فى معصية الله ولو كان صاحبها غنيًّا مُنعَّمًا.

فيوم القيامة يُؤتَى بأنعم أهل الدنيا... ولا شك أن هذا الرجل أنعم من قارون وذلك لأن قارون لما قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ قال الله عز وجل: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعًاۚ وَلَا

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٠٧) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [١].

فقد كان هناك مَن هو أغنى وأكثر جمعًا من قارون الذى لم يصف الله عَزَّوَجَلَّ خزائنه بل وصف مفاتيح خزائنه فقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [٢].

لكنه لما كفر بالله عَزَّوَجَلَّ كانت النتيجة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [٣].

فالشاهد أنه يُؤتَى يوم القيامة بأنعم إنسان.. ولا يُشترط أن يكون أنعم إنسان هو أغنى إنسان.. بل قد يكون هناك إنسان غنى ولكنه بخيل.. وقد يكون هناك إنسان أقل منه مالًا وثروة ولكنه يحرص كل الحرص على أن يتمتع بذلك المال..

المهم أنه يُؤتَى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من أهل النار..لكنه بكل أسف لم يشكر الله على تلك النعم ولم يعبد الله بل كان بعيدًا عن طاعة الله لأنه استعمل هذا المال فى كل ما يُغضب الله.. فيأمر الله الملائكة فتغمسه غمسة سريعة فى نار جهنم ثم يسأله الله عَزَّوَجَلَّ ويقول له: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مَرَّ بك نعيمٌ قط؟

ولكن تلك الغمسة جعلته ينسى كل نعيم... وهو مَن هو؟ هو أنعم أهل الدنيا.. فيقول: لا والله يا رب ما رأيت نعيمًا قط.. سبحان الله!!.. أين المال وأين الدنيا وأين المُتع؟!.. ذهب كل ذلك ولم يبقَ إلا أثر تلك الغمسة.

۞وفى المقابل فإنه يُؤتَى بأشد الناس بُؤسًا فى الدنيا من أهل الجنة.. فهو

---

(١) سورة القصص: الآية: (٧٨).

(٢) سورة القصص: الآية: (٧٦).

(٣) سورة القصص: الآية: (٨١).

رجل حُرم من كل متاع الدنيا الزائل وعانى من كل بلاء ومع ذلك كان راضيًا عن الله عابدًا لله صابرًا على قضاء الله.. فيأمر الله الملائكة فتغمسه غمسة سريعة فى الجنة.. ثم يسأله الله عَزَّوَجَلَّ ويقول له: يا ابن آدم هل رأيت بُؤسًا قط؟ هل مَرَّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مَرَّ بى بُؤسٌ قط ولا رأيت شدة قط..

الله أكبر.. لقد نسى كل شقاءٍ وبلاءٍ مع أول غمسة فى الجنة.. فما ظنك به وقد عاش فى الجنة خالدًا مُخلدًا فيها أبدًا.

ألا فليهنأ الفقراء والمحرومون وأهل البلاء الذين صبروا على قضاء الله وعاشوا على طاعة الله.

۞ أيها المهموم بسبب الفقر وقلة ذات اليد.. لا تحزن..

وانظر ماذا فاتك من الدنيا..

ألست تأكل كما يأكل الأغنياء؟!

وتشرب كما يشرب الأغنياء؟!

أما يستحيل طعامك وطعامهم وشرابك وشرابهم إلى ما قد علمت؟

فأى مزيَّة - إذن - لطعامهم على طعامك، أو لشرابهم على شرابك.. فلماذا تحزن؟

ألست تنام كما ينامون، وتستيقظ كما يستيقظون...فأى فرقٍ بين أن تنام على حصيرٍ وينام الأغنياء على فُرُش وثيرة؟! وقد تكون الحصير أنفع وأصح من الفراش الناعم الوثير. فلماذا تحزن؟.

إذا مرضت أخذت قرصًا بفلسٍ فشفاك الله بسبب فقرك وحاجتك وانكسارك بين يديه..

ويدفع الأغنياء الآلاف ومئات الآلاف ويستمر بهم المرض، ولا تنقطع عنهم العلل..

فلماذا تحزن؟

تأكل ما شئت من الطعام، وتشرب ما شئت من الشراب، ويتحمل جسمك أقسى الأطعمة والأشربة، بينما كثير من الأغنياء لا يأكل إلا ما تعافه نفسك أن تأكله؛ لأن أجسامهم لا تقوى إلا على ذلك، فلماذا تحزن..؟!!(١).

۞ ويوم القيامة تتبدل الأحوال.. سينسى المؤمن الفقير كل ما كان يُعانيه من البؤس والشدة والجوع والحرمان والابتلاءات مع أول غمسة فى جنة الرحمن (جلَّ وعلا).

۞ وفى المقابل سينسى الغنى - إن لم يكن طائعًا لله - كل ما كان فيه من الثراء والغِنى والقصور والسيارات والخدم والشهوات مع أول غمسة فى نار جهنم.... فلماذا تحزن؟!... أما إن كان الغنى طائعًا لله عَزَّوَجَلَّ.. فنِعم المال الصالح للرجل الصالح.

❊ ❊ ❊

---

(١) لا تحزن وكن مطمئنًا (ص: ١٩، ٢٠).



(٤٢) الشهداء أحياءٌ عند ربهم يُرزقون

۞ عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللهِ بن مسعودٍ رضي الله عنه عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾[١] قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً»، فَقَالَ: «هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا... فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا»[٢].

۞ وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ، وَمَشْرَبِهِمْ، وَمَقِيلِهِمْ، قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا، أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكلوا[٣] عِنْدَ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ»، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾[٤][٥].

ففى هذا الحديث يخبر مسروق (التابعى الجليل) أنهم سألوا ابن مسعود

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٨٧) كتاب الإمارة.

(٣) نكل: أى: جَبُن، ونكله عن الشىء، أى: صرفه عنه.

(٤) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

(٥) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢٠٥).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن تلكم الآيات وهى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[(١)].

۞ هذه الآيات الكريمة فيها فضيلة الشهداء وكرامتهم، وما منَّ الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفى ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم، وتنشيطهم للقتال فى سبيل الله والتعرُّض للشهادة، فقال: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى: فى جهاد أعداء الدين، قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله ﴿أَمْوَاتًا ﴾ أى: لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا وفُقدوا، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا والتمتُّع بزهرتها، الذى يحذر من فواته، مَن جَبُن عن القتال، وزهد فى الشهادة. ﴿بَلْ ﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون. فهم ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فى دار كرامته. ولفظ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يقتضى علو درجتهم، وقربهم من ربهم، ﴿يُرْزَقُونَ ﴾ من أنواع النعيم الذى لا يعلم وصفه، إلا مَن أنعم به عليهم.

۞ ومع هذا ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ أى: مغتبطين بذلك، قد قرَّت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحُسنه وكثرته، وعظمته، وكمال اللذة فى الوصول إليه، وعدم المنغص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله: فتمَّ لهم النعيم والسرور، وجعلوا ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أى: يبشر بعضهم بعضًا، بوصول إخوانهم الذين لم يَلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا، ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أى: يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم

(١) سورة آل عمران: الآيات: (١٦٩-١٧١).

المستلزم كمال السرور.

۞ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أى: يهنىء بعضهم بعضًا، بأعظم مهنأ به، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بل يُنميه ويشكره، ويزيده من فضله، ما لا يصل إليه سعيهم.

وفى هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء فى أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقى أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضًا، وتبشير بعضهم بعضًا[1].

۞ فلما سألوا ابن مسعود عن تلكم الآيات أخبرهم بأن الصحابة رضي الله عنهم سألوا النبى ﷺ عنها فأخبرهم أنه لما أُصيب إخوانهم فى غزوة أُحد - أى استُشهدوا- جعل الله أرواحهم فى جوف طيرٍ خُضرٍ... وأرواح الشهداء تُنعَّم منفردة وتُنعَّم أيضًا متصلة بالأجساد، وكذلك أيضًا مَن يكون مُنعَّمًا أو مُعذَّبًا فى القبر فإن العذاب يكون للروح والجسد والنعيم يكون للروح والجسد، وليس العذاب أو النعيم للروح وحدها، وإنما يكون لمجموع الأمرين والله على كل شىء قدير...فتكون الأرواح فى الجنة ولها اتصال بالأجساد، وتُنعَّم متصلة ومنفصلة، وذلك لأن الإحسان حصل من مجموع الأرواح والأجساد، والإساءة حصلت من مجموع الأرواح والأجساد، وقد جاء فى الحديث: (المسلم يُفتح له باب إلى الجنة، فيأتيه من روحها ونعيمها، والفاجر يُفتح له باب إلى النار، فيأتيه من حرها وسَمومها، ولا يزال كُلٌّ منهما فيما هو فيه إلى أن تقوم الساعة)[2].

وقد جاء فى الحديث أن نسمة المؤمن على صورة طير فى الجنة، وأرواح الشهداء فى أجواف طيرٍ خُضرٍ.... وحديث: (نسمة المؤمن على صورة طير)

---

(١) تفسير السعدى (ص ١٥٥).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن خزيمة، والحاكم، والبيهقى، والضياء، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٧٦) بلفظٍ قريبٍ منه.

رواه الإمام أحمد عن الإمام الشافعي، والإمام الشافعي رواه عن الإمام مالك، فهو مسلسل بثلاثة من الأئمة أصحاب المذاهب الأربعة المشهورة، وهو في المسند، فقد ذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1].

وذكر أن هذا إسناد عزيز مسلسل بثلاثة من الأئمة أصحاب المذاهب المشهورة.

فالشَّاهد أن النبي ﷺ ذكر أنهم في جوف طيرٍ خُضر.. وحتى لا يظن أحد أنهم قد حُرموا من نعيم الجنة بوجودهم في أجواف تلك الطيور فذكر أن تلك الطيور تَرِدُ أنهار الجنة وتأكل من ثمارها.. فطعام أهل الجنة وشراب أهل الجنة يصل إليهم بدون سعيٍ أو عناء... ثم تأوى تلك الطيور بعد الطعام والشراب إلى قناديل مُعلَّقة في ظل عرش الرحمن (جلَّ وعلا).

۞ قوله: (فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم).

أي: فلما استمتعوا بطعام الجنة، وشراب الجنة، والراحة في الجنة.

والمقيل هو الاستراحة في وسط النهار.... قال تعالى: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾[2]... قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا، أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكُلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ؟

۞ قوله: (ولا ينكلوا عند الحرب).

أي: حتى لا يهتمون للقاء الأعداء خشية الموت[3].... فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

(٢) سورة الفرقان: الآية: (٢٤).

(٣) شرح سنن أبي داود للعباد.

۞ وقوله: «**أرواحهم فى جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح فى الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل**»: فى هذا - أولًا - إثبات أن الجنة مخلوقة موجودة، وهو مذهب أهل السُّنة، وأنها التى أُهبط منها آدم، وهى التى يُنعَّم فيها المؤمنون فى الآخرة...خِلافًا للمعتزلة وطوائف من المبتدعة بأنها لم تُوجد بعد، وأن الجنة التى كان فيها آدم غيرها... والآثار وظاهر القرآن يدل على مذهب أهل السُّنة.

وفيه دليل على مُجازاة الأموات بالثواب والعقاب قبل القيامة... وقد ترى من هذا فى عذاب القبر...وفيه أن الأرواح باقية لا تفنى، فيُنعَّم المحسن ويُعذَّب المسىء كما جاء فى القرآن والآثار، وهو مذهب أهل السُّنة، خلافًا لغيرهم من أهل البدع القائلين بفنائها.



(٤٣) طوبى لك منزل الملوك

❁ عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الخدرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «خلق اللهُ تبارك وتعالى الْجَنَّةِ لَبِنَةً مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبِنَةً مِنْ فِضَّةٍ، ومِلَاطها المسك، وَقَالَ لَهَا: تَكَلَّمِى، فَقَالَتْ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، فَقَالَت الملائكة: طُوبَى لَكِ مَنْزِلَ الْمُلُوكِ»[1].

❁ نحن نعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ قال عن الجنة: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِى الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2]»[3].

❁ وفى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن الله عَزَّوَجَلَّ خلق الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة.. أى أن البناء: طوبة من ذهب وطوبة من فضة.. أما الإسمنت الذى بينهما فمن المسك.. ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ للجنة: تكلمى فنطقت الجنة امتثالاً لأمر الله فقالت: قد أفلح المؤمنون... وأى فلاحٍ أعظم من نجاتهم من النار ودخولهم الجنة ... فقد قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾.. وهنا نطقت الملائكة وقالت: طوبى لكِ منزل الملوك.... فالمؤمن فى الجنة مَلِكٌ.. بل إنه أعظم من كل ملوك الدنيا ولو اجتمعوا.. فالدنيا بكل ما فيها لا تُساوى عند الله جناح بعوضة.

فقد قال تعالى عن نعيم أهل الجنة: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ أىْ وَإِذَا رَأَيْتَ هُنَاكَ ما فِى الْجَنَّةِ من مظاهر الأُنس والسرور، رأيت نعيمًا لا يكاد يُوصَف، ومُلكًا واسعًا عظيمًا لا غاية له، كما فى الحديث القدسى: «أَعْدَدْتُ

---

(١) صحيح: رواه البزار، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٢٦٦٢).

(٢) سورة السجدة: الآية: (١٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٤٤) كتاب بدء الخلق - ومسلم (٢٨٢٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

لِعِبَادِى الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

قال ابن كثير: وَثَبَتَ فِى الصَّحِيحِ أَنَّ: «**أقل أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً مَن له قدر الدنيا وعشرة أمثالها**»[1] فَإِذَا كَانَ هَذَا عَطَاؤُهُ تَعَالَى لِأَدْنَى مَنْ يَكُونُ فِى الْجَنَّةِ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَن هُوَ أَعْلَى مَنْزِلَةً وأحظى عنده تعالى؟[2]

۞ وفى رواية أخرى:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ حَدِّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ مَا بِنَاؤُهَا، قَالَ: «**الجَنَّةُ بِنَاؤُها لَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَمِلاَطُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ وَتُرْبَتُهَا الزَّعْفَرَانُ ... مَنْ يَدْخُلْهَا يَنْعَمْ فَلَا يَبْأَس وَيَخْلُد لَا يَمُوتُ لَا تَبْلَى ثِيَابهم، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُمْ**»[3].

فحجارة الجنة المبنية بها القصور من ذهب وفضة، ومِلاطها وهو الطين الذى يُطلى به الحائط، هو المِسك: أى: طينها المسك، وتربتها وترابها من الزَّعْفَرَان فإذا عُجِن بالماء الطيب صار مِسكًا[4].

وَحَصباؤها: أى: الحصى الذى فوق أرضها اللؤلؤ.

فاللهُمَّ إنَّا نسألك من فضلك العظيم

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٧١) كتاب الرقاق - ومسلم (١٨٦) كتاب الإيمان.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٨٤).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١١٦).

(٤) حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم (ص ١٢٨).

(٤٤) أدنى أهل الجنة

۞ عنْ المُغيرةِ بن شُعبَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنْ رسُولِ الله ﷺ قال: «سأَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّهُ، ما أدنَى أهْلِ الجنَّةِ منْزلَةً؟ قال: هُو رجُلٌ يجِيءُ بعدَ ما أُدخِلَ أهْلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، فيُقَالُ لهُ: ادخُلِ الجنَّة. فيقولُ: أيْ ربِّ كَيْفَ وقد نَزَلَ النَّاسُ منازِلَهُمْ، وأخَذُوا أخَذاتِهِم؟ فيُقالُ لهُ: أترضَى أنْ يكُونَ لكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِن مُلُوكِ الدُّنْيا؟ فيقُولُ: رضيتُ ربِّ، فيقُولُ: لَكَ ذلكَ ومِثْلُهُ ومِثْلُهُ ومِثْلُهُ ومِثْلُهُ، فيقُولُ في الخَامِسَة: رضِيتُ ربِّ، فيقُولُ: هذا لكَ وعشَرةُ أمْثَالِهِ، ولكَ ما اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، ولَذَّتْ عَيْنُكَ، فيقُولُ: رضيتُ رَبِّ، قالَ: ربِّ فأعلاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قال: أُولَئِكَ الذينَ أردتُ، غَرَسْتُ كرامَتَهُم بِيدِي وخَتَمْتُ علَيْها، فلَمْ تَرَ عَيْنٌ، ولَمْ تَسْمَع أُذُنٌ، ولَمْ يَخْطُر علَى قَلْبِ بَشَرٍ»[(١)].

۞ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن أدنى أهل الجنة يعطيه الله عَزَّ وَجَلَّ مثل مُلك مَلكٍ من ملوك الدنيا خمسين مرة... وفوق ذلك يقول له (جل وعلا): «وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ» فأي نعيمٍ فوق هذا النعيم؟!.

وفي رواية عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن هذا الرجل سيظل يسأل ويسأل ويُجاب ويُجاب حتى يسكت حياءً من كرم الله عليه:

«فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ما لك لا تسأل؟! فيقول: رب قد سألتك حتى استحييتك، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ألم تَرضَ أن أُعطيك مثل الدنيا منذ خلقتها إلى يوم أفنيتها وعشرة أضعافه، فيقول: أتهزأ بي وأنت رب العزة؟! فيضحك الرب عَزَّ وَجَلَّ من قوله». فكان عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا بلغ هذا المكان من الحديث ضحك. فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن.. قد سمعتك تُحدث بهذا الحديث مرارًا كلما بلغت هذا المكان ضحكت؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يحدث بهذا الحديث مرارًا

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٩) كتاب الإيمان.

كلما بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك حتى تبدو أضراسه قال: «فيقول الرب جلَّ ذِكْره: لا ولكنى على ذلك قادر، فيقول: ألحقنى بالناس، فيقول: الحق بالناس. قال: فينطلق يَرمُل فى الجنة حتى إذا دنا من الناس رُفع له قصرٌ من دُرَّة فيَخِرُّ ساجدًا، فيُقال له: ارفع رأسك؟ ما لك فيقول: رأيت ربى أو تراءى لى ربى، فيُقال: إنما هو منزلٌ من منازلك. قال: ثم يَلقى رجلًا فيتهيَّأ للسجود له، فيُقال له: مَهْ، فيقول: رأيتُ أنك مَلَكٌ من الملائكة، فيقول: إنما أنا خازنٌ من خُزَّانك وعبدٌ من عبيدك تحت يدى ألفُ قهرمان على مثل ما أنا عليه. قال: فينطلق أمامه حتى يَفتح له باب القصر. قال: وهو من دُرَّة مجوفة سقائفها وأبوابها وأغلاقُها ومفاتيحها منها، يستقبله جوهرة خضراء مُبطنة بحمراء، فيها سبعون بابًا كل بابٍ يُفضى إلى جوهرة خضراء مبطنة، كل جوهرة تُفضى إلى جوهرة على غير لون الأخرى فى كل جوهرة سُرُر وأزواجٌ ووصائف، أدناهُنَّ حَوراء عَيناء عليها سبعون حُلة يُرى مُخ ساقها من وراء حُللها.. كبدها مرآته، وكبدُه مرآتُها، إذا أعرض عنها إعراضة ازدادت فى عينه سبعين ضعفًا عما كانت قبل ذلك، فيقول لها: والله لقد ازددتِ فى عينى سبعين ضعفًا، وتقول له: وأنت لقد ازددت فى عينى سبعين ضعفًا، فيُقال له: أشرِفْ أشرِف!! فيُشرِف، فيُقال له: مُلكك مسيرة مائة عام يَنفُذه بصرك»(١).

۞ أما أعلاهم منزلة فهؤلاء لا يستطيع أحدٌ من البشر أن يتخيل ما أعدَّه الله لهم.. فقد قال موسى عليه السلام: رب فأعلاهم منزلة؟.. أى: كيف يكون نعيمهم؟.

فقال تعالى: «أُولَئِكَ الذينَ أردتُ، غَرَسْتُ كرامَتَهُم بِيدِى وخَتَمْتُ علَيْها، فلَمْ تَرَ عَيْنٌ، ولَمْ تَسْمَع أُذُنٌ، ولَمْ يخْطُر علَى قَلْبِ بَشَرٍ».

---

(١) صحيح: رواه ابن أبى الدنيا، والطبرانى من طرق أحدها صحيح واللفظ له، والحاكم وقال صحيح الإسناد، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٣٥٩١).

(٤٥) آخر مَن يدخل الجنة

۞ عن ابنِ مسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «إنِّى لأعلَمُ آخِرَ أهلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنها، وآخِرَ أهْل الجنَّةِ دُخُولًا الجَنَّةَ: رجُلٌ يَخْرُجُ مِن النَّارِ حَبْوًا، فيقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ له: اذْهَبْ فادخُلِ الجنَّةَ، فيأتِيهَا، فيُخيَّلُ إليهِ أنَّها مَلأى، فيرجِعُ، فيقُولُ: يا ربِّ وجدتُها مَلأى، يقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ له: اذْهَبْ فادخُل الجنَّةَ، فيأتِيها، فيُخَيَّل إليه أنها مَلأى، فيرجِعُ، فيقُولُ: يا ربِّ وجدتُها ملأى، فَيقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ له: اذْهَبْ فادخُل الجنَّةَ، فإنَّ لكَ مِثْلَ الدُّنْيا وعشَرةَ أمثالها، أوْ إنَّ لكَ مِثْل عشَرةِ أمْثَالِ الدُّنْيا، فيقُولُ: أتَسْخَرُ بِى، أو أتَضْحَكُ بِى وأنْتَ الملِكُ» قال: فَلَقد رأيْتُ رسُولَ الله ﷺ ضَحِكَ حتَّى بدَت نَواجِذُهُ فكَانَ يقُولُ: «ذلِكَ أدنَى أهلِ الجنَّةِ منْزِلَةً»(١).

۞ وهناك رواية أخرى أعجب منها:

قال ﷺ: «آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ، فَهْوَ يَمْشِى مَرَّةً، وَيَكْبُو مَرَّةً، وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً، فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: تَبَارَكَ الَّذِى نَجَّانِى مِنْكِ، لَقَدْ أَعْطَانِى اللهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ، فَيَقُولُ: أَىْ رَبِّ، أَدْنِنِى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ، لَعَلِّى إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِى غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لا، يَا رَبِّ، وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِىَ أَحْسَنُ مِنَ الأُولَى، فَيَقُولُ: أَىْ رَبِّ، أَدْنِنِى مِنْ هَذِهِ لِأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، لا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِى أَنْ لا تَسْأَلَنِى غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لَعَلِّى إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلُنِى غَيْرَهَا، فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ

---

(١) متفق عليه:رواه البخارى (٦٥٧١) كتاب الرقاق - ومسلم (١٨٦) كتاب الإيمان.

بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَيَيْنِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، لا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، هَذِهِ لا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْخِلْنِيهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِينِي مِنْكَ؟ أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟ قَالَ: يَا رَبِّ، أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟»، فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: أَلَا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ، قَالَ: هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «مِنْ ضَحِكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي لا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[1].

۞ والْمَح التدرُّج في النعيم الواضح في الحديث، وكأن هذا العبد لن يطيق رؤية النعيم الكامل مرة واحدة؛ وإلَّا فسوف يموت من هول المفاجأة وشدة الفرح... وقد يكون هذا سِرٌّ من أسرار التدرج من مقامٍ إلى مقام في الجنة والله أعلم.

۞ جلس الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مع بعض أصحاب النبي ﷺ يحكي لهم قصة آخر رجل يدخل الجنة كما سمعها من رسول الله ﷺ.

فأخبرهم أن النبي ﷺ كان جالسًا معهم في يوم من الأيام وحكى لهم قصة آخر رجل يدخل الجنة فأخبرهم أن هذا الرجل يأتي يوم القيامة موحدًا ولكنه قد عمل ذنوبًا كثيرة ولم يَتُب منها فيدخل النار حتى إذا نال العذاب الذي يستحقه عفا الله عنه وأمر بخروجه من النار ودخوله الجنة.

فيخرج هذا الرجل من النار ويمشي على الصراط الذي هو أحدُّ من السيف

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٧) كتاب الإيمان.

وأدق من الشعر... فيمشي مرة ويسقط على وجهه مرة وتضرب النار وجهه مرة.. ويظل على تلك الحالة الشديدة زمانًا طويلًا حتى إذا جاوز الصراط وترك النار وراءه التفت إليها وقال وهو لا يكاد يصدق: تبارك الذى نجّانى منكِ.. لقد أعطانى الله شيئًا ما أعطاه أحدًا من الأولين والآخرين.

ويجلس هذا الرجل ليستريح قليلًا من الأهوال التى رآها فى النار ثم على الصراط... وبينما هو على تلك الحالة إذ رأى شجرة جميلة حولها ماء عذب جميل فينادى هذا الرجل ويقول: يا رب قربنى من هذه الشجرة كى أستظل بظلها وأشرب من مائها.

فيسأله الله (جل وعلا) عما إذا كان سيطلب شيئًا آخر بعد ذلك.

فيقول الرجل: لا يا رب... ويعطى ربه العهود والمواثيق على أنه إذا قربه من هذه الشجرة فلن يسأل شيئًا آخر.

فيُقربه الله عَزَّوَجَلَّ من هذه الشجرة فيستظل العبد بظلها ويشرب من مائها ويعيش فى متعة لم يكن يحلم بها من قبل.

وفجأة يرى العبد شجرة أحلى وأجمل من الأُولى فيصرخ ويقول: يا رب قربنى من هذه الشجرة لكى أستظل بظلها وأشرب من مائها.

فيقول الله تعالى: يا ابن آدم ألم تُعاهدنى أن لا تسألنى غيرها؟

فيقول العبد: أعاهدك يا رب إن قربتنى من هذه الشجرة أن لا أسألك شيئًا بعد ذلك...

وربه يعذره لأنه يرى شيئًا جميلًا لا يستطيع أن يصبر عليه.

فيقربه الله (جل وعلا) من هذه الشجرة فيستظل بظلها ويشرب من مائها ويظل على تلك الحالة من النعيم إلى أن يرى شجرة ثالثة أجمل من هاتين الشجرتين.. إنها شجرة مغروسة عند باب الجنة.

وهنا يصرخ العبد ويقول: يا رب قربنى من هذه الشجرة لكى أستظل بظلها وأشرب من مائها.

فيقول (جل وعلا): يا ابن آدم ألم تعاهدنى أن لا تسألنى غيرها؟

فيقول العبد: أعاهدك يا رب إن قربتنى من هذه الشجرة أن لا أسألك شيئًا بعد ذلك.

وفى كل مرة ربه يعذره لأنه يرى شيئًا جميلًا لا يستطيع أن يصبر عليه.

فيقربه ربه (جل وعلا) من هذه الشجرة الجميلة المغروسة على باب الجنة.

فإذا جلس تحت هذه الشجرة سمع صوت نعيم أهل الجنة فلم يحتمل ذلك فيصرخ: يا رب أَدخلنى الجنة.

فيسأله ربه (جل وعلا) عما يُرضيه حتى لا يسأل شيئًا بعد ذلك ثم يقول له: أيُرضيك أن أعطيك الدنيا وعشرة أمثالها؟

فيقول العبد: يا رب أتستهزئ بى وأنت رب العالمين؟

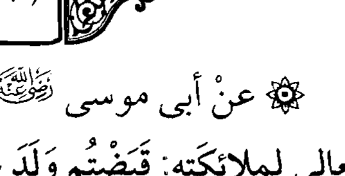
هنا ضحك عبد الله بن مسعود - راوى الحديث - وقال للصحابة: ألا تسألونى ما الذى يُضحكنى؟ فقالوا: مِمَّ تضحك يا ابن مسعود؟.

قال ابن مسعود: أضحك لأن النبى ﷺ ضحك عند هذه الكلمة فلما سألناه: مِمَّ تضحك يا رسول الله.

فأخبرنا النبى ﷺ أنه يضحك من ضحك رب العالمين حين قال له العبد: أتستهزئ بى وأنت رب العالمين؟

قال تعالى: إنى لا أستهزئ منك ولكنى على ما أشاء قادر.

❊ ❊ ❊



(٤٦) بيت الحمد فى الجنة

❁ عنْ أبى موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «**إذا ماتَ وَلَدُ العبْدِ قال الله تعالى لملائكَتِهِ: قَبَضْتُم وَلَدَ عَبْدِى؟ فيقولون: نعَم، فيقولُ: قَبَضْتُم ثَمَرَةَ فُؤادِهِ؟ فيقولون: نَعَم. فيقُولُ: فماذَا قال عَبْدِى؟ فيقُولونَ: حَمِدَكَ واسْتَرجَعَ، فيقولُ الله تعالى: ابْنُوا لعبدى بَيْتًا فى الجنَّةِ، وسَمُّوهُ بيتَ الحَمدِ**»[(١)].

❁ فلله سبحانه أن يبتلى مَن يشاء من عباده بما يشاء سبحانه، لا مُعقب لحُكمه، ولا رادَّ لقضائه، ولا غالب لأمره تبارك وتعالى... والأصل أن الإنسان لا يتمنى المصيبة، كما قال النبى ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو ولكن إذا لقيتموه فاثبتوا**»، لكن إذا نزلت المصيبة فعلى الإنسان أن يتصبر ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾[(٢)].

ففى هذا الحديث: أن العبد إذا ابتلاه الله فمات له ولد -ابنه أو ابنته- فالله عَزَّوَجَلَّ يسأل الملائكة وهو أعلم (سبحانه وتعالى)، ويريد أن يُباهى بعبده هذا أمام الملائكة، وأن هذا العبد يستحق الرحمة، ويستحق المدح.

فأنتم قُلتم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[(٣)]، لكن انظروا ماذا فعل؟ فالله يسأل الملائكة -وهو أعلم سبحانه- يقول: «**قبضتم ولد عبدى؟ فيقولون: نعم.**

فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟»، فأغلى شىء عند الإنسان هو ثمرة قلبه وفؤاده... أقبضتموه؟ فتقول الملائكة: نعم.

فيقول الله: «**فماذا قال عبدى؟**» وهو أعلم سبحانه، ولكن أراد سبحانه أن

---

(١) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٥).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (٢٠٠).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٣٠).

يُباهي بعبده هؤلاء الملائكة... فتقول الملائكة لله تبارك وتعالى: «**حَمِدَك واسترجع**» يعنى: قال: الحمد لله، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون... فيقول الله (سبحانه وتعالى): «**ابنوا لعبدى بيتًا فى الجنة وسَمُّوه بيت الحمد**»، وهذا علامة على حمد هذا العبد وعلى صبره... فيجعل الله عَزَّوَجَلَّ له بيتًا يليق بصبره على هذه المصيبة العصيبة... وليس أى بيت ولكنه بيتٌ فى الجنة ومن قصور الجنة العظيمة... ثم إنهم ميَّزوا هذا البيت بهذه التسمية: بيت الحمد، فمن يحمد الله (سبحانه وتعالى) فالله يعطيه الأجر العظيم.

فإذا أنعم الله عَزَّوَجَلَّ على عبدٍ بنعمة فحمده العبد كان هذا الحمد من العبد أحب إلى الله من النعمة التى أعطاها لعبده، وهذا كله من فضل الله (سبحانه وتعالى)، وهذه نعمة وهذه نعمة، وكُله من الله... فالله هو الذى رزق العبد المال والطعام والشراب والولد وقبل ذلك كله رزقه الإيمان، وهو الذى وفق العبد لهذه الكلمة، ودلَّه عليها، وهداه إليها... إذًا فهما نعمتان من الله: نعمة الرزق، ونعمة الحمد.

فإذا مات للإنسان ولد أو حبيب وقال: الحمد لله، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يجعل لهذا الذى تُوفى ابنه بيتًا فى الجنة ويُسميه بيت الحمد، ويباهى الملائكة بهذا العبد الذى حَمِدَ الله واسترجع(١).

***

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين)/ للشيخ أحمد حطيبة.





(٤٧) يوم المزيد.. وأعياد المؤمنين في الجنة

۞ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي يَدِهِ مِرْآةٌ بَيْضَاءُ، فِيهَا نَكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ يَا جِبْرِيلُ، قَالَ: هَذِهِ الْجُمُعَةُ يَعْرِضُهَا عَلَيْكَ رَبُّكَ؛ لِتَكُونَ لَكَ عِيدًا وَلِقَوْمِكَ مِنْ بَعْدِكَ، تَكُونُ أَنْتَ الأَوَّلَ، وَتَكُونُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى مِنْ بَعْدِكَ، قَالَ: مَا لَنَا فِيهَا، قَالَ: فِيهَا خَيْرٌ لَكُمْ، فِيهَا سَاعَةٌ مَنْ دَعَا رَبَّهُ فِيهَا بِخَيْرٍ، هُوَ لَهُ قَسْمٌ إِلا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، أَوْ لَيْسَ لَهُ بِقَسْمٍ إِلا ادُّخِرَ لَهُ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، أَوْ تَعَوَّذَ فِيهَا مِنْ شَرٍّ، هُوَ عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ، إِلا أَعَاذَهُ أَوَ لَيسَ عَلَيهِ مَكْتُوب، إِلا أَعَاذَهُ مِنْ أَعْظَمَ مِنْهُ، قُلْتُ: مَا هَذِهِ النَّكْتَةُ السَّوْدَاءُ فِيهَا؟ قَالَ: هَذِهِ السَّاعَةُ تَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَهُوَ سَيِّدُ الأَيَّامِ عِنْدَنَا، وَنَحْنُ نَدْعُوهُ فِي الآخِرَةِ يَوْمَ الْمَزِيدِ، قَالَ: قُلْتُ: لِمَ تَدْعُونَهُ يَوْمَ الْمَزِيدِ؟ قَالَ: إِنَّ رَبَّكَ عَزَّوَجَلَّ اتَّخَذَ فِي الْجَنَّةِ وَادِيًا أَفْيَحَ مِنْ مِسْكٍ أَبْيَضَ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ نَزَلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ عِلِّيِّينَ عَلَى كُرْسِيِّهِ، ثُمَّ حَفَّ الْكُرْسِيَّ بِمَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، وَجَاءَ النَّبِيُّونَ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَيْهَا، ثُمَّ حَفَّ الْمَنَابِرَ بِكَرَاسِيٍّ مِنْ ذَهَبٍ، ثُمَّ جَاءَ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَيْهَا، ثُمَّ يَجِيءُ أَهْلُ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَى الْكَثِيبِ، فَيَتَجَلَّى لَهُمْ رَبُّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حَتَّى يَنْظُرُوا إِلَى وَجْهِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: أَنَا الَّذِي صَدَقْتُكُمْ وَعْدِي، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، هَذَا محلُّ كَرَامَتِي فَسَلُونِي، فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَا، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: رِضَائِي أَحَلَّكُمْ دَارِي، وَأَنَالَكُمْ كَرَامَتِي، فَسَلُونِي فَيَسْأَلُونَهُ حَتَّى تَنْتَهِيَ رَغْبَتُهُمْ، فَيَفْتَحُ لَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ إِلَى مِقْدَارِ مُنْصَرَفِ النَّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، ثُمَّ يَصْعَدُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى كُرْسِيِّهِ، فَيَصْعَدُ مَعَهُ الشُّهَدَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ، وَيَرْجِعُ أَهْلُ الْغُرَفِ إِلَى غُرَفِهِمْ، دُرَّةٌ بَيْضَاءَ لا فَصْمَ فِيهَا وَلا وَصْمَ، أَوْ يَاقُوتَةٌ حَمْرَاءَ، أَوْ زَبَرْجَدَةٌ خَضْرَاءَ مِنْهَا غُرَفُهَا وَأَبْوَابُهَا، مُطَّرِدَةٌ فِيهَا أَنْهَارُهَا، مُتَدَلِّيَةٌ فِيهَا ثِمَارُهَا، فِيهَا أَزْوَاجُهَا وَخَدَمُهَا، فَلَيْسُوا إِلَى شَيْءٍ أَحْوَجَ مِنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ؛

لِيَزْدَادُوا فِيهِ كَرَامَةً، وَلِيَزْدَادُوا فِيهِ نَظَرًا إِلَى وَجْهِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلِذَلِكَ دُعِيَ يَوْمَ الْمَزِيدِ»[١].

۞ ما من مسلم يعيش على وجه الأرض إلا وهو يتمنى أن يدخل الجنة ليعيش فى نعيم الجنة التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.. لكن هناك مَن لا يريد الجنة فحسب بل يريد أن يستمتع بالنظر إلى وجه الله (جل وعلا).

إنه أعظم نعيم فى الجنة.

ولذلك يخبرنا النبى ﷺ أنه إذا حُشر الناس يوم القيامة ووقفوا بين يدى الله للحساب فإن الله سيقضى بين الناس وسوف ينقسم الناس إلى قسمين: فمنهم مَن يدخل الجنة ومنهم مَن يدخل النار.

فأما الذين يدخلون الجنة فإنهم يعيشون فى نعيم لا يخطر على قلب بشر ومع ذلك فإن الله (جل وعلا) سينادى عليهم ويقول: يا أهل الجنة هل تريدون شيئًا أزيدكم؟

فيتعجب أهل الجنة لأنهم يعيشون فى نعيم لم يحلموا به.. فيقولون: ألم تُبيض وجوهنا.. ألم تُدخلنا الجنة وتُنجنا من النار.

وكأنهم يريدون أن يقولوا للحق (جل وعلا): لقد أعطيتنا فوق ما نريد فنحن لم يخطر على بالنا هذا النعيم الذى أكرمتنا به.

وإذا بالحق (جل وعلا) يُفيض عليهم من كرمه ورحمته ... فيكشف الحجاب فينظرون إلى وجه الله (جل وعلا) فعند ذلك يتضاءل أى نعيم رآه أهل الجنة أمام لذة النظر إلى وجه الله (جل وعلا).

---

(١) حسن لغيره: رواه ابن أبى الدنيا، والطبرانى فى الأوسط، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (٣٧٦١).

۞ وفى هذا الحديث يُخبر النبى ﷺ أنه أتاه جبريل عليه السلام وفى يده مرآة بيضاء فيها نكتة سوداء.. وهذه هى المرآة التى يأتى فيها جبريل بتلك الأشياء.. فتعجب النبى ﷺ وقال له: «**ما هذه يا جبريل؟**».

فأخبره جبريل، وقال له: «**هذه الجمعة يعرضها عليك ربُّك لتكون لك عيدًا ولقومك من بعدك**»... ومن هنا أصبح يوم الجمعة هو العيد الأُسبوعى للمسلمين حيث يجتمعون فى بيوت الله ليجددوا إيمانهم بتلك المواعظ التى تُحيى القلوب، ولتتصافح قلوبهم على مائدة الحب فى الله...

۞ ثم قال له جبريل: «**تكون أنت الأول وتكون اليهود والنصارى من بعدك**»، يعنى يكون عيدنا يوم الجمعة.. واليهود السبت.. والنصارى الأحد.. فهم تبعٌ لنا.

عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَضَلَّ اللهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الأَحَدِ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ، وَالسَّبْتَ، وَالأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلائِقِ**»(١).

۞ فقال النبى ﷺ: «**مَا لَنَا فِيهَا**».. أى: ما لنا فى هذا العيد الأسبوعى (يوم الجمعة) فقال له جبريل: «**فِيهَا خَيْرٌ لَكُمْ**» أى فى الدنيا والآخرة وفى أمور دينكم ودنياكم «**فِيهَا سَاعَةٌ مَنْ دَعَا رَبَّهُ فِيهَا بِخَيْرٍ، هُوَ لَهُ قَسْمٌ إِلا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**».

فينبغى للمؤمن أن يتحرى هذه الساعة بالعبادة والذكر والاستغفار والدعاء فإن الدعاء فى ذلك الوقت مُستجاب.

فقد قال ﷺ عن يوم الجمعة: «**فِيهِ سَاعَةٌ، لاَ يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى، يَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى شَيْئًا، إِلَّا أَعطَاهُ إِيَّاهُ**»(٢).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٥٦) كتاب الجمعة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٩٣٥) كتاب الجمعة- ومسلم (٨٥٢) كتاب الجمعة.

وساعة الإجابة آخر ساعة بعد العصر يوم الجمعة على الراجح:

لحديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يَوْمُ الْجُمُعَةِ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَاعَةً.. مِنْهَا سَاعَةٌ لا يُوجَدُ عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ عز وجل فِيهَا شَيْئًا إِلَّا آتَاهُ إِيَّاهُ فَالْتَمِسُوهَا آخِرَ سَاعَةٍ بَعدَ الْعَصرِ»**[١].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«التَمِسُوا السَّاعَةَ الَّتِى تُرجَى فِى يَوْمِ الجُمُعَةِ بَعدَ العَصرِ إِلَى غَيْبُوبَةِ الشَّمْسِ»**[٢].

۞ ثُمَّ قَالَ جبريل للنبى ﷺ: **«أَوْ لَيْسَ لَهُ بِقَسْمٍ إِلا ادُّخِرَ لَهُ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ»** فإن لم يكن قد قسم الله لهذا العبد خيرًا بهذا الدعاء فى الدنيا، فإنه يدخره ليُفرج عنه كُربة من كربات يوم القيامة.

قال ﷺ: **«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدعُو بِدَعوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ، وَلا قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إِلَّا أَعطَاهُ اللهُ بِهَا إِحدَى ثَلاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا»** قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: **«اللهُ أَكْثَرُ»**[٣].

فمن رحمة الله تعالى بعبده وهو الرحيم أن العبد يدعوه بحاجة من الدنيا، فإذا لم يؤته إياها عوَّضه خيرًا منها:

۞ فإما أن يستجيب له دعوته فى الدنيا.

۞ أو يدخرها له فى الآخرة.

۞ أو يصرف عنه من السوء مثل ما طلب من الخير.

۞ ثم قال جبريل للنبى ﷺ: **«أَوْ تَعَوَّذَ فِيهَا مِنْ شَرٍّ، هُوَ عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ، إِلا أَعَاذَهُ**

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، والنسائى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨١٩٠).

(٢) حسن: رواه الترمذى، والطبرانى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٣٧).

(٣) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد، وأحمد، والحاكم، وصححه الألبانى فى صَحيح الْأَدَبِ الْمُفْرَد (٥٥٠)، وصَحِيح التَّرغِيبِ وَالتَّرهِيب (١٦٣٣).

أَوَ لَيسَ عَلَيهِ مَكْتُوب، إِلا أَعَاذَهُ مِنْ أَعْظَمَ مِنْهُ» فإذا تعوذ العبد فى تلك الساعة من يوم الجمعة (وهى التى قبل المغرب) من أى شَرٍّ هو عليه مكتوب أو غير مكتوب إلا أعاذه الله من ذلك الشر وحفظه منه.

۞ فقال النبى ﷺ: «**مَا هَذِهِ النَّكْتَةُ السَّوْدَاءُ فِيهَا؟**» أى ما تلك النقطة السوداء التى فى تلك المرآة البيضاء التى جاء بها جبريل عليه السلام.

فقال له جبريل: «**هَذِهِ السَّاعَةُ تَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ**» فالسَّاعة لا تقوم إلَّا فى يوم الجمعة كما أخبر النبى ﷺ.

عَنْ أَبى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خَيْرُ يَوْم طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِى يومِ الجُمُعَةِ**»[1].

۞ قال جبريل: «**وَهُوَ سَيِّدُ الأَيَّامِ عِنْدَنَا، وَنَحْنُ نَدْعُوهُ فِى الآخِرَةِ يَوْمَ الْمَزِيدِ**» أى أن يوم الجمعة عند الملائكة فى السماء هو سيِّد الأيام وخيرها حتى أنهم يُسمونه يوم المزيد... ولعلَّ هذا يُذكرنى بقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. فالحُسنى هى الجنة... والزيادة هى النظر إلى وجه الله... فأهل التوحيد من المُسلمين ينظرون ويستمتعون بالنظر إلى وجه الله فى الجنة فى كل يوم جمعة... ألا وهو يوم المزيد.

۞ فسأله النبى ﷺ: «**لِمَ تَدْعُونَهُ يَوْمَ الْمَزِيدِ؟**» فأخبره جبريل قائلًا: «**إِنَّ رَبَّكَ** عز وجل **اتَّخَذَ فِى الْجَنَّةِ وَادِيًا أَفْيَحَ مِنْ مِسْكٍ أَبْيَضَ**» وهو المكان الذى نجتمع فيه فى الجنة لنَنعم بالنظر إلى وجهه الكريم (جلَّ وعلا). «**فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ**» أى بمقدار كل أسبوع بتقدير الله عز وجل.. وذلك لأن الجنة ليس فيها ليل ونهار حتى نعرف أيام الأسبوع، وإنما هو نهارٌ دائم حتى يستمتع أهل الجنة على الدوام.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٥٤) (١٨) كتاب الجمعة.

«نَزَلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ عِلِّيِّينَ عَلَى كُرْسِيِّهِ» نزولًا يليق بجلاله وكماله لا يعرف كيفيته إلا الله عَزَّوَجَلَّ «ثُمَّ حَفَّ الْكُرْسِيَّ بِمَنَابِرَ مِنْ نُورٍ» أى: جعل حول الكرسى منابر من النور ليجلس عليها صفوة خلقه من عباده.. ولذا قال بعدها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَجَاءَ النَّبِيُّونَ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَيْهَا» فكان أقرب الناس إلى الله عَزَّوَجَلَّ هم صفوة خلقه من الأنبياء والمرسلين «ثُمَّ حَفَّ الْمَنَابِرَ بِكَرَاسِيٍّ مِنْ ذَهَبٍ» فبعد أن جعل الأنبياء على منابر من النور بالقرب منه.. جعل الذين بعدهم مباشرة على كراسى من ذهب هم الصدِّيقون والشهداء، ولذا قال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ثُمَّ جَاءَ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَيْهَا» ثم فى الدائرة الثالثة والمرتبة الثالثة يأتى أهل الجنة «ثُمَّ يَجِيءُ أَهْلُ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَى الْكَثِيبِ» أى: يجلسوا على كثبان المسك الأبيض.

وقد جاء هذا الترتيب فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾[1].

«فَيَتَجَلَّى لَهُمْ رَبُّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حَتَّى يَنْظُرُوا إِلَى وَجْهِهِ» وفى تلك اللحظة يتجلَّى لهم ربنا عَزَّوَجَلَّ فيستمتعوا بأعظم لذَّة فى الجنة كلها.. ألا وهى لذة النظر إلى وجهه الكريم (جلَّ وعلا)، «وَهُوَ يَقُولُ: أَنَا الَّذِى صَدَقْتُكُمْ وَعْدِى، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى» أى: أنا الذى وعدتكم بالجنة والنظر إلى وجهى لكلِّ مَن أطاعنى وامتثل أمرى واتبع النبى محمد ﷺ... وها أنا أعطيكم ما وعدتكم به.. فقد أدخلتكم جنتى وجعلت كل ما فيها حلالًا لكم لتستمتعوا بكلِّ ما فيها.. بل وجمعتكم لتستمتعوا بما هو أعظم من نعيم الجنة فتنظروا إلى وجهى الكريم.

«هَذَا محلُّ كَرَامَتِى فَسَلُونِى» هذه الجنة محل إكرامى وإنعامى فاطلبوا كل ما

---

(١) سورة النساء: الآيتان: (٦٩-٧٠).

تشتهى أنفسكم... «فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَا» أى يطلبون من الله عَزَّوَجَلَّ أن يرضى عنهم «فَيَقُولُ عَزَّوَجَلَّ: رِضَائِي أَحَلَّكُمْ دَارِي، وَأَنَالَكُمْ كَرَامَتِي، فَسَلُونِي» أى يخبرهم أنه راضٍ عنهم.. والدليل على ذلك أنه أدخلهم جنته ولو لم يرضَ عنهم ما أدخلهم جنته وأنالهم كرامته.. ثم طلب منهم أن يسألوه أى شيءٍ آخر.

«فَيَسْأَلُونَهُ حَتَّى تَنْتَهِيَ رَغْبَتُهُمْ» أى: يطلب كل واحدٍ منهم كل ما يتمناه وكل ما تشتهيه نفسه حتى تنتهى أمنياتهم جميعًا.

«فَيَفْتَحُ لَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ إِلَى مِقْدَارِ مُنْصَرَفِ النَّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ» ففى تلك اللحظة بعد أن انتهت أُمنيات الأنبياء والصدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين يفتح الله لهم من النعيم ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر حتى ينصرفوا من يوم المزيد.. فقد وعدهم فى الدنيا بقوله: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[1]»[2]. وها هو يفى بوعده لهم (جلَّ وعلا).

«ثُمَّ يَصْعَدُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى كُرْسِيِّهِ» فقد انتهى هذا اللِّقاء الذى نتمناه من الآن حتى نَسعد به فى الجنة بين يدى الله عَزَّوَجَلَّ فى يوم المزيد الذى لا مزيد عليه أبدًا فى الدنيا والآخرة.

«فَيَصْعَدُ مَعَهُ الشُّهَدَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ» ليعودوا إلى منازلهم العالية.

«وَيَرْجِعُ أَهْلُ الْغُرَفِ إِلَى غُرَفِهِمْ، دُرَّةٌ بَيْضَاءُ لا فَصْمَ فِيهَا وَلا وَصْمَ[3]، أَوْ

---

(١) سورة السجدة: الآية: (١٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٤٤) كتاب بدء الخلق - ومسلم (٢٨٢٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٣) (الفَصْم) بالفاء: هو كسر الشيء من غير أن تفصله. و(الوَصْم) بالواو: الصدع والعيب.

يَاقُوتَةً حَمْرَاءَ، أَوْ زَبَرْجَدَةً خَضْرَاءَ مِنْهَا غُرَفُهَا وَأَبْوَابُهَا، مُطَّرِدَةٌ فِيهَا أَنْهَارُهَا، مُتَدَلِّيَةٌ فِيهَا ثِمَارُهَا، فِيهَا أَزْوَاجُهَا وَخَدَمُهَا، فَلَيْسُوا إِلَى شَيْءٍ أَحْوَجَ مِنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ؛ لِيَزْدَادُوا فِيهِ كَرَامَةً، وَلِيَزْدَادُوا فِيهِ نَظَرًا إِلَى وَجْهِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلِذَلِكَ دُعِيَ يَوْمَ الْمَزِيدِ».

فعلى الرَّغم من كل النعيم الذى هم فيه فإنَّهم ليسوا إلى شىءٍ أحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا من النظر إلى وجه الله الكريم الذى هو أعظم لذة فى الجنة كلها... فاللهُمَّ ارزقنا لذَّة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك فى غير ضرَّاء مُضرة ولا فتنة مُضلة.

***



(٤٨) لذة النظر إلى وجه الله تعالى

۞ عن صُهَيْب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إذا دَخَلَ أهْلُ الجنَّةِ الجنَّةَ يقُولُ الله تباركَ وتعالى: تُرِيدُونَ شَيئًا أزِيدُكُم؟ فيقولُون: ألَمْ تُبَيِّضْ وُجوهَنَا؟ ألَمْ تُدخِلْنَا الجنَّةَ وتُنَجِّنَا مِن النَّارِ؟ فيَكْشِفُ الحِجابَ، فما أُعطُوا شيئًا أحبَّ إليهِمْ مِن النَّظَرِ إلى رَبِّهِمْ»(١).

۞ ما من مسلم يعيش على وجه الأرض إلا وهو يتمنى أن يدخل الجنة ليعيش فى نعيم الجنة التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.. لكن هناك مَن لا يريد الجنة فحسب بل يريد أن يستمتع بالنظر إلى وجه الله (جل وعلا)... إنه أعظم نعيم فى الجنة.

ولذلك يخبرنا النبى ﷺ أنه إذا حُشر الناس يوم القيامة ووقفوا بين يدى الله للحساب فإن الله سيقضى بين الناس وسوف ينقسم الناس إلى قسمين: فمنهم مَن يدخل الجنة ومنهم مَن يدخل النار.

فأما الذين يدخلون الجنة فإنهم يعيشون فى نعيم لا يَخطُر على قلب بشر ومع ذلك فإن الله (جل وعلا) سينادى عليهم ويقول: يا أهل الجنة هل تريدون شيئًا أزيدكم؟

فيتعجب أهل الجنة لأنهم يعيشون فى نعيم لم يحلموا به.. فيقولون: ألم تُبيض وجوهنا.. ألم تُدخلنا الجنة وتُنجنا من النار.

وكأنهم يريدون أن يقولوا للحق (جل وعلا): لقد أعطيتنا فوق ما نريد فنحن لم يخطر على بالنا هذا النعيم الذى أكرمتنا به.

وإذا بالحق (جل وعلا) يُفيض عليهم من كرمه ورحمته فيكشف الحجاب

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨١) كتاب الإيمان.

فينظرون إلى وجه الله (جل وعلا) فعند ذلك يتضاءل أى نعيم رآه أهل الجنة أمام لذة النظر إلى وجه الله (جل وعلا).

ومن المعلوم أن كل أهل الجنة يتلذذون بالنظر إلى ربهم (جل وعلا) لكن من المؤكد أنه سيكون هناك تفاوت بينهم فى تلك اللذة... فكما أنه سيكون بينهم تفاوت فى دخول الجنة فكذلك سيكون هناك تفاوت فى النظر... فمنهم مَن يدخل بغير حساب ولا عذاب... ومنهم مَن يدخل الجنة بعد الحساب والعذاب الشديد ومنهم مَن يدخل الجنة قبل أخيه بخمسمائة عام.. ومنهم مَن يكون فى أعلى درجات الجنة فى الوقت الذى يكون فيه مَن هو أدنى منه فى درجات الجنة.

۞ ولذلك فإن الناس سيتفاوتون فى لذة النظر كما بين السماء والأرض لأن «لذة النظر إلى وجه الله يوم القيامة تابعة للتلذُّذ بمعرفته ومحبته فى الدنيا، فإن اللذة تتبع الشعور والمحبة... فكلما كان المُحب أعرف بالمحبوب وأشد محبة له كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم»[١].

۞ بل هناك تفاوت فى عدد المرات التى يتلذذ بها العبد برؤية وجه ربه (جل وعلا) كما يقول ابن سعدى فى قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٢].

«أى تنظر إلى ربها حسب مراتبهم: منهم مَن ينظره كل يوم بُكرة وعَشيًّا، ومنهم مَن ينظره كل جمعة مرة واحدة... فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم وجماله الباهر، الذى ليس كمثله شىء».

۞ ومن أجل ذلك فإن الله (جل وعلا) قد جمع لعباده المؤمنين بين التمتُّع بنعيم الجنة وبين التمتُّع برؤية وجهه (جل وعلا) فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾[٣].

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٣) بتصرف.

(٢) سورة القيامة: الآيتان: (٢٢، ٢٣).

(٣) سورة المطففين: الآيتان: (٢٢، ٢٣).

(٤٩) ورضوانٌ من الله أكبر

۞ قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[١].

۞ عنْ أبى سعيدٍ الخُدرِىِّ رضي الله عنه أنَّ رسُولَ الله ﷺ قالَ: **«إنَّ الله عز وجل يقُولُ لأهْلِ الجنَّةِ: يا أهْلَ الجنَّةِ، فيقُولُون: لبَّيْكَ ربَّنَا وسعدَيْكَ، والخَيْرُ فى يديْكِ فيقُولُ: هَلْ رَضِيتُم؟ فيقُولُون: وما لَنا لا نَرضَى يا رَبَّنَا وقَد أعطَيْتَنا ما لَمْ تُعطِ أحدًا مِن خَلْقِكَ، فيقُولُ: ألا أُعطِيكُمْ أفْضَلَ مِن ذلكَ؟ فيقُولُون: وأىُّ شَىءٍ أفْضَلُ مِن ذلكَ؟ فيقُولُ: أُحِلُّ عليْكُم رِضْوانِى، فلا أسْخَطُ عليْكُمْ بَعدهُ أبدًا»**[٢].

وهو قول الله تعالى بعد أن ذكر نعيم الجنة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٣].

قال ابن عباس فى تفسيرها: «أكبر مما يوصف»[٤].

وأتت به الآية مُنكَّرًا غير مُعرَّف بمعنى أن أى شىء من رضاه عن عبده: فهو أكبر من الجنة وما فيها... كما قيل:

قليلٌ منك يكفينى ولكن   قليلك لا يُقال له قليل

وفى التنكير إشعار بالتعظيم، ولهذا جىء باسم إشارة البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ لكون المُشار إليه بعيد المكانة ومرتفعًا ارتفاعًا مَجازيًا كناية عن الشرف والعِظَم

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٤٩) كتاب الرقاق - ومسلم (٢٨٢٩) كتاب الجنة.

(٣) سورة التوبة: الآية: (٧٢).

(٤) زاد المسير (٣/ ٤٦٩).

والفخامة.

وقد سمَّى الله كبير خزنة الجنة: رضوان، وهو اسمٌ مُشتق من الرضا، ليكون أول ما يستقبل أهل الجنة: الرضا الفيَّاض بكل صوره اسمًا ومعنى!!

لكن ما هو طعم هذا الرضوان وما مذاقه فى القلب وكيف ستشعر النفس به؟! والجواب: لا أحد يعلم، ولا أحد يستطيع أن يتخيَّله... لكن ما نعلمه أكيدًا من هذه الآية أن المتع الروحية فى الجنة - وعلى قمتها رضوان الله- أعلى وأشرف من المتع الحسية... ولا مقارنة.

أو ما علمت بأنه سبحانه ... حقًّا يُكلم حزْبه بجنانِ

فيقول جل جلاله هل أنتم ... راضُون قالوا نحن ذو رضوانِ

أم كيف لا نرضى وقد أعطيتنا ... ما لم ينله قطُّ من إنسانِ

هل ثمَّ شىء غير ذا فيكون أفـ ... ـضل منه نسأله من المنانِ

فيقول أفضلُ منه رضوانى فلا ... يغشاكم سخط من الرحمانِ[1]

---

(١) النونية (ص ٣٩٨) لابن القيم.



(٥٠) إخراج أهل التوحيد من النار



۞ عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الخُدْرِىِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: «**يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ**»، **ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ. فَيخْرُجُونَ مِنْهَا قَدِ اسْوَدُّوا، فَيُلْقَوْنَ فِى نَهرِ الحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الحبَّةُ فِى جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً**»[١].

۞ معنى الحديث: يقول النبى ﷺ «**يدخل أهل الجنة الجنة**» أى: يدخل المؤمنون من أهل الجنة الجنة، بفضل الله ورحمته ثم بسبب أعمالهم الصالحة، «**وأهل النار النار**» أى ويدخل المؤمنون من أهل المعاصى النار لمجازاتهم على سيئاتهم «**ثم يقول الله** عَزَّ وَجَلَّ: «**أَخرجوا من النار مَن كان فى قلبه مثقال حبةٍ من خردلٍ من إيمان**» أى أخرجوا من النار كل مَن عمل مقدار حبة خردل من أعمال الإيمان بعد التوحيد والتصديق بما جاء به نبينا ﷺ ... أمَّا مَن نقص شيئًا من التوحيد، أو أنكر شيئًا مما جاء به النبى ﷺ، فإنه لا يدخل فى ذلك، ولا يخرج من النار، بل يُخلَّد فيها، لأن التوحيد والتصديق القلبى لا يقبل التجزئة، فمن أتى بشىءٍ من نواقض التوحيد فهو كافر مُخلد فى النار...وقد نَبَّه على ذلك العينى حيث قال: «واعلم أن المراد بالخردلة ما زاد عن أصل التوحيد، وقد جاء فى الصحيحين بيان ذلك، حيث قال تعالى: «**ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ**»[٢] ثم بعد هذا يُخرَج منها مَن لم يعمل خيرًا «**فيخرجون منها قد اسوَدُّوا فيُلقَون فى نهر الحياة**» الذى مَن غُمس فيه حَيى إلى الأبد «**فينبتون كما تنبت الحبة**»، أى كما تنبت البذرة المزروعة «**ألم ترَ أنها تخرج**

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٢) كتاب الإيمان - ومسلم (١٨٤) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٤٣٩) كتاب التوحيد - ومسلم (١٨٣) كتاب الإيمان.

صفراء ملتوية» أى ألا ترى كيف تخرج من الأرض عند بدايتها صفراء اللون جميلة المنظر منعطفة الأوراق، ثم تتمدد وتتفتح أوراقها بعد ذلك، وهذا مما يزيد الرياحين حُسنًا».

۞ ويُستفاد منه ما يأتى:

أولًا: تَفاضُل أهل الإيمان فى درجات إيمانهم، وذلك بسبب تَفاضُل أعمالهم، كما ترجم له البخارى، وأن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وهو مذهب أهل السُّنة... والحديث، حجة ظاهرة لهم لأنه دَلَّ على أن من المؤمنين مَن يَقِلّ عمله حتى يكون كالخردلة، فينقص إيمانه تبعًا لذلك، وكل شىء قابل للنقص قابل للزيادة.

ثانيًا: أن مرتكب الكبيرة لا يُخَلَّد فى النار، ولا يخرج من الملة خلافًا للخوارج، لقوله ﷺ: «**أخرجوا من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان**».

ثالثًا: أن مرتكب المعاصى مُعرَّض للعقوبة فى الدار الآخرة، ودخول النار، إلاّ أن يعفو الله عنه، لقوله ﷺ: «**فيخرجون منها وقد اسوَدُّوا**» خلافًا للمرجئة الذين يقولون لا يضر مع الإيمان ذنب... حيث صرح فى هذا الحديث أنّ العُصاة يدخلون النار حتى تُسوَّد وجوههم. ممَّا يدل على أنّ الإيمان يتفاوت فى القِلة والكثرة وهو عين التفاضل[1].

---

(١) منار القارى شرح مختصر صحيح البخارى (١/ ١٠٣).



(٥١) نزول الله عَزَّوَجَلَّ إلى السماء الدنيا كل ليلة

۞ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِى فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُنِى فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِى فَأَغْفِرَ لَهُ».

۞ وفى رواية: «يَنْزِلُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِى ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَوَّلُ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِى يَدْعُونِى فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِى يَسْأَلُنِى فَأُعْطِيَهُ، مَنْ ذَا الَّذِى يَسْتَغْفِرُنِى فَأَغْفِرَ لَهُ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِىءَ الْفَجْرُ»[1].

۞ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: (هذا الحديث قال بعض أهل العلم: إنه من الأحاديث المتواترة، واتفقوا على أنه من الأحاديث المشهورة المستفيضة عند أهل العلم بالسُّنة.

۞ قوله: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا**».

نزوله تعالى حقيقى؛ لأنه كما مرَّ علينا من قبل: أن كل شىء كان الضمير يعود إلى الله؛ فهو يُنسب إليه حقيقة.

فعلينا أن نؤمن به ونصدق ونقول: ينزل ربنا إلى السماء الدنيا، وهى أقرب السماوات إلى الأرض... والسماوات سبع، وإنما ينزل عَزَّوَجَلَّ فى هذا الوقت من الليل للقرب من عباده (جل وعلا)؛ كما يقرب منهم عشية عرفة؛ حيث يباهى بالواقفين الملائكة.

۞ قوله: «**كل ليلة**».

يشمل جميع ليالى العام.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١١٤٥) كتاب التهجد - ومسلم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين.

۞ «**حين يبقى ثلث الليل الآخر**».

والليل يبتدئ من غروب الشمس اتفاقًا لكن حصل الخلاف فى انتهائه هل يكون بطلوع الفجر أو بطلوع الشمس؛ والظاهر أن الليل الشرعى ينتهى بطلوع الفجر، والليل الفلكى ينتهى بطلوع الشمس.

۞ وقوله: «**فيقول: مَن يدعونى**»

«**مَن**»: استفهام للتشويق؛ كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

و«**يدعونى**» أى: يقول: يا رب ويطلب كل ما ينفعه فى دُنياه وآخرته.

۞ وقوله: «**فأستجيبَ له**».

بالنصب؛ لأنها جواب الطلب... والفاء تدل على سرعة الاستجابة.

۞ «**مَن يسألنى**».

يقول: أسألك الجنة، أو نحو ذلك من مصالحه الدنيوية والأُخروية.

۞ «**مَن يستغفرنى**».

فيقول: اللهم اغفر لى، أو: أستغفرك اللهم، أو يقول دعاء سيد الاستغفار.

۞ «**فأغفر له**».

والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه.

بهذا يتبين لكل إنسان قرأ هذا الحديث أن المراد بالنزول هنا نزول الله نفسه، ولا نحتاج أن نقول: بذاته؛ ما دام الفعل أُضيف إليه؛ فهو له، لكن بعض العلماء قالوا: الذى ينزل أمر الله. وقال آخرون: بل الذى ينزل رحمة الله. وقال آخرون: بل الذى ينزل مَلَكٌ من ملائكة الله.

---

(١) سورة الصف: الآية: (١٠).

وهذا باطل؛ فإن نزول أمر الله دائمًا وأبدًا، ولا يختص نزوله فى الثلث الأخير من الليل ... قال الله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾[١].

وقال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾[٢].

أما قولهم: تنزل رحمة الله إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر. فسبحان الله!!... الرحمة لا تنزل إلا فى هذا الوقت... كيف يكون ذلك وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[٣]؛ فكل النعم من الله، وهى من آثار رحمته، وهى تَترى فى كل وقت!!

ثم نقول: أى فائدة لنا بنزول الرحمة إلى السماء الدنيا؟!

ثم نقول لمن قال: إنه ملك من ملائكته: هل من المعقول أن الملك من ملائكته الله يقول: مَن يدعونى فأستجيب له... إلخ؟!

فتبين بهذا أن هذه الأقوال تحريفٌ باطلٌ يُبطله الحديث.

ووالله؛ ليسوا أعلم بالله من رسول الله ﷺ، وليسوا أنصح لعباد الله من رسول الله ﷺ، وليسوا أفصح فى قولهم من رسول الله ﷺ!!

يقولون: كيف تقولون: إن الله ينزل؟ إذا نزل؛ أين العلو؟ وإذا نزل؛ أين الاستواء على العرش؟ إذا نزل؛ فالنزول حركة وانتقال. إذًا فالنزول حادث، والحوادث لا تقوم إلا بحادث!!

فنقول: هذا جدالٌ بالباطل، وليس بمانع من القول بحقيقة النزول!!

هل أنتم أعلم بما يستحقُّه الله عَزَّوَجَلَّ من أصحاب الرسول ﷺ؟! فأصحاب

---

(١) سورة السجدة: الآية: (٥).

(٢) سورة هود: الآية: (١٢٣).

(٣) سورة النحل: الآية: (٥٣).

الرسول ﷺ ما قالوا هذه الاحتمالات أبدا؛ بل قالوا: سمعنا وآمنا وقَبِلنا وصدَّقنا.

وأنتم أيها المخالفون المخلفون تأتون الآن وتجادلون بالباطل وتقولون: كيف؟! وكيف؟!

نحن نقول: ينزل، ولا نتكلَّم عن استوائه على العرش؛ هل يخلو منه العرش أو لا يخلو؟!

أما العلو؛ فنقول: ينزل، ولكنه عالٍ عَزَّوَجَلَّ على خلقه؛ لأنه ليس معنى النزول أن السماء تُقِلُّه، وأن السماوات الأخرى تُظلُّه؛ إذ إنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته.

فنقول: هو ينزل حقيقة مع عُلوه حقيقة، وليس كمثله شيء.

أما الاستواء على العرش فهو فعلٌ، ليس من صفات الذات، وليس لنا حق - فيما أرى - أن نتكلم هل يخلو منه العرش أو لا يخلو، بل نسكت كما سكت عن ذلك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وإذا كان علماء أهل السُّنة لهم في هذا ثلاثة أقوال: قول بأنه يخلو، وقول بأنه لا يخلو، وقول بالتوقف.

وشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في «الرسالة العرشية» يقول: إنه لا يخلو منه العرش؛ لأن أدلة استوائه على العرش مُحكمة، والحديث هذا مُحكم، والله عَزَّوَجَلَّ لا تُقاس صفاته بصفات الخلق؛ فيجب علينا أن نُبقي نصوص الاستواء على إحكامها، ونَصَّ النزول على إحكامه، ونقول: هو مُستوٍ على عرشه، نازل إلى السماء الدنيا... والله أعلم بكيفية ذلك، وعقولنا أقصر وأدنى وأحقر من أن تحيط بالله عَزَّوَجَلَّ.

القول الثاني: التوقُّف؛ يقولون: لا نقول: يخلو، ولا: لا يخلو.

والثالث: أنه يخلو منه العرش.

۞ وأورد المتأخرون الذين عرفوا أن الأرض كروية وأن الشمس تدور على الأرض إشكالًا؛ قالوا: كيف ينزل فى ثلث الليل؟! وثلث الليل إذا انتقل عن المملكة العربية السعودية؛ ذهب إلى أوربا وما قاربها؟ أفيكون نازلًا دائمًا؟

فنقول: آمِن أولًا بأن الله ينزل فى هذا الوقت المعيَّن، وإذا آمنت؛ ليس عليك شىء وراء ذلك، لا تَقُل كيف؟! وكيف؟! بل قُل: إذا كان ثلث الليل فى السعودية؛ فالله نازل، وإذا كان فى أمريكا ثلث الليل؛ يكون نزول الله أيضًا، وإذا طلع الفجر؛ انتهى وقت النزول فى كل مكانٍ بحسبه.

إذًا؛ موقفنا أن نقول: إنَّا نؤمن بما وصل إلينا عن طريق محمد رسول الله ﷺ؛ «**بأن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الآخر من الليل، ويقول: مَن يدعونى فأستجيب له؟ مَن يسألنى فأعطيه؟ مَن يستغفرنى فأغفر له؟!**».

۞ من فوائد هذا الحديث:

أولًا: إثبات العلو لله من قوله: «**ينزل**».

ثانيًا: إثبات الأفعال الاختيارية التى هى الصفات الفعلية من قوله: «**ينزل حين يبقى ثلث الليل الآخر**».

ثالثًا: إثبات القول لله من قوله: «**يقول**».

رابعًا: إثبات الكرم لله عَزَّوَجَلَّ من قوله: «**مَن يدعونى... مَن يسألنى... مَن يستغفرنى...**».

وفيه من الناحية المسلكية:

أنه ينبغى للإنسان أن يغتنم هذا الجزء من الليل، فيسأل الله عَزَّوَجَلَّ ويدعوه ويستغفره.

وما دام الرب سبحانه يقول: «**مَن يدعونى... مَن يستغفرنى...**» و«**مَن**»: للتشويق؛ فينبغى لنا أن نستثمر هذه الفرصة؛ لأنه ليس لك من العمر إلا ما

أمضيته فى طاعة الله، وستمر بك الأيام فإذا نزل بك الموت؛ فكأنك وُلدت تلك الساعة، وكل ما مضى ليس بشىء[1].

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص ٢٩٨-٣٠٢) بتصرف وزيادة.

 (٥٢) الله يفرح بتوبتك

۞ عَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «قال الله عَزَّوَجَلَّ: **أنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى، وأنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِى، وَاللَّهِ لَلَّهُ أفْرَحُ بتَوْبَة عَبْدِهِ مِنْ أحَدِكُمْ يجدُ ضالَّتَهُ بالْفلاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إلَىَّ شِبْرًا، تَقرَّبْتُ إلَيْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إلَىَّ ذِراعًا، تَقَرَّبْتُ إليه بَاعًا، وإذا أقْبَلَ إلَىَّ يمْشى، أقبلتُ إلَيه أُهَرْوِلُ**»[(١)].

۞ **«أنا عند ظن عبدى بى»** يعنى أن الله عَزَّوَجَلَّ عند ظن عبده المؤمن به عَزَّوَجَلَّ.. إن ظن به خيرًا فله وإن ظن به غير ذلك فله أيضًا.. ولكن السؤال الذى ينبغى أن نعرف إجابته هنا هو: متى يكون العبد حسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ؟...

يكون ذلك بأن يفعل العبد ما أوجبه الله عليه وأن يعمل الصالحات التى تُوجب فضل الله ورحمته ويُحسن الظن بالله أن الله عَزَّوَجَلَّ سوف يتقبل منه تلك الأعمال الصالحة.

أما أن يُحسن الظن وهو لا يعمل عملًا صالحًا.. فهذا من باب التمنِّى على الله... ومَن أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأمانى فهو عاجز.

وكذلك لا يَصلُح أن يعمل العبد المعاصى ثم يُحسن الظن بالله.

لأن حُسن الظن بالله يكون عند عمل الصالحات ورجاء قبولها.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى**» قَالَ الْقَاضِى: قِيلَ مَعنَاهُ بِالْغُفْرَانِ لَهُ إِذَا اسْتَغْفَرَ وَالْقَبُولِ إِذَا تَابَ وَالإِجَابَةِ إِذَا دَعَا وَالْكِفَايَةِ إِذَا طَلَبَ الْكِفَايَةَ... وَقِيلَ الْمُرَادُ بِهِ الرَّجَاءُ وَتَأْمِيلُ الْعَفْوِ وَهَذَا أَصَحُّ[(٢)].

۞ قوله: «**وأنا معه حيث يذكرنى**» أى: أنا معه بالرحمة والتوفيق والهداية

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٤٠٥) كتاب التوحيد - ومسلم (٢٦٧٥) كتاب التوبة.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٣).

والرعاية والإعانة والنصر «حيث يذكرنى» سواء ذكرنى فى نفسه أو ذكرنى بين الملأ... وفى رواية: «حين يذكرنى».

وأما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ فمعناه: معكم بالعلم والإحاطة.

۞ «**والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة**».

وهذا اختصار لما جاء فى الرواية الأخرى أن النبى ﷺ قال: «**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِى ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِى وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ**».

فهذا الرجل كان يركب ناقته وعليها طعامه وشرابه وملابسه وأمواله وكل أسباب حياته فى تلك الصحراء.. وفجأة انفلتت منه دابته فأيس من رجوعها مرة أخرى وتيقَّن أنه قد تكون نهايته فى تلك الصحراء.. فذهب واضطجع فى ظل شجرة ينتظر الموت.. فبينما هو كذلك إذ جاءت الناقة ووقفت عنده فلم يصدق نفسه... وكأنه قد عادت إليه أسباب الحياة مرة أخرى فأخذ بخطام الناقة ثم قال من شدة الفرح: «**اللهم أنت عبدى وأنا ربك**».. يقول النبى ﷺ عن هذا الرجل: «**أخطأ من شدة الفرح**».

فتأمل معى كيف كانت فرحة هذا الرجل برجوع ناقته حتى أخطأ هذا الخطأ الكبير.. فالله أفرح بتوبة عبده حين يتوب.. أكثر من فرحة هذا الرجل حين عادت إليه ناقته وعليها كل أسباب حياته.

مع أن الله عَزَّوَجَلَّ غنىٌّ عنَّا.. لا تنفعه طاعتنا ولا تضره معصيتنا..

قال تعالى: «**يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِى مُلْكِى شَيْئًا... يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ**

وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أفْجَر قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»[١].

۞ ثم قال تعالى: «وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرّبَ إِلَيَّ ذِراعًا، تَقَرَّبْتُ إليه بَاعًا، وإذا أَقْبَلَ إِلَيَّ يمْشى، أَقبلتُ إلَيه أُهَرْوِلُ»

ثم ذكر أن الله سبحانه وتعالى أكرم من عبده... فإذا تقرب الإنسان إلى الله شبراً، تقرب الله منه ذراعًا، وإن تقرب منه ذراعًا، تقرب منه باعًا، وإن أتاه يمشى أتاه يهرول عَزَّوَجَلَّ ... فهو سبحانه وتعالى أكثر كرمًا وأسرع إجابة من عبده.

وهذه الأحاديث وأمثالها مما يؤمن به أهل السُّنة والجماعة على أنه حَقٌّ حقيقة لله عَزَّوَجَلَّ، لكننا لا ندرى كيف تكون هذه الهرولة، وكيف يكون هذا التقرُّب... فهو أمرٌ ترجع كيفيته إلى الله، وليس لنا أن نتكلم فيه، لكن نؤمن بمعناه ونُفوض كيفيته إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

والسلف «أهل السُّنة والجماعة» يجرون هذه النصوص على ظاهرها وحقيقة معناها اللائق بالله عَزَّوَجَلَّ من غير تكييف ولا تمثيل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى شرح حديث النزول: «وَأَمَّا دُنُوُّهُ نَفْسُهُ وَتَقَرُّبُهُ مِنْ بَعضِ عِبَادِهِ؛ فَهَذَا يُثْبِتُهُ مَنْ يُثْبِتُ قِيَامَ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ بِنَفْسِهِ وَمَجِيئِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَنُزُولِهِ وَاسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ. وَهَذَا مَذْهَبُ أَئِمَّةِ السَّلَفِ وَأَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ الْمَشْهُورِينَ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ وَالنَّقْلُ عَنْهُمْ بِذَلِكَ مُتَوَاتِرٌ» ا.هـ.

فأى مانع يمنع من القول بأنه يقرب من عبده كيف يشاء مع عُلوه؟

وأى مانع يمنع من إتيانه كيف يشاء بدون تكييف ولا تمثيل؟

وهل هذا إلا من كماله أن يكون فعَّالًا لما يريد على الوجه الذى يليق به؟[٢]

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة.

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٦٦).



(٥٣) خطر الشرك.. وذمُّ الرياء

۞ عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**» قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِذَا جَازَى النَّاس بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً**»(١).

۞ الرياء فى اللغة مُشتق من الرؤية، وهى: النظر...يُقال: رائيتُه، مُراءاة، ورياء، إذا أريتُه على خلاف ما أنا عليه(٢).

وفى الاصطلاح: أن يُظهر الإنسان العمل الصالح للآخرين أو يُحسنه عندهم، أو يَظهر عندهم بمظهر مندوب إليه ليمدحوه ويَعظُم فى أنفسهم(٣).

فمن أراد وجه الله والرياء معًا فقد أشرك مع الله غيره فى هذه العبادة، أما لو عمل العبادة وليس له مقصد فى فعلها أصلًا سوى مدح الناس فهذا صاحبه على خطرٍ عظيم، وقد قال بعض أهل العلم: إنه قد وقع فى النفاق والشرك المُخرج

---

(١) حسن: رواه أحمد، والبيهقى، وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٩٥١).

(٢) ويقال: أريته العمل إراءة، ورئاء...قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فالياء فى «رياء» مقلوبة عن همزه. ينظر بصائر ذوى التمييز (٣/ ١١٦)، القاموس المحيط «مادة رئاء».

(٣) وينظر الرعاية (ص٢٠٩)، قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام (ص١٦٠).

وقد أدخل بعض العلماء إرادة الدنيا فى الرياء، والصحيح أن الرياء من إرادة الدنيا، لا العكس؛ لأن المرائى إما أن يريد أن يعظم فى نفوس الخلق ليحصل على رئاسة أو مال من قِبَلهم ونحو ذلك، وهذا كله من الدنيا، وإما أن يريد مدح الناس والجلالة فى أعينهم فقط، وهذا أيضًا من إرادة الدنيا؛ لأنه إنما يريد هذه الأمور العاجلة فى هذه الحياة الدنيا، ولا يريد وجه الله والدار الآخرة... أما كون الإنسان يعمل العمل الصالح من أجل الوظيفة ونحو ذلك فهذا ليس من الرياء؛ لأنه لم يُرِ عمله أحدًا، وإنما هو من إرادة الدنيا، وهى أعمّ من الرياء.

من الملة[١].

۞ والرياء له صور عديدة، منها:

١ - الرياء بالعمل، كمراءاة المصلى بطول الركوع والسجود[٢].

٢ - المراءاة بالقول، كسرد الأدلة إظهارًا لغزارة العلم، ليُقال: عالِم[٣].

---

(١) وبعض العلماء كالغزالى وابن رجب والهيتمى لا يجعل الرياء المحض فى العبادات مكفرًا، وهو ظاهر كلام كثير من أهل العلم، ولعله الأقرب، ومثله مَن أراد بعبادته الدنيا وحدها؛ لأنه لم يخضع ولم يتذلل فى ذلك لأحد، ولم يُعظمه، وإنما أراد تحقيق ما تهواه نفسه من المدح ونحوه من الحظوظ العاجلة ... وقد حكى أبوالبقاء فى الكليات «مادة: شرك» الإجماع على أن العمل لغير الله معصية من غير كفر ... وبالجملة فإن المسألة خطيرة، لكونه قَصَد بالعبادة غير وجه الله.

أما الرياء بأصل الإيمان، أو إظهار بعض العبادات الأخرى رياءً مع إبطان الكفر فهذا من الشرك الأكبر والنفاق الأكبر.

(٢) وكَبِرِّ الوالدين ليُقال: بارٌّ وكإكرام الضيوف ليقال: كريم، وكالصدقة على الفقراء وفى أوجه الخير الأخرى ليقال: كريم. أما الإنفاق على الأغنياء وإقامة الولائم لهم لا على وجه العبادة والصدقة، بل ليُقال: سخى، فليس من الرياء؛ لأنه ليس من أعمال الخير.

(٣) وكتحريك الشفتين بالذكر أمام الناس رياءً. ومن الرياء بالقول أن يُحسن صوته بالقراءة، ليُقال: فلان قارئ، وهذا من السمعة المحرمة، وقد روى البخارى (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧) عن جندب مرفوعًا: «**مَن يُرائى يُرائى الله به، ومن يُسمِّع يُسمِّع الله به**» والمعنى أن الله يفضحه يوم القيامة بإظهار قصده السيء.

ومن أنواع السمعة المحرمة أيضًا أن يذكر للناس ما عمله من أعمال صالحة فيما مضى، ليمدحوه أو يعظم فى نفوسهم.

۞ وهل السمعة بعد انتهاء العمل تُبطل العمل؟ ورد فى ذلك حديثان عند البيهقى فى «الشعب» فى أنه يبطل. وإسناد كل منهما ضعيف. قال فى الإحياء (٣/ ٣٢٥): «الأقيس أنه مُثاب على عمله الذى مضى، ومُعاقَب على مُراءاته بطاعة الله بعد الفراغ منها». وقال فى مختصر منهاج القاصدين (ص٢٨٣): «أما إن تحدَّث به بعد تمامه وأظهره فهذا مخوف، والغالب عليه أنه كان فى قلبه وقت مباشرة العمل نوع رياء، فإن سَلِم من الرياء نقص أجره».

٣- المراءاة بالهيئة والزيِّ، كإبقاء أثر السجود على الجبهة رياءً[١].

۞ هذا وهناك بعض الصور أدخلها بعض أهل العلم فى الرياء، والأقرب أنها لا تدخل فيه ومنها:

(١) ترك فعل العبادات أمام الناس خوفًا من الرياء، فقد عمَّم بعض العلماء الحكم فى هذا، والأقرب فى ذلك هو التفصيل: فمن عَلِمَ من نفسه أنه سيقع فى الرياء إن أدى هذه العبادة أمام الناس ينبغى له أن لا يفعلها أمامهم، بل إنه قد ورد الندب إلى فعل النوافل فى البيوت، وورد الندب إلى الإسرار بالصدقة، فهنا أَولَى.

أما من ترك العبادة من أجل مجرد رؤية الناس له فهو رياء، لأنه تركها من أجل الناس، لكن لو تركها ليصليها فى الخلوة فهذا مستحب.

(٢) تَرْكُ المعصية خوفًا من ذَمِّ الناس، فإن الأقرب أن هذا ليس من الرياء؛ لأن المسلم مأمور بالستر على نفسه، ومأمور بأن يبتعد عما يسىء إلى عِرضه، ومأمور بإبعاد قالة السوء عن نفسه، وترك المعصية وإخفاؤها خوفًا من الذم داخل فى هذا... وقد ذكر الغزالى فى الإحياء (٣/ ٣٣٦-٣٣٩): ثمانية أعذار يجوز أو يندب من أجلها إخفاء المعصية، ثم قال: «ومهما قصد بستر المعصية أن يخيل إلى الناس أنه ورع كان مرائيًا»، وبالجملة فإن العبرة بالنية والقصد.

(٣) الفرح بعلم الناس بعمله بعد أدائه للعبادة. قال فى مختصر منهاج القاصدين (ص٢٨٣): «فإن ورد عليه بعد الفراغ سرور بالظهور من غير إظهار منه فهذا لا يحبط العمل، لأنه قد تم على نعت الإخلاص، فلا ينعطف ما طرأ عليه بعده».

وقال شيخنا محمد بن عثيمين فى القول المفيد (٢/ ٢٢٨): «وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته؛ لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة».

---

(١) وكتقصير الثياب، والظهور بمظهر الزُّهَّاد من أجل أن يُمدَح بذلك.

۞ وقد وردت أدلة كثيرة تدل على تحريم الرياء وعِظَم عقوبة فاعله، وأنه يُبطل العمل الذى يصاحبه.

قال الحافظ ابن رجب فى جامع العلوم: «تارة يكون العمل لله، ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص تدل على بطلانه وحبوطه، ولا نعرف عن السلف فى هذا خلافًا، وإن كان فيه خلاف عن بعض المتأخرين، وأما إن كان أصل العمل لله ثم طرأت عليه نية الرياء، فإن كان خاطرًا ودفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط به عمله أم لا يضره ذلك ويجازى على أصل نيته؟ فى ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير، ورجَّحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يُجازى بنيته الأولى»[1].

۞ ولهذا ينبغى للمسلم البعد عن الرياء والحذر من الوقوع فيه...وهناك أمور تعين على البُعد عنه، أهمها:

(١) **تقوية الإيمان فى القلب**، ليَعظُم رجاء العبد لربه، ويُعرض عمَّن سواه، ولأن قوة الإيمان فى القلب من أعظم الأسباب التى يعصم الله بها العبد من وساوس الشيطان، ومن الانقياد لشهوات النفس.

(٢) **التزود من العلم الشرعى**، وبالأخص علم العقيدة الإسلامية، ليكون ذلك حِرزًا له بإذن الله من فتن الشبهات، وليعرف عظمة ربه عَزَّوَجَلَّ، وضعف المخلوقين وفقرهم، فيحمله ذلك كله على مقت الرياء واحتقاره والبعد عنه، وليعرف أيضًا مداخل الشيطان ووساوسه، فيَحذرها.

(٣) **الإكثار من الالتجاء إلى الله تعالى**، ودعائه أنه يعيذه من شر نفسه ومن شرور الشيطان ووساوسه، وأن يرزقه الإخلاص فيما يأتى وما يذر، والإكثار من الأذكار الشرعية التى هى حصن من شرور النفس والشيطان.

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٧٩).

(٤) **تذكُّر العقوبات الأخروية العظيمة التى تَحصُل للمرائى**، ومن أعظمها أنه من أول مَنٍ تُسعَّر بهم النار يوم القيامة.

(٥) **التفكُّر فى حقارة المرائى**، وأنه من السفهاء والسَّفَلة؛ لأنه يضيع ثواب عمله الذى هو سبب لفوزه بالجنة ونجاته من عذاب القبر وشدة القيامة وعذاب النار من أجل مدح الناس والحصول على منزلة عند المخلوقين، فهو يبحث عن رضا المخلوق بمعصية الخالق... ولهذا لما سُئل الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: مَنِ السَّفَلة؟ قال: «مَن أكل بدينه»[١].

(٦) **الحرص على كل ما هو سبب فى عدم الوقوع فى الرياء**،

وذلك بالحرص على إخفاء العبادات المستحبة، وبمدافعة الرياء عندما يخطر بالقلب، وبالبعد عن مجالسة المدّاحين وأهل الرياء، ونحو ذلك[٢].

۞ وفى ختام الكلام على مسألة الرياء يَحسُن التنبيه إلى أنه لا يجوز للمسلم أن يرمى مسلمًا آخر بالرياء، فإن الرياء من أعمال القلوب ولايعلمه إلا علاّم الغيوب...واتهام المسلمين بالرياء هو من أعمال المنافقين[٣]، والأصل فى

(١) روى البيهقى فى «الشعب»(٦٩٣٣) عن الإمام مالك أنه سأله شيخه ربيعة بن أبى عبد الرحمن -وهو من أئمة التابعين- فقال له: من السفلة؟ فقال مالك: من أكل بدينه. قال ربيعة: من سفلة السفلة؟ قال: مَن أصلح دنيا غيره بفساد دينه. قال مالك: فصدَّرنى.

وممن يأكل بدينه: المرائى. فقد يريد بأدائه للعبادة الحصول على مكانة فى نفوس الناس ليُكرَم من أجلها أو يُولَّى عملًا يتقاضى عليه أجرًا، أو يُكرَم بالهدايا والهبات ونحو ذلك.

ويدخل فى سفلة السفلة الذين يُصلحون دنيا غيرهم بإفساد أديان أنفسهم: مَن يعمل فى تجارة محرمة لغيره، ومَن يظلم الآخرين أو يعذبهم أو يتجسس عليهم فيتسبب فى أذاهم من أجل المحافظة على مصالح غيره، ومَن يفتى بحِلِّ ما حرّم الله من أجل تحقيق رغبات وشهوات ومصالح مَن يفتيهم، فيُهلك نفسه من أجل مصلحة أو هوى غيره.

(٢) ينظر الرعايةص٢٣٣-٢٤٢، الإحياء٣/ ٣٢١-٣٣٤، مختصر منهاج القاصدين ص٢٨٣-٢٨٥.

(٣) قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة:٧٩]، وروى البخارى (٤٦٦٨)، ومسلم (١٠١٨) فى سبب نزول =

المسلم السلامة، وأنه إنما أراد وجه الله.

۞ وأيضًا فإن المسلم يُندَب له في بعض المواضع أن يُظهر عمله للناس، إذا أَمِنَ على نفسه من الرياء، كما إذا أراد أن يُقتدى به في الخير، فليس كل مَن حرص على إظهار عمله للناس يُعتَبر مُرائيًا[1][2].

= هذه الآية عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: لما أُمرنا بالصدقة كنا نتحامل، فجاء أبوعقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رياء ... ومعنى نتحامل: نحمل على ظهورنا للناس بالأجرة من أجل أن نتصدق بها، لأنه ليس عندهم شيء يتصدقون به.

(١) ينظر: الرعاية (ص٣١٥-٣٢٤)، الإحياء (٣/ ٣٣٤-٣٣٦)، مختصر منهاج القاصدين (ص٢٨٧).

(٢) بتصرف من (تسهيل العقيدة الإسلامية) / د. عبد الله بن عبد العزيز الجبرين.

(٥٤) إنَّ الله كتب الحسنات والسيئات

۞ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيمَا يَرْوِى عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ: فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»(١).

۞ قوله ﷺ: «إن الله كتب الحسنات والسيئات» كتابته للحسنات والسَّيِّئات تشمل معنيين:

المعنى الأول: كتابة ذلك فى اللَّوح المحفوظ ... فإنَّ الله تعالى كتب فيه كل شىءٍ كما قال الله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾(٣). فالله سبحانه وتعالى كتب السيئات والحسنات فى اللوح المحفوظ.

والمعنى الثانى: كتابته إيَّاهما إذا عملها العبد فإن الله تعالى يأمر الملائكة بكتابتها بحسب ما تقتضيه حكمته وبحسب ما يقتضيه عدلُه وفضله.

«فَمَنْ همَّ بِحَسَنة فَلَمْ يَعمَلْهَا كتبهَا الله تَبَارَكَ وَتَعَالى عنْدَهُ حسنةً كاملةً».

ومثال ذلك: أن يهم الإنسان بفعل طاعة أو فعل خيرٍ بعينه ثم يُحال بينه وبين فعل ذلك فإنه يُكتب له حسنة كاملة... بل قيل إنه بمجرد أن يَهم بفعل أى طاعة تُكتب له حسنة كاملة وإن لم يفعلها ... حتى ولو لم يكن هناك شىء حال

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٩١) كتاب الرقاق - ومسلم (١٣١) كتاب الإيمان.

(٢) سورة القمر: الآية: (٤٩).

(٣) سورة القمر: الآية: (٥٣).

بينه وبين تلك الطاعة... وذلك فضل الله يُؤتيه مَن يشاء.. فهو سبحانه يجزى عبده بمجرد أن ينوى فعل الخير أو الطاعة.

مثاله: رجلٌ هَمَّ أن يتوضأ ليقرأ القرآن، ثم لم يفعل ذلك وعدل عنه فإنه يُكتب له بذلك حسنة كاملة.

همَّ أن يتصدّق وعيَّن المال الذى يريد أن يتصدق به ثم أمسك ولم يتصدّق فيُكتب له بذلك حسنة كاملة... همَّ أن يصلِّى ركعتين فأمسك ولم يُصلِّ فإنه يُكتب له بذلك حسنة كاملة.

«وإنْ هَمَّ بهَا فَعَملَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَشْر حَسَنَاتٍ إلَى سَبْعمائة ضعفٍ إِلَى أَضعَافٍ كثيرة».

وهذا التَّفاوت مبنى على الإخلاص والمتابعة ... فكلما كان الإنسان فى عبادته أخلص لله كان أجره أكثر وكلما كان الإنسان أتبع فى عبادته للرسول ﷺ كانت عبادته أكمل وثوابه أكثر.

وأما السيئة فقال: «**وإن همَّ بسيئة فلَم يعملها كتبها الله حسنة كاملة**».

كرجلٍ هَمَّ أن يسرق ولكن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فأدركه الخوف من الله فترك السرقة، فإنه يُكتب له بذلك حسنة كاملة لأنه ترك فعل المعصية لله فأُثيب على ذلك.

كما جاء ذلك مُفسَّرًا فى لفظٍ آخر: «**لأنه تركها من جرَّاى**»[1] أى من أجلى.

فإن عمل السيئة كُتبت سيئة واحدة فقط لا تزيد... لقوله تعالى: ﴿**مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾[2].

وهذا الحديث فيه: دليل على اعتبار النِّية وأن النِّية قد تُوصل صاحبها إلى الخير.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٠١) كتاب التوحيد- ومسلم (١٢٩) كتاب الإيمان.

(٢) سورة الأنعام: الآية: (١٦٠).

وسبق لنا أن الإنسان إذا نوى الشَّر وعمل العمل الذى يُوصل إلى الشَّر ولكنه عجز عنه فإنه يُكتب عليه إثم الفاعل...كما سبق فيمن التقيا بسيفيهما من المسلمين: «**إذا التقى المُسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتُولُ فى النَّار**. قالوا: يا رَسولَ الله، هذا القاتِلُ فما بالُ المقتُول؟ قال: **لأنَّه كان حريصًا على قتل صاحبه**»(١)(٢).

فأما الهم الذى لا يُكتب فهى الخواطر التى لا تُوطن النفس عليها ولا يصحبها عقد ولا نية وعزم.

۞ وفى رواية: عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يَقُولُ اللهُ: إِذَا أَرَادَ عَبْدِى أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فَلاَ تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِى فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً...وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ**»(٣).

۞ وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِى بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْ، فَإِذَا عَمِلَهَا، فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا، فَإِذَا عَمِلَهَا، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا**» وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ: رَبِّ، ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً - وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ- فَقَالَ: ارْقُبُوهُ فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّاىَ**»(٤).

۞ وسُئل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «عَنْ قَوْلِهِ ﷺ: «**إِذَا هَمَّ الْعَبْدُ بِالْحَسَنَةِ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً**» الْحَدِيثَ. فَإِذَا كَانَ الْهَمُّ سِرًّا بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣١) كتاب الإيمان - ومسلم (٢٨٨٨) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٢) (شرح رياض الصالحين) (١/ ٥٦-٥٧) بتصرف.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٠١) كتاب التوحيد- ومسلم (١٢٨) كتاب الإيمان.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٢٩) كتاب الإيمان.

فَكَيْفَ تَطَّلِعُ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِ؟.

فَأَجَابَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ، قَدْ رُوِيَ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ فِي جَوَابِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ قَالَ: «إِنَّهُ إِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ شَمَّ الْمَلَكُ رَائِحَةً طَيِّبَةً وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ شَمَّ رَائِحَةً خَبِيثَةً».

وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ اللهَ قَادِرٌ أَنْ يُعْلِمَ الْمَلَائِكَةَ بِمَا فِي نَفْسِ الْعَبْدِ كَيْفَ شَاءَ، كَمَا هُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُطَّلِعَ بَعْضَ الْبَشَرِ عَلَى مَا فِي الإِنْسَانِ.

فَإِذَا كَانَ بَعْضُ الْبَشَرِ قَدْ يَجْعَلُ اللهُ لَهُ مِنْ الْكَشْفِ مَا يَعْلَمُ بِهِ أَحْيَانًا مَا فِي قَلْبِ الإِنْسَانِ... فَالْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِالْعَبْدِ أَوْلَى بِأَنْ يُعَرِّفَهُ اللهُ ذَلِكَ.

وَقَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[1] أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْمَلَائِكَةُ... وَاللهُ قَدْ جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ تُلْقِي فِي نَفْسِ الْعَبْدِ الْخَوَاطِرَ كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: «إِنَّ لِلْمَلَكِ لَمَّةً وَلِلشَّيْطَانِ لَمَّةً... فَلَمَّةُ الْمَلَكِ تَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ وَوَعْدٌ بِالْخَيْرِ وَلَمَّةُ الشَّيْطَانِ تَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ وَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ».

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنْ الْجِنِّ، وَقَرِينُهُ مِنْ الْمَلَائِكَةِ**» قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**وَإِيَّايَ إِلَّا أَنَّ اللهَ قَدْ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسلم فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ**»[2]. فَالسَّيِّئَةُ الَّتِي يَهُمُّ بِهَا الْعَبْدُ إِذَا كَانَتْ مِنْ إِلْقَاءِ الشَّيْطَانِ: عَلِمَ بِهَا الشَّيْطَانُ.

وَالْحَسَنَةُ الَّتِي يَهُمُّ بِهَا الْعَبْدُ إِذَا كَانَتْ مِنْ إِلْقَاءِ الْمَلَكِ: عَلِمَ بِهَا الْمَلَكُ أَيْضًا بِطَرِيقِ الأَوْلَى ... وَإِذَا عَلِمَ بِهَا هَذَا الْمَلَكُ: أَمْكَنَ عِلْمُ الْمَلَائِكَةِ الْحَفَظَةِ لِأَعْمَالِ بَنِي آدَمَ»[3].

---

(١) سورة ق: الآية: (١٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨١٤) صفات المنافقين.

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٥٣-٢٥٤).



(٥٥) الترهيب من مُعاداة أولياء الله عَزَّوَجَلَّ

۞ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُه عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[(١)].

۞ أولياء الله هم أهل الإيمان والتقوى ولذا قال الحق تبارك وتعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[(٢)].

يخبر تعالى عن أوليائه وأحبائه، ويذكر أعمالهم وأوصافهم وثوابهم، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه، مما أمامهم، من المخاوف والأهوال.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما أسلفوا، لأنهم لم يُسلفوا إلا صالح الأعمال. وإذا كانوا لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، ثبت لهم الأمن والسعادة، والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله،

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

«آذنتُهُ»: أَعلَمْتُه بِأَنِّي محارب لَهُ – «استعاذني» رُوي بالنون وبالباءِ.

(٢) سورة يونس: الآيات: (٦٢–٦٤).

واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وصدقوا إيمانهم باستعمال التقوى، بامتثال الأوامر واجتناب النواهى.

فكل مَن كان مؤمنًا تقيًّا كان لله تعالى وليًّا...لذلك كانت ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾.

أما البشارة فى الدنيا، فهى: الثناء الحسن، والمودة فى قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لُطف الله به وتيسيره لأحسن الأَعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوئ الأخلاق.

وأما فى الآخرة، فأولها البشارة عند قبض أرواحهم... كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

وفى القبر، ما يُبشَّر به من رضا الله تعالى، والنعيم المقيم.

وفى الآخرة، تمام البشرى، بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ بل ما وعد الله فهو حَقٌّ، لا يمكن تغييره ولا تبديله، لأنه الصادق فى قِيله، الذى لا يقدر أحدٌ أن يخالفه فيما قدَّره وقضاه.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور، والظفر بكل مطلوبٍ محبوب... وحصر الفوز فيه، لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

والحاصل أن البشرى شاملة لكل خير وثواب، رتَّبه الله فى الدنيا والآخرة، على الإيمان والتقوى، ولهذا أطلق ذلك، فلم يُقيده[١].

(١) تفسير السعدى (ص ٤١٢).

۞ والخلاصة أن ولى الله هو القائم بطاعته المخلص فى عبادته، والموالاة هى المحبة والنُّصرة...ومن أعظم ما يتبين به الولى: أن يكون مُجاب الدعوة، راضيًا عن الله عَزَّوَجَلَّ فى كل حال، تاركًا لمناهيه، تاركًا لما يتكالب عليه الناس من طلب العلو فى الدنيا والحرص على رياستها..لا يكون له شُغلٌ بملاذ الدنيا، ولا بالتكاثر فيها، ولا بتحصيل أسباب الغِنى وكثرة اكتساب الأموال والعروض... إذا وصل إليه القليل صبر، وإذا وصل إليه الكثير شَكَر...يستوى عنده المدح والذم، والفقر والغِنى، والظهور والخمول...غير مُعجبٍ بما مَنَّ اللهُ عليه من خصال الولاية...إذا زاده الله رفعة زاد فى نفسه تواضعًا وخضوعًا...حَسن الأخلاق، كريم الصحبة، عظيم الحلم، كثير الاحتمال.

ومَن وُهبت له هذه الموهوبات الجليلة، وتفضل عليه بهذه الصفات الجميلة، فغير بعيد ولا مُستنكَرٍ أن تظهر عليه الكرامات التى لا تنافى الشريعة، والتصرفات فى مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ الوسيعة، لأنه إذا دعاه أجابه وإذا سأله أعطاه.

فالكرامة ثابتة بالشريعة المطهرة، ولكن ينبغى أن يُعلَم أنه ليس كل خارقة كرامة...فالخارقة إما أن تكون خارقة رحمانية، أو خارقة شيطانية.

والمقياس الذى لا يجور هو مقياس الكتاب والسُّنة، فلا بُدَّ أن يُقاس نفس الشخص الذى أتت على يديه الخارقة بمقياس الكتاب والسُّنة، وأن تُقاس نفس الخارقة بمقياس الكتاب والسُّنة... كما قال الإمام الشافعى: إذا رأيتم الرجل يسير على الماء أو يطير فى الهواء فانظروا فى عمله، أى: لا تحكموا له بأنه من أولياء الله بمجرد ظهور هذه الخارقة فقد يكون وليًّا للشيطان.

والكرامة ثابتة بالكتابة والسُّنة كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[1] .

(١) سورة آل عمران: الآية: (٣٧).

فمريم كانت صدِّيقة ولية لله عَزَّوَجَلَّ، ولم تكن نبية، فما كان يجده زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ عندها من رزقٍ كان على سبيل الكرامة.

كذلك قصة أصحاب الكهف الذين ضرب الله على آذانهم فناموا فى الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعة، كان ذلك كذلك على سبيل الكرامة.

أما أدلة السُّنة فمن ذلك ما ورد فى الصحيح من قصة أضياف جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهم كانوا كلما أكلوا من القصعة رَبَا الطعام -أى: زاد- من أسفلها أكثر منها حتى أطعم النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها الجيش بأكمله.

كذلك خُبيب بن عدى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أسره المشركون كانوا يجدون فى يده قِطْفًا من العنب وليس بمكة ثمرة وما كان إلا رزقًا رزقه الله عَزَّوَجَلَّ إياه.

أما كرامات السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فهى كثيرة.... فمن ذلك أن إحدى الصحابيات ذهب بصرها من تعذيب المشركين. فقالوا: ما أذهبه إلا اللات والعزى. فقالت: كلا والله... ودعت الله عَزَّوَجَلَّ، فردَّ الله عليها بصرها.

ومن ذلك أن أبا مسلم الخولانى. أحد أئمة التابعين أُلقى فى النار فوُجد فى النار قائمًا يُصلى.. ولما قابله عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذهب به إلى أبى بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: الحمد لله الذى لم يُمتنى حتى أرانى فى أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَن فُعِلَ به كما فُعِلَ بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ودعا أبو مسلم على امرأة أفسدت زوجته فعميت... فتابت فدعا لها فردَّ الله عليها بصرها.

ومن ذلك أن صلة بن أشْيَم - أحد العُبَّاد - مات فرسه فى الغزو، فقال: اللهُمَّ لا تجعل لمخلوقٍ علىَّ منة... ودعا الله فأحياه، فلما وصل إلى بيته، قال: يا بُنى خذ السرج، فإن الفرس عارية، فأخذ السرج فمات الفرس.

ومن ذلك أن الحسن البصرى دعا على رجل فقال: إن كنت كاذبًا فَعَجِّل

اللهُ حتفك... فمات الرجل مكانه.

۞ والعبد لا يصل إلى هذه الدرجة العالية من الولاية، حتى يصل معها إلى درجات عالية من محبة الله عَزَّوَجَلَّ، والرضا به... كان سعد بن أبى وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُستجاب الدعوة، وكان يدعو للناس لمعرفتهم منه ذلك، فذهب بصره فى آخر عمره، فقيل له: ألا دعوت لبصرك. فقال: قضاء الله أحب إلىَّ من بصرى.

۞ فقوله عَزَّوَجَلَّ: «**مَنْ عادى لى وليًّا. فقد آذنتهُ بالْحرْب**» أى: فقد أعلمته أننى مُحاربٌ له، حيث إنه كان محاربًا لى بمعاداته وليًّا من أوليائى.

فأولياء الله عَزَّوَجَلَّ تجب موالاتهم ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[١]، وتَحرُم مُعاداتهم.

وأعداء الله عَزَّوَجَلَّ تجب معاداتهم، وتَحرُم موالاتهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾[٢].

۞ ثم بيَّن الحديث القدسى الشريف، كيف تصير وليًّا من أولياء الله عَزَّوَجَلَّ، فقال: «**وما تقرب إلىَّ عبدى بشىءٍ أحب إلىَّ ممَّا افترضت عليه**».

فطريق ولاية الله عَزَّوَجَلَّ يبدأ باستكمال الفرائض.

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أفضل الأعمال أداء ما افترض، والورع عما حرَّم الله، وحسن النية فيما عند الله عَزَّوَجَلَّ... ومن أعظم الفرائض ترك المعاصى، كما دَلَّ على ذلك قوله ﷺ: «**إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَىْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَىْءٍ فَدَعُوهُ**»[٣].

فالصلوات الخمس مثلًا أحب إلى الله من قيام الليل، وأحب إلى الله من

---

(١) سورة المائدة: الآية: (٥٥).

(٢) سورة الممتحنة: الآية: (١).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٣٣٧) كتاب الحج.

النوافل...وصيام رمضان أحب إلى الله من صيام الاثنين والخميس والأيام الست من شوال وما أشبهها... كل الفرائض أحب إلى الله من النوافل.

ووجه ذلك أن الفرائض ألزم الله بها العباد.. وهذا دليلٌ على شدة محبته لها (سبحانه وتعالى) فلما كان يحبها كل هذا الحب ألزم بها عباده؛ لأنه يحب لهم الخير.. أما النوافل فالإنسان له كامل الحرية فيها إن شاء أن يتنفَّل تَنَفَّل وفاز بالأجر والثواب، وإن كان لا يستطيع أن يتنفل فليس عليه وزرٌ ولا ذنب...

ولكن الشيطان أحيانًا يُزين للعبد الإكثار من النوافل ويجعله يتكاسل عن أداء الفرائض.. وهذا من تزيين الشيطان فلنَحذر جميعًا من مكائد الشيطان ولنحرص على أداء الفرائض التى يحبها الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ قوله عَزَّوَجَلَّ فى الحديث القدسى: «**وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أُحبه**» والنوافل: هى ما عدا الفرائض من أجناس الطاعات.

قال العلماء: ما بال النوافل هى السبب الموصل إلى محبة الله عَزَّوَجَلَّ دون الفرائض؟

وأجاب بعضهم: بأن العبد يفعل الفريضة مخافة العقوبة ورجاء الأجر، أما النوافل فليس هناك عقوبة فى تركها، وإنما يفعلها العبد بإخلاص نية التقرُّب والتحبُّب إلى الله عَزَّوَجَلَّ... فلما خلصت النية فى النوافل، كانت هى السبب الموصل إلى محبة الله عَزَّوَجَلَّ دون الفرائض... ولا يَخفى أن النافلة هى التى تأتى زائدة على الفرائض، فطريق ولاية الله عَزَّوَجَلَّ يبدأ بالفرائض، ثم الإكثار من النوافل كما قال بعضهم: مَن شغله الفرض عن النفل فهو معذور، ومَن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور.

۞ قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه عَزَّوَجَلَّ: «**فَإِذَا أَحبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا**».

قال الحافظ: وَقَدِ اسْتُشْكِلَ كَيْفَ يَكُونُ الْبَارِى جَلَّ وَعَلَا سَمْعَ الْعَبْدِ

وَبَصَرَهُ... إِلَخْ؟ وَالْجَوَابُ مِنْ أَوْجُهٍ -وَذكر سبعة أوجه- أقربها للصواب: أَنَّ العَبدَ بِكُلِّيَّتِهُ يكونُ مَشْغُولًا بربه عَزَّوَجَلَّ، فَلَا يُصغِي بِسَمْعِهِ إِلَّا إِلَى مَا يُرْضِي الله عَزَّوَجَلَّ، وَلَا يستعمل بَصَرِهِ إِلَّا فِيمَا أَمَرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِهِ، ولا يستعمل يده إلا فى طاعته، ولا يحرك قدمه إلا فى مرضاته.

وقال الشوكانى: إن الله يمد جوارح العبد بنورٍ... فبهذا النور يسمع، وبه يُبصر، وبه يبطش، وبه يمشى... واستدل على ذلك بأدلة منها ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من دعائه ﷺ إذا خرج إلى الصلاة: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِى قَلْبِى نُورًا، وَفِى بَصَرِي نُورًا، وَفِى سَمْعِى نُورًا، وَعَنْ يَمِينِى نُورًا، وَعَنْ يَسَارِى نُورًا، وَفَوْقِى نُورًا، وَتَحتِى نُورًا، وَأَمَامِى نُورًا، وَخَلْفِى نُورًا، وَاجْعَلْ لِى نُورًا**»[١].

۞ وقال الشيخ محمد رشيد رضا:

إنه توفيق الله عَزَّوَجَلَّ يحالف العبد، فإذا سمع فبتوفيق الله، وإذا أبصر فبتوفيق الله، وإذا مدَّ يده فبتوفيق الله... أى: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يوفق عبده للصواب، ويهديه للرشاد فى كل قولٍ وعمل ... وهو من قبيل: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾[٢].

۞ ثم قال: «**وَإِنْ سَأَلَنِى لأُعطِيَنَّهُ**» أى: أن هذا العبد يصير فى درجة عالية سامية، تؤهله أنه إذا سأل الله عَزَّوَجَلَّ أعطاه، وإذا استعاذ بالله عَزَّوَجَلَّ - أى: احتمى بجنابه - أعاذه الله عَزَّوَجَلَّ.

روى الحاكم فى مستدركه عن أنس عن النبى ﷺ قال: «**كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِى طِمْرَيْنِ لاَ يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ مِنْهُمُ البَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ**»[٣].

وأن البراء لقى زحفًا من المشركين، فقال له المسلمون: أَقسِم على ربك.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣١٦) كتاب الدعوات، ومسلم (٧٦٣) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) سورة يوسف: الآية: (٢١).

(٣) صحيح: رواه الترمذى، والضياء، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥٧٣).

فقال: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ، فَمُنِحُوا أَكْتَافَهُمْ، ثُمَّ الْتَقَوْا مَرَّةً أُخْرَى، فَقَالُوا: أَقْسِمْ عَلَى رَبِّكَ، فَقَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لِمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ، وَأَلْحَقْتَنِي بِنَبِيِّكَ ﷺ... فَمُنِحُوا أَكْتَافَهُمْ، وَقُتِلَ الْبَرَاءُ رضي الله عنه شَهِيدًا[1].

۞ «**وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ**» يعني: لئن اعتصم بي ولجأ إليَّ من شر كل ذي شرٍّ لأُعيذنه، فيحصل له بإعطائه مسئوله وإعاذته مما يتعوذ منه المطلوب، ويزول عنه المرغوب.

۞ قوله عز وجل في الحديث القدسي: «**وَمَا تَرَدَّدتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**».

لما أحب المؤمن ما يحبه الله عز وجل، وكره ما يكرهه الله عز وجل، أحب الله عز وجل للمؤمن ما يحبه المؤمن، وكره له ما يكره....والموت يكرهه الناس كلهم؛ لأنه أكبر مصيبة في الدنيا... والله عز وجل قضى على الخلق كلهم بالموت والفناء، فسمَّى الله عز وجل اختلاف الإرادتين في حقه عز وجل تردُّدًا، فقال: «**وَمَا تَرَدَّدتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**».

۞ **وفي هذا الحديث عدة فوائد:**

أولًا: إثبات الولاية لله عز وجل...وولاية الله تعالى تنقسم إلى قسمين:

ولاية عامة وهي السلطة على جميع العباد، والتصرُّف فيهم بما أراد كل إنسان... فإن الذي يتولى أموره وتدبيره وتصريفه هو الله عز وجل.

ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ**﴾[2]. فهذه ولاية عامة تشمل جميع الخلق.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٩٢) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) سورة الأنعام: الآيتان: (٦١-٦٢).

أما الولاية الخاصة: مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾(١)، والولاية العامة تكون بغير سبب من الإنسان، يتولى الله الإنسان شاء أم أبَى وبغير سببٍ منه...أما الولاية الخاصة فإنها تكون بسببٍ من الإنسان فهو الذى يتعرض لولاية الله حتى يكون الله وليًا له، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾(٢).

ومن فوائد هذا الحديث: فضيلة أولياء الله، وأن الله سبحانه وتعالى يُعادى مَن عاداهم، بل يكون حربًا عليهم عَزَّوَجَلَّ.

ومن فوائد هذا الحديث: أن الأعمال الواجبة من صلاة وصدقة وصوم وحج وجهاد وعلم وغير ذلك أفضل من الأعمال المستحبة، لأن الله تعالى قال: «**وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه**».

ومن فوائده: إثبات المحبة لله عَزَّوَجَلَّ، وأن الله تعالى يحب الأعمال بعضها أكثر من بعض كما أنه يحب الأشخاص بعضهم أكثر من بعض.

فالله عَزَّوَجَلَّ يحب العاملين بطاعته ويحب الطاعة، وتتفاوت محبته سبحانه وتعالى على حسب ما تقتضيه حكمته.

ومن فوائد هذا الحديث: أن الإنسان إذا تقرب إلى الله بالنوافل مع القيام بالواجبات فإنه يكون بذلك مُعافًا فى جميع أموره...لقوله تعالى فى هذا الحديث القدسى: «**وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه...**» إلخ.

وفيه دليل أيضًا: على أن مَن أراد أن يحبه الله فالأمر سهلٌ عليه إذا يسَّره الله له... يقوم بالواجبات، ويُكثر من التطوع بالعبادات، فبذلك ينال محبة الله وينال

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٥٧).

(٢) سورة يونس: الآية: (٦٣).

ولاية الله.

ومن فوائد هذا الحديث: إثبات عطاء الله عَزَّوَجَلَّ وإجابة دعوته لوليه، لقوله: «**لئن سألني لأُعطينَّه، ولئن استعاذني لأُعيذنه**».

وأتى به الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (رياض الصالحين) في باب المجاهدة لأن النفس تحتاج إلى جهادٍ في القيام بالواجبات ثم بفعل المستحبات[١].

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٣٨-٣٣٩) بتصرف.



(٥٦) فضل الحب فى الله عَزَّوَجَلَّ



۞ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِى، الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِى ظِلِّى يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّى**»(١).

۞ وَعَنْ أَبِى مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيِّ عَن مُعَاذ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَحْكِى عَنْ رَبِّهِ يَقُولُ: «**الْمُتَحَابُّونَ فِى اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فِى ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**». قَالَ: فَخَرَجْتُ حَتَّى لَقِيتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ فَذَكَرْتُ لَهُ حَدِيثَ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَحْكِى عَنْ رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: «**حُقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحُقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِيَّ، وَحُقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَنَاصِحِينَ فِيَّ، وَحُقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَحُقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ... الْمُتَحَابُّونَ فِيَّ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمْ بِمَكَانِهِمْ النَّبِيُّونَ وَالصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ**»(٢).

۞ وَعَنْ مُعَاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: الْمُتَحَابُّونَ فِى جَلالى، لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمْ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاء**»(٣).

۞ «**الْمُتَحَابُّونَ فِى جَلالى**» أى: لأجل إجلالى وتعظيمى.. لهم مكانة عالية عند ربهم فى الجنة كما أخبر النبى ﷺ حيث قال: «**لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ**».

وعلى قدر صدقهم فى محبتهم لبعضهم البعض ابتغاء مرضاة الله تكون درجة الأنوار فى تلك المنابر التى هى من النور.. لكن كما تختلف درجات الإيمان ودرجات الإخلاص وصدق المحبة تختلف الأنوار.. فكلما كنت صادقًا فى محبتك لأخيك كلما كانت أنوارك على الصراط أعظم وأنوارك فى تلك المنابر أكبر.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٦) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والطبرانى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٢١).

(٣) صحيح: رواه الترمذى، وابن حبان والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣١٢).

۞ قوله: «**يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ**».. الغبطة هي تمنِّي مثلما عند الغير من الخير دون تمنِّي زوال ما عند الغير.

فَمَعنَى الْحَدِيثِ: يَسْتَحسِنُ أَحوالَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ.

وَقَالَ الْقَاضِي: كُلُّ مَا يَتَحَلَّى بِهِ الْإِنْسَانُ أَوْ يَتَعَاطَاهُ مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ صَاحِبُهُ مِمَّنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِذَلِكَ وَإِنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ مَا هُوَ أَرْفَعُ قَدرًا وَأَعَزُّ ذُخْرًا فَيَغْبِطُهُ بِأَنْ يَتَمَنَّى وَيُحِبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ مثل ذلك مفهومًا إلى ما له مِنَ الْمَرَاتِبِ الرَّفِيعَةِ أَوِ الْمَنَازِلِ الشَّرِيفَةِ وَذَلِكَ مَعنَى قَوْلِهِ: يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ... فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ قَدِ اسْتَغْرَقُوا فِيمَا هُوَ أَعلَى مِنْ ذَلِكَ مِنْ دَعوَةِ الْخَلْقِ وَإِظْهَارِ الْحَقِّ وَإِعلَاءِ الدِّينِ وَإِرشَادِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كُلِّيَّاتٍ أَشْغَلَتْهُمْ عَنِ الْعُكُوفِ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْجُزْئِيَّاتِ وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِهَا... وَالشُّهَدَاءُ وَإِنْ نَالُوا رُتْبَةَ الشَّهَادَةِ وَفَازُوا بِالْفَوْزِ الْأَكْبَرِ فَلَعَلَّهُمْ لَنْ يُعَامَلُوا مَعَ اللهِ مُعَامَلَةَ هَؤُلَاءِ فَإِذَا رَأَوْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَنَازِلِهِمْ وَشَاهَدُوا قُرْبَهُمْ وَكَرَامَتَهُمْ عِنْدَ اللهِ وَدُّوا لَوْ كَانُوا ضَامِّينَ خِصَالَهُمْ فَيَكُونُونَ جَامِعِينَ بَيْنَ الْحَسَنَتَيْنِ وَفَائِزِينَ بِالْمَرْتَبَتَيْنِ... وَقِيلَ إِنَّهُ لَمْ يَقْصِد فِي ذَلِكَ إِلَى إِثْبَاتِ الْغِبْطَةِ لَهُمْ عَلَى هَؤُلَاءِ بَلْ بَيَانِ فَضْلِهِمْ وَعُلُوِّ شَأْنِهِمْ وَارْتِفَاعِ مَكَانِهِمْ وَتَقْرِيرِهَا عَلَى آكَدِ وَجْهٍ وَأَبْلَغِهِ.

وَالْمَعنَى أَنَّ حَالَهُمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَثَابَةٍ لَوْ غَبَطَ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَئِذٍ مَعَ جَلَالَةِ قَدرِهِمْ وَنَبَاهَةِ أَمْرِهِمْ حَالَ غَيْرِهِمْ لَغَبَطُوهُمْ[1].

قال عِمران بن حطان: لقد أحببت في الله عَزَّوَجَلَّ ألف أخ كلهم أعرف اسمه واسم أبيه وقبيلته ومكان داره.

وقال أبو زرعة بن عمرو بن جرير: ما تحابَّ رجلان في الله عَزَّوَجَلَّ إلا كان أفضلهما أشدهما حبًّا لصاحبه.

---

(١) تحفة الأحوذي (٦/ ٢٥٩-٢٦٠).

وكـان يقـول: اصـحب مَـن إن صـحبته زانـك، وإن خدمتـه صـانك، وإذا أصـابتك خـصاصة مانـك، وإن رأى منـك حـسنة سُرَّ بهـا، وإن رأى منـك سـقطة سترها، ومَن إذا قلت له صدَّق قولك، ومن هو فوقك فى الدين ودونك فى الـدنيا، وكل أخ وجليس وصاحب لا تستفيد منه فى دينك خيرًا فانبذ عنك صحبته.

وقال يحيى بن معاذ: بئس الصديق تحتاج أن تقـول لـه: اذكرنـى فى دعائـك، وأن تعيش معه بالمداراة، أو تحتاج أن تعتذر إليه.

ودخل جماعة على الحسن وهـو نـائم، فجعـل بعـضهم يأكـل مـن فاكهـة فى البيت، فقال: رحمك الله، هذا والله فعل الإخوان.

وقـال أبـو جعفـر لأصـحابه: أيُـدخل أحـدكم يـده فى كُـم أخيـه فيأخـذ منـه مـا يريد؟ قالوا: لا؟ قال: فلستم بإخوان كما تزعمون.

ويُروى أن فتحًا الموصلى جاء إلـى صـديقٍ لـه يُقـال لـه: عيسى التمَّـار، فلـم يجده فى المنزل، فقال للخادمـة: أَخرجى لـى كيس أخـى، فأخرجتـه، فأخـذ منـه درهمين... وجاء عيسى إلى منزله فأخبرته الجارية بذلك، فقال: إن كنتِ صادقة فأنتِ حرة، فنظر فإذا هى قد صدقت فعُتقت.

وقد كان عمـر بـن الخطـاب يـذكر الأخ مـن إخـوانه فى بعـض الليـل فيقـول: يا طولها من ليلة! فإذا صلى المكتوبة غدا إليه فاعتنقه.

وقال مجاهد: إذا مشى أحد المتحـابين إلـى الآخـر فأخـذ بيـده فـضحك إليـه تحاتت خطاياه كما يتحات ورق الشجر (أى: تسقط الخطايا).

(٥٧) تحريم قطع الأرحام

۞ عَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله تَعَالى خَلَقَ الخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هذا مُقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قال: نَعَمْ أَمَا تَرْضِينَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قالت: بَلَى، قال: فذلِكَ لكِ»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرءوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾[1]»[2].

وفى رواية للبخارى: «فقال الله تعالى: مَنْ وَصَلَكِ، وَصَلْتُهُ، ومَنْ قَطَعَكِ قطعتُهُ».

۞ قوله ﷺ: «قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هذا مُقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ».

هذا من الأمور الغيبية التى يجب علينا أن نؤمن بها وإن استبعدتها العقول وحار الإنسان: كيف تتكلم الرحم؟! فإننا نقول إن الله على كل شىء قدير، وقد أخبر الله أن الأرض يوم القيامة تُحدث أخبارها بما أوحى الله إليها به، فإذا أمر الله شيئًا بأمر من هذه الأمور سيستجيب على كل حال...فالأيدى يوم القيامة والألسُن والأرجُل والجلود كلها تشهد، مع أنها جماد، وتشهد على صاحبها مع أنها الأقرب إليه؛ لأن الله سبحانه وتعالى على كل شىء قدير.

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن الله عَزَّوَجَلَّ خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم - أى من خلقهم - قامت الرحم.. لكن كيف قامت؟ وهل تمثلت فى صورة بعينها أم ماذا حدث؟ أقول: الله أعلم... وما دام أن النبى ﷺ لم يخبرنا

---

(١) سورة محمد: الآيتان: (٢٢، ٢٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٣٠) كتاب التفسير - ومسلم (٢٥٥٤) كتاب البر والصلة.

بكيفية ذلك فلا حاجة لنا لأن نتكلف معرفة ذلك... ولو كان هناك خير في معرفة ذلك لأخبرنا النبي ﷺ الذي قال: «**ما تركت من خيرٍ إلا وقد دللتكم عليه، وما تركت من شرٍّ إلا وقد حذرتكم منه**».

المهم أن الرحم قامت وقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة.. فما كان من الحق (جلَّ وعلا) إلا أن قال لها: نعم.. أما ترضين أن أصل مَن وصلكِ وأقطع مَن قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذلك لكِ.

فمن وصل رحمه وصله الله بلُطفه ورحمته وعطفه وإحسانه وجُوده وكرمه وحفظه.. ومن قطع رحمه حُرم من كل ذلك.

ولذا قال النبي ﷺ في آخر الحديث: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ** ﴾[1].

أي فلعلَّكم إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية، من الإفساد في الأرض بالمعاصي، وقطع الأرحام!!

قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولّوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، ويقطعوا الأرحام، ويعصوا الرحمن؟ قال أبو حيان: يريد ما جرى من الفترة بعد زمان الرسول ﷺ[2] ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ** ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿ **فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ** ﴾ أي فأصمهم عن استماع الحق، وأعمى قلوبهم عن طريق الهدى فلا يهتدون إلى سبيل الرشاد.

قال القرطبي: أخبر تعالى أن مَن فعل ذلك حقَّت عليه اللعنة، وسلبه الانتفاع

(١) سورة محمد: الآيتان: (٢٢، ٢٣).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٨٢).

بسمعه وبصره، حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه، فجعله كالبهيمة التى لا تعقل[١].

قال القاضي عياض: لا خلاف أن صلة الرحم واجبة فى الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة والأحاديث تشهد لهذا، ولكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها ترك المهاجرة بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة، فمنها: واجب، ومنها: مستحب. ولو وصل بعض الصلة، ولم يَصل غايتها لا يُسمَّى قاطعًا، ولو قصر عمَّا يقدر عليه وينبغى له لا يُسمى واصلًا[٢].

مغبة قطيعة الرحم

(١) تقطع الصلة بين العبد وبين الرب (جل وعلا):

لقوله عَزَّوَجَلَّ للرحم: «مَن وصلك وصلته، ومَن قطعك قطعته».

(٢) تجلب للعبد سخط الرب وبُغض الناس من حوله:

فمن المعلوم أن الله (جل وعلا) يحب مَن أطاعه ويبغض مَن عصاه ومن المعلوم أيضًا أن الناس يحبون مَن يحبهم ويصلهم ويُحسن إليهم ويبغضون مَن يقطعهم ولا يصلهم ولا يُحسن إليهم.

(٣) تقطع الأواصر الاجتماعية فى المجتمع الواحد:

فإن قطيعة الرحم تجعل المجتمع متفككًا مقطوع الأواصر والعلاقات الاجتماعية... ومن ثَمَّ يضعف المجتمع وتضعف الأمة ويكون هذا الضعف عقبة أمام تَقدُّم هذا المجتمع.. وعقبة عند مواجهة الأعداء.

(٤) تجعل صاحبها بأخبث المنازل:

فقد قال ﷺ: «**إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ** -وذكر منهم-:.... **وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا**

---

(١) تفسير القرطبى (١٦/ ٢٤٦).

(٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١١٢، ١١٣).

وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ....»[1].

(٥) يُعجل الله لصاحبها العقوبة فى الدنيا مع ما يدخره له من العقوبة يوم القيامة :

قال ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ الله تعالى لصاحبه العقوبة فى الدنيا، مع ما يَدَّخِرُهُ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ، وَالْخِيَانَةِ، وَالْكَذِبِ، وَإِنَّ أَعْجَلَ الطَّاعَةِ ثَوَابًا لَصِلَةُ الرَّحِمِ، حَتَّى إِنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ لَيَكُونُوا فَجَرَةً، فَتَنْمُو أَمْوَالُهُمْ، وَيَكْثُرُ عَدَدُهُمْ، إِذَا تَوَاصَلُوا»[2].

وقال ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ أُطِيعَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ أَعْجَلَ ثَوَابًا مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ وَلَيْسَ شَيْءٌ أَعْجَلُ عِقَابًا مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ وَالْيَمِينُ الْفَاجِرَةُ تَدَعُ الدِّيَارَ بَلاقِعَ»[3].

(٦) قاطع الرحم يُعرض نفسه لعدم قبول عمله :

فقد قال ﷺ: «إِنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ تُعْرَضُ كُلَّ خَمِيسٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَلا يُقْبَلُ عَمَلُ قَاطِعِ رَحِمٍ»[4].

(٧) الذى يبخل على أرحامه يُعرض نفسه للعذاب :

فقد قال ﷺ: «مَا مِنْ ذِي رَحِمٍ يَأْتِي ذَا رَحِمِهِ، يَسْأَلُهُ فَضْلًا أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ، فَيَبْخَلُ عَلَيْهِ إِلَّا أَخْرَجَ اللهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ جَهَنَّمَ حَيَّةً يُقَالُ لَهَا: شُجَاعٌ يَتَلَمَّظُ، فَيُطَوَّقُ بِهِ»[5].

(٨) قطيعة الرحم تخرب الديار :

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٢٤).

(٢) صحيح: أخرجه الطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٠٥).

(٣) صحيح: أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٣٩١).

(٤) حسن: رواه أحمد (٩٩٠٢)، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (٢٥٣٨).

(٥) حسن: رواه الطبرانى فى الكبير،والأوسط، وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٥٤٨).

فكما أن صلة الرحم تعمر الديار وتوسع الأرزاق وتجلب البركة فى الأعمار فإن قطيعة الرحم تخرب الديار وتضيق الأرزاق وتنزع البركة من العمر.

(٩) قاطع الرحم يُعرض نفسه لدخول النار:

فقاطع الرحم يُعرِّض نفسه لدخول النار إن لم يَتُب ويصل رحمه.

فقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾(٢).

(١٠) قاطع الرحم لا يدخل الجنة مع أول الداخلين:

قال ﷺ: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ»(٣).. يعنى: قاطع رحم.

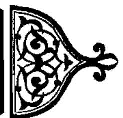
فهو إن كان موحدًا فقد يُحرم من دخول الجنة مع أول الداخلين.

---

(١) سورة الرعد: الآية: (٢٥).

(٢) سورة البقرة: الآيتان: (٢٦، ٢٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٨٤) كتاب الأدب - ومسلم (٢٥٥٦) كتاب البر والصلة والآداب.



(٥٨) لا يُكلف اللهُ نفساً إلا وسعها



۞ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لَمَّا نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اشْتَدَّ ذلكَ عَلَى أصحابِ رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثُمَّ بركوا على الرُّكَب فقالوا: أيْ رسولَ الله كُلِّفنا مِنَ الأعمالِ ما نُطيقُ: الصَّلاةَ والصِّيام والْجِهادَ والصَّدقةَ، وَقَد أُنْزِلتْ عليْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلا نُطيقُها. قالَ رسولُ الله ﷺ: «أَتُريدُون أَنْ تَقُولوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الكتابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعنا وَعصينا؟ بَلْ قُولوا: سَمعنا وَأَطعنا غُفرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» قَالُوا: سَمعنا وَأَطَعْنَا غُفْرانك رَبَّنا وإليك المصير.. فَلَمَّا اقْتَرأَها الْقَوْمُ، وَذَلَّتْ بِها أَلْسنتُهُمْ، أَنزلَ الله تعالَى في إِثْرِها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ فَلَمَّا فعلُوا ذلك نَسَخَها الله تعالَى، فأنْزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قَالَ: نعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قَالَ: نَعَمْ ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ: نَعَمْ»... وفي رواية قال: «قَدْ فَعلْت»[1].

۞ ففي هذا الحديث يذكر أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لما أنزل الله على نبيه ﷺ هذه الآية: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾، اشْتَدَّ ذلكَ عَلَى أَصحابِ رسول الله ﷺ.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٢٥) كتاب الإيمان.

وذلك لأن ما يخطر فى النفس من الحديث أمرٌ لا ساحل له.. فالشيطان قد يأتى إلى الإنسان ويُحدثه بأشياء منكرة عظيمة.. منها ما يتعلق بذات الله عَزَّوَجَلَّ.. ومنها ما يتعلق بالأمور الدينية ومنها ما يتعلق بالأمور الدنيوية وغير ذلك من الأشياء التى يُلقيها الشيطان فى قلب الإنسان فشقَّ ذلك على أصحاب الرسول ﷺ أصحاب القلوب النقية التقية فجاءوا إلى النبى ﷺ وهم فى غاية الحزن والهمِّ فجثوا على رُكبهم... وذلك لأن الإنسان إذا نزل به أمرٌ شديد فإنه يجثو على رُكبتيه.. فلما فعلوا ذلك قالوا للنبى ﷺ **كُلِّفنَا مِنَ الأَعمالِ مَا نُطِيقُ: الصَّلاَةَ وَالْجِهادَ وَالصِّيام وَالصَّدقَةَ، وَقَدَ أُنْزلتْ عليْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلا نُطِيقُهَا** ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ وهذه شديدة لا أحد يُطيق أن يمنع نفسه عمَّا تُحدثه به من الأمور التى لو حُوسب عليها لهلك.

فقال النبى عليه الصلاة والسلام: « **أَتُرِيدُون أَنْ تَقُولوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الكتابَيْنِ مِنْ قَبْلكُمْ: سَمِعْنَا وَعصينَا؟** » أهل الكتابين هم اليهود والنصارى..اليهود كتابهم التوراة، وهى أشرف الكتب الْمُنَزَّلة بعد القرآن، والنصارى كتابهم الإنجيل وهو مُتممٌ التوراة... واليهود والنصارى عصوا أنبياءهم، وقالوا: سمعنا وعصينا، فهل تُريدون أن تكونوا مثلهم؟ « **ولكن قولوا:** ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ».

۞ وهكذا يجب على كل مسلم إذا سمع أمر الله وأمر رسول الله ﷺ أن يكون شعاره دائمًا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ويمتثل بقدر ما يستطيع فإنه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

والمسلم الحقيقى لا يسأل: هل هذا الأمر واجب أو مُستحب بل يفعله؛ لأن النبى ﷺ فعله أو أمر بفعله.. فمن امتثل الأمر وكان واجبًا فقد أبرأ ذمته وإن كان مُستحبًّا فقد حصَّل الخير الكثير.

ولذلك فنحن لا نعلم أن أحدًا من الصحابة كان إذا سمع أمر النبى ﷺ كان يقول له: يا رسول الله هل هذا الأمر واجب أم مُستحب... ما سمعنا بهذا أبدًا.. لأنهم كانوا يفعلون الطاعة بحبٍّ.

أما نحن فنقول: هل هذا الأمر واجب أم مستحب... هذا النهى للتحريم أم للكراهة... لكن إذا وقع الأمر فلك أن تسأل حينئذ هل أَثِمت بذلك أم لا، لأجل أنه إذا قيل لك: إنك آثم تُجدد توبتك، وإذا قيل: إنك غير آثم يستريح قلبك...أما حين يُوجَّه الأمر فلا تسأل عن الاستحباب أو الوجوب، كما كان أدبُ الصحابة مع الرسول (عليه الصلاة والسلام)... يفعلون كل ما يأمر به النبى ﷺ ويتركون كل ما نهى عنه النبى ﷺ.

۞ وبالعودة إلى الحديث عندما ذهب الصحابة إلى النبى ﷺ بعد نزول تلك الآية حتى جثوا على الرُّكب.. أقول لكم: إن من كمال رحمة الله أنه لا يُحاسبك على ما حدثت به نفسك ما لم تتكلم أو تعمل به.

فقد قال ﷺ: «**إن الله تجاوز عن أمتى ما حدَّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم**»[1]. الحمد له، رفع الحرج، كلُّ ما حدثت به نفسك، ولكنك ما ركنت إليه، ولا عملت، ولا تكلمت، فهو معفوٌّ عنه، حتى ولو كان أكبر من الجبال. فاللَّهم لك الحمد.

حتى إن الصحابة قالوا: يا رسول الله نجد فى نفوسنا ما نحبُّ أن تكون حُمَمَةً -يعنى فحمة محترقة- ولا نتكلم به قال: «**ذاك صريح الإيمان**»[2].

يعنى ذاك هو الإيمان الخالص؛ لأن الشيطان ما يُلقى مثل هذه الوساوس فى قلبٍ خَرِبٍ... فى قلبٍ فيه شك... إنما يتسلط الشيطان - أعاذنا الله منه - على

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٦٩) كتاب الطلاق - ومسلم (١٢٧) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٣٢) كتاب الإيمان.

قلبٍ مؤمن خالص؛ ليُفسده.

ولما قيل لابن عباس: إن اليهود إذا دخلوا فى الصلاة لا يُوسوَسون، قال: وما يصنع الشيطان بقلبٍ خراب... فاليهود كفار، قلوبهم خربة، فالشيطان لا يوسوس لهم عند صلاتهم؛ لأنها باطلة من أساسها... الشيطان يوسوس للمسلم الذى يُصلى صلاة صحيحة مقبولة ليُفسدها... يأتى للمؤمن صريح الإيمان ليُفسد هذا الإيمان الصريح.

۞ ولذلك لما سُئل الشيخ الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ: ماذا يفعل مَن وسوس إليه الشيطان بقوله: «**مَن خلق الله**» فقال: لقد دلَّت هذه الأحاديث الصحيحة على أنه يجب على مَن وسوس إليه الشيطان بقوله: مَن خلق الله؟ أن ينصرف عن مجادلته إلى إجابته بما جاء فى الأحاديث.. وخُلاصتها أن يقول: «**آمنت بالله ورسله، الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفوًا أحد**». ثم يَتفُل عن يساره ثلاثًا، ويستعيذ بالله من الشيطان، ثم ينتهى عن الانسياق مع الوسوسة.

وأعتقد أن مَن فعل ذلك طاعة لله ورسوله ﷺ، مُخلصًا فى ذلك أنه لَا بُدَّ أن تذهب الوسوسة عنه، ويندحر شيطانه لقوله ﷺ: «**فإن ذلك يذهب عنه**»[1].

وهذا التعليم النبوى الكريم أنفع وأقطع للوسوسة من المجادلة العقلية فى هذه القضية...فإن المجادلة قَلَّما تنفع فى مثلها. ومن المؤسف أن أكثر الناس فى غفلة عن هذا التعليم النبوى الكريم، فتنبهوا أيها المسلمون، وتعرَّفوا إلى سُنَّة نبيكم، واعملوا بها، فإن فيها شفاءكم وعِزّكم[2].

۞ ثم إن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما قالوا: ﴿**سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ**

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد فى مسنده (٢٦٢٤٦) عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَكَ؟ فَيَقُولُ: اللهُ. فَيَقُولُ: فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقْرَأْ: آمَنْتُ بِاللهِ وَرُسُلِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ يُذْهِبُ عَنْهُ**».

(٢) السلسلة الصحيحة (١١٨) - والفتوى للشيخ الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ.

﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ ولانت لها نفوسهم، وذَلَّت لها ألسنتهم أنزل الله بعدها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ -يعنى والمؤمنون آمنوا- ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾(1). فبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ فى هذه الآية الثناء عليهم وعلى رسوله وعلى المؤمنين لأنهم قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

ثم أنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾(2). فالذى ليس فى وسع الإنسان لا يكلفه الله به، ولا حرج عليه فيه، مثل الوساوس التى تهجم على القلب، ولكن الإنسان إذا لم يركن إليها ولم يُصدق بها ولم يرفع بها رأسًا فإنها لا تضره؛ لأن هذه ليست داخلة فى وسعه، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

فقد يُحدث الشيطان الإنسان فى نفسه عن أُمورٍ فظيعة عظيمة، ولكن الإنسان إذا أعرض عنها واستعاذ بالله من الشيطان ومنها زالت عنه ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: نعم. يعنى قال الله: نعم، لا أؤاخذكم إن نسيتم أو أخطأتم ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال: نعم. ولهذا قال الله تعالى فى وصف رسوله محمد ﷺ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾(3).

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قال الله: نعم.

ولهذا لا يكلف الله تعالى فى شرعه ما لا يُطيقه الإنسان، بل إذا عجز عن الشىء انتقل إلى بدله إذا كان له بدل، أو سقط عنه إن لم يكن له بدل، ..

---

(1) سورة البقرة: الآية: (٢٨٥).

(2) سورة البقرة: الآية: (٢٨٦).

(3) سورة الأعراف: الآية: (١٥٧).

ولذا فإن الله تعالى قال هنا: نعم...يعنى: لا أُحملكم ما لا طاقة لكم به ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1].

قال الله: نعم... فاعفُ عنا، واغفر لنا، وارحمنا، هذه ثلاث كلمات كل كلمة لها معنى، ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا﴾ يعنى تقصيرنا فى الواجب، ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ يعنى انتهاكنا للمحرم، ﴿وَٱرۡحَمۡنَآ﴾ يعنى وفقنا للعمل الصالح... فالإنسان إما أن يترك واجبًا أو يفعل مُحرَّمًا... فإن ترك الواجب فإنه يقول: اعفُ عنا... أى اعفُ عنَّا ما قصَّرنا فيه من الواجب.

وإن فعل المحرم، فإنه يقول: اغفر لنا، يعنى ما اقترفنا من الذنوب، أو يطلب تثبيتًا وتأييدًا وتنشيطًا على الخير فى قوله: ﴿وَٱرۡحَمۡنَآ﴾، فهذه ثلاث كلمات كل كلمة لها معنى.

﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾ أى متولى أمورنا فى الدنيا والآخرة، فتولنا فى الدنيا وانصرنا على القوم الكافرين ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ قد يتبادر للإنسان أن المراد أعداؤنا من الكفار، ولكنه أعمّ حتى إنه يتناول الانتصار على الشيطان؛ لأن الشيطان رأس الكافرين.

إذًا... نستفيد من هذه الآيات الكريمة الأخيرة: أن الله سبحانه وتعالى لا يُحمِّلنا ما لا طاقة لنا به، ولا يُكلفنا إلا وسعنا، وأن الوساوس التى تجول فى صدورنا إذا لم نركن إليها ولم نطمئن إليها ولم نأخذ بها، فإنها لا تضر[2].

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٨٦).

(٢) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (١/ ٤٧٠-٤٧١) بتصرف.




(٥٩) تحريم الظلم

۞ عن سعيد بن عبد العزيز، عن رَبيعةَ بنِ يزيدَ، عن أبى إدريس الخَوْلاَنيِّ، عن أبِى ذَرٍّ جُنْدبِ بنِ جُنَادَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النَّبِىِّ ﷺ فيما يَرْوِى عَنِ الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عِبَادِى إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظالمُوا، يَا عبَادى كُلُّكُم ضَالٌّ إلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونى أَهْدِكُمْ، يَا عبَادى كُلُّكُمْ جائعٌ إلاَّ منْ أَطعمتُه، فاسْتطْعمونى أُطعمْكم، يا عبادى كلكم عَارٍ إلاَّ مِنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتكْسُونى أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادى إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونى أَغْفِر لَكُمْ، يَا عبَادى إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّى فَتَضُرُّونى، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِى فَتَنْفَعُونى، يَا عبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانوا على أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فى مُلْكِى شَيْئًا، يا عبادى لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وجِنَّكُم كانوا على أفجَرِ قَلْب رَجُلٍ واحدٍ مِنْكُم مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئًا، يَا عِبَادى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَ إِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فى صَعيدٍ وَاحد، فَسألُونى فَأَعطَيْتُ كُلَّ إِنْسانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدى إلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المخْيَطُ إِذَا أُدخِلَ البَحرَ، يَا عِبَادى إِنَّمَا هِىَ أعمَالُكُمْ أُحصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيحمِد الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ». قَالَ سعيدٌ: كان أبو إدريس إذا حدَّثَ بهذا الحديث جَثَا عَلَى رُكبتيه[1] .

۞ قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ: ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث.

۞ هذا النوع من الأحاديث يُسمَّى بالحديث القدسى أو الحديث الإلهى أما ما كان من حديث النبى ﷺ فإنه يُسمَّى بالحديث النبوى.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة.

۞ قال تعالى: «**يا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظالمُوا**».

فالله عَزَّوَجَلَّ لا يظلم عبده بزيادة سيئة لم يعملها ولا بنقص حسنة عملها بل هو سبحانه وتعالى الحَكَم العدل..لأن حُكمه وثوابه يدور بين الفضل والعدل... فضلٌ لمن عمل الحسنات بأن يجزيه على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة.. وأما السيئة فإن لم يغفرها فإنها تُكتب سيئة واحدة.... كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1].

فالله عَزَّوَجَلَّ حرَّم على نفسه الظلم وأوجب على نفسه الرحمة.. قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[2].

فالله عَزَّوَجَلَّ مُنزَّهٌ عن الظلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: ينقصها من حسنات عبده أو يزيدها في سيئاته...كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ أي إلى عشرة أمثالها إلى أكثر من ذلك بحسب حالها ونفعها وحال صاحبها إخلاصًا ومحبة وكمالًا.

﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي زيادة على ثواب العمل بنفسه من التوفيق

---

(١) سورة الأنعام: الآية: (١٦٠).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (١٥٤).

(٣) سورة النساء: الآية: (٤٠).

لأعمالٍ أُخَر وإعطاء البر الكثير والخير الغزير[١].

۞ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصواب الذى دلَّت عليه النصوص أن الظلم الذى حرمه الله على نفسه وتنزَّه عنه فعلًا وإرادة - هو ما فسره به سلف الأمة وأئمتها: أنه لا يُحمَّل المرء سيئات غيره، ولا يُعذَّب بما لم تكسب يداه، ولم يكن سعى فيه، ولا ينقص من حسناته، فلا يُجازَى بها أو ببعضها، إذا قارنها - أو طرأ عليها - ما يقتضى إبطالها - أو اقتصاص المظلومين منها، وهذا الظلم الذى نفى الله - تعالى - خوفه عن العبد بقوله: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا**﴾[٢][٣].

۞ قوله تعالى: «**وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظالمُوا**»، أى: لا يظلم بعضكم بعضًا.

وظلم العباد يكون بأمرين:

(١) **ظُلمهم فى دينهم:** وذلك بصرفهم عن دينهم الحق وعقيدتهم بإثارة الشبهات التى ينحرف بها العبد عن عقيدته.. أو بكتمان الحق أو إثارة الشهوات التى تُوقع العبد فى الرذيلة.

(٢) **ظُلمهم فى النفس والعقل:** وذلك بمنعهم حقوقهم أو فعل ما يضر بهم.

- وهذا النوع من الظلم لا يخرج عن صورتين:

أ- ظُلمٌ باللسان: كالغيبة والنميمة واللعن والسَّبِّ والشتم وشهادة الزور وقذف المحصنات والسخرية والاستهزاء وإفشاء السر.

ب- ظُلمٌ بالفعل: كالقتل والسحر واقتطاع شىء من أرضه بغير حق والسرقة والغدر والخيانة والمماطلة فى حقه والغش وغير ذلك.

---

(١) تفسير السعدى (ص ١٨١).

(٢) سورة طه: الآية: (١١٢).

(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٠٨).

❁ **وهناك تقسيمٌ آخر لظلم العباد يُقسمه إلى ثلاثة أقسام:**

بيَّنها الرسول ﷺ فى قوله وهو يخطب الناس فى حجة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحُرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟**» قالوا: نعم، قال: «**اللهم فاشهد**»[١].

فهذه ثلاثة أشياء: الدماء والأموال والأعراض.

❁ ثم قال الله تعالى: «**يا عبادى كلكم ضالٌّ إلا مَن هديته فاستهدونى أهدكم**» ضال يعنى تائهًا. أى لا يعرف الحق... وضال يعنى غاويًا لا يقبل الحق.

❁ فالناس فى الضلال قسمان:

قسمٌ تائه: لا يعرف الحق مثل النصارى.. فإن النصارى ضالون تائهون لايعرفون الحق إلا بعد أن بُعث النبى ﷺ، فإنهم عرفوا الحق لكنهم استكبروا عنه، فلم يكن بينهم وبين اليهود فرق فى أنهم علموا الحق ولم يتبعوه.

وقسمٌ غاوٍ: أى اختار الغَى على الرشد بعد أن علم بالرشد، وهؤلاء مثل اليهود، فإن اليهود عرفوا الحق ولكنهم لم يقبلوه، بل رَدُّوه.

ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[٢]. هداهم الله وبيَّن لهم ودلَّهم لكنهم استحبوا العمى على الهدى، واستحبوا الغى على الرشد...فالناس كلهم ضالون إلا مَن هداه الله.

لكن ما هى هداية القسم الأول وهو الضال الذى لم يعرف الحق؟ هداية القسم الأول أن يبين الله لهم الحق ويدلهم عليه، وهذه الهداية حَقٌّ على الله...حقٌّ على الله أوجبه الله على نفسه...فكل الخلق قد هداهم الله بهذا المعنى. يعنى بمعنى البيان.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧) كتاب العلم – ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة.

(٢) سورة فصلت: الآية: (١٧).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[2]. هدى للناس عمومًا.

ولكن الهداية الثانية وهى هداية التوفيق لقبول الحق هذه هى التى يختص الله بها مَن يشاء من عباده... فالهداية هدايتان؛ هداية بيان الحق، وهذه عامة لكل أحد، وقد أوجبها الله على نفسه، وبيَّن لعباده الحق من الباطل.

وهداية توفيق لقبول الحق والعمل به، تصديقًا للخبر وقيامًا بالطلب، وهذه خاصة يختص الله بها مَن يشاء مَن عباده.

۞ والناس فى هذا الباب ينقسمون إلى أقسام:

القسم الأول: مَن هُدى الهدايتين، أى علَّمه الله ووفقه للحق وقبوله.

والقسم الثانى: مَن حُرم الهدايتين فليس عنده علم وليس له عبادة.

والقسم الثالث: مَن هُدى بالدلالة والإرشاد ولكنه لم يُهدَ هداية التوفيق، وهذا شر الأقسام والعياذ بالله.

والمهم أن الله عز وجل يقول: «**كلكم ضال**» أى كلكم لا يعرف الحق، أو كلكم لا يقبل الحق، «**إلَّا مَن هديته فاستهدونى أهدكم**» يعنى اطلبوا الهداية منى، فإذا طلبتموها فإننى أجيبكم وأهديكم إلى الحق.

ولكن أكثرنا مُعرضٌ عن هذا ... فأكثرنا قائم بالعبادة لكن على العادة وعلى ما يفعل الناس... ما كأننا مفتقرون إلى الله سبحانه وتعالى فى طلب الهداية... فالذى يليق بنا أن نسأل الله دائمًا الهداية ... والإنسان فى كل صلاة يقول: «**رب اغفر لى وارحمنى واهدنى**»، بل إنه فى الصلاة يقول على سبيل الركنية: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾.

---

(١) سورة الليل: الآية: (١٢).

(٢) سورة البقرة: الآية: (١٨٥).

والذى يليق بنا أن ننتبه وأن نعلم أننا مفتقرون إلى الله عَزَّوَجَلَّ فى الهداية، سواء الهداية العلمية أو الهداية العملية... أى هداية الإرشاد والدلالة أو هداية التوفيق، فلا بد أن نسأل الله دائمًا الهداية.

«**فاستهدونى أهدكم**» وربما تشمل هذه الهداية الطريق الحسى كما تشمل الطريق المعنوى، فالهداية للطريق المعنوى هى الهداية إلى دين الله، والهداية للطريق الحسى كأن تكون فى أرضه قد ضللت الطريق وضِعتَ، فإنك تسأل الله الهداية... ولهذا قال الله عن موسى ﷺ: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾(١) . أى السبيل المستوى الموصل للمقصود بدون تعب... وقد جُرب هذا، فإن الإنسان إذا ضاع فى الصحراء فإنه يلجأ إلى الله تعالى ويقول: رب اهدنى سواء السبيل، أو عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل، وذلك لأننا محتاجون إلى الله فى الهدايتين؛ هداية الطريق الحسى، كما أننا محتاجون إلى الله فى الهداية إلى الطريق المعنوى.

۞ ثم قال ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**يا عبادى كلكم جائع إلا مَن أطعمته، فاستطعمونى أُطعمكم، يا عبادى كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسونى أَكسُكم**» هاتان الجملتان الخاصتان بالجوع والعرى ذكرهما الله عَزَّوَجَلَّ بعد أن ذكر الهداية، لأن الهداية فيها غذاء القلب فى العلم والإيمان، والجوارح بالعمل الصالح.

وأما الطعام والشراب والكسوة فهى غذاء البدن... لأن البدن لا يستقيم إلا بالطعام ولا يستتر إلا بالكسوة، ولهذا قال: «**يا عبادى كلكم جائع إلا مَن أطعمته، فاستطعمونى أُطعمكم**».

وصدق ربنا عَزَّوَجَلَّ ؛ كلنا جائع إلا مَن أطعمه الله، ولولا أن الله تعالى يسَّر لنا

---

(١) سورة القصص: الآية: (٢٢).

ما يكون به طعامنا لهلكنا... يقول الله تعالى مبينًا ذلك فى سورة الواقعة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾[1].

والجواب: بل أنت يا رب الذى زرعته، لأن الله يقول: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾[2].

وتأمل كيف قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ ولم يَقُل لو نشاء ما أنبتناه، لأنه إذا نبت وشاهده الناس تعلقت قلوبهم به، فإذا جُعل حطامًا بعد أن تعلقت به القلوب صار ذلك أشد نكاية... ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ ولم يقل لو نشاء ما أنبتناه.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾. يعنى من السحاب ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾[3]؛ لأن الماء الذى نشرب من السحاب، يُنْزِله الله عَزَّوَجَلَّ على الأرض كالأنهار، ثم يُستخرج بالأدوات التى سخرها الله عَزَّوَجَلَّ للناس فى كل وقتٍ بحسبه... وهذا من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ أن استودع الماء فى بطن الأرض، ولو بقى على ظهر الأرض لفسد، وأفسد الهواء وأهلك المواشى، بل وأهلك الآدميين من رائحته ونتنه، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ بحكمته ورحمته جعل هذه الأرض تشربه، وتسلكه ينابيع فيها، حتى تأتى حاجة الناس إليه فيحفرونه فيصلون إليه.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ والله عَزَّوَجَلَّ هو الذى أنزله، ولو اجتمع الناس كلهم على أن يُنْزِلوا قطرة من السماء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذى يُنْزِله بقدرته ورحمته.

واستطعام الله عَزَّوَجَلَّ يكون بالقول وبالفعل... فبالقول بأن نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن

---

(١) سورة الواقعة: الآيتان: (٦٣، ٦٤).

(٢) سورة الواقعة: الآيات: (٦٥-٦٧).

(٣) سورة الواقعة: الآيتان: (٦٨-٦٩).

يطعمنا وأن يرزقنا، وأما بالفعل فله جهتان:

الجهة الأولى: العمل الصالح، فإن العمل الصالح سبب كثرة الأرزاق وسعتها... قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[1].

الجهة الثانية: من جهتى الاستطعام بالفعل... أن نحرث الأرض، ونحفر الآبار ونستخرج المياه، ونزرع الحبوب، ونغرس الأشجار، وما أشبه ذلك.

واستطعام الله عَزَّوَجَلَّ يحتاج إلى أمرٍ مهم وهو حسن الظن بالله (جل وعلا)، أى أن تُحسن الظن بربك أنك إذا استطعمته أطعمك، أما أن تدعو الله وأنت غافل لاهٍ، أو تفعل الأسباب وأنت معتمد على قوتك لا على ربك فإنك قد تكون مخذولًا والعياذ بالله... ولكن استطعِم الله وأخلِص له وحده فى ذلك.

۞ **«يا عبادى كلكم عارٍ إلا مَن كسوته فاستكسونى أكسُكم»** كلكم عارٍ إلا مَن كسوته... وذلك لأن الإنسان يخرج من بطن أمه ليس عليه ثياب بل يخرج مجردًا بغير ثياب، ولا شعرٍ يكسوه... وهذا من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ.

فمن حكمته تعالى أن جعلنا نخرج بادية أبشارنا، بادية جلودنا، حتى نعرف أننا محتاجون إلى كسوة تستر عوراتنا حِسًّا، كما أننا محتاجون إلى عمل صالح يستر عوراتنا معنًى... لأن التقوى لباس المؤمن كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[2].

ولهذا ذكر بعض العابرين للرؤيا أن الإنسان إذا رأى نفسه فى المنام عاريًا فإنه يحتاج إلى كثرة الاستغفار، لأن هذا دليل على نقصان تقواه... فإن التقوى

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (٩٦).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٢٦).

لباس[(١)].

۞ ثم قال تعالى: «**يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفرونى أغفر لكم**» هذا أيضًا من تمام نعمة الله على العبد، أنه (جل وعلا) يعرض عليه أن يستغفر إلى الله ويتوب إليه مع أنه يقول: «**إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا**» أى جميع الذنوب من الشرك والكفر والكبائر والصغائر كلها يغفرها الله، ولكن بعد أن يستغفر الإنسان ربه... ولهذا قال: «**فاستغفرونى أغفر لكم**» أى اطلبوا منى المغفرة حتى أغفر لكم.

ولكن طلب المغفرة ليس مجرد أن يقول الإنسان: اللَّهم اغفر لى، بل لَا بُدَّ من توبة صادقة يتوب بها الإنسان إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ والتوبة الصادقة هى التى تجمع الشروط الآتية:

(١) الإخلاص فى التوبة:

وذلك بأن يتوب العبد ابتغاء مرضاة الله (جلَّ وعلا)... لا للخوف من أى مخلوق أو لأنه عاجز عن فعل المعصية أو لأنه يخشى على سُمعته وجاهه، أو لأىِّ حظٍّ دنيوى.

(٢) الإقلاع عن الذنوب:

فإنه - والله- تستحيل التوبة مع مباشرة الذنب... ولذلك يجب على التائب أن يترك المعصية فور توبته إلى الله (جلَّ وعلا).

(٣) الندم على فعل تلك الذنوب:

إن الندم توبة... والعبد إذا لم يندم على ما فعل من المعاصى كان ذلك دليلًا على رضاه بفعلها، وهذا كله يقدح فى توبة العبد.

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٦٨-٣٧١) بتصرف كبير.

(٤) العزم على ألا يعود إليها أبدًا :

وينبغى على التائب أن يعزم على أن لا يعود إلى مقارفة الذنوب مرة أخرى... ولكنه إن فعل ذلك ثم عاد إلى نفس الذنب أو إلى غيره من الذنوب فإن توبته عن الذنب الماضى صحيحة ويَلزمه أن يتوب من الذنوب التى وقع فيها بعد ذلك.

(٥) التحلل من المظالم :

قال ﷺ: «**مَن كانت عنده مظلمة لأخيه من مالٍ أو عِرضٍ فليتحلله اليوم من قبل ألا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات**»[١].

فيجب على كل مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يَرُدَّ المظالم إلى أصحابها من قبل أن يجد نفسه يوم القيامة مُفلسًا من الحسنات... فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته أُخذ من سيئات مَن ظلمهم فتُطرح عليه ثم يُطرَح فى النار... أعاذنا الله جميعًا من نار جهنم.

(٦) التوبة قبل الغرغرة وقبل طلوع الشمس من مغربها :

قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»[٢].

وقال ﷺ: «**إِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقبَلُ توْبة العبْدِ مَالَم يُغرغِر**»[٣].

۞ ثم قال عَزَّوَجَلَّ: «**يا عبادى إنكم لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ولن تبلغوا ضُرِّى فتضرونى**» يعنى أنه تبارك وتعالى غنى عن العباد، لا ينتفع بطاعتهم ولا تضره معصيتهم.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٣٤) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٩) كتاب التوبة.

(٣) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٠٣).

فإنه عَزَّوَجَلَّ قال في كتابه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[١].

فالله عَزَّوَجَلَّ لا ينتفع بأحد ولا يتضرر بأحد لأنه غنى عن الخلق عَزَّوَجَلَّ، وإنما خلق الخلق لحكمة أرادها تبارك وتعالى...خلقهم لعبادته، ثم إنه وعد الطائعين بالثواب، وتَوعَّد العاصين بالعقاب حكمة منه لأنه خلق الجنة والنار، وقال لكلٍّ منكما علىَّ ملؤها... فالنار لا بد أن تُملأ، والجنة لا بد أن تُملأ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[٢].

إذن فالله تعالى لن تنفعه طاعة الطائعين، ولن تضره معصية العاصين، ولن يبلغ أحد ضرره مهما كان[٣].

۞ ولهذا قال الله تعالى بعد هذه الجملة: **«لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في مُلكي شيئًا»** لو أن أول الخلق وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا متقين، على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ، ما زاد ذلك في مُلك الله شيئًا، لأن المُلك مُلكه لا للطائعين ولا للعاصين.

۞ ثم قال (جلَّ وعلا): **«يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما نقص ذلك في مُلكي شيئًا»** لو كان الناس كلهم من جنٍّ وإنسٍ وأولهم وآخرهم، لو كانوا كلهم فُجَّارًا وعلى أفجر قلب رجل، فإن ذلك لا ينقص من مُلك الله شيئًا...قال الله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[٤].

---

(١) سورة الذاريات: الآيات: (٥٦-٥٨).

(٢) سورة هود: الآية: (١١٩).

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٧٤).

(٤) سورة الزمر: الآية: (٧).

فالله (جل وعلا) لا ينقص مُلكه بمعصية العُصاة، ولا يزيد بطاعة الطائعين[١].

۞ ثم تمنَّن الله عَزَّوَجَلَّ بكمال سمعه وبصره، وكمال قدرته، وكمال غناه، فقال: «يَا عِبادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَ إنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فى صَعيدٍ وَاحد، فَسألُونى فَأَعطيْتُ كُلَّ إنسانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدى إلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدخِلَ البَحرَ».

فمن كمال سمع الله عَزَّوَجَلَّ أن يسمع الإنس والجن الأولين والآخرين إذا اجتمعوا فى مكانٍ واحد واجتهدوا فى إنزال الرغبات والطلبات بالله عَزَّوَجَلَّ، على اختلاف اللغات، واختلاف اللهجات، واختلاف الطلبات... فالله تعالى لا يشغله سمعٌ عن سمعٍ... ومن كمال قدرة الله عَزَّوَجَلَّ أنه يُجيب الجميع فى وقتٍ واحدٍ لا يشغله إجابة داعٍ عن داعٍ آخر... ومن كمال غِنى الله عَزَّوَجَلَّ، أنه لا ينقص ما عند الله عَزَّوَجَلَّ إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر... والمخيط إذا أُدخل البحر لا يُنقص منه شيئًا... قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[٢].

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَدُ اللهِ مَلْأَى لاَ تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ -أى لا تنقصها نفقة- سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهار، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوات وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ -أى لم ينقص- مَا فِى يَمِينِهِ»[٣].

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: «مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِى إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدخِلَ الْبَحرَ» الْمِخْيَطُ: هُوَ الإِبْرَةُ...قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا تَقْرِيبٌ إِلَى الأَفْهَام وَمَعنَاهُ: لَا يُنْقِصُ شَيْئًا أَصلًا، كَمَا قَالَ فِى الْحَدِيثِ الآخَرِ: «لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ» أَىْ لَا يَنْقُصُهَا نَفَقَةٌ

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٧٥).

(٢) سورة النحل: الآية: (٩٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٨٤) كتاب التفسير - ومسلم (٩٩٣) كتاب الزكاة.

لِأَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ لَا يَدخُلُهُ نَقْصٌ وَإِنَّمَا يَدخُلُ النَّقْصُ الْمَحدُودَ الْفَانِيَ... وَعَطَاءُ اللهِ تَعَالَى مِنْ رَحمَتِهِ وَكَرَمِهِ وَهُمَا صِفَتَانِ قَدِيمَتَانِ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِمَا نَقْصٌ... فَضَرَبَ الْمَثَلَ بِالْمِخْيَطِ فِي الْبَحرِ لِأَنَّهُ غَايَةُ مَا يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْقِلَّةِ وَالْمَقْصُودُ التَّقْرِيبُ إِلَى الإِفْهَامِ بِمَا شَاهَدُوهُ فَإِنَّ الْبَحرَ مِنْ أَعظَمِ الْمَرْئِيَّاتِ عَيَانًا وَأَكْبَرِهَا ... وَالْإِبْرَةُ مِنْ أَصغَرِ الْمَوْجُودَاتِ مَعَ أَنَّهَا صَقِيلَةٌ لَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مَاءٌ[١].

۞ ثم قال عَزَّوَجَلَّ: «**يَا عِبَادِى إِنَّما هِيَ أَعمَالُكُمْ أُحصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيحمِدِ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ**»، كما ابتدأ الحديث القدسى بتحريم الظلم، انتهى بكمال العدل، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون... قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[٢].

والعبد قد ينال فى الدنيا من بركة الحسنة ثوابًا مُعجَّلًا، أو من شؤم المعصية عقابًا مُعجلًا... كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إن للحسنة ضياءً فى الوجه، ونورًا فى القلب، وسعةً فى الرزق، ومودة فى قلوب الخلق، وإن للسيئة ظُلمة فى الوجه، وسوادًا فى القلب، وضيقًا فى الرزق، وبُغضةً فى قلوب الخلق».

أما توفية الأعمال فيوم القيامة... حيث ينال المحسن جزاء إحسانه كاملًا، والمسىء جزاء إساءته، أو يعفو الله عَزَّوَجَلَّ... قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[٣].

«**فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيحمِدِ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ**» أى: فمن وجد ثوابًا ونعيمًا أو حياةً طيبة فليحمد الله؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذى

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٢٠٠-٢٠١).

(٢) سورة المجادلة: الآية: (٦).

(٣) سورة آل عمران: الآية: (١٨٥).

هداه ووفقه للعمل الصالح ثم تقبَّل منه عمله الصالح وأجزل له الثواب والعطاء في الدنيا والآخرة.

«**وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ**» لأنه هو الذى آثر الشهوات على رضا الله عَزَّوَجَلَّ وانغمس فى المعاصى والسيئات ولم يفكر لحظة واحدة أن يتوب وأن يعود إلى ربه وخالقه (جَلَّ وعَلَا) الذى يغفر الذنوب ويستر العيوب ويُبدل السيئات إلى حسنات.

۞ فهذا الحديث حديث عظيم، تناوله العلماء بالشرح واستنباط الفوائد والأحكام منه... وممن أفرد له مؤلفًا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فإنه شرح هذا الحديث فى كتابٍ مُستقل... فعلى الإنسان أن يتدبر هذا الحديث ويتأمله.

ولقد كان السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُعظمون شأن هذا الحديث.

وكان أبو إدريس الخولانى إذا حدَّث بهذا الحديث جثَا على رُكبتيه... وقيل: هو أشرف حديثٍ لأهل الشام.

(٦٠) تحريم الكبر ومغبته

۞ عَنْ أبى هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«قال الله عَزَّ وَجَلَّ: العِزُّ إزارى، والكِبْرِياءُ رِدَائِى، فَمَنْ يُنَازِعُنى فى واحدٍ منهُما فقد عذَّبتُه»**[١].

۞ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: وهذا من الأحاديث التى تمر كما جاءت عن النبى ﷺ، ولا يُتعرض لمعناها بتحريف أو تكييف، وإنما يُقال: هكذا قال الله تعالى فيما رواه النبى ﷺ عنه...فمن نازع الله فى عزته وأراد أن يتخذ سلطانًا كسلطان الله، أو نازع الله فى كبريائه وتكبر على عباد الله، فإن الله يُعذبه...يعذبه على ما صنع ونازع الله تعالى فيما يختص به.

الحسرات التى يجنيها المتكبر فى الدنيا والآخرة

۞ فأمَّا حسرته فى الدنيا فإنه يُحرَم من محبة الناس ومحبة الملائكة، وفوق ذلك يُحرَم من مَحبَّة ربِّ العالمين عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[٢].

۞ وقد قال ﷺ مُخبرًا عن ربه عَزَّ وَجَلَّ أنه: **«إِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّى أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِى فِى أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِى الْأَرْضِ»**[٣].

ثُمَّ إن المستكبر يُحرَم الخير العظيم الذى لم يجعله الله إلَّا لأحبابه حيث يقول: **«فَإِذَا أَحبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِى لَأُعطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِى لَأُعِيذَنَّهُ»**[٤].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٠) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) سورة النحل: الآية: (٢٣).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٣٧) كتاب البر والصلة والآداب.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

وكذلك فإن الله (جَلَّ وعَلَا) يصرفه عن آياته... قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[1].

أي: سأمنع المتكبرين عن فهم آياتى فلا يتفكرون ولا يتدبرون بما فيها وأطمس على قلوبهم عقوبة لهم على تكبُّرهم.

۞ وعَنْ أبى سعيد الخُدرىِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبىِّ ﷺ قال: «**احتَجَّتِ الجَنَّةُ والنَّارُ، فقالت النَّارُ: فِىَّ الجَبَّارُونَ والمُتكَبِّرُونَ، وقالَت الجنَّةُ: فِىَّ ضُعَفاءُ النَّاسِ ومَسَاكينُهُمْ. فَقَضَى الله بيْنَهُمَا: إنَّكِ الجنَّةُ رَحمَتى، أَرحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ وإِنَّكِ النَّارُ عذَابى، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، ولِكِلَيْكُما علىَّ مِلْؤُها**»[2].

۞ وأما عن عذاب أهل الكبر فى الآخرة فتأمل معى ما قاله الحبيب ﷺ حيث يقول: «**يُحشَرُ المُتكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِى صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِى جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولُسَ تَعلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ.. طِينة الخَبال**»[3]. فيا له من عذابٍ شديد[4].

۞ والمتكبر قد يُحرم من دخول الجنة مع أول الداخلين.. ويدخل النار.

۞ عن حارثة بن وهب الخزاعى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ[5] جَوَّاظٍ[6] مُسْتَكْبِرٍ**»[7].

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٤٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٥٠) كتاب تفسير القرآن - ومسلم (٢٨٤٧) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٣) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٤٠).

(٤) وأنذرهم يوم الحسرة / د. محمود المصرى (١٨٨، ١٨٩).

(٥) العتل: الغليظ الفظّ الجافى.

(٦) الجواظ: الجموع للمال، المنوع له. وقيل: الضَّخم المُختال فى مشيته.

(٧) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٧١) كتاب الأدب - ومسلم (٢٨٥٣) كتاب الجنة.

۞ وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لَا يَدخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»[1].

عجبًا لهذا المتكبِّر المخلوق الضَّعيف كيف يتجرَّأ على خالقِهِ مالكِ المُلكِ، (جلَّ وعلا).

(١) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.



(٦١) فيم يختصم الملأ الأعلى



۞ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَانِي اللَّيْلَةَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ: لا، فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَعَلِمْتُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فِي الكَفَّارَاتِ والدَّرجَات.. وَالكَفَّارَاتُ المُكْثُ فِي المَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَالْمَشْيُ عَلَى الأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَإِسْبَاغُ الوُضُوءِ فِي المَكَارِهِ، قال: صَدَقْتَ يَا مُحَمَّد...وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ عَاشَ بِخَيْرٍ وَمَاتَ بِخَيْرٍ، وَكَانَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ... وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِذَا صَلَّيْتَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ المَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي وَتَتُوبَ عَلَيَّ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ.... وَالدَّرَجَاتُ: إِفْشَاءُ السَّلامِ، وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَالصَّلاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»(١).

۞ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أنه أتاه ربه عَزَّ وَجَلَّ في المنام في أحسن صورة.. وهل هناك أجمل من الخالق (جلَّ وعلا).. فهو صاحب الجمال والكمال والجلال (سبحانه وتعالى)... وهذا الإتيان كان في المنام كما رجحه الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ.

۞ فقال له تعالى: «يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلأُ الأَعْلَى؟» يعني: هل تدري في أي شيء يختصم أي يبحث الملأ الأعلى ... وهم الملائكة المقربون، ولقد وُصفوا بالعُلو لعُلو مكانتهم عند الله أو لعلو مكانهم... واختصامهم إما عبارة عن تَبادُرهم إلى إثبات تلك الأعمال والصعود بها إلى

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وعبد الرزاق في مصنفه، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩).

السماء، وإما عبارة عن حوارهم فى فضلها وشرفها، وإما عن اغتباطهم الناس بتلك الفضائل لاختصاصهم بها وتفضيلهم على الملائكة بسببها.... فلما سأل الله نبيه ﷺ: «**هَلْ تَدْرِى فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلأُ الأَعْلَى؟**» قال النبى ﷺ: «**لا**».

وفيه دلالةٌ على أنَّ الملأَ الأعْلى وهُم الملائكةُ أو المُقرَّبونَ منهم يختصمونَ فيما بينهم ويتراجعونَ القولَ فى الأعمالِ التى تُقربُ بنى آدمَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وتُكَفَّرُ بها عنهم خطاياهُم ... وقد أخبرَ اللهُ عنهم بأنهم يستغفرون للذين آمنوا ويدعون لهُمْ.

وفى الحديثِ الصحيح: «**إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبْدًا نادى: يا جبريل إنِّى أحبُّ فلانًا فأحبَّه، فيحبُّه جبريلُ ثم ينادِى فى السماءِ: إنَّ اللهَ يحبُّ فلانًا فأحبُّوه فيحبَّه أهلُ السماءِ، ثم يُوضعُ له القَبولُ فى الأرضِ**».

۞ قوله: «**فوضع يده بين كتفى حتى وجدت بردها بين ثديىَّ فعلمت ما فى السماوات وما فى الأرض**»، يعنى: أن الله وضع يده الكريمة بين كتفى الرسول حتى أحسَّ بردها فى صدره بين ثدييه، فحصل عنده بسبب ذلك علم ما فى السماوات وما فى الأرض، ومن ذلك علم ما كان يجهله من جواب السؤال... فلما أعاد الله السؤال ثانية أجاب النبى ﷺ بأنهم يختصمون فى الكفارات والدرجات، ثم وضَّح الكفارات بأنها المُكث أى اللَّبث فى المساجد بعد الصَّلوات، والمشى على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء أى إكماله فى المكاره، أى فى شدة البرد.

۞ **الفصل الأول: فى ذكر الكفارات:**

وهى: المُكث فى المساجد بعد الصلوات، والمشى على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء فى المكاره.

وسُميِّتْ هذه كفَّاراتٌ لأنها تُكَفِّرُ الخطايا والسيئاتِ.

وهذه الخصال المذكورةُ الأغلبُ عليها تكفيرُ السيئات، ويحصلُ بها أيضًا رفعُ الدرجاتِ كما فى «صحيح مسلمٍ» عن أبى هريرة رَضِوَاللَّهُعَنهُ عن النبىِّ ﷺ قالَ:

«أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟».

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ:

«إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»[1].

وقد رُوى هذا المعنى عن النبىِّ ﷺ من وجوهٍ متعددة، فهذه ثلاثةُ أسبابُ يُكفِّر اللهُ بها الذنوبَ:

۞ السبب الأول من مكفرات الذنوب: المُكث فى المساجد بعد الصلوات:

۞ والمراد بهذا الجلوسِ انتظارُ صلاة أخرى كما فى حديثِ أبى هريرةَ رَضِوَاللَّهُعَنهُ: **«وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»**.

فجعل هذا من الرباطِ فى سبيلِ الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا أفضلُ من الجلوسِ قبلَ الصلاةِ لانتظارِهَا، فإنَّ الجالسَ لانتظارِ الصلاةِ ليؤدِّيها ثم يذهبُ تقصُرُ مدةُ انتظاره، بخلافِ مَن صلَّى صلاةً ثمَّ جلسَ ينتظرُ أخرى، فإنَّ مدَّتَهُ تَطولُ فإن كانَ كلما صلَّى صلاةً جلسَ ينتظرُ ما بعدَهَا استغرقَ عمرهُ بالطاعةِ، وكانَ ذلكْ بمنزلةِ الرباطِ فى سبيلِ الله عَزَّوَجَلَّ.

ويدخلُ فى قولهِ: «المُكث فى المساجدِ بعدَ الصلواتِ» الجلوسُ للذكرِ والقراءةِ وسماع العلم وتعليمهِ ونحو ذلكَ، ولاسيَّما بعدَ صلاة الصبح حتى تطلعَ الشمسُ؛ فإنَّ النصوصَ قد وردتْ بفضلِ ذلكَ، وهو شبيه بمن جلسَ ينتظرُ صلاةً أخرى، لأنهَّ قد قضى ما جاءَ إلى المسجدِ لأجلِهِ من الصلاةِ، وجلسَ ينتظر طاعةً أخرى.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥١) كتاب الطهارة.

وفى «الصحيح» عن النبىِّ ﷺ قال: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ تَعَالَى، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»(١).

وفى «الصحيحينِ» عن أنسٍ رضي الله عنه عن النبىِّ ﷺ: «أنه لما أخَّرَ صلاةَ العشاءِ الآخِرةَ، ثمَّ خرج فصلَّى بهم، قالَ لهم: «إنكم لم تزالُوا فى صلاةٍ ما انتظرتُمُ الصلاةَ»(٢).

وفى هذا المعنى أحاديثُ كثيرةٌ.

وبالجملةِ فالجلوسُ فى المساجدِ للطاعاتِ له فضلٌ عظيمٌ.

وصحَّ عن النبىّ ﷺ أنه عدَّ من السبعةِ الذينَ يُظلُّهُمُ الله فى ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه: «رجلٌ قلبُهُ معلَّق بالمسجدِ»(٣) إذا خرجَ منه حتى يعودَ إليه.

وإنَّما كانتْ ملازمةُ المسجدِ للطاعاتِ مكفرةً للذنوبِ؛ لأنَّ فيها مجاهدةَ النفسِ وكَفًّا لها عن أهوائِها؛ فإنها لا تميلُ إلا إلى الانتشار فى الأرضِ لابتغاء الكسبِ؛ أو لمجالسةِ الناس، أو لمحادثتهم، أو للتنزُّه فى الدور الأنيقةِ والمساكنِ الحسنةِ ومواطنِ التنزُّهِ، ونحو ذلكَ.

فمن حبسَ نفسَهُ فى المساجدِ على الطاعةِ فهوَ مرابطٌ لها فى سبيلِ الله مخالِفٌ لهواهَا، وذلكَ من أفضلِ أنواع الصبرِ والجهادِ.

وهذا الجنسُ - أعنى ما يؤلمُ النفسَ ويخالفُ هواهَا - فيه كفارةٌ للذنوبِ وإنْ كانَ لا صنعَ فيه للعبدِ كالمرضِ ونحوِه، فكيفَ بما كانَ حاصِلًا عن فعلِ العبدِ واختياره، إذا قصدَ به التقربَ إلى الله عز وجل، فإنَّ هذا من نوع الجهادِ فى

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٠) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٦٤٠) كتاب المساجد.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٠) كتاب الأذان، ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة.

سبيلِ الله الذى يقتضِى تكفيرَ الذنوبِ كلها.

۞ السبب الثانى من مكفرات الذنوب: المشى على الأقدام إلى الجماعات:

المشىُ على الأقدامِ إلى الجماعاتِ وإلى الجُمُعاتِ، ولاسيَّما إن توضَّأ الرجلُ فى بيتِهِ ثم خرجَ إلى المسجدِ لا يريدُ بخروجِه إلا الصلاةَ فيه.

كما فى «الصحيحينِ» عن أبىِ هريرةَ رضي الله عنه عن النبىِّ ﷺ قال: **«صَلاَةُ الرَّجُلِ فِى الجَمَاعَةِ تُضَعَّفُ عَلَى صَلاَتِهِ فِى بَيْتِهِ، وَفِى سُوقِهِ، خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ، فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى المَسْجِدِ، لاَ يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلاَةُ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً، إِلَّا رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّت عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، فَإِذَا صَلَّى، لَمْ تَزَلِ المَلاَئِكَةُ تُصَلِّى عَلَيْهِ، مَا دَامَ فِى مُصَلَّاهُ مَا لَمْ يُحدث تَقُولُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، وَلاَ يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِى صَلاَةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلاَةَ»**(١).

وعن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ غَسَّلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ ثُمَّ بَكَّرَ وَابْتَكَرَ وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ وَدَنَا مِنَ الإِمَامِ وَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ وَلَمْ يَلْغُ كَانَ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا مِنْ بَيْتِهِ إِلَى المَسْجِدِ عَمَلُ سَنَةٍ أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا»**(٢).

كلما بَعُدَ المكانُ الذى يمشى منه إلى المسجدِ كانَ أفضل لكثرةِ الخُطا، وفى «صحيح مسلم» عن جابرٍ قال: « كَانَتْ دِيَارُنَا نَائِيَةً عَنِ الْمَسْجِدِ، فَأَرَدْنَا أَنْ نَبِيعَ بُيُوتَنَا، فَنَقْتَرِبَ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَنَهَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: **«إِنَّ لَكُمْ بِكُلِّ خَطْوَةٍ دَرَجَةً»**(٣).

وفى «صحيح البخارىِّ» عن أنس أنَّ النبىَّ ﷺ قال: **«يا بنى سلمةَ ألا**

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٧) كتاب الأذان - ومسلم (٦٤٩) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٠٥).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٦٦٤) كتاب المساجد.

تحتسبونَ آثارَكم»[١].

والمشىُّ إلى المسجدِ أفضلُ من الركوبِ كما تقدَّم فى حديثِ أوسٍ فى الجُمَع.... ولهذا جاءَ فى حديثِ معاذٍ ذكرُ المشى على الأقدامِ..وكان النبى ﷺ لا يخرجُ إلى الصلاة إلا ماشيًا حتَّى فى العيد يخرجُ إلى المُصلَّى ماشيًا، فإنَّ الآتى للمسجدِ زائرُ اللهِ، والزيارةُ على الأقدامِ أقربُ إلى الخضوع والتذللِ، كما قِيل:

لو جئتكم زائرًا أسْعى على بصرِى   لم أؤدِ حقًّا وأىَّ الحق أديتُ

وفى «صحيح البخارىِّ» عن أبى هريرةَ عن النبىِّ ﷺ قالَ: « **مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ أَعَدَّ اللهُ لَهُ نُزُلًا فِى الْجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ** »[٢].

وكلما شَقَّ المشىُ إلى المسجدِ كانَ أفضل ولهذا فُضِّلَ المشى إلى صلاةِ العشاءِ وصلاةِ الصبح وعُدلَ بقيامِ الليلِ كله كما فى «صحيح مسلمٍ» عن عثمانَ عن النبىِّ ﷺ قال: « **مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِى جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِى جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ**»[٣].

وفى «الصحيحينِ» عن أبى هريرةَ عن النبىِّ ﷺ قالَ: « **لَيْسَ صَلاَةٌ أَثْقَلَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنَ صَلاَةِ الفَجْرِ وَالعِشَاءِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا** »[٤].

وإنما ثقلتْ هاتان الصلاتانِ على المنافقينَ لأنَّ المنافقَ لا ينشطُ للصلاةِ إلا إذا رآهُ الناسُ، كما قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٥].

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٥) كتاب الأذان.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٢) كتاب الأذان - ومسلم (٦٦٩) كتاب المساجد.
(٣) صحيح: رواه مسلم (٦٥٦) كتاب المساجد.
(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٧) كتاب الأذان - ومسلم (٦٥١) كتاب المساجد.
(٥) سورة النساء: الآية: (١٤٢).

وصلاة العشاءِ والصبحِ يقعان فى ظلمةٍ فلا ينشطُ للمشى إليهما إلا كلُّ مخلص يكتفى برؤيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وحده لعلمِهِ به.

وثوابُ المشى إلى الصلاة فى الظُّلَمِ: النورُ التامُّ فى ظُلَم القيامةِ، كما فى «سنن أبى داودَ»، والترمذى عن بريدةَ عنَ النبىِّ ﷺ قالَ: «**بشِّر المشائينَ فى الظُّلَم إلى المساجدِ بالنورِ التامِّ يومَ القيامةِ**»(١).

۞ السبب الثالث من مكفرات الذنوب: إسباغ الوضوء على المكاره:

فمن الكفارات: إسباغ الوضوء على المكاره... وهنا أمران:

أحدهما: إسباغُ الوضوءِ، وهو: إتمامُهُ وإبلاغُهُ مواضِعَهُ الشرعيةَ كالثوبِ السابغ المغطى للبدنِ كله.

وثانيهما: أنْ يكونَ إسباغُهُ على الكريهاتِ، والمرادُ أن يكونَ على حالة تكرهُ النفسُ فيها الوضوءَ... كالبرد الشديد وغيره.

ويشهدُ له أنَّ فى بعضِ رواياتِ حديثِ معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إسباغُ الوضوءِ على السبرات**».

والسبرةُ: شدةُ البردِ، ولا ريبَ أنَّ إسباغَ الوضوءِ فى شدة البردِ يَشُقُّ على النفسِ وتتألمُ به...وكلُّ ما يؤلمُ النفسَ فيه صنعٌ ولا تسببٌ، كالمرضِ ونحوِه كما دلَّتِ النصوصُ الكثيرةُ على ذلك.

وأما إن كان ناشئًا عن فعلٍ هو طاعةٌ لله تعالى، فإنه يُكتبُ لصاحبِهِ به أجرٌ وتُرفعُ به درجاتُهُ كالألم الحاصلِ للمجاهدِ فى سبيلِ اللهِ تعالى...قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٢).

وكذلك الجوع فى البرد... ويجبُ الصبرُ على الألم بذلك، فإن حصلَ به

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٨٢٣).

(٢) سورة التوبة: الآية: (١٢٠).

رِضى، فذلك مقامُ خواصِّ العارفين المحبينَ.

۞ وينشأ الرضى بذلكَ عن ملاحظةِ أمورٍ:

أحدها: تَذَكُّرُ فضلِ الوضوءِ من حَطِّه الخطايا ورفعِهِ للدرجاتِ، وحصولِ الغُرة والتحجيل به وبلوغ الحليةِ فى الجنّة إلى حيث يبلغ.

الثانى: تَذَكُّرُ ما أعدَّه الله عَزَّوَجَلَّ لمن عصاهُ من العذابِ بالبردِ والزمهريرِ فى الآخرةِ، فإنَّ شدةَ بردِ الدنيا يُذكرُ زمهريرَ جهنم.

الثالث: ملاحظةُ جلالِ مَنْ أمرَ بالوضوءِ، ومطالعةُ عظمتِهِ وكبريائِهِ، وتَذَكُّرُ التهيؤ للقيامِ بين يديه ومناجاتِهِ فى الصلاةِ، فذلك يُهونُ كلَّ ألمٍ ينالُ العبدَ فى طلبِ مرضاتِهِ من بردِ الماءِ وغيره... وربَّما لم يشعر بألمهِ بالكليةِ، كما قال بعضُ العارفين: بالمعرفة هانتْ على العاملينَ العبادةُ.

الرابع: استحضارُ اطلاع اللهِ عَزَّوَجَلَّ على عبده فى حالِ العملِ له. وتحمُّلُ المشاق لأجلِهِ.

الخامس: الاستغراقُ فى محبةِ مَن أمرَ بهذه الطاعةِ وأنَّه يرضَى بها ويحبُّها. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾، فمن امتلأ قلبُه من محبةِ الله عَزَّوَجَلَّ أحبَّ ما يحبُّهُ وإنْ شقَّ على النفسِ وتألَّمتْ به.

كما يُقال: المحبةُ تهوِّنُ الأثقالَ.

۞ الفصل الثانى: فى ذكر الدرجات المذكورة فى الحديث:

أولاً: إفشاء السلام:

وذلك بأن تُسلم على مَن تعرف ومَن لا تعرف مع بشاشة الوجه وطلاقة أساريره... وإفشاء السلام له فضلٌ عظيم.. ولذا كان النبى ﷺ يوصى دائمًا بإفشاء السلام.

فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ قال: «**السَّلَامُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الله وَضَعَهُ الله**

فِي الأَرْضِ، فَأَفْشُوهُ بَيْنَكُمْ، فَإِنَّ الرَّجُلَ المُسْلِمَ إِذَا مَرَّ بِقَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَرَدُّوا عَلَيْهِ كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ فَضْلُ دَرَجَةٍ بِتَذْكِيرِهِ إِيَّاهُم السلام، فإن لم يردوا عليه رَدَّ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَأَطْيَبُ»(١).

وإذا كان البدء بالسلام سُنة مُستحبة على الكفاية، فإن ردَّه فرض عينٍ فى حق الواحد لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ**﴾(٢).

والآية الآنفة الذكر تدل على أن رد التحية بمثلها واجب، والزيادة سُنة مستحبة... فمن سلَّم عليك، فقال: السلام عليكم، فَرُدَّ عليه بمثل سلامه، فقل: وعليكم السلام...وإن زدت الرحمة والبركة، فهو أفضل، حتى تَغنم من الأجر ثلاثين حسنة.

فعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَشْرٌ**» ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحمَةُ اللهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَجَلَسَ، فَقَالَ: «**عِشْرُونَ**» ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ**»، فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَجَلَسَ، فَقَالَ: «**ثَلَاثُونَ**»(٣).

۞ فضل السلام وفوائده:

من فضله وفوائده ما يأتى:

١ - من أعظم فوائده امتثال أمر الله سبحانه لأنه غاية سعادة الإنسان فى معاشه ومعاده،... قال الحق تبارك وتعالى:

---

(١) صحيح: رواه البزار والبيهقى والطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٦٩٧).

(٢) سورة النساء: الآية: (٨٦).

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى والنسائى والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب(٢٧١٠).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ[١] وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا[٢] ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٢٧﴾[٣].

وقال أيضًا: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾[٤].

٢- إفشاء اسم الله تعالى بين الناس، وإحياءٌ لسُنة نبينا محمد ﷺ.

٣- أنه من صفات الملائكة المقربين، وأولياء الله المتقين.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾[٥].

٤- أنه من أسباب تآلف المسلمين، ونشر المحبة والمودة بينهم، وزوال الشحناء والتباغض عن قلوبهم... فهو مفتاحٌ - مؤكد النتيجة - لفتح كثير من القلوب.

وإذا كان السلام طريق المحبة، فالمحبة طريق الإيمان، والإيمان طريق الجنة... فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَدخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ**»[٦].

٥- أنه من الأمور التي يُستكمل بها الإيمان... قال رسول الله ﷺ: «**أَكْمَلُ**

---

(١) تستأنسوا: تستأذنوا... سُمي الاستئذان استئناسًا، لأنه به يحصل الاستئناس، وبعدمه يحصل الاستيحاش... ففي الآية مجاز مُرسل علاقته السببية، فما أروع بلاغة القرآن الكريم.

(٢) صفة ذلك - كما جاء في الحديث - «السلام عليكم، أأدخل؟».

(٣) سورة النور: الآية: (٢٧).

(٤) سورة النور: الآية: (٦١).

(٥) سورة الذاريات: الآيتان: (٢٤، ٢٥).

(٦) صحيح: رواه مسلم (٥٤) كتاب الإيمان.

الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحسَنُهُمْ خُلُقًا»[١] .. ولا شك أن حُسن الخلق يستلزم إلقاء السلام.

٦- أنه من أسباب حصول البركة على المُسلِّم والمُسلَّم عليه.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «**يَا بُنَىَّ، إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ يَكُنْ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ**»[٢].

٧- أن فيه إغاظة لليهود المغضوب عليهم.

فعن عائشة رضي الله عنها عن النبى ﷺ قال: «**مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَى شَىْءٍ، مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلامِ وَالتَّأْمِينِ**»[٣].

٨- أنه من أسباب دخول الجنة،... فعن أبى يوسف عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الأَرحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلامٍ**»[٤].

ثانيًا: من الدرجات: إطعام الطعام:

وقد جعلَهَ الله فى كتابِهِ من الأسبابِ الموجبةِ للجنةِ ونعيمِهَا.

قالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[٥].

فوصف فاكهتهم وشرابهم جزاءً لإطعامهم الطعام ابتغاء وجه الله عز وجل.

---

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٣٠).

(٢) حسن لغيره: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١٦٠٨).

(٣) صحيح: رواه أحمد وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦١٣).

(٤) صحيح: رواه أحمد والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٦٥).

(٥) سورة الإنسان: الآيات: (٨-١٢).

وفى «المسندِ» و «الترمذيِّ» عن عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ فى الجنةِ غُرفًا يُرى ظاهُرها من باطِنِها وباطنُها من ظاهرِهَا**، قالوا: لمن هىَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: **لمن أطعمَ الطعامَ، وألانَ الكلامَ، وَتَابَع الصِّيام وصلَّى بالليلِ والناسُ نيامُ**»(١).

وفى «الصحيحين» من حديثِ عبد اللهِ بن عمروٍ أنَّ رجلًا قالَ:

يا رسولَ الله، أَيُّ الإِسْلاَمَ خَيْرٌ؟

قَالَ: «**تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**»(٢).

فإطعامُ الطعامِ يُوجبُ دخولَ الجنةِ، ويباعدُ من النارِ، وينجى منها كما قالَ تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾(٣).

وفى الحديثْ الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**اتقوا النار ولو بشقِّ تمرةٍ**»(٤).

ويتأكدُ إطعامُ الطعامِ للجائع وللجيرانِ خصوصًا...ففى «الصحيح» عن أبى موسى الأشعريِّ عن النبى ﷺ قالَ: « **أَطْعِمُوا الجَائِعَ، وَعُودُوا المَرِيضَ، وَفُكُّوا العَانِيَ** »(٥).

وفى «صحيح مسلم» عن أبى ذرٍّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال لهُ: «**إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ**»(٦).

وقدْ صَحَّ أنَّ رجلًا من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أخذ ضيفًا من عند النبيِّ ﷺ يضيفُه فلم يجدْ عندَهُ إلا قوتَ صبيانِهِ، فاحتالَ هوَ وامرأتُهُ حتَّى نوَّما صبيانَهُمَا وقامَ إلى

---

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٢٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٢) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٩) كتاب الإيمان.

(٣) سورة البلد: الآيات: (١١-١٦).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٢٣) كتاب الأدب، ومسلم (١٠١٦) كتاب الزكاة.

(٥) صحيح: رواه البخارى (٥٣٧٣) كتاب الأطعمة.

(٦) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٥) كتاب البر والصلة والآداب.

السراج كأنه يصلحُهُ فأطفأهُ، ثم جلسَ مع الضيفِ يريهِ أنه يأكلُ معهُ ولم يأكلْ فلما غدا على رسول الله ﷺ قال لهُ: «**لقد عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنيعِكُمَا بِضيفكمَا اللَّيْلَةَ**»[(١)].

ونزلتْ هذه الآيةُ:

وكان كثيرٌ من السلفِ يُؤْثِرُ بفطورِه غيرَه وهو صائمٌ ويصبحُ صائمًا.

منهم عبدُ الله بنُ عمرَ رضي الله عنهما، وداودُ الطائيُّ، وعبدُ العزيز بنُ سليمانَ، ومالك بنُ دينارٍ، وأحمدُ بنُ حنبلٍ، وغيرُهم.

ثالثًا: من الدرجات: الصلاة بالليل والناس نيام:

فالصلاةُ بالليل من موجباتِ الجنةِ.

وقد دلَّ عليه قولُه عز وجل:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾.

فوصفَهم بالتيقُّظِ بالليلِ والاستغفارِ بالأسحارِ وبالإنفاقِ من أموالِهم.

وقيام الليلِ يُوجب علو الدرجات فى الجنةِ ... قالَ اللهُ تعالَى لنبيهِ ﷺ.

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾.

فجعلَ جزاءَهُ على التهجدِ بالقرآنِ بالليلِ أن يبعثَهُ المقامَ المحمودَ وهو أعْلى درجاتِهِ ﷺ... وقيل: هو الشفاعة العُظمى يوم القيامة.

ويُوجبُ أيضًا من نعيمَ الجنةِ ما لم يطَّلعْ عليه العبادُ فى الدنيا.. قالَ اللهُ عز وجل:

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[(٢)].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٧٩٨) كتاب المناقب، ومسلم (٢٠٥٤) كتاب الأشربة.

(٢) سورة السجدة: الآيتان: (١٦، ١٧).

وفى «الصحيحين» عن النبيِّ ﷺ قالَ: «يقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: **أعددتُ لعبادِى الصالحينَ ما لا عين رأتْ، ولا أُذنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشر**»(١).

قال بعضُ السلفِ: أخفَوا للهِ العملَ فأخفَى اللهُ لهم الجزاء.

ومما يُجزَى به المتهجد فى الليلِ كثرة الأزواج من الحورِ العين فى الجنةِ.

فإنَّ المتهجدَ قَد تركَ لذةَ النومِ بالليلِ ولذةَ التمتُّع بأزواجِهِ طلبًا لما عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فعوَّضَهُ اللهُ تعالَى خيرًا مما تركَهُ وهوَ الحورُ العينِ فى الجنةِ.

ومن هُنا قال بعضُهم: طول التهجُّدِ مهر الحورِ العينِ فى الجنةِ.

۞ ويُستحب قيام الليل فى الثلث الأخير من الليل حين ينزل الحق (جلَّ وعلا) إلى السماء الدنيا.. وذلك كل ليلة.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ .. فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِى، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُنِى فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِى فَأَغْفِرَ لَهُ**»(٢).

۞ وتعالوا بنا لنعود إلى بداية الحديث مرة أخرى:

فإنه لما أجاب النبى ﷺ بأن الملأ الأعلى يختصمون فى الكفارات والدرجات ثم وضَّحها.. صدَّقه الله عَزَّوَجَلَّ وقال: صدقت يا محمد... «**ومَن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير**».... فالحياة الحقيقية فى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ والبُعد عن معصيته (جلَّ وعلا).

۞ «**وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه**»، يعنى: أنه يصير مُبَرَّأً من الخطايا والذنوب كما كان مُبَرَّأً يوم مولده، وذلك لأن الأعمال تكفر عنه السيئات.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٤٤) كتاب بدء الخلق - ومسلم (٢٨٢٤) كتاب الجنة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٤٥) كتاب التهجد - ومسلم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

۞ ثم قال له: «يَا مُحَمَّدُ، إِذَا صَلَّيْتَ» أي: إذا فرغت من صلاتك «فَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ فِعْلَ الخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ المَسَاكِينِ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِى إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ».

هذا دعاء عظيم من أجمع الأدعيةِ وأكملِهَا.

فقولهُ ﷺ: «أسألُكَ فعلَ الخيرات وتركَ المنكراتِ»

يتضمنُ طلبَ كلِّ خيرٍ وتركَ كلِّ شر، فإنَّ الخيراتِ تجمعُ كل ما يُحبُّه اللهُ تعالَى ويقربُ منهُ منَ الأعمال والأقوال من الواجباتِ والمستحباتِ، والمنكراتِ تشملُ كلَّ ما يكرههُ اللهُ تعالَى ويباعدُ عنهُ من الأقوال والأعمال، فمنْ حصلَ له هذا المطلوبُ حصلَ له خيرُ الدنيا والآخرةِ، وقد كان النبىُّ ﷺ يحبُّ مثلَ هذه الأدعيةِ الجامعةِ.... قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: «كانَ النبىُّ ﷺ يعجبهُ الجوامعَ من الدعاءِ ويدعُ ما سوى ذلكَ».

۞ وقوله: «وحب المساكين» هذا قد يُقال إنهُ من جملةِ فعلِ الخيراتِ وإنَّما أفرده بالذكرِ لشرفهِ وقوةِ الاهتمامِ به.

وينبغى على المسلم أن يحب كل إخوانه المسلمين وأن يزيد جرعة الحب لهؤلاء المساكين الذين قد انكسرت قلوبهم فى الدنيا وليس عندهم من الدنيا ما يُوجب محبتهم لأجله... ولذا جاء الاهتمام بهم وذلك لأنهم فى الغالب هم أتباع الأنبياء والمرسلين وهم أرقُّ الناس قلوبًا وأكثرهم إقبالًا على طاعة رب العالمين (جلَّ وعلا).

ومن فضائلِ المساكينِ أنهُم أكثرُ أهلِ الجنةِ.

كما قالَ النبىُّ ﷺ: «قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا عَامَّةُ مَنْ دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ»[(١)].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥١٩٦) كتاب النكاح، ومسلم (٢٧٣٦) كتاب الرقاق.

وهم أولُ الناسِ دخولًا الجنةَ كما صَحَ عنه ﷺ: «**فُقَرَاءُ المُهَاجِرِينَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ**»[1].

وهم أولُ الناسِ إجازةً على الصراطِ كما صحَّ عنه ﷺ أنهُ سئلَ مَن أولُ الناسِ إجازةً على الصراط؟ فقالَ: «**فقراءُ المهاجرينَ**».

۞ واعلم أنَّ محبةَ المساكينِ لها فوائدُ كثيرة:

منها: أنَّها تُوجبُ إخلاصَ العملِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، لأنَّ الإحسانَ إليهم لمحبَّتهم لا يكونُ إلا للهِ عَزَّوَجَلَّ، لأنَّ نفعهُم فى الدنيا لا يُرجَى غالبًا ... فأما مَن أحسنَ إليهم ليُمدَحَ بذلكَ فما أحسنَ إليهم حبًّا لهم بل حبًّا لأهلِ الدُّنيا وطلبًا لمدحهِم له بحبِّ المساكينِ.

ومنها: أنها تزيلُ الكِبْرَ، فإن المتكبرَ لا يرضى مجالسةَ المساكينِ.

ومنها: أنَّه يُوجبُ صلاحَ القلبِ وخشوعِهِ.

ومنها: أن مجالسةَ المساكينِ تُوجبُ رضى مَن يجالسُهُم برزقِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وتَعظُمُ عنده نعمةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عليهِ بنظرهِ فى الدنيا إلى مَن دونَه...ومجالسةُ الأغنياءِ تُوجبُ التسخُّطَ بالرزقِ والتطلُّع إلى زينتهم وما هم فيه.

۞ ولقد كان النبى ﷺ يُحب المساكين ويجلس معهم بل ويأكل معهم ويعطف عليهم.. حتى أنه وصل إلى درجة عجيبة من حبه لهم أنه كان يدعو ويقول: «**اللَّهُمَّ أَحْيِنِى مِسْكِينًا وَأَمِتْنِى مِسْكِينًا وَاحشُرْنِى فِى زُمْرَةِ المَسَاكِينِ**»[2].

۞ قولهُ ﷺ: «**وأن تغفَر لى وترحمنى**».

المغفرةُ والرحمةُ يجمعانِ خيرَ الآخرةِ كله؛ لأن المغفرةَ سترُ الذنبِ مع وقايةِ شرِّه...وقد قيلَ: إنه لا تجتمعُ المغفرةُ مع العقوبة على الذنبِ حيثُ كانتِ

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٢٢٨).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه، وعبد بن حميد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٦١).

المغفرةُ وقايةً لشرِّ الذنبِ... ولذلكَ سُمِّى المِغفرُ مِغفرًا لأنه يسترُ الرأسَ ويقيهِ الأذى... وهذا بخلافِ العفوِ فإنَه يكونُ تارةً قبلَ العقوبةِ وتارةً بعدها.

ولقد كان النبى ﷺ يستغفر الله ويتوب إليه فى اليوم والليلة مائة مرة.. وهو الذى غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر.

۞ وأما الرحمة فتشمل رحمة الله بالعبد فى الدنيا والآخرة.. وأعظمها دخولُ الجنةِ، وعلو درجاتِها، وجميع ما فى الجنةِ من النعيم والفوز برضوان اللهِ عَزَّوَجَلَّ وقُربِهِ ومشاهدتِهِ وزيارتِهِ فإنَّه من رحمةِ اللهِ تعالَى.

وفى الحديثِ الصحيح: «**إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقولُ للجنةِ: أنتِ رحمتِى أرحمُ بكِ من أشاءُ من عبادِى**»[(١)].

فكلُّ ما فى الجنةِ فهُو من رحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وإنَّما تُنالُ الجنة برحمِتِه لا بالعملِ كما قالَ ﷺ: «**لن يدخلَ أحدٌ منكُمُ الجنةَ بعمله، قالُوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ولا أنا إلا أن يَتَغَمَّدَنِى اللهُ برحمتِهِ**»[(٢)].

۞ قولُه ﷺ: «**وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً فاقبضْنِى إليكَ غيرَ مفتونٍ**».

المقصودُ من هذا الدعاءِ سلامةُ العبدِ من فتن الدنيا مدةَ حياتِهِ فإنْ قدَّر اللهُ عَزَّوَجَلَّ على عبادِه فتنة قبضَ عبدَهُ إليهِ قبلَ وقوعها .. أو أنجاه منها عند وقوعها.... وهذا من أهمِّ الأدعيةِ فإنَّ المؤمن إذا عاشَ سليمًا من الفتن ثم قبضَهُ اللهُ قبل وقوعِهَا وحصولِ الناسِ فيها كانَ فى ذلكَ نجاةٌ له من الشرِّ كله.

وكانَ ﷺ يخصُّ بعضَ الفتنِ العظيمة بالذكرِ، وكان يتعوذُ باللهِ فى صلاتهِ من أربع ويأمرُ بالتعوُّذِ منها فكان ﷺ يقول: «**إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا**

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٥٠) كتاب التفسير، ومسلم (٢٨٤٦) كتاب الجنة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٧٣) كتاب المرضى، ومسلم (٢٨١٦) كتاب صفة القيامة.

وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ »[١].

ثمَّ إن المؤمنَ لابدَّ أنْ يُبتلَى بشيءٍ من الفتن المؤلمةِ الشاقةِ عليه ليمتحن إيمانهُ...كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾[٢].

ولكنَّ اللهَ يلطُفُ بعباده المؤمنينَ فى هذهِ الفتن ويُصبرُهُم عليها، ويُثيبُهُم فيها، ولا يُلقيهم فى فتنةٍ مُهلكةٍ مُضلةٍ تَذهبُ بدينِهم، بل تمرّ عليهِم الفتنُ وهم منها فى عافية.

والفتن الصغارُ التى يُبْتَلى بها المرءُ فى أهلِهِ ومالِهِ وولدِهِ وجاره تُكفِّرُها الطَّاعاتُ من الصلاةِ والصيامِ والصدقةِ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وأما الفتنُ المُضلةُ التى يُخشَى منها فسادُ الدينِ فهىَ التى يُستعاذُ مِنْهَا ويُسألُ الموتُ قبلَهَا...فمنْ ماتَ قبلَ وقوعِهِ فى شىء من هذهِ الفتن فقدْ حفظَهُ اللهُ تعالَى وحَماهُ[٣].

۞ فأسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرزقنى وإياكم فعل الخيرات وترك المُنكرات وحب المساكين وأن يغفر لنا ويرحمنا ويتوب علينا وإذا أراد بعباده فتنة أن يقبضنا إليه غير مفتونين.. وأن يرزقنا لذَّة النظر إلى وجهه الكريم فى غير ضرَّاء مُضرة ولا فتنة مُضلة.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٨٨) كتاب المساجد.

(٢) سورة العنكبوت: الآيتان: (١، ٢).

(٣) بتصرف من كتاب «اختيار الألى فى شرح حديث اختصام الملأ الأعلى».



(٦٢) خطر دعوى الجاهلية

۞ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ، فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، حَتَّى عَدَّ تِسْعَةً، فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ابْنُ الْإِسْلَامِ**». قَالَ: «**فَأَوْحَى اللهُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنْ قُلْ لِهَذَيْنِ الْمُنْتَسِبَيْنِ: أَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْمُنْتَمِي أَوِ الْمُنْتَسِبُ إِلَى تِسْعَةٍ فِي النَّارِ فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا هَذَا الْمُنْتَسِبُ إِلَى اثْنَيْنِ فِي الْجَنَّةِ، فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِي الْجَنَّةِ**»[1].

۞ هذه قصة رجلين افتخر أحدهما بآبائه الكفرة وانتسب إلى تسعة من آباءٍ كفار... وافتخر الثانى بآبائه المسلمين وانتسابه إلى الإسلام، فأوبق الله عمل الأول، وضمَّه إلى آبائه فى النار، ونجَّى الثانى، وضمَّه إلى آبائه فى الجنة.

۞ ولقد أعلمنا ربنا بحقيقة عُظمَى ذات أثرٍ بالغ فى المجتمع الإنسانى بأسره...أخبرنا أننا جميعًا نعود إلى أصلٍ واحد، وأبٍ واحد...أصلنا الذى خُلقنا منه التراب، وأبونا الذى نرجع إليه جميعًا آدم (كلكم لآدم وآدم من تراب).

ولذا فإنه لا اختصاص لواحدٍ من البشر بفضيلة باعتبار الأصل الذى خُلِق منه... وما يُقال من أن بعض الأُسر من سلالة الآلهة، أو أن شُعوبًا أو أجناسًا تجرى فى عروقها الدماء الزرقاء، كل ذلك من الباطل والزور، ولا يَقِلّ بُطلانه عن دعوى الذى يدَّعى أن أصله من ذهب أو فضة، وبقية البشر أصلهم تراب أو حديد أو قصدير أو نحاس.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والبيهقى فى شُعب الإيمان، وصححه الألبانى فى السلسة الصحيحة (١٢٧٠).

وهذه الحقيقة، وهى كون البشر من أصلٍ واحد - متى أيقن الناس بها- تجعلهم يتواضع بعضهم لبعض، ولا يبغى بعضهم على بعض، على الرغم من اختلاف أجناسهم وألوانهم وبلادهم... إن هذا الاختلاف بين البشر فى الأشكال والألوان، واختلافهم إلى شعوبٍ وقبائل ليس مردَّه إلى تَفاضُل بعضهم على بعض، ولكنه آية من آيات الله، ليتعارف البشر فيما بينهم، ويتمايزون... ولو كان البشر صورة واحدة، واسمًا واحدًا، لما استطاعوا التمايز والتعارف... وقد قرَّر الحق هذه الحقيقة الكبرى فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾(١).

ولكن هذه الحقيقة العظيمة التى يجب أن تكون قاعدة التعامل بين أبناء الجنس الواحد، وبين الأجناس والشعوب فيما بينها تغيب عن العقول والقلوب، فترى البشر على مستوى الأفراد والأُسر والمجتمعات يبغى بعضهم على بعض، ويزعم كل فريقٍ أنه الأفضل والأكمل والأحسن، وَيردّ هذا الفضل إلى جنسه أو لونه أو آبائه أو مدينته ودولته... وتراه بُناءً على ذلك يمدح مَن ينتسب إليهم، ويعتز بهم، ويذم غيرهم، وقد تقوم الحروب المدمرة التى تأكل الأخضر واليابس انتصارًا لهذه العصبيات الجاهلية القائمة على أصول عفنة قذرة.

إن الإنسان لا يَفْضُل غيره فى ميزان الإسلام بطوله وعرضه وشكله ولونه وقبيلته وموطنه... إن التفاضُل فى الإسلام مَردُّه إلى التُّقى والصلاح ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(٢).

ويُكرَم الإنسان بكرم آبائه الأتقياء إن هو أحبهم وسار على خُطاهم، وفعل فعلهم، كما قال الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن

(١) سورة الحجرات: الآية: (١٣).

(٢) سورة الحجرات: الآية: (١٣).

إسحاق بن إبراهيم عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾(١).

أما المُفاخرة بالآباء الكفرة، والزعماء الفجرة، والقيادات التى عاثت فى الأرض فسادًا، فذلك كله من الباطل، وهو يمثل انحراف مسار الإنسان فى تصوراته وأفكاره وأفعاله.

وقد أخبرنا أُبىّ بن كعب عن لون من ألوان هذا الباطل وقع فى عهد الرسول ﷺ... فقد تنازع اثنان، فقال أحدهما مفتخرًا على صاحبه بأصالة نسبه، مُدلًّا عليه بآبائه وأجداده، مُحقِّرًا لصاحبه: أنا فلان بن فلان، فمن أنت لا أم لك؟

فلقن رسول الله ﷺ هذا المفاخر بآبائه الكفرة درسًا يردعه، ويردع أمثاله عن هذا الباطل، فقد حدثهم أن رجلين من بنى إسرائيل فى زمن موسى عليه السلام، اختلفا وتنازعا، فافتخر أحدهما بالآباء العظام من أهل الكفر، وعدَّد تسعًا من آبائه، فقال: أنا فلان بن فلان بن فلان، إلى أن بلغ الجد التاسع، ثم واجه صاحبه مُحقِّرًا مُوبِّخًا قائلًا: فمن أنت لا أم لك؟

إن افتخاره بآبائه، واحتقاره لمُخاطِبه يدل على مرضٍ خبيث كان يَسرى فى كيان هذا الرجل وأمثاله، فهو يرى أن أصوله تُعطيه قيمة ترفعه على غيره، وتجعله يمتاز بأولئك الآباء، وأن غيره ممن لا يُشاركه فى تلك الأصول لا يستحقّ أن يُساوَى به، ولذا فهو فى مرتبة دونه.

وقد كان الرجل الآخر صالحًا فقيهًا، فقال منتسبًا: أنا فلان ابن فلان ابن فلان ابن الإسلام، وكان الأبوان اللذان اعتزى إليهما مسلمين، ثم اعتزى إلى الإسلام، ورفض أن يمد المفاخرة إلى الآباء الكفرة.

ويروى أن هذا وقع لسلمان الفارسى رضي الله عنه فقد ذكر جَمعٌ من الرجال - كان

(١) سورة يوسف: الآية: (٣٨).

فيهم سلمان - آباءهم، فلما جاء دور سلمان، قال: أنا ابن الإسلام، فلما بلغ عمر الخبر، بكى، وقال: وأنا ابن الإسلام.

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن الله أوحى إلى موسى يأمره أن يقول للرجل المفتخر بالآباء الكفرة: « **أَنْتَ أَيُّهَا الْمُنْتَمِى أَوِ الْمُنْتَسِبُ إِلَى تِسْعَةٍ فِى النَّارِ فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ** ».

وأمره أن يقول للرجل الآخر: «**وأنت أيها المنتسب إلى اثنين فى الجنة، فأنت ثالثهما فى الجنة**».

أرأيت إلى المصير الذى وصله ذلك الرجل المفتخر بآباءٍ كفرة!! والمصير الخيِّر الذى بلغه ذلك المنتسب إلى الإسلام وآباءٍ مسلمين!!

إن ما أوحى الله به إلى موسى فى شأن هذين الرجلين يهز قلوب الذين يخشون ربهم، ويخافون وقوفهم بين يديه... وقد أدَّب الرسول بحكايته هذه القصة ذانك الرجلين المُنتسبين من الصحابة، وفيه عظة لكل مَن سار على دربهم، وفعل مثل فعلتهم.

إن الفخر بالآباء ولمز الآخرين؛ لأنهم لا يساوونه فى النسب مرضٌ فتَّاك قاتل، يُخبث النفوس ويُدنسها، ويشعل العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع الواحد، وقد يؤدى إلى القتال وسفك الدماء، ويقطع الأواصر بين أبناء الإسلام، وقد اشتدَّ الرسول ﷺ فى محاربة هذا المرض الخبيث.

عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «**لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا .. إِنَّما هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الجُعْلِ الَّذِى يُدَهْدِهُ الخُرْءَ بِأَنْفِهِ .. إِنَّ اللهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عِبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بالآباء إنما هو مؤمنٌ تقى أو فاجرٌ شَقِيٌّ .. النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ خُلِقَ من التراب**»[1].

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٤٨٢).

معنى يدهده: يُدحرج.

وقد أمرنا الرسول ﷺ أن نغلظ القول لمن تَعَزَّى بعزاء الجاهلية، فقال: «**مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعِضُّوهُ بِهَنِّ أَبِيهِ وَلا تُكَنُّوا**»[(١)].

وقد ترعرعت العصبيات فى هذا القرن وتعددت وتكونت، وفرقت جماعة المسلمين، وأصبحت مِعولًا لهدم الأمة الإسلامية.... لقد فشت فى المجتمعات الإسلامية، بل والمجتمعات الإنسانية العصبيات القومية، والإقليمية، بل وعصبية الألوان والحِرَف، وأشعلت هذه العصبيات نيران الحروب فى العالم كله، واصطلى الناس بِحرِّها، وذاقوا منها العلقم.

وإذا كان غير المسلمين لهم شىء من العذر فى الغرق فى حمئة العصبيات فما عُذر المسلمين؟!!

عِبَر الحديث وفوائده

(١) تحذير الإسلام من العصبيات المقيتة التى تقوم على الانتساب إلى الآباء والافتخار بهم، ومتابعتهم على باطلهم، ومناصرتهم على غير الحق.

(٢) متابعة الإنسان آباءه على الحق، ومناصرة قومه على الحق ليس من العصبية.

(٣) مواجهة الفساد والانحراف بذكر أخبار السابقين... فقد روى الرسول ﷺ للمتفاخرين قصة مثل قصتهما، ليعتبرا بما فيها[(٢)].

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٧).

(٢) صحيح القصص النبوى / د. عمر الأشقر (ص ٣٣٢-٣٣٥) بتصرف.

(٦٣) سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل عن ست خصال

❁ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ عَنْ سِتِّ خِصَالٍ، كَانَ يَظُنُّ أَنَّهَا لَهُ خَالِصَةً، وَالسَّابِعَةُ لَمْ يَكُنْ مُوسَى يُحِبُّهَا.

(١) قَالَ: يَا رَبِّ أَيُّ عِبَادِكَ أَتْقَى؟ قَالَ: الَّذِي يَذْكُرُ وَلَا يَنْسَى.

(٢) قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَهْدَى؟ قَالَ: الَّذِي يَتَّبِعُ الْهُدَى.

(٣) قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَحْكَمُ؟ قَالَ: الَّذِي يَحْكُمُ لِلنَّاسِ كَمَا يَحْكُمُ لِنَفْسِهِ.

(٤) قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَعْلَمُ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَشْبَعُ مِنَ الْعِلْمِ، يَجْمَعُ عِلْمَ النَّاسِ إِلَى عِلْمِهِ.

(٥) قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَعَزُّ؟ قَالَ: الَّذِي إِذَا قَدَرَ غَفَرَ.

(٦) قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَغْنَى؟ قَالَ: الَّذِي يَرْضَى بِمَا يُؤْتَى.

(٧) قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَفْقَرُ؟ قَالَ: صَاحِبٌ مَنْقُوصٌ».

قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ ظَهْرٍ، إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا جَعَلَ غِنَاهُ فِي نَفْسِهِ وَتُقَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ شَرًّا جَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ»[1].

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن موسى عليه السلام سأل ربه عز وجل عن ست خصالٍ كان يظن أنها له خالصة.. والسابعة لم يكن يحبها... فيا ترى ما هي تلك الخصال؟

(١) قَالَ موسى عليه السلام: يَا رَبِّ أَيُّ عِبَادِكَ أَتْقَى؟ قَالَ: الَّذِي يَذْكُرُ وَلَا يَنْسَى... وهذا يُذكرني بتعريف ابن مسعود رضي الله عنه للتقوى فلقد عَرَّف تقوى الله عز وجل بقوله: أن يُطاع فلا يُعصَى وأن يُشكَر فلا يُكفَر وأن يُذكَر فلا يُنسَى.

---

(١) حسن: رواه ابن حبان، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٣٥٠).

فالتَّقى لا ينسى ربه أبدًا.. بل يذكره ويشكره بقلبه وجوارحه ولسانه..

وكان من دعاء الصالحين: «**اللهم ذكِّرنا بك فلا ننساك أبدًا**».

وكان النبى ﷺ يُعلم أصحابه وأمته أن يقول كل واحدٍ منهم دُبر كل صلاة: «**اللَّهُمَّ أَعِنِّى عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»[1].

(٢) وأما الخصلة الثانية فقد قَالَ موسى عليه السلام: «**يَا رَبِّ فَأَىُّ عِبَادِكَ أَهْدَى؟ قَالَ: الَّذِى يَتَّبِعُ الْهُدَى**».

فالله عز وجل يسَّر لعباده أسباب الهدى والهداية ... فمن اتَّبع الهدى كان من أهدى الناس ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾.. ومَن أراد الهدى فعليه بالكتاب والسُّنة «**وخير الهدى هدى محمد** ﷺ».

قال تعالى عن ثمرة اتباع الهدى ومغبة الإعراض عن الهدى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾[2]، وأخبر الحق (جلَّ وعلا) أن الذى يتبع الهدى يزيده الله هدًى فقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾[3].

(٣) وأما الخصلة الثالثة: فقد قَالَ موسى عليه السلام: «**يا رب فَأَىُّ عِبَادِكَ أَحْكَمُ؟ قَالَ: الَّذِى يَحْكُمُ لِلنَّاسِ كَمَا يَحْكُمُ لِنَفْسِهِ**».

وهذا موافق لقول النبى ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ**

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٦٩).

(٢) سورة طه: الآيات: (١٢٣-١٢٧).

(٣) سورة مريم: الآية: (٧٦).

لِنَفْسِهِ»(١)... فما تحبه لنفسك فافعله مع إخوانك.. وما لا ترضاه لنفسك فلا تَرضَهُ لإخوانك.

۞ وكيف لا يحب المسلمُ الخيرَ لأخيه وهو يعلم يقينًا أن حُبَّه لأخيه لن يُنقص من رزقه وأن بُغضه لأخيه لن يزيد فى رزقه أو ينقص من رزق أخيه.

عن أبى هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: « **اتَّقِ المَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلا تُكْثِرِ الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ القَلْبَ**»(٢).

وعن أنس بن مالك ﵁ عن النبى ﷺ قال: « **لا يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(٣).

(٤) وأما الخصلة الرابعة: فقد قَالَ موسى ﵇: يا رب فَأَيُّ عِبَادِكَ أَعْلَمُ؟ قَالَ: الَّذِى لَا يَشْبَعُ مِنَ الْعِلْمِ.. يَجْمَعُ عِلْمَ النَّاسِ إِلَى عِلْمِهِ.

-وكيف يشبع الإنسان من العلم وقد قال ﷺ: «**مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ، وَطَالِبُ دُنْيَا**»(٤)... وكان الإمام أحمد يُسأل: إلى متى تطلب العلم؟ فيقول: مع المحبرة إلى المقبرة... وكان الإمام عبد الله بن المبارك يُسأل: حتى متى تطلب العلم وتُصنف الكتب؟ فكان يقول: لعلَّ الكتاب الذى أدخل به الجنة لم يُكتب بعد.

۞ ولقد وردت أحاديث كثيرة فى فضل طلب العلم... وذلك لأن العلم

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣) كتاب الإيمان - ومسلم (٤٥) كتاب الإيمان.

(٢) حسن: رواه أحمد والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٠).

(٣) صحيح: رواه ابن حبان فى صحيحه، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (١٧٨٠).

(٤) صحيح: رواه البزار، وابن عدى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٢٤).

خيرٌ من المال.. فالعلم يحرسك وأنت تحرس المال.

۞ عن مُعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»**(١).

۞ وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا، وَيُعَلِّمُهَا»**(٢).

والمرادُ بالحسد: الغبطةُ، وهُو أن يتمنى أن يكون مثلهُ.

۞ وعن أبي هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ، قال: **«... وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»**(٣).

۞ وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: **«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطلبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِن طُرقِ الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يصنع، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي جَوفِ المَاءِ.. وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ، كَفَضْلِ القَمَرِ ليلة البدر عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»**(٤).

۞ وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: **«فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدنَاكُمْ»** ثُم قال رسُولُ الله ﷺ: **«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ**

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧١) كتاب العلم- ومسلم (١٠٣٧) كتاب الزكاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣) كتاب العلم- ومسلم (٨١٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٤) صحيح: رواه أحمد وأصحاب السنن، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٩٧).

وَالأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِى جُحرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّم النَّاسِ الخَيْرَ»[١].

۞ وقال رسُولُ الله ﷺ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدعُو لَهُ»[٢].

(٥) وأما الخصلة الخامسة: فقد قَالَ موسى عليه السلام: يا رب فَأَيُّ عِبَادِكَ أَعَزُّ؟ قَالَ: الَّذِى إِذَا قَدرَ غَفَرَ.

وما أجمل العفو فى حياة المسلم... وقد يظن الإنسان أنه إذا عفا عن أخيه فإن هذا يُلبسه ثوب الذل... لكن النبى ﷺ يخبر أن العفو يزيد الإنسان عِزًّا عند الله عز وجل وعند الناس.

۞ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[٣].

۞ بل لقد أجزل الله العطاء لمن يعفو عن إخوانه..فلم يحدد الأجر لكثرته وعظمته فقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾[٤].

۞ وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِىِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَمْ نَعفُو عَنِ الْخَادِمِ؟ فَصَمَتَ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِ الْكَلَامَ، فَصَمَتَ، فَلَمَّا كَانَ فِى الثَّالِثَةِ، قَالَ: «اعفُوا عَنْهُ فِى كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً»[٥].

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٢١٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٣١) كتاب الوصية.

(٣) سورة فصلت: الآيتان (٣٤، ٣٥).

(٤) سورة الشورى: الآية: (٤٠).

(٥) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٤٨٨).

۞ وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ**[١]، **وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا**[٢]، **وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**[٣]»[٤].

۞ وقال ﷺ: «**مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ** عز وجل **عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ اللهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ يُزوجه منها مَا شَاءَ**»[٥].

(٦) وأما الخصلة السادسة: فقد **قَالَ** موسى عليه السلام: يا رب **فَأَيُّ عِبَادِكَ أَغْنَى؟**

قَالَ: الَّذِى يَرْضَى بِمَا يُؤْتَى.

فالقناعة كنزٌ لا يفنى.. أمَّا الطمع فكله مذموم إلا الطمع فى رحمة الله عز وجل ... فيجب على المسلم أن يرضى بما قسمه الله له.. فقد قال ﷺ: «...**وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ**»[٦].

---

(١) «ما نقصت صدقة من مال»: ذكروا فيه وجهين: أحدهما معناه: أنه يبارك فيه ويدفع عنه المضرات، فينجبر نقص الصورة بالبركة الخفية. وهذا مُدرَك بالحس والعادة ... والثانى أنه: وإن نقصت صورته، كان فى الثواب المُرتب عليه جبر لنقصه وزيادة إلى أضعافٍ كثيرة.

(٢) «وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا»: فيه أيضًا وجهان: أحدهما على ظاهره، ومن عُرف بالعفو والصفح ساد وعَظُم فى القلوب، وزاد عزه وإكرامه... والثانى: أن المراد أجره فى الآخرة وعِزُّه هناك.

(٣) «وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله»: فيه أيضًا وجهان: أحدهما: يرفعه فى الدنيا ويثبت له بتواضعه فى القلوب منزلة، ويرفعه الله عند الناس ويُجل مكانه...والثانى: أن المراد ثوابه فى الآخرة رفعه فيها بتواضعه فى الدنيا... قال العلماء: وهذه الأوجه فى الألفاظ الثلاثة موجودة فى العادة معروفة. وقد يكون المراد الوجهين معًا فى جميعها فى الدنيا والآخرة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٨) كتاب البر والصلة والآداب.

(٥) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥١٨).

(٦) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٠).

وقال ﷺ: «إِنّ الله تَعالَى يَبْتَلِي العَبْدَ فِيمَا أعْطاهُ فإنْ رَضِيَ بِما قَسَمَ الله لهُ بُورِكَ لهُ فِيهِ ووَسَّعَهُ .. وإنْ لمْ يَرْضَ لمْ يُبارَكْ لهُ ولمْ يَزدْ على مَا كُتِبَ له»[١].

۞ وها هو النبى ﷺ يُعلم أصحابه وأمته نعمة القناعة؛ ليعلموا أن الدنيا لا تستحق أن ينشغل العبد بحُطامها الزائل.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِربِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا»[٢].

۞ وقال ﷺ: «قد أفلح مَن أسلَم، وكان رزقه كفافًا، وقنَّعه الله بما آتاه»[٣].

۞ وقال ﷺ: «انظروا إلى مَن هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى مَن هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»[٤].

۞ ووضح النبى ﷺ أن الزهد فى الدنيا من أعظم أسباب صلاح هذه الأمة فقال ﷺ: «صَلاحُ أَوَّلِ هَذِهِ الأُمَّةِ بِالزُّهْدِ وَاليَقِينَ وَيَهْلِك آخِرُهَا بِالْبُخْلِ وَالأَمَلِ»[٥].

۞ وأخبر الصادق ﷺ أن العبد إذا انشغل بالآخرة أتته الدنيا وهى راغمة وإذا انشغل بالدنيا خسر الدنيا والآخرة...

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ،

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن قانع، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٨٦٩).

(٢) حسن: رواه البخارى فى الأدب المفرد، والترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٦٠٤٢)، والسلسلة الصحيحة (٢٣١٨).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٠٥٤) كتاب الزكاة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٩٦٣) كتاب الزهد والرقائق.

(٥) حسن: رواه أحمد فى الزهد ص (١٠)، والطبرانى فى الأوسط، والبيهقى، وحسنه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٣٨٤٥).

وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»[١].

(٧) وأما الخصلة السابعة: فقد قال موسى عليه السلام: يا رب فَأَيُّ عِبَادِكَ أَفْقَرُ؟ قَالَ: صَاحِبٌ مَنْقُوصٌ».

وتلك الخصلة السابعة هي التي لم يكن موسى عليه السلام يحبها؛ لأن المنقوص هذا فسَّره أهل العلم بأنه منقوصٌ حالته يستقلّ ما أُوتي ويطلب الفضل.. وكأنهم يعنون أنه فقير النفس طمَّاع لا يرضى بما آتاه الله عز وجل... ولذلك كان موسى عليه السلام لا يحب تلك الخصلة ؛ لأنها خصلة لا يجوز أن يتحلَّى بها المؤمنون فضلًا عن الأنبياء والمرسلين.

۞ ولذا قال النبي ﷺ: «**لَيس الغِنَى عَن كثْرَةِ العَرَضِ، وَلكِنَّ الغنِيَ غِنَى النَّفسِ**»[٢].

وَمَعنَى الْحَدِيثِ: الْغِنَى المحمود غِنى النفس وشبعها وقلة حِرصِهَا لَا كَثْرَةَ الْمَالِ مَعَ الْحِرصِ عَلَى الزِّيَادَةِ لِأَنَّ مَنْ كَانَ طَالِبًا لِلزِّيَادَةِ لَمْ يَسْتَغْنِ بِمَا مَعَهُ فَلَيْسَ لَهُ غِنًى[٣].

۞ وفي الحقيقة أن المؤمن راضٍ بما قَسَمَ الله له من رزق، وما قُدر له من مواهب، وما وُهِبَ له من حَظٍّ؛ لأنه مؤمن بعدل الله فيما قَسمَ من أرزاق، وبحكمته فيما وَزَّعَ من مواهب، وبفضله ورحمته فيما وهب لعباده من حظوظ، وهذا هو معنى «القناعة» الذي حَثَّ عليه الدِّين، وأشاد به الحكماء والصالحون.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٤٦٥) كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٥١٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٤٦) كتاب الرقاق - ومسلم (١٠٥١) كتاب الزكاة.
«العَرَضُ» بفتح العين والراءِ: هُوَ المَالُ.

(٣) مسلم بشرح النووي (٧/ ١٩٨).

ولقد ظَلَم الناس - فيما ظلموا - كلمة «القناعة» فحسبوها الرضا بالدُّون، والحياة الهون، وضعف الهمة عن طلب معالى الأمور، وإماتة رغبة الطموح إلى الرُّقى المادى والمعنوى، وتمجيد الجوع والفقر والحرمان.

وهذا كله خطأٌ واضح، وضلالٌ بعيد... فالحق أن القناعة لا تعنى شيئًا من أوهام الكثيرين عنها. وإنما تعنى أول ما تعنى أمرين:

أولهما: أن الإنسان بطبيعته شديد الطمع والحرص على الدنيا لا يكاد يشبع منها أو يرتوى... وقد صوَّر ذلك الحديث النبوى: «**لو كان لابن آدم واديان من ذهب، لابتغى ثالثًا، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب**»[(١)].

وكان لابد للدين أن يهديه إلى الاعتدال فى السعى للغِنى، والإجمال فى طلب الرزق، وبذلك يضمن التوازن فى نفسه وفى حياته، ويمنحه السكينة التى هى سرُّ السعادة، ويُجنبه الإفراط والغلو الذى يُرهق النفس والبدن معًا... ومن ثمَّ قال ﷺ: «**إنَّ رُوحَ القُدسِ نَفَثَ فى روعى، أن نَفْسًا لنْ تَموتَ حتى تَستكْملَ أجَلها، وتَستوعبَ رِزقَها، فاتقوا الله، وأجملوا فى الطَّلبِ، ولا يَحملنَّ أحدَكُم استبطاءُ الرِّزقِ أن يطلُبَهُ بمعصيةِ الله، فإن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته**»[(٢)].

ولو تُرك الإنسان يستسلم لنزعات حرصه وطمعه، لأصبح خطرًا على نفسه وجماعته، فكان لابد من توجيه طموحه إلى قِيَم أرفع، ومعانٍ أخلد، ورزقٍ أبقى، وذلك هو وظيفة الدين معه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[(٣)]، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٣٦) كتاب الرقاق - ومسلم (١٠٤٩) كتاب الزكاة، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) صحيح: رواه أبو نعيم فى الحلية (١٠/ ٢٧)، من حديث أبى أمامة، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٢٠٨٥).

(٣) سورة طه: الآية: (١٣١).

ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ [1].

وظيفة الإيمان هنا أن يَحِدَّ من ثورة الحرص والطمع، وطغيان الشراهة والجشع على النفس البشرية فلا تستبد بها وتجعلها تحيا فى قلقٍ دائم، لا تكتفى بقليل، ولا تشبع من كثير، لا يُطفئ غلة ظمئها ما عندها فتمتد عينها إلى ما عند غيرها، ولا يُشبعها الحلال فيسيل لعابها إلى الحرام... مثل هذه النفس لا ترضى ولا تستريح... إنها كجهنم - أعاذنا الله منها - تلتهم الملايين فى جوفها، ثم يُقال لها: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾؟!. ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؟! [2].

وظيفة الإيمان أن يُوجّه النفوس إلى القِيَم المعنوية الخالدة، وإلى الدار الآخرة الباقية، وإلى الله الحى الذى لا يموت ... ويعلم المؤمن أن الغِنى - إن كان ينشد الغِنى - ليس فى وفرة المال وكثرة المتاع الأدنى، وإنما هو فى داخل النفس أولًا... وبذلك ورد فى الحديث: «**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**» [3].

وثانى ما تعنيه القناعة. أن يرضى الإنسان بما وهب الله له مما لا يستطيع تغييره، وفى حدود ما قُدِّر له يجب أن يكون نشاطه وطموحه، فلا يعيش مُتمنيًا ما لا يتيسر له، مُتطلعًا إلى ما وُهِبَ لغيره ولم يُوهَب له، وذلك كتمنِّى الشيخ أن

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان: (١٤-١٥).

(٢) سورة ق: الآية: (٣٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٤٦) كتاب الرقاق - ومسلم (١٠٥١) كتاب الزكاة، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

يكون له قوة الشباب، وتَطلُّع المرأة الدميمة إلى الحسناء فى غيرة وحسد. ونظرة الشاب القصير إلى الرجل الطويل فى حسرة وتَلهُّف، وطموح البدوى الذى يعيش فى أرضٍ قفراء بطبيعتها إلى رفاهية الحياة وأسباب النعيم...

وكما حدث فى عهد الرسول حين تمنى النساء أن يكُنَّ لهن ما للرجال، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ﴾[1] [2].

۞ فالشاهد أنه ينبغى عليك أن ترضى بما قسم الله لك من المال والجمال والذكاء والصحة والزوجة والأولاد والمسكن... حتى تعيش سعيدًا راضيًا عن الله (جلَّ وعلا).

۞ ولعلنا نعلم جميعًا أن الأنبياء والمرسلين - صلوات ربى وسلامه عليهم- كلٌّ منهم رعى الغنم... بل كان زكريًّا نجارًا وإدريس خياطًا، وداود حدَّادًا.. وما نقص ذلك من قدرهم ومكانتهم عند الله (جل وعلا).

۞ وهناك قائمة رائعة من العظماء الذين بُخسوا حظوظهم الدنيوية:

عطاء بن رباح عالم الدنيا فى عهده، مولى أسود، أفطس، أشل، مفلفل الشَّعر.

الأحنف بن قيس، حليم العرب قاطبة، نحيف الجسم، أحدب الظهر، أحنى الساقين، ضعيف البنية.

الأعمش مُحدِّث الدنيا، من الموالى، ضعيف البصر، فقير ذات اليد، مُمزَّق الثياب، رَثّ الهيئة والمنزل.

۞ فقيمة المرء ما يُحسن... قيمتك فى عملك الصالح وما تقدمه لخدمة

(١) سورة النساء: الآية: (٢٣).

(٢) الإيمان والحياة (ص: ١٣٧-١٣٩) بتصرف.

دينك وبلدك وأسرتك.. وليست قيمتك فى المال والجاه والقوة والجمال.. فارضَ بما قسم الله لك، تكن أغنى الناس.



(٦٤) قنطار من الحسنات لمن قرأ عشر آياتٍ فى ليلة

۞ عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، وَتَمِيمِ الدَّارِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ فِي لَيْلَةٍ كُتِبَ لَهُ قِنْطَارٌ، وَالْقِنْطَارُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَقُولُ رَبُّكَ عَزَّوَجَلَّ: اقْرَأْ، وَارْقَ لِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةً، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ آيَةٍ مَعَهُ، يَقُولُ رَبُّكَ عَزَّوَجَلَّ لِلْعَبْدِ: اقْبِضْ، فَيَقُولُ الْعَبْدُ بِيَدِهِ: يَا رَبِّ أَنْتَ أَعْلَمُ، فَيَقُولُ: بِهَذِهِ الْخُلْدَ وَبِهَذِهِ النَّعِيمَ»(١).

وفى رواية قال ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِمِائَةِ آيَةٍ فِي لَيْلَةٍ كُتِبَ لَهُ قُنُوتُ لَيْلَةٍ»(٢).

وَعَن عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُول الله ﷺ: «من قَامَ بعشر آيَات لم يُكْتب من الغافلين وَمن قَامَ بِمِائَة آيَة كُتب من القانتين وَمَن قَامَ بِأَلف آيَة كُتب من الْمُقنطرين»(٣).

۞ ففى تلك الأحاديث يخبر الصادق المصدوق ﷺ عن فضل القرآن وأهله الذين يتعايشون معه بقلوبهم وجوارحهم ليلًا ونهارًا.. فهم يقرأون القرآن بالنهار ويعملون بما فيه.. ويقومون به الليل بين يدى الله عَزَّوَجَلَّ.

فأخبر النبى ﷺ أن مَن قرأ عشر آياتٍ فى ليلة كُتِبَ له قنطار.. ولم يُحدد النبى ﷺ هل قرأ عشر آيات فى صلاته أو خارج الصلاة.. لكن لا شك أن قراءتها فى الصلاة أعظم ثوابًا ... فمن قرأها كُتِبَ له قنطار .. فإذا كان أهل الدنيا يكدون ويتعبون شهورًا وسنواتٍ طويلة ليظفروا بقنطار من المال فإن صاحب القرآن يفوز بقنطار من الحسنات بقراءة عشر آياتٍ فى الليل...والقنطار خيرٌ من الدنيا

(١) حسن: رواه الطبرانى فى الكبير، والأوسط، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (٦٣٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٦٨).

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٣٩).

وما فيها ... فالدنيا لا تُساوى عند الله جناح بعوضة ولذا فإن الحسنة خيرٌ من كنوز الدنيا فكيف بقنطارٍ من الحسنات؟!

«**فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ**» ذلك اليوم الذى لا ينفع فيه مالٌ ولا بَنون إلا مَن أتى الله بالقلب السليم والعمل الصالح.

«**يَقُولُ رَبُّكَ** عَزَّوَجَلَّ: **اقْرَأْ، وَارْقَ لِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةً**» فيصعد العبد فى الجنة بقدر ما يحفظ من آيات القرآن.. وهذا موافق لقول النبى ﷺ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِى دَارِ الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَة كُنتَ تَقرَؤها**»[(١)].

ثم يقول الله عَزَّوَجَلَّ للعبد: اقْبِضْ... فيسأل العبد ربه عَزَّوَجَلَّ ماذا يقبض.. فإذا بالحق جل وعلا يقول له: «**بِهَذِهِ الْخُلْدُ وَبِهَذِهِ النَّعِيمُ**» فيعيش فى الجنة خالدًا مُخلَّدًا فيها أبدًا فى نعيم لا يخطر على قلب بشر.

۞ أما فى حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبى ﷺ يقول:

«**مَن قام بعشر آيات**» أى أخذها بقوة وعزم من غير فتور، ولا توانٍ، من قولهم: قام بالأمر، وقامت الحرب على ساقها. فيكون كناية عن حفظها، والدوام على قراءتها، والتفكُّر فى معانيها، والعمل بمقتضاها.

وإليه الإشارة بقوله: «**لم يُكتب من الغافلين**» أى لم يثبت اسمه فى الصحيفة فى زمرة الغافلين.

«**وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ**»، أَيِ الْمُوَاظِبِينَ عَلَى الطَّاعَةِ أَوِ الْمُطَوِّلِينَ الْقِيَامَ فِى الْعِبَادَةِ... وَالْقُنُوتُ: الطَّاعَةُ وَالْقِيَامُ... وَقَالَ الطِّيبِىُّ، أَىْ: مِنَ الَّذِينَ قَامُوا بِأَمْرِ اللهِ وَلَزِمُوا طَاعَتَهُ وَخَضَعُوا لَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَلَا شَكَّ أَنَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ فِى كُلِّ وَقْتٍ لَهَا مَزَايَا وَفَضَائِلُ، وَأَعْلَاهَا أَنْ تَكُونَ فِى الصَّلَاةِ، لَا سِيَّمَا

(١) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع(٨١٢٢).

فِي اللَّيْلِ... قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[١]... «وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ»: قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ: مِنَ الْمُلْكِ إِلَى آخِرِ الْقُرْآنِ أَلْفُ آيَةٍ. «كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطِرِينَ»، أَيْ: مِنَ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الْأَجْرِ... مَأْخُوذٌ مِنَ الْقَنَاطِيرِ، وَهُوَ الْمَالُ الْكَثِيرُ. يَعْنِي مِنَ الَّذِينَ بَلَغُوا فِي حِيَازَةِ الْمَثُوبَاتِ مَبْلَغَ الْمُقَنْطِرِينَ فِي حِيَازَةِ الْأَمْوَالِ.[٢]

فكما فاز أهل الدنيا بقناطير الأموال التى تزول ولا تبقى فإن الذى يقرأ ألف آية يفوز بقناطير الحسنات التى تَبقى ويرتفع بها فى جنة الرحمن يوم القيامة.

قوله: «ومَن قام بألف آية كُتب من المقنطرين» أى: الذين يحصلون على الأجر العظيم، والأجور الكبيرة الواسعة؛ لأن المقنطرين نسبة للقنطار، أو ما يزن القناطير أو يماثلها فى كثرتها، وهذا كناية عن عِظَم الأجر والثواب[٣].

۞ فإن قلت: بيِّن لى التفاوت بين المراتب الثلاث. قلت: الأُولَى مُشعرة: بأن صاحب عشر آيات إذا قام بها خرج من زُمرة الغفلة من العامة، ودخل فى زمرة ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. وصاحب مائة داخل فى جملة مَن قيل فى حقهم: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾، ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ أى من الذين قاموا بأمر الله، ولزموا طاعته، وخضعوا له ... وأعلاها صاحب ألفٍ؛ لأنه داخل فى غمار عُمال الله فى أرضه، الذين بلغوا فى حيازة المثوبات مبلغ المقنطرين فى حيازة الأموال...ولا ارتياب أن القيام بقراءة القرآن فى كل آوان لها مزايا وفضائل. وأعلاها: أن يكون فى الصلاة، لاسيما إذا أنشأت بالليل ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾. ومن ثَمَّ أورد مُحيى السُّنة الحديث فى باب صلاة الليل.

وقوله: «من المقنطرين» قال أبو عبيدة: لا نجد العرب تعرف وزن القنطار،

---

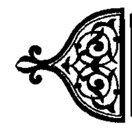
(١) سورة المزمل: الآية: (٦).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ٩١٠).

(٣) شرح سنن أبى داود للعباد.

وما نقل عن العرب المقدار المعول عليه. قيل: أربعة آلاف دينار... فإذا قالوا: قناطير مقنطرة، فهى اثنا عشر ألف دينار. وقيل: القنطار ملاء جلد الثور ذهبًا. وقيل: هى حملة كثيرة مجهولة من المال[1].

(١) شرح المشكاة للطيبى (٤/ ١١٨٨).




(٦٥) تعجيل الصدقة قبل الموت

۞ عن بسر بن جحاش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ! أَنَّى تُعجزنى وقد خلقتك من مثل هذا؟ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ ... فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ؟ !»(١).

۞ ففى هذا الحديث القدسى يتعجب الحق (جلَّ وعلا) من ذلك الإنسان الضعيف الذى خلقه الله عَزَّوَجَلَّ من ماءٍ مَهين ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾(٢) وسوَّاه وعدَله.. كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾(٣).

ثم بعد أن خلقه الله عَزَّوَجَلَّ وسوَّاه وعَدَله إذا به يمشى متكبراً متبختراً مُعجبًا بنفسه.. والله عَزَّوَجَلَّ قادرٌ على أن يخسف به الأرض كما فعل بقارون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾(٤).

۞ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ يَمْشِى فِى بُرْدَيهِ، قَدْ أَعجَبَتْهُ نَفْسُهُ، خَسَفَ اللهُ بِهِ الأَرضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(٥).

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨١٤٤).

(٢) سورة المرسلات: الآيات: (٢٠-٢٣).

(٣) سورة الانفطار: الآيات: (٦-٨).

(٤) سورة القصص: الآية: (٨١).

(٥) متفق عليه: رواه البخارى، (٥٧٨٩) كتاب اللباس - ومسلم (٢٠٨٨) كتاب اللباس والزينة، وهذا لفظ مسلم، ولفظ البخارى هو التالى.

۞ وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِىُّ ﷺ أَوْ قَالَ أَبُو القَاسِمِ ﷺ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِى فِى حُلَّةٍ، تُعجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ**[١]، **إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ**[٢] **إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ**»[٣].

۞ ومع كل هذا الكبر فإذا بهذا الإنسان يجمع حُطام الدنيا من الحلال والحرام ولا ينشغل إلا بتنمية ثروته وزيادة غلَّته... فيجمع بين الكبر والبُخل فلا ينفق درهمًا ولا دينارًا حتى يجد نفسه على فراش الموت وقد بلغت الروح الحلقوم فيقول: أتصدق.. فهل هذا أوان الصدقة؟!

۞ عَنْ أَبى هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: جَاءَ رجلٌ إلَى النَّبِىِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أىُّ الصَّدَقةِ أعظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «**أنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُمْهِلْ حتَّى إذا بلَغتِ الْحُلْقُومَ. قُلتَ: لفُلانٍ كذا ولفلانٍ كَذَا، وقَد كان لفُلان كَذَا**»[٤].

۞ لقد كان أصحاب الرسول ﷺ هم أصحاب الهمة العالية.. ولذا فإنهم كانوا لا يسألون عن العمل الصالح فحسب بل كانوا يسألون عن أفضل الأعمال.. ولذا جاء سؤال هذا الرجل للنبى ﷺ: يا رسولَ الله، أىُّ الصَّدقةِ أعظمُ أجْرًا؟.. وهذا مثل سؤال الصحابة للنبى ﷺ: أى الأعمال أحب إلى الله؟.. وهكذا فقد كانوا أحرص الناس على الإتيان بأفضل الأعمال.

---

(١) الجُمّة: هى مجتمع الشعر إذا تدلَّى من الرأس إلى المنكبين.

(٢) التجلجُل هو أن يسوخ فى الأرض مع اضطرابٍ شديد، ويندفع من شِقٍّ إلى شق.
والمراد أنه ينزل فى الأرض مضطربًا متدافعًا (انظر هذا التفسير، وتفسيرات أخرى فى فتح البارى ١٠/ ٢٧٢).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٥٧٨٩) كتاب اللباس.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (١٤١٩) كتاب الزكاة – ومسلم (١٠٣٢) كتاب الزكاة.
«الْحُلْقُوم»: مجرى النَّفس – و «الْمرىءُ» مجرى الطَّعامِ والشَّراب.

۞ وفى هذا الحديث كان هذا الصحابى لا يسأل عن أفضل أنواع الصدقة وإنما كان يسأل عن الوقت الذى تكون فيه الصدقة أفضل من غيرها.

فقال له ﷺ: «**أَنْ تَصَدَّقَ وأنْت صحيحٌ شَحيحٌ**» يعنى: صحيح البدن شحيح النفس... لأن الإنسان إذا كان صحيحًا كان شحيحًا بالمال؛ لأنه يأمل البقاء ويخشى الفقر، أما إذا كان مريضًا، فإنه يزهد فى الدنيا؛ لأنه يشعر بأنه سيتركها عمَّا قريب.

قال ﷺ: «**أَنْ تَصَدَّقَ وأنْت صحيحٌ شَحيحٌ، تَخْشى الْفقَر، وَتَأملُ الْغِنَى**»، وفى رواية: «**تَخْشى الْفقَر، وَتَأملُ البَقَاء**» ولكن الرواية الأولى أحسن.

وقوله: «**تأمل البقاء**» يعنى أنك لكونك صحيحًا تأمل البقاء وطول الحياة؛ لأن الإنسان الصحيح يستبعد الموت.

مع أن الموت يأتى فجأة.. بل إن النبى ﷺ أخبر أن موت الفجأة من علامات الساعة الصغرى.

فالإنسان الصحيح قد يستبعد الموت.. أما المريض مرضًا شديدًا فقد يشعر بقُرب الموت.

۞ وقوله ﷺ: «**وتخشى الفقر**» أى أنه يخشى أن تطول حياته وينفد ما عنده فيصبح فقيرًا مُحتاجًا إلى الناس... فمثل هذا تكون أفضل الصدقة فى حال صحته وشُحِّه بالمال.

«**ولا تمهل**» أى لا تترك الصدقة أو تُؤخرها، «**حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلانٍ كذا ولفلانٍ كذا**» حتى إذا جاءك الموت وبلغت روحك حلقومك، وعرفت أنك خارج من الدنيا.

قلت لمن حولك: هذه الصدقة لفلان وتلك لفلان «**وقد كان لفلان**» أى: قد كان المال لوارثك.. لأن الإنسان إذا مات انتقل ملكه للورثة ولم يبقَ له من ماله

أى شىء إلا الذى قدَّمه لنفسه فى حياته.

ولذا قال رسولُ الله ﷺ: «**أَيُّكم مَالُ وَارِثِهِ أَحبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟**» قالوا: يَا رسول اللهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ مَالُهُ أَحبُّ إِلَيْهِ. قَالَ: «**فإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ**»[1].

۞ قال الإمام الخطابى رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَمَعنَى الْحَدِيثِ أَنَّ الشُّحَّ غَالِبٌ فِى حَالِ الصِّحَّةِ، فَإِذَا سمح فِيهَا وَتَصَدَّقَ كَانَ أَصدَقَ فِى نِيَّتِهِ وَأَعظَمَ لِأَجْرِهِ، بِخِلَافِ مَنْ أَشْرَفَ عَلَى الْمَوْتِ وَآيَسَ مِنَ الْحَيَاةِ وَرَأَى مَصِيرَ الْمَالِ لِغَيْرِهِ فَإِنَّ صَدَقَتَهُ حِينَئِذٍ نَاقِصَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى حَالَةِ الصِّحَّةِ وَالشُّحُّ رَجَاء الْبَقَاءِ وَخَوْف الْفَقْرِ[2].

۞ ففى هذا الحديث دليلٌ على أن الإنسان لا بد أن يحرص على أن يُبادر بالصدقة فى حال صحته قبل أن يُبادره الموت.. لأنه إذا تصدق فى حال حضور الأجل كان ذلك أقل فضلًا مما لو تصدق وهو صحيحٌ شحيح.

وفى هذا دليل على أن الإنسان إذا تكلم فى سياق الموت فإنه يُعتبر كلامه إذا لم يذهل...فإن أذهل حتى صار لا يشعر بما يقول فإنه لا عبرة بكلامه...لقوله: «**حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلانٍ كذا ولفلانٍ كذا وقد كان لفلان**».

۞ وفى هذا الحديث دليلٌ أيضًا على أن الروح تصعد من أسفل البدن إلى أعلاه ثم يأتى ملك الموت عَلَيْهِ السَّلَامُ ويقبض روحه من أعلى...

ولهذا قال ﷺ: «**حتى إذا بلغت الحلقوم**» وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾[3]. فأول ما يموت من الإنسان أسفله ثم تصعد الروح من أسفل لأعلى حتى تصل إلى الحلقوم ثم يقبضها ملك الموت بعد أن

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤٤٢) كتاب الرقاق.

(٢) مسلم بشرح النووى (٧/ ١٧٣).

(٣) سورة الواقعة: الآيتان: (٨٣-٨٤).

يُنادى عليه بالنداء الذى يستحقه.

فإن كان من أهل الإيمان ينادى عليه ملك الموت قائلًا: «**يا أيتها النفس الطيبة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان**» وإن كان كافرًا يُنادى عليه ملك الموت قائلًا: «**يا أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخطٍ من الله وغضب**»[1].

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٧٦).



(٦٦) ما سيبلغه مُلك أُمة الإسلام



❁ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[1].

❁ ففي هذا الحديث قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»، أي: إن الله عز وجل زوى له الأرض فشاهدها ورأى ما يصل إليه مُلك أمته .. فرأى أن مُلك أمته سيصل مشارق الأرض ومغاربها... وقد حصل ذلك في زمن بني أمية، حيث فُتحت الفتوحات في الشرق والغرب حتى وصل عقبة بن نافع إلى المحيط الأطلسي، ووصلت بعض الجيوش التي أُرسلت إلى جهة المشرق إلى الصين وإلى السند والهند، واتسعت رقعة البلاد الإسلامية، ودخل الناس في هذا الدين، وتحقق بذلك ما أخبر به الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه وبركاته عليه... وكذلك كان الأمر في عهد بني العباس...ويُذكر عن هارون الرشيد أنه مَرَّت سحابة ببغداد فقال: (أمطري حيث شئتِ فخراجُك سيأتي إليَّ)؛ لأنها تجاوزت بغداد فلم تمطر عليها، فقال: أين أمطرتِ فخراجُك سيأتيني.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٨٩) كتاب الفتن.

بمعنى: أن الأرض التى سينزل فيها ذلك الماء سيصل خراجها إلى بغداد، وذلك إشارة إلى اتساع رقعة البلاد الإسلامية.

فتحقق ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ من افتتاح البلاد ودخول الناس فى هذا الدين الحنيف، مع أن الصحابة رضي الله عنهم وكذلك الذين جاءوا بعدهم ممن صار على منوالهم فى الفتوحات والجهاد فى سبيل الله كانوا أقل عددًا من أعدائهم وأقل عُددًا، ولكن وُجدت عندهم قوة الإيمان التى هى سبب كل خير... ولهذا قال النبى ﷺ: «**بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحده لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِى تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِى، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِى، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»(١)، فهذه الفتوحات إنما حصلت بالصدق مع الله وبقوة الإيمان والإخلاص والجهاد من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا، وأن يهتدى الناس، وأن يدخلوا فى دين الله... فالمسلمون كانوا أقل عددًا وعُددًا، وأعداؤهم الكفار كانوا أكثر عددًا وعُددًا، ومع ذلك كان المسلمون يتفوقون ويتغلبون على الكفار؛ بسبب ما أعطاهم الله من قوة الإيمان والصدق.

ولهذا لما تغيرت أحوال الناس هان المسلمون على أعدائهم بعد أن كان الكفار يهابون المسلمين، صاروا هم الذين يهابون ويخافون الكفار؛ والسبب فى ذلك كله ضعف الإيمان، ولذا قال النبى ﷺ فى الحديث: «**وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِى**».

۞ قوله: «**وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ**»، الأحمر هو الذهب، والأبيض هو الفضة... وكنوز كِسرى وقيصر التى كانت من الذهب والفضة غَنِمها المسلمون فى جهادهم للروم وللفرس، وأُحضرت تلك الكنوز إلى المدينة وتولى قسمتها الفاروق عمر رضي الله عنه بنفسه فى المدينة، وتحقق بذلك ما

(١) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألبانى فى تخريج مشكلة الفقر (٢٤).

أخبر به الرسول الكريم (عليه الصلاة والسلام) فى قوله: «**ولتُنفقن كنوزهما فى سبيل الله**» وقد تحقق ذلك وأُنفقت فى سبيل الله على يد الفاروق رضي الله عنه.

۞ قوله: «**وَإِنِّى سَأَلْتُ رَبِّى لِأُمَّتِى أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ**»، يعنى: بأن يصيبهم قحطٌ عام يصير به هلاك وضرر الجميع...وأعطاه الله ذلك... فالقحط يحصل فى بلد، ويحصل فى بلدٍ آخر الرخاء والخصب، لكن كونه يحصل لهذه الأمة أنها تهلك بالقحط، وقلة المطر، وتفنى بسبب ذلك.. فهذا لا يحدث.

۞ قوله: «**وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ**»، وهنا سأل النبى ﷺ ربه عز وجل ألَّا يُسلط على الأمة عدوًّا من خارجها يقضى على الإسلام والمسلمين... والإسلام باقٍ، ولا تخلو الأرض من قائم لله بحُجته، ولو حصل ضعف فى مكانٍ حصلت قوة فى مكانٍ آخر، لكن لا تخلو الأرض ممن يقوم بأمر الله، ولكن الشىء الذى قد حصل هو كون بعضهم يقتل بعضًا... والفتن التى تكون بينهم تحصد بعضهم بالقتل وحصول الأضرار الكبيرة.

۞ يعنى: لن يوجد عدو ليس من المسلمين يستبيح بيضتهم ويقضى على الإسلام والمسلمين؛ لأن الإسلام باقٍ وعزيز، ولكنه يكون قويًا فى بعض الأزمان، ودون ذلك فى بعض الأزمان، لكن كونه تخلو منه الأرض أو ينتهى، هذا لا يكون، بل لابد أن يكون هناك مَن يقوم بشرع الله، ولا يضره مَن خالفه، كما سيأتى فى آخر هذا الحديث.

۞ قوله: «**وَإِنَّ رَبِّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّى إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ**»، يعنى: ما قدره الله وقضاه فإنه لابد من وجوده، وكل شىء شاءه الله لا بد أن يكون، وكل شىء لم يشأه الله لا يمكن أن يكون، ولهذا فإن عقيدة المسلمين فى باب القدر تنبنى على هاتين الجملتين: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

ما سبق به قضاء الله وقدره لابد من وجوده، ولا بد من حصوله، وما جرى

به القضاء بأنه لا يكون فلا سبيل إلى كونه ووجوده[١].

❁ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: «**زوى لى**»: بمعنى جمع وضم؛ أى؛ جمع له الأرض وضمَّها.

قوله: «**فرأيت**»: أى: بعينى؛ فهى رؤية عينية، ويحتمل أن تكون رؤية منامية.

قوله: «**مشارقها ومغاربها**»: وهذا ليس على الله بعزيز؛ لأنه على كل شىء قدير، فمن قدرته أن يجمع الأرض حتى يشاهد النبى ﷺ ما سيبلغ مُلك أمته منها.

وهل المراد بالزوى هنا أن الأرض جُمعت، أو أن الرسول ﷺ قوى نظره حتى رأى البعيد؟ الأقرب إلى ظاهر اللفظ: أن الأرض جُمعت، لا أن بصره قوى حتى رأى البعيد.

وقال بعض العلماء: المراد قوة بصر النبى ﷺ أى أن الله أعطاه قوة بصر حتى أبصر مشارق الأرض ومغاربها، لكن الأقرب الأول، ونحن إذا أردنا تقريب هذا الأمر نجد أن صورة الكرة الأرضية الآن مجموعة يشاهد الإنسان فيها مشارق الأرض ومغاربها؛ فالله على كل شىء قدير؛ فهو قادر على أن يجمع له ﷺ الأرض حتى تكون صغيرة فيدركها من مشارقها إلى مغاربها.

❁ اعتراض وجوابه:

فإن قيل: هذا إن حُمل على الواقع؛ فليس بموافق للواقع، لأنه لو حصرت الأرض بحيث يدركها بصر النبى ﷺ المجرد؛ فأين يذهب الناس والبحار والجبال والصحارى؟

والجواب: بأن هذا من الأمور الغيبية التى لا يجوز أن تُورد عليها كيف ولِمَ، بل نقول: إن الله على كل شىء قدير؛ إذ قوة الله - سبحانه - أعظم من قوتنا

---

(١) شرح سنن أبى داود للعباد.

وأعظم من أن نحيط بها، ولهذا أخبر النبى ﷺ أن الشَّيْطَانَ يَجْرِى مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ [١] فلا يجوز أن نقول: كيف يجرى مجرى الدم؟ فالله أعلم بذلك.

وهذه من المسائل التى لا ندركها بل يجب التسليم المحض لها، ولهذا نقول فى باب الأسماء والصفات: تجرى على ظاهرها مع التنزيه عن التكييف والتمثيل، وهذا ما اتفق عليه أهل السُّنة والجماعة.

۞ وقوله: «**فرأيت مشارقها ومغاربها**»: أى: أماكن الشرق والغرب منها.

قوله: «**وإن أمتى سيبلغ مُلكها ما زُوى لى منها**»: والمراد: أمة الإجابة التى آمنت بالرسول ﷺ سيبلغ مُلكها ما زُوى للرسول ﷺ منها، وهذا هو الواقع؛ فإن مُلك هذه الأمة اتسع من المشرق ومن المغرب اتساعًا بالغًا، لكنه من الشمال والجنوب أقل بكثير، والأمة الإسلامية وصلت من المشرق إلى السند والهند وما وراء ذلك، ومن المغرب إلى ما وراء المحيط، وهذا يحقق ما رآه النبى ﷺ.

۞ قوله: «**وأُعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض**»: فالذى أعطاه هو الله.

و**الكنزان**: هما الذهب والفضة كنوز كسرى وقيصر؛ فالذهب عند قيصر، والفضة عند كسرى، وكل منهما عنده ذهب وفضة، لكن الأغلب على كنوز قيصر الذهب، وعلى كنوز كسرى الفضة.

۞ وقوله: «**أُعطيت**»: هل النبى ﷺ أُعطيها فى حياته، أم بعد موته؟

الجواب: بعد موته أُعطيت أمته ذلك، لكن ما أُعطيت أمته؛ فهو كالمُعطَى له؛ لأن امتداد مُلك الأمة لا لأنها أمة عربية كما يقوله الجُهال، بل لأنها أمة إسلامية أخذت بما كان عليه الرسول ﷺ

۞ قوله: «**وإنى سألت ربى لأمتى أن لا يهلكها بسَنة عامة**»:

السَّنة: الجدب والقحط، وهو يهلك ويدمر، قال ﷺ: « **اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ**

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٣٩) كتاب الاعتكاف - ومسلم (٢١٧٥)كتاب السلام.

سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ »[(١)].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾ [(٢)].

وعامة؛ أي: عمومًا تَعمهم، هذه دعوة.

۞ قوله: «**وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم**»: أي: لا يُسلط عليهم عدوًّا من الكفار ... والعدو: ضد الولى، وهو: المُعادى المُبغض الحاقد... وأعداء المسلمين هنا: هم الكفار، ولهذا قال: «**من سوى أنفسهم**».

ومعنى: «**يستبيح**»: يستحل، والبيضة: ما يُجعل على الرأس وقاية من السهام.

والمراد: يظهر عليهم ويغلبهم.

۞ قوله: «**إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرد**»:

اعلم أن قضاء الله نوعان.

١ - قضاء شرعى قد يُرَد؛ فقد يُرده الله ولا يقبلونه.

٢ - قضاء كونى لا يُرد، ولا بد أن يَنفذ.

وكلا القضاءين قضاء بالحق، وقد جمعهما قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ [(٣)].

ومثال القضاء الشرعى: قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [(٤)]؛ لأنه لو كان كونيًّا؛ لكان كل الناس لا يعبدون إلا الله.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٠٠٦) كتاب الاستسقاء - ومسلم (٦٧٥)كتاب المساجد.

(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٣٠).

(٣)سورة غافر: الآية: (٢٠).

(٤) سورة الإسراء: الآية: (٢٣).

ومثال القضاء الكوني: قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[1]؛ لأن الله تعالى لا يقضي شرعًا بالفساد، لكنه يقضي به كونًا وإن كان يكرهه سبحانه؛ فإن الله لا يحب الفساد ولا المفسدين، لكنه يقضي بذلك لحكمة بالغة، كما قسَّم خلقه إلى مؤمن وكافر؛ لما يترتب على ذلك من المصالح العظيمة.

والمراد بالقضاء في هذا الحديث: القضاء الكوني؛ فلا أحد يستطيع ردّه مهما كان من الكفر والفسوق... فقضاء الله نافذ على أكبر الناس عُتوًّا واستكبارًا، فقد نفذ على فرعون وأُغرق بالماء الذي كان يفتخر به...وعلى طواغيت بني آدم فأهلكهم الله ودمرهم.

۞ وفي قوله: «**إذا قضيت قضاء؛ فإنه لا يُرد**» من كمال سلطان الله وقدرته وربوبيته ما هو ظاهر؛ لأنه ما من ملك سوى الله إلا يمكن أن يُرد ما قضى به.

واعلم أن قضاء الله الكوني (كمشيئته) بالحكمة، فهو لا يقضي قضاءً إلا والحكمة تقتضيه، كما لا يشاء شيئًا إلا والحكمة تقتضيه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[2]؛ فيتبين أنه لا يشاء شيئًا إلا عن علم وحكمة، وليس لمجرد المشيئة.

خلافًا لمن أنكر حكمة الله (من الجهمية وغيرهم)، فقالوا: إنه لا يفعل الأشياء إلا لمجرد المشيئة، فجعلوا على زعمهم المخلوقين أكمل تَصرُّفًا من الله؛ لأن كل عاقل من المخلوقين لا يتصرف إلا لحكمة، ولهذا كان الذي يتصرف بسفه يُحجر عليه...قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾[3].

---

(١) سورة الإسراء: الآية: (٤).

(٢) سورة الإنسان: الآية: (٣٠).

(٣) سورة النساء: الآية: (٥).

فنحن نقول: إن الله - جل وعلا - لا يفعل شيئًا ولا يحكم بشيءٍ إلا لحكمة، ولكن هل يَلزم من الحكمة أن نُحيط بها علمًا؟

الجواب: لا يَلزم، لأننا أقصر من أن نحيط علمًا بحِكَم الله كلها..صحيح أن بعض الأشياء نعرف حكمتها، لكن بعض الأشياء تعجز العقول عن إدراكها.

والمقصود من قوله: «**إذا قضيت قضاءً؛ فإنه لا يُرد**» بيان أن من الأشياء التى سألها النبى ﷺ ما لم يُعطَها؛ لأن الله قضى بعلمه وحكمته ذلك، ولا يمكن أن يُرد ما قضاه الله عَزَّوَجَلَّ.

والقضاء قد يتوقف على الدعاء، بل إن كل القضاء أو أكثر القضاء له أسباب؛ إما معلومة أو مجهولة ... فدخول الجنة لا يمكن إلا بسبب يترتب دخول الجنة عليه، وهو الإيمان والعمل الصالح.

كذلك حصول المطلوب، قد يكون الله عَزَّوَجَلَّ منعه حتى نسأل، لكن من الأشياء ما لا تقتضى الحكمة وجوده، وحينئذ يُجازَى الداعى بما هو أكمل، أو يُؤخَّر له ويُدَّخر له عند الله عَزَّوَجَلَّ أو يُصرف عنه من السوء ما هو أعظم... والدعاء إذا تمت فيه شروط القبول ولم يُجَب؛ فإننا نجزم بأنه ادُّخِرَ له.

۞ قوله: «**وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسَنة بعامة**» هذه واحدة.

والثانية: قوله: «**أن لا أسلط عليهم عدوًّا مِن سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ويَسبى بعضهم بعضًا**».

وهذه الإجابة قُيدت بقوله: «**حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ويَسبى بعضهم بعضًا**» إذا وقع ذلك منهم؛ فقد يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم...فكأن إجابة الله لرسوله ﷺ فى الجملة الأولى بدون استثناء، وفى الجملة الثانية باستثناء «**حتى يكون بعضهم...**».

وهذه هى الحكمة من تقديم قوله: «**إذا قضيت قضاءً؛ فإنه لا يُرد**»، فصارت إجابة الله لرسوله ﷺ مقيدة.

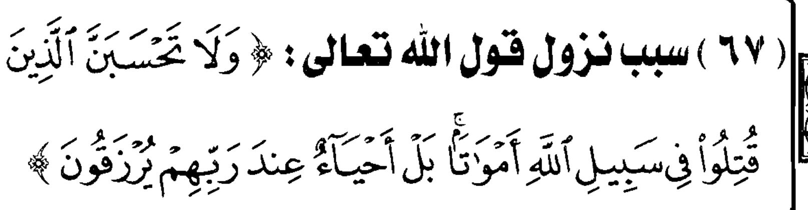
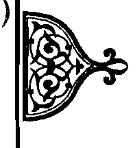
ومن نعمة الله أن هذه الأمة لن تَهلك بسَنة عامة أبدًا؛ فكل مَن يدين بدين الرسول ﷺ فإنه لن يهلك، وإن هلك قوم فى جهة بسَنة؛ فإنه لا يهلك الآخرون.

فإذا صار بعضهم يقتل بعضًا ويسبى بعضهم بعضًا؛ فإنه يُسلَّط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، وهذا هو الواقع...فالأمة الإسلامية حين كانت أمة واحدة عونًا فى الحق ضد الباطل كانت أمة مهيبة، ولما تفرقت وصار بعضهم يهلك بعضًا ويسبى بعضهم بعضًا؛ سلط الله عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، وأعظم مَن سُلِّط عليهم فيما أعلم (التتار)، فقد سُلطوا على المسلمين تسليطًا لا نظير له؛ فيقال: إنهم قتلوا فى بغداد وحدها أكثر من خمسمائة عالِم فى يوم واحد، وهذا شيء عظيم، وقتلوا الخليفة، وجعلوا الكتب الإسلامية جسرًا على نهر دجلة يطؤونها بأقدامهم ويفسدونها، وكانوا يأتون إلى الحوامل ويبقرون بطونهن ويخرجون أولادهن يتحركون أمامهم فيقتلونهم...وهى حية تشاهد ثم تموت.

وفى الحديث دليل على تحريم القتال بين المسلمين، وإهلاك بعضهم بعضًا، وسبى بعضهم بعضًا، وأنه يجب أن يكونوا أمة واحدة حتى تبقى هيبتهم بين الناس وتخشاهم الأمم[١].

---

(١) القول المفيد (١/ ٣٧٦-٣٨١).

(٦٧) سبب نزول قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

۞ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِى جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِى إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِى ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ، وَمَشْرَبِهِمْ، وَمَقِيلِهِمْ، قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا، أَنَّا أَحْيَاءٌ فِى الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِى الْجِهَادِ، وَلا يَنْكلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ»، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[1][2].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أنه لما استُشهد سبعون من أصحاب الرسول ﷺ فى غزوة أُحد أكرمهم الله عَزَّ وَجَلَّ بأن جعل أرواحهم فى جوف طيرٍ خُضرٍ... وتلك الطيور تَرِدُ أنهار الجنة لتشرب منها وتأكل من ثمار الجنة التى لا تَخطر على قلب بشر ليتنعم هؤلاء الشهداء فى الجنة وليكونوا كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾... ثم تأوى تلك الطيور بعد الطعام والشراب إلى قناديل من ذهب مُعلقة فى ظل عرش الرحمن (جلَّ وعلا) «فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ، وَمَشْرَبِهِمْ، وَمَقِيلِهِمْ»، أرادوا أن يشاركهم إخوانهم فى ذلك الخير. ولأنهم يحبون الخير لإخوانهم من أصحاب الرسول ﷺ ولمن جاء بعدهم من المسلمين إلى يوم القيامة، «قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا، أَنَّا أَحْيَاءٌ فِى الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِى الْجِهَادِ، وَلا يَنْكلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ» فما كان من الحق جلَّ وعلا إلا أن قال: «أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ» فأنزل

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢٠٥).

الله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[١]، فهذه الآية الكريمة فيها بيان حال المقتولين فى سبيل الله، وأن أرواحهم فى جوف طيرٍ خُضرٍ... وأرواح الشهداء تُنعَّم منفردة وتُنعَّم أيضًا متصلة بالأجساد، وكذلك أيضًا مَن يكون مُنعَّمًا أو مُعذَّبًا فى القبر فإن العذاب يكون للروح والجسد والنعيم يكون للروح والجسد، وليس العذاب أو النعيم للروح وحدها، وإنما يكون لمجموع الأمرين والله على كل شىء قدير... فتكون الأرواح فى الجنة ولها اتصال بالأجساد، وتُنعَّم متصلة ومنفصلة، وذلك أن الإحسان حصل من مجموع الأرواح والأجساد، والإساءة حصلت من مجموع الأرواح والأجساد، وقد جاء فى الحديث: «**المسلم يُفتح له باب إلى الجنة، فيأتيه من روحها ونعيمها، والفاجر يُفتح له باب إلى النار، فيأتيه من حرها وسَمومها، ولا يزال كُلٌّ منهما فيما هو فيه إلى أن تقوم الساعة**»[٢].

وقد جاء فى الحديث أن نسمة المؤمن على صورة طير فى الجنة، وأرواح الشهداء فى أجواف طير، وحديث: (نسمة المؤمن على صورة طير) رواه الإمام أحمد عن الإمام الشافعى، والإمام الشافعى رواه عن الإمام مالك، فهو مسلسل بثلاثة من الأئمة أصحاب المذاهب الأربعة المشهورة، وهو فى المسند، فقد ذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[٣]، وذكر أن هذا إسناد عزيز مسلسل بثلاثة من الأئمة أصحاب المذاهب المشهورة.

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٧٦) بلفظٍ قريب.

(٣) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

۞ قوله: (قناديل من ذهب مُعلَّقة فى ظل العرش).

أى: تحت العرش.

۞ قوله: (فلما وجدوا طِيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم).

المقيل هو الاستراحة فى وسط النهار... قال تعالى: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾[1].

۞ قوله: (ولا ينكلوا عند الحرب).

أى: حتى لا يهتمون للقاء الأعداء خشية الموت[2].

سببُ نزولٍ آخر للآية السابقة

۞ عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: لَقِيَنِى رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لِى: «يَا جَابِرُ مَا لِى أَرَاكَ مُنْكَسِرًا»؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ اسْتُشْهِدَ أَبِى، وَتَرَكَ عِيَالًا وَدَيْنًا، قَالَ: «أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِىَ اللهُ بِهِ أَبَاكَ»؟ قلتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا. فَقَالَ: يَا عَبْدِى تَمَنَّ عَلَىَّ أُعْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِى فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً. قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ القول مِنِّى أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لا يُرْجَعُونَ» قَالَ: يَا ربّ فَأبلغ مَن وَرَائِى فأنزل اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هذه الآية: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ﴾[3] [4].

وهو حديث عظيم فيه معانى عظيمة، وفيه أن عبد الله بن حرام والد جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما استُشهد يوم أُحد خلَّف بناتٍ ودَينًا فلحق ابنه جابر هَمٌّ عظيم، ثم قضى

---

(١) سورة الفرقان: الآية: (٢٤).

(٢) شرح سنن أبى داود للعباد.

(٣) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

(٤) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٠٥).

النبى ﷺ دَينه وتزوج جابرٌ امرأة ثيبًا حتى تقوم على أخواته.

وفيه أن النبى ﷺ لما رأى جابرًا منكسرًا قال: (ألا أخبرك بما لقى الله به أباك؟ قال: بلى، قال: إن الله كلم أباك كِفاحًا)، يعنى: بدون واسطة، وهذه منقبة لعبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه، وهو مُستثنَى من قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [1]، فكلمه الله مباشرة بدون واسطة، كما كلم موسى عليه السلام من دون واسطة، وهذا منقبة خاصة بعبد الله بن عمرو بن حرام، فكلمه الله وقال له: تمنَّ علىَّ أُعطك، قال: يا رب! أن أُرَدّ إلى دار الدنيا مرة أخرى حتى أُقتل، وذلك لما رأى من فضل الشهادة، حيث صارت منزلته عند الله عالية، وثوابه عظيمًا، فتمنى أن يُرَد إلى الدار الدنيا مرة أخرى ويُقتل، فقال الله: إنه قد سبق القول منى أنهم إليها لا يُرجعون...فمن مات لا يرجع إلى الدنيا، إلا مَن كان آية من الآيات مثل قتيل بنى إسرائيل، أحياه الله ثم أخبر بمَن قتله، ثم عاد فى الحال.

وفيه دليل على بطلان الحديث الذى فيه أن الله أحيا أبوى النبى ﷺ له وأنهما آمنا به... وقد ذكره السيوطى رحمه الله وهذا من الخرافات... فقد ذكر أن الله أحيا أبوى النبى له، وأنهما آمنا به، كما مَرَّ فى تفسير سورة البقرة، فى قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ [2]، فذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله أن هذا الحديث باطل، وأن الصواب أنه موضوع ولا أساس له من الصحة.

وهذا الحديث يدل على بطلانه قوله: (إنه قد سبق القول منى أنهم إليها لا يُرجعون) أى: مَن مات لا يرجع إلى الدار الدنيا، ولا يفيد الإيمان بعد الموت،

---

(١) سورة الشورى: الآية: (٥١).

(٢) سورة البقرة: الآية: (١١٨).

ولهذا قال الله تعالى لعبد الله بن عمرو بن حرام: «إنه قد سبق القول منى أنهم إليها لا يُرجعون، قال: رب أبلغ مَن ورائى - يعنى: بفضل الشهادة- فأنزل الله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[١]).

۞ واليهود والنصارى يعتقدون أن عيسى عليه السلام قُتِلَ وصُلِبَ، والصحيح أنه رُفع حيًّا كما فى نَصِّ القرآن: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ﴾[٢].

۞ قوله: (ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب) أى: أنه كلمه من وراء حجاب ولكنه لم يره... فموسى عليه السلام كلَّمه الله من وراء حجاب ولم يره، ونبينا محمد ﷺ كلَّمه الله ليلة المعراج من وراء حجاب ولم يره... هذا هو الصواب، فهم محجوبون عن الرؤية، ويدل على ذلك حديث مسلم «**حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»[٣] فلما قيل للنبى ﷺ فى حديث أبى ذر: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**»[٤] يعنى: النور حجاب يمنعنى من رؤيته، ولا يستطيع أحد أن يرى الله إلا فى الجنة... هذا هو الصواب.

وقال بعض العلماء: إن النبى ﷺ رأى ربه ليلة المعراج، وأن ذلك خاص بالنبى ﷺ... لكنه قول مرجوح[٥].

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

(٢) سورة النساء: الآية: (١٥٨).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٧٩) كتاب الإيمان.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٧٨) كتاب الإيمان.

(٥) شرح سنن ابن ماجه للراجحى.

(٦٨) ليس الخبر كالمعاينة

۞ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ، قَالَ اللهُ لِمُوسَى: إِنَّ قَوْمَكَ صَنَعُوا كَذَا وَكَذَا، فَلَمَّا يُبَالِ، فَلَمَّا عَايَنَ أَلْقَى الْأَلْوَاحَ**».

وفى رواية: قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِى الْعِجْلِ، فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا، أَلْقَى الْأَلْوَاحَ فَانْكَسَرَتْ**»(١).

۞ (ليس الخبر كالمعاينة) وشاهد ذلك (أن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه فى العجل فلم يُلقِ الألواح فلما عاين ما صنعوا) من عبادة العجل (ألقى الألواح فانكسرت) فأفاد هذا أنه ليس حال الإنسان عند معاينة الشيء كحاله عند الخبر.

أخبر الله موسى بما حدث فى قومه فى غيبته: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾(٢).

لقد امتحن الله بنى إسرائيل بالسامرى، وابتلاهم وفتَنَهم به، وجعله فتنةً لهم، ليَعلمَ مَنْ يثبتُ منهم على الإيمان والتوحيد، ومَنْ يتخلَّى عن ذلك ويَسيرُ مع السامرى فى ضلاله وكفره.

وأُسندت الفتنة إلى الله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾، على اعتبار أنه القادر المريدُ سبحانه، وأنَّ كلَّ ما يقعُ فهو بمشيئته وإرادته سبحانه.

بعدما أخبر اللهُ موسى بإضلال السامريِّ لقومه، حزنَ موسى وتألم، وحمل

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والطبرانى فى الأوسط، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٣٧٤).

(٢) سورة طه: الآية: (٨٥).

ألواحه معه، وغادر جبل الطور وعاد إلى قومه...قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ﴾[1].

وصلَ موسى عليه السلام إلى قومه، وهو يحملُ الألواح، فوجَدَهم عاكفين على العجل الذهبيّ عابدين له، فزادَ انفعالُه وغضبه وحزنه وأسفه، وألقى الألواح من يديه، كما قال تعالى: ﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾[2].

قال ابن عاشور: «وإلقاءُ الألواح رميُها من يده إلى الأرض، وذلك يُؤْذِنُ بأنه لما نزلَ من المناجاة كانت الألواحُ في يده..

ثُمَّ إنَّ إلقاءَه إياها إنَّما كان إظهارًا للغضب، أو أَثرًا من آثارِ فورانِ الغضب لما شاهدهم على تلك الحالة..».

فلم يكن إلقاؤه للألواح إهانةً ولا تحقيرًا لها، وإنما كان إلقاءً لا إراديًّا، ناتجًا عن شدةِ غضبه وانفعاله.

غضبَ موسى وحزنَ وأسِفَ لما علمَ بعبادةِ قومه العجل وهو على الجبل، لكنَّ غضبَه وأسفَه زادَ وتفاعلَ لما رآهم يعبدون العجل، وأدَّى ذلك إلى إلقائه الألواح.

ويشيرُ الحديثُ إلى الفرق بين تأثُّرِ مَنْ أُخْبرَ عن شيءٍ، وتَأَثُّر مَنْ عايشَ ذلك الشيء ورآه: «**ليسَ الخبرُ كالمُعَايَنَة**»، فتأَثُّرُ وانفعالُ المُشاهِدِ للشيء أضعافُ تأثُّرِ مَنْ أُخبرَ به، وهذه حالةٌ نفسيَّةٌ معروفة.

وذكرَ الحديثُ حالةَ موسى عليه السلام أوضحَ مثالٍ على هذا، حيث اختلفَ انفعالُه عندما شاهدَ قومَه يعبدون العجل عن انفعالِه عندما أُخبر عن ذلك.

لقد أدَّاه انفعالُه عندما شاهدَهُم إلى إلقاء الألواح، ونتجَ عن إلقائها

(١)سورة طه: الآية: (٨٦).

(٢)سورة الأعراف: الآية: (١٥٠).

انكسارُها، كما أخبر رسول الله ﷺ.

وأقبلَ موسى عليه السلام على قومه لائمًا مُعنِّفًا موبِّخًا... قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾[2].

لامَهم على مخالفتهم فى غيابه، وذمَّهم على سوءِ خلافتِهم له: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ﴾.

ومعنى قوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ﴾؟: لماذا سارعتم بفعل ما يسببُ غضبَ ربِّكم عليكم؟ وهو عبادتكم العجل. أما علمتم أنَّ الله يَغضبُ من ذلك ويُعاقِبُ مَنْ فعلَه؟ فكيف فعلتموه؟ أتريدون أن تتعجلوا عِقابَ الله؟

والاستفهام فى: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ﴾؟ إنكارى. فلما عبدوا العجلَ استحقوا غضب الله، وكأنَّهم بذلك يُنكرون وعدَ الله الحسنِ الذى وعدَهم إيَّاه...فنَزَّلهم موسى عليه السلام بهذا الاستفهام الإنكاريّ منزلةَ مَنْ زَعَمَ أنَّ الله لم يَعْدِهُم وعدًا حسنًا؛ لأنَّ عبادَتهم العجل تتناقضُ مع الوعدِ الحسن.

والمرادُ بالوعدِ الحسن هنا وعدُ الله لموسى ثلاثين ليلةً لإنزال التوراة عليه بعدها...فوَعْدُه لموسى وعْدٌ حسنٌ منه سبحانه لهم؛ لأنَّ فى التوراة إحسانٌ لحياتهم وإصلاحٌ لحالهم.

وكان الأجدرُ بهم أن ينتظروا وعْدَ اللهِ بالحسنى والعبادة، وأنْ يَرقبوا عودةَ موسى إليهم ومعه التوراة...فكيف راقبوا وانتظروا عودة موسى بالتوراة وهم

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٥٠).

(٢) سورة طه: الآية: (٨٦).

عابدون لغير الله؟

والاستفهام فى: ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾؟ إنكارى أيضًا.

والمرادُ بالعهد هنا المدة التى غابها عنهم. فقد أخبرهم أنه سيعودُ لهم بعد ثلاثين يومًا، وأَبقى فيهم أَخاهُ هارونَ النبى... ومَدَّدَ اللهُ المدةَ عشرةَ أيام، وفى هذه الأيامِ عبدوا العجل.

إنه ينكرُ عليهم ما فعلوه فى هذه المدة، ألأَنَّهُ غابَ عنهم عشرة أيام أُخرى ظنُّوا به الظنون؟ وخالَفوا دينَه وعبدوا العجل؟ أكانت الأَربعون يومًا عهدًا طويلًا وفترةً مديدة، طالَ عليهم العهدُ فيها، ودفَعَتْهم إلى عِبادةِ العجل؟ ومعهم خليفتُه النبيُّ هارون!!

إنَّ الأربعين يومًا مدةً قصيرةً، لا تدعوكم إلى مخالفةِ شرع الله وعبادةِ غيره، ولا شبهةَ ولا عذرَ لكم فيما فعلتموه فيها.

﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾.

والمعنى: كلَّا إنه ما طالَ عليكم العهدُ فى غيابى، بل أنتم أردتم أن يحلَّ عليكم غضبُ ربكم، فأخلفتُم موعدى وعبدتم العجل!

ردَ بنو إسرائيل على تعنيف ولوم موسى قائلين: ﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾[1].

ومعنى كلامهم: ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾: أننا لم نتعمدْ إخلافَ موعدك، ولا عبادةَ العجل، وما فعلْنا ذلك بإرادتِنا واختيارِنا ورغبتنا، فكنَّا نُريد أنْ نبقى مُحافظين على العهدِ والوعد.

ولكن حصلَ أمرٌ ليْسَ فى حسابنا، أدَّى ذلك إلى إِضلالنا وإخلافِنا الموعد.

---

(١) سورة طه: الآية: (٨٧).

وبيَّنوا الذى حملَهم على إخلاف الموعد وعبادتهم العجل بقولهم: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾.

والمعنى: حَمَّلَنا السامرىُّ أوزارًا من زينةِ القوم، وأشْعَرَنا أننا مذنبون بتملُّكِهَا، وأَمَرَنا بطرحها، فقذفناها لنتخلصَ منها[1].

فقد قاموا باستعارةِ حُلىٍّ وزينةٍ من المصريين ليلةَ الخروج، وحَمَلوا تلكَ الزينةَ والحلى معهم أثناء خروجهم.

وأخذُهم حُلىَّ وزينةَ المصريين ليلةَ خروجهم هو فى الحقيقة أَخْذٌ لبعض حقوقهم المالية التى عند المصريين، ولم يكن ذلك سرقة.

لقد اعتبروا ما معهم من حلىٍّ وزينةِ المصريين أوزارًا وأثقالًا يحملونها، وآثامًا يَقعون فيها، ولا بدَّ من التخلصِ منها لتزولَ عنهم تلك الآثام.

ورسَّخ السامرىُّ هذا المعنى فى شعورهم، وقوَّى هذا التحرُّجَ والتأثُّمَ فى نفوسهم، ليُحققَ مرادَه فيهم، وكأنَّه كان يقول لهم: هذه الحلىُّ والزينة التى معكم أوزارٌ وأثقالٌ تحملونها، وتُسببُ لكم الإثمَ والعذاب، فأنتم سرقتموها من المصريين، ولا بدَّ أنْ تتخلَّصوا من هذه «المسروقات» حتى يزولَ عنكم التَّحرُّجُ والتَّأنيبُ والشعورُ بالإثمِ والذنب.

ثم دعاهم إلى قذفها وطرحها وإلقائها، ففعلوا. ولما قذفوها أخذها السامرىُّ وصنع منها العجل: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾[2][3].

---

(١) انظر حجة القراءات (٤٦٢).

(٢) سورة طه: الآيتان: (٨٧، ٨٨).

(٣) بتصرف من كتاب (القصص القرآنى) د/ صلاح الخالدى.

(٦٩) تحريم سَبِّ الدهر

۞ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِى ابْنُ آدَمَ .. يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِى الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»[١].

۞ وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يُؤْذِينِى ابْنُ آدَمَ يَقُولُ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ .. فَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فَإِنِّى أَنَا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، فَإِذَا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا»[٢].

۞ وفى رواية: «**لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: أَنَا الدَّهْرُ.. الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِى لِى، أُجَدِّدُهَا وَأُبْلِيهَا، وَآتِى بِالْمُلُوكِ بَعْدَ الْمُلُوكِ**»[٣].

۞ قال ابن كثير: «معناه أنهم يقولون: يا خيبة الدهر، فعل كذا وكذا. فيُسندون أفعال الله - تعالى - إلى الدهر، ويَسبُونه، وإنما الفاعل هو الله عَزَّ وَجَلَّ، فنهى عن ذلك... هكذا قرره الشافعى وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء».

۞ ومن المعلوم أن تلك العبارات التى ذُكِرت فى الأحاديث تقع على وجهين:

الوجه الأول: أن تكون سَبًّا وقدحًا فى الزمن.. فهذا حرامٌ ولا يجوز؛ لأن ما حصل فى الزمن فهو من الله عَزَّ وَجَلَّ.. فمن سبَّه فقد سبَّ الله عَزَّ وَجَلَّ.

والوجه الثانى: أن يقولها على سبيل الإخبار فهذا لا بأس به،ومنه قوله تعالى عن لوط، عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[٤]. أى: شديد، وكل الناس يقولون: هذا يوم شديد. وهذا يوم فيه كذا وكذا من الأمور، وليس

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٢٦) كتاب التفسير، ومسلم (٢٢٤٦) (٢) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٤٦) (٣) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح.

(٤) سورة هود: الآية: (٧٧).

فيه شيء.

وأما قول: «هذا الزمن غدّار»، فهذا سَبٌّ لأن الغدر صفة ذمّ ولا يجوز.

وقول: «يا خيبة اليوم الذى رأيتك فيه» إذا قصد يا خيبتى أنا، فهذا لا بأس فيه، وليس سبًّا للدهر، وإن قصد الزمن أو اليوم فهذا سَبٌّ له فلا يجوز[١].

وقال الحافظ المنذرى رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومعنى الحديث أن العرب كانت إذا نزلت بأحدهم نازلة، وأصابته مصيبة أو مكروه يسب الدهر اعتقادًا منه أن الذى أصابه فعل الدهر، كما كانت العرب تستمطر بالأنواء، وتقول: مُطرنا بنوء كذا اعتقادًا أن فعل ذلك فعل الأنواء فكان هذا كاللعن للفاعل، ولا فاعل لكل شيء إلا الله تعالى خالق كل شيء وفاعله، فنهاهم النبى ﷺ عن ذلك)[٢].

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فى هذا ثلاث مفاسد:

أحدها: سَبُّه مَن ليس بأهل أن يُسَب فإن الدهر خَلقٌ مُسخَّر من خَلق الله، منقاد لأمره، مُذلَّل لتسخيره، فسابه أولَى بالذم والسب منه.

الثانية: أن سَبَّه متضمن للشرك، فإنه إنما سبه لظنه أنه يضر وينفع، وأنه مع ذلك ظالم قد ضرَّ مَن لا يستحق الضرر، وأعطى مَن لا يستحق العطاء، ورفع مَن لا يستحق الرفعة، وحرم مَن لا يستحق الحرمان، وهو عند شاتميه من أظلم الظلمة .. وأشعار هؤلاء الظلمة الخونة فى سَبِّه كثيرة جدًّا، وكثير من الجهال يصرح بلعنه وتقبيحه.

الثالثة: أن السب منهم إنما يقع على مَن فعل هذه الأفعال التى لو اتبع الحق فيها أهواءهم لفسدت السموات والأرض، وإذا وقعت أهواؤهم لفسدت السموات والأرض، وإذا وقعت أهواؤهم، حمدوا الدهر، وأثنوا عليه، وفى

---

(١) فتاوى العقيدة (ص:٧٤٧).

(٢) الترغيب والترهيب (٣/ ٢٨٤).

حقيقة الأمر، فرب الدهر تعالى هو المعطى المانع، الخافض الرافع، المعز المذل، والدهر ليس له من الأمر شىء، فمسبتهم للدهر مسبة لله عَزَّوَجَلَّ ، ولهذا كانت مؤذية للرب تعالى.. فسابُّ الدهر دائر بين الأمرين لا بد له من إحداهما: إما سبه لله، أو الشرك به، فإنه إذا اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذى فعل ذلك وهو يسب مَن فعله، فقد سب الله)[1] .

۞ والقول بأن الدهر من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ يرده الإجماع المنعقد سلفًا وخلفًا أن الدهر ليس من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ ... وإذا كان الإجماع على هذا النحو، ولم يأتِ لا فى زمن الصحابة ولا مَن بعدهم أن من أسماء الله تبارك وتعالى الدهر، فلابد من تأويل هذا الحديث.

وأما تأويله فى رواية: (إن الله هو الدهر) فقد قال العلماء: وإطلاق الدهر هنا من باب المجاز؛ وسببه أن العرب كان من شأنها أن تسب الدهر عند النوازل والحوادث والمصائب النازلة بها من موتٍ أو هرم أو تلف مالٍ أو غير ذلك، فيقولون: يا خيبة الدهر.

يعنى: يسبون الدهر.

وأنتم تعلمون أن الدهر هو الأيام والليالى، وهو الأزمان، وهذه الأزمان لا تفعل شيئًا فى هذه المصائب، وليست سببًا فى نزول المصائب، بل المصائب مخلوقة لله عَزَّوَجَلَّ ، والشر مخلوق لله عَزَّوَجَلَّ ، وكذلك الأيام والليالى مخلوقة لله عَزَّوَجَلَّ ... والأيام والليالى ليس لها دخل فى نزول المصائب والنوازل والحوادث، ولكن العرب كانت تتشاءم من يومٍ تقع فيه نازلة أو مصيبة، فيطلقون ألسنتهم بسبِّ الدهر ولعنه، فيقولون: يا خيبة الدهر ونحو هذا من ألفاظ سب الدهر، فقال النبى عليه الصلاة والسلام: (لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر).

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٢٣، ٣٢٤).

أي: فإن الله هو الذى خلق الدهر.

أي: لا تسبوا فاعل النوازل؛ لأن الليل والنهار ليسا بفاعلين للنوازل، وإنما فاعل النوازل وخالقها هو رب الليل والنهار وهو رب الدهر، فإذا سببتم الدهر ولعنتموه فكأنكم تسبون خالق النوازل وخالق الدهر وخالق الحوادث وخالق الليل والنهار، وهذا هو الذى نهى عنه (عليه الصلاة والسلام)، فإنكم إذا سببتم فاعلها وقع السبُّ على الله تعالى؛ لأنه هو فاعلها ومُنزلها....وأما الدهر الذى هو الزمان فلا فعل له، بل هو مخلوق من جملة خلق الله تعالى.

والمعنى: فإن الله هو الذى فعل النوازل وأوجدها وخلقها وأحدثها؛ وهى مما يقع فى الكون، والله هو الخالق لجميع الكائنات والنوازل والحوادث.

وهذا الكلام قاله الإمام المنذرى ووافقه الشيخ الألبانى كذلك فى الصحيحة .

(٧٠) إنَّ شَرَّ الرِّعاءِ الحُطَمَةُ

۞ عن حُذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يُؤْتَى بالولاةِ يومَ القِيامَةِ عادِلِهم وجَائِرِهم، حتَّى يقفوا علَى جسر جهنَّمَ فيقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: فِيكُم طِلبتى فَلا يَبقَى جائرٌ فِى حُكمِهِ، مُرتَشٍ فِى قضائِهِ مميلٍ سمعُهُ أحدَ الخصمين إلَّا هَوى فِى النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا.. وَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ الَّذِى ضَرَبَ فَوْقَ الْحَدِّ فَيَقُولُ اللهُ: لِمَ ضَرَبْتَ فَوْقَ مَا أَمرتُكَ؟ فَيَقُولُ: يَا ربِّ غَضِبْتُ لَكَ، فَيَقُولُ: أَكَانَ لِغَضَبِكَ أَنْ يكُونَ أَشَدَّ مِنْ غَضَبِى؟!! وَيُؤْتَى بِالَّذِى قَصَّرَ فَيَقُولُ: عَبْدِى لِمَ قَصَّرْتَ؟ فَيَقُولُ: رَحِمْتُهُ. فَيَقُولُ: أَكَانَتْ لرَحْمَتِكَ أَنْ تكونَ أَشَدَّ مِنْ رَحْمَتِى»[(١)].

۞ وفى حديثٍ آخر عن تحريم ظلم الرَّاعى للرَّعية.

عَنْ أَبِى سعيد الْحسنِ البصرِى أَنَّ عَائِذَ بن عمْروٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دخَلَ عَلَى عُبَيْدِ الله بن زِيَادٍ فَقَالَ: أَىْ بُنَىَّ، إِنِّى سمعتُ رسول الله ﷺ يَقولُ: «إِنَّ شَرَّ الرِّعاءِ الْحُطَمَةُ» فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ. فَقَالَ لَهُ: اجْلِس فَإِنَّمَا أَنت مِنْ نُخَالَةِ أَصحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فقال: وهَلْ كَانَتْ لَهُمْ نُخَالَةٌ إِنَّمَا كَانَتِ النُّخالَةُ بَعدَهُمْ وَفى غَيرِهِمْ[(٢)(٣)].

۞ إن النبى ﷺ الذى أرسله الله عَزَّ وَجَلَّ رحمة للعالمين كان يُوصى دائمًا كلَّ مَن يلى أمر المسلمين أن يرفق بهم وأن يرحمهم.. وكان يُحذِّرهم من ظُلم الرعية وعدم الرفق بهم.

۞ وفى هذا الحديث أن عائذ بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ دخل على عُبيد الله بن زياد فقال له: أى بُنى إنى سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) (رواه أبو يعلى: وإسناده حسن لغيره).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٣٠) كتاب الإمارة.

(٣) الرِّعاء: جمع راعٍ - الحُطمة: العنيف فى رعيته الذى لا يرفق بهم - المقصود بالنُّخالة: أى لست من فُضلائهم وعلمائهم.

يقول: «**إن شرَّ الرِّعاء الحُطمة فإياك أن تكون منهم**» يقول: إن شرَّ الرِّعاء الحُطمة.. والحُطمة هو العنيف فى رعاية الإبل لا يرفق بها فى سَوقها ومرعاها بل يحطمها فى سَوقها ومرعاها وفى سقيها وغيره ويزحم بعضها ببعضٍ ويُلقى بعضها بحيث يؤذيها ويُحطمها... وهذا مثلٌ ضربه الرسول ﷺ للوالى السيئ القاسى القلب الذى يظلم الرعية.

۞ والسؤال: لماذا قال عائذ بن عمرو هذا الكلام لعُبيد الله بن زياد؟

والجواب: لأنه كان غلامًا سفيهًا سفك الدماء سفكًا شديدًا.. وكان هو الذى أمر بقتل الحسين بن على رضي الله عنهما حفيد النبى ﷺ وسيد شباب أهل الجنة.

۞ وها هى قصة قتل الحسين رضي الله عنه باختصارٍ شديد.

الحسين بن على رضي الله عنهما تعرض لفتنة عظيمة.. وحَلَّ به كربٌ وبلاء فى كربلاء، وذلك أن أهل العراق أرادوا الوقيعة بين الحسين بن على ويزيد بن معاوية، فكتبوا إلى الحسين بأن يخرج إليهم، ووعدوه أن ينصروه وأن يؤازروه وأن يؤمِّروه عليهم حتى لا يترك الأمر ليزيد الذى اتُّهم فى دينه...والله يتولاه.

ورأى الحسين رضي الله عنه أن هذا العرض قد يحقق خيرًا يريده للناس ولا يريده لنفسه... إنه يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «**يا عبد الرحمن بن سَمُرة لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيتها عن مسألة وُكِّلت إليها، وإن أُعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها**»[1].

فمضى رضي الله عنه وقد أشار عليه بعض الصحابة بعدم الخروج فأبى إلا الخروج ليقضى الله أمرًا كان مفعولًا...ووثق الحسين بعهود ومواثيق أهل العراق، وأقبل يسير نحو الكوفة حتى إذا نزل بكربلاء رفع يديه إلى السماء ثم قال: اللهم أنت ثقتى فى كل كرب، ورجائى فى كل شدة، وأنت لى من كل أمر نزل ثقة وعدة... فكم من هَمٍّ يضعف فيه الفؤاد وتَقِلُّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق ويشمت

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٢٢) كتاب الأيمان والنذور - ومسلم (١٦٥٢) كتاب الإمارة.

فيه العدو... فأنزلته بك وشكوته إليك رغبة فيه إليك عمَّا سواك، ففرجته وكشفته وكفيتنيه فأنت ولى كل نعمة وصاحب كل حسنة ومنتهى كل غاية [١].

ولما نزل فى كربلاء قال: ما هذه الأرض؟ قالوا: كربلاء، قال: إنَّا لله وإنا إليه راجعون، كربٌ وبلاء،... وعلم الأعداء بقدومه فأحاطوا به من كل مكان... وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقوم الليل هو ومَن معه يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون ويقرأون قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [٢] وتحرَّش به الأعداء ونالوا منه سبًّا وشتمًا وما كان له إلا أن يدافع عن نفسه وأهله الذين اصطحبهم معه، وقد وقف لهم وقوف الجبال الراسية حتى قُتل جميع مَن معه وبقى وحده يقاتل حتى قُتل، وقُطع رأسه فى يوم عاشوراء سنة ٦١ هـ، وكان ذلك بأمرٍ من عُبيد الله بن زياد، فلما أُحضر بين يديه أخذ عودًا ينكت به فى ثنايا الحسين، ويقول: لقد كان جميلًا... قال زيد بن أرقم: ارفع القضيب فوالله الذى لا إله إلا هو لقد رأيت شفتى رسول الله ﷺ على هاتين الثنيتين يُقبلهما...وأُرسل رأس الحسين إلى يزيد فلما رآه حزن حُزنًا شديدًا وقال: لعن الله ابن مرجانة - يعنى عُبيد الله بن زياد - لو قَبِل طلبه فى عدم القتل وأعطاه سؤاله، لقد بغَّضنى إلى الناس بقتل الحسين وزرع لى فى قلوبهم العداوة والبغضاء... وكان الذى رمى الحسين رجلٌ اسمه حصين بن تميم... رماه بسهم فى حنكه حتى سال الدم فتلقَّاه الحسين وهو يقول رافعًا يديه إلى السماء مملوءتان دمًا: اللهم أحصهم عددًا واقتلهم بددًا ولا تَذَر على الأرض منهم أحدًا...ودعا عليهم دعاءً بليغًا وقد استجاب الله دعاءه فما مكث الرامى إلا يسيرًا حتى صَبَّ الله عليه الظمأ فجعل

---

(١) البداية والنهاية جزء ٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٧٨).

لا يُروى ويُسقَى الماء مُبردًا فلا يُطفئ عطشه ولا يروى ظمأه لأن النار تشتعل فى فؤاده، فما لبث إلا قليلًا حتى مات من شدة العطش... والماء البارد بين يديه.

ومرت الأيام وابن مرجانة - عُبيد الله بن زياد- يفتخر بقتل الحسين ويتعالى بسفك دمه ويحسب أن الدنيا ستخلو له، وأن الحياة ستبقى له، وأن يزيد سيمنعه من عذاب الله ويحول بينه وبين الموت.. ونسى قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[1] وفى اليوم الذى قُتل فيه الحسين وهو يوم عاشوراء سلط الله على ابن مرجانة - عُبيد الله بن زياد-المختار بن أبى عُبيد الثقفى الذى أرسله إبراهيم بن الأشتر فالتقوا فى أول سنة سبع وستين بالخازر قريبًا من الموصل وقُتل ابن زياد يوم عاشوراء وأرسل ابن الأشتر برأس ابن زياد إلى المختار فلما وضع بين يديه جاءت حية عظيمة ثم تخللت الرؤوس حتى دخلت فى فم ابن زياد وخرجت من منخره ودخلت من منخره وخرجت من فمه وهكذا ترددت عدة مرات.

وهكذا ينتقم الله لأوليائه من كل ظالم عنيد، والجزاء من جنس العمل ولا يظلم ربك أحدًا[2] .

وكانت أمه مرجانة من بنات ملوك الفرس تقول له: قتلت ابن بنت رسول الله ﷺ لا ترى الجنة.... وقد أفضى إلى ما قدم ويتمنى أنه ما فعل فعله.... كيف وخصمه يوم القيامة ريحانة رسول الله ﷺ وسيد شباب أهل الجنة، فبأى جواب يجيب؟ وبأى عملٍ يَقدُم؟[3] .

---

(١) سورة إبراهيم: الآية: (٤٢).

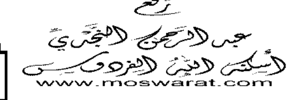
(٢) البداية والنهاية (جزء ٨)، تاريخ الطبرى (جزء ٣)، سير أعلام النبلاء (جزء ٣).

(٣) اتق دعوة المظلوم (٦٥ - ٦٨).

۞ فيُستفاد من هذا الحديث فائدتان:

الفائدة الأولى: أنه لا يجوز للإنسان الذى ولَّاه الله على أمرٍ من أمور المسلمين أن يكون عنيفًا عليهم، بل يكون رفيقًا بهم.

الفائدة الثانية: وجوب الرفق بمن ولَّاه الله عليهم بحيث يرفق بهم فى قضاء حوائجهم وغير ذلك، مع كونه يستعمل الحزم والقوة والنشاط، يعنى لا يكون لينًا مع ضعف ولكن لينًا بحزمٍ وقوة ونشاط.





(٧١) لا يأتى النذر بخير

۞ قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: لاَ يَأْتِي ابْنَ آدَمَ النَّذْرُ بِشَيْءٍ لَمْ يَكُنْ قُدِّرَ لَهُ، وَلَكِنْ يُلْقِيهِ النَّذْرُ إِلَى القَدَرِ قَدْ قُدِّرَ لَهُ، فَيَسْتَخْرِجُ اللهُ بِهِ مِنَ البَخِيلِ، فَيُؤْتِى عَلَيْهِ مَا لَمْ يَكُنْ يُؤْتِى عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ»(١).

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ النَّذْرَ لاَ يُقَدِّمُ شَيْئًا وَلاَ يُؤَخِّرُ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِالنَّذْرِ مِنَ البَخِيلِ»(٢).

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ النَّذْرَ لا يُقَرِّبُ مِنَ ابْنِ آدَمَ شَيْئًا لَمْ يَكُنِ اللهُ تَعَالَى قَدَّرَهُ لَهُ، وَلَكِنَّ النَّذْرَ يُوَافِقُ الْقَدَرَ، فَيُخْرَجُ ذَلِكَ مِنَ الْبَخِيلِ، مَا لَمْ يَكُنِ الْبَخِيلُ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَ»(٣).

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ النَّذْرَ نَذْرَانِ: فَمَا كَانَ لِلَّهِ، فَكَفَّارَتُهُ الْوَفَاءُ بِهِ، وَمَا كَانَ لِلشَّيْطَانِ فَلَا وَفَاءَ لَهُ، وَعَلَيْهِ كَفَّارَةُ يَمِينٍ»(٤).

۞ النذر هو أن يُلزم الإنسان المُكلَّف نفسه شيئًا لله تعالى.

وأما حكم النذر ابتداءً فإنه مكروه غير مستحب؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبى ﷺ نهى عن النذر وقال: «إنه لا يَردُّ شيئًا وإنما يُستخرَج به من الشحيح»(٥)، ولأن الناذر يُلزم نفسه بشىء لا يلزمه فى أصل الشرع... فيحرج نفسه، ويُثقلها بذلك، ولأنه مطلوب من المسلم فعل الخير بلا نذر.

إلا أنه إذا نذر فعل طاعة وجب عليه الوفاء به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٦٩٤) كتاب الأيمان والنذور.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٩٢) كتاب الأيمان والنذور - ومسلم (١٦٣٩) كتاب النذر.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٦٤٠) (٧) كتاب النذر.

(٤) صحيح: رواه البيهقى فى السنن، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٨٢).

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٩٢) كتاب الأيمان والنذور - ومسلم (١٦٣٩) كتاب النذر.

نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾[(٢)]، ولحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبى ﷺ قال: «**من نذر أن يُطيع الله فليُطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يَعصه**»[(٣)].

فقد مدح الله عَزَّوَجَلَّ الموفين بالنذر وأثنى عليهم... وأمر ﷺ بالوفاء به، فدلَّ ذلك على أن النهى المتقدم عن النبى ﷺ إنما هو للكراهة لا للتحريم، وأن المنهى عنه والمكروه هو ابتداء النذر والدخول فيه، وأما الوفاء به، وإنجازه لمن لزمه فواجب، وطاعة لله سبحانه... والنذر نوع من أنواع العبادة لا يجوز صرفه لغير الله تعالى، فمن نذر لقبرٍ أو وليٍّ ونحوه، فقد أشرك بالله تعالى شركًا أكبر، والعياذ بالله.

۞ **وينقسم النذر بحسب الأحكام المترتبة عليه، ولزوم الوفاء به من عدمه، إلى خمسة أنواع:**

(١) **النذر المطلق**: نحو قوله: لله علىَّ نذر. ولم يُسمِّ شيئًا، فيلزمه كفارة يمين، سواء كان مطلقًا أو مقيدًا... لحديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كفارة النذر إذا لم يُسمِّ كفارة يمين**»[(٤)].

(٢) **نذر اللجَاج والغضب**: وهو تعليق نذره بشرطٍ يقصد به المنع من فعل شىء أو الحمل عليه أو التصديق أو التكذيب... كقوله: إن كلمتك، أو إن لم أخبر بك، أو إن لم يكن هذا الخبر صحيحًا، أو إن كان كذبًا فعلىَّ الحج، أو العتق..، فهذا النذر خارجٌ مَخرج اليمين للحث على فعل شىء أو المنع منه، ولم يقصد به النذر ولا القربة... فهذا يُخيَّر فيه بين فعل ما نذره أو كفارة يمين؛

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٧٠).

(٢) سورة الإنسان: الآية: (٧).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٦٩٦، ٦٧٠٠) كتاب الأيمان والنذور.

(٤) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٨٨)، وأصله فى صحيح مسلم.

لقوله ﷺ: «**كفارة النذر كفارة يمين**»[1].

(٣) النذر المباح: وهو أن ينذر فعل الشىء المباح، نحو: أن ينذر لبس ثوب أو ركوب دابة.. ونحو ذلك...واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أنه لا شىء عليه فيه... لحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما النبى ﷺ يخطب، إذا هو برجل قائم فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم فى الشمس ولا يستظل ولا يتكلم وأن يصوم، فقال: «**مُروه، فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليُتم صومه**»[2].

(٤) نذر المعصية: وهو أن ينذر فعل معصية، كنذر شرب خمر، والنذر للقبور، أو لأهل القبور من الأموات، وصوم أيام الحيض، ويوم النحر.

فهذا النذر لا ينعقد ولا يجب الوفاء به... لحديث عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ قال: «**ومَن نذر أن يعصى الله فلا يعصه**»؛ لأن معصية الله لا تُباح فى حالٍ من الأحوال، ولا يَلزمه به كفارة.

(٥) نذر التبرُّر: وهو نذر الطاعة وفعل البِر... كنذر فعل الصلاة والصيام والحج، سواء أكان مطلقًا، أم معلقًا على حصول شىء، فيجب الوفاء به إن كان مُطلَقًا... وعند حصول الشرط إن كان مُعلَّقًا... لحديث عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**»[3].

۞ قَالَ الْقَاضِى: عَادَةُ النَّاسِ تَعْلِيقُ النُّذُورِ عَلَى حُصُولِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ فَنَهَى عَنْهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ فِعْلُ الْبُخَلَاءِ ... إِذِ السَّخِيُّ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَى اللهِ تَعَالَى اسْتَعْجَلَ فِيهِ وَأَتَى بِهِ فِى الْحَالِ، وَالْبَخِيلُ لَا تُطَاوِعُهُ نَفْسُهُ بِإِخْرَاجِ شَىْءٍ مِنْ يَدِهِ إِلَّا فِى مُقَابَلَةِ عِوَضٍ يُسْتَوْفَى أَوَّلًا، فَيَلْتَزِمُهُ فِى مُقَابَلَةِ مَا سَيَحْصُلُ

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٤٥) كتاب النذر.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٧٠٤) كتاب الأيمان والنذور.

(٣) بتصرف من الفقه الميسر – مجموعة علماء.

لَهُ، وَيُعَلِّقُهُ عَلَى جَلْبِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضُرٍّ، وَذَلِكَ لَا يُغْنِى عَنِ الْقَدَرِ شَيْئًا.... أَىْ نَذْرٌ لَا يَسُوقُ إِلَيْهِ خَيْرًا لَمْ يُقَدَّرْ لَهُ، وَلَا يَرُدُّ عَنْهُ شَرًّا قُضِىَ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ النَّذْرَ قَدْ يُوَافِقُ الْقَدَرَ فَيُخْرِجُ مِنَ الْبَخِيلِ مَا لَوْلَاهُ لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَهُ.

وَقَالَ الْخَطَّابِىُّ: وَإِنَّمَا وَجْهُ الْحَدِيثِ أَنَّهُ أَعْلَمَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَا يَجْلِبُ لَهُمْ فِى الْعَاجِلِ نَفْعًا وَلَا يَصْرِفُ عَنْهُمْ ضَرًّا، وَلَا يَرُدُّ شَيْئًا قَضَاهُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِ: «فَلَا تَنْذُرُوا». عَلَى أَنَّكُمْ تُدْرِكُونَ بِالنَّذْرِ شَيْئًا لَمْ يُقَدِّرْهُ اللهُ لَكُمْ، أَوْ تَصْرِفُونَ عَنْ أَنْفُسِكُمْ شَيْئًا جَرَى الْقَضَاءُ بِهِ عَلَيْكُمْ، إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَاخْرُجُوا عَنْهُ بِالْوَفَاءِ، فَإِنَّ الَّذِى نَذَرْتُمُوهُ لَازِمٌ لَكُمْ.

قَالَ الطِّيبِىُّ: تَحْرِيرُهُ أَنَّهُ عَلَّلَ النَّهْىَ بِقَوْلِهِ: فَإِنَّ النَّذْرَ لَا يُغْنِى مِنَ الْقَدَرِ، وَنَبَّهَ بِهِ عَلَى أَنَّ النَّذْرَ الْمَنْهِىَّ عَنْهُ هُوَ النَّذْرُ الْمُقَيَّدُ الَّذِى يُعْتَقَدُ أَنَّهُ يُغْنِى عَنِ الْقَدَرِ بِنَفْسِهِ، كَمَا زَعَمُوا، وَكَمَا نَرَى فِى عَهْدِنَا جَمَاعَةً يَعْتَقِدُونَ ذَلِكَ لَمَّا شَاهَدُوا مِنْ غَالِبِ الْأَحْوَالِ حُصُولَ الْمَطَالِبِ بِالنَّذْرِ، وَأَمَّا إِذَا نَذَرَ وَاعْتَقَدَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِى يُسَهِّلُ الْأُمُورَ، وَهُوَ الضَّارُّ وَالنَّافِعُ. وَالنُّذُورُ كَالذَّرَائِعِ وَالْوَسَائِلِ، فَيَكُونُ الْوَفَاءُ بِالنَّذْرِ طَاعَةً، وَلَا يَكُونُ مَنْهِيًّا عَنْهُ.... كَيْفَ وَقَدْ مَدَحَ اللهُ تَعَالَى جَلَّ شَأْنُهُ الْخِيَرَةَ مِنْ عِبَادِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾[1] وَ ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾[2] قُلْتُ: وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾[3].

قَالَ: وَأَمَّا مَعْنَى «**فَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ**» فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْبَذْلَ وَالْإِنْفَاقَ، فَمَنْ سَمَحَتْ أَرْيَحِيَّتُهُ فَذَلِكَ، وَإِلَّا فَشَرْعُ النُّذُورِ لِيُسْتَخْرَجَ بِهِ مَالُ الْبَخِيلِ. وَقَالَ الْمَازِرِىُّ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ سَبَبُ النَّهْىِ عَنِ النَّذْرِ كَوْنَ النَّاذِرِ يَصِيرُ

---

(١) سورة الإنسان: الآية: (٧).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (٣٥).

(٣) سورة مريم: الآية: (٢٦).

مُلْتَزِمًا لَهُ، فيَأْتِي بِهِ تكَلُّفًا بِغَيْرِ نَشَاطٍ، قُلْتُ: وَهُوَ مُشَاهَدٌ كَثِيرًا فِيمَنْ يَنْذرُ صِيَامَ الدَّهْرِ. أَوِ الْبِيضَ، أَوْ صَلاَةَ الضُّحَى وَغَيْرَهَا، أَوْ بِأَنْ يَتَصَدَّقَ كُلَّ يَوْمٍ وَنَحْوَهُ قَالَ: وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ سَبَبُهُ كَوْنَهُ يَأْتِي بِالْقُرْبَةِ الَّتِي الْتَزَمَهَا فِي نَذْرِهِ عَلَى صُورَةِ الْمُعَاوَضَةِ لِلأَمْرِ الَّذِي طَلَبَهُ، فَيَنْقُصُ أَجْرَهُ، وَشَأْنُ العِبَادَةِ أَنْ تَكُونَ مُتَمَحِّضَةً لِلَّهِ تَعَالَى اهـ... وَهُوَ تَوْضِيحٌ وَبَيَانٌ لِمَا فِي كَلَامِ الْقَاضِي مِمَّا مَضَى... وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ: وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ لِكَوْنِهِ قَدْ يَظُنُّ بَعْضُ الْجَهَلَةِ أَنَّ النَّذْرَ قَدْ يَرُدُّ الْقَدَرَ، وَيَمْنَعُ مِنْ حُصُولِ الْمُقَدَّرِ، فَنَهَى عَنْهُ خَوْفًا مِنْ جَاهِلٍ يَعْتَقِدُ ذَلِكَ اهـ. وَحَاصِلُهُ أَنَّ النَّهْيَ عَنِ النَّذْرِ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِذَاتِهِ، وَإِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الِاعْتِقَادِ الْفَاسِدِ كَمَا سَبَقَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ[1].

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح.



(٧٢) هل أول خلق الله (القلم)؟

۞ عَنْ أَبِى حَفْصَةَ، قَالَ: قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ لِابْنِهِ: يَا بُنَىَّ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ... سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**».

يَا بُنَىَّ إِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّى**»[١].

۞ وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عن النبى ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَوَّلَ شَىءٍ خلقه اللهُ تَعَالَى الْقَلَمَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ كُلَّ شَىْءٍ يَكُونُ**»[٢].

۞ وَعن عَبْدُ الوَاحِدِ بْنُ سُلَيْمٍ، قَالَ: قَدِمْتُ مَكَّةَ فَلَقِيتُ عَطَاءَ بْنَ أَبِى رَبَاحٍ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، إِنَّ أَهْلَ البَصْرَةِ يَقُولُونَ فِى القَدَرِ، قَالَ: يَا بُنَىَّ، أَتَقْرَأُ القُرْآنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَاقْرَأِ الزُّخْرُفَ، قَالَ: فَقَرَأْتُ: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[٣] فَقَالَ: أَتَدْرِى مَا أُمُّ الكِتَابِ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ كِتَابٌ كَتَبَهُ اللهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَقَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الأَرْضَ، فِيهِ إِنَّ فِرْعَوْنَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَفِيهِ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، قَالَ عَطَاءٌ: فَلَقِيتُ الوَلِيدَ بْنَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ: مَا كَانَتْ وَصِيَّةُ أَبِيكَ عِنْدَ الْمَوْتِ؟ قَالَ: دَعَانِى أَبِى فَقَالَ لِى: يَا بُنَىَّ، اتَّقِ اللهَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى الطحاوية (٢٣٢) // (٢٧١) //، المشكاة (٩٤)، وظلال الجنة (١٠٢ - ١٠٧).

(٢) صحيح: رواه ابن أبى عاصم، وأبو يعلى، وصححه الألبانى فى الصحيحة (١٣٣).

(٣) سورة الزخرف: الآيات: (١-٤).

تَتَّقِىَ اللهَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِاللهِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، فَإِنْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ، إِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ**»(١).

۞ **قال الشيخ ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللهُ:

قوله فى حديث عبادة: «**أنه قال لابنه: يا بنى!...**»: أفاد حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه ينبغى للأب أن يُسدى النصائح لأبنائه ولأهله وأن يختار العبارات الرقيقة التى تُلين القلب، حيث قال: «**يا بنى!**»، وفى هذا التعبير من اللطافة وجذب القلب ما هو ظاهر.

۞ قوله: «**لن تجد طعم الإيمان**»: هذا يفيد أن للإيمان طعمًا كما جاءت به السُّنة، وطعم الإيمان ليس كطعم الأشياء المحسوسة؛ فطعم الأشياء المحسوسة إذا أتى بعدها طعامٌ آخر أزالها، لكن طعم الإيمان يبقى مدة طويلة، حتى إن الإنسان أحيانًا يفعل عبادة فى صفاء وحضور قلب وخشوع لله عَزَّ وَجَلَّ فتجده يتطعم بتلك العبادة مدة طويلة...فالإيمان له حلاوة وله طعم لا يُدركه إلا مَن أسبغ الله عليه نعمته بهذه الحلاوة وهذا الطعم.

۞ قوله: «**حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك**»: قد تقول: ما أصابنى لم يكن ليخطئنى، هذا تحصيل حاصل؛ لأن الذى أصاب الإنسان أصابه، فلا بد أن نعرف معنى هذه العبارة... فتُحمل هذه العبارة على أحد معنيين أو عليهما جميعًا:

الأول: أن المعنى «**ما أصابك**»؛ أى: ما قدر الله أن يصيبك، فعبَّر عن التقدير بالإصابة؛ لأن ما قدر الله سوف يقع...فما قدر الله أن يصيبك لم يكن ليخطئك مهما عملت من أسباب.

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١٧).

الثاني: ما أصابك؛ فلا تفكر أن يكود مخطئًا لك، فلا تَقُل: لو أنني فعلت كذا ما حصل كذا؛ لأن الذى أصابك الآن لا يمكن أن يخطئك؛ فكل التقديرات التى تقدرها وتقول: لو أنى فعلت كذا ما حصل كذا هى تقديرات يائسة، لا تؤثر شيئًا...وأيًا كان؛ فالمعنى صحيح على الوجهين، فما قدره الله أن يصيب العبد فلا بُد أن يصيبه ولا يمكن أن يخطئه، وما وقع مصيبًا للإنسان؛ فإنه لن يمنعه شيء، فإذا آمنت هذا الإيمان ذُقت طعم الإيمان؛ لأنك تطمئن وتعلم أن الأمر لا بد أن يقع على ما وقع عليه، ولا يمكن أن يتغير أبدًا.

مثال ذلك: رجل خرج بأولاده للنزهة، فذهب بعض الأولاد إلى بِركة عميقة، فسقط، فغرق، فمات، فلا يقول: لو أننى ما خرجت لما مات الولد، بل لا بد أن تجرى الأمور على ما جرت عليه، ولا يمكن أن تتغير؛ فما أصابك لم يكن ليخطئك، فحينئذ يطمئن الإنسان ويرضى، ويعرف أنه لا مفر، وأن كل التقديرات والتخيلات التى تقع فى ذهنه كلها من الشيطان.

فلا تقل: لو أنى فعلت كذا لكان كذا، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان، وحينئذ يَرضَى ويُسلم... وقد أشار الله إلى هذا المعنى فى قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1].

فأنت إذا علمت هذا العلم وتيقنته بقلبك؛ ذُقت حلاوة الإيمان، واطمأننت، واستقر قلبك، وعرفت أن الأمر جارٍ على ما هو عليه لا يمكن أن يتغير.

۞ وقوله: «**وما أخطأك لم يكن ليصيبك**»:

نقول فيه مثل الأول؛ يعنى: ما قُدر أن يخطئك فلن يصيبك.

---

(١) سورة الحديد: الآيتان: (٢٢، ٢٣).

ثم استدل لما يقول بقوله: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: **إن أول ما خلق الله القلم...**».

۞ قوله: «**فقال له: اكتب**».

القائل هو الله عَزَّوَجَلَّ يخاطب القلم، والقلم جماد، لكن كل جماد أمام الله مدرك وعاقل ومريد...والدليل على هذا قوله تعالى فى سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أى: لا بد أن تنقادا لأمر الله طوعًا أو كرهًا؛ فكان الجواب: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[1] فقد خاطب الله السماوات والأرض وأجابتا... ودَلَّ قوله: ﴿طَائِعِينَ﴾ على أن لها إرادة وأنها تطيع؛ فكل شىء أمام الله؛ فهو مُدرك مريد ويجيب ويمتثل.

۞ قوله: «**قال: ربِّ وماذا أكتب؟**».

أى: ما الذى أكتب؟

وفى هذا دليل على أن الأمر المجمل لا حرج على المأمور فى طلب استبانته، وعلى هذا؛ فإننا نقول: إذا كان الأمر مُجمَلًا؛ فإن طلب استبانته لا يكون معصية... فالقلم لا شك أنه ممتثل لأمر الله -سبحانه وتعالى-، ومع ذلك قال: «**رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة**»، فكتب المقادير.

فإن قيل: هل القلم يعلم الغيب؟

فالجواب: لا، لكن الله أمره، ولا بد أن يمتثل لأمر الله، فكتب هذا القلم الذى يُعتبر جمادًا بالنسبة لمفهومنا، كتب كل شىء أمره الله أن يكتبه؛ لأن الله إذا

(١) سورة فصلت: الآيات: (٩-١١).

أراد شيئًا قال له: كن؛ فيكون على حسب مراد الله.

و«كل»: من صيغ العموم؛ فتَعُم كل شىء مما يتعلق بفعل الله أو بفعل المخلوقين.

۞ وقوله: «**حتى تقوم الساعة**».

الساعة هى القيامة، وأُطلق عليها لفظ الساعة؛ لأن كل شىء عظيم من الدواهى له ساعة؛ يعنى: الساعة المعهودة التى تذهل الناس وتحيق بهم وتغشاهم حين تقوم، وذلك عند النفخ فى الصور.

۞ قوله: «يا بُنى! سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن مات على غير هذا**».

أى: الإيمان بأن الله كتب مقادير كل شىء.

۞ قوله: «**فليس منى**».

أى: تبرأ منه الرسول ﷺ[١].

۞ فى هذه الأحاديث إشارة إلى رَدِّ ما يتناقله الناس، حتى صار ذلك عقيدة راسخة فى قلوب كثير منهم وهو أن النور المحمدى أول ما خلق الله تبارك وتعالى، وليس لذلك أساس من الصحة[٢].

۞ سؤال: ما الراجح فى الأولية: خَلْقُ العرش أم القلم؟

الجواب: بعض أهل العلم يقول: إن القلم هو الأول؛ لحديث: (أول ما خلق الله القلم).

ومنهم مَن يقول: إن العرش أول مخلوق، وإن قوله: «**إن أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب**» معناه أنه أول ما خلقه قال له: اكتب، أى فلم تبقَ فترة بين خلقه وأمره بالكتابة.

---

(١) القول المفيد (٢/ ٢٩٨-٣٠٢) بتصرف.

(٢) السلسلة الصحيحة (١/ ٢٥٧-٢٥٨).

وقد ذكر الإمام ابن القيم الخلاف فى النونية، ورجَّح أن العرش متقدم، قال:

والناس مختلفون فى القلم الذى كتب القضاء به من الديان

هل كان قبل العرش أو هو بعده قولان لأهل العلم مشهوران

والحق أن العرش قبل لأنه قبل الكتابة كان ذا أركان

۞ والكتابة كتابتان: كتابة لا تتبدل ولا تتغير، وهى المكتوبة فى اللوح المحفوظ عند الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يلحقها محو ولا إثبات، وأما الذى يَحدُث فيه التغيير والتبديل فهو الكتاب الذى مع الملائكة، ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾(١).

فقوله: «**يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ**» هذا فى الكتب التى مع الملائكة، وأما أم الكتاب فليس فيها محو ولا إثبات، ولا يلحقها المحو والإثبات.

قال ﷺ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**»(٢).

فقد كتب الله عَزَّوَجَلَّ مقادير كل شىء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء، فى الوقت الذى لم تكن السماوات والأرض قد وُجدت، بل بينهما خمسين ألف سنة.

فيجب أن يكون الإنسان على إيمانٍ ويقين بأن كل ما يصيبه من خير أو شر فأمرٌ قد قُضى وانتهى؛ فقد رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف، ولم يبقَ إلا ما كتبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ... فليجتهد العبد فى الطاعة وفى فعل الخير، وفى دعاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعله عنده من أصحاب اليمين، ومن المقربين، ومن المتقين، ومن المُيسَّرين لليسرى.

---

(١) سورة الرعد: الآية: (٣٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٣) كتاب القدر.



(٧٣) استشهاد عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه

۞ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، أَنَّهُ قَالَ: لَقِيَنِى رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لِى: «يَا جَابِرُ مَا لِى أَرَاكَ مُنْكَسِرًا»؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ اسْتُشْهِدَ أَبِى، وَتَرَكَ عِيَالًا وَدَيْنًا، قَالَ: «أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِىَ اللهُ بِهِ أَبَاكَ»؟ قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا[١]. فَقَالَ: يَا عَبْدِى تَمَنَّ عَلَىَّ أُعطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ تُحيِينِى فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً. قَالَ الرَّبُّ عز وجل: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّى أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ قَالَ: يَا رَبِّ، فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِى»، فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٢][٣].

۞ لقد كان عبد الله بن عمرو بن حرام هو والد جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وكان سيِّدًا فى قومه وشريفًا من أشرافهم وإن لم يكن ذا ثروة ... وكان مُشركًا ففتح الله قلبه للإسلام، وكان من الذين بايعوا النبى ﷺ بيعة العقبة الثانية.. بل وكان أحد النقباء الاثنى عشر الذين تم اختيارهم ليكونوا نُقباء على قومهم بما كان فى تلك البيعة مع النبى ﷺ.

وكان من أهل يثرب (المدينة المنورة).. فلما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة كان مُلازمًا له لينهل من علمه وهديه وأخلاقه.

ولما كانت غزوة بدر كان من المُجاهدين الأبطال فى تلك الغزوة ... ولما كان يوم أُحد شعر عبد الله بأنه سيكون من أوائل الشهداء فى تلك الغزوة.

فعن جابر رضي الله عنه قال: «لما حَضر (أُحدٌ) دعانى أبى من الليل فقال: ما أُرانى إلا

---

(١) كفاحًا: أى مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول.. وهذا بعد موته أما قبله فلا.

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٦٩).

(٣) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٠٥).

مقتولًا فى أول مَن يُقتل من أصحاب النبى ﷺ، وإنى لا أتركُ بعدى أعزَّ علىَّ منك غير نفس رسول الله ﷺ، وإن علىَّ دينًا فاقضِ واستوصِ بأخواتك خيرًا... فأصبحنا فكان أول قتيل، ودُفن معه آخرُ فى قبرٍ ثم لم تَطِب نفسى أن أتركه مع الآخر فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيومٍ وضعتُه هُنَيَّة غير أُذنه»[1].

وفى رواية: أن جابرًا رضي الله عنه قال: فقلت: يا رسول الله، إنَّ أبى ترك دَينًا عليه... وليس عندى ما أُوفيه به إلا ما يُخرجه ثمرُ نخيله، ولو عمدت إلى وفاء دَينه من ذلك الثمر لما أديته فى سنين...

ولا مال لأخواتى عليهنَّ أنفق منه غير هذا.

فقام رسول الله ﷺ ومضى معى إلى بَيدر[2] تمرنا وقال لى: **«أُدعُ غرماء[3] أبيك»**، فدعوتهم. فما زال يكيل لهم منه حتى أدى الله عن أبى دَيْنه كله من تمر تلك السنة. ثم إنى نظرت إلى البيدر فوجدته كما هو... كأنه لم تنقص منه تمرةٌ واحدةٌ[4]...

الملائكة تُظله بأجنحتها

وها هى ملائكة الرحمن- جل وعلا- تتفاعل مع هذا الصحابى الجليل وتتنزل بأمر الملك- جل وعلا- لتظله بأجنحتها بعد موته.

فعن جابر بن عبد الله قال: لما كان يوم أُحد، جىء بأبى مُسجًّى- مُغطًّى- وقد مُثِّل به، قال: فأردت أن أرفع الثوب، فنهانى قومى، ثم أردت أن أرفع الثوب، فنهانى قومى، فرفعه رسول الله ﷺ، أو أمر به فُرفع .. فسمع صوت باكية أو

(١) صحيح: أخرجه البخارى (١٣٥١) كتاب الجنائز.
(٢) البيدر: الموضع الذى يُكوم ويُجمع فيه التمر.
(٣) غُرماء: مفرده غريم: الدائن.
(٤) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ١٠٧) وأحمد (٣/ ٣٦٥) وأصلها فى البخارى.

صائحة. فقال: «مَن هذه؟» فقالوا: بنت عمرو، أو أخت عمرو. فقال: «**وَلِمَ تبكى؟ فما زالت الملائكة تُظله بأجنحتها حتى رفُع**»(١)

قال الإمام النووى: قولهﷺ: «**فما زالت الملائكة تُظله بأجنحتها حتى رفُع**» قال القاضى: يحتمل أن ذلك لتزاحُمهم عليه لبشارته بفضل الله، ورضاه عنه، وما أعدَّ له من الكرامة عليه ... ازدحموا عليه إكرامًا له، وفرحًا به، أو أظلوه من حر الشمس لئلا يتغير ريحه أو جسمه ... قوله: فقال رسول اللهﷺ: «**وَلِمَ تبكى؟ فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رُفِعَ**» معناه: سواء بكت عليه أم لا فما زالت الملائكة تظله أى: فقد حصل له من الكرامة هذا وغيره فلا ينبغى البكاء على مثل هذا.. وفى هذا تسلية لها.(٢)

۞ ولقد علمنا أن عبد الله لما استُشهد ترك لابنه جابر تسعًا من البنات وهنَّ أخواته ليرعاهنَّ ويقوم على شئونهنَّ.. وكان جابر لم يبلغ الخامسة عشر من عمره، فأحسَّ بالحمل الثقيل والهمّ الكبير.. فأراد النبىﷺ أن يُواسيه وأن يُفرح قلبه فأخبره أن الملائكة أظلت والده بأجنحتها حتى رفعته إلى السماء وأن الله عَزَّوَجَلَّ كلَّمه بغير حجاب، وقال له: «**عَبْدِى تَمَنَّ عَلَىَّ أُعْطِكَ**».. فما طلب عبد الله شيئًا من حُطام الدنيا الزائل وإنما تمنَّى أن يرده الله عَزَّوَجَلَّ إلى الدنيا مرة أخرى ليُجاهد فى سبيله وينال الشهادة مرة أخرى.

فأخبره الحق (جلَّ وعلا) أنه قد سبق منه أن الذى يموت لا يرجع إلى الدنيا مرة أخرى... فما كان من عبد الله إلا أن طلب من الحق (جلَّ وعلا) أن يُبلغ أصحاب الرسولﷺ والأُمّة من بعدهم بما يكون من فضل الشهادة ومكانة الشهداء حتى لا ينكلوا عن الجهاد فى سبيل الله فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآية: ﴿ وَلَا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٧١) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٣٧- ٣٩) بتصرف.

تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾.

فاللهُمَّ ارزقنا شهادة فى سبيلك يا أرحم الراحمين.

(٧٤) باب التوبة والرحمة

۞ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا الصَّفَا ذَهَبًا، وَنُؤْمِنُ بِكَ، قَالَ: «وَتَفْعَلُونَ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَدَعَا، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: «**إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلامَ، وَيَقُولُ: إِنْ شِئْتَ أَصبَحَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَذَّبْتُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحمَةِ**»، قَالَ: «**بَلْ بَابُ التَّوْبَةِ وَالرَّحمَةِ**»[1].

۞ لقد كان النبى ﷺ حريصًا كل الحرص على أن يُؤمن كل الناس بالله عَزَّوَجَلَّ.. وكان يبذل حياته كلها من أجل تعبيد الكون لله عَزَّوَجَلَّ... وكان يدعو المشركين بالرحمة والموعظة الحسنة وكان يصبر على أذاهم ولا ينتقم لنفسه أبدًا.. ومع ذلك كانوا يتعنتون ويطلبون أشياء عجيبة مع أن النبى ﷺ كان لا يريد مالًا ولا جاهًا ولا أى شىءٍ من حُطام الدنيا وإنما كان يخشى عليهم من النار ويُريد أن يأخذ بأيديهم إلى الجنة.

۞ وفى يوم من الأيام قالت قريشٌ للنبى ﷺ: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا جبل الصَّفَا ذَهَبًا، وَنُؤْمِنُ بِكَ... فهم يعلمون أن دعاء النبى ﷺ مُستجاب وفوق ذلك فقد طلبوا شيئًا يفوق الخيال ظنًّا منهم أن النبى ﷺ سيعجز عن أن يطلب ذلك من ربه عَزَّوَجَلَّ. ولكن النبى ﷺ فاجأهم بقوله: «**وَتَفْعَلُونَ؟**»..أى: إن دعوت ربى وجعل لكم جبل الصفا ذهبًا أتؤمنون معى؟..«**قَالُوا: نَعَمْ**» وهم لن يؤمنوا ولكنهم يطلبون المستحيل من وجهة نظرهم حتى إذا عجز النبى ﷺ عن ذلك يقولون له: قد أردنا الإيمان ولكنك لم تُحقق ما اشترطناه عليك.

فقام النبى ﷺ يدعو.. فأتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: «**إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلامَ،**

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١/ ٢٤٢) بإسنادٍ صحيح.

وَيَقُولُ: إِنْ شِئْتَ أَصْبَحَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَذَّبْتُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحمَةِ»، قَالَ: «بَلْ بَابُ التَّوْبَةِ وَالرَّحمَةِ».

فخشى النبى ﷺ أن يروا تلك الآية ولا يؤمنوا فينزل عليهم عذاب الله عَزَّوَجَلَّ... ولعلَّه تذكَّر أخاه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما طلب منه الحواريون أن يسأل الله أن يُنزل عليهم مائدة من السماء ...فخاف عيسى عليهم من نزول العذاب إذا لم يؤمنوا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾[1].

۞ ولذا فقد اختار لهم النبى ﷺ أن يفتح الله عَزَّوَجَلَّ لهم باب التوبة والرحمة من أجل أن يتوبوا فى الدنيا فيقبل الله توبتهم ويغفر لهم ويرحمهم فى الدنيا والآخرة.

۞ فما أرحم النبى ﷺ بهؤلاء الذين دعاهم إلى الله وإلى جنته فآذوه أشد الإيذاء وآذوا أصحابه وحاربوا دعوته ومع ذلك ظلَّ رحيمًا بهم حتى آخر لحظة فى حياته ﷺ.

۞ لقد كان النبى ﷺ فى فقره أصبر خلق الله وأشكرهم وكذلك فى غناه

---

(١) سورة المائدة: الآيات: (١١١-١١٥).

والله تعالى جعله قدوة للأغنياء والفقراء، وأي غِنًى أعظم من غِنَى مَن عُرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض، وعُرض عليه أن يجعل الله له الصفا ذهبًا، وخُيِّر بين أن يكون ملكًا نبيًّا وبين أن يكون عبدًا نبيًّا، فاختار أن يكون عبدًا نبيًّا ومع هذا فَجُبيت إليه أموال جزيرة العرب واليمن، فأنفقها كلها ولم يستأثر منها بشيء، بل تَحمَّل عيال المسلمين ودَينهم.

فقال: «**مَن ترك مالًا فلورثته ومن ترك دَينًا فإليَّ وعليَّ**»، فرفع الله سبحانه قدره ونَزَّهه من أن يكون من جملة الفقراء الذين تحل لهم الصدقه، كما نَزَّهه أن يكون من جملة الأغنياء الذين أغناهم بالأموال الموروثة، بل أغناه به عن سواه وأغنى قلبه كل الغِنى، ووسع عليه غاية السعة ... فأنفق غاية الانفاق، وأعطى أجلَّ العطايا، وما استأثر بالمال ولا اتخذ منه عقارًا ولا أرضًا ولا ترك شاةً ولا بعيرًا ولا عبدًا ولا أمةً ولا دينارًا ولا درهمًا.

۞ ولقد أخبر تعالى عن تلك الأمم أنهم قالوا لرسلهم: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، يريدون المعجزات المقترحة، ويقترحون أن يجعل النبي ﷺ الصفا ذهبًا، ويقترحون أنواعًا من المعجزات على قدر عقولهم السخيفة، مع أن البينات قد أتت، والرسل قد وضَّحت... ولو أتى الرسل بآلاف المعجزات فإنهم لن يؤمنوا، فقد أتت الناقة لقوم صالح فهل آمنوا؟ وقد رأى الناس معجزات موسى وعيسى عليهما السلام، ورأى فرعون بعينه السحرة يُسْلِموا؛ مما شاهدوه من معجزة العصا، فهل آمن؟

ورأى الآيات تلو الآيات...كما قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾[1] ، ورأى البحر ينشقّ أمام عينيه بضربة من عصا موسى عليه السلام ، فهل آمن؟

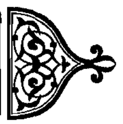
---

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٣٣).

إنهم لا يؤمنون مع وجود السلطان المبين الذى يزعمون أنه إن حصل قَبِلوا وآمنوا، فهؤلاء لا يؤمنون أبدًا، وهذا مرضٌ فى القلوب.

ولذا فقد قال تعالى عن هذا الصنف من الناس ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾[1].

(١) سورة الكهف: الآية: (٥٧).




(٧٥) كلمة ابتدرها اثنا عشر ملكًا

۞ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ .. وَالنَّبِيُّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ الصَّلَاةَ قَالَ: «**أَيُّكُمُ الْقَائِلُ كَلِمَةَ كَذَا وَكَذَا؟**» قَالَ: فَأَرَمَّ الْقَوْمُ[1]، قَالَ: فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا قُلْتُهَا، وَمَا أَرَدْتُ بِهَا إِلَّا الْخَيْرَ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَقَدِ ابْتَدَرَهَا اثْنَا عَشَرَ مَلَكًا، فَمَا دَرَوْا كَيْفَ يَكْتُبُونَهَا حَتَّى سَأَلُوا رَبَّهُمْ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ: اكْتُبُوهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي**»[2].

۞ ما أجمل أن يكون مُعلمك وأستاذك هو الحبيب المصطفى ﷺ.. ولذا أقول: هنيئًا لأصحاب الرسول ﷺ الذين عاشوا وتعايشوا معه بقلوبهم وأرواحهم وتعلموا بين يديه واقتبسوا من هديه وسمته وأخلاقه ﷺ.

۞ وفى هذا الحديث يذكر أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خادم النبى ﷺ الذى ظلَّ يخدمه ويُرافقه عشر سنين.. أنه جاء رجلٌ ليُصلِّى مع النبى ﷺ وأصحابه صلاة الفريضة فى المسجد.. ولكنه جاء متأخرًا بعض الشىء فدخل فى الصلاة وأدركها كاملة.. فلما ركع النبى ﷺ وقام من ركوعه وقال: «**سَمِعَ اللهُ لمن حمدَه**» قال هذا الرجل الذى لم يُذكر اسمه فى الحديث: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ**».. لقد قال الرجل تلك الكلمات مع أنه لم يسمعها قبل ذلك من النبى ﷺ.

فلما انتهى النبى ﷺ وأصحابه من الصلاة استدار النبى ﷺ ونظر إلى أصحابه وقال لهم: «**أَيُّكُمُ الْقَائِلُ كَلِمَةَ كَذَا وَكَذَا؟**» وانتظر النبى ﷺ الإجابة.. «**فَأَرَمَّ الْقَوْمُ**» أى سكتوا ولم يُجب منهم أحد.. فما كان من النبى ﷺ إلا أن أعاد السؤال ثلاث مرات... وكان الرجل الذى قال تلك الكلمات يخشى أن يكون

---

(١) أرمَّ القوم: أى سكتوا فلم يُجب منهم أحد.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ١٩١) بإسنادٍ صحيح.

قد قال كلمة تُغضب الله ورسوله ﷺ ولذلك لم يرد حتى أعاد النبي ﷺ السؤال ثلاث مرات، فقال الرجل: «**أَنَا قُلْتُهَا، وَمَا أَرَدْتُ بِهَا إِلَّا الْخَيْرَ**» أي: أنا ما قصدت أن أبتدع كلامًا لم أسمعه منك يا رسول الله، وإنما جرى هذا الكلام على لساني وما أردت به إلا الخير... وكل ذلك والرجل يخشى أن يُفاجئه النبي ﷺ بأنه قد أخطأ فيما قاله.

ولكن النبي ﷺ قال له: «**لَقَدِ ابْتَدَرَهَا اثْنَا عَشَرَ مَلَكًا، فَمَا دَرَوْا كَيْفَ يَكْتُبُونَهَا حَتَّى سَأَلُوا رَبَّهُمْ عَزَّ وَجَلَّ**».

أي: لقد تسابق اثنا عشر ملكًا حتى صعدوا بها إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ليخبرهم كيف يكتبون ثوابها؛ لأنهم لا يعلمون مقدار ثواب تلك الكلمات العظيمة... فما كان من الحق (جل وعلا) إلا أن قال لهم: «**اكْتُبُوهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي**» أي: لن تعرفوا قدر الثواب المترتب على تلك الكلمات فاكتبوا تلك الكلمات كما هي حتى يأتيني يوم القيامة فأجزيه بها فإنه لا يعرف قدرها وثوابها إلا أنا.

فما أعظم الله عَزَّ وَجَلَّ وما أرحمه بعباده حيث أجزل لهم العطاء على كل ما يصدر منهم من أفعالٍ وأقوالٍ.



(٧٦) الصلوات الخمس.. وعهدٌ بدخول الجنة

۞ عن عبادة بن الصامت رَضِوَاللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتانِي جِبْرِيلُ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالى فقال: يا محمد! إن الله عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: إِنِّي قَدْ فَرَضْتُ على أُمَّتِكَ خَمْسَ صَلَواتٍ فَمَنْ وافى بِهِنَّ على وُضُوئِهِنَّ ومَواقِيتِهِنَّ ورُكُوعِهِنَّ وَسُجُودِهِنَّ كانَ لَهُ عِنْدِي بِهِنَّ عَهْدٌ أَنْ أُدْخِلَهُ بِهِنَّ الجَنَّةَ ومَنْ لَقِيَنِي قد انْتَقَصَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلَيْسَ لَهُ عِنْدِي عَهْدٌ .. إِنْ شِئْتُ عَذَّبْتُهُ وإِنْ شِئْتُ رَحِمْتُهُ»(١).

۞ إن الصلاة هى أعظم الأركان بعد الشهادتين وهى أم العبادات وميزان تعظيم الدين فى قلب المؤمن... فهى التى أمر الله بها وهى الوصية الأخيرة لرسول الله ﷺ وهى ملجأ المؤمن فى الكربات وهى التى يرفع الله بها الدرجات ويغفر بها الخطيئات وينجو بها العبد من عذاب رب الأرض والسماوات وهى أمنية المُعذَّبين والأموات وهى العاصمة من الشهوات والناهية عن المنكرات وهى الحادى للنعيم المقيم فى الجنات.

لقد بلغت الصلاة مبلغًا عظيمًا وقدرًا عاليًا فى قلب النبى ﷺ حتى كانت أغلى من نسيم الهواء الذى يتنفسه الإنسان.

وحسبُنا أن نتأمل قول النبى ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْياكُمُ النِّساءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ»(٢).

وقد كان النبى ﷺ يفزع إلى الصلاة.... ففزع إليها ليلة الأحزاب.

قال حذيفة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: «رجعت إلى النبى ﷺ ليلة الأحزاب، وهو مشتمل فى

---

(١) صحيح: رواه الطيالسى، ومحمد بن نصر فى (كتاب الصلاة)، والضياء فى (المختارة)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٧).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والنسائى، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٣١٢٤).

شَملة يصلى، وكان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمرٌ صلَّى»[١].

وفزع إليها يوم بدر:... عن (عليٍّ) رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلى ويدعو حتى أصبح.

۞ وكان يفزع إليها كذلك عند تجدُّد النعم.

فمن ذلك أن الله عز وجل لما أنعم على نبيه ﷺ بفتح مكة اغتسل وصلى ثمانى ركعات شكرًا لله عز وجل.

وكان ﷺ يحب الصلاة حُبًّا جمًّا لدرجة أنه كان يقول لبلال: «**يَا بِلالُ! أَقِمِ الصَّلاَةَ أَرِحنَا بِهَا**»[٢].

بل إنه ﷺ فى مرض الموت وفى آخر لحظات حياته كان يُغشى عليه ثم يفيق ويقول: «**أصلَّى الناس؟**» فيقولون له: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، ويُغشى عليه ثم يفيق ولا يسأل إلا نفس السؤال: «**أصلَّى الناس؟**»[٣].

۞ وكان أصحاب النبى ﷺ ومَن تبعهم بإحسان يحبون الصلاة، ويشتاقون إليها... فلقد استولت على قلوبهم واستغرقت نفوسهم.

إن الصلاة شأنها عظيم عند الله (جل وعلا) ولذلك فقد تميزت على ما عداها من الفرائض بخصائص لا تُعَدُّ ولا تُحصى.

وحسبُنا أنها العبادة الوحيدة التى منحها الله لنبيه محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج بلا واسطة من فوق سبع سماوات لعُلو قدرها ومكانتها عند الله (جل وعلا) فهى الفريضة الوحيدة التى فُرضت فى السماء.

۞ ومن أجل ذلك فإنه يجب على كل مسلم أن يحافظ على الصلاة وأن

---

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، وحسنه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٤٧٠٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٧٨٩٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٧) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٨) كتاب الصلاة.

يعرف قدرها وأن يعرف ما هى الآداب التى ينبغى أن يتحلى بها كل مسلم فى صلاته.

۞ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾(١) الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر... إذا كنت قد هممت بذنب أو كان قلبك يميل إلى المعاصى فإنك إذا صليت انمحى ذلك كله لكن بشرط أن تكون الصلاة التى تُراد منك والتى تريدها أنت لله عَزَّوَجَلَّ صلاة على أكمل ما يكون... ولهذا يجب علينا أن نعتنى بصلاتنا ونكملها بقدر المستطاع بجميع أركانها وشروطها وواجباتها ومكملاتها فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

۞ وفى هذا الحديث الذى بين أيدينا يخبر الحق (جل وعلا) أنه افترض على أمة النبى محمد ﷺ خمس صلوات... فمن أقامها وأتم الوضوء وصلَّاها فى وقتها وخشع فيها وأتمَّ الركوع والسجود وأتى بشروطها وأركانها كاملة كان له عهدٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ بدخول الجنة... ومَن انتقص من ذلك شيئًا فليس له عهدٌ عند الله بدخول الجنة لكنه فى مشيئة الله... فإن شاء رَحِمَه وإن شاء عذَّبه **«ورحمته سبقت غضبه» «ورحمته غلبت غضبه»**.

ألا.. فلنحرص جميعًا على تلك الصلوات الخمس ولنجعلها قُرة أعيننا كما كانت قرة عين النبى ﷺ.

---

(١) سورة العنكبوت: الآية: (٤٥).



(٧٧) أصحاب الجنة.. وأصحاب النار

۞ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قَتَادَةَ السُّلَمِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي**» قَالَ: فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ فَعَلَى مَاذَا نَعْمَلُ؟ قَالَ: «**عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدَرِ**»[١].

۞ قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إن كثيرًا من الناس يتوهمون أن هذه الأحاديث - ونحوها أحاديث كثيرة - تفيد أن الإنسان مجبور على أعماله الاختيارية، ما دام أنه حُكم عليه منذ القديم وقبل أن يُخلق بالجنة أو النار، وقد يتوهم آخرون أن الأمر فوضى أو حظ فمن وقع فى القبضة اليُمنى كان من أهل السعادة، ومن كان من القبضة الأخرى كان من أهل الشقاوة، فيجب أن يعلم هؤلاء جميعا أن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[٢] لا فى ذاته ولا فى صفاته، فإذا قبض قبضة فهى بعلمه وعدله وحكمته..فهو تعالى قبض باليمنى على مَن عَلِم أنه سيطيعه حين يُؤمَر بطاعته، وقبض بالأخرى على مَن سبق فى علمه تعالى أنه سيعصيه حين يُؤمَر بطاعته، ويستحيل على عدل الله تعالى أن يقبض باليمنى على مَن هو مُستحقٌّ أن يكون من أهل القبضة الأخرى، والعكس بالعكس...كيف والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٣].

ثم إن كلًّا من القبضتين ليس فيها إجبارٌ لأصحابهما أن يكونوا من أهل

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٥٨).

(٢) سورة الشورى: الآية: (١١).

(٣) سورة القلم: الآيتان: (٣٥، ٣٦).

الجنة أو من أهل النار، بل هو حكم من الله تبارك وتعالى عليهم بما سيصدر منهم من إيمان يستلزم الجنة، أو كفر يقتضى النار والعياذ بالله تعالى منها، وكل من الإيمان أو الكفر أمران اختياريان، لا يُكره الله تبارك وتعالى أحدًا من خلقه على واحدٍ منهما ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1]، وهذا مُشاهَد معلوم بالضرورة، ولولا ذلك لكان الثواب والعقاب عبثًا، والله مُنزَّه عن ذلك.

ومن المؤسف حقًّا أن نسمع من كثير من الناس حتى من بعض المشايخ التصريح بأن الإنسان مجبور لا إرادة له! وبذلك يُلزمون أنفسهم القول بأن الله يجوز له أن يظلم الناس! مع تصريحه تعالى بأنه لا يظلمهم مثقال ذرة، وإعلانه بأنه قادر على الظلم ولكنه نَزَّه نفسه عنه كما فى الحديث القدسى المشهور:

«**يا عِبَادِى إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى...**»[2].

وإذا جُوبهوا بهذه الحقيقة، بادروا إلى الاحتجاج بقوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[3]، مُصرين بذلك على أن الله تعالى قد يظلم ولكنه لا يُسأل عن ذلك! تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

وفاتهم أن الآية حجة عليهم لأن المراد بها - كما حققه العلامة ابن القيم وغيره - أن الله تعالى لحكمته وعدله فى حُكمه ليس لأحدٍ أن يسأله عما يفعل، لأن كل أحكامه تعالى عدل واضح فلا داعى للسؤال[4].

---

(١) سورة الكهف: الآية: (٣٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة.

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٢٣).

(٤) السلسلة الصحيحة (١/ ١١٥-١١٧) بتصرف.

(٧٨) أهل الجنة ثلاثة... وأهل النار خمسة

۞ عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا.. كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً، قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ... قَالَ: وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ.

قَالَ: وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا -وفى رواية: لا يتبعون- ، وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ، وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ وَذَكَرَ الْبُخْلَ أَوِ الْكَذِبَ وَالشِّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ»(١).

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

* نحلته: أى أعطيته.... أى أن كل مالٍ أعطيته لعبدٍ من عبادى فهو حلالٌ له.

* اجتالتهم: أى استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه.

* كتابًا لا يغسله الماء: أى أنه محفوظ فى الصدور لا يتطرق إليه الذهاب بل يبقى على مدى الأزمان.

* أُحرِّق قريشًا: ليس المراد حقيقة التحريق، بل تغييظهم بإسماع الحق.

=

۞ ففى هذا الحديث أن النبى ﷺ خطب يومًا فى أصحابه رضي الله عنهم فقال لهم وللأمة من بعدهم: «أَلَا إِنَّ رَبِّى أَمَرَنِى أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِى يَوْمِى هَذَا» وهكذا جاء النبى ﷺ ليُعلِّم الأمم وليرفع عنهم الجهل وليأخذ بأيديهم إلى الإيمان والتوحيد ويُزكيهم.. قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1]، وكانت تلك دعوة نبى الله إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2].

۞ وهنا يخبر النبى ﷺ أن الله عز وجل قال: «كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ» أى أن كل مالٍ أعطيته لعبدى وكل ما خلقته فى الكون مما ينتفع الناس به فهو حلال.

۞ قال الإمام النووى رحمه الله:

وَفِى الْكَلَامِ حَذْفٌ أَىْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: كُلُّ مَالٍ أَعْطَيْتُهُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِى، فَهُوَ لَهُ حَلَالٌ .. وَالْمُرَادُ إِنْكَارُ مَا حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ السَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْبَحِيرَةِ وَالْحَامِى وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَأَنَّهَا لَمْ تَصِر حَرَامًا بِتَحْرِيمِهِمْ ... وَكُلُّ مَالٍ مَلَكَهُ الْعَبْدُ فَهُوَ لَهُ حَلَالٌ حَتَّى يَتَعَلَّقَ بِهِ حَقٌّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِنِّى خَلَقْتُ عِبَادِى حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ» أَىْ مُسْلِمِينَ، وَقِيلَ: طَاهِرِينَ مِنَ الْمَعَاصِى، وَقِيلَ: مُسْتَقِيمِينَ مُنِيبِينَ لِقَبُولِ الْهِدَايَةِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ حِينَ أَخَذَ

= * يثلغوا رأسي: أى يشدقوه ويشجوه كما يُشدخ الخبز أى يُكسر.

* نُغزك: أى نُعينك.

* لا زَبر له: أى لا عقل له.

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٦٤).

(٢) سورة البقرة: الآية: (١٢٩).

عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ فِي الذَّرِّ، وَقَالَ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالوا: بلى[١].

وهو بمعنى قوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[٢].

۞ قَوْلُهُ تَعَالَى: «**وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**».

«**فَاجْتَالَتْهُمْ**» بِالْجِيمِ عَنْ رِوَايَةِ الْأَكْثَرِينَ، وعن رواية الحافظ أبى على الغسانى «**فاختالتهم**» قَالَ: وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ وَأَوْضَحُ أَيْ اسْتَخَفُّوهُمْ فَذَهَبُوا بِهِمْ وَأَزَالُوهُمْ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ وَجَالُوا مَعَهُمْ فِي الْبَاطِلِ... كَذَا فَسَّرَهُ الْهَرَوِيُّ وَآخَرُونَ. وَقَالَ شَمِرُ: اجْتَالَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ ذَهَبَ بِهِ وَاجْتَالَ أَمْوَالَهُمْ: سَاقَهَا وَذَهَبَ بِهَا. قَالَ الْقَاضِي: وَمَعْنَى «**فَاخْتَالُوهُمْ**» بِالْخَاءِ عَلَى رِوَايَةِ مَنْ رَوَاهُ أَيْ يَحْبِسُونَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَيَصُدُّونَهُمْ عَنْهُ.

قَوْلُهُ ﷺ: «**وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وعجمهم إلا بقايا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**» الْمَقْتُ: أَشَدُّ الْبُغْضِ، وَالْمُرَادُ بِهَذَا الْمَقْتِ وَالنَّظَرِ مَا قَبْلَ بَعْثَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ... وَالْمُرَادُ بِبَقَايَا أَهْلِ الْكِتَابِ: الْبَاقُونَ عَلَى التَّمَسُّكِ بِدِينِهِمُ الْحَقِّ مِنْ غَيْرِ تَبْدِيلٍ.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «**إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِي بِكَ**» مَعْنَاهُ: لِأَمْتَحِنَكَ بِمَا يَظْهَرُ مِنْكَ مِنْ قِيَامِكَ بِمَا أَمَرْتُكَ بِهِ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْجِهَادِ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ وَالصَّبْرِ فِي اللهِ تَعَالَى وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَأَبْتَلِي بِكَ مَنْ أَرْسَلْتُكَ إِلَيْهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ يُظْهِرُ إِيمَانَهُ وَيُخْلِصُ فِي طَاعَاتِهِ، وَمَنْ يَتَخَلَّفُ وَيَتَأَبَّدُ بِالْعَدَاوَةِ وَالْكُفْرِ، وَمَنْ يُنَافِقُ ... وَالْمُرَادُ أَنْ يَمْتَحِنَهُ لِيَصِيرَ ذَلِكَ وَاقِعًا بَارِزًا فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِنَّمَا يُعَاقِبُ الْعِبَادَ عَلَى مَا وَقَعَ منهم لاعلى مَا يَعْلَمُهُ قَبْلَ وُقُوعِهِ وَإِلَّا فَهُوَ سُبْحَانَهُ

---

(١) شرح مسلم (١٧/ ٢٨٧).

(٢) سورة الروم: الآية: (٣٠).

عَـالِمٌ بِجَمِيـعِ الْأَشْـيَاءِ قَبْـلَ وُقُوعِهَـا .. وَهَـذَا نَحْـوُ قَوْلِـهِ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أَيْ نَعْلَمُهُمْ فَاعِلِينَ ذَلِكَ مُتَّصِفِينَ بِهِ.

۞ قَوْلُهُ تَعَالَى: «**وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تقرأه نائمًا ويقظان**» أما قوله تعالى: «**لا يغسله الماء**» فمعناه محفوظ فى الصدور لايتطرق إِلَيْهِ الذَّهَابُ بَلْ يَبْقَى عَلَى مَرِّ الْأَزْمَانِ. وأما قوله تعالى: «**تقرأه نَائِمًا وَيَقْظَانَ**» فَقَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ يَكُونُ مَحْفُوظًا لك فى حالتى النوم واليقظة، وقيل: تقرأه فِى يُسْرٍ وَسُهُولَةٍ[1].

وقوله: «**تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ**» يحتمل أن يريد أنه ﷺ يُوحَى إليه فى منامه كما يُوحَى إليه فى يقظته، وأنّ ما يراه فى منامه من ذلك حَقٌّ موثوقٌ به كما يُوثَق باليقظة. ويحتمل أنه يقرؤه مضطجعًا كما يقرؤه قائمًا. وسُمِّى المضطجع نائمًا مَجازًا؛ لأن المضطجع يصلى كذلك إذا عجز عن القيام أو لعذر.

۞ قوله ﷺ: «**وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِى أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا**» فليس المراد هنا حقيقة التحريق وذلك لأن الله عَزَّوَجَلَّ حرَّم التحريق إلا إذا كان قِصاصًا.. بمعنى أن مَن حرق يُحرَق... ولكن المقصود هنا هو إغاظتهم بإسماعهم الحق.. كما كان بعض الصحابة يقرأون القرآن أمام كفار قريش.. وقد فعل ذلك ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فضربوه حتى أدموا وجهه من شديد غيظهم وكرههم لسماع كلام الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ قوله ﷺ: «**فَقُلْتُ: رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِى فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً**» أى يشدخوا رأسه ويَشجُّوه كما يُشدخ الخبز.. أى يُكسر.

۞ ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ للنبى ﷺ: «**اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ**».

---

(١) شرح مسلم (١٧/ ٢٨٨-٢٨٩).

والمعنى هنا أن الله عَزَّوَجَلَّ أمر النبى ﷺ أن يفعل ما أمره الله به ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾(١)، ولذا قال له: «اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ» أى إن أردت أن تفعل فلك ذلك.. ولكن النبى ﷺ لما دخل مكة فاتحًا منتصرًا لم يُخرجهم كما أخرجوه بل عاملهم بالفضل وليس بالعدل فقال لهم: «مَا تَرَوْنَ أَنِّى فَاعِلٌ بِكُمْ؟» قالُوا: خَيْرًا.. أَخٌ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ.. فقَالَ لهم ﷺ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ».

۞ وأما قوله تعالى: «وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ» أى نُعينك على غزوهم ونُمدك بمددٍ من السماء... ولذا قال بعدها: «وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ» فكان النبى ﷺ يبذل المال فى تجهيز الجيوش والسرايا.. والله يفتح عليه وعلى أصحابه بالغنائم، ولذا قال النبى ﷺ: «وَجُعِلَ رِزْقِى تَحتَ ظِلِّ رُمْحِى»(٢).. ثم قال تعالى: «وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ». ولقد أرسل الله عَزَّوَجَلَّ الملائكة لتقاتل مع النبى ﷺ وأصحابه فى غزوة بدر، فقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾(٤).

۞ ثم قال تعالى: «وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ» أى: قاتل بأصحابك الذين أطاعوا الله ورسوله ﷺ... قاتل بهم أعداءك الذين عصوا الله ورسوله ﷺ.

---

(١) سورة البقرة: الآية: (١٩٤).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألبانى فى تخريج مشكلة الفقر (٢٤).

(٣) سورة الأنفال: الآية: (٩).

(٤) سورة آل عمران: الآيات: (١٢٣-١٢٦).

❁ ثم قال ﷺ: «**وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ**» وليس معنى ذلك أن هؤلاء فقط هم أهل الجنة بل هناك آخرون من أهل الجنة.. أو أن هؤلاء من السابقين إلى الجنة برحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

❁ لكن... هل يا ترى كل إنسان ضعيف ستكون له هذه المرتبة العالية، أم أنه يُشترط أن يكون إنسانًا تقيًّا، يأتي بالفرائض، ويجتنب ما حرم الله سبحانه؟ لا بد أن يكون على هذا من الإيمان والتقوى والعمل الصالح.

❁ فالشاهد أن أهل الجنة ثلاثة: «**ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ**» إنسان ذو سلطان، ولكنه على عدالة، مُقسط يعطي الحقوق، ويأمر بما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به، وينهى عما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه، ولا يفرق بين الناس... وهذا من توفيق الله له أنه يُلهمه الصواب ويوفقه للحكم بالعدل بين الناس.

❁ والثاني: «**وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ**»، قد يكون الإنسان رحيمًا ورقيق القلب على أولاده فقط...وعلى بقية الناس يكون قاسي القلب متحجراً، لكن هذا قلبه رحيم بالناس جميعًا إلا أن يكون مع الكفار، فالله عَزَّوَجَلَّ ذكر من صفات المؤمنين: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]، ففيهم الرحمة للمؤمنين، وفيهم القوة على الكافرين...فمن أهل الجنة مَن فيه رحمة وهو رقيق القلب يعني: قلبه يتأثر بسرعة، يرى إنسانًا مسكينًا ضعيفًا محتاجًا فيتأثر سريعًا ويقوم لخدمته أو لإعطائه، فقلبه رقيق وليس من أصحاب القلب القاسي.

قال: «**لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ**» فبدأ بالأقربين؛ لأنه يبعد جدًّا أن تكون رقيق القلب بالأبعدين وأنت قاسي القلب على الأقربين، فلا يوجد إنسان يشتم أباه

---

(١) سورة المائدة: الآية: (٥٤).

وأمه ويكون رحيماً رقيقاً مع الجيران ومع الغرباء، هذا بعيد... والمؤمن رقيق ورحيم مع الجميع، فإنه «**رَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِى قُرْبَى وَمُسْلِمٍ**».

۞ والثالث: «**وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ**»، إنسان عفيف لا يأخذ أموال الناس، ولا يمد يده إلى الناس، متعفف، ويستشعر فى نفسه الغِنى وإن كان فقيراً، وإن كانت حاجته كبيرة ولكن فى قلبه الغنى... فقد ربَّى نفسه على العفة، وعدم التطلُّع إلى الغير، فهو ليس محتاجاً إلى أحدٍ، فإن الغِنى غِنى القلب... فلقد أغنى الله قلبه فهو متعفف، أى: مُظهرٌ لهذا الوصف من نفسه، فهو متعفف لا ينظر إلى مال أحدٍ أبداً، ولا يطلب مال أحدٍ أبدًا.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلنا من أهل الجنة، وأن يظلنا فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

۞ أما أهل النار فهم خمسة...قال: «**الضَّعِيفُ الَّذِى لا زَبْرَ لَهُ، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلا مَالًا**»، أى: إنسان ضعيف، ولكنه إمعة منافق يسير وراء أصحاب الرياسة ليأخذ منهم، فهو ضعيف لكن ليس عنده عقل يأمره بالصحيح، ولا يحاول أن يفكر مثل الناس...لو أساء الناس قلَّدهم، أو كانوا مجرمين فهو مثلهم، أو طيبين قلَّدهم، فهو يقلد الناس فحسب ليعطوه حسنة... فهذا الإنسان من أهل النار مع أنه ضعيف، سبحان الله! بؤسٌ فى الدنيا وبؤسٌ فى الآخرة، فهو من شرار الخلق، فلا انتفع من الدنيا بشىء، ولا عمل لآخرته... فيوم القيامة يضيع هذا الضعيف الذى لا عقل له، «**الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلا مَالًا**» يعنى: يعيش فى الدنيا لا يريد أى شىء، بل عاش نكِرة ومات نكِرة، ويوم القيامة يُحشر مع هؤلاء الذى كان يتبعهم فى الدنيا.

۞ الثانى: «**وَالْخَائِنُ الَّذِى لا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ، وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ**».

(يَخفى) بمعنى: يظهر[1]، يعنى: أى مطمع يظهر له يأخذه من حلال أو من

(١) خفيت الشىء إذا أظهرته.. وأخفيته إذا سترته وكتمته.

حرام... فهذا من أهل النار، أى: الذى لا يبالى هل يأكل من حلال أو حرام، يأخذ الشىء من حِلّه أو من الحرام، ولا يهمه.

وقد أخبر النبى ﷺ عن هذ الصنف فقال: «**لَيَأْتِين عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لاَ يُبَالِى الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَال، أَمِنَ الْحَلاَلِ أَمْ مِنَ الْحَرَام**»(١).

۞ الثالث: «**وَرَجُلٌ لاَ يُصْبِحُ وَلاَ يُمْسِى إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ**».

الذى يقدر عليه يأخذه منك ويضحك عليك به ... سواء من أهلك أو من مالك.

۞ الرابع: «**الْبُخْلَ أَوِ الْكَذِبَ**» أى: الإنسان البخيل أو الكذاب.

۞ الخامس: «**الشِّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ**» يعنى: بذىء اللسان.

وهؤلاء كلهم من أهل النار...إذاً ليس أى ضعيف من أهل الجنة، بل الإنسان المؤمن الذى خلقه الله ضعيفـًا، يأخذ بالأسباب ولكن لا حيلة له، فهذا ضعَّفه الله فى الدنيا ولكن قَوَّاه يوم القيامة... أفقره فى الدنيا وأغناه يوم القيامة... جعله فى الدنيا لا يُؤبَه له وجعل الناس ينظرون إليه ويتمنون منزلته يوم القيامة.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٠٨٣) كتاب البيوع.

(٧٩) الصبر عند الصدمة الأولى

۞ عَنْ أَبِى أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «ابْنَ آدَمَ إِنْ صَبَرْتَ وَاحْتَسَبْتَ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى، لَمْ أَرْضَ لَكَ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ»**[١].

وفى رواية: عَنْ أَنَس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَّ النَّبِىُّ ﷺ بامرَأةٍ تَبْكى عِنْدَ قَبْرٍ فَقَال: «**اتَّقِى الله وَاصبِرِى**» فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّى، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بمُصيبتى، وَلَمْ تعرِفْه، فَقيلَ لَهـا: إِنَّه النَّبِىُّ ﷺ، فَأَتـتْ بَابَ النَّبِىِّ ﷺ، فَلَمْ تَجد عِنْدَهُ بَوَّابينَ، فقالتْ: لَمْ أَعرِفْكَ، فقالَ: «**إِنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدمَةِ الأولَى**»[٢].

وفى رواية لُمسْلِمٍ: «**تَبْكى عَلَى صبىٍّ لَهَا**».

۞ **ففى هذا الحديث يحكى أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ مَرَّ بامرأة تبكى عند قبر** فقال لها: «**اتقى الله واصبرى**».. وهذا من حُسن خُلق النبى ﷺ ورحمته بكل مَن حوله... فقد كان يستطيع أن يسير دون أن يلتفت إليها ولكنه ﷺ أحسَّ بحزن هذه المرأة وبحاجتها إلى مَن يُصبرها.

فما كان منها إلا أن قالت للنبى ﷺ: «**إليك عنى فإنك لم تُصَب بمصيبتى**».. وهذا يدل على أن المصيبة قد بلغت منها مبلغًا عظيمًا.

فلما قالت ذلك للنبى ﷺ لم يَقُل لها: ألا تعرفين مَن أنا؟... بل ولم ينتقم منها أو يُعاقبها ؛ لأنه يعذرها ويعلم أن الحزن قد أخرجها عن وعيها حتى قالت هذا الكلام.

۞ فلما قيل لها: إنه النبى ﷺ.. ما كان منها إلا أن أتت النبى ﷺ فلم تجد عنده بوابين.. وهذا من تواضع النبى ﷺ وحرصه على أن يكون متواصلًا مع

---

(١) حسن: رواه ابن ماجه، وحسنه الألبانى فى المشكاة (١٦٩٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٨٣) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٦) كتاب الجنائز.

أمته يُعلمهم ويتابع أحوالهم وليكون عونًا لهم على أمور دينهم ودُنياهم.

فقالت له المرأة: لم أعرفك.. أى أننى أعتذر إليك يا رسول الله إن كان قد بَدَر منى أى كلامٍ يُغضبك فإنى من شدة حزنى لم أعرف مَن الذى يُكلمنى.

فلم يُعاتبها النبى ﷺ على أى كلمة قالتها بل عذرها لشدة حُزنها، وإنما عاتبها لعدم صبرها على قضاء الله فقال لها ﷺ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**».

وكأنه يقول لها: إن الصبر الذى يُثاب عليه الإنسان هو أن يصبر أول ما تصيبه المصيبة.. أما أن يتسخط ثم يصبر بعد ذلك فإن هذا ليس الصبر الذى يُثاب عليه الإنسان وإنما يكون تسلّيًا.

۞ وهنا فائدة مهمة وهى: أنه لا يجوز للمرأة أن تذهب لزيارة القبور بمفردها حتى لا تتعرض لمن يتحرش بها فى تلك الأماكن المهجورة.. وإنما إذا أرادت أن تذهب لزيارة موتاها فإنها تذهب مع أحد محارمها غير متزينة ولا متعطرة وتكون مرتدية حجابها الشرعى.. فإذا ذهبت إلى القبر فإنما تذهب للعظة والعبرة ولزيارة موتاها.. فلا تلطم خَدًّا ولا تَشُق جيبًا ولا تدعو بدعوى الجاهلية... وإنما تقف خاشعة تدعو لميتها.. فإن بكت فلا بأس بذلك شريطة ألا يكون ذلك البكاء تسخُّطًا واعتراضًا على قضاء الله وقدره (سبحانه وتعالى).

۞ وأخيرًا لا بد أن نعلم أن الله جعل الجنة ثوابًا لمن صبر واحتسب عند الصدمة الأولى.

(٨٠) علامة حُب الله للعبد

۞ عَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ، قال: «إِذَا أَحَبَّ الله تعالى العَبْدَ، نَادَى جِبْرِيل: إِنَّ الله تعالى يُحِبُّ فُلانًا، فَأَحِبهْ، فَيُحبُّهُ جبْرِيلُ، فَيُنَادى فى أَهْلِ السَّمَاء: إِنَّ الله يُحِبُّ فُلانًا، فَأَحِبوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوْضَعُ له القَبُولُ فى الأَرْضِ»[(١)].

۞ وفى رواية لمسلم: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله تعالى إِذَا أَحبَّ عبْدًا دَعا جبْرِيلَ، فقال: إِنِّى أُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبهْ، فَيُحبُّهُ جبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِى فى السَّماءِ، فَيَقُولُ: إِنَّ الله يُحِبُّ فُلانًا، فَأَحِبُّوهُ .. فَيُحبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ له القَبُولُ فى الأَرْضِ، وإِذا أَبْغَضَ عَبدًا دَعا جِبْرِيلَ، فَيَقولُ: إِنِّى أُبْغِضُ فُلانًا، فَأَبْغِضْهُ، فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِى فى أَهْلِ السَّماءِ: إِنَّ الله يُبْغِضُ فُلانًا، فَأَبْغِضُوهُ، فَيُبغضُهُ أَهْلُ السَّماءِ ثُمَّ تُوضَعُ له البَغْضَاءُ فى الأَرْضِ».

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: قال العلماء: مَحَبَّةُ اللهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ هِىَ إِرَادَتُهُ الْخيرَ لَهُ وَهِدَايَتُهُ وَإِنْعَامُهُ عَلَيْهِ وَرحمَتُهُ ... وَبُغْضُهُ إِرادَةَ عِقَابِهِ أَوْ شَقَاوَتِهِ وَنَحوِهِ وَحُبُّ جِبرِيلَ وَالْمَلاَئِكَةِ يُحتَمَلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا اسْتِغْفَارُهُمْ لَهُ وَثَنَاؤُهُمْ عَلَيْهِ وَدُعَاؤُهُمْ ... وَالثَّانِى أَنَّ مَحبَّتَهُمْ عَلَى ظَاهِرِهَا الْمَعرُوفِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ وَهُوَ مَيْلُ الْقَلْبِ إِلَيْهِ وَاشْتِيَاقُهُ إِلَى لِقَائِهِ... وَسَبَبُ حُبِّهِمْ إِيَّاهُ كَوْنُهُ مُطِيعًا لِلَّهِ تَعَالَى مَحبُوبًا لَهُ... وَمَعنَى يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِى الأَرضِ أَيِ الْحُبُّ فِى قُلُوبِ النَّاسِ وَرِضَاهُمْ عَنْهُ فَتَمِيلُ إِلَيْهِ الْقُلُوبِ وَتَرْضَى عَنْهُ... وَقَد جَاءَ فِى رِوَايَةٍ فَتُوضَعُ لَهُ الْمَحَبَّةُ[(٢)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٠٩) كتاب بدء الخلق، (٧٤٨٥) كتاب التوحيد- ومسلم (٢٦٣٧) كتاب البر والصلة.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٢٨٢-٢٨٣).

أقول: بل نُثبت لله عَزَّوَجَلَّ صفة المحبة بدون تأويل وأنها صفة حقيقية لله عَزَّوَجَلَّ لا تُماثل صفات المخلوقين.. فهو تعالى يحب مَن يشاء من خلقه ويُبغض مَن يشاء.

ويا لها من كرامة حينما تعلم أن الله إذا أحبك فإنه يأمر جبريل بأمرٍ عظيم ثم يقوم جبريل بمهمة جليلة... أما الأمر: فإنه عَزَّوَجَلَّ يأمر جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يحبك! الله أكبر.. هل تخيلت هذا مرة واحدة في حياتك؟ الله فاطر السماوات يحبك – وحسبُك بهذا الحب– ومع ذلك فالله يأمر جبريل أن يحبك.. فيحبك جبريل ثم ينادي في ملائكة السماوات السبع قائلًا: إن الله يحب فلانًا فأحبوه.. ويصدع باسمك في السماوات السبع فتسمع كل الملائكة اسمك ويعرفوك بل ويحبوك.. فهل تريد شيئًا فوق ذلك؟.. الله يحبك....وجبريل يحبك وملائكة السماوات السبع يحبوك.. ومع كل هذا يُوضع لك القبول في الأرض حتى تجتمع لك محبة أهل السماء ومحبة أهل الأرض.. لكن بشرط أن يحبك الله عَزَّوَجَلَّ... ولن يحبك الله إلا إذا كانت حياتك كلها في طاعته والتحاكم إلى شرعه واتباع رسوله ﷺ.

۞ قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: ومحبة الله للعبد لها علامة؛ منها كون الإنسان متبعًا لرسول الله ﷺ... فإنه كلما كان الإنسان لرسول الله ﷺ أتبع؛ كان لله أطوع، وكان أحب إلى الله تعالى.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[1]. يعني إن كنتم صادقين في أنكم تحبون الله فأروني علامة ذلك: اتبعوني يحببكم الله.

وهذه الآية تُسمَّى عند السلف آية الامتحان، يُمتحن بها مَن ادَّعى محبة الله فينظر إذا كان يتبع الرسول (عليه الصلاة والسلام)؛ فهذا دليل على صدق دعواه.

وإذا أحب الله؛ أحبه الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قال: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ وهذه ثمرة جليلة؛ أن الله تعالى يحبك؛ لأن الله تعالى إذا أحبك؛ نِلتَ بذلك سعادة

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (٣١).

الدنيا والآخرة.

وأن الله تعالى إذا أحب عبدًا نادى جبريل...وجبريل أشرف الملائكة، كما أن محمداً ﷺ أشرف البشر. «**نادى جبريل: إنى أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول فى الأرض**» فيحبه أهل الأرض.

وإذا أبغض الله أحداً ـ والعياذ بالله ـ نادى جبريل: إنى أبغض فلانـًا فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يبغض فلانـًا فأبغضوه، فيبغضه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء فى الأرض، والعياذ بالله؛ فيبغضه أهل الأرض.

وهذا أيضـًا من علامات محبة الله، أن يوضع للإنسان القبول فى الأرض، بأن يكون مقبولاً لدى الناس، محبوبـًا إليهم، فإن هذا من علامات محبة الله تعالى للعبد. نسأل الله أن يجعلنا والمسلمين من أحبابه وأوليائه[1].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٤٠-١٤٢) بتصرف.



(٨١) رحمتى سبقت غضبى

۞ عَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «**لما خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، كَتَبَ فى كِتَابٍ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إن رَحمتى تغْلبُ غَضَبِى**»[١].

وفى روايةٍ: «**غَلَبَتْ غَضَبِى**» وفى روايةٍ «**سَبَقَتْ غَضَبِى**».

۞ فالإنسان ليس معصومًا من الذنوب والخطايا.. ولكن عليه أن يُبادر بالتوبة والعودة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.. فإذا تاب العبد وعاد إلى الله، فالله رحيم ورءوف بعباده سبحانه.

فإذا دعا العبد ربه استجاب له، وإذا استغفر ربه غفر له، وإذا طلب من ربه أعطاه تبارك وتعالى...فربنا رحيم عظيم الرحمة، وانظروا إلى قدر رحمته كما فى هذا الحديث.

۞ قال العلماء فى الحديث: «**إن رحمتى تغلب غضبى**»، وفى رواية: «**رحمتى سبقت غضبى**».

قالوا المراد بالسبق والغلبة هنا: كثرة الرحمة وشمولها، كما يُقال: غلب على فلان الكرم والشجاعة إذا كثر منه.

هكذا قال الإمام النووى نقلاً عن العلماء، وهذا النقل إنما هو نقل عن علماء الأشاعرة، لذا فليس هذا الكلام هو معتقد أهل السُّنة والجماعة، فالمعلوم أن الله تبارك وتعالى يغضب غضبًا حقيقيًا يليق بجلاله وكماله، والمعلوم أن الله تعالى يرحم عباده رحمة لا يعلم كُنهها إلا الله عَزَّ وَجَلَّ.

أما نحن فقد أيقنَّا أن الله تعالى يغضب ويرضى ويسخط، ولا يستلزم إيماننا

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣١٩٤) كتاب بدء الخلق، و(٧٤٢٢) كتاب التوحيد - ومسلم (٢٧٥١) كتاب التوبة.

بهذا مشابهة غضب الله بغضب خلقه، ولا رحمة الله تعالى برحمة خلقه، ولا فرح الله تعالى بفرح خلقه، ولا رضا الله تعالى برضا خلقه... وقد قلنا: إن اختلاف صفات الله عَزَّوَجَلَّ عن صفات المخلوقين ما هو إلا فرع لأصل وهو اختلاف الذات ... فلما اختلفت ذات الله تعالى عن ذوات المخلوقين فلا بد أن تختلف الصفات... فليست ذاته كذوات المخلوقين، وبالتالى فإن صفاته ليست كصفات المخلوقين.

ثم إن صفات الله سبحانه وتعالى لا تُوهم التشبيه ولا التمثيل لصفات المخلوقين... وهذا هو معتقد أهل السُّنة والجماعة من جهة النقل عنهم.

أما من جهة العقل فما المانع أن نُسلِّم لله عَزَّوَجَلَّ بما أثبته لنفسه؟ فنكتفى فقط بأن الله تعالى يغضب، ولا يستلزم الغضب فى حق الله تعالى انفعالات نفسية، وإنما ذلك فى العبد، فتجعل المرء يتهور، أو يأتى بسفه أو بشىء من هذا، لكن الغضب فى حق الله ليس كذلك... وكذلك الفرح: «**لَلَّهُ أَفْرَحُ بتَوْبة عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يجدُ ضالَّتَهُ بالْفلاةِ**»، فهل فرح الله عَزَّوَجَلَّ هو نفس فرح العبد؟ لا، وكذلك رحمة الله تبارك وتعالى لعباده ليست كرحمة العباد بعضهم لبعض... فإذا اختلفت الذات فلا بد وأن تختلف الصفات.

وأما قوله: (والمراد بالسبق والغلبة هنا: كثرة الرحمة وشمولها، كما يُقال: غلب على فلان الكرم والشجاعة إذا كثر منه).

فأولاً: هذا القياس غير صحيح؛ للاختلاف بين الخالق والمخلوق، وإذا سلمنا بأن هذا قياس صحيح فلا بأس أن نقول: إن هذا المعنى ينضم إلى المعنى الأصلى، فيكون الأصل عندنا أن الله تعالى يغضب كما يشاء، ويفرح كما يشاء، ويغفر كما يشاء، ويسخط كما يشاء، فنؤمن بهذا ولا نخوض فيه، ولا بأس أن نضم إلى هذا المعنى الأصلى -الذى هو أصل القضية عندنا فيما يتعلق

بالصفات- معنىً آخر وهو: أن المراد بالسبق والغلبة هنا: كثرة الرحمة وشمولها، أى: أن رحمة الله تعالى أعظم وأكثر وأشمل من غضبه... فلا بأس بهذا المعنى خاصة وأن الأدلة أثبتت أن رحمة الله تبارك وتعالى أوسع من غضبه، وأن الله تعالى إذا وعد بالرحمة فإنه لا يُخلف وعده، وإذا تَوعَّد بالعذاب فإن ذلك داخلٌ فى مشيئته... فقد تقع أو لا تقع، أى: قد ينفذها الله عَزَّوَجَلَّ، أو يعفو ويصفح.

إذاً ... رحمة الله تعالى أوسع وأشمل وأعمُّ من غضبه... لكن كيف يغضب؟ وكيف يسخط؟ وكيف يرضى؟ الكيفية لا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك يُحذر من تأويل النص عن ظاهره، بل يجب الإيمان به كما جاء، وإمراره كما جاء... وهذا معتقد أهل السُّنة والجماعة قاطبة، ولم يخالف فى ذلك أحدٌ منهم .



(٨٢) أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى

۞ عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسُولَ الله ﷺ قال: «**يقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبدِى بى، وَأَنَا مَعهُ إِذَا ذَكَرنى، فَإِن ذَكَرنى فى نَفْسِهِ، ذَكَرتُهُ فى نَفسِى، وَإِنْ ذَكَرنى فِى مَلإٍ، ذَكَرتُهُ فِى مَلإٍ خَيْرٍ منهم**»[(١)].

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى**» قَالَ الْقَاضِى: قِيلَ: مَعْنَاهُ بِالْغُفْرَانِ لَهُ إِذَا اسْتَغْفَرَ وَالْقَبُولِ إِذَا تَابَ وَالْإِجَابَةِ إِذَا دَعَا وَالْكِفَايَةِ إِذَا طَلَبَ الْكِفَايَةَ ... وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ الرَّجَاءُ وَتَأْمِيلُ الْعَفْوِ وَهَذَا أَصَحُّ[(٢)].

۞ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

«قوله: «**أنا عند ظن عبدى بى**»: يعنى أن الله عند ظن عبده به؛ إن ظن به خيراً فله، وإن ظن به سوى ذلك فله، ولكن متى يحسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ؟

يكون ذلك إذا فعل ما يوجب فضل الله ورجاءه، فيعمل الصالحات ويحسن الظن بأن الله تعالى يقبله... أما أن يُحسن الظن وهو لا يعمل؛ فهذا من باب التمنِّى على الله، ومَن أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأمانى فهو عاجز.

حسن الظن: بأن يوجد من الإنسان عمل يقتضى حسن الظن بالله، فإذا عملت عملاً صالحاً أحسِن الظن بأن الله تعالى يقبل منك، أما أن تُحسن الظن بالله مع مبارزتك له بالعصيان فهذا دأب العاجزين الذين ليس عندهم رأس مالٍ يرجعون إليه.

۞ قوله تعالى: «**وَأَنَا مَعهُ إِذَا ذَكَرَنى**».

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٤٠٥) كتاب التوحيد - ومسلم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) شرح مسلم (١٧/ ٣).

۞ قيل: «الذكر على سبعة أنحاء: فذكر العينين بالبكاء، وذكر الأُذنين بالإصغاء، وذكر اللسان بالثناء، وذكر اليدين بالعطاء، وذكر البدن بالوفاء، وذكر القلب بالخوف والرجاء، وذكر الروح بالتسليم والرضاء.

۞ فإذا ذكرت الله سبحانه وتعالى أكرمك بأفضالٍ ثلاث:

الأولى: جعلك ذاكرًا له بلسانك وقلبك.. ولولا فضله لم تكن أهلًا لأن تذكره سبحانه وتعالى.

والثانية: جعلك محبوبًا، فإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله فإذا أحبه الله حبَّبه إلى خلقه ... وإذا عمل بمعصية الله أبغضه الله، وإذا أبغضه الله بغَّضه إلى خلقه.

والثالثة: جعلك مذكورًا عنده فتمَّم نعمته عليك بمزيد الإكرام ومنتهى الفضل والإنعام.

والذكر يكون بالقلب ويكون باللسان.. والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان جميعًا.. ثم لا ينبغي أن يُترك الذكرُ باللسان مع القلب خوفًا من أن يُظن به الرياء، بل يذكرُ بهما جميعًا ويقصدُ به وجه الله سبحانه وتعالى[1].

۞ فالعبد إذا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في نفسه ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في نفسه.. وإذا كان العبد جالسًا في ملإٍ من الناس فذكر الله عَزَّوَجَلَّ فإن الله يذكرهُ في نفس اللحظة في ملإٍ أيضًا.. لكنهم ليسوا من البشر وإنما هم من خيارِ الملائكة المقربين.. فيذكرك الله عَزَّوَجَلَّ عندهم ويُثني عليك ويُعلي ذكرك ويرفع قدرك.

ولذا كان أحد السلف يقول: والله إني لأعلم متى يذكرني الله عَزَّوَجَلَّ!!... فقالوا: كيف ذلك؟!

فقال لهم: أما سمعتم قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ فإنني إذا

---

(١) ابن الإسلام (ص ٩٣).

ذكرته عَزَّوَجَلَّ ذكرني.

ومن المعلوم أن مَن أحب أحدًا فإنه يُكثر من ذكره.. فهل هناك أحدٌ أحب إلينا من الخالق سبحانه وتعالى؟

فأكثروا من ذكره لتفوزوا بذكره لكم سبحانه وتعالى.

۞ وفي رواية:

«يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»[1].

فالله عَزَّوَجَلَّ أكرم من عبده، فإذا تقرب الإنسان إلى الله شبراً؛ تقرب الله منه ذراعًا، وإن تقرب منه ذراعاً، تقرب منه باعًا، وإن أتاه يمشي أتاه يهرول عَزَّوَجَلَّ، فهو أكثر كرمًا وأسرع إجابة من عبده.

هذه الأحاديث وأمثالها مما يؤمن به أهل السُّنة والجماعة على أنه حق حقيقة لله عَزَّوَجَلَّ، لكننا لا ندري كيف تكون هذه الهرولة، وكيف يكون هذا التقرُّب، فهو أمر ترجع كيفيته إلى الله عَزَّوَجَلَّ[2].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٤٠٥) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٧٧٦-٧٧٧).



(٨٣) مَن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه



۞ عن عَائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، ومَن كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لقاءَهُ» فقلتُ: يا رسُولَ الله، أكَراهِيَةُ الموْتِ؟ فكُلُّنَا نَكْرَهُ الموْتَ، قال: «لَيْس كَذَلِكَ، ولكنَّ المؤمنَ إذا بُشِّرَ بِرَحمَةِ الله ورِضْوانِهِ وَجنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاء الله، فأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وإنَّ الكَافِرَ إذا بُشِّرَ بعذابِ الله وسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ الله، وكَرِهَ اللهُ لِقَاءهُ»[١].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن مَن أحب لقاء الله أحب اللهُ لقاءه وأن مَن كره لقاء الله كره اللهُ لقاءه... فقالت أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا رسول الله أكراهية الموت؟ فكلنا نكره الموت... لكن النبى ﷺ وضَّح لها وللأمة كلها أن الأمر ليس مجرد كراهية الموت ولكن الأمر يتعلق بمعرفة العبد مصيره فى الآخرة.. فأخبر النبى ﷺ أن العبد المؤمن عندما تأتيه ملائكة الرحمة وتجلس منه مَدَّ البصر ومعها كفنٌ من الجنة وحنوطٌ من الجنة (أى: عطر) وتُجهز الروح لملك الموت.. ثم يأتى ملك الموت ويبشر هذا العبد المؤمن ويقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة مِن فِيِّ السِّقاء.

فإذا علم العبد مصيره وأنه ذاهبٌ إلى مغفرة الله ورضوانه ورحمته أحبَّ لقاء الله وأحب الله لقاءه.

وأخبر النبى ﷺ أن العبد الكافر تأتيه عند الموت ملائكة سُود الوجوه معهم المُسوح فيجلسون منه مدَّ البصر.

ثم يجيءُ ملك الموتِ حتَّى يجلسَ عندَ رأسِه، فيقولُ أيتُها النَّفسُ الخَبيثَةُ! اخرجى إلى سخطٍ من الله وغضبٍ... فتُفرَّقُ فى جسدِهِ فينتزعها كما يُنتزع

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٠٧) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٦٨٤) كتاب الذكر والدعاء.

السُّفود من الصُّوفِ المبلول.

بمعنى: أنه يُكْرَه على أن تخرج روحه ؛ وذلك لأنه يُبشَّر - والعياذ بالله - بالشر... ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾[1]، فهم شحيحون بأنفسهم - والعياذ بالله - لا يريدون أن تخرج ولكن الملائكة تقول: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ فإذا بُشرت بالسخط والعذاب تَفرقت فى الجسد فينتزعها الملائكة كما يُنتزع السُّفود من الصوف المبلول - والعياذ بالله - حتى تخرج.

فإذا علم الكافر أنه ذاهبٌ إلى سخط الله وغضبه وعذابه كره لقاء الله وكره اللهُ لقاءه... فالشاهد أن المؤمن عند الموت يُبشَّر بالمغفرة والرضوان والجنة فيحب لقاء الله.. فاللهم اجعلنا ممن يحب لقاءك يا أرحم الراحمين.

---

(١) سورة الأنعام: الآية: (٩٣).




(٨٤) لا أجمع لعبدى أمنين ولا خوفين

۞ «قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَعِزَّتِى وَجَلَالِى، لا أَجْمَعُ لِعَبْدِى أَمْنَيْنِ وَلا خَوفَيْنِ؛ إِنَّ هُوَ أَمِنَنِى فِى الدُّنْيَا؛ أَخَفْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ عِبَادِى، وَإِنْ هُوَ خَافَنِى فِى الدُّنْيَا؛ أَمَّنْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ عِبَادِى»[١].

۞ إن نعمة الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ نعمة عظيمة تجعل بين العبد وبين معصية الله عَزَّوَجَلَّ سَدًّا منيعًا.

والعبد لا بد أن يعيش بين الخوف والرجاء فيكون خائفًا راجيًا.

ينظر إلى ذنوبه وآثامه فيخاف من الله أن يُعاجله بعقوبته.. فيتوب فى التو واللحظة... وينظر حتى إلى أعماله الصالحة وأنه قد يَشوبها شىء من الرياء أو العُجب فيخاف ألا يتقبلها الله منه.. ثم ينظر إلى عفو الله ورحمته ومغفرته وكرمه وحلمه فيرجو الله (جل وعلا)... فيعيش دومًا وأبدًا بين الخوف والرجاء.

۞ واعلم: أن مقامات الخائفين تختلف... فمنهم مَن يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة، ومنهم مَن يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم، أو خوف الميل عن الاستقامة، ومنهم مَن يغلب عليه خوف سوء الخاتمة... وأعلى من هذا خوف السابقة، لأن الخاتمة فرع السابقة، والله تعالى يرفع مَن يشاء من غير وسيلة، ويضع مَن يشاء من غير وسيلة، لا يُسأل عما يفعل.

ومن أقسام الخائفين، مَن يخاف سكرات الموت وشدته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر.

ومنهم مَن يخاف هيبة الوقوف بين يدى الله تعالى، والخوف من المناقشة

---

(١) حسن: رواه أبو نعيم فى الحلية، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٣٢).

والعبور على الصراط، والخوف من النار وأهوالها، أو حرمان الجنة، أو الحجاب عن الله سبحانه وتعالى، وكل هذه الأسباب مكروهة فى أنفسها، مخوفة.

فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى، وهو خوف العارفين، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدين[١].

ومن ثمرات الخوف، أنه يقمع الشهوات، ويُكدر اللذات، فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهـًا عند مَن يشتهيه إذا عَلِم أن فيه سُمًّا... فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويذل القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهم لخوفه، والنظر فى خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة، والمجاهدة، والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس فى الخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله كحال مَن وقع فى مخالب سبعٍ ضارٍ لا يدرى أيغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيُهلكه.

ولا شُغل له إلا ما وقع فيه... فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى، وصفاته، وبعيوب النفس، وما بين يديها من الأخطار والأهوال[٢].

۞ عَنْ أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ خَافَ أَدلَجَ، وَمنْ أَدلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، ألا إِنَّ سِلْعَةَ الله غَالِيةٌ، أَلا إِنَّ سِلْعةَ الله الجَنَّةُ»**[٣].

و«**أَدلَجَ**» معناه: سَارَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، وَالمُرَادُ: التَّشْمِيرُ فى الطَّاعَة. والله أعلم.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٧٥).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٧٣).

(٣) صحيح: رواه الترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٢٢).

۞ «مَن خاف أدلج، ومَن أدلج بلغ المنزل» أدلج يعنى مشى فى الدُّلجة، وهى أول الليل «ومَن أدلج بلغ المنزل»؛ لأنه إذا سار فى أول الليل، فهو يدل على اهتمامه فى المسير، وأنه جادٌّ فيه، ومَن كان كذلك بلغ المنزل.

۞ «ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة». السلعة: يعنى التى يعرضها الإنسان للبيع، والجنة قد عرضها الله عَزَّوَجَلَّ لعباده ليشتروها.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

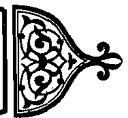
فمن خاف: يعنى مَن كان فى قلبه خوفٌ لله، عَمِلَ العمل الصالح الذى يُنجيه مما يخاف.

قَالَ الطيبىُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ النَّبِىُّ ﷺ لِسَالِكِ الْآخِرَةِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ عَلَى طَرِيقِهِ وَالنَّفْسَ وَأَمَانِيه الْكَاذِبَةَ أَعوَانُهُ... فَإِنْ تَيَقَّظَ فِى مَسِيرِهِ وَأَخْلَصَ النِّيَّةَ فِى عَمَلِهِ أَمِنَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكَيْدِهِ وَمِنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ بِأَعوَانِهِ.

ثُمَّ أَرْشَدَ إِلَى أَنَّ سُلُوكَ طَرِيقِ الْآخِرَةِ صَعبٌ وَتَحصِيلَ الْآخِرَةِ مُتَعَسِّرٌ لَا يَحصُلُ بِأَدنَى سَعيٍ فَقَالَ (أَلَا) بِالتَّخْفِيفِ لِلتَّنْبِيهِ (إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ) أَىْ مِنْ مَتَاعِهِ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ (غَالِيَةٌ) أَىْ رَفِيعَةُ الْقَدرِ (أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ) يَعنِى ثَمَنُهَا الْأَعمَالُ الْبَاقِيَةُ الْمُشَارُ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ وَبِقَوْلِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ﴾[2].

(١) سورة التوبة: الآية: (١١١).

(٢) تحفة الأحوذى (٦/ ٣٢٤).



(٨٥) ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة

۞ عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعطَى بِى ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعطِهِ أَجْرَهُ**»[١].

۞ وفى هذا الحديث التنبيه على مسألة يفعلها كثيرٌ من الناس اليوم، وهى أنهم يستأجرون الأُجراء ولا يعطون لهم أجرًا.... هذا الذى يستأجر الأجير ولا يعطيه أجره يكون الله عز وجل خصمه يوم القيامة، كما قال تعالى فى الحديث القدسى: «**ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، رَجُلٌ أَعطَى بِى ثُمَّ غَدَرَ**» يعنى: عاهد بى ثم غدر... أى أعطى يمينه بى.. أى عاهد عهدًا وحلف عليه بالله ثم نقض العهد وغدر بصاحبه... والثانى «**رَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَه**» حتى لو كان ابنه أو أخاه الأصغر ثم باعه وأكل ثمنه يكون الله عز وجل خصمه يوم القيامة.. قال المهلب: وإنما كان إثمه شديدًا ؛ لأن المسلمين أكفاء فى الحرية فمن باع حُرًّا فقد منعه التصرُّف فيما أباح الله له وألزمه الذُّل الذى أنقذه الله منه.. وقال ابن الجوزى: الحُر عبد الله فمن جنى عليه فخصمُه سيده[٢]... والثالث هذا الرجل الذى استأجر أجيرًا فاستوفى منه وقام الأجير بالعمل كاملًا ثم لم يُعطه أُجرته.

ومن ذلك ما يفعله بعض الناس اليوم فى العمال الذين يأتون بهم من الخارج، تجده يستأجره بأُجرة مُعينة ... مثلًا ستمائة ريال فى الشهر، ثم إذا جاء به إلى هنا

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٢٢٧) كتاب البيوع.

(٢) فتح البارى (٤/ ٤٨٨).

ماطل به وآذاه ولم يُؤته حقه، وربما يقول له: إن كنت تريد أن تبقى هنا بأربعمائة ريال وإلا سافرت... هذا والعياذ بالله يكون الله خصمه يوم القيامة، ويأخذ من حسناته ويعطيها هذا العامل، لأن قوله إما أن تعمل بأربعمائة وإلا رددتُك إلى بلدك يُعتبر خيانة للعهد لأن هذا استأجره بستمائة ولم يعطه أجره، فيدخل فى هذا الوعيد الشديد، وهؤلاء الذى يأتون بالعمال ولا يعطونهم أجورهم أو يأتون بهم وليس عندهم عمل.. ولكن يتركونهم فى الأسواق، ويقول أحدهم للعامل: اذهب وما حصَّلته فلى نصفه، أو مثلًا يقول: اذهب وعليك فى الشهر ثلاثمائة ريال أو أربعمائة ريال.

كل هذا حرام والعياذ بالله، ولا يحل لهم، وما أكلوه فإنه سُحتٌ، و«**كل جسدٍ نبَتَ من سُحتٍ فالنار أَولَى به**»[١]، وهؤلاء الذين يأكلون أموال هؤلاء العمال المساكين، لا تُقبل لهم دعوة والعياذ بالله... يدعون الله فلا يستجيب لهم؛ لأن النبى ﷺ «**ذكر الرجل يُطيل السفر أشعث أغبر، يَمُد يديه إلى السماء: يارب يارب. ومطعمه حرام وملبسه حرام، وغُذى بالحرام، فأَنَّى يُستجاب له**»[٢] وما يأكل هؤلاء من أجور هؤلاء العمال أو يظلمونهم به، فإنهم يأكلونه سُحتًا... نسأل الله العافية[٣].

۞ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَوْلُهُ: «**ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ**» زَاد بن خُزَيْمَة وابن حِبَّانَ وَالْإِسْمَاعِيلِيُّ فِى هَذَا الْحَدِيثِ: «**وَمَنْ كُنْتُ خَصمه خصمته**».

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والحاكم، وأبو نُعيم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥١٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠١٥) كتاب الزكاة.

(٣) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (٤/ ١٣٣) بتصرف.

قَالَ ابن التِّينِ: هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَصمٌ لِجَمِيعِ الظَّالِمِينَ إِلَّا أَنَّهُ أَرَادَ التَّشْدِيدَ عَلَى هَؤُلَاءِ بِالتَّصرِيحِ، وَالْخَصمُ يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَعَلَى الِاثْنَيْنِ وَعَلَى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ[1].

---

(١) فتح الباري (٤/ ٤٨٨).




(٨٦) ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم

۞ عَنْ أَبِى الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَبْشِرُ بِهِمْ: الَّذِى إِذَا انْكَشَفَتْ فِئَةٌ قَاتَلَ وَرَاءَهَا بِنَفْسِهِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِمَّا أَنْ يُقْتَلَ، وَإِمَّا أَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ وَيَكْفِيهِ، فَيَقُولُ اللهُ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِى كَيْفَ صَبَّرَ لِى نَفْسَهُ؟ وَالَّذِى لَهُ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ وَفِرَاشٌ لَيِّنٌ حَسَنٌ، فَيَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: يَذَرُ شَهْوَتَهُ فَيَذْكُرُنِى وَيُنَاجِينِى وَلَوْ شَاءَ رَقَدَ...وَالَّذِى يَكُونُ فِى سَفَرٍ وَكَانَ مَعَهُ رَكْبٌ فَسَهِرُوا وَنَصِبُوا ثُمَّ هَجَعُوا فَقَامَ فِى السَّحَرِ فِى سَرَّاءَ أَوْ ضَرَّاءَ»(١).

۞ نحن نعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ يضحك ولكن ضحكه ليس كضحك المخلوقين: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(٢).

وها هو النبىُّ ﷺ يجلس فى يوم من الأيام ليحكى لأصحابه قصة الثلاثة الذين يضحك الله إليهم ويحبهم ويستبشر بهم.

۞ فكان أول هؤلاء الثلاثة: رجل خرج مع الجيش الإسلامى ليجاهد فى سبيل الله (جل وعلا) فانكشف الجيش الذى كان يقاتل معه وإذا بهذا الرجل يَثبت ويقاتل الأعداء وحده حتى ينتصر أو يُقتل فى سبيل الله... فهذا الرجل يضحك الله إليه ويحبه ويستبشر به ... بل ويقول للملائكة: انظروا إلى عبدى كيف صبر لى بنفسه.

۞ وأما الرجل الثانى فهو رجل قد أكرمه الله بزوجة فى غاية الحُسن والجمال وكان يسكن فى بيتٍ جميل وعنده فراشٌ ليِّن.. وإذا به يترك زوجته

---

(١) صحيح: رواه الحاكم فى «المستدرك» (١/ ٢٥)، والبيهقى فى «الأسماء والصفات» (ص/ ٤٧١-٤٧٢) والسياق له، وصححه الألبانى فى «السلسلة الصحيحة» (رقم٣٤٧٨).

(٢) سورة الشورى: الآية: (١١).

الجميلة وفراشه اللين ويقوم ليصلى ويبكى بين يدى الله (جل وعلا).

فيضحك الله إليه ويحبه ويستبشر به ... بل ويقول للملائكة: انظروا إلى عبدى يذر شهوته ويذكرنى ولو شاء رقد.

۞ وأما الرجل الثالث فهو رجل قد خرج مع أصحابه فى سفرٍ طويل وشاقٍّ، فسهر أصحابه، ثم ناموا، فإذا به يقوم الليل ويصلى ويبكى بين يدى الله (جل وعلا)، فيضحك الله إليه ويحبه ويستبشر به.

۞ وممن يضحك الله إليهم: الذين يقومون الليل ويتهجدون لله عَزَّوَجَلَّ.

تتجافى جنوبهم عن لذيذ المضاجعِ... قيل للحسن البصرى: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهًا؟ قال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره.

فالذين يواظبون على صلاة الفجر ترى وجوههم نيِّرة، فما بالك بالذى يواظب على صلاة الليل؟

وكان محمد بن سيرين إذا دخل المسجد سَبّح الناس ربهم؛ لِمَا على وجهه من النور... قال النبى ﷺ: «**أولياءُ الله الذين إذا رُءوا ذُكر الله تعالى**»[1].

والحافظ عبد الغنى المقدسى كان إذا خرج من بيته اصطفَّ الناس على جنبات الطريق للنظر إلى مُحياه...وبات معه رجل ممن يعبد الشمس فلما رأى صلاته من الليل وبكاءه، زفر الرجل زفرة خرج الكفر بها من صدره، فقد أثَّرت صلاة عبد الغنى المقدسى فى هذا الرجل فأسلم بسبب صلاة الليل.

فانظر إلى حالِ مَن لهم حالٌ مع الله تبارك وتعالى... يقول النبى ﷺ: «**رَحِمَ الله رَجُلاً قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ فَإِنَّ أَبَتْ نَضَحَ فِي وجهها الماء**

---

(١) حسن: رواه المروزى فى زوائد الزهد، والطبرانى فى الكبير، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٧٣٣).

ورحم الله امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وأَيْقَظَتْ زَوْجَها فَصَلَّى فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الماء»[١]، وقال ﷺ: **«مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا كُتِبَا لَيْلَتَئِذٍ مِنَ الذَّاكِرِينَ الله كثيرًا والذاكرات»**[٢].

۞ وصلة بن أشيم العدوى لما تزوج السيدة معاذة العدوية تلميذة السيدة عائشة رضي الله عنها...ففى ليلة البناء أدخله ابن أخيه بيتـًا حارّاً، ثم أدخله بيتـًا مُطيَّبـًا، ثم بعد ذلك أدخلوا إليه معاذة، فقام يصلى صلاة الليل حتى الصباح، وقامت هى تصلى خلفه، فعاتبه ابن أخيه فى اليوم الثانى فقال له: يا عَمَّاه! فى ليلة عُرسك تصلى إلى الصباح! قال: وماذا أصنع يا ابن أخى، إنك أدخلتنى بيتـًا حارّاً فذكَّرتنى فيه بالنار، ثم أدخلتنى بيتـًا مُطيَّبـًا فذكَّرتنى فيه بالجنة، فلم يزل خلدى فيهما إلى الصباح.

۞ ورياح القيسى لما تزوج ذؤابة العابدة تَناوَم فى ليلة البناء يريد أن يختبر صلاة زوجه...فلما كان ربع الليل الأول قالت: يا رياح قم فقد مضى ربع الليل الأول، فقال: أقوم ولم يَقُم...فلما كان ربع الليل الثانى، قالت: يا رياح قُم، قد مضى ربع الليل الثانى، قال: أقوم ولم يَقُم، فما زال كذلك إلى صلاة الفجر، فلما كان عند الفجر قام يصلى الفجر فى جماعة، فقالت: ليت شعرى مَن غَرَّنى بك يا رياح... لأنه ما صلى إلا الفجر فقط فى جماعة.

۞ وكانت زوجة محمد بن حبيب العجمى تُوقظه لصلاة الليل، وتقول له: قُم يا سيدى! فهذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، والطريق طويل، والزاد قليل، وهذه قوافل الصالحين قد وصلت إلى الجنة ونحن قد بقينا.

۞ وكانت زوج أحمد بن أبى الحوارى: رابعة بنت إسماعيل الشامية توقظ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٩٤).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٣٠).

زوجها لصلاة الليل، فكان يقول: والله إن قلبى ليرق بالنظر إلى وجه زوجتى أكثر مما يرق بالحديث مع إخوانى؛ لما أرى عليها من أثر التهجُّد والخشوع وآثار الصلاة.

۞ والنبى ﷺ ربما قام الليل بآية حتى يصبح، وقام الليل حتى تفطرت قدماه، أى: تشققت قدماه من طول القيام، فتقول السيدة عائشة: «يا رسول الله! أتفعل هكذا وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: فيقول: «أَفَلاَ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا»(١).

الدروس المستفادة:

(١) أن المسلم لا بد أن يحرص على فعل كل ما يحبه الله (جل وعلا).

(٢) أن المسلم إذا ضحَّى براحته أو بنومه أو ببذل ماله أو فَعَل أى طاعة تقربه إلى الله، فإن الله (جل وعلا) يكافئه ويجزل له العطاء.

(٣) أن الله (عَزَّوَجَلَّ) إذا ضحك إلى عبدٍ فى موطن من المواطن، فإنه يُدخله الجنة بغير حساب.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١١٣٠) كتاب التهجد - ومسلم (٢٨١٩) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم.



(٨٧) أذنب عبدٌ ذنبًا

❁ وعَنْ أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النَّبِيِّ ﷺ: فِيمَا يَحكِى عَن ربِّهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالى، قال: «أَذنَب عَبْدٌ ذَنبًا، فقالَ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لى ذَنبى، فقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالى: أَذْنَبَ عَبْدِى ذنبًا، فَعَلِم أَنَّ لَهُ ربًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيأْخُذُ بِالذَّنبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فقال: أَىْ ربِّ اغفِرْ لى ذنبى، فقال تبارك وتعالى: أَذنبَ عبدِى ذَنبًا، فَعَلَمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ، وَيَأْخُذُ بِالذنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذنَبَ، فقال: أَى رَبِّ اغفِرْ لى ذَنبى، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالى: أَذنَبَ عَبدِى ذَنبًا، فعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ، وَيأْخُذُ بِالذَّنبِ، قدَ غَفَرْتُ لِعبدى، فَلْيَعمَلْ ما شَاءَ»[1].

وقوله تعالى: « فَلْيَعمَلْ ما شَاءَ» أى: مَا دَامَ يَفْعَلُ هَكَذا، يُذْنِبُ وَيتُوبُ أَغْفِرُ لَهُ، فإِنَّ التَّوبَةَ تَهْدِمُ ما قَبْلَهَا.

❁ ففى هذا الحديث يحكى النبى ﷺ أن عبدًا أذنب ذنبًا فلم يفرح بذلك الذنب بل حزن حُزنًا شديدًا على ذلك الذنب ولجأ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ليغفر له ذلك الذنب فقال: اللهم اغفر لى ذنبى.. فلما رأى الله عَزَّ وَجَلَّ صدق توبته قال تعالى: أذنب عبدى ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب... فغفر الله عَزَّ وَجَلَّ لذلك العبد التائب النادم.

ثم عاد هذا العبد وأذنب مرة أخرى رغمًا عنه وهو لا يريد أن يذنب ولكن غلبته نفسه وهواه وشيطانه.. فقال: أى رب اغفر لى ذنبى... فقال تعالى: أذنب عبدى ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب.. فغفر الله له.. وتكرر الذنب بعد ذلك وتاب العبد.. وتكررت التوبة من الله عليه فتاب عليه (جل وعلا)... إلى أن قال الحق (جل وعلا): قد غفرت لعبدى فليفعل ما شاء....

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٠٧) كتاب التوحيد - ومسلم (٢٧٥٨) كتاب التوبة.

وفى رواية قال تعالى له: «**اعمل ماشئت فقد غفرت لك**».

فيا لها من رحمة عظيمة من رب العالمين سبحانه... وهنا قوله: (**فَلْيَعمَلْ ما شاء**) ليس المعنى أنه يعصى كما يريد، ويذهب يشرك بالله كما يريد، وإنما المعنى: أنك قد تقع مرة ثانية وثالثة ... طالما أنت على ذلك، وكلما وقعت فى ذنب ندمت واستغفرت... فالله يغفر وإن تكرر ذلك مائة مرة، طالما أنك تُجرد التوبة، وترجع إلى ربك سبحانه، وكل بنى آدم خطَّاء، وما من مؤمن إلا وله ذنب يعتريه الفَينة بعد الفَينة... وكل مرة لعله يقع فى شىء فيرجع يلوم نفسه ويتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولعله بعد فترة يقع مرة أخرى، فإذا كان العبد يسرع فى التوبة إلى الله، ويندم على الذنب، وينوى ألا يفعله.. ومن ثَمَّ تأتى الأقدار فيقع فيه مرة ثانية مع كراهته للذنب وحبه للرب سبحانه، وتوبته إلى الله... فالله عَزَّوَجَلَّ يغفر له وإن وقع مرارًا وتكرارًا فى هذا الذنب أو فى غيره بهذا الشرط: أن يتوب العبد إلى ربه سبحانه، وأن ينوى ألا يعود إلى ذلك.

أما الذى يقع فى الذنب ولا يهمه ذلك، واستغفر الله وهو مقيم على هذا الذنب، ويفعله وينوى أن يفعله مرة ثانية وثالثة ورابعة، فهذه التوبة ليست المذكورة فى هذا الحديث... لكن مَن تاب إلى الله وهو ينوى ألا يعود إلى ذلك فهو المقصود[1].

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ ظَاهِرَةٌ فِى الدَّلَالَةِ لَهَا وَأَنَّهُ لَوْ تَكَرَّرَ الذَّنْبُ مِائَةَ مَرَّةٍ أَوْ أَلْفَ مَرَّةٍ أَوْ أَكْثَرَ وَتَابَ فِى كُلِّ مَرَّةٍ قُبِلَتْ تَوْبَتُهُ وَسَقَطَتْ ذُنُوبُهُ وَلَوْ تَابَ عَنِ الْجَمِيعِ تَوْبَةً وَاحِدَةً بَعدَ جَمِيعِهَا صَحَّتْ تَوْبَتُهُ[2].

---

(١) شرح رياض الصالحين/ الشيخ أحمد حطيبة.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٧/ ١١٧).

(٩١) ستر الله على المؤمن فى الدنيا والآخرة

۞ عَنْ ابن عمَر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ: يقول: «يُدنَى المُؤْمِنُ يَومَ القِيَامَةِ مِن رَبِّه عز وجل حتَّى يَضَعَ عَلَيه كَنَفَهُ، فَيُقَرِّرَهُ بِذُنُوبِه، فيقولُ: أَتَعرفُ ذنب كَذا؟ أَتعرفُ ذَنبَ كَذَا؟ فيقول: رَبِّ أعرِفُ، قال: فَإِنِّى قَد سَتَرتُهَا عَلَيكَ فى الدُّنَيا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَومَ، فَيُعطَى صَحِيفَةَ حسَنَاته، وَأَمَّا الكُفَّارُ والمُنَافِقُونَ فيُنَادَى بهم عَلَى رُؤوسِ الخَلَائِقِ: هَؤلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ»[(١)].

۞ نحن نعلم أنه ما من عبدٍ إلا وله ذنوبٌ تعتريه الفَينة بعد الفَينة.. وذلك لأنه ليس هناك أحدٌ معصوم إلا الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام).. فإذا كان يوم القيامة فإن الله عز وجل من كمال رحمته أنه يُدنى عبده المؤمن ويضع عليه كَنَفَهُ ويستره ثم يسأله ويُقرره بذنوبه ويقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ وإذا بالعبد المؤمن يقول: رب أعرف.

وفى هذه اللحظة قد يظن العبد أنه قد هلك وأنه من أهل النار.. وإذا بالعزيز الغفار يقول له: «فَإِنِّى قَد سَترَتُهَا عَلَيكَ فى الدُّنيا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَومَ، فَيُعطَى صَحِيفَةَ حسَنَاته».

وذلك لأن كل عبدٍ له صحيفة مُسَجَّلة فيها أعماله خيرها وشرّها... وهذه الصحيفة كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلَّا أحصاها... وفى المحشر يُعطى كتابه ليقرأه وينظر أعماله.

وتختلف الطريقة التى يُؤتَى بها العباد كتبهم: فأمَّا المؤمن فإنه يُؤتَى كتابه بيمينه من أمامه بعد مُحاسبته الحساب اليسير، وينقلب إلى أهله مسرورًا...

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٤١) كتاب المظالم - ومسلم (٢٧٦٨) كتاب التوبة.

كَنَفُهُ: سَتْرُهُ وَرَحمَتُهُ.

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾[(١)]... وكما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾[(٢)].

وأمَّا أهل المعاصى والنِّفاق فإنَّ أحدهم يُؤتَى كتابه بشماله من وراء ظهره، وعند ذلك يدعو أحدهم بالويل والثُّبور.

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾[(٤)].

۞ وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: **«يدنى الله العبد منه يوم القيامة ويضع عليه كَنَفَه فيستره من الخلائق كلها ويدفع إليه كتابه فى ذلك الستر فيقول له: اقرأ يا ابن آدم كتابك... قال: فيمر بالحسنة فيبيضّ لها وجهه، ويمر بالسيئة فيسودّ لها وجهه، قال: فيقول الله تعالى له: أتعرف يا عبدى؟ قال: فيقول نعم يا رب أعرف، قال: فيقول: (فإنى) أَعرَفُ بها منك، قد غفرتها لك... قال: فلا تزال حسنة تُقبل فيسجد وسيئة تُغفَر فيسجد فلا يرى الخلائق منه إلا ذلك حتى ينادى الخلائق بعضها بعضًا: طوبى لهذا العبد الذى لم يعصِ قط... فلا يدرون ما قد لقى فيما بينه وبين الله تعالى مما قد وقفه عليه»**[(٥)].

---

(١) سورة الانشقاق: الآيات: (٧-٩).

(٢) سورة الحاقة: الآيات: (١٩-٢٤).

(٣) سورة الأنشقاق: الآيات: (١٠-١٢).

(٤) سورة الحاقة: الآيات: (٢٥-٢٩).

(٥) أخرجه عبد الله بن أحمد (ص: ٢١٥) فى زوائد الزهد بإسنادٍ حسن.



(٨٩) مهما بلغت ذنوبك.. فالله يغفرها

۞ «قَالَ الله تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ! مَهْمَا عَبَدْتَنِى وَرَجَوْتَنِى وَلَمْ تُشْرِكْ بِى شَيْئًا غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ ... وَإِنِ اسْتَقْبَلْتَنِي بِمِلْءِ السَّمَاءِ والأَرْضِ خَطَايَا وَذُنُوبًا اسْتَقْبَلْتُكَ بِمِلْئِهِنَّ مِنَ المَغْفِرَةِ وَأَغْفِرُ لَك وَلاَ أُبَالِى»[١].

۞ وَعَنْ أَنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعوْتَنى وَرَجوْتَنى غَفَرْتُ لَكَ عَلى ما كَانَ مِنكَ ولا أُبالى، يَا ابْنَ آدمَ، لَوْ بَلغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السماءِ، ثم اسْتَغْفَرْتَنى غَفرتُ لَكَ ولا أُبالى، يَا ابْنَ آدم، إِنَّكَ لَو أَتَيْتَنى بِقُراب الأرضِ خطايا، ثُمَّ لَقِيْتَنى لا تُشْرِكُ بِى شَيْئًا، لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[٢].

۞ هذا الحديث القدسى الشريف يبين ثلاثة أسباب من أعظم أسباب المغفرة... والاستغفار: هو طلب المغفرة من الله عَزَّوَجَلَّ.

والمغفرة: هى وقاية شر الذنوب مع سترها، أى أن الله عَزَّوَجَلَّ يستر على العبد فلا يفضحه فى الدنيا، ويستر عليه فى الآخرة فلا يفضحه فى عَرَصَاتها، ويمحو عنه عقوبة ذنوبه بفضله ورحمته.

وقد كَثُر ذكر الاستغفار فى القرآن... فتارة يُؤمَر به.. كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾[٣].

---

(١) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٤١).

(٢) حسن: رواه الترمذى، والضياء، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٣٨).

«عَنَانُ السماءِ» بفتح العين، قيل: هو مَا عَنَّ لَكَ منها، أى: ظَهَرَ إذَا رَفَعتَ رَأْسَكَ، وقيل: هو السَّحَابُ.

و«قُرابُ الأرض» بضم القاف، وقيلَ بكسرِها، والضم أصح وأشهر، وهو: ما يقارِبُ مِلأَهَا، والله أعلم.

(٣) سورة المزمل: الآية: (٢٠).

وتارة يُمدَح أهله... كقوله تعالى في وصف المحسنين: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾[١].

وتارة يذكر الله عَزَّوَجَلَّ أنه يغفر لمن استغفره.. كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢].

وكثيرًا ما يُقرن الاستغفار بذكر التوبة فيكون الاستغفار حينئذ عبارة عن طلب المغفرة باللسان، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلب والجوارح... وحكم الاستغفار كحكم الدعاء إن شاء الله أجابه وغفر لصاحبه لا سيما إذا خرج من قلبٍ منكسر بالذنوب أو صادف ساعة من ساعات الإجابة كالأسحار وأدبار الصلوات... وأفضل الاستغفار أن يبدأ بالثناء على ربه، ثم يُثنِّى بالاعتراف بذنبه ثم يسأل ربه بعد ذلك المغفرة. كما فى حديث سيد الاستغفار أن النبى ﷺ قال: «**سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّى لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِى وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِى فَاغْفِرْ لِى، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**»[٣].

۞ وقوله: «**أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ**» أى أعترف لك، و«**أبوء بذنبى**» أى أعترف، وأُقر بذنبى.

وعن عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علِّمنى دعاءً أدعو به فى صلاتى قال: «**قُل اللهم إنى ظلمت نفسى ظُلْمًا كبيرًا -أو كثيرًا- ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم**»[٤].

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٧).

(٢) سورة النساء: الآية: (١١٠).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٣٠٦) كتاب الدعوات.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٥) كتاب الذكر والدعاء.

ومن أفضل الاستغفار أن يقول العبد: «**أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم، وأتوب إليه**».

وقد ورد عن النبى ﷺ أن مَن قاله: «**غُفر له وإن كان فَرَّ من الزحف**»(١).

۞ قوله عَزَّوَجَلَّ: «**يا ابن آدم إنك ما دعوتنى، ورجوتنى، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى**».

فأول سبب من أعظم أسباب المغفرة الدعاء مع الرجاء.

فإن الدعاء مأمورٌ به موعودٌ عليه بالإجابة..كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(٢).

فالدعاء سببٌ مُقتضٍ الإجابة مع استكمال شرائطه، وانتفاء موانعه... ومن أعظم شرائطه حضور القلب، ورجاء الإجابة من الله عَزَّوَجَلَّ.

فمن أعظم أسباب المغفرة أن العبد إذا أذنب ذنبًا لم يَرجُ مغفرته من غير ربه، ويعلم أنه لا يغفر الذنوب، ويأخذ بها غيره... فقوله: «**إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى...**» يعنى على كثرة ذنوبك، وخطاياك، لا يتعاظمنى ذلك، ولا أستكثره.

وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال: «**إذا دعا أحدكم فلا يَقُل: اللهم اغفر لى إن شئت، ولكن ليَعزم المسأله، وليُعظِّم الرغبة، فإن الله لا يَتعاظَمُه شىءٌ أعطاه...**»(٣).

فذنوب العباد وإن عَظُمت فعفو الله ومغفرته أعظم منها...

كما قال الإمام الشافعى عند موته.

ولما قسَى قلبى وضاقت مذاهبى ... جعلتُ الرَّجا منى لعفوك سُلَّما

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى التعليق الرغيب (٢ / ٢٦٩)، وصحيح أبى داود (١٥١٧).

(٢) سورة غافر: الآية: (٦٠).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٩) كتاب الذكر والدعاء.

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته بعفوك ربى كان عفوك أعظما

فمن أعظم أسباب المغفرة: الدعاء مع الرجاء. قال النبى ﷺ: «**ادعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاهٍ**»(١).

۞ قوله عَزَّوَجَلَّ: «**يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتنى غفرت لك...**».

وهذا يبين فضل الاستغفار... فلو بلغت ذنوب العبد عَنان السماء -وهو السحاب، وقيل ما انتهى إليه البصر فيها- غفرها الله له، وهذا يبين فضل كثرة الاستغفار.

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إن كُنَّا لنَعُدُّ لرسول الله ﷺ فى المجلس الواحد مائة مرة يقول: **رب اغفر لى وتُب علىَّ إنك أنت التواب الغفور...**»(٢).

وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ أنه قال: «**والله إنى لأستغفر الله، وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة**»(٣).

وعن النبى ﷺ قال: «**إنه لَيُغان على قلبى، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة...**»(٤).

وقوله: «**لَيُغان**» أى: ليُغطى ويغشى.

وروى عن لقمان أنه قال لابنه: «يا بُنى عَوِّد لسانك: اللهم اغفر لى، فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلًا».

وقال الحسن: أكثروا من الاستغفار فى بيوتكم وعلى موائدكم، وفى طُرقكم،

---

(١) حسن: رواه الترمذى، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٤٥).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى الصَّحِيحَة: (٥٥٦).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٣٠٧) كتاب الدعوات.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٢) كتاب الذكر والدعاء.

وفي أسواقكم، وفي مجالسكم، وأينما كنتم، فإنكم ما تدرون متى تتنزل المغفرة.

وقال ﷺ: «**طُوبى لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا...**»(١).

وقال عليٌّ رضي الله عنه: ما ألهم الله عبدًا الاستغفار وهو يريد أن يُعذبه.

وقال قتادة رحمه الله: إن هذا القرآن يدلكم على دائكم، ودوائكم، فأما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار.

وقال رياح القيسي: لي نَيِّفٌ وأربعون ذنبًا قد استغفرت الله لكل ذنب مائة ألف مرة.

۞ قوله عز وجل: «**يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة...**».

فالتوحيد هو أعظم أسباب المغفرة، ومَن فقد التوحيد فقد حُرم من المغفرة بالكُلية... قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(٢).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: يُعفى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يُعفَى لمن ليس كذلك، فلو لقي الموحد الذي لم يُشرك بالله ألبتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده... فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب، لأنه يتضمن من محبة الله، وإجلاله، وتعظيمه، وخوفه، ورجائه وحده ما يُوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض... فالنجاسة عارضة، والدافع لها قوي.

ومعنى: «**قراب الأرض**» ملؤها أو ما يقارب ذلك، ولكن هذا مع مشيئة الله عز وجل، فإن شاء غفر بفضله ورحمته، وإن شاء عذَّب بعدله، وحكمته، وهو

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، وأحمد في الزهد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٣٠).

(٢) سورة النساء: الآية: (٤٨).

المحمود على كل حال.

قال بعضهم: الموحد لا يُلقَى فى النار كما يُلقَى الكفار، ولا يبقى فيها كما يبقى الكفار.

فإن كَمُل توحيد العبد وإخلاصه لله فيه، وقام بشروطه كلها بقلبه، ولسانه، وجوارحه أو بقلبه ولسانه عند الموت أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها، ومنعه من دخول النار بالكلية.

والتوحيد هو الإكسير الأعظم... فلو وُضعت ذرة منه على جبال الذنوب والخطايا لقلبتها حسنات ... ودَلَّ على ذلك أيضًا حديث البطاقة.

قال ﷺ: «**إنّ اللهَ سَيُخْلّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِى على رءوس الخَلائِق يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنشُرُ علَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجلًا كلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ ثمَّ يَقولُ: أتُنْكِرُ منْ هَذَا شَيْئًا؟ أظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحافِظُونَ؟ فَيقولُ: لا يَا ربِّ فيقولُ: أفلَكَ عُذْرٌ؟ فيقولُ: لا يَا ربِّ. فَيقولُ: بَلَى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عَلَيْكَ اليَوْمَ ..فتُخْرَجُ بِطاقةٌ فِيهَا أشْهَدُ أنْ لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فيقولُ: احضر وَزْنَكَ فيَقولُ: يَا رَبِّ مَا هذِهِ البِطاقَةُ مَعَ هذِهِ السّجِلاّتِ؟ فيُقالُ: فإنّكَ لا تُظْلَمُ.. فَتُوضَعُ السِّجِلاتُ فِي كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثَقُلت البِطاقَةُ وَلا يَثْقُلُ مَعَ اسْم اللهِ تَعَالَى شَيْءٌ**»[1].

۞ قال العلماء: بأن هذا الرجل وقع فى ذنوب كثيرة دون الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ ولكنه أخلص توحيده لله عَزَّوَجَلَّ، ولم يقع فى شيء من الشرك فنجا ببركة التوحيد، ولكن أكثر المسلمين يخلط توحيده بالشرك... كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾[2].

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٧٦).

(٢) سورة يوسف: الآية: (١٠٦).

فهو يصلى لله عَزَّوَجَلَّ، ويصوم لله عَزَّوَجَلَّ، ويحج بيت الله، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، ومع ذلك قد ينذر لغير الله أو يذبح لغير الله أو يحلف بغير الله عَزَّوَجَلَّ، فهو يخلط توحيده بالشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

۞ ولقد شرع الله عَزَّوَجَلَّ لنا أن نختم أعمالنا وأعمارنا بالاستغفار.

كما قال عَزَّوَجَلَّ لنبيه ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾[1].

وفى ختم الصلاة يقول المسلم: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١٩٩﴾[2].

وفى الأسحار وبعد قيام الليل شرع الاستغفار... كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ۝١٧﴾[3].

وفى كفارة المجلس يقول العبد: «**سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت. أستغفرك وأتوب إليك**»[4].

---

(١) سورة النصر.

(٢) سورة البقرة: الآية: (١٩٩).

(٣) سورة آل عمران: الآية: (١٧).

(٤) رياض الجنة (ص ٩٤-٩٨) بتصرف.

(٩٠) فضل صلاة الفجر وصلاة العصر

۞ عن أبى هريرة رَضِوَٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «يَتَعاقَبُونَ فيكم مَلائِكَةٌ بالليْلِ وملائِكَةٌ بالنَّهارِ، ويجْتَمِعُون فى صَلاةِ الصُّبْحِ وصلاةِ العصرِ، ثُمَّ يَعرُجُ الذين باتُوا فيكم، فيسألُهُم الله ـ وهو أعلمُ بهم ـ: كيفَ تَرَكْتُم عِبادى؟ فيقُولُون: تَركناهُم وهُم يُصَلُّونَ وأتيناهُم وهم يُصلُّون»[(١)].

۞ إن الله عَزَّوَجَلَّ وكَّل بعباده ملائكة مُعقبات يتعاقبون فينا يحفظوننا من أمر الله عَزَّوَجَلَّ... فوكَّل ملائكة ينزلون ويجتمعون فى صلاة الفجر ويظلون إلى صلاة العصر ثم يصعدون بعد أن ينزل ملائكة آخرون فى صلاة العصر ويظلون إلى صلاة الفجر..

فيصعد الذين باتوا فينا إلى الله عَزَّوَجَلَّ.. فيسألهم -وهو أعلم بعباده ولا يحتاج إلى كلام الملائكة- يسألهم: كيف تركتم عبادى؟ وذلك لإظهار شرف عباده وفضلهم.. فالله يعلم السر وأخفى.. فتقول الملائكة: تركناهم وهم يُصلون و أتيناهم وهم يُصلون.. لأنهم يأتون فى أول الليل وأول النهار فيتعاقبون فى صلاة الفجر وصلاة العصر... هؤلاء ينزلون وهؤلاء يصعدون .. وقيَّد الله سبحانه وتعالى وقت صعودهم ونزولهم بهاتين الصلاتين لفضلهما... لأن صلاة العصر هى الصلاة الوسطى وصلاة الفجر هى الصلاة المشهودة.

فيباهى الله عَزَّوَجَلَّ بهم الملائكة... أهؤلاء الذى قلتم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[(٢)] ؟! فانظروا ماذا يعملون.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَمَعنَى يَتَعاقَبُونَ تَأْتِى طَائِفَةٌ بَعدَ طَائِفَةٍ وَمِنْهُ

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٥) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٣٢) كتاب المساجد.

(٢) سورة البقرة: الآية: (٣٠).

تَعَقُّبُ الْجُيُوشِ وَهُوَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى ثَغْرٍ قَوْمٍ وَيَجِيءَ آخَرُونَ... وَأَمَّا اجْتِمَاعُهُمْ فِي الْفَجْرِ وَالْعَصرِ فَهُوَ مِنْ لُطْفِ اللهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَكْرِمَةٌ لَهُمْ أَنْ جَعَلَ اجْتِمَاعَ الْمَلَائِكَةِ عِنْدَهُمْ وَمُفَارَقَتُهُمْ لَهُمْ فِي أَوْقَاتِ عِبَادَاتِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِمْ فَيَكُونُ شَهَادَتُهُمْ لَهُمْ بِمَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْخَيْرِ[1].

۞ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ:

قَوْلِه: «فَيَسْأَلُهُمْ» قِيلَ: الْحِكْمَةُ فِيهِ اسْتِدْعَاءُ شَهَادَتِهِمْ لِبَنِي آدَمَ بِالْخَيْرِ، وَاسْتِنْطَاقِهِمْ بِمَا يَقْتَضِي التَّعَطُّفَ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ لِإِظْهَارِ الْحِكْمَةِ فِي خَلْقِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ فِي مُقَابَلَةِ مَنْ قَالَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ وَقَدْ وُجِدَ فِيهِمْ مَنْ يُسَبِّحُ وَيُقَدِّسُ مِثْلُكُمْ بِنَصِّ شَهَادَتِكُمْ.

وَقَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ: هَذَا السُّؤَالُ عَلَى سَبِيلِ التَّعَبُّدِ لِلْمَلَائِكَةِ كَمَا أُمِرُوا أَنْ يَكْتُبُوا أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم من الْجَمِيعِ بِالْجَمِيعِ.

۞ قَوْله: «كَيفَ تركْتُم عبَادي».

قَالَ ابن أَبِي جَمْرَةَ: وَقَعَ السُّؤَالُ عَنْ آخِرِ الْأَعْمَالِ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ بِخَوَاتِيمِهَا.

قَالَ: وَالْعِبَادُ الْمَسْئُولُ عَنْهُمْ هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾.

۞ قَوْله: «تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ».

لَمْ يراعوا التَّرْتِيب الوجودي؛ لأنهم بدؤا بِالتَّرْكِ قَبْلَ الْإِتْيَانِ، وَالْحِكْمَةُ فِيهِ أَنَّهُمْ طَابَقُوا السُّؤَالَ لِأَنَّهُ قَالَ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ وَلِأَنَّ الْمُخْبَرَ بِهِ صَلَاةُ الْعِبَادِ، وَالْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا فَنَاسَبَ ذَلِكَ إِخْبَارَهُمْ عَنْ آخِرِ عَمَلِهِمْ قَبْلَ أَوَّلِهِ.

(١) مسلم بشرح النووي (٥/ ١٨٦).

۞ وَقَوْلُهُ: «تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ» ظَاهِرُهُ أَنَّهُمْ فَارَقُوهُمْ عِنْدَ شُرُوعِهِمْ فِي الْعَصرِ سَوَاءٌ تَمَّتْ أَمْ مَنَعَ مَانِعٌ مِنْ إِتْمَامِهَا وَسَوَاءٌ شَرَعَ الْجَمِيعُ فِيهَا أَمْ لَا لِأَنَّ الْمُنْتَظِرَ فِي حُكْمِ الْمُصَلِّي وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ: «وَهُمْ يُصَلُّونَ» أَيْ ينتظرون صَلَاةَ الْمغرب.

قلت: وَوَقع فِي صَحِيح ابن خُزَيْمَةَ مِنْ طَرِيقِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي آخِرِ هَذَا الْحَدِيثِ: «فَاغْفِرْ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ».

قَالَ: وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ: أَنَّ الصَّلَاةَ أَعْلَى الْعِبَادَاتِ لِأَنَّهُ عَنْهَا وَقَعَ السُّؤَالُ وَالْجَوَابُ.

وَفِيهِ: الْإِشَارَةُ إِلَى عِظَمِ هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ لِكَوْنِهِمَا تَجْتَمِعُ فِيهِمَا الطَّائِفَتَانِ، وَفِي غَيْرِهِمَا طَائِفَةٌ وَاحِدَةٌ... وَالْإِشَارَةُ إِلَى شَرَفِ الْوَقْتَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الرِّزْقَ يُقَسَّمُ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ وَأَنَّ الْأَعْمَالَ تُرْفَعُ آخِرَ النَّهَارِ، فَمَنْ كَانَ حِينَئِذٍ فِي طَاعَةٍ بُورِكَ فِي رِزْقِهِ وَفِي عَمَلِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ حِكْمَةُ الْأَمْرِ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِمَا وَالِاهْتِمَامِ بِهِمَا.

وَفِيهِ: تَشْرِيفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى غَيْرِهَا وَيَسْتَلْزِمُ تَشْرِيفَ نَبِيِّهَا عَلَى غَيْرِهِ.

وَفِيهِ: الْإِخْبَارُ بِالْغُيُوبِ وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ زِيَادَةُ الْإِيمَانِ.

وَفِيهِ: الْإِخْبَارُ بِمَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ ضَبْطِ أَحْوَالِنَا حَتَّى نَتَيَقَّظَ وَنَتَحَفَّظَ فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَنَفْرَحَ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ بِقُدُومِ رُسُلِ رَبِّنَا وَسُؤَالِ رَبِّنَا عَنَّا.

وَفِيهِ: إِعْلَامُنَا بِحُبِّ مَلَائِكَةِ اللهِ لَنَا لِنَزْدَادَ فِيهِمْ حُبًّا وَنَتَقَرَّبَ إِلَى اللهِ بِذَلِكَ.

وَفِيهِ: كَلَامُ اللهِ تَعَالَى مَعَ مَلَائِكَتِهِ. وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْفَوَائِدِ[1]. والله أعلم.

---

(١) فتح الباري (٢/ ٤٤-٤٥).



(٩١) فضل المُكث فى المسجد لانتظار الصلاة

۞ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: صَلَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَغْرِبَ، فَرَجَعَ مَنْ رَجَعَ، وَعَقَّبَ مَنْ عَقَّبَ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْرِعًا، قَدْ حَفَزَهُ النَّفَسُ، وَقَدْ حَسَرَ عَنْ رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: «**أَبْشِرُوا، هَذَا رَبُّكُمْ قَدْ فَتَحَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ، يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ، يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي قَدْ قَضَوْا فَرِيضَةً، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ أُخْرَى**»(١).

۞ وهناك رواية أخرى عن فضل انتظار الصلاة بعد الصلاة.

۞ عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أدلُّكم على ما يَمْحُو الله بِهِ الْخَطايا، ويرْفَعُ بِهِ الدَّرجاتِ؟**» قالوا: بلى يا رسُولَ الله، قال: «**إسباغ الْوُضوءِ على الْمَكَارِهِ وكَثْرةُ الْخُطَا إِلَى الْمساجِدِ، وانْتِظَارُ الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ، فَذلكُمُ الرِّبَاطُ**»(٢).

۞ لقد كان النبى ﷺ يُنوِّع فى خطابه لأصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.. فتارة يذكر لهم الحديث مُباشرة.. وتارة يكون ذلك بصورة عملية يراها الصحابة.. وتارة يعطيهم المعلومة من خلال سؤالٍ ليُثير انتباههم.. وهذا ما فعله النبى ﷺ فى هذا الحديث.

قال لهم: «**ألا أدلُّكم على ما يَمْحُو الله بِهِ الْخَطايا، ويرْفَعُ بِهِ الدَّرجاتِ؟**».

وهل هناك أحدٌ لا يرغب فى هذا الخير؟!... فمن المعلوم أنهم سيقولون: بلى يا رسول الله... أخبِرنا عن ذلك فإننا نُريد أن نعرف ما الذى يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥١) كتاب الطهارة.

فلما أصبحت القلوب مُتهيئة لمعرفة ذلك قال لهم ﷺ: «**إسباغ الْوُضوءِ على الْمَكَارِهِ وكَثْرةُ الْخُطَا إِلَى الْمسَاجِدِ، وانْتِظَارُ الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ، فَذلِكُمُ الرِّبَاطُ**» هذه ثلاثة أشياء:

۞ «**إسباغ الوضوء على المكاره**»: يعنى أن الإنسان يتوضأ ويُسبغ وضوءه على كُرْهٍ منه: إما لكونه فيه حُمَّى ينفر من الماء فيتوضأ على كُرهٍ.. وإما أن يكون الجو باردًا، وليس عنده ما يُسخِّن به الماء فيتوضأ على كُره... وإما أن يكون هناك أمطار تَحُول بينه وبين الوصول لمكان الوضوء فيتوضأ على كُرهٍ... المهم أنه يتوضأ على كُرهٍ ومشقة لكن بدون ضرر... أما مع الضرر فلا يتوضأ بل يتيمم...هذا مما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات، ولكن هذا لا يعنى أن الإنسان يَشُق على نفسه ويذهب يتوضأ بالماء البارد ويترك الساخن، أو يكون عنده ما يُسخن به الماء، ويقول: لا.. بل أريد أن أتوضأ بالماء البارد؛ لأنال هذا الأجر، فهذا غير مشروع، لأن الله يقول: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ ورأى النبى ﷺ رجلاً واقفًا فى الشمس قال: ما هذا؟ قالوا: نَذَر أن يقف فى الشمس، فنهاه عن ذلك وأمره أن يستظل... فالإنسان ليس مأمورًا ولا مندوبًا فى أن يفعل ما يَشُق عليه ويضره، بل كلما سَهُلت عليه العبادة فهو أفضل، لكن إذا كان لا بد من الأذى والكُره فإنه يُؤجَر على ذلك؛ لأنه بغير اختياره.

۞ كذلك «**كثرة الخُطا إلى المساجد**» فيه دليل على أن الجماعة تكون فى المسجد ولا تكون فى البيت، وأن الإنسان إذا كثرت خُطاه إلى المساجد: يرفع الله له به الدرجات ويمحو عنه الخطايا... وقد ثبت عن النبى ﷺ أن الرجل إذا توضأ فى بيته فأسبغ الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاة، لم يَخطُ خطوة إلا رفع الله له بها درجة وحَطَّ عنه بها خطيئة. وهذه نعمة عظيمة، فإذا وصل المسجد وصلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مُصلَّاه، تقول: اللهم صَلِّ عليه، اللهم اغفر له، اللهم ارحمه... ولا يزال فى صلاة ما انتظر

الصلاة، «**وكثرة الخُطا**» معناه أن يأتى الإنسان للمسجد ولو من بُعدٍ.

وليس المعنى أن يتعمد السير فى الطريق البعيد أو أن يُقارب الخُطا... فهذا غير مشروع، بل يمشى على عادته ولا يتقصد البُعد... يعنى: مثلاً لو كان بينه وبين المسجد طريق قريب وآخر بعيد لا يترك القريب ويمشى فى البعيد... لكن إذا كان بعيدًا ولا بد أن يمشى إلى المسجد فإن كثرة الخُطا إلى المساجد مما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات.

۞ وأما «**انتظار الصلاة بعد الصلاة**»: بمعنى أن الإنسان إذا فرغ من هذه الصلاة يتشوق إلى الصلاة الأخرى وهكذا يكون قلبه مُعلَّقًا بالمساجد: كلما فرغ من صلاة فهو ينتظر الصلاة الأخرى... هذا أيضًا مما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات... قال: «**فذلكم الرباط فذلكم الرباط**»: يعنى المرابطة على الخير، وهو داخل فى قوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[1].

فمن انتظر الصلاة بعد الصلاة شوقًا إليها فإن الله يمحو عنه خطاياه ويرفع له الدرجات.

قَالَ الْقَاضِى عِيَاضٌ: مَحوُ الْخَطَايَا كِنَايَةٌ عَنْ غُفْرَانِهَا. قَالَ: وَيُحتَمَلُ مَحوَهَا مِنْ كِتَابِ الْحَفَظَةِ وَيَكُونُ دَلِيلًا عَلَى غُفْرَانِهَا... وَرَفْعُ الدَّرَجَاتِ إِعلَاءُ الْمَنَازِلِ فِى الْجَنَّةِ[2].

وقوله ﷺ: «**فذلكم الرباط**» أصل الرباط: الإقامة على جهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل وإعدادها، وهذا من أعظم الأعمال فلذلك شبَّه به ما ذُكر من الأفعال الصالحة والعبادة فى هذا الحديث... أى: أن المواظبة على الطهارة

---

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ١٣٧-١٣٨).

(٢) مسلم بشرح النووى (٣/ ١٧٩).

والصلاة والعبادة كالجهاد فى سبيل الله.

وقيل: إن الرباط هاهنا اسمٌ لما يربط به الشىء، والمعنى أن هذه الخلال تربط صاحبها عن المعاصى وتَكُفُّه عنها.



(٩٢) فضل الصيام

۞ عنْ أبى هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «قال الله عَزَّ وَجَلَّ: كُلُّ عملِ ابنِ آدم لهُ إلا الصِّيام، فإنَّه لى وأنَا أجْزِى به. والصِّيام جُنَّةٌ فإذا كان يومُ صومِ أحدِكُمْ فلا يَرفُثْ ولا يَصخَبْ، فإنْ سابَّهُ أحدٌ أوْ قاتَلَهُ، فَلْيَقُل: إنِّى صائمٌ. والذى نَفْس مُحمَّدٍ بيدهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أطْيَبُ عِنْد الله مِن رِيحِ المِسْكِ. للصَّائمِ فَرحَتَانِ يفرحُهُما: إذا أفْطَرَ فَرِحَ بِفطْرِه، وإذا لَقى ربَّهُ فرِح بِصَوْمِه»(١).

وهذا لفظ رواية البُخارى... وفى رواية له: «يترُكُ طَعَامَهُ، وشَرابَهُ، وشَهْوتَهُ، مِن أجْلى، الصِّيامُ لى وأنا أجْزِى به، والحسنةُ بِعَشْرِ أمْثَالِهَا».

وفى رواية لمسلم: «كُلُّ عَملِ ابنِ آدَمَ يُضاعفُ الحسنةُ بِعشْر أمْثَالِهَا إلى سَبْعمائة ضِعف. قال الله تعالى: «إلا الصَّوْمَ فإنَّهُ لى وأنا أجْزى به: يدعُ شَهْوَتَهُ وطَعامَهُ مِن أجْلى. للصَّائمِ فَرحَتانِ: فرحة عند فطره، وفرحةٌ عِنْدَ لقاء ربِّهِ. ولخُلُوفُ فِيهِ أطْيَبُ عِنْدَ الله مِنْ ريح المِسْكِ».

۞ قال ﷺ: «قال الله عَزَّ وَجَلَّ: كُلُّ عملِ ابنِ آدم لهُ إلا الصِّيام، فإنَّه لى وأنَا أجْزِى به» والمعنى: أن الصيام قد اختصه الله عَزَّ وَجَلَّ لنفسه من بين سائر الأعمال لأنه سِرٌّ بين العبد و ربه.. ولأنه العبادة الوحيدة التى لا يتطرق إليها الرياء.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِى مَعنَاهُ مَعَ كَوْنِ جَمِيعِ الطَّاعَاتِ لِلَّهِ تَعَالَى. فَقِيلَ: سَبَبُ إِضَافَتِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُعبَد أَحَدٌ غَيْرُ اللهِ تَعَالَى بِهِ. فَلَمْ يُعَظِّمِ الْكُفَّارُ فِى عَصرٍ مِنَ الْأَعصَارِ مَعبُودًا لَهُمْ بِالصِّيَام، وَإِنْ كَانُوا يُعَظِّمُونَهُ بِصُورَةِ الصَّلَاةِ وَالسُّجُودِ وَالصَّدَقَةِ وَالذِّكْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ... وَقِيلَ: لِأَنَّ الصَّوْمَ بَعِيدٌ مِنَ الرِّيَاءِ لِخَفَائِهِ بِخِلَافِ الصَّلَاةِ وَالْحَجِّ والغزو وَالصَّدَقَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٠٤) كتاب الصوم – ومسلم (١١٥١) كتاب الصيام.

لظَّاهِرَةِ... وَقِيلَ: لِأَنَّهُ لَيْسَ لِلصَّائِمِ وَنَفْسِهِ فِيهِ حَظٌّ... قَالَهُ الْخَطَّابِيُّ. قَالَ: وَقِيلَ: إِنَّ الِاسْتِغْنَاءَ عَنِ الطَّعَامِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى فَتَقَرُّبُ الصَّائِمِ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَإِنْ كَانَتْ صِفَاتُ اللهِ تَعَالَى لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: أَنَا الْمُنْفَرِدُ بِعِلْمِ مِقْدَارِ ثَوَابِهِ أَوْ تَضْعِيفِ حَسَنَاتِهِ... وَغَيْرِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ، أَظْهَرَ سُبْحَانَهُ بَعض مَخْلُوقَاتِهِ عَلَى مِقْدَارِ ثَوَابِهَا... وَقِيلَ: هِيَ إِضَافَةُ تَشْرِيفٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ مَعَ أَنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ لِلَّهِ تَعَالَى... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيَانُ عِظَمِ فضل الصوم والحث إِلَيْهِ[1].

۞ وقال بعض أهل العلم:

ومعناه: إذا كان يوم القيامة.. وكان على الإنسان مظالم للعباد، فإنه يُؤخذ للعباد من حسناته إلا الصيام، فإنه لا يُؤخذ منه شيء، لأنه لله عَزَّوَجَلَّ وليس للإنسان... وهذا معنى جيد، أن الصيام يتوفر أجره لصاحبه ولا يُؤخذ منه لمظالم الخلق شيئًا.

ومنها: أن عمل ابن آدم يُزاد من حسنة إلى عشرة أمثالها، إلا الصوم، فإنه يُعطى أجره بغير حساب... يعني: أنه يُضاعف أضعافًا كثيرة.

قال أهل العلم: ولأن الصوم اشتمل على أنواع الصبر الثلاثة، ففيه صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله.

أما الصبر على طاعة الله، فلأن الإنسان يحمل نفسه على الصيام مع كراهته له أحيانًا... يكرهه لمشقته، لا لأن الله فَرَضه.. بل لمشقته فيصبر عن الطعام والشراب والنكاح لله عَزَّوَجَلَّ... ولهذا قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي**».

النوع الثاني من أنواع الصبر: الصبر عن معصية الله، وهذا حاصل للصائم،

---

(١) مسلم بشرح النووي (٨/ ٤٢).

فإنه يُصبر نفسه عن معصية الله عَزَّوَجَلَّ، فيتجنب اللغو والرفث والزور وغير ذلك من محارم الله.

الثالث: الصبر على أقدار الله، وذلك أن الإنسان يصيبه في أيام الصوم (ولا سيما في الأيام الحارة والطويلة) من الكسل والملل والعطش ما يتألم ويتأذى به، ولكنه صابر لأن ذلك في مرضاة الله.

فلما اشتمل على أنواع الصبر الثلاث كان أجره بغير حساب.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

۞ قوله سبحانه وتعالى: «**وأنا أجْزى به**» فلم يُحدد الجزاء والثواب.. وذلك لأن الصوم من الصبر.. وقد قال تعالى عن ثواب الصابرين: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «**وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**» بَيَانٌ لِعِظَمِ فَضْلِهِ وَكَثْرَةِ ثَوَابِهِ لِأَنَّ الْكَرِيمَ إِذَا أَخْبَرَ بِأَنَّهُ يَتَوَلَّى بِنَفْسِهِ الْجَزَاءَ اقْتَضَى عِظَمَ قَدرِ الْجزَاءِ وَسَعَةَ الْعطَاءِ.

۞ وقَوْلُهُ ﷺ: «**الصِّيَامُ جُنَّةٌ**»، وَمَعنَاهُ سُتْرَةٌ وَمَانِعٌ مِنَ الرَّفَثِ وَالْآثَامِ وَمَانِعٌ أَيْضًا مِنَ النَّارِ ... وَمِنْهُ الْمِجَنُّ وَهُوَ التُّرسُ وَمِنْهُ الْجِنُّ لِاسْتِتَارِهِمْ[2].

۞ «**فإذا كان يومُ صومِ أحدِكُمْ فلا يرفُثْ ولا يَصخَبْ**» يعنى: لا يقول قولًا يأثم به ولا يصخب فيتكلم بكلام صخب.. بل يكون وقورًا مطمئنًا متأنيًا، فإن سابَّه أحدٌ أو شَاتَمه فلا يرفع صوته عليه، بل يقول: إنى صائم..يقول ذلك؛ لئلا يتعالى عليه الذى سابَّه..كأنه يقول: أنا لست عاجزًا عن أن أقابلك بما سببتنى ولكنى صائم، يمنعنى صومى من الرد عليك، وعلى هذا فيقوله جهرًا.

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (٣/ ٢٥١) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووى (٨/ ٤٣-٤٤) بتصرف.

كذلك أيضًا إذا قال: (إنى صائم) يردع نفسه عن مقابلة هذا الذى سابَّه.

كأنه يقول لنفسه: (إنى صائم، فلا تَرُدِّى على هذا الذى سَبَّ) وهذا أيضًا معنى جليل عظيم... ولهذا كان النبى ﷺ إذا رأى من الدنيا ما يُعجبه وخاف أن تتعلق نفسه بذلك، قال: «**لبيك إن العيش عيش الآخرة**». فالنفس مجبولة على محبة ما تميل إليه، فإذا رأى ما يعجبه من الدنيا فليقل: لبيك: يعنى إجابةً لك يا رب.

«**إن العيش عيش الآخرة**» أما عيش الدنيا فزائلٌ وفانٍ.

۞ «**والذى نَفْس محمَّدٍ بيدهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أطْيَبُ عِنْد الله مِن رِيحِ المِسْكِ**» لأن تلك الرائحة إن كانت كريهة بالنسبة للبشر إلا أنها طيبة عند رب البشر لأنها خرجت من طاعة يتقرب بها العبد إلى الله عَزَّوَجَلَّ... قَالَ الْقَاضِى: يُجَازِيهِ اللهُ تَعَالَى بِهِ فِى الْآخِرَةِ فتكُونُ نَكْهَتُهُ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ كَمَا أَنَّ دَمَ الشَّهِيدِ يَكُونُ رِيحُهُ رِيحَ الْمِسْكِ... وَقِيلَ يحصل لصاحبه من الثواب أكثر ممَّا يَحصُلُ لِصَاحِبِ الْمِسْكِ... وَقِيلَ: رَائِحَتُهُ عِنْدَ مَلَائِكَةِ اللهِ تَعَالَى أَطْيَبُ مِنْ رَائِحَةِ الْمِسْكِ عِنْدَنَا وَإِنْ كَانَتْ رَائِحَةُ الْخُلُوفِ عِنْدَنَا خِلَافَهُ[1].

قال أبو حاتم: شعار المؤمنين فى القيامة التحجيل بوضوئهم فى الدنيا فرقًا بينهم وبين سائر الأمم... وشعارهم فى القيامة بصومهم طِيبُ خلوفهم أطيب من ريح المسك ليُعرَفوا بين ذلك الجمع بذلك العمل...نسأل الله بركة ذلك اليوم... قال مكحول: يُروَّح على أهل الجنة برائحة فيقولون: ربنا ما وجدنا ريحًا منذ دخلنا الجنة أطيب من هذا الريح..فيقال: هذه رائحة أفواه الصائمين.

۞ «**للصَّائم فرحَتَانِ يفرحُهما: إذا أفْطَرَ فَرِحَ بِفطْرِه، وإذا لَقى ربَّهُ فرِح بِصَوْمِه**» قَالَ الْعُلَمَاءُ: أَمَّا فَرحَتُهُ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ فَبِمَا يَرَاهُ مِنْ جَزَائِهِ وَتَذَكُّرِ نِعمَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ بِتَوْفِيقِهِ لِذَلِكَ...وَأَمَّا عِنْدَ فِطْرِهِ فَسَبَبُهَا تَمَامُ عِبادَتِهِ وَسَلَامَتُها مِنَ

(١) مسلم بشرح النووى (٨/ ٤٣).

الْمُفْسِدَاتِ وَمَا يَرجُوهُ مِنْ ثَوَابِهَا[١].

قال العلامة ابن رجب: أما فرحة الصائم عند فطره، فإن النفوس مجبولة على الميل إلى ما يُلائمها من مطعم ومَشرب ومَنكح... فإذا مُنعت من ذلك فى وقتٍ من الأوقات ثم أُبيح لها فى وقتٍ آخر فرحت بإباحة ما مُنعت منه خصوصًا عند اشتداد الحاجة إليه.

قال أبو العالية: الصائم فى عبادة، وإن كان نائمًا على فراشه..فكانت حفصة تقول: يا حبذا عبادة وأنا نائمة على فراشى... فالصائم فى ليله ونهاره فى عبادة، ويُستجاب دعاؤه فى صيامه وعند فطره...فهو فى نهاره صائم وصابر وفى ليله طاعم شاكر.

وأما فرحه عند لقاء ربه: فبما يجده عند الله من ثواب الصيام مُدَّخرًا فيجده أحوج ما كان إليه... كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾[٢].

---

(١) مسلم بشرح النووى (٨/ ٤٥).

(٢) سورة المزمل: الآية: (٢٠).

(٩٣) فضل الذِّكر ومُجالسة الصالحين

۞ عن أَبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «إِنَّ لله تَعَالَى مَلائِكَةً يَطُوفُونَ فى الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فإذا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ، فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِم إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ - وَهُوَ أعلَم: مَا يقولُ عِبَادى؟ قَالَ: يقولون: يُسَبِّحُونَكَ، ويُكَبِّرُونَكَ، وَيَحمَدُونَكَ، ويُمَجِّدُونَكَ، فيقول: هَلْ رَأَوْنِى؟ فيقولونَ: لا واللهِ مَا رَأَوْكَ. فيقولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْنى؟! قَالَ: يقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا، وأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا. فَيقُولُ: فماذا يَسْألونَ؟ قَالَ: يقُولُونَ: يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ. قَالَ: يقولُ: وَهل رَأَوْها؟ قَالَ: يقولون: لا واللهِ يا رَبِّ مَا رَأَوْهَا. قَالَ: يقول: فَكيفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يقولون: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرصًا، وأشدَّ لَهَا طَلَبًا، وأعظَمَ فِيهَا رَغْبَةً. قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ: يقولون: يَتَعَوَّذُونَ مِنَ النَّارِ؛ قَالَ: فيقولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يقولون: لا واللهِ مَا رَأَوْهَا. فيقولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟! قَالَ: يقولون: لَوْ رَأَوْهَا كانوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً. قَالَ: فيقولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّى قَد غَفَرتُ لَهُم، قَالَ: يقولُ مَلَكٌ مِنَ المَلائِكَةِ: فِيهم فُلانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: هُمُ الجُلَسَاءُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»(١).

۞ وفى رواية لمسلمٍ عن أَبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبىِّ ﷺ قَالَ: «إن للهِ مَلائِكَةً سَيَّارَةً فُضلًا يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ، قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفَّ بَعضُهُمْ بَعضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ حَتَّى يَمْلَأُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّماءِ الدُّنْيَا، فإذا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعدُوا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَسْأَلُهُمْ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ -وَهُوَ أعلَمُ-: مِنْ أَيْنَ

---

(١) الحديث بهذا اللفظ صحيح: رواه البخارى (٦٤٠٨) كتاب الدعوات.

أما حديث مسلم: أخرجه فى صحيحه (٣٦٨٩) كتاب الذكر والدعاء.

سيارة: يسيحون فى الأرض- فُضلًا: زائدون عن الحفظة وغيرهم لا وظيفة لهم.

جِئْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبادٍ لَكَ فِى الأرضِ: يُسَبِّحُونَكَ، ويُكبِّرُونَكَ، وَيُهَلِّلُونَكَ، وَيَحمَدُونَكَ، وَيَسْأَلُونَكَ. قَالَ: وَمَاذا يَسْأَلُونِى؟ قالوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ. قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِى؟ قالوا: لا، أَىْ رَبِّ. قَالَ: فكيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتى؟! قالوا: ويستجيرونكَ. قَالَ: ومِمَّ يَسْتَجِيرُونِى؟ قالوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ. قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارى؟ قالوا: لا، قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِى؟! قالوا: وَيَسْتَغفِرُونكَ؟ فيقولُ: قَد غَفَرتُ لَهُمْ، وَأَعطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَجَرتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا. قَالَ: فيقولون: ربِّ فيهمْ فُلانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ إنَّمَا مَرَّ، فَجَلَسَ مَعَهُمْ. فيقُولُ: ولهُ غَفَرتُ، هُمُ القَومُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ».

۞ الملائكة عالم غير عالم الإنس وعالم الجن.. وهو عالم كريم، كله طُهر وصفاء ونقاء، وهم كرام أتقياء، يعبدون الله حق العبادة، ويقومون بتنفيذ ما يأمرهم به، ولا يعصون الله أبدًا.

والإيمان بالملائكة أصل من أصول الإيمان، لا يصح إيمان عبدٍ ما لم يؤمن بهم... قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾[1].

ولما كانت الملائكة أجسامًا نورانية لطيفة، فإن العباد لا يستطيعون رؤيتهم، خاصة أن الله لم يُعطِ أبصارنا القدرة على هذه الرؤية.

ولم يرَ الملائكةَ فى صورهم الحقيقية من هذه الأمة إلا الرسول ﷺ، فإنه رأى جبريل مرتين فى صورته التى خلقه الله عليها.

۞ ولكن الأصل أن عالم الملائكة عالم غيبى... والملائكة كلهم خير ولهذا لا يدخلون الأماكن التى فيها ما يُغضب الله عَزَّوَجَلَّ فلا يدخلون بيتًا فيه صورة ولا يصحبون رفقة فيها جرس ولا رفقة معهم كلب إلا الكلب المُحلَّل الذى يجوز

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٨٥).

اقتناؤه... هؤلاء الملائكة جعلهم الله عَزَّوَجَلَّ يسيحون فى الأرض فإذا وجدوا حِلَق الذكر جلسوا معهم ثم حَفُّوا هؤلاء الجالسين بأجنحتهم إلى السماء... يعنى هؤلاء الملائكة من الأرض إلى السماء..ثم إن الله تعالى يسألهم ليُظهر فضيلة هؤلاء القوم الذين جلسوا يذكرون الله ويسبحونه ويحمدونه ويُهللونه ويكبرونه ويدعونه وإلا فالله عَزَّوَجَلَّ أعلم لماذا جلسوا لكن ليُظهر فضلهم ونُبلهم.

فيسألهم الله ماذا يقول عبادى؟ فيقولون: يُسبحونك ويُكبرونك ويحمدونك ويمجدونك فهم لا يَفتُرون عن ذكر الله مع أنهم لم يروه.. ولذا قال تعالى: فكيف لو رأونى؟ فقالت الملائكة: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيدًا وأكثر لك تسبيحًا. ثم يسأل الله الملائكة - وهو سبحانه أعلم بكل شيء- وماذا يسألونى؟ فيقولون: أن هؤلاء الناس يسألون الله الجنة ويستعيذون به من النار مع أنهم ما رأوا الجنة ولا النار لكنهم علموا بهما من الكتاب والسُّنة فهم على يقين بكل ما جاء فيهما.. فإذا بالحق (جل وعلا) يقول: أُشهدكم أنى قد غفرت لهم جميعًا.. وإذا غفر الله لإنسان استحق أن يدخل الجنة وأن ينجو من النار..فيقول ملك من الملائكة: إن فيهم فلانًا ما جاء للذكر لكن جاء لحاجة فوجد هؤلاء القوم فجلس معهم. فيقول (جل وعلا): فله قد غفرت..هُم القوم لا يشقى بهم جليسهم.

۞ ففى هذا الحديث دليل على فضيلة مُجالسة الصالحين وأن الجليس الصالح ربما يشمله الله سبحانه وتعالى برحمته لمجالسته هذا الجليس الذاكر الصَّالح وإن لم يكن مثله لأن الله قال قد غفرت لهذا مع أنه ما جاء من أجل الذكر والدعاء لكنه جاء لحاجة وقال: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم... وعلى هذا فيُستحب الاجتماع على الذكر وعلى قراءة القرآن وعلى التسبيح والتحميد والتهليل.. وكُلٌّ يدعو لنفسه... ويسأل الله لنفسه ويذكر لنفسه.

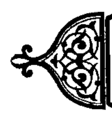
- أى ليست مجالس ذكر جماعية؛ لأن هذا لم يكن من هدى النبى ﷺ.

ومن الاجتماع أن يجتمع المسلمون على صلاة الفجر وصلاة العصر لأنها ذِكْرٌ: تسبيح وتكبير وتهليل وقراءة قرآن ودعاء... وقد ثبت عن النبى ﷺ أن الملائكة الموكلين ببنى آدم يجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر(١).

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٣٧٩-٣٨٠) بتصرف.



(٩٤) الذى يذكر ربه عَزَّوَجَلَّ حىٌّ.. والذى لا يذكره ميت



۞ عن أبى مُوسَى الأشعرىِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبى ﷺ قال: «**مَثَلُ الذى يَذكُرُ ربَّهُ والذى لا يذكُرُهُ، مَثَلُ الحىِّ والميِّتِ**»[١].

ورواه مسلم فقال ﷺ: «**مَثَلُ البَيْتِ الذى يُذْكَرُ الله فيه، والبيت الذى لا يُذْكَرُ الله فيه، مَثَلُ الحىِّ والميِّتِ**»[٢].

۞ قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الذى يَذكُرُ ربَّهُ والذى لا يذكُرُهُ، مَثَلُ الحىِّ والميِّتِ**» وذلك لأن الذى يذكر الله تعالى قد أحيا الله قلبه بذكره وشرح له صدره فكان كالحى، وأما الذى لا يذكر الله فإنه لا يطمئن قلبه والعياذ بالله، ولا ينشرح صدره للإسلام، فهو كمثل الميت ... وهذا مثل ينبغى للإنسان أن يعتبر به وأن يعلم أنه كلما غفل عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يقسو قلبه وربما يموت قلبه والعياذ بالله.

۞ المَثلُ: الصفة... أى صفة الذى يذكر ربه، والذى لا يذكره صفة «الحى والميت» أى الذاكر حىّ، والتارك للذكر ميت.. وبيان ذلك أن الذِّكر يكون بالقلب واللسان، فمن ذكر ربه دَلَّ ذِكره على حياته؛ لأن الإدراك والفهم والوعى يكون بالقلب، والنُّطقِ، والإعرابُ، والبيانُ يكون باللسان، ومَن لا يذكر ربه دلَّ عدم ذكره على موت قلبه، وتوقف حركة لسانه، وبذلك فهو ميِّت، وسرُّ هذه الظاهرة أن الله تعالى خلق للإنسان هذه الكائنات لتقوم عليها حياته، وخلقه هو لعبادته... وعبادة الله تعالى - وإن كانت طاعته بفعل أمره، وترك نهيه- فإنها تدور على حقيقة الذكر، والشكر.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤٠٧) كتاب الدعوات.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٧٩) كتاب صلاة المسافرين.

وقوله ﷺ: «مثل البيت الذى يُذكر الله فيه... إلخ» دالٌّ على ما دلَّ عليه الحديث قبله، وهو أن البيت الخالى من ذكر الله تعالى صاحبه ميت، إذ لو كان حيًّا لَذكَر الله تعالى بعبادته، كما أن البيت الذى يُذكَر الله تعالى فيه صاحبه حيٌّ، ودليل حياته ذكره لله تعالى بعبادته التى تدور على الذكر والشكر[١].

۞ فالغافل عن ذكر الله يصبح قلبه قاسيًا.. بل ربما يموت قلبه فيصبح كمثل الميت.. أما الذى يُكثر من ذكر الله فإن الله يُحيى قلبه ويشرح صدره ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ (٢٨) ﴾[٢].

---

(١) كتاب المسجد / الشيخ أبو بكر الجزائرى (ص ٥١).

(٢) سورة الرعد: الآية: (٢٨).



(٩٥) فضل المداومة على التوبة والاستغفار

۞ قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الشَّيْطانَ قالَ: وعِزَّتِكَ يا رَبِّ لا أبْرَحُ أُغْوِى عِبادَكَ مَا دَامَتْ أرْواحُهُمْ فِى أجْسادِهِمْ .. فَقالَ الرَّبُّ: وعِزَّتِى وجَلالِى لا أزَالُ أغْفِرُ لهمْ مَا اسْتَغْفَرُونى**»(١).

۞ إن الشيطان لا يزال حريصًا على إغواء بنى آدم من أجل إضلالهم وإبعادهم عن طريق الجنة.. لكن المؤمن يُجاهد نفسه وهواه وشيطانه ليسير على طريق الجنة.. فإذا استطاع الشيطان أن يوقعه فى معصية فإن العبد المؤمن سُرعان ما يتدارك نفسه بالاستغفار ليغفر الله له ذنبه وليعود المؤمن أفضل مما كان ويستأنف السير فى طريق الجنة.

۞ وإن الاستغفار من أعظم الأسباب التى تجلب لك الخير فى الدنيا والآخرة فأكثِر من الاستغفار وأبشر بكل خير.

قال ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسُرَّهُ صَحِيفَتُهُ فَلْيُكْثِر فِيهَا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ**»(٢).

وقال ﷺ: «**طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِى صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا**»(٣).

وقال ﷺ: «**عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، لا يَقْضِى اللهُ لَهُ شَيْئًا إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ**»(٤).

قيل لابن تيمية: حتى المعصية؟ قال: نعم، إذا كان معها التوبة والندم، والاستغفار والانكسار. ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ**

---

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو يعلى، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٥٠).

(٢) حسن: رواه البيهقى فى الشعب والضياء، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٥٥).

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه، وأبو نُعيم فى الحلية، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٩٣٠).

(٤) صحيح: رواه عبد الله بن أحمد فى مسند أبيه ورواه أبو يعلى وابن حبان، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٤٨).

وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾[(١)].

قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: إن المسألة لَتُغلَق عليَّ، فأستغفر الله ألف مرة أو أكثر أو أقلَّ، فيفتحها الله عليَّ.

۞ وها هى باقة عطرة من ثمرات الاستغفار فى الدنيا والآخرة:

(١) مغفرة الذنوب:

قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾﴾[(٣)].

وقال ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ، لا أَبْرَحُ أُغْوِى عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِى أَجْسَادِهِمْ، فَقَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِى وَجَلَالِى لا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِى**»[(٤)].

- بل وفى الحديث القدسى الذى رواه الشيخان أن الله عَزَّوَجَلَّ يُنادى فى الثلث الأخير من الليل: «**مَنْ يَسْتَغْفِرُنِى فَأَغْفِرَ لَهُ...**»[(٥)]...

وفى الحديث القدسى الذى رواه مسلم أن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: «**فَاسْتَغْفِرُونِى أَغْفِرِ لَكُمْ...**»[(٦)].

---

(١) سورة النساء: الآية: (٦٤).

(٢) سورة المزمل: الآية: (٢٠).

(٣) سورة النساء: الآية: (١١٠).

(٤) حسن: رواه أحمد والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٥٠)، وصحيح الترغيب (١٦١٧).

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (١١٤٥) كتاب التهجد- ومسلم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٦) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) الفوز بمحبة الله (جلَّ وعلا) :

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾[١].

(٣) سبب لسعة الرزق والإمداد بالمال والبنين :

قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾[٢].

وقال الله سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾[٣].

(٤) أنه سبب لحصول القوة فى البدن كذلك :

قال هود ﷺ لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[٤].

(٥) أنه سبب لدفع المصائب ورفع البلايا :

فالمصائب فى كثير من الأحيان سببها الذنوب والمعاصى[٥] كما قال تعالى:

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٢٢).

(٢) سورة نوح: الآية: (١٠-١٢).

(٣) سورة هود: الآية: (٣).

(٤) سورة هود: الآية: (٥٢).

(٥) وإن كانت هناك ابتلاءات تقع فى بعض الأحيان؛ لإظهار الصادق من الكاذب؛ ولإنابة المؤمنين وتمحيصهم ومحق الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد:٣١].

وكما قال سبحانه: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:٢، ٣].

وضبط هذا يكمن فى: أن العبد ينظر فى نفسه، فإن وجدها خفيفة من الذنوب، فليعلم أن ما وقع

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾[(1)].

فالمصيبة تنزل فى كثير من الأحيان بذنبٍ.. فإذا أحدث العبد استغفارًا وتوبة نَصوحًا من هذا الذنب ترتفع المصيبة بإذن الله... فالله –سبحانه وتعالى– يقول: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾[(2)].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾[(3)].

(٦) سبب لبياض القلب وصفائه ونقائه :

فالذنوب تترك أثرًا سيئًا وسوادًا على القلب، كما ورد عن النبى ﷺ أنه قال: «**إنَّ العبدَ إِذَا أَخطأَ خَطِيئةً نُكِتَتْ فِى قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فإنْ هُوَ نَزَعَ واسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وإنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَى تَعلُو عَلَى قَلْبِهِ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِى ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾**»[(4)(5)].

(٧) زوال الوحشة بين العبد و ربه عَزَّوَجَلَّ :

فإن الذنوب تجعل بين العبد وبين ربه عَزَّوَجَلَّ وحشة شديدة.. والاستغفار يزيل ذلك – بإذن الله–.

= فيه إنما هو ابتلاء من الله، فليوطن العبد نفسه على الصبر والرضا بأقدار الله–سبحانه وتعالى–، وأيضًا ليكثر من الاستغفار فلعله فعل ذنبًا وهو لا يشعر.

أما إذا رأى العبد نفسه مرتكبًا للمعاصى ومسرفًا على نفسه، وحلَّت به بلية فليعلم أنها بسبب كسبه فليُقلع عن الذنب والمعصية فورًا، وليُؤدِّ المظالم إلى أهلها ويُقبل على التوبة والاستغفار والإنابة والرجوع إلى الله وليُكثر من أعمال البِر والخير المكفرة للذنوب.

(١) سورة الشورى: الآية: (٣٠).

(٢) سورة النساء: الآية: (١٤٧).

(٣) سورة الأنفال: الآية: (٣٣).

(٤) سورة المطففين: الآية: (١٤).

(٥) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٧٠).

(٨) زوال الهموم والغموم :

فالمعصية همٌّ بالليل وهمٌّ بالنهار... والاستغفار يزيل الهموم ويشرح الصدور – بإذن الله–.

(٩) يوم القيامة تكون فى ظل عرش الرحمن :

ففى الصحيحين أن النبى ﷺ قال: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِى ظِلِّهِ. يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ** – وكان من بينهم –: **وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**»[1] أى: تذكَّر ذنوبه، فتاب واستغفر وأشفق على نفسه من ذنوبه ففاضت عيناه.

(١٠) نور على الصراط :

فالصراط منصوب على متن جهنم... وهى سوداء مظلمة.

والاستغفار من جملة الأعمال الصالحة التى يجعلها الله سببًا للنور على الصراط ولذا قال تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠**﴾[2].

– وفضل المغفرة يظهر واضحًا جليًّا فى سؤال الصالحين لها... ونورهم يسعى بين أيديهم ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٨**﴾[3].

(١١) من أسباب دفع العذاب :

قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣**﴾[4].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٠) كتاب الأذان– ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة.

(٢) سورة النور: الآية: (٤٠).

(٣) سورة التحريم: الآية: (٨).

(٤) سورة الأنفال: الآية: (٣٣).

قال أبو موسى: كان لنا أمانان: ذهب أحدهما وهو كون الرسول ﷺ فينا وبقى الاستغفار معنا، فإذا ذهب هلكنا.

(١٢) سبب لدخول الجنة:

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[(١)].

(١٣) سبب لرفع الدرجات:

قال ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَتُرفَعُ دَرَجَتُهُ فِي الجَنَّةِ، فَيَقولُ: أَنَّى لِي هَذَا؟ فَيُقَالُ: باسْتِغْفارِ وَلَدِكَ لَكَ»[(٢)].

۞ فلله ما أحلى قوله فى هذه الحال: «أسألك بعزِّك وذُلِّى إلاَّ رحمتنى. أسألك بقوتك وضعفى، وبغناك عنى وفقرى إليك.. هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواى كثير، وليس لى سيدٌ سواك، لا ملجأ ولا مَنجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين: وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال مَنْ خضعت لك رقبته ورَغِم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذَلّ لك قلبه».

يا مَنْ ألوذُ به فيما أُؤمِّلهُ ... ومَنْ أعوذُ به مما أُحاذرهُ

لا يَجبُر الناسُ عظمًا أنت كاسره ... ولا يهِيضون عظمًا أنت جابرُهُ

---

(١) سورة آل عمران: الآيات: (١٣٣ : ١٣٦).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦١٧).



(٩٦) شفقة النبى ﷺ على أُمته

۞ عَنْ عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما أن النَّبىَّ ﷺ تَلا قَوْل الله عز وجل فى إبراهِيمَ عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١] ، وَقَوْلَ عيسى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[٢] ، فَرَفَعَ يَدَيْه وقال: «**اللَّهُمَّ أُمَّتِى أُمَّتِى**» وَبَكَى، فقال الله عز وجل: «**يا جبريلُ اذْهَبْ إِلى مُحَمَّدٍ -وَربُّكَ أَعلَمُ - فسَلْهُ مَا يُبْكِيهِ؟**» فَأَتَاهُ جبريلُ... فَأَخبَرهُ رسولُ الله ﷺ بِمَا قال: وَهُو أَعلَمُ، فقال الله تعالى: «**يا جِبريلُ اذهَبْ إِلى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرضِيكَ فى أُمَّتِكَ وَلا نَسُوءكَ**»[٣] .

۞ ففى هذا الحديث أن النبى ﷺ جلس يتذكر يومًا ما قاله إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.. وتذكر قول عيسى عليه السلام أنه قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فقام يدعو ويبكى ويقول: «**اللَّهُمَّ أُمَّتِى أُمَّتِى**» أى: ارحم أمتى ولا تخفرنى فى أمتى ولا تحرمهم من دخول الجنة ولا تجعلهم من أهل النار... فكان دعاء النبى أعظم من دُعائهما. وهنا أرسل الله عز وجل جبريل عليه السلام وقال له: «**يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يُبكيه؟**» وربك أعلم ما الذى يُبكيه.

فلا يحتاج إلى أن يرسل جبريل عليه السلام ولكن أرسله حتى ينطق ويتكلم النبى ﷺ من تلقاء بنفسه بكل ما يتمناه... فأتاه جبريل وسأله فأخبره النبى ﷺ بما قال.. فعاد جبريل إلى ربه عز وجل ليخبره بما قاله النبى ﷺ -والله أعلم بما قال- فقال تعالى لجبريل عليه السلام: «**يا جبريل اذهب إلى محمدٍ فقُل إنَّا سنُرضيك فى أمتك**

---

(١) سورة إبراهيم: الآية: (٣٦).

(٢) سورة المائدة: الآية: (١١٨).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢) كتاب الإيمان.

ولا نَسُوءك».

وقد أرضاه الله عَزَّوَجَلَّ فى أمته، بأن جعل لهذه الأمة أجرها مُضاعَفًا، كما جاء فى الحديث الصحيح: «مَثَلُ المُسْلِمِينَ وَاليَهُودِ وَالنَّصَارَى، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا، يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا إِلَى اللَّيْلِ، فَعَمِلُوا إِلَى نِصفِ النَّهَارِ فَقَالُوا: لاَ حَاجَةَ لَنَا إِلَى أَجْرِكَ، فَاسْتَأْجَرَ آخَرِينَ، فَقَالَ: أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمْ وَلَكُمُ الَّذِى شَرَطْتُ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ حِينَ صَلاَةِ العَصرِ، قَالُوا: لَكَ مَا عَمِلْنَا، فَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ، وَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الفَرِيقَيْنِ»[1] وفى رواية: «...فَقَالَ: أَهْلُ الكِتَابَيْنِ: أَىْ رَبَّنَا، أَعْطَيْتَ هَؤُلاَءِ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، وَأَعْطَيْتَنَا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، وَنَحْنُ أَكْثَر عَمَلًا؟ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَىْءٍ؟ قَالُوا: لاَ، قَالَ: فَهُوَ فَضْلِى أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»[2]. إذًا... لا لوم عليه فى ذلك... ففضل الله على هذه الأمة كثير.

وقد أرضاه الله فى أمته -ولله الحمد- من عدة وجوه: منها كثرة الأجر، وأنهم الآخرون السابقون يوم القيامة، وأنها فُضّلت بفضائل كثيرة، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِى: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِى الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِى أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِى الغَنَائِمُ، وَكَانَ النَّبِىُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ»[3][4].

بل لقد أرضاه الله عَزَّوَجَلَّ فى أمته حين جعل هذه الأمة خير أُمة أُخرجت للناس كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[5].. بل جعل الأمة المحمدية

(١) صحيح:رواه البخارى (٥٥٨) كتاب مواقيت الصلاة.

(٢) صحيح:رواه البخارى (٥٥٧) كتاب مواقيت الصلاة.

(٣) متفق عليه:رواه البخارى (٣٣٥) كتاب التيمم - ومسلم (٥٢١) كتاب المساجد.

(٤)شرح رياض الصالحين (٢/ ١٦٧).

(٥)سورة آل عمران: الآية: (١١٠).

هى الأمة الشاهدة على كل الأمم يوم القيامة.. وتجاوز لهذه الأمة عمَّا توسوس به صدورهم ما لم يعملوا به أو يتكلموا به.... وجعلها أمة مرحومة لا يُخلَّد أى واحدٍ منهم فى النار ما دام قد جاء موحدًا.. وأرضاه فى أمته بأن عصمها أن تجتمع على ضلالة.. وأرضاه فى أمته بأن بعث لها على رأس كل مائة سنة مَن يجدد لها أمر دينها... وأرضاه فى أمته بأن جعل عيسى ابن مريم عليه السلام يصلى خلف واحدٍ من هذه الأمة -وهو المهدى رضي الله عنه -... وأرضاه فى هذه الأمة بأن جعلهم يُدعَون يوم القيامة غُرًّا مُحجلين من أثر الوضوء... وأرضاه فى أمته بأن جعل هذه الأمة آخر الأمم وأول مَن يُحاسَب يوم القيامة.. وأرضاه فى أمته بأن جعل ثُلثى أهل الجنة من هذه الأمة... وأرضاه فى أمته بأن أعطاه سبعين ألفًا من أمته يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب.. فلما استزاده النبى ﷺ زاده مع كل ألفٍ سبعين ألفًا وثلاث حثياتٍ من حثيات الرحمن (جلَّ وعلا).

فهذه الخصائص له ولأمته عليه الصلاة والسلام.

۞ قال الإمام النووى رحمه الله:

هَذَا الْحَدِيثُ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الْفَوَائِدِ:

مِنْهَا: بَيَانُ كَمَالِ شَفَقَةِ النَّبِىِّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ وَاعْتِنَائِهِ بِمَصَالِحِهِمْ وَاهْتِمَامِهِ بِأَمْرِهِمْ.

وَمِنْهَا: اسْتِحْبَابُ رَفْعِ الْيَدَيْنِ فِى الدُّعَاءِ.

وَمِنْهَا: الْبِشَارَةُ الْعَظِيمَةُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ - زَادَهَا اللهُ تَعَالَى تَشريفًا- بِمَا وَعَدَهَا اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: «**سَنُرْضِيكَ فِى أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ**» وَهَذَا مِنْ أرجى الْأَحَادِيثِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَوْ أَرْجَاهَا.

وَمِنْهَا: بَيَانُ عِظَمِ مَنْزِلَةِ النَّبِىِّ ﷺ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى وَعَظِيمِ لُطْفِهِ سُبْحَانَهُ بِهِ ﷺ وَالْحِكْمَةُ فِى إِرْسَالِ جِبْرِيلَ لِسُؤَالِهِ ﷺ إِظْهَارُ شَرَفِ النَّبِىِّ ﷺ، وَأَنَّهُ بِالْمَحَلِّ

الْأَعْلَى فَيُسْتَرْضَى وَيُكْرَمُ بِمَا يُرْضِيهِ ... وَاللهُ أَعْلَمُ.

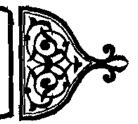
وَهَذَا الْحَدِيثُ مُوَافِقٌ لِقَوْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَا نَسُوءُكَ».

فَقَالَ صَاحِبُ التَّحرِيرِ: هُوَ تَأْكِيدٌ لِلْمَعْنَى أَىْ لَا نُحزِنُكَ لِأَنَّ الْإِرْضَاءَ قَدْ يَحصُلُ فِى حَقِّ الْبَعْضِ بِالْعَفْوِ عَنْهُمْ وَيَدْخُلُ الْبَاقِى النَّارَ فَقَالَ تَعَالَى: نُرْضِيكَ وَلَا نُدْخِلُ عَلَيْكَ حُزْنًا بَلْ نُنَجِّى الجميع ... والله أعلم[1].

---

(١) مسلم بشرح النووى (٢/ ٨٠).



(٩٧) فضل الصلاة على النبى ﷺ

۞ قال رسول الله ﷺ: «أتاني جِبْرِيلُ فقالَ: يَا مُحَمَّدُ! أما يُرْضِيكَ أنَّ رَبَّكَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: إنَّهُ لا يُصَلِّي عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ أحدٌ صَلَاة إلاَّ صليت عليه بها عشرًا وَلَا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أحدٌ منْ أُمَّتِكَ تَسْلِيمَةً إلاَّ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا؟. فَقُلْتُ: بَلَى أَى رب!»(١).

۞ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومن الفوائد والثمرات الحاصلة بالصلاة عليه ﷺ:

الأولى: امتثال أمر الله سبحانه وتعالى

الثانية: موافقته سبحانه فى الصلاة عليه ﷺ وإن اختلفت الصلاتان.

الثالثة: موافقة ملائكته فيها

الرابعة: حصول عشر صلوات من الله على المصلى مرة

الخامسة: أنه يُرفع له عشرُ درجات.

السادسة: أنه يُكتب له عشرُ حسنات.

السابعة: أنه يُمحى عنه عشرُ سيئات.

الثامنة: أنه يُرجَى إجابة دعائه إذا قدَّمها أمامه فهى تُصاعد الدعاء إلى عند رب العالمين.

التاسعة: أنها سبب لشفاعته ﷺ إذا قرنها بسؤال الوسيلة له أو أفردها.

العاشرة: أنها سببٌ لغفران الذنوب.

الحادية عشرة: أنها سبب لكفاية الله العبد ما أهمَّه.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائى، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧١).

الثانية عشرة: أنها سبب لقرب العبد منه ﷺ يوم القيامة.

الثالثة عشرة: أنها سبب لصلاة الله على المصلى وصلاة ملائكته عليه.

الرابعة عشرة: أنها سبب لردِّ النبى ﷺ الصلاة والسلام على المُصلِّى والمُسلِّم عليه.

الخامسة عشرة: أنها سبب لإبقاء الله سبحانه الثناء الحسن للمصلى عليه بين أهل السماء والأرض... لأن المصلى طالب من الله أن يُثنى على رسوله ويكرمه ويشرفه ... والجزاء من جنس العمل فلا بد أن يحصل للمصلى نوع من ذلك.

السادسة عشرة: أنها سبب البركة فى ذات المصلِّى وعمله وعمره وأسباب مصالحه ... لأن المصلى داعٍ ربه أن يبارك عليه وعلى آله ... وهذا الدعاء مستجاب والجزاء من جنسه.

السابعة عشرة: أنها سبب لنيل رحمة الله له؛ لأن الرحمة إما بمعنى الصلاة كما قاله طائفة، وإما من لوازمها وموجباتها على القول الصحيح فلا بد للمصلى عليه من رحمة تناله.

الثامنة عشرة: أن الصلاة عليه ﷺ أداء لأقل القليل من حقه، مع أن الذى يستحقه لا يُحصَى علمًا ولا قدرة ولا إرادة، ولكن الله سبحانه لكرمه رضى من عباده باليسير من شكره وأداء حقه.

التاسعة عشرة: أنها متضمنة لذكر الله تعالى وشكره، ومعرفة إنعامه على عبيده بإرساله...فالمصلى عليه ﷺ قد تضمنت صلاته على ذكر الله وذكر رسوله، وسؤاله أن يجزيه بصلاته عليه ما هو أهلُه كما عرفنا ربنا وأسماءه وصفاته، وهدانا إلى طريق مرضاته، وعرفنا مالنا بعد الوصول إليه والقدوم عليه فهى متضمنة لكل الإيمان.

العشرون: أنها سبب لعرض اسم المصلى عليه ﷺ وذكره عنده[1].

۞ وفى رواية:

عنْ عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سمِع رسُول الله ﷺ يقُولُ: «مَنْ صلَّى علَيَّ صَلَاةً، صلَّى الله علَيْهِ بِهَا عشْرًا»[2].

يعنى أنك إذا صليت على النبى ﷺ مرة فإن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يكافئك بعددٍ من الحسنات ولو كان كثيرًا... وإنما يكافئك بأن يصلى عليك عشر مرات وذلك بأن يُثنى عليك ويرحمك عشر مرات فى الملأ الأعلى... وهذا يدل على عُلو مرتبة النبى ﷺ عند الله (جل وعلا).... فأنت المستفيد من صلاتك على النبى ﷺ... لأن النبى ﷺ ليس بحاجة إلى صلاتك... فالله عَزَّ وَجَلَّ وملائكته يصلون عليه ﷺ[3].

---

(١) بتصرف من كتاب (جلاء الأفهام فى فضل الصلاة والسلام على محمدٍ خير الأنام) للإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٣٨٤) كتاب الصلاة.

(٣) شرح رياض الصالحين/ د. محمود المصرى (٦/ ٣٢٢).



(٩٨) البُشرى بالنبى ﷺ فى التوراة

۞ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما، قُلْتُ: أَخْبِرْنِى عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِى التَّوْرَاةِ؟ قَالَ: «أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِى التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِى القُرْآنِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[1]، وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِى وَرَسُولِى، سَمَّيْتُكَ المتوَكِّلَ ..لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ، وَلاَ سَخَّابٍ فِى الأَسْوَاقِ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا»[2].

۞ أكرم الله عز وجل البشرية برسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ، فأرسله إلى جميع العالمين إنسهم وجِنّهم، عربهم وعجمهم، بأوضح حُجة، وأظهر دلالة، وأبين برهان، وساق الله سبحانه وتعالى تلك الدلائل الظاهرة البيِّنة لتعلم البشرية صدق دعوته ونُبل رسالته، وأنه حلقة فى سلسلة الأنبياء الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى لوظيفة واحدة لا تتجزأ... وتتمثلُ فى دعوة التوحيد لله رب العالمين.

ومن سُنة الله تعالى أن كل نبى يُسلِّم جذوة دعوته إلى الذى يليه، وهكذا فقد

(١) سورة الأحزاب: الآية: (٤٥).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢١٢٥) كتاب البيوع.

«حرزًا»: الحِرزُ الوعاء الحصين يُحفظ فيه الشيء... والحرز المكان المَنيع يُلجأ إليه.

والمعنى أنه ﷺ حصن لهم من الضلالة والسوء والعذاب إذا آمنوا به واتبعوه.

«سَخَّاب أو صَخَّاب»: السخب والصخب بمعنى الصياح.

«يقيم به الملة العوجاء»: يصلح به ﷺ ملة إبراهيم التى غيرتها العرب عن استقامتها.

«غُلفًا»: أى مُغشاة مغطاة ... واحدها أغلف ومنه غلاف السيف وغيره.

بشَّرت به ﷺ الكتب السالفة، وأخبرت به الرسل السابقة، من عهد آدم عليه السلام أبى الأنبياء والبشر إلى عهد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، كُلما قام رسولٌ أُخذ عليه الميثاق بالإيمان به والبشارة بنُبُوته ورسالته.

وهذه البشارات هى بمنزلة الإعلان والبلاغ المسبق من الله ومن الرسل إلى الأمم والشعوب بِمَقْدِم محمد ﷺ... والحكمة منها أن لا يحدث انقطاع فى الهدى الإلهى؛ فإذا جاء نبىٌّ جديد فلا يُقابله أتباع النبى السابق بشىء من العداوة والبغضاء والتعصُّب المذموم، بل يشعرون أنه امتداد لما كان عليه النبى السابق؛ فتتواصل بذلك الهداية الإلهية، وتتعاضد وتتكامل الرسالات السماوية.

بشارات النبى ﷺ فى كتب الأولين

۞ أخبر القرآن الكريم أن الله تعالى أرسل لكل أُمة رسولاً يدعوهم إلى التوحيد فينذرهم ويُبشرهم، ليُقيم عليهم الحُجة يوم القيامة، وأن كل هذه الأمم والشعوب قد عرفت وتيقنت - عن طريق أنبيائهم ورسُلهم - بمجىء خاتم الأنبياء والرُّسل محمد ﷺ ...وهو ما أخبر به القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦﴾[1]، أى: «إن ذكر محمدٍ ﷺ فى كتب الأولين»[2].

۞ ولقد جاءت البشارات الكثيرة فى التوراة والإنجيل ببعثة خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ.. ولكن اليهود أرادوا أن يطمسوا النور الذى بين أيديهم وأن يُخفوا الحقائق الدالة على بعثة النبى ﷺ فحرَّفوا وبدَّلوا فى التوراة وذلك لأنهم كانوا يرجون أن يكون نبى آخر الزمان من ولد إسحاق عليه السلام .

---

(١) سورة الشعراء: الآية: (١٩٦).

(٢) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ١٣٨).

فلما كان النبي ﷺ من ولد إسماعيل عليه السلام ازداد اليهود حقدًا فوق حقدهم فبذلوا وسعهم من أجل تشويه الحقائق وطمسها.

❊❊❊

(٩٩) مِن نِعَم الله على نبيه محمد ﷺ

۞ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سَأَلْتُ رَبِّى مَسْأَلَةً، وَدِدْتُ أَنِّى لَمْ أَسْأَلْهُ، قُلْتُ: يَا رَبُّ، قَدْ كَانَتْ قَبْلِى رُسُلٌ، مِنْهُمْ مَنْ سَخَّرْتَ لَهُ الرِّيَاحَ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحْيِى الْمَوْتَى وكلَّمت مُوسَى. قَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلًا فَأَغْنَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدرَكَ؟ وَوَضَعْتُ عَنْكَ وِزْرَكَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَبُّ.. فَوَدِدْتُ أَنْ لَمْ أَسْأَلْهُ**»(١) .

۞ ففى هذا الحديث يقول النبى ﷺ: «**سَأَلْتُ رَبِّى مَسْأَلَةً، وَدِدْتُ أَنِّى لَمْ أَسْأَلْهُ**» فكانت تلك المسألة أنه ذكر بعض معجزات الأنبياء من قبله، ثم سكت ولم يسأل لنفسه شيئًا.. ولكن الله عز وجل أعلمه قدره ومكانته عنده (جلَّ وعلا)... فالنبى ﷺ هو سيد الأولين والآخرين وهو سيد ولد آدم عليه السلام وهو خليل الرحمن... وتالله ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نسمة أغلى عنده من النبى محمد ﷺ... ولذا قال للنبى ﷺ: «**أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُكَ؟ أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلًا فَأَغْنَيْتُكَ؟**» وهذا ما جاء فى كتابه العزيز حيث قال (جلَّ وعلا):

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ أى: وجدك لا أم لك، ولا أب...بل قد مات أبوه وأمه ﷺ وهو لا يدبر نفسه، فآواه الله، وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كَفَّله اللهُ عمَّه أبا طالب، حتى أيده الله بنصره وبالمؤمنين.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أى: وجدك لا تدرى ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق.

---

(١) صحيح: رواه الحاكم، والطبرانى فى الكبير، والأوسط، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٥٣٨).

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾ أى: فقيرًا ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ فأغناك الله بما فتح عليك من البلدان، التى جُبيت لك أموالها وخراجها.

فالذى أزال عنك هذه النقائص، سيزيل عنك كل نقصٍ، والذى أوصلك إلى الغنى، وآواك ونصرك وهداك، قابل نعمته بالشُّكران.

۞ ثم قال له تعالى: «**أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ؟ وَوَضَعْتُ عَنْكَ وِزْرَكَ؟**» وهذا ما جاء فى كتابه العزيز حيث قال (جلَّ وعلا):

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أى: نوسعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال على الآخرة، وتسهيل الخيرات ... فلم يكن ضيِّقًا حرجًا، لا يكاد ينقاد لخير، ولا تكاد تجده منبسطًا.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أى: ذنبك، ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ﴾ أى: أثقل ﴿ظَهْرَكَ﴾ كما قال تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أى: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالى، الذى لم يصل إليه أحدٌ من الخلق، فلا يُذكر الله إلا ذُكر معه رسوله ﷺ، كما فى الدخول فى الإسلام، وفى الأذان، والإقامة، والخُطب، وغير ذلك من الأمور التى أعلى الله بها ذكر رسوله محمد ﷺ.

وله فى قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحدٍ غيره، بعد الله تعالى...فجزاه الله عن أمته أفضل ما جزى نبيًّا عن أمته[(١)].

۞ فلما قال الله عَزَّوَجَلَّ للنبى ﷺ ذلك قال النبى ﷺ: «**فَوَدِدْتُ أَنْ لَمْ أَسْأَلْهُ**»... وهذا من حياء النبى ﷺ وأدبه الذى لا يعرف قدره إلا الله الذى أدَّبه وربَّاه وصنعه على عينه، ثم أثنى عليه بأعظم ثناءٍ فقال (جلَّ وعلا): ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

---

(١) تفسير السعدى (ص ١٠٩٥-١٠٩٦) بتصرف.

۞ ولا بد أن نعلم أنَّ ما ادَّخره الله لنبيه ﷺ في الآخرة أعظم مما أعطاه في الدنيا.

قال الله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾[1] أي: ما أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ في الدنيا من شرح الصدر، ورفع الذكر، وحَطِّ الوزر، وظهور أمره، وعُلو شأنه، وما ألقاه الله عَزَّوَجَلَّ له من المحبة في قلوب خلقه، كل هذا لا شيء بجوار ما أعدَّه الله له في الآخرة.

۞ ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ قال أهل التفسير: أرى رسول الله ﷺ مُلك أمته من بعده فَسُرَّ بذلك، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآية: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ فأعطاه الله عَزَّوَجَلَّ ألف ألف قصر من لؤلؤٍ في الجنة، ترابه المسك مع ما ينبغي له.

۞ قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولذلك كان رسول الله ﷺ أزهد خلق الله في الدنيا، وأعظمهم اطّراحاً لها، حتى أنه لما خُيِّر ﷺ بين الخُلد في الدنيا ومُلكها وبين لقاء الله عَزَّوَجَلَّ اختار ما عند الله.

۞ وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (نام رسول الله ﷺ على حصير، ثم استيقظ وقد أثَّر الحصير في جنبه، فجعلت أمسح عنه، وأقول: يا رسول الله! هلا آذنتنا لنفرش لك على الحصير شيئاً، فقال عليه الصلاة والسلام: ما لي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت ظل شجرة ثم راح وتركها).

۞ وهذا أيضاً تكرر مع عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما رأى أثر الحصير في جنب رسول الله ﷺ، فبكى عمر وقال: «يا رسول! كِسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت أكرم الخلق على الله تنام على مثل هذا؟ فقال له ﷺ مُعلماً ومُصححاً: يا عمر! أما ترضى

---

(١) سورة الضحى: الآية: (٤).

أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ قال: رضيت يا رسول الله! قال: فاحمد الله على ذلك).



(١٠٠) فضيلة أهل بدر

❁ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ فَقَالَ: «ائْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُ مِنْهَا» فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا، فَإِذَا نَحْنُ بِالْمَرْأَةِ، فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِي كِتَابٌ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَتُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟» قَالَ: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ - قَالَ سُفْيَانُ: كَانَ حَلِيفًا لَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا - وَكَانَ مِمَّنْ كَانَ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَتَّخِذَ فِيهِمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ» فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي، يَا رَسُولَ اللهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [1][2].

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِي هَذَا مُعْجِزَةٌ ظَاهِرَةٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَفِيهِ: هَتْكُ أَسْتَارِ الْجَوَاسِيسِ بِقِرَاءَةِ كُتُبِهِمْ سَوَاءٌ كَانَ رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً.

---

(١) روضة خاخ: موضع بين مكة والمدينة بالقرب من المدينة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٩٨٣) كتاب المغازي-ومسلم (٢٤٩٤) كتاب فضائل الصحابة.

وَفِيهِ: هَتْكُ سِتْرِ الْمَفْسَدَةِ إِذَا كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ، أَوْ كَانَ فِى السِّتْرِ مَفْسَدَةٌ، وَلَا يَفُوتُ بِهِ مَصْلَحَةٌ، وَعَلَى هَذَا تُحْمَلُ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِى النَّدْبِ إِلَى السِّتْرِ.

وَفِيهِ: أَنَّ الْجَاسُوسَ وَغَيْرَهُ مِنْ أَصْحَابِ الذُّنُوبِ الْكَبَائِرِ، لَا يَكْفُرُونَ بِذَلِكَ وَهَذَا الْجِنْسُ كَبِيرَةٌ قَطْعًا لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ إِيذَاءَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ كبيرة بلا شك، لقوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ...﴾ الْآيَةَ.

وَفِيهِ: أَنَّهُ لَا يُحَدُّ الْعَاصِى وَلَا يُعَزَّرُ إِلَّا بِإِذْنِ الْإِمَامِ.

وَفِيهِ: إِشَارَةُ جُلَسَاءِ الْإِمَامِ وَالْحَاكِمِ بِمَا يَرَوْنَهُ كَمَا أَشَارَ عُمَرُ بِضَرْبِ عُنُقِ حَاطِبٍ... وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَطَائِفَةٍ أَنَّ الْجَاسُوسَ الْمُسْلِمَ يُعَزَّرُ، وَلَا يَجُوزُ قَتْلُهُ وَقَالَ بَعْضُ الْمَالِكِيَّةِ: يُقْتَلُ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ، وَبَعْضُهُمْ يُقْتَلُ وَإِنْ تَابَ، وَقَالَ مَالِكٌ: يَجْتَهِدُ فِيهِ الْإِمَامُ.

قَوْلُهُ: «**لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فقد غفرت لَكُمْ**».

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ الْغُفْرَانُ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ، وَإِلَّا فَإِنْ تَوَجَّهَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ حَدٌّ أَوْ غَيْرُهُ أُقِيمَ عَلَيْهِ فِى الدُّنْيَا... وَنَقَلَ الْقَاضِى عِيَاضٌ الْإِجْمَاعَ عَلَى إِقَامَةِ الْحَدِّ، وَأَقَامَهُ عُمَرُ عَلَى بَعْضِهِمْ، قَالَ: وَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ مِسْطَحًا الْحَدَّ وَكَانَ بَدْرِيًّا[1].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ:

استشكل قَوْلُهُ: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ**» فَإِنَّ ظَاهِرَهُ أَنَّهُ لِلْإِبَاحَةِ وَهُوَ خِلَافُ عَقْدِ الشَّرْعِ.

وَأُجِيبَ: بِأَنَّهُ إِخْبَارٌ عَنِ الْمَاضِى، أَىْ كُلُّ عَمَلٍ كَانَ لَكُمْ فَهُوَ مَغْفُورٌ، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنَ الْعَمَلِ لَمْ يَقَعْ بِلَفْظِ الْمَاضِى، وَلَقَالَ فَسَأَغْفِرُهُ لَكُمْ، وَتُعُقِّبَ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لِلْمَاضِى لَمَا حَسُنَ الِاسْتِدْلَالُ بِهِ فِى قِصَّةِ حَاطِبٍ لِأَنَّهُ ﷺ

(١) شرح مسلم (٨/ ٢٩٥).

خَاطَبَ بِهِ عُمَرَ مُنْكِرًا عَلَيْهِ مَا قَالَ فِي أَمْرِ حَاطِبٍ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ كَانَتْ بَعْدَ بَدْرٍ بِسِتِّ سِنِينَ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مَا سَيَأْتِي، وَأَوْرَدَهُ فِي لَفْظِ الْمَاضِي مُبَالَغَةً فِي تَحْقِيقِهِ [١].

* * *

(١) فتح الباري (٧/ ٣٥٦).

(١٠١) كنزٌ من كنوز الجنة

❁ عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «أَلا أدُلُّك على كَلِمَةٍ مِنْ تَحتِ العَرْشِ، مِنْ كَنْزِ الجَنةِ؟ تَقولُ: لا حَوْلَ وَلا قوَّةَ إلاّ بِالله، فَيَقولُ الله: أَسْلَمَ عبْدِى واستسلم»[١].

❁ وعنْ أبى مُوسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال لى رسُولُ الله ﷺ: «ألا أَدُلُّكَ على كَنْزٍ مِن كُنُوزِ الجنَّةِ؟» فقلت: بلى يا رسول الله، قال: «لا حول ولا قُوَّةَ إلا بالله»[٢].

❁ ففى هذا الحديث يستعمل النبى ﷺ الأسلوب التشويقى من خلال السؤال.. فقال ﷺ لأبى موسى الأشعرى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ألا أَدُلُّكَ على كَنْزٍ مِن كُنُوزِ الجنَّةِ؟» أى: ألا أدلك على ذخيرة من ذخائر الجنة أو من مُحصلات نفائسها.. ومعنى (الكنز) هنا أنه ثوابٌ مُدَّخر فى الجنة لصاحبها.. وهو ثوابٌ نفيس كما أن الكنز أنفس أموالكم.

فقال أبو موسى الأشعرى: قلت: بلى يا رسول الله.

فقال ﷺ: «لا حول ولا قُوَّةَ إلا بالله»

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْحَوْلُ الْحَرَكَةُ وَالْحِيلَةُ أَىْ: لَا حَرَكَةَ وَلَا اسْتِطَاعَةَ وَلَا حِيلَةَ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى.. وَقِيلَ: مَعنَاهُ لَا حَوْلَ فِى دَفْعِ شَرٍّ وَلَا قُوَّةَ فِى تَحصِيلِ خَيْرٍ إِلَّا بِاللهِ... وَقِيلَ: لَا حَوْلَ عَنْ مَعصِيَةِ اللهِ إلا بعصمته ولاقوة على طاعته إلا بمعونته[٣].

❁ فما أجمل أن يعتصم العبد بـ(لا حول ولا قوة إلا بالله) وأن ينخلع من

---

(١) صحيح: رواه الحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٦١٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٠٩) كتاب الدعوات - ومسلم (٢٧٠٤) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٤٤).

حوله وقوته إلى حول الله وقوته وأن يعلم يقينًا أنه لا يدور شيء في هذا الكون إلا بحول الله وقوته..

۞ قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: بـ«لا حول ولا قوة إلا بالله» تُحمَل الأثقال، وتُكابَد الأهوال، ويُنال شريف الأحوال.

فالزمها أيها العبد! فإنها كنز من كنوز الجنة، وهي من بنود السعادة ومن مسارات الراحة وانشراح الصدر.

(١٠٢) نعمة التواضع

۞ عَنْ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه -لا أعلمه إلا رفعه- قَالَ: «يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «مَنْ تَوَاضَعَ لِي هَكَذَا- وَجَعَلَ يَزِيدُ بَاطِنَ كَفِّهِ إِلَى الْأَرْضِ، وَأَدْنَاهَا - رَفَعْتُهُ هَكَذَا - وَجَعَلَ بَاطِنَ كَفِّهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَرَفَعَهَا نَحْوَ السَّمَاءِ»[1].

۞ وعَنْ عِيَاضِ بنِ حِمَارٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أَوحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حتى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلى أَحدٍ، ولا يَبغِيَ أَحَدٌ على أَحَدٍ»[2].

۞ «إن الله أَوحَى إِلَيَّ أَنْ تَواضَعُوا» قد يسأل سائل ويقول: لماذا قال النبى ﷺ فى هذا الحديث: «إن الله أَوحَى إِلَيَّ» مع أن كل أقوال وأفعال النبى ﷺ لا تصدر إلا عن وحيٍ من الله عز وجل... فقد قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾[3].

والجواب: وكأن النبى ﷺ يوجه عناية الأمة بأن الوحى قد نزل عليه فى هذه المرة يوصيه مرة بعد مرة ويؤكد عليه أن يكرر وصيته للأمة بأن يتواضع بعضهم لبعض ولا يظلم أحدهم أخاهُ حتى تتآلف القلوب وتصبح الأمة قوية متماسكة.

۞ نزل الوحى على النبى ﷺ يوصيه بأن يأمرنا بالتواضع فيما بيننا فلا يترفع أحدٌ على أحدٍ بل يجعله مثله أو أكثر.. لأن الإنسان الذى يتواضع يرفعه الله عز وجل ويُعزه فى الدنيا والآخرة.

فلا بد أن يتواضع المسلم لإخوانه المسلمين فلا يفخر عليهم ويتباهى بمكارمه ومناقبه وحسبه ونسبه.. بل ينبغى ألا يرى لنفسه فضلًا على أحد.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والبزار، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٩٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٣) سورة النجم: الآيتان: (٣، ٤).

وكان من عادة السلف- رحمهم الله- أن الواحد منهم كان يجعل مَنْ هو أصغر منه مثل ابنه، ومَنْ هو أكبر منه مثل أبيه، ومَنْ هو فى عُمره مثل أخيه، فينظر إلى مَنْ هو أكبر منه نظرة إكرام وإجلال، وإلى مَنْ هو دونه نظرة إشفاقٍ ورحمة، وإلى مَن هو مثله نظرة مساواة... فلا يبغى أحدٌ على أحدٍ... وهذا من الأمور التى يجب على الإنسان أن يتصف بها...أى بالتواضع لله عَزَّوَجَلَّ ثم لإخوانه من المسلمين.

فمَن تواضع لإخوانه مُحالٌ أن يفخر عليهم بشىءٍ من حُطام الدنيا الفانية.. ومُحالٌ أن يبغى على أحدهم أو يظلمه أو يتعدى عليه.. وأما من تكبَّر فَسَوْفَ يفخر على إخوانه ويبغى عليهم.. جعلنى الله وإياكم من المتواضعين[1].

---

(١) شرح رياض الصالحين / د. محمود المصرى (٤/ ١٩٢-١٩٣).



(١٠٣) فضل من أنظر معسرًا أو تجاوز عنه

۞ عن أبى مسْعُودٍ البدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «**حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كان قبلكم فَلَمْ يُوجد لهُ مِن الخَير شيءٌ إلا أنَّه كان يُخالطُ النَّاس، وكان مُوسِرًا، وكان يأمُرُ غِلْمانَه أن يتَجاوَزُوا عن المُعسِرِ... قال الله عَزَّ وَجَلَّ: نحنُ أحقُّ بذلكَ مِنْهُ، تجاوَزُوا عنهُ**»(١).

۞ وعن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: أُتِيَ الله تعالى بِعَبْدٍ من عِبادِهِ آتاهُ الله مالًا، فقال له: ماذا عَمِلْتَ فى الدُّنْيَا؟ قال: ـ ولا يكتُمُونَ الله حديثًا ـ قال: يا ربِّ آتيْتَنى مالَكَ فكُنْتُ أُبايعُ النَّاسَ، وكانَ مِن خُلُقى الجوازُ، فكُنْتُ أتيَسَّرُ على المُوسِرِ، وأُنْظِرُ المُعسِرَ. فقال الله تعالى: أنا أحقُّ بذا مِنْكَ، تجاوزُوا عن عَبْدِى» فقال عُقْبَةُ ابنُ عامرٍ، وأبو مَسْعودٍ الأنصارى رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: هكذا سَمِعناهُ مِن فِىِّ رسُولِ الله ﷺ(٢).

وفى رواية عند البخارى: عن حُذَيْفَة قَالَ: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ رَجُلًا كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَتَاهُ المَلَكُ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ، فَقِيلَ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: مَا أَعلَمُ، قِيلَ لَهُ: انْظُر، قَالَ: مَا أَعلَمُ شَيْئًا غَيْرَ أَنّى كُنْتُ أُبَايعُ النَّاسَ فِى الدُّنْيَا وَأُجَازِيهِم، فَأُنْظِرُ المُوسِرَ، وَأَتَجَاوَزُ عَنِ المُعسِرِ...فَأَدخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ**»(٣).

۞ فهذه الأحاديث الثلاثة تحكى قصة متقاربة من بعضها البعض.. فهى تحكى قصة رجل لم يجد عملًا صالحًا عمله عندما جاءته ملائكة الموت تنزع روحه إلا أنه كان يتجاوز فى مبايعته عمَّن يبايعهم.. فإذا دَاين الناس، وحَلَّ الأجل، فيُنظر الموسر إلى أن يجد سَدادًا، ويتجاوز عن المُعسر، وكان يرجو من وراء عمله أن يتجاوز الله عنه، فتجاوز الله عنه، وغفر له ذنوبه بتجاوزه فى تَعامُله.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٥٦١) كتاب المساقاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٥٦٠) كتاب المساقاة.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٤٥١) كتاب أحاديث الأنبياء.

۞ لقد أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أن العبد عندما ينزل به الموت، ويحين أجله، تتنزل عليه الملائكة... أما المؤمن فإنها تُبشِّره بالجنَّة... وأما الكافر فإنها تسأله وتوبِّخه وتُعذِّبه، وتُبشِّره بالنار...قال تعالى فى حق المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1].

وقال فى حق الكفرة المجرمين عندما يكونون فى النزع: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[2].

ويُحدثنا رسولنا ﷺ فى هذا الحديث عن رجلٍ ممن كان قبلنا أتاه ملك الموت ليقبض روحه، فسألته الملائكة عن أعماله الخيِّرة التى عملها فى دُنياه، فلم يجد لنفسه عملًا من أعمال الخير... فلما أجاب بالنفى، طلبوا منه أن يُمعن النظر، فلم يجد لنفسه عملًا خيِّرًا إلا أنه كان يعمل تاجرًا، فيُوصى فتيانه الذين يعملون عنده أن يُنظروا الموسر، ويتجاوزوا عن المعسر، وكان يُعلِّل لهم ما يأمرهم به قائلًا: لعل الله يتجاوز عنا، فحقَّق الله رجاءه فيه فتجاوز عنه، وغفر له.

إنَّ هذا النمط من التعامل يمثل النمط الذى يُريده الإسلام، وهو يقوم على التساهل فى البيع والشراء والتسامح حين التعامل، وإنظار الموسرين، والتجاوز عن المعسرين... وقد دعا الرسول ﷺ لمن يتصف بهذه الصفات فقال: «**رَحِمَ الله عَبْدًا سَمْحًا إذا بَاع، سَمْحًا إذا اشْتَرى، سَمْحًا إِذَا قَضَى، سَمْحًا إذا اقْتَضى**»[3].

---

(١) سورة فصلت: الآية: (٣٠).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (٩٣).

(٣) صحيح القصص النبوى / د. عمر الأشقر (ص ٢٣٨-٢٣٩).

۞ فالرجل كان فى قلبه رحمة لكل مَن حوله.. فكان يتيسر على الموسر - أى الغنى- وهو يعلم أنه يمتلك مالًا ويستطيع السداد.. ومع ذلك كان يتجاوز عن بعض ما عنده وكان يُؤجله أحيانًا ويلتمس له الأعذار..

وكان يُنظر المعسر الفقير فيمد له فى الأجل.. فإذا حان وقت السداد ولم يكن عنده مال أمهله مُدة أخرى ولم يطالبه حتى يدفع هو بنفسه ما عليه بنفسٍ طيبة.

فقال له الله عَزَّوَجَلَّ: «**أنا أحقُّ بذا مِنْكَ، تجاوزُوا عن عَبْدِى**»... وفى رواية: «**فَأَدخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ**» فيا ليتنا نتراحم فيما بيننا حتى نفوز برحمة الله ورضوانه وجنته.

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِى هَذِهِ الْأَحَادِيثِ: فَضْلُ إِنْظَارِ الْمُعْسِرِ وَالْوَضْعِ عَنْهُ، إِمَّا كُلُّ الدَّيْنِ وَإِمَّا بَعْضُهُ مِنْ كَثِيرٍ أَوْ قَلِيلٍ، وَفَضْلُ الْمُسَامَحَةِ فِى الِاقْتِضَاءِ وَفِى الِاسْتِيفَاءِ سَوَاءٌ اسْتَوْفِىَ مِنْ مُوسِرٍ أَوْ مُعْسِرٍ، وَفَضْلُ الْوَضْعِ من الدَّين وأنه لا يحتقر شيئًا مِنْ أَفْعَالِ الْخَيْرِ فَلَعَلَّهُ سَبَبُ السَّعَادَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَفِيهِ جَوَازُ تَوْكِيلِ الْعَبِيدِ وَالْإِذْنِ لَهُمْ فِى التَّصَرُّفِ، وَهَذَا عَلَى قَوْلِ مَنْ يَقُولُ: شَرْعُ مَن قبلنا شرعٌ لنا(١).

❊❊❊

(١) شرح مسلم (٥/ ٤٩٢).



(١٠٤) فضل عيادة المريض

۞ عن أَبِى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يقولُ يَوْمَ القِيامةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَم تَعُدنِى، قال: يا ربِّ كيفَ أعُودُكَ وأنْتَ ربُّ العالمين؟ قَالَ: أمَا عَلِمْتَ أنَّ عَبْدى فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدهُ، أمَا عَلِمْتَ أنَّك لو عُدته لوجدتنى عنده؟ يَا ابْنَ آدم اسْتَطْعَمْتُكَ فلم تُطْعِمْنِى، قال: يا ربِّ كيف أُطعمكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟ قال: أمَا عَلِمْتَ أنه اسْتَطْعَمَك عبدى فلان فلم تُطْعِمْه، أما علمتَ أنَّك لو أطْعَمْته لوجدتَ ذلك عندى؟ يا ابْنَ آدمَ استسقيتك فلم تَسْقِنى، قال: يا ربِّ كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه، أما علمتَ أنك لو سقيته لوجدتَ ذلك عندى؟»**[١].

۞ هذا الحديث ليس فيه إشكال فى قوله تعالى: **«مرضت فلم تعدنى»**؛ لأن الله تعالى يستحيل عليه المرض، لأن المرض صفة نقصٍ.. والله سبحانه وتعالى مُنزَّه عن كل نقص... قال الله تبارك وتعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ لكن المراد بالمرض مَرَضُ عبدٍ من عباده الصالحين...وأولياء الله سبحانه وتعالى هم خاصته... ولهذا جاء فى الحديث الصحيح القدسى أيضًا **«مَن عادى لى وليًّا فقد آذنتُه بالحرب»**[٢]. يعنى مَن يعادى أولياء الله مُحاربٌ لله عَزَّ وَجَلَّ مع أنه - وإن كان لم يُعادِ الله على زعمه - لكنه عادى أولياءه وحاربهم... كذلك إذا مرض عبدٌ من عباد الله الصالحين فإن الله سبحانه وتعالى يكون عنده؛ ولهذا قال: **«أما إنك لو عُدته لوجدتنى عنده»** ولم يَقُل: لوجدت ذلك عندى كما قال فى الطعام والشراب بل قال: **«لوجدتنى عنده»** وهذا يدل على قرب المريض من الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٩) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

ولهذا قال العلماء: إن المريض حَرِىٌّ بإجابة الدعاء إذا دعا لشخصٍ أو دعا على شخصٍ، وفى هذا دليل على استحباب عيادة المريض، وأن الله سبحانه وتعالى عند المريض وعند مَن عاده؛ لقوله: «**لوجدتنى عنده**» وقد سبق لنا كيف تكون عيادة المريض وما ينبغى أن يقوله له العائد.

«**يا ابن آدم استطعمتك فلم تُطعمنى**» يعنى طلبتُ منك طعامًا فلم تُطعمنى... ومعلوم أن الله تعالى لا يطلب الطعام لنفسه.. لقول الله تبارك وتعالى ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ فهو غنىٌّ عن كل شىء لا يحتاج لطعام ولا شراب... لكن جاع عبدٌ من عباد الله فعلم به شخص فلم يُطعمه...قال الله تعالى «**أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى**» يعنى لوجدت ثوابه عندى مُدَّخرًا لك، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة... وفى هذا دليل على استحباب إطعام الجائع، وأن الإنسان إذا أطعم الجائع وجد ذلك عند الله عَزَّوَجَلَّ

«**يا ابن آدم استسقيتك** - أى طلبت منك أن تسقينى - **فلم تسقنى**» قال: كيف أسقيك وأنت رب العالمين! يعنى لستَ فى حاجة إلى طعام ولا شراب قال: «أما علمت أن عبدى فلانًا استسقاك فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى» ففيه أيضًا دليل على فضيلة إسقاء مَن طلب منك السُّقْيا، وأنك تجد ذلك عند الله مُدَّخرًا، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة.

والشاهد من هذا الحديثِ الجملةُ الأولى منه وهى قوله: «**مرضت فلم تَعُدنى**» ففيه دليل على استحباب عيادة المريض[١].

۞ وهناك أحاديث أخرى قد وردت فى فضل عيادة المرضى، ومنها:

۞ عنْ ثوبان رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**إنَّ المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم**

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٧).

يَزَلْ فى خُرفَةِ الجنةِ حتى يَرجع» قيل: يا رسول الله، وما خُرفَةُ الجنة؟ قال: «جَنَاها»[١].

وعنْ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما مِن مسلم يعودُ مسلمًا غُدوةً إلا صلَّى عليه سبعون ألف مَلَكٍ حتى يُمْسى، وإن عاده عَشِيَّةً إلا صلى عليه سبعون ألف مَلَكٍ حتى يصبح، وكان له خريفٌ فى الجنة»[٢].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٨) كتاب البر والصلة والآداب.

جناها: أى ما اجتنى من الثمر.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٦٧).

«الخريفُ»: الثَّمَرُ المخرُوفُ، أى: المُجتَنَى.



(١٠٥) كلمات.. مَن قالها في مرضه ثم مات لم تمسه النار

۞ عنْ أبى سعيد الخدرىِّ وأبى هريرة رضي الله عنهما أنَّهما شَهِدَا على رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا قال العبد: لا إله إلاَّ الله وَالله أَكْبَرُ قَالَ الله: صَدَقَ عبدى لا إله إلاَّ أَنا وَأَنا أَكْبَرُ فَإذا قالَ: لَا إله إلاَّ الله وَحْدَهُ قالَ: صَدَقَ عَبْدِى لَا إله إلا أنا وحدى فإذا قال: لا إله إلاَّ الله لا شَرِيكَ لَهُ قَالَ: صَدَقَ عبدى لا إله إلاَّ أَنا وَلَا شَرِيكَ لِى فإذا قَالَ: لا إله إلاَّ الله لَهُ المُلْكُ ولَهُ الحمْدُ قالَ: صدق عبدى لا إله إلاَّ أَنا لِيَ المُلْكُ وَلِيَ الحَمْدُ فإذا قال: لا إله إلاَّ الله وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلاَّ بالله قال: صدق عبدى لا إله إلاَّ أَنا وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلاَّ بِى مَنْ رُزِقَهُنَّ عِنْدَ مَوْتِهِ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ»(١).

۞ فتلك أربع جُمَلٍ إذا قالها العبد أجابه الحق (جل وعلا) مُصدقًا له.

فأولها: «لا إله إلا الله والله أكبر»...

«لا إله إلا الله» كلمة التوحيد، فإذا مُتَّ مُتَّ على هذه الكلمة... وفى حديث النبى ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» فإذا وفَّق الله العبد وهو يموت لأن يقول كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» استحق الجنة... ثم تقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، فتُفرده وحده بالعبادة، ولا تشرك به شيئًا، ولا تشرك معه أحدًا سبحانه وتعالى... ثم تقول: «لا إله إلا الله له المُلك وله الحمد»، فتُثبت لله الغِنى سبحانه، وتُثبت لله مُلك كل شىء سبحانه وتعالى، وتُثبت لله أنه وحده الذى يستحق الحمد ويستحق الثناء الحسن بأفعاله الجميلة، وصفاته الجليلة سبحانه وتعالى... ثم تقول: «لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله»، فتبرأ من الحول ومن القوة، وتُثبت كل شىء من القوة لله عز وجل قائلاً: المُلك لله

(١) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (٣٤٨١)، وصحيح الجامع (٧١٣).

سبحانه، والحمد لله، وأما أنا فلا أملك شيئًا، ولا حول ولا حيلة ولا قوة لى على شىء، إلا أن يُعيننى الله سبحانه وتعالى... فأُثبت لله الوحدانية، وأثبت له العبادة، وأثبت له الربوبية بمقتضياتها، وأُثنى على الله سبحانه وتعالى، وأتبرأ من الحول ومن القوة، وبذلك تستحق من الله أن يكرمك، ولا تَطعمك النار، ولا تدخل النار.

۞ فمن قال تلك الكلمات بصدقٍ وإخلاصٍ موقنًا بها قلبه فإنه لا تَطعمه النار، أى: يكون ذلك من أسباب تحريم الإنسان على النار.

فينبغى للإنسان أن يحفظ هذا الذكر، وأن يُكثر منه فى حال مرضه حتى يُختم له بالخير إن شاء الله تعالى.



(١٠٦) إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا



۞ عن أبى هُرَيرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «أيُّها النَّاسُ إنَّ الله طَيِّبٌ لا يقْبَلُ إلا طَيِّبًا، وإنَّ الله أمَرَ المؤمنينَ بِمَا أمَر بهِ المرسلِينَ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ ثم ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفر أشْعَثَ أغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيهِ إلى السَّماءِ: يا ربِّ يا ربِّ، ومَطْعَمُهُ حرامٌ، ومَشْرَبُهُ حرامٌ، ومَلْبَسُهُ حرامٌ، وغُذِّىَ بالحَرامِ، فأنَّى يُسْتَجابُ لِذَلِكَ؟»[١].

۞ «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا**»، فمن صفاته سبحانه وتعالى أنه طيب، ولا يُرفع إليه إلا العمل الطيب، ولا يقبل من عباده إلا العمل الطيب... قال عليه الصلاة والسلام: «**وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين**» فيستوى الجميع عند الله سبحانه وتعالى فى التقرب إليه بالشيء الطيب... فأمر المرسلين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾[٢].

وقال للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾[٣]، (ثم ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفر أشْعَثَ أغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيهِ إلى السَّماءِ: يا ربِّ يا ربِّ!)، والمسافر مستجاب الدعوة كما جاء فى حديث النبى ﷺ فى ذكر ثلاثة يُستجاب لهم: فذكر المظلوم، وذكر المسافر، وذكر دعوة الوالد على ولده.

فالمسافر مع طول سفره كلما دعا استُجيب له، ولكن الإنسان هذا الذى

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠١٥) كتاب الزكاة.

(٢) سورة المؤمنون: الآية: (٥١).

(٣) سورة البقرة: الآية: (١٧٢).

يأكل الحرام لا يستجيب له ربه، مع طول سفره ومع شعثه واغبرار وجهه، ومع كثرة ما يتعب فى السفر، لكن لا يُستجاب له.

والله يستحيى من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صِفرًا خائبتين.. ولكن هذا المسافر كان يتعمد أكل الطعام الحرام، سواء كان من سرقة أو من رشوة أو من سُحتٍ أو من غصبٍ... فهو طعام ليس حلالًا.. فكان يأكل الحرام ولا يتورع... ومشربه حرام كذلك، وملبسه حرام وغُذى بالحرام فقد تربَّى على هذا الشيء «**فأنَّى يُستجاب له؟!**».

فالمسافر يُستجاب له لو كان طيب المطعم وطيب المَشرب، وطيب المَلبس وهذا الذى يستحق أن يستجيب الله عَزَّوَجَلَّ له.




(١٠٧) الله يُباهي بكم الملائكة

۞ عن أبي سعيد الخُدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خَرَج معاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على حَلْقَةٍ في المسْجِدِ، فقال: ما أجْلَسكُمْ؟ قالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ الله. قال: آلله ما أجْلَسكُم إلا ذاكَ؟ قالوا: والله ما أجْلَسَنا إلا ذاكَ، قال: أما إنِّي لَمْ أسْتَحلِفْكُم تُهْمَةً لَكُم وما كانَ أحدٌ بمنْزِلتي مِن رسُولِ الله ﷺ أقلَّ عنْهُ حَدِيثًا مِنِّي... وإنَّ رسُول الله ﷺ خرج على حَلْقَةٍ من أصحابه فقال: «**ما أجْلَسكُمْ؟**» قالوا: جَلَسْنا نَذكُرُ الله، ونحمَدُهُ على ما هَدَانا للإسْلامِ، ومَنَّ بهِ علينا. قال: «**آلله ما أجْلَسَكُم إلا ذَاكَ؟**» قالوا: والله ما أجْلَسنا إلا ذاكَ. قال: «**أما إنِّي لَمْ أسْتَحلِفْكُم تُهمةً لكُمْ، ولكنَّهُ أتانِي جبرِيلُ فأخْبرني أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يُباهي بِكُمُ الملائكةَ**»[1].

۞ ففي هذا الحديث يحكي أبو سعيدٍ الخدري أن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا خرج ذات يوم على حلقة في المسجد فقال لهم: «**ما أجْلَسكُمْ؟**»... أي: ما الذي جعلكم تجلسون في هذا المسجد هكذا؟ فقالوا له: جلسنا نذكر الله عَزَّ وَجَلَّ .. فما كان من معاوية إلا أن استحلفهم وقال لهم: «**آلله ما أجْلَسَكُم إلا ذَاكَ؟**» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك.. أي: والله العظيم ما جلسنا إلا لنذكر الله عَزَّ وَجَلَّ .

وحتى لا يظنوا أن معاوية كان يُكذبهم قال لهم: «**أما إنِّي لَمْ أسْتَحلِفْكُم تُهمةً لكُمْ**» وما كان أحدٌ بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثًا مني.. إن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «**ما أجْلَسكُمْ؟**»...... فذكر لهم معاوية مثل الذي حدث معهم وأن النبي ﷺ قال لأصحابه: «**أما إنِّي لَمْ أسْتَحلِفْكُم تُهمةً لكُمْ، ولكنَّهُ أتانِي جبرِيلُ فأخْبرني أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يُباهي بِكُمُ الملائكةَ**».

فدلَّ ذلك على فضيلة هذا الاجتماع على ذكر الله وأن الله عَزَّ وَجَلَّ يباهي بهم

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠١) كتاب الذكر والدعاء.

الملائكة فيقول مثلًا: انظروا إلى عبادى اجتمعوا على ذكرى وما أشبه ذلك مما فيه المباهاة.. ولكن كما أسلفنا ليس هذا الاجتماع أن يجتمعوا على الذكر بصوتٍ واحد ولكن يتذكرون نعمة الله عليهم بما أنعم عليهم من نعمة الإسلام وعافية البدن والأمن وما أشبه ذلك ... فإنَّ ذِكر نعمة الله مِن ذِكر الله عَزَّوَجَلَّ فيكون فى هذا دليل على فضل جلوس الناس ليتذاكروا نعمة الله عليهم... ولهذا كان بعض السلف إذا مَرَّ بأخيه أو أتاه أخوه قال: اجلس بنا نؤمن ساعة. أى اجلس بنا نتذكر نعمة الله علينا حتى يزداد إيماننا... فدلَّ ذلك على فضيلة هذا الاجتماع.

وقد يكون جلوسهم واجتماعهم من أجل مُدارسة القرآن أو مدارسة بعض العلوم الشرعية.. فكل ذلك يدخل تحت مظلة الجلوس لذكر الله.

نسأل الله أن يجمع قلوبنا على ذكره وشكره وحسن عبادته.



(١٠٨) الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر

۞ عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: «**قَالَ موسى النبي ﷺ: يا ربِّ إنك تغلقُ على عبدكَ المؤمن الدنيا! ففتحَ الله له بابًا من أبوابِ الجنةِ، فقال: هذا ما أعددتُ له، قال: وعزَّتك وجلالكَ وارتفاعِ مكانك لو كان أقطع اليدين والرجلين يُسحَبُ على وجهه منذ خلقتهُ إلى يوم القيامة ثم كان هذا مصيرهُ لكان لم يرَ بأسًا قَطُّ... قال: يا رب إنك تعطي الكافر في الدنيا.. ففتح له بابًا من أبواب النار فقال: هذا ما أعددتُ له. فقال: يا ربِّ وعزَّتك لو أعطيته الدنيا وما فيها لم يزل في ذلك منذ خلقتهُ إلى يوم القيامة ثمَّ كان هذا مصيرهُ كأن لم يرَ خيرًا قطُّ**»[١].

۞ وعَنْ أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ وجنَّةُ الكَافِرِ**»[٢].

۞ قال الإمام النووي رحمه الله: قوْلُهُ ﷺ «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**» مَعنَاهُ أَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ مَسْجُونٌ مَمْنُوعٌ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ وَالْمَكْرُوهَةِ مُكَلَّفٌ بِفِعلِ الطَّاعَاتِ الشَّاقَّةِ ... فَإِذَا مَاتَ اسْتَرَاحَ مِنْ هَذَا وَانْقَلَبَ إِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ تَعَالَى لَهُ مِنَ النَّعِيمِ الدَّائِمِ وَالرَّاحة الْخَالِصَة مِنَ النُّقْصَانِ.

وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّمَا لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا حَصَّلَ فِي الدُّنْيَا مَعَ قِلَّتِهِ وَتَكْدِيرِهِ بِالْمُنَغِّصَاتِ فَإِذَا مَاتَ صَارَ إِلَى الْعَذَابِ الدَّائِمِ وَشَقَاءِ الأَبَدِ[٣].

۞ وقال الإمام ابن القيم رحمه الله:

«**الدنيا سجن المؤمن**» فيه تفسيران صحيحان:

أحدهما: أن المؤمن قيَّده إيمانه عن المحظورات، والكافر مُطلَق التصرُّف.

---

(١) رواه الديلمي بسندٍ صحيح.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٥٦) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٨/ ١٢٤-١٢٥).

الثانى: أن ذلك باعتبار العواقب...فالمؤمن لو كان أنعم الناس فذلك بالإضافة إلى مآله فى الجنة كالسجن... والكافر عكسه، فإنه لو كان أشد الناس بُؤسًا فذلك بالنسبة إلى النار جنته[1].

۞ وهنا قصة عجيبة للحافظ ابن حجر العسقلانى رَحِمَهُ اللَّهُ: وهى أنه خرج يومًا بأُبهته - وكان رئيس القضاة بمصر - فإذا برجل يهودى، فى حالة رثة، فقال اليهودى: قِف يا إمام لأسألك عن شىء.. فوقف ابن حجر. فقال له: كيف تُفسر قول رسولكم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» وها أنت ترانى فى حالةٍ رثة وأنا كافر، وأنتِ فى نعيم وأُبهة مع أنك مؤمن؟!.... فقال ابن حجر: أنت مع تعاستك وبؤسك تُعَدُّ فى جنة بالنسبة لما ينتظرك فى الآخرة من عذابٍ أليم - إن مت كافرًا -.

وأنا مع هذه الأبهة - إن أدخلنى الله الجنة - فهذا النعيم الدنيوى يُعَدُّ سجنًا بالمقارنة مع النعيم الذى ينتظرنى فى الجنات -إن مت على الإيمان والتوحيد-.

فقال: أكذلك؟ قال: نعم. فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله[2].

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٧٧).

(٢) إنها الجنة يا أختاه/ د. محمود المصرى (ص:٦٦).

(١٠٩) تحية المسلمين

❁ عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «لَمَّا خَلَقَ الله آدم ﷺ قال: اذْهَبْ فَسَلِّمْ علَى أُولئِكَ ـ نَفَرٍ مِن الملائكَةِ جُلُوسٌ ـ فاسْتَمِع ما يُحَيُّونَكَ فإنَّها تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ. فقال: السَّلامُ عَلَيْكُم، فقالوا: السَّلامُ عَلَيْكَ ورَحمَةُ الله، فزادُوهُ: ورَحمَةُ الله»(١).

وفى رواية: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ - نَفَرٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ، جُلُوسٌ - فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلاَمُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الآنَ»(٢).

❁ ففى هذا الحديث أن الله عز وجل لما خلق آدم عليه السلام واستوى وأصبح إنسانًا كامل الخلقة والصورة قال له عز وجل: «اذهب فسلِّم على أولئك»- نفرٍ من الملائكة جُلوسٌ-... فأمره أن يبدأ هو بالسلام لتتعلم ذريته من بعده أن يبدأ كل واحدٍ منهم أخاه بالسلام ولا ينتظر أن يُسلم عليه هو..

ثم قال له عز وجل: «فاسْتَمِع ما يُحَيُّونَكَ فإنَّها تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ». فذهب آدم عليه السلام امتثالًا لأمر الله عز وجل فسلَّم على الملائكة وقال لهم: «السَّلامُ عَلَيْكُم، فقالوا له: السَّلامُ عَلَيْكَ ورَحمَةُ الله، فزادُوهُ: ورَحمَةُ الله».

❁ ففى هذا الحديث دليل على:

(١) أن هذه الخليقة البشرية كانت من العدم وأنها لم تكن شيئًا مذكورًا من قبل... كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٢٦) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (٢٨٤١) كتاب الجنة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٢٢٧) كتاب الاستئذان.

مَّذۡكُورًا ﴾[١] ، فهذه البشرية لم تكن شيئًا مذكورًا من قبل فخلقها الله وأوجدها لحكمة عظيمة.

(٢) أن الملائكة أجسام وليست أرواحًا بلا أجسام...لأنهم جلوس والجالس يعنى أنه جسم ... وقد رأى النبى ﷺ جبريل على صورته التى خُلق عليها له ستمائة جناح قد سَدَّ الأفق...والله سبحانه وتعالى قال: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ ﴾[٢] فالملائكة أجسام ولكن الله عَزَّوَجَلَّ حجبهم عنَّا وجعلهم عالمًا غيبيًّا كما أن الجن أجسام ولكن الله عَزَّوَجَلَّ حجبهم عنَّا فجعلهم عالمًا غيبيًا...وقد تظهر الملائكة فى صورة إنسان كما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ مرة بصورة دحية الكلبى ومرة بصورة رجل غريب لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه الصحابة.

❁ ومن فوائد هذا الحديث:

(٣) أن السُّنة فى السلام (السلام عليك) إذا كان المُسلَّم عليه واحدًا وإذا كانوا جماعة تقول (السلام عليكم) لأن الواحد يُخاطَب بخطاب الواحد والجماعة تُخاطَب بخطاب الجماعة.

(٤) أن السلام مُتلقن من الملائكة بأمر الله حيث قال سبحانه وتعالى إنها تحيتك وتحية ذريتك.

(٥) أن الأفضل فى رَدِّ السلام أن يزيد الإنسان ورحمة الله لأن الملائكة زادوا (ورحمة الله)... والله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾ فبدأ بالأحسن ﴿أَوۡ رُدُّوهَآ﴾ إذا لم تردوا الأحسن[٣].

---

(١) سورة الإنسان: الآية: (١).

(٢) سورة فاطر: الآية: (١).

(٣) شرح رياض الصالحين (٣/ ٨).

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ أَنَّ الْوَارِدَ عَلَى جُلُوسٍ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ وَأَنَّ الأَفْضَلَ أَنْ يَقُولَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ بِالْأَلِفِ وَاللَّامِ ... وَلَوْ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَفَاهُ وَأَنَّ رَدَّ السَّلَام يُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ زِيَادَةً عَلَى الِابْتِدَاءِ وَأَنَّهُ يَجُوزُ فِى الرَّدِّ أَنْ يَقُولَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَلَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَقُولَ وَعَلَيْكُمُ السَّلَامُ ... وَاللهُ أَعْلَمُ[(١)].

۞ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَوْلُهُ: «**فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ**»: أَىْ أَنَّ كُلَّ قَرْنٍ يَكُونُ نَشَأْتُهُ فِى الطُّولِ أَقْصَرَ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِى قَبْلَهُ، فَانْتَهَى تَنَاقُصُ الطُّولِ إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَاسْتَقَرَّ الْأَمْرُ على ذَلِك[(٢)].

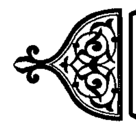
---

(١) شرح مسلم (٩/ ١٩٥).

(٢) فتح البارى (٦/ ٤٢٣).



(١١٠) فضل من مات صَفِيُّه فصبر واحتسب



۞ عَنْ أبى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «يَقُولُ الله تَعَالَى: مَا لِعَبْدِى الْمُؤْمِنِ عِنْدِى جَزَاءٌ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احتَسَبهُ إِلَّا الجَنَّة»[١].

۞ فهذا الحديث يرويه النبى ﷺ عن رب العزة (سبحانه وتعالى)... فهو حديثٌ قُدسى - كما يُسميه أهل العلم -.

فيخبر النبى ﷺ أن الله عَزَّوَجَلَّ قال: «مَا لِعَبْدِى الْمُؤْمِنِ عِنْدِى جَزَاءٌ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احتَسَبهُ إِلَّا الجَنَّة».

فيخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن المؤمن فقط هو الذى يحتسب ويصبر ويرجو الأجر والثواب من عند الله (جلَّ وعلا).. وأن غير المؤمن قد يصبر لكنه لا يحتسب ولا يرجو الأجر والثواب من عند الله.

والصَّفى: مَنْ يَصطفيه الإنسان ويختاره من ولدٍ، أو أخٍ، أو عم، أو أب، أو أم، أو صديق... المهم أنَّ مَا يصطفيه الإنسان ويختاره ويرى أنَّه ذُو صِلة منه قوية. إذا أخَذَهُ الله عَزَّوَجَلَّ، ثمَّ احتسبه الإنسان، فليس له جزاء إلَّا الجنة.

ففى هذا: دليل على فضيلة الصَّبر على قبض الصَّفى من أهل الدُّنيا وأن الله عَزَّوَجَلَّ يجازى الإنسان إذا احتسب صفيَّه بالجنة.

۞ ففى هذا الحديث أن الله عَزَّوَجَلَّ أرحم بعباده من رحمة الأم بطفلها الرضيع.. فهو وإن حَرَم العبد من أحد أحبابه إلا أنه جعل ثوابه الجنة إن صبر واحتسب...

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤٢٤) كتاب الرقاق.

۞ وأن الشر لا يُنسب إلى الله... فإذا فَقَد الإنسان أحد أحبابه فقد يكون موت هذا الحبيب شرًّا من وجهة نظر الذى فقده لكنه عين الخير فى تقدير الله عَزَّوَجَلَّ. فقد قدَّر الله له ذلك من أجل حكمة لا يعلمها إلا الله... ومن أجل حكمة أخرى ألا وهى أن يصبر ويحتسب فيفوز بجنة عرضها السماوات والأرض... فما أرحم الله الذى قال فى كتابه: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

وفى هذا الحديث أيضًا من الفوائد: الإشارة إلى أفعال الله، من قوله: «**إذا قبضت صَفِيَّهُ**» ولا شك أن الله سبحانه فَعَّالٌ لما يريد، ولكن يجب علينا أن نعلم أنْ فِعل الله تعالى كله خير، لا يُنسب الشرّ إلى الله أبدًا...والشر إذا وقع فإنما يقعُ فى المفعولات ولا يقع فى الفعل.

فمثلاً إذا قدر الله على الإنسان ما يكره، فلا شك أن ما يكرهه الإنسان بالنسبة إليه شر. لكن الشر فى هذا المُقدَّر لا فى تقدير الله، لأن الله تعالى لا يُقدره إلا لحكمة عظيمة، إما للمُقدَّر عليه وإما لعامة الخلق أحيانًا ... وأحيانًا تكون الحكمة خاصة فى المقدر عليه، وأحيانًا فى الخلق على سبيل العموم.

المُقدَّر عليه إذا قدَّر الله عليه شرًّا وصبر واحتسب نال بذلك خيراً، وإذا قدر الله عليه شرًّا ورجع إلى ربه بسبب هذا الأمر...لأن الإنسان إذا كان فى نعمة دائمًا قد يَنْسَى شُكر المُنعم عَزَّوَجَلَّ ولا يلتفت إلى الله... فإذا أصيب بالضراء تَذَكَّر ورجع إلى ربه سبحانه وتعالى، ويكون فى ذلك فائدة عظيمة له.

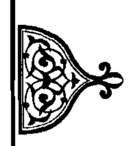
أما بالنسبة للآخرين، فإن هذا المُقدَّر على الشخص إذا ضَرَّه قد ينتفع به الآخرون.

ولنضرب لذلك مثلًا برجلٍ عنده بيت من الطين، فأرسل الله مطرًا غزيرًا دائمًا، فإن صاحب هذا البيت يتضرر، لكن المصلحة العامة للناس مصلحة ينتفعُون بها.

فصار هذا شرّاً على شخص وخيراً للآخرين، ومع ذلك فكونُه شرًّا لهذا الشخص أمر نسبي، إذ إنه شَرٌّ من وجهٍ لكنه خيرٌ له من وجهٍ آخر. فيتعظ به ويعلم أن الملجأ هو الله عَزَّوَجَلَّ، لا ملجأ إلا إليه، فيستفيد من هذا فائدة أكبر مما حصل له من المضرة[1].

***

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ١١١-١١٢).

(١١١) التحذير من التألِّى على الله.. وتقنيط الناس من رحمته عَزَّوَجَلَّ

۞ عن جُنْدَبِ بن عبدِ الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «قالَ رجُلٌ: والله لا يَغْفِرُ الله لفلانٍ، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: مَن ذا الذى يَتَأَلَّى علىَّ أنْ لا أغفِرَ لفُلانٍ فإنِّى قد غَفَرتُ له، وأحبَطْتُ عمَلَك»(١).

۞ وهناك رواية أخرى مشابهة لهذه الرواية.. فلقد قال رسول الله ﷺ:

«كانَ رَجُلاَنِ فِى بَنِى إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَينِ، وَكانَ أحدُهُمَا مُذنبًا، والآخرُ مُجتَهِدًا فِى الْعِبَادَةِ، وَكانَ لاَ يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ، فَيَقُولُ: أَقْصِر فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِر، فَقَالَ: خَلِّنِى وَرَبِّى أَبُعِثْتَ عَلَىَّ رَقِيبًا؟! فَقَالَ: وَالله لاَ يَغْفِرُ الله لَكَ، أَوْ لاَ يُدخِلُكَ الله الجَنَّةَ، فَقُبِضَ رُوحُهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالِمِينَ، فقال لهذا المُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِى عَالِمًا، أَوْ كُنتَ عَلَى مَا فِى يَدِى قادِرًا؟! وَقالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادخُلِ الجَنَّةَ بِرَحمَتِى، وَقالَ لِلآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ»(٢).

۞ يخبرنا النبى ﷺ فى هذين الحديثين عن قصة رجلٍ كان عابدًا لكنه كان مُعجَبًا بعمله مُحتقرًا لمن حوله..

وكان له صاحبٌ يقع كثيرًا فى المعاصى.. فكان ينصحه ولكن بكل كبرٍ واحتقار.. وفى يومٍ من الأيام تكلم بكلمة أوبقت دُنياه وآخرته، على الرغم من اجتهاده فى العبادة، وأمرِه بالمعروف ونهيِه عن المنكر... فقد حلف - لما رأى صاحبه على ذنب - أن الله لا يغفر له.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢١) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٥٥).

وكان صاحبه يكثر من الذنوب، وهو يُكثر من نهيه عنها... فأغضب ربه عليه بحلفه الذى حلفه... فرحمة الله واسعة، ولا يُعجزه أن يغفر لأحدٍ من خلقه مهما عَظُم ذنبه... لقد غفر الله للمذنب وأدخله الجنة، وأمر بالمجتهد إلى النار من أجل تلك الكلمة.

۞ وفى الحديث الثانى يحدثنا الرسول ﷺ فى هذا الحديث عن رجلين من بنى إسرائيل، كانا صديقين متآخيين، وكان أحدهما مجتهدًا فى عبادته، والآخر مُقصِّرًا فى أداء ما وجب عليه.

وكان المجتهد فى العبادة يرى صاحبه يرتكب الذنوب والمعاصى، فينكر عليه وينهاه... وهذا أمرٌ طيبٌ مطلوبٌ مشروع، وقد جاءت الشرائع كلها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر... وكان الرجل المذنب يضيق ذَرعًا بإنكار صديقه عليه، ولما اشتد عليه صاحبه بالإنكار يومًا، قال له: خلِّنى وربى، أَبُعثت علىَّ رقيبًا؟ عند ذلك حلف العابد - ويا لهول ما حلف- فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يُدخلك الله الجنة.

وما كان لهذا العابد أن يتألَّى على الله عَزَّوَجَلَّ... فالله له الأمر كله، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن...يهب الخيرات ويمسكها، يغفر لمن يشاء، ويعذِّب مَن يشاء... يهدى ويُضل، وما كان لعبدٍ من عباد الله أن يُحجِّر على ربه أن يغفر لفلان أو يحبط عمل فلان... لقد تكلم هذا المسكين - كما قال أبو هريرة راوى الحديث- بكلمة أوبقت عليه دُنياه وآخرته، فقد قبض الله روحيهما، فاجتمعا عنده، وقال لذلك المُتألِّى: مُوبِّخًا له ومؤنبًا: أَوَكنت بى عالمًا؟ أو كنت على ما فى يدى قادرًا؟ وأمر بإدخاله النار، وأمر بإدخال المذنب الجنة.

عبر الحديث وفوائده

(١) القول على الله بغير علم من أعظم الكبائر التى تُوبق عمل صاحبها،

ومن ذلك دعوى هذا الرجل أن الله لا يغفر لفلان... فالله لا يُعجزه شيء أراده، ورحمته واسعة.

(٢) على المسلم أن يَتوخَّى الحيطة والحذر فى معاملته لربه تبارك وتعالى، فيقف موقف العبودية، يعمل بطاعة الله، ويأتمر بأمره، ويصبر على دعوة الناس، ولا يتسرع فى الحكم عليهم.

(٣) الخوف من سوء الخاتمة، فقد دخل العابد النار، ودخل العاصى الجنة.

(٤) فى الحديث دليل لأهل السُّنة الذين يقولون بأن الله يغفر الذنوب من غير توبة إن شاء، كما غفر لهذا العاصى، وهو مُصِرٌّ على ذنوبه كما يدل عليه الحديث[١]. وكما تدل عليه الآية فى قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

قال الإمام النووى رحمه الله:

قوله ﷺ: «**أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِى يتألى علىَّ أن لا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ فَإِنِّى قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**».

مَعْنَى «يَتَأَلَّى» يَحْلِفُ، وَالْأَلْيَةُ الْيَمِينُ.

وَفِيهِ: دَلَالَةٌ لِمَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِى غُفْرَانِ الذُّنُوبِ بِلَا تَوْبَةٍ إِذَا شَاءَ اللهُ غُفْرَانَهَا، وَاحْتَجَّتِ الْمُعْتَزِلَةُ بِهِ فِى إِحْبَاطِ الْأَعْمَالِ بِالْمَعَاصِى الْكَبَائِرِ، وَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّهَا لَا تُحْبَطُ إِلَّا بِالْكُفْرِ، وَيُتَأَوَّلُ حُبُوطُ عَمَلِ هَذَا عَلَى أَنَّهُ أُسْقِطَتْ حَسَنَاتُهُ فِى مُقَابَلَةِ سَيِّئَاتِهِ، وَسُمِّىَ إِحْبَاطًا مَجَازًا...وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ جَرَى مِنْهُ أَمْرٌ آخَرُ أَوْجَبَ الْكُفْرَ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ هَذَا كَانَ فِى شَرْعِ مَنْ قَبْلَنَا وَكَانَ هَذَا حُكْمَهُمْ[٢].

---

(١) صحيح القصص النبوى / د. عمر الأشقر (ص ٣٤٢-٣٤٣) بتصرف.

(٢) شرح مسلم (٨/ ٤٢٢).



(١١٢) تحريم الرياء



۞ عن أَبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «قَالَ الله تَعَالَى: **أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّركِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِى غَيْرِى تَرَكْتُهُ وَشِركَهُ**»(١).

۞ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

مَعْنَاهُ -أي الحديث- أنا غنى عَنِ الْمُشَارَكَةِ وَغَيْرِهَا، فَمَنْ عَمِلَ شَيْئًا لِى وَلِغَيْرِى لَمْ أَقْبَلْهُ، بَلْ أَتْرُكْهُ لِذَلِكَ الْغَيْرِ...والمراد أن عمل المُرائى باطل لاثواب فِيهِ، وَيَأْثَمُ بِهِ (٢).

۞ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا الحديث القدسى يقول الله تعالى فيه: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك**»، الشركاء: كل محتاج إلى الآخر وكل محتاج إلى شركته ونصيبه وحصته لا يتنازل أحدٌ للآخر عن نصيبه ... فمثلًا دارٌ بين اثنين كلٌّ منهما محتاج للآخر، لو حصل فى الدار خلل أو احتاجت إلى تعمير صار الشريك لابد أن يقول لشريكه الثانى : أعطنى نصيبى حتى نُعمر البيت، وصار كل إنسان متمسكًا بنصيبه من هذا البيت.

أما الله تعالى فهو الغنى عن كل شىء، غنى عن العالمين، إذا عمل الإنسان عملًا لله ولغير الله تركه الله... لو صلى الإنسان لله وللناس لم يقبل الله صلاته، لا يقال:إنه يقبل نصفها ويترك نصفها، أو يقبلها قبولًا نصفيًّا، لا...لا يقبلها أبدًا.

لو تصدق الإنسان بصدقة يرائى بها الناس فإنها لا تُقبل منه؛ لأن الله تعالى

(١) صحيح:رواه مسلم (٢٩٨٥) كتاب الزهد والرقائق.

(٢)شرح مسلم (٩/ ٣٤٣).

أغنى الشركاء عن الشرك...إذا عمل الإنسان عملاً أشرك فيه مع الله غيره فإن الله لا يقبله منه.

وفى هذا دليل على أن الرياء إذا شارك العبادة فإنها لا تُقبل...فلو أن الإنسان صلى أول ما صلى وهو يرائى الناس لأجل أن يقولوا: فلان ما شاء الله يتطوع، يصلى ويكثر الصلاة. فإنه لا حَظَّ له فى صلاته ولا يقبلها الله عَزَّوَجَلَّ حتى لو أطال ركوعها، وسجودها وقيامها وقعودها، وصار لا يتحرك، وصارت عينه فى موضع سجوده فهى غير مقبولة لماذا؟ **لأنه أشرك مع الله غيره.. فهو يصلى لله والناس.**

كذلك رجلٌ تَصدق، صار يُراعى الفقراء ويعطيهم لكنه يرائى الناس من أجل أن يقولوا: فلان ما شاء الله رجل جواد كريم يتصدق، **فهذا أيضًا لا يقبل منه.**

وإن أنفق ماله كله **لأن الله** يقول: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك مَن عمل عملًا أشرك فيه معى غيرى تركته وشِركه**». وعلى هذا فَقِسْ، لكن إن طرأ الرياء على الإنسان... يعنى رجل مخلص شرع فى الصلاة ثم صار فى قلبه شىء من الرياء فهذا إن دافعه فلا يضره؛ لأن الشيطان يأتى للإنسان فى عبادته التى هو مخلص فيها من أجل أن يفسدها عليه... ولا ينبغى للعبد أن يكون ذليلًا أمام ما يُلقيه الشيطان من الرياء، بل يجب أن يصمد وأن يستمر فى عبادته ولا يقول: لقد صار الرياء فى عبادتى وأخاف أن تبطل... لا بل يستمر والشيطان إذا دحرته اندحر ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ الذى يخنس ويولى مدبرًا إذا رأى العزيمة، فأنت اعزم ولا تنشغل به فهذا لا يضرك ... أما إذا طرأ عليه الرياء بعد أن بدأ الصلاة مخلصًا لله ثم طرأ عليه الرياء واستمر على الرياء - والعياذ بالله- فإنها تبطل الصلاة كلها من أولها إلى آخرها؛ لأنها - أى الصلاة- إذا بطل آخرها بطل أولها [1].

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٦٥-٢٦٦) بتصرف.

۞ ويُستفاد من هذا الحديث:

(أ) بيان غِنى الله تعالى؛ لقوله: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك**».

(ب) بيان عِظَم حق الله، وأنه لا يجوز لأحدٍ أن يشرك أحدًا مع الله في حقه.

(ت) بُطلان العمل الذى صَاحَبه الرياء؛ لقوله: «**تركته وشِركه**».

(ث) تحريم الرياء؛ لأن تَرْكَ الإنسانَ وعملَه، وعدم قبوله، يدل على الغضب، وما أوجب الغضب؛ فهو محرم.

(جـ) أن صفات الأفعال لا حصر لها؛ لأنها متعلقة بفعل الله، ولم يزل الله ولا يزال فعَّالا[1].

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٦٩) للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.



(١١٣) ثلاثة لا يكلمهم الله عَزَّ وَجَلَّ

۞ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: رَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَى وَهُوَ كَاذِبٌ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ العَصْرِ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ، وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ فَيَقُولُ اللهُ: اليَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِى كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ»[1].

۞ وفى رواية:

عن أبى هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «ثلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ القِيَامةِ ولا ينْظُرُ إليْهِم ولا يُزَكِّيهِم ولهُم عذابٌ أليمٌ: رجُلٌ على فَضْلِ ماءٍ بالفَلاةِ يمْنَعُهُ مِن ابنِ السَّبِيل، ورَجُلٌ بايَع رجُلًا سِلْعَةً بعد العَصرِ فحَلَفَ بالله لأخَذَهَا بكذَا وكَذا، فصَدَّقَهُ وهوَ على غَيْر ذلكَ، ورَجُلٌ بَايع إمامًا لا يُبايِعُهُ إلا لدُنْيَا، فإن أعطَاه مِنْها وفَّى، وإنْ لم يُعطِهِ مِنْها لمْ يَفِ»[2].

۞ «ثلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ الله» يعنى: ثلاثة أصناف وليس المقصود ثلاثة أشخاص.. «لا يُكَلِّمُهُمُ الله» قد يكون المراد أنه سبحانه وتعالى لا يكلمهم عقوبة لهم على ما فعلوه.. وقد يكون المراد أنه (جل وعلا) لا يكلمهم التكليم الذى فيه راحتهم وسعادتهم، وإلا فإن التكليم يمكن أن يكون على وجه التبكيت والتقريع... ومنه قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[3] وهذا كلام، لكنه كلام فيه تقريع وتبكيت لا يحصلون من ورائه على السرور

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٣٦٩) كتاب الشرب والمساقاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٥٨) كتاب المساقاة - ومسلم (١٠٨) كتاب الإيمان.

(٣) سورة المؤمنون: الآية: (١٠٨).

والارتياح والاطمئنان... فهذا لا ينافى ما جاء من أن الله تعالى يخاطب الكفار ويقول: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾؛ لأن المنفى غير المُثبَت.

۞ الأول: «رجُلٌ علَى فَضْلِ ماءٍ بالفَلاةِ يمْنَعُهُ مِن ابنِ السَّبِيل» ابن السبيل هو عابر السبيل، سواء كان بنفسه أو معه راحلته أو رواحله، فإن الماء يُبذَل له، ولا يُحال بينه وبينه...لكن هذا الإنسان كان عنده ماء من مزرعة أو بئرٍ أو غير ذلك.. وكان فى أرضٍ صحراوية خالية من السكان.. فإذا مَرَّ أمامه عابر سبيلٍ وطلب منه الماء فإنه يمنعه من الماء... هذا لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم... وما بالك بحال رجلٍ هذا حاله.. لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم يوم القيامة.

الثانى: ورَجُلٌ بايَع رجُلًا سِلْعَةً بعد العَصرِ فحَلَفَ بالله لأخَذَهَا بكذَا وكَذا، فصَدَّقَهُ وهوَ على غَيْر ذلكَ.

يعنى: حلف كاذبًا ليخدع المشترى ويُروج سلعته.

وذكر النبى ﷺ العصر؛ لأن أفضل أوقات النهار ما بعد صلاة العصر وإلا فلو حلف الإنسان على سلعة فى غير هذا الوقت أيضًا فإنه لا يكلمه الله ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذابٌ أليم.

كما جاء فى الحديث الآخر: «**ثَلَاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالْمَنَّانُ الَّذِى لا يُعْطِى شَيْئًا إِلَّا مَنَّهُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ**»[1] أى: المُروِّج لها، الذى يأتى بما يجعل المشترى يغتر بحلفه وبكلامه الذى فيه ترويجٌ لها.

فدلَّ ذلك على أن ذكر وقت العصر فى حديث أبى هريرة إنما هو لشدة العذاب والوعيد. وإلا فكل مَن حلف على سلعة وهو كاذب من أجل أن يزيد

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٦) كتاب الإيمان.

ثمنها فإنه لا يكلمه الله ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم.

وقيل: إن الوقت الذى بعد العصر من الأوقات التى تكون فيها الأيمان مُغلظة... وقد سبق أن مَرَّ بنا تغليظ اليمين بالمكان، كما جاء فى الحلف عند منبر النبى ﷺ... وهذا من حيث الزمان.

۞ الثالث: **«ورَجُلٌ بَايع إمامًا لا يُبايِعُهُ إلا لدُنْيَا، فإن أعطَاه مِنْها وفَّى، وإنْ لم يُعطِهِ مِنْها لمْ يَفِ»**.

يعنى: بايع إمامه أو إمام المسلمين من أجل الدنيا، لا من أجل أن يقوم بالشىء الذى يجب عليه، وإنما بايع من أجل الدنيا، فإن حصل له الذى بايع من أجله رضى، وإن لم يحصل ذلك فإنه يسخط... فبيعته إنما هى من أجل الدنيا، وليست من أجل السمع والطاعة فى المعروف على الوجه الذى شرعه الله عَزَّ وَجَلَّ فى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[1].

المهم هذه ثلاثة أشياء إذا صارت فى الإنسان فإن الله لا يكلمه يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم.

وفى هذا الحديث دليل على: ثبوت كلام الله عَزَّ وَجَلَّ كما هو مذهب أهل السُّنة والجماعة أن الله يتكلم كما شاء وبما شاء ومتى شاء لا أحد يُعجزه ولا يمتنع عليه شىء ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2]. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾[3].

فقوله: «**لا يكلمهم الله**» دليل على أنه يكلم غيرهم وهو كذلك... وفيه أن الله ينظر نظرين: الأول: العام فإنه لا يَخفى على نظره شىء عَزَّ وَجَلَّ... يرى كل شىء.

---

(١) سورة النساء: الآية: (٥٩).

(٢) سورة يس: الآية: (٨٢).

(٣) سورة فاطر: الآية: (٤٤).

والثاني: الخاص وهو نظر الرحمة وهو المعنى في الحديث فإن الله لا ينظر إليهم نظر رحمة.

وفيه أيضًا دليل على أن الله هو المُزكي للعباد كما قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾[1]، فالمُزكِّي للأمور وللأشخاص وللأعمال هو رب العالمين عَزَّوَجَلَّ... فأسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم ممن زكَّاه ربه إنه على كل شيء قدير[2].

---

(١) سورة النور: الآية: (٢١).

(٢) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٢٠) بتصرف.



(١١٤) النهى عن قول الإنسان: مُطرنا بنوء كذا

۞ عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: صلَّى بنا رسولُ اللهِ ﷺ صَلاَةَ الصُّبْحِ بالحُدَيْبِيَّةِ فى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فقالَ: «**هَلْ تَدرُونَ مَاذَا قالَ رَبُّكُمْ؟**» قالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أعلَمُ. قال: «**قالَ: أصبَحَ مِنْ عِبَادِى مُؤْمِنٌ بِى، وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحمَتِهِ، فَذلِكَ مُؤْمِنٌ بِى كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وأَما مَنْ قَالَ: مُطِرنَا بِنَوءِ كَذَا وَكَذَا، فَذلكَ كَافِرٌ بِى مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ**»(١).

۞ ففى هذا الحديث يحكى زيد بن خالد رضي الله عنه أنهم كانوا مع النبى ﷺ فى الحديبية... والحديبية غزوة مشهورة معروفة... وذلك أن النبى ﷺ خرج إلى مكة معتمرًا ومعه الإبل - الهَدى -، فلما وصل إلى الحديبية وهى أرضٌ بين الحِلِّ والحرم، منعته قريش أن يدخل مكة، وجرى بينهم وبين النبى ﷺ ما هو معروف من المصالحة... لكن فى إحدى الليالى، صلى بهم النبى ﷺ صلاة الصبح على إثر مطر، فلما انصرف من صلاته أقبل عليهم وقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم... وإنما ألقى عليهم هذا السؤال من أجل أن ينتبهوا؛ لأن إلقاء الأسئلة يُوجب الانتباه... قالوا: الله ورسوله أعلم. وهكذا كل إنسان يجب عليه إذا سُئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم... فى الأمور الشرعية.

فأخبرهم النبى ﷺ أن الله عز وجل قال: «**أَصبَحَ مِنْ عِبَادِى مُؤْمِنٌ بِى وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِى كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ:**

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٨٤٦) كتاب الأذان - ومسلم (٧١) كتاب الإيمان.
وَالسَّماءُ هُنَا: المَطَرُ.

مُطرنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِى مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ».

فالاستسقاء بالأنواء: أن يُطلب من النّجم أن يُنزل الغيث... ويدخل فيه أن يُنسَبَ الغيث إلى النجم، كما كان أهل الجاهلية يزعمون، فكانوا إذا نزل مطر فى وقت نجمٍ مُعيَّن نسبوا المطر إلى ذلك النجم، فيقولون: مُطرنا بنوء كذا، أو هذا مطر الوسمى، أو هذا مطر الثُّريا، ويزعمون أن النجم هو الذى أنزل هذا الغيث[1].

۞ والاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: أن ينسب المطر إلى النجم معتقدًا أنه هو المُنزل للغيث بدون مشيئة الله وفعله عَزَّوَجَلَّ، فهذا شركٌ أكبر بالإجماع[2].

القسم الثانى: أن ينسب المطر إلى النَّوء معتقدًا أن الله جعل هذا النجم سببًا فى نزول هذا الغيث... فهذا من الشرك الأصغر[3]؛ لأنه جعل ما ليس بسبب سببًا[4]، فالله تعالى لم يجعل شيئًا من النجوم سببًا فى نزول الأمطار، ولا صلة للنجوم بنزولها بأى وجه، وإنما أجرى الله العادة بنزول بعض الأمطار فى وقت بعض النجوم.

هذا وإذا قال المسلم: «مُطرنا بنوء كذا وكذا» ومقصده أن الله أنزل المطر فى

---

(١) ينظر: التمهيد (١٦/ ٢٨٧، ٢٨٨)، شرح السنة (٤/ ٤٢٠).

(٢) قال فى الفروع (٢/ ١٦٣): «وإضافة المطر إلى النَّوء دون الله كفرٌ إجماعًا». وهذا شرك فى الربوبية...ومن الشرك الأكبر فى هذا الباب: أن يدعو النجم أن يُنزل الغيث... وهذا شرك أكبر فى الربوبية والألوهية.

(٣) بعض العلماء يسمى هذا الشرك بـ«كفر النعمة»؛ لأنه نسب إنعام الله تعالى عليه بالغيث إلى النجم، وجعله سببًا فى ذلك، مع أن الله لم يجعله سببًا - المعلم (١/ ٣٣٢)، الفروع (٢/ ١٦٣).

(٤) القول المفيد - باب ماجاء فى الاستسقاء بالأنواء (٢/ ١٩).

وقت هذا النجم[1]، معتقدًا أنه ليس للنجم أدنى تأثير لا استقلالًا ولا تسببًا فقد اختلف أهل العلم فى حكم هذا اللفظ: فقيل: هو محرم[2].

وقيل: مكروه[3]. وقيل: مباح[4]، ولا شك أن هذا اللفظ ينبغى تركُه، واستبداله بالألفاظ الأخرى التى لا إيهام فيها... فإما أن يقول: «مُطرنا بفضل الله ورحمته»، أو يقول: «هذه رحمة الله»، وهذا هو الذى ورد الثناء على مَن قاله، كما سبق فى النصوص... فهو أَولَى من غيره، وإما أن يقول: «هذا مطر أنزله الله فى وقت نجم كذا»، أو يقول: «مُطرنا فى نوء كذا»[5]، ونحو ذلك من العبارات الصريحة التى لا لَبس ولا إشكال فيها[6].

---

(١) لأن الباء تأتى للظرفية بمعنى «فى»، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى: وفى الليل- وكما فى قوله تعالى: ﴿ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ [القمر:٣٤]، لكن الباء أظهر فى كونها للسببية- ينظر: مغنى اللبيب (١/ ١٢١)، القول المفيد (٢/ ٣١).

(٢) الفروع: صلاة الاستسقاء (١/ ١٦٣).

(٣) الأذكار للنووى (ص٣٠٨)، شرح مسلم للنووى (٢/ ٦١).

(٤) شرح السنة: الاستسقاء (٤/ ٤٢١)، النهاية (مادة: نوأ)؛ جامع الأصول: النجوم (١١/ ٥٧٨).

(٥) مغنى المحتاج: صلاة الاستسقاء (١/ ٣٢٦)، الفروع (١/ ١٦٣)، الإنصاف (٥/ ٤٣٩).

(٦) تسهيل العقيدة الإسلامية / أ. د. عبد الله بن عبد العزيز الجبرين (ص ٤٢٩-٤٣٤) بتصرف كبير.



(١١٥) تحريم تصوير ذوات الأرواح



۞ عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقولُ: «قالَ الله تعالى: ومَنْ أظْلَمُ ممن ذهب يَخلُق كخَلقِى، فَلْيَخْلُقوا ذَرَّةً أو لِيَخلُقوا حَبَّة، أوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرةً»[١].

۞ قوله تعالى: «ومَنْ أظْلَمُ» أى: ليس هناك أظلم «مِمَّن ذهبَ يَخْلُقُ كخَلْقِى» أى: باعتبار التصوير والتقدير.. وإلا فالخلق الذى هو الإيجاد لا يكون من غيره سبحانه وتعالى أصلًا «فَلْيَخْلُقوا ذَرَّةً» أى: نملة صغيرة أوْ ليخلقوا «حَبَّةً» من القمح «أوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرةً» لأنها من أنواع الحبوب أيضًا.

وفى هذه المواضع، اللام على سبيل التعجيز والتبكيت... تارة بتكليفهم خَلق حيوان وهذا أشد... وأخرى فى تكليفهم بخلق جَماد، وهو أهون ومع ذلك لا قدرة لهم على ذلك[٢].

قال الإمام النووى رحمه الله: وَمَعنَاهُ فَلْيَخْلُقوا ذَرَّةً فِيهَا رُوحٌ تَتَصَرَّفُ بِنَفْسِهَا كَهَذِهِ الذَّرَّةِ الَّتِى هِىَ خَلْقُ اللهِ تَعَالَى... وَكَذَلِكَ فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةَ حِنْطَةٍ أَوْ شَعِيرٍ أَىْ: لِيَخْلُقُوا حَبَّةً فِيهَا طَعمٌ تُؤْكَلُ وَتُزْرَعُ وَتَنْبُتُ وَيُوجَدُ فِيهَا مَا يُوجَدُ فِى حَبَّةِ الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَنَحوِهِمَا مِنَ الْحَبِّ الَّذِى يَخْلُقُهُ اللهُ تَعَالَى ... وَهَذَا أَمْرُ تَعجِيزٍ كَمَا سبق والله أعلم[٣].

يعنى إن كانوا صادقين يريدون أن يضاهوا خلق الله فليخلقوا حبة من طعام، ولتكن من البُرِّ... لو اجتمع أهل الأرض كلهم بل وأهل السماء على أن يخلقوا حبة من حنطة فإنهم لا يستطيعون.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٥٩) كتاب التوحيد - ومسلم (٢١١١) كتاب اللباس.

(٢) دليل الفالحين (٤/ ٤٣٤).

(٣) مسلم بشرح النووى (١٤/ ١٣٢).

۞ إن الخَلْقَ في اللغة خَلقان: خَلقٌ بمعنى الإيجاد والتكوين من العدم، وخَلقٌ بمعنى التحويل... والله عَزَّوَجَلَّ له الخَلقُ المُطلق، أي: الإيجاد والتكوين الأصلى... وأما الذى يُطلَق عليه خالق من دون الله عَزَّوَجَلَّ فإنما يُطلق عليه ذلك مَجازًا، فيُقال للنجار الذى يصنع هذا الطاولة مثلًا: قد خلقها وصنعها وفطرها، وليس معنى ذلك أنه خلقها من عدم... فمادة هذه الطاولة هى من خلق الله عَزَّوَجَلَّ، ولو اجتمع أهل الأرض جميعًا على أن يصنعوا ويخلقوا هذا الخشب فلن يقدروا على ذلك؛ لأن هذا هو ما تَفرَّد الله عَزَّوَجَلَّ به منذ الأزل.

۞ ويُستفاد من هذا الحديث:

تحريم التصوير؛ لأن المصور ذهب يخلق كخلق الله ليكون مُضاهيًا لله فى صُنعه...والتصوير له أحوال:

الحال الأولى: أن يصور الإنسان ما له ظل كما يقولون؛ أى: ما له جسم على هيكل إنسان أو بعير أو أسد أو ما أشبهها؛ فهذا أجمع العلماء فيما أعلم على تحريمه...فإن قلت: إذا صور الإنسان لا مضاهاة لخلق الله، ولكن صوَّر عبثًا؛ يعنى: صنع من الطين أو من الخشب أو من الأحجار شيئًا على صورة حيوان وليس قصده أن يضاهى خلق الله، بل قصده العبث أو وضعه لصبىٍّ ليُهَدِّئه به ؛ فهل يدخل فى الحديث؟

فالجواب: نعم، يدخل فى الحديث؛ لأنه خلق كخلق الله، ولأن المضاهاة لا يُشترط فيها القصد، وهذا هو سر المسألة، فمتى حصلت المضاهاة ثبت حكمها...ولهذا لو أن إنسانًا لبس لبسًا يختص بالكفار ثم قال: أنا لا أقصد التشبُّه بهم؛ نقول: التشبُّه منك بهم حاصل أردته أم لم تُرده، وكذلك لو أن أحدًا تَشَبَّه بامرأة فى لباسها أو فى شعرها أو ما أشبه ذلك وقال: ما أردت التشبه؛ قلنا له: قد حصل التشبه، سواء أردته أم لم تُرده.

الحال الثانية: أن تلتقط الصور التقاطًا بأشعة معينة بدون أى تعديل أو تحسين من الملتقط؛ فهذا محل خلاف بين العلماء المعاصرين:

فالقول الأول: أنه تصوير، وإذا كان كذلك؛ فإن حركة هذا الفاعل للآلة يُعَدُّ تصويرًا؛ إذ لولا تحريكه إياها ما انطبعت هذه الصورة على هذه الورقة، ونحن مُتفقون على أن هذه صورة؛ فحركته تُعتبر تصويرًا، فيكون داخلًا فى العموم.

القول الثانى: أنها ليست بتصوير؛ لأن التصوير فعل المُصور، وهذا الرجل ما صورها فى الحقيقة وإنما التقطها بالآلة، والتصوير من صنع الله.

ويوضح ذلك لو أدخلت كتابًا فى آلة التصوير، ثم خرج من هذه الآلة؛ فإن رسم الحروف من الكاتب الأول لا من المحرك، بدليل أنه قد يشغلها شخصٌ أُمى لا يعرف الكتابة إطلاقا أو أعمى فى ظلمة....وهذا القول أقرب؛ لأن المصور بهذه الطريقة لا يعتبر مُبدعًا ولا مُخططًا، ولكن يبقى النظر: هل يحل هذا الفعل أو لا؟

والجواب: إذا كان لغرض محرم صار حرامًا، وإذا كان لغرض مباح صار مُباحًا؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد، وعلى هذا؛ فلو أن شخصًا صوَّر إنسانًا لما يسمونه بالذكرى، سواء كانت هذه الذكرى للتمتُّع بالنظر إليه أو التلذُّذ به أو من أجل الحنان والشوق إليه؛ فإن ذلك محرم ولا يجوز لما فيه من اقتناء الصور؛ لأنه لا شك أن هذه صورة ولا أحد ينكر ذلك.

وإذا كان لغرضٍ مباح كما يوجد فى البطاقة والرخصة والجواز وما أشبهه؛ فهذا يكون مباحًا، فإذا ذهب الإنسان الذى يحتاج إلى رخصة إلى هذا المصور الذى تخرج منه الصورة الفورية بدون عمل: لا تحميض ولا غيره، وقال: صوِّرنى، فصوَّره؛ فإن هذا المصور لا نقول: إنه داخل فى الحديث؛ أى: حديث الوعيد على التصوير، أما إذا قال: صوِّرنى لغرضٍ آخر غير مباح؛ صار من باب

الإعانة على الإثم والعدوان.

الحال الرابعة: أن يكون التصوير لما لا روح فيه وهذا على نوعين:

النوع الأول: أن يكون مما يصنعه الآدمى؛ فهذا لا بأس به بالاتفاق؛ لأنه إذا جاز الأصل جازت الصورة؛ مثل أن يصور الإنسان سيارته؛ فهذا يجوز؛ لأن صنع الأصل جائز، فالصورة التى هى فرع من باب أَولَى.

النوع الثانى: ما لا يصنعه الآدمى وإنما يخلقه الله، فهذا نوعان: نوع نامٍ، ونوع غير نامٍ، فغير النامى؛ كالجبال، والأودية، والبحار، والأنهار؛ فهذه لا بأس بتصويرها بالاتفاق، أما النوع الذى ينمو؛ فاختلف فى ذلك أهل العلم.

فجمهور أهل العلم على جواز تصويره.

وذهب بعض أهل العلم من السلف والخلف إلى منع تصويره، واستدل بأن هذا من خلق الله عَزَّوَجَلَّ والحديث عام: « **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِى** »[1] ولأن الله عَزَّوَجَلَّ تحدى هؤلاء بأن يخلقوا حبة أو يخلقوا شعيرة والحبة أو الشعيرة ليس فيها روح، لكن لا شك أنها نامية، وعلى هذا؛ فيكون تصويرها حرامًا، وقد ذهب إلى هذا مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ - أعلم التابعين بالتفسير-، وقال: إنه يَحرُم على الإنسان أن يصور الأشجار، لكن جمهور أهل العلم على الجواز[2].

قلت: والراجح أنه يجوز تصوير أى شىءٍ ليس فيه روح .. كالسماء والبحار والأشجار والأنهار وغيرها مما ليس فيه روح... كما أنه يجوز تصوير الإنسان إذا كان لضرورة كالبطاقة والرخصة والجواز أو غير ذلك من الضرورات. والله أعلم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٥٣) كتاب اللباس، ومسلم (٢١١١) كتاب اللباس والزينة.

(٢) القول المفيد (٢/ ٢٣١-٢٣٢).



(١١٦) الحمى نصيب المؤمن من النار

۞ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَبْشِرْ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: هِيَ نَارِى أُسَلِّطُها على عَبْدِى الْمُؤمِنِ فِى الدُّنْيَا، لِتَكُونَ حَظَّهُ مِنَ النَّار يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[١].

۞ وفى رواية أخرى:

عن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسُول الله ﷺ دخَلَ على أُمِّ السَّائِبِ - أوْ أُمِّ المُسَيَّبِ - فقال: «**مالَكِ يا أُمَّ السَّائبِ - أوْ يَا أُمَّ المُسيَّبِ - تُزَفْزِفينَ؟**» قالتْ: الحُمَّى لا بارَكَ الله فيها.. فقال: «**لا تَسُبِّى الحُمَّى، فإنَّها تُذْهِبُ خَطَايا بَنِى آدم، كما يُذْهِبُ الكِيرُ خَبثَ الحديدِ**»[٢].

۞ الحُمَّى هى السخونة التى يجدها العبد فى جسده.. وهى نوعٌ من الأمراض التى قدرها الله عَزَّ وَجَلَّ ابتلاءً لعباده الصالحين.. فالله هو الذى يُقدرها ويرفعها متى شاء (سبحانه وتعالى)...

وكل شىء من أفعال الله فإنه لا يجوز للإنسان أن يَسُبَّه ؛ لأن سَبه سبًّا لخالقه (جل وعلا)، ولهذا قال النبى ﷺ: «**لا تَسُبُّوا الدهر فإن الله هو الدهر**»[٣].

۞ والحمى من فيح جهنم كما أخبر النبى ﷺ حيث قال: «**الحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ**»[٤].. ولهذا قرر الأطباء أن أفضل علاجٍ للحمى أن يوضع المريض فى مكانٍ فيه مكيف وأن يوضع على جسده كمَّادات من الماء البارد... فالماء البارد يُبردها ويطردها بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٥) كتاب البر والصلة والآداب.

«تُزَفْزِفين» أى: تتحرَّكِينَ حرَكَةً سريعةً، ومعناه: تَرتَعِدُ.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٢٤٦) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٦٤) كتاب بدء الخلق - ومسلم (٢٢٠٩) كتاب السلام.

وعلى المؤمن أن يصبر ويحتسب إذا أُصيب بالحمى ويعلم يقينًا أن الحمى تُذهب الخطايا كما يُذهب الكير خَبَث الحديد والذهب والفضة... وأن يعلم أن الحُمى هى حظُّ المؤمن من النار يوم القيامة.

فقد قال ﷺ: «**الْحُمَّى حَظُّ الْمُؤْمِنِ مِنَ النَّارِ يوم القيامة**»[1].

۞ وفى هذا الحديث أن النبى ﷺ دخل على أم السائب فوجدها ترتعد وتتحرك بشدة وسرعة فقال لها: «**مالَكِ يا أُمَّ السَّائبِ تُزَفْزِفينَ؟**» قالت: الحمى لا بارك الله فيها.

فنهاها النبى ﷺ عن سَبِّ الحمى لأن الأمراض والابتلاءات كلها خير للمؤمن إذا صبر واحتسب.

فقال ﷺ: «**لا تَسُبِّى الحُمَّى، فإنَّها تُذْهِبُ خطَايا بَنى آدم، كما يُذْهِبُ الكِيرُ خَبثَ الحديدِ**» فإن الحديد إذا صُهر على النار ذهب خَبثُه وبقى صافيًا، كذلك الحمى تفعل فى الإنسان كذلك.

۞ وكل الأمراض والابتلاءات هى عين الخير للعبد.. لأن الله عَزَّ وَجَلَّ إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم.. فهى علامة على حب الله للعبد وكفى بها منقبة لا توازيها الدنيا بما فيها... وأيضًا فالأمراض والابتلاءات جعلها الله سببًا لمغفرة الذنوب وتكفير السيئات ورفعة الدرجات فى الجنات.

---

(١) صحيح: رواه البزار وابن أبى الدنيا وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١٨٦)(٣١٨٧).



(١١٧) يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خيرٌ لك

۞ عَن أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنْ تُعْطِ الْفَضْلَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ تُمْسِكْهُ فَهُوَ شَرٌّ لَكَ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَلَا يَلُومُ اللهُ عَلَى الْكَفَافِ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»[1].

۞ وعَنْ أبى أُمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يا ابْنَ آدمَ: إِنَّكَ إِنْ تَبْذُل الفَضلَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِن تُمسِكهُ شرٌّ لَكَ، ولا تُلامُ عَلى كَفَافٍ، وَابدأ بِمنْ تَعُولُ»[2].

۞ مَعنَاهُ: إِنْ بَذَلْتَ الْفَاضِلَ عَنْ حَاجَتِكَ وَحَاجَةِ عِيَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ لِبَقَاءِ ثَوَابِهِ وَإِنْ أَمْسَكْتَهُ فَهُوَ شَرٌّ لَكَ.. لِأَنَّهُ إِنْ أَمْسَكَ عَنِ الْوَاجِبِ اسْتَحَقَّ الْعِقَابَ عَلَيْهِ وَإِنْ أَمْسَكَ عَنِ الْمَنْدُوبِ فَقَدْ نَقَصَ ثَوَابُهُ وَفَوَّتَ مَصلَحَةَ نَفْسِهِ فِى آخِرَتِهِ.. وَهَذَا كُلُّهُ شَرٌّ.... وَمَعنَى (لَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ) أَنَّ قَدرَ الْحَاجَةِ لَا لَوْمَ عَلَى صَاحِبِهِ وَهَذَا إِذَا لَمْ يَتَوَجَّهْ فِى الْكَفَافِ حَقٌّ شَرْعِيٌّ كَمَنْ كَانَ لَهُ نِصَابٌ زَكَوِيٌّ وَوَجَبَتِ الزَّكَاةُ بِشُرُوطِهَا وَهُوَ مُحتَاجٌ إِلَى ذَلِكَ النِّصَابِ لِكَفَافِهِ وَجَبَ عَلَيْهِ إِخْرَاجُ الزَّكَاةِ وَيُحَصِّلُ كِفَايَتَهُ مِنْ جِهَةٍ مُبَاحَةٍ.

وَمَعنَى: «ابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ»: أَنَّ الْعِيَالَ وَالْقَرَابَةَ أَحَقُّ مِنَ الْأَجَانِبِ[3].

۞ وهذا الحديث من النجوم اللامعة والشموس الساطعة فى أُفق التشريع الإسلامى. فهو يكشف عن عظمة هذا الدين فى تكوين وتَماسُك البنية الاجتماعية والاقتصادية للأمة المسلمة. ويُؤصِّل للعلاقة بين المسلم والمال فيجعل بذل الفضل والتصدُّق بما زاد على حاجته وحاجة عياله خيرًا لنفسه.. وإمساك الفضل وحجب الزيادة عن المحتاجين شرًّا لنفسه.. ويعافيه من اللوم

(١) رواه أحمد، بإسنادٍ صحيح، وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٣٦) كتاب الزكاة.

(٣) مسلم بشرح النووى (٧/ ١٧٨).

والعتاب إذا أنفق على نفسه وأهله وولده قدر الحاجة.

ولا يشجع الإسلام الفقراء على البطالة وانتظار الفضل والعطاء من الموسرين وإنما يدفع الغنى إلى السمو ببذل الفضل ..والفقير إلى القناعة والتعفُّف بكراهة السؤال والتطلُّع إلى النوال فى عبارة قصيرة آية فى الروعة والبيان...يقول صلوات الله وسلامه عليه: «**وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى**»[1].

---

(١) جامع الأحاديث القدسية.



(١١٨) مَن تَقرَّبَ إلىَّ شبرًا



۞ عن أنس رضي الله عنه عن النبى ﷺ فيمَا يرْوِيه عنْ ربه عز وجل قال: «إِذَا تَقَرَّبَ الْعبْدُ إِلَيَّ شبرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْه ذراعًا، وإِذَا تقرَّب إِلَيَّ ذراعًا تقرَّبْتُ منه باعًا، وإِذا أتانِى يَمْشِي أَتيْتُهُ هرْوَلة»(١).

۞ وهذا من كمال رحمة الله عز وجل بعباده.. فهو الغنى عن عباده لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية.. فهو القائل (سبحانه وتعالى): «...يَا عبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانوا على أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فى مُلْكِى شَيْئًا...يا عبادى لو أنَّ أَوَّلكُمْ وآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وجِنَّكُم كانوا على أفْجَرِ قَلْب رَجلٍ واحدٍ مِنْكُم مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا...»(٢).

ومع ذلك يقول عز وجل: «إِذَا تَقَرَّبَ الْعبْدُ إِلَيَّ شبرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْه ذراعًا».

۞ قال الإمام النووى رحمه الله:

وَمَعنَاهُ: مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِطَاعَتِى تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بِرَحمَتِى، وَالتَّوْفِيقِ، وَالْإِعَانَةِ، وَإِنْ زَادَ زِدتُ. فَإِنْ أَتَانِى يَمْشِى وَأَسْرَعَ فِى طَاعَتِى، أَتيْتُهُ هَرْوَلَةً. وَالْمُرَادُ أَنَّ جَزَاءَهُ يكون تضعيفه عَلَى حَسَبِ تقرُّبه(٣).

قلت: والأولَى فى باب الأسماء والصفات أن نُثبت لله عز وجل ما أثبته لنفسه وما أثبته له نبيه ﷺ دون تكييف ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل.. فنثبت لله عز وجل صفة الهرولة ولا نسأل عن كيفيتها.. ونوقن أنها ليست كهرولة المخلوقين.. فالله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٣٦) كتاب التوحيد - ومسلم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة.

(٣) مسلم بشرح النووى (١٧/ ٥).

(١١٩) فضل فقراء المؤمنين

۞ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَابِطٍ، قَالَ: أَرْسَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى سَعِيدِ بْنِ عَامِرٍ الْجُمَحِيِّ: إِنَّا مُسْتَعْمِلُوكَ عَلَى هَؤُلَاءِ، تَسِيرُ بِهِمْ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ فَتُجَاهِدُ بِهِمْ، - فَذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا فَقَالَ فِيهِ - قَالَ سَعِيدٌ: وَمَا أَنَا بِمُتَخَلِّفٍ عَنِ الْعُنُقِ الْأَوَّلِ بَعْدَ إِذْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ فُقَرَاءَ الْمُسْلِمِينَ يُزَفُّونَ كَمَا يُزَفُّ الْحَمَامُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: قِفُوا لِلْحِسَابِ، فَيَقُولُونَ: وَاللهِ مَا تَرَكْنَا شَيْئًا نُحَاسَبُ بِهِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: صَدَقَ عِبَادِي، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ النَّاسِ بِسَبْعِينَ عَامًا**»[1].

۞ وفي رواية: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللهِ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: «**أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللهِ الْفُقَرَاءُ وَالْمُهَاجِرُونَ، الَّذِينَ تُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَيُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ، لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ: ائْتُوهُمْ فَحَيُّوهُمْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: نَحْنُ سُكَّانُ سَمَائِكَ، وَخِيرَتُكَ مِنْ خَلْقِكَ، أَفَتَأْمُرُنَا أَنْ نَأْتِيَ هَؤُلَاءِ فَنُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا عِبَادًا يَعْبُدُونِي، لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا، وَتُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَيُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ، وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ، لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً قَالَ: فَتَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾**»[2] [3].

۞ لقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الفقراء والمساكين والمستضعفين وحبهم ومُجالستهم... والمقصد هنا: أن الإنسان إذا أفقره الله عَزَّ وَجَلَّ فلا ييأس

---

(١) أخرجه الطبراني (٦/ ٥٨، رقم ٥٥٠٨). وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (١٨٥٠).

(٢) سورة الرعد: الآية: (٢٤).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده جيد.

ولا يحزن ولا يحسد غيره ممن آتاه الله عَزَّوَجَلَّ مالاً، فالمال نعمة من الله سبحانه، وقد يكون لإنسانٍ نعمة وعلى إنسانٍ نقمة، فيكون لإنسانٍ يتقوى به على طاعة الله سبحانه، وعلى عمل الخير، ويكون لإنسانٍ آخر يتقوى به على معاصى الله سبحانه وتعالى.

وشأن المؤمن أن يَرضى بالحال الذى هو فيه، فإن أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ مالاً رضى، وحَمِد الله وشكره على ما آتاه، وإن منعه من ذلك صبر ورضى وحَمِد الله سبحانه وتعالى، ولا يتضجر، وليتسلَّ وليتصبر بما جاء عن النبى ﷺ من أحاديث فى هذا المعنى....وليس المعنى أن يطلب الإنسان من ربه الفقر فيدعو ويقول: يا رب أفقرنى، مثلاً...فقد كان النبى ﷺ يتعوذ بالله من الكفر والفقر، ولكن مع ذلك كان يقول: (اللهم اجعل رزق آل محمدٍ قوتـًا)، يعنى: بقدر ما يحتاجون ولا يزيد.

وكان يقول: (اللهم أحينى مسكينًا، وأمتنى مسكينًا، واحشرنى فى زمرة المساكين)، صلوات الله وسلامه عليه، فكان يسأل الله سبحانه أن يرزقه أن يكون كالمساكين، وليس المعنى أن يكون معهم فى فقرهم أو أن يكون فقيراً؛ لأنه كان يتعوذ بالله من الفقر، وإنما المعنى: أن يجعله فى تواضع المساكين، إذ المسكين الذى ليس له مال يتواضع، ولذا يطلب النبى ﷺ من ربه أن يرزقه هذا الخُلق، فيكون خُلقه التواضع حتى لو آتاه الله كنوز الدنيا، وكذلك كان يسأل ربه سبحانه القوت، أى: أن يعطيه بقدر ما يحتاج، فهو لا يريد أكثر من ذلك صلوات الله وسلامه عليه...بل لو آتاه الله عَزَّوَجَلَّ مثل جبل أُحدٍ ذهبـًا لما بقى فى بيته منه شىء إلا وهو ينفق هكذا وهكذا وهكذا، إلا شيئًا يُبقيه لدَينٍ صلوات الله وسلامه عليه.

فغاية ما تدل عليه هذه الأحاديث: أن الإنسان إذا أفقره الله ولم يعطه مالاً

فعليه أن يصبر على ذلك، بعد أن يأخذ بالأسباب فى طلب الرزق وفى طلب المعاش، ويرضى بقضائه وقدره، ويتصبر بمثل ما جاء عن النبى ﷺ من قوله: «**اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء**»، وإذا كان الفقراء أكثر أهل الجنة، فالإنسان المؤمن يحب أن يكون معهم... والفقراء أيضًا أول مَن يدخلون الجنة، ولذا فالمؤمن يحب أن يدخل الجنة مع هؤلاء الفقراء، وهؤلاء المساكين.

۞ فالفقير الذى هاجر إلى الله ورسوله إذا أُمر أن يخرج للجهاد خرج.. وذلك لأن أكثر الذين يقفون على الثغور هم الفقراء.. ولذا قال ﷺ بعدها: (وتُتقى بهم المكاره)، أى: هم الجنود دائمًا والدروع التى تحمى الأمة من المكاره والأخطار.. ومعلوم أن القائد فى الجيش يكون فى مؤخرة الجيش؛ يحميه الجنود، فهؤلاء تُتقى بهم المكاره، ثم قال: (ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاءً)، فالفقير المسكين قد تشتهى نفسه أن يأكل أكلة مُعينة، أو يلبس لبسًا معينًا، أو يتكلم فى حاجة مُعينة، لكن بسبب فقره لا يسمع إليه أحد، ولا يجد ما يشترى به هذا الطعام، ولا هذا الشراب ولا هذا اللباس، وأكَّدها بقوله: (لا يستطيع لها قضاءً، فيقول الله عَزَّوَجَلَّ لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم)، أى: أن الله يُدخل الجنة ذلك الإنسان الذى كان فى الدنيا فقيرًا، مجاهدًا فى سبيل الله، قد عمل الصالحات، وبذل فى الدنيا كثيرًا، ولم يأخذ منها إلا القليل حسب الظاهر، ولكن الحقيقة أن الله أعطاه الكثير، إذ يكفيه الإيمان الذى قلبه، والصبر الذى هو عليه ليس منه، بل هو من الله سبحانه الذى أعانه على الصبر على الدنيا، وكانت تكرمته الجنة، فإذا أدخله الله عَزَّوَجَلَّ الجنة أمر الملائكة أن يأتوا إليه، وأن يسلموا عليه ويحيوه هو وإخوانه من الفقراء المجاهدين، فتقول الملائكة لربها سبحانه وتعالى: (ربنا نحن سُكان سمائك وخيرتك من خلقك! أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنُسلِّم عليهم؟)، والملائكة خلقٌ

من خلق الله، خلقهم من نور، وهذا شيء أعظم مما خُلق منه الإنسان، فهو مخلوق من طين...وكأن الملائكة نظروا إلى أن الله كرمهم وخلقهم من نور، وجعلهم أهل سماواته سبحانه وتعالى، وجعلهم خيرته، وهؤلاء عباد مخلوقون من طين، وقد أذنبوا فى الدنيا، وأصابهم فيها ما أصابهم، فكيف نذهب إليهم؟ - يستفهمون من ربهم سبحانه وتعالى- فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: «إنهم كانوا عباداً يعبدونى، ولا يشركون بى شيئًا، وتُسَدُّ بهم الثغور»، فيُذكِّر اللهُ الملائكةَ كيف كان هؤلاء على خير فى هذه الدنيا، وكيف أنهم كانوا عباداً لله، يعبدون الله ولا يعبدون أحداً إلا الله سبحانه وتعالى، ولا يشركون به شيئًا وتُسَدُّ بهم الثغور... وفى الحديث صورة لائقة لهؤلاء فى قوله: «تُسَدُّ بهم» فلو أن قِربة مُغلقة انخرقت ثم نزل منها الماء وأخذ يُخرب فى الدنيا فمن سيقوم بسدِّ هذا الخَرق؟ لقد كان هؤلاء هم الذين تُسَدُّ بهم هذه الثغور يعنى: الشرور التى تأتى من أعداء الإسلام عن طريق الثغور...فالله عَزَّوَجَلَّ جعل هؤلاء أسبابًا لسدِّ الثغور وكَفِّ الشرور... قوله: وتُتقى بهم المكاره، يعنى: أمة الإسلام تتقى بهؤلاء المكاره فهم فى المقدمة دائمًا، يدفعون ويدافعون ويموتون شهداء فى سبيل الله سبحانه وتعالى، أو يموتون على فُرشهم قد طلبوا فضل الله ورحمته سبحانه.

قوله: (ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاءً)، وبذلك عرفت الملائكة فضل هؤلاء، فأتتهم عند ذلك، ودخلوا عليهم من كل باب، هؤلاء فى الجنة فى قصورهم، فى أماكنهم يُنعَّمون والملائكة تأتى عليهم أفواجًا من كل باب من أبواب قصورهم ومنازلهم فى الجنة يحيونهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾[1]، أى: سلام عليكم، بسبب صبركم.. فأنتم تستحقون السلام، والأمن، وتستحقون أن تَحيوا فى هذا المكان فلا تموتون أبداً.

---

(١) سورة الرعد: الآية: (٢٤).

فالله قال: (حيوهم)، يعنى: سلِّموا عليهم وادعوا لهم بالحياة الكريمة عند الله والخلود فى هذه الحياة... فيدعون ويحيونهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾.

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا مع هؤلاء الأبرار[1].

(١) شرح الترغيب والترهيب للشيخ أحمد حطيبة بتصرف.



(١٢٠) فضل الصبر على البلاء والأمراض



۞ عَن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قَالَ: «لَيْسَ مِنْ عَمَلِ يَوْمٍ إِلَّا وَهُوَ يُخْتَمُ عَلَيْهِ، فَإِذَا مَرِضَ الْمُؤْمِنُ، قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبَّنَا، عَبْدُكَ فُلَانٌ قَدْ حَبَسْتَهُ، فَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: اخْتِمُوا لَهُ عَلَى مِثْلِ عَمَلِهِ حَتَّى يَبْرَأَ أَوْ يَمُوتَ»[(١)].

۞ وعَنْ أَبِى الْأَشْعَثِ الصَّنْعَانِيِّ، أَنَّهُ رَاحَ إِلَى مَسْجِدِ دِمَشْقَ وَهَجَّرَ بِالرَّوَاحِ، فَلَقِيَ شَدَّادَ بْنَ أَوْسٍ والصنابحيُّ مَعَهُ، فَقُلْتُ: أَيْنَ تُرِيدَانِ رَحِمكُمَا اللهُ؟ فَقَالَا: نُرِيدُ هَاهُنَا إِلَى أَخٍ لَنَا مَرِيضٍ نَعُودُهُ. فَانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا حَتَّى دَخلنَا عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ، فَقَالَا لَهُ: كَيْفَ أَصبَحتَ؟ قَالَ: أَصبَحتُ بِنِعْمَةِ اللهِ وَفَضلِهِ. فَقَالَ لَهُ شَدَّادٌ: أَبْشِرْ بِكَفَّارَاتِ السَّيِّئَاتِ وَحَطِّ الْخَطَايَا، فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِى مُؤْمِنًا، فَحَمِدَنِى وَصَبَرَ عَلَى مَا ابْتَلَيْتُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ لِلْحَفَظَةِ: إِنِّى أَنَا قَيَّدْتُ عَبْدِى، وَابْتَلَيْتُهُ، فَأَجْرُوا لَهُ مَا كُنْتُمْ تُجْرُونَ لَهُ قَبلَ ذَلِكَ مِنَ الْأَجْرِ وَهُوَ صَحِيحٌ»[(٢)].

۞ وقال ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِىَ الْمُؤْمِنَ، فَلَمْ يَشْكُنِى إِلَى عُوَّادِهِ أَطْلَقْتُهُ مِنْ أَسَارِى، ثُمَّ أَبْدَلْتُهُ لَحمًا خَيْرًا مِنْ لَحمِهِ، وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ، ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ الْعَمَلَ»[(٣)].

۞ (ليس مِنْ عَمَلِ يوم إلا وهو يُختم عليه) يُطبع عليه بطابعٍ الله أعلم بكيفيته. (فإذا مرض المؤمن) الذى سبق له عمل طُبع عليه. (قالت الملائكة)

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٤٣٢).

(٢) حسن: رواه أحمد، وأبو يعلى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٠٠).

(٣) صحيح: رواه الحاكم، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٠١).

يحتمل الكاتبان، ويحتمل غير ذلك. (يا ربنا، عبدك فلان قد حبسته، فيقول الربُّ: اختموا له على مثل عمله) فضلاً من الله ومِنَّة ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[1].

۞ (حتى يبرأ أو يموت) فينبغي للمؤمن أن يستكثر من أعمال البر أيام صحته لينال ذلك في مرضه...وقد ورد في الحديث الآخر: «**إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يعمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**»[2][3].

۞ وفي الحديث الثاني: «**قَالَ تَعَالَى: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا، فَحَمِدَنِي وَصَبَرَ عَلَى مَا ابْتَلَيْتُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ لِلْحفَظَةِ: إِنِّي أَنَا قَيَّدْتُ عَبْدِي، وَابْتَلَيْتُهُ، فَأَجْرُوا لَهُ مَا كُنْتُمْ تُجْرُونَ لَهُ قَبلَ ذَلِكَ مِنَ الأَجْرِ وَهُوَ صَحِيحٌ**».

قال الغزالي: إنما نال العبد هذه المرتبة لأن كل مؤمن يَقدر على الصبر على المحارم وأما الصبر على البلاء فلا يقدر عليه إلا ببضاعة الصدِّيقين فإن ذلك شديد على النفس...فلما قاسى مرارة الصبر جُوزي بهذا الجزاء الأوفى.

وفيه ترغيب في الصبر وتحذير من الشكوى لكن ليس من الشكوى قول المريض: إني وجع أو وارأساه إذا اشتد به الوجع ونحو ذلك... وقد ترجم البخاري باب ما رخص للمريض أن يقول إني وجع... قال الطبري: وقد اختُلف في ذلك والتحقيق أن الألم لا يقدر أحدٌ على دفعه والنفوس مجبولة على وجدان ذلك فلا يُستطاع تغييرها عما جُبلت وإنما كُلف العبد أن لا يقع منه حال المرض أو المصيبة ما له سبيل إلى تَرْكِه كالمبالغة في التأوه ومزيد الجزع

---

(١) سورة الحديد: الآية: (٢١).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٩٩٦) كتاب الجهاد والسير.

(٣) التنوير بشرح الجامع الصغير (٩/ ٢٧٧).

والضجر وأما مجرد الشكوى فلا[(١)].

۞ وفى الحديث الثالث: (قَالَ الله تَعَالَى: إذا ابْتليت عَبدِى الْمُؤمن) أَى اختبرته وامتحنته (فَلم يَشكُنى) أَى لم يُخبر بِمَا عِنْده من الْأَلَم (إِلَى عُوَّاده) أَى زُوَّاره فِى مَرضه ... وكل مَنْ أَتَاك مرّة بعد أُخْرَى فَهُوَ عَائِد لكنه اشْتهر فِى عِيَادَة الْمَرِيض (أطلقته من أَسَارِى) أَى من ذَلِك الْمَرَض (ثمَّ أبدلته لَحمًا خيرًا من لَحمه) الَّذِى أذهبه الْأَلَم (ودمًا خيرًا من دَمه ثمَّ يسْتَأْنف الْعَمَل) أَى يُكفر الْمَرَض عمله السَّيئ وَيخرج مِنْهُ كَيَوْم وَلدته أمه ثمَّ يسْتَأْنف الأعمال الصالحة.... وَفِيه أَن الشكوى تُحبط الثَّوَاب.

قَالَ بَعضهم لمريض لَا تَشْكُ مَن يَرْحَمك إِلَى مَن لَا يَرْحَمك... وَمحله إِذا كَانَ على وَجه الضجر والتسخُّط أما على طَرِيق الْإِخْبَار بالواقع فَلَا.

قيل: شكا سُفْيَان فَقيل لَهُ: أتشكو الله؟

قَالَ: بل اذكر قدرَة الله عَلَيَّ... وَقيل لعَلى بن أبى طالب رَضِيَ الله عَنْه: كَيفَ أَنْت؟ قَالَ: بِشَرٍّ. قيل: أمثلك يَقُول ذَلِك؟. قَالَ: إِنَّه تَعَالَى يَقُول: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ فالخير الصِّحَّة وَالشَّر الْمَرَض[(٢)].

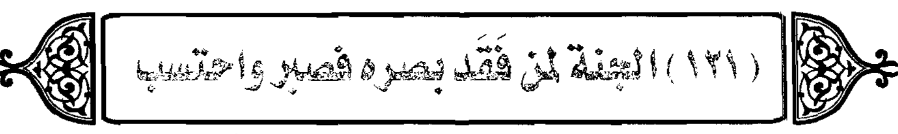
۞ ألا فلنحرص جميعًا على أن نجتهد فى طاعة الله (جلَّ وعلا) فى أيام العافية حتى إذا سافرنا أو أصابنا مرضٌ كُتِبَ لنا مثل ما كنَّا نفعله فى أيام العافية... ولنحرص كل الحرص على أن نحمد الله عَزَّوَجَلَّ فى السراء والضراء وعلى ألا نشكو الله عَزَّوَجَلَّ إلى عباده.. ولا مانع من التوجُّع ما لم يَصحبه شىءٌ من الضجر والتسخُّط.

---

(١) فيض القدير (٤/ ٤٧٩).

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/ ١٩+).

أسأل الله عَزَّوَجَلَّ لى ولكم العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة وأن يعافينا فى أبداننا وأولادنا وأنفسنا وأوطاننا.



(١٢١) الجنة لمن فَقَد بصره فصبر واحتسب

۞ عَن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «**إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبدى بحبيبتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ**» يُريدُ عينيْه[1].

۞ ففى هذا الحديث يخبر الله عَزَّ وَجَلَّ أنه إذا ابتلى عبدًا من عباده بإطفاء نور حبيبتيه - أى عينيه- فصبر واحتسب فإن الله يعوضه بهما الجنة التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقد سمَّى الله العينين بهذا الاسم (حبيبتيه) ؛ لأن الإنسان من خلالهما يحب الدنيا ويحب ما فيها...

ولذا فإن العبد إذا وُلِدَ أعمى لا يرى شيئًا فإنه لا يحزن على فوات أى شىء من الدنيا؛ لأنه لم يرها أصلًا.. وإنما يكون الألم الشديد لمن وُلِدَ مُبصرًا ورأى الدنيا وزينتها الفانية، ثم فَقَد بصره بعد ذلك.

ولأن العينين هما أغلى شىء عند الإنسان فإن الله عَزَّ وَجَلَّ إذا قبضهما وحرم العبد من نعمة البصر فصبر واحتسب لم يجعل الله له جزاءً من الحسنات ولو كانت كثيرة وإنما جعل ثوابه الجنة مباشرة ؛ لأنه حُرم من جنته فى الدنيا - نعمة البصر - فصبر واحتسب فكان الجزاء جنة بجنة... وشتَّان ما بين الجنتين.

۞ واعلم أن الله إذا حرم عبدًا من نعمة البصر فإنه يعوضه فى بقية الحواس بما يُخفف عنه ألم الحرمان من تلك الحاسة التى فقدها... بل لقد رأيت أن أكثر الذين حُرموا من نعمة البصر قد منحهم الله قوة فى الحفظ وطهارة فى القلب لانعدام الذنوب التى تأتى أكثرها من النظر إلى المحرمات.. فيصبح القلب طاهرًا ويُصبح العقل حاضرًا.

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٦٥٣) كتاب المرضى.

وقد رأينا منهم الكثير والكثير من العلماء وحفظة القرآن... فهذا من لُطف الله ورحمته بأهل البلاء في الدنيا والآخرة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ فِيهِ قَيْدٌ آخَرُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ» بِلَفْظِ: «**إِذَا أَخَذْتُ كَرِيمَتَيْكَ فَصَبَرْتَ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولى وَاحتَسَبْتَ**» فَأَشَارَ إِلَى أَنَّ الصَّبْرَ النَّافِعَ هُوَ مَا يَكُونُ فِي أَوَّلِ وُقُوعِ الْبَلَاءِ فَيُفَوِّضُ وَيُسَلِّمُ، وَإِلَّا فَمَتَى تَضَجَّرَ وَتَقَلَّقَ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ ثُمَّ يَئِسَ فَيَصبِرُ لَا يَكُونُ حَصَّلَ الْمَقْصُودُ... وَقَدْ مَضَى حَدِيثُ أَنَسٍ فِي الْجَنَائِزِ: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدمَةِ الْأُولَى**» وَقَدْ وَقَعَ فِي حَدِيث الْعِرْبَاض فِيمَا صَححهُ ابن حِبَّانَ فِيهِ بِشَرْطٍ آخَرَ وَلَفْظُهُ: «**إِذَا سَلَبْتُ مِنْ عَبْدِي كَرِيمَتَيْهِ وَهُوَ بِهِمَا ضَنِينٌ لَمْ أَرْضَ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ إِذَا هُوَ حَمِدَنِي**»، وَإِذَا كَانَ ثَوَابُ مَنْ وَقَعَ لَهُ ذَلِكَ الْجَنَّةَ فَالَّذِي لَهُ أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ أُخْرَى يُزَادُ فِي رَفْعِ الدَّرَجَاتِ[1].

---

(١) فتح الباري (١٠/ ١٢١).

(١٢٢) فضل شهادة الجيران الأقربين وثنائهم

❁ عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَشْهَدُ لَهُ أَرْبَعَةُ أَهْلِ أَبْيَاتٍ مِنْ جِيرَانِهِ الْأَدْنَيْنَ أَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ إِلَّا خَيْرًا، إِلَّا قَالَ اللهُ: قَدْ قَبِلْتُ عِلْمَكُمْ فِيهِ، وَغَفَرْتُ لَهُ مَا لا تَعْلَمُونَ**»(١).

❁ قال الشيخ الألباني رحمه الله تعالى معلقًا:

«اعلم أن هذه الشهادة لا تختص بالصحابة، بل هى أيضًا لمن بعدهم من المؤمنين الذين هم على طريقتهم فى الإيمان والعلم والصدق، وبهذا جزم الحافظ ابن حجر فى «الفتح»... هذا، وأما قول بعض الناس عقب صلاة الجنازة: «ما تشهدون فيه، اشهدوا له بالخير» فيجيبونه بقولهم: صالح.. أو من أهل الخير، ونحو ذلك، فليس هو المراد بالحديث قطعًا، بل هو بدعة قبيحة؛ لأنه لم يكن من عمل السلف، ولأن الذين يشهدون بذلك لا يعرفون الميت فى الغالب، بل قد يشهدون بخلاف ما يعرفون استجابة لرغبة طالب الشهادة بالخير، ظنًّا منهم أن ذلك ينفع الميت، وجهلاً منهم بأن الشهادة النافعة إنما هى التى توافق الواقع فى نفس المشهود له، كما يدل على ذلك قوله ﷺ: «**إن لله ملائكة تنطق على ألسنة بنى آدم بما فى المرء من الخير أو الشر**»(٢).

❁ فَإِن قلت: هَل ينفع الثَّنَاء على الْمَيِّت بِالْخَيرِ وَإِن خَالف الْوَاقِع أم لَا بُد أَن يكون الثَّنَاء عَلَيْهِ مُطابقًا للْوَاقِع؟ قلت: فِيهِ قَولَانِ للْعُلَمَاء أَصَحهمَا أَن ذَلِك يَنْفَعهُ، وَإِن لم يُطَابق الْوَاقِع لِأَنَّهُ لَو كَانَ لَا يَنْفَعهُ إِلاَّ بالموافقة لم يكن للثناء فَائِدَة...وَيُؤَيّد هَذَا مَا رَوَاهُ ابْن عدى فِي (الْكَامِل) عَن ابْن عمر رضي الله عنهما عَن النَّبِى

(١) حسن لغيره: رواه أبو يعلى، وابن حبان، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (٣٥١٥).

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم (١/ ٥٣٣) وقال: صحيح على شرط مسلم، والبيهقى فى شعب الإيمان (٧/ ٢٢)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى السلسلة الصحيحة (١٦٩٤).

ﷺ أنه قَالَ: «إِن العَبْد سيُرزَق الثَّناء والستر وَالْحب من النَّاس حَتَّى تَقول الْحفظَة: رَبنَا إِنَّك تعلم ونعلم غير مَا يَقُولُونَ، فَيَقُول: أُشهدكم أَنِّى قد غفرت لَهُ مَا لَا يعلمُونَ، وَقَبِلتُ شَهَادَتهم على مَا يَقُولُونَ».

قَالَ الدَّاوُدِيّ: الْمُعْتَبر فِي ذَلِكَ شَهَادَة أَهْل الْفَضْل وَالصِّدق لَا الْفَسَقَة لِأَنَّهُمْ قَدْ يُثْنُونَ عَلَى مَنْ يَكُون مِثْلهمْ ... وَلَا تُقبَل شَهادَة مَنْ بَيْنه وَبَيْن الْمَيِّت عَدَاوَة لِأَنَّ شَهَادَة الْعَدُوّ لَا تُقْبَل.

قال النَّووىُّ: قَالَ بعضُهُم: مَعنَى الحَدِيث: أَنَّ الثَّنَاءَ بِالْخَيْرِ لِمَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ أَهْلُ الْفَضْلِ، وَكَانَ ذَلِكَ مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

۞ والصَّحِيحُ أَنَّهُ عَلَى عُمُومِهِ وَإِطْلَاقِهِ، وَأَنَّ كُلَّ مُسْلِم مَاتَ فَأَلْهَمَ اللهُ تَعَالَى النَّاسَ أَوْ مُعْظَمَهُمْ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ سَوَاءٌ كَانَتْ أَفْعَالُهُ تَقْتَضِى ذَلِكَ أَمْ لَا... إذ العقُوبة غير وَاجِبة بَل هُوَ فِى خطر المَشِيئة، فَإِذَا أَلهم اللهُ النَّاسَ الثَّناء استدللنا بذلِكَ علَى أَنَّه تَعَالَى قَدْ شَاءَ المغفرة له.

وبهذَا تظهر فَائدة الثَّناء، وإلَّا فإذا كانت أفعاله مقتضية للجنة لم يكن للثناء فائدة. وقد أثبت النبى ﷺ له فائدة.

۞ وليس شرطًا أن يشهد للميت كل الناس، بل يصح من بعض الناس أيضًا، فقد يكون حال هذا الإنسان غائبًا عن الكثير، ولكن بينه وبين الله خيرٌ كثير، والأقربون يرون منه هذا الخير، فيرون أنه كثير التقوى كثير الصلاة كثير الصدقة لكن لا يشتهر عنه ذلك، وإنما عرف الأقربون ذلك فأثنوا عليه خيراً، فيُنطق الله على ألسنتهم ملائكة حتى يستوجب جنة الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ فهنا الإنسان الذى يموت فيثنى عليه الأقربون من جيرانه، وذلك لخُلقه الحسن معهم، ولذا تجد الأقربين يحبونه، ويُثنوا عليه بالطيب، وأنه لا يتعرض لأحد، ولا يؤذى أحدًا، فيثنى عليه جيرانه الأقربون بخير...فإذا وُجد أربعة من

أهل جيرانه يُثنون عليه بذلك استحق من الله عَزَّوَجَلَّ الجنة والثواب...والله سبحانه يقول: (قد قَبِلت عِلمكم فيه) أي: قبلت منكم هذه الشهادة.

قال: (وغفرت له ما لا تعلمون) أي: أنتم لا تعلمون أخطاءه، والله يعرفها فيغفر له ذلك؛ لأنه كتم على نفسه، وستر نفسه، ولم يُجاهر بالمعصية بين الناس، فكانت سيئته بينه وبين ربه، فهذا جدير بأن يغفر الله له؛ لأنه ستر نفسه... يقول النبي ﷺ: «**من ستر نفسه ستره الله**»، وبالمقابل: مَن فضح نفسه استحق العقوبة من الله.





(١٢٣) إنَّا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة

۞ عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، قَالَ: كُنَّا نَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَيُحَدِّثُنَا فَقَالَ لَنَا ذَاتَ يَوْمٍ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: إِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَلَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ، لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَانٍ، وَلَوْ كَانَ لَهُ وَادِيَانِ، لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمَا ثَالِثٌ، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ»[1].

۞ إن الله عَزَّوَجَلَّ يوضح لنا الغاية التى من أجلها أنزل المال: ألا وهى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وليس معنى ذلك أن المال لا يَصلُح لغير هذا، ولكن المقصود أن أعظم وظيفة لهذا المال أن نستعين به على طاعة الله ولا نستعمله فى معصية الله.

وإذا استعملنا المال فى شراء الطعام والغذاء والمسكن، وغير ذلك من متاع الدنيا، فهذا نوعٌ من الطاعة أيضًا؛ لأننا نستعمل تلك الأشياء لتكون عونًا لنا على طاعة الله (جلَّ وعلا).

۞ يعنى: أن الله سبحانه وتعالى أنزل المال، وأوجده، وجعله بين يدى خلقه؛ ليقيموا به شعائر الدين، ويظهروا معالم الشرع من صلاة، وزكاة، وغيرهما لا أن يضعوا ما رزقهم الله من المال فى غير موضعه، ويصرفوه فى الملاهى والملذات، وفى غير طاعة الله، وإحياء سنة نبيه ﷺ... وذلك لأنَّ قيامَ العالَم بإحياء قوانين دينهم، وسلوك نهج كلياته، وإبراز مفروضاته، وسُننه، ومستحباته، ففى ذلك سعادتهم دنيا وأُخرى، ويكون وضع الشىء فى محله المشروع له...وما تأخرت الأمم وانتشر الفساد فيها إلا بنبذ تعاليم الرسل

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٨١).

والأنبياء، وطرح ما أتوا به من المحاسن والمشروعات، والأخذ بما تُسوله لهم أنفسهم من السوء، والفحشاء، والانقياد لما تزينه لهم شياطينهم من المعتقدات الباطلة والأعمال الفاسدة ... فأرجو الله تعالى أن يوفق الأمم أجمع إلى الأخذ بدين الإسلام... دين العز، والقوة، والرحمة، والرأفة، والسلام، والأمان لكل إنسان!

ولما كان الإنسان بطبعه مَيَّالًا إلى حب المال، لا يشبع، وليس له حَدٌّ ينتهى إليه قال الله تعالى فى الحديث: «**لو كان لابن آدم وادٍ** -أى: من ذهب، أو فضة- **لأحب أن يكون له ثانٍ، ولو كان له واديان لأحب أن يكون له ثالث...**»[1].

❁ وفى رواية:

عَنْ ابْنِ عَبَّاس وأنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لَوْ أَنَّ لابْنِ آدَمَ وَاديًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وادِيانِ، وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوب الله عَلَى مَنْ تَابَ**»[2].

ففى هذا الحديث يُخبر النبى ﷺ عن آفة الطمع الذى يملأ قلوب أكثر بنى آدم.. وأن ابن آدم لا يشبع من المال والذهب أبدًا حتى أنه لو كان يمتلك واديًا من الذهب الصافى.. وذلك الوادى قد يكفى أهل الأرض جميعًا ومع ذلك فهو لا يكتفى بذلك بل يتمنى أن يمتلك واديين من الذهب.

ثم يوضح النبى ﷺ أنه لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب.. وذلك إذا مات ودُفن تحت التراب وترك الدنيا بما فيها ففى هذه اللحظة يُدرك حقيقة الدنيا... ومع ذلك فالنبى ﷺ يحث الناس على التوبة من الطمع والجرى وراء حُطام

---

(١) الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية (١/ ٤٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٣٦) كتاب الرقاق - ومسلم (١٠٤٩) كتاب الزكاة.

الدنيا الفانى... وذلك لأن الطمَّاع قد لا يحترز عند جمع المال فيجمع الحلال مع الحرام.. فيخبر النبى ﷺأن دواء ذلك فى التوبة والزهد فى الدنيا والرغبة فيما عند الله (جلَّ وعلا).



(١٢٤) طبت وتبوأت من الجنة منزلاً



عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا زَارَ الْمُسْلِمُ أَخَاهُ فِى اللهِ عز وجل أَوْ عَادَهُ، قَالَ اللهُ عز وجل: طِبْتَ، وَتبوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا»(١).

وَعَنْ أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ: «أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فى قَرِيَة أُخْرَى، فَأَرصد الله تعالى على مَدرجَته ملَكًا، فَلَمَّا أَتى عَلَيْهِ قال: أَيْن تُرِيدُ؟ قال: أُرِيدُ أَخًا لى فى هذِهِ الْقَرْيِة. قال: هَلْ لَكَ عَلَيْه مِنْ نِعمَة تَرُبُّهَا عَلَيْهِ؟ قال: لا، غَيْر أَنِّى أَحببْتُهُ فى الله تعالى، قال: فَإِنِّى رسول الله إِلَيْكَ بِأَنَّ الله قَد أَحبَّكَ كَما أَحببْتَهُ فِيهِ»(٢).

لقد كان هذا الرجل طيب القلب يحب الناس من حوله ويتمنى لهم الخير... فإذا سمع أن أحد إخوانه قد مرض فإنه يزوره... وإذا علم أنه يحتاج إلى المال أعانه وساعده.

وفى يوم من الأيام تَذكَّر أحد إخوانه فى إحدى البلاد البعيدة.

فقد انقطعت عنه أخباره منذ فترة طويلة.

فقرر أن يسافر إليه ليطمئن عليه على الرغم من طول المسافة ومشقة السفر.

خرج هذا الرجل فى هذه الرحلة الطويلة الشاقة لزيارة أحد إخوانه الذين يحبهم فى الله.. وعندما اقترب من القرية قابله مَلَكٌ فى صورة رجل فقال له المَلَك: إلى أين أنت ذاهب أيها الرجل؟

فقال له: ذاهب لزيارة أحد إخوانى الذين أحبهم فى الله.

---

(١) رواه أحمد بإسنادٍ حسن.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٧) كتاب البر والصلة والآداب.

يُقال: «أَرْصدَه» لِكَذا: إِذَا وكَّلَهُ بِحِفْظِهِ- و «المَدرَجَةُ» بفتحِ الميمِ والراء: الطَّرِيقُ.

ومعنى «تَرُبُّهَا»: تَقُومُ بِهَا، وتَسْعَى فى صَلاحِهَا.

قال له المَلَك: هل لك مصلحة تريد أن يقضيها لك..

قال له: لا.. ليس لى مصلحة..

قال له الملك: هل لك دَين تريد أن تأخذه منه..

قال له: لا.. ليس لى دَين عنده..

قال له الملك: إذًا لماذا تريد أن تذهب إليه؟

قال له: إنه صديقى.. وأنا أحبه حبًّا شديدًا.. فقد جئت من قريتى لأطمئن عليه..

قال له الملك: إذًا أبشر أيها الرجل الطيب.. فإن الله يحبك كما تحب أنت صاحبك..

فأنا رسول الله من الملائكة وقد أمرنى ربى أن أخبرك بهذا.

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَحَبَّةُ اللهِ عَبْدَهُ هِىَ رَحمَتُهُ لَهُ وَرِضَاهُ عَنْهُ وَإِرَادَتُهُ لَهُ الْخَيْرَ وَأَنْ يَفْعَلَ بِهِ فِعلَ الْمُحِبِّ مِنَ الْخَيْرِ... وَأَصلُ الْمَحَبَّةِ فِى حَقِّ الْعِبَادِ مَيْلُ الْقَلْبِ وَاللهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ... وفِى هَذَا الْحَدِيثِ فَضْلُ الْمَحَبَّةِ فِى اللهِ تَعَالَى، وَأَنَّهَا سَبَبٌ لِحُبِّ اللهِ تَعَالَى الْعَبْدَ، وَفِيهِ فَضِيلَةُ زِيَارَةِ الصَّالِحِينَ وَالْأَصحَابِ، وَفِيهِ أَنَّ الْآدَمِيِّينَ قَد يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ[1].

أقول: بل نثبت لله عَزَّ وَجَلَّ صفة الحب وأنه يحب عبده محبة حقيقية بلا تشبيه ولا تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل .. فهى ليست كمحبة المخلوقين ؛ لأنه عَزَّ وَجَلَّ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

---

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١٨٧).



(١٢٥) الحسنة بعشر أمثالها أو أزيد

۞ عَنْ أبى ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال النبىُّ ﷺ: «**يقولُ الله عَزَّوَجَلَّ: مَنْ جاءَ بِالحَسَنَة، فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالها أَوْ أَزَيْدُ، ومَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَة، فَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ. وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّى شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، ومنْ تَقَرَّبَ مِنِّى ذرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ باعًا، وَمَنْ أَتانى يمشى، أَتَيْتُهُ هَرْولَةً، وَمَنْ لَقِيَنِى بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لا يُشْرِكُ بِى شَيْئًا لَقِيتُهُ بمثْلِها مغْفِرَةً**»[١].

۞ معنى الحديث أن العبد إذا عمل حسنة فإن الله عَزَّوَجَلَّ يُضاعفها إلى عشر أمثالها بل يزيد على ذلك بفضله وكرمه وجُوده... وأما إن عمل سيئة فإن الله عَزَّوَجَلَّ يأمر ملك السيئات أن يرفع القلم عنه لمدة ست ساعات فإن تاب لم تُكتب عليه سيئة وإن لم يَتُب كُتبت سيئة واحدة.. ثم هو فى مشيئة الله.. إن شاء غفر له وإن شاء عاقبه عليها.. ورحمته سبقت غضبه ورحمته غلبت غضبه..

۞ ثم قال الله تعالى: «**وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّى شِبرًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، ومنْ تَقَرَّبَ مِنِّى ذرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ باعًا، وَمَنْ أَتانى يمشى، أَتَيْتُهُ هَرْولَةً، وَمَنْ لَقِيَنِى بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لاَ يُشْرِكُ بِى شَيْئًا لَقِيتُهُ بمثْلِها مغْفِرَةً**».

فلقد ذكر أن الله سبحانه وتعالى أكرم من عبده، فإذا تقرب الإنسان إلى الله شبرًا، تقرب الله منه ذراعًا، وإن تقرب منه ذراعًا، تقرب منه باعًا، وإن أتاه يمشى أتاه يهرول عَزَّوَجَلَّ... فهو أكثر كرمًا وأسرع إجابة من عبده.

وهذه الأحاديث وأمثالها مما يؤمن به أهل السُّنة والجماعة على أنه حق حقيقة لله عَزَّوَجَلَّ، لكننا لا ندرى كيف تكون هذه الهرولة، وكيف يكون هذا التقرُّب... فهو أمر ترجع كيفيته إلى الله، وليس لنا أن نتكلم فيه، لكن نؤمن

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٨٧) كتاب الذكر والدعاء.

بمعناه ونفوض كيفيته إلى الله عَزَّوَجَلَّ[1].

۞ «وَمَنْ لَقِيَنِى بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لاَ يُشْرِكُ بِى شَيْئًا لَقِيتُهُ بمثْلِها مغْفِرَةً»
قراب الأرض خطيئة: أى ما يُقارب ملأها من الخطايا... وهنا يخبر الحق (جل وعلا) أن مَن لقيه بذنوبٍ تملأ الأرض كلها ولكنه على التوحيد والإيمان فإن الله عَزَّوَجَلَّ يلقاه بمثلها مغفرة لتلك الذنوب..... وليس هذا حضًّا على المعصية ولكنه حَضٌّ على الثبات على الإيمان والتوحيد والبُعد عن الشرك بأنواعه كلها.

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٧٥).

(١٢٦) استغفر لأبيك لتُرفع درجته فى الجنة

۞ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِى الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَّى لِى هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ**».

۞ وفى رواية قال ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَتُرْفَعُ دَرَجَتُهُ فِى الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: أَنَّى لِى هَذَا؟ فَيُقَالُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ**»(١).

۞ قد يكون الإنسان مؤمنًا عابدًا طائعًا لله عَزَّ وَجَلَّ ولكن أعماله لا تجعله إلا فى أدنى درجات الجنة أو أوسطها... فإذا كان له ولدٌ صالح وكان يُكثر الاستغفار لأبيه بعد موته أو لأمه بعد موتها فإنه يكون سببًا لرفعة درجة أبيه أو أمه فى الجنة.

۞ وفى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن الله عَزَّ وَجَلَّ يرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة... فالأصل أنه إنسانٌ صالح وإلا لما كان يدخل الجنة أبدًا... فبعد أن يدخل الجنة يرفع الله درجته فيها فيتعجب هذا الرجل الصالح ويقول: «**يَا رَبِّ، أَنَّى لِى هَذِهِ؟**» أى من أين لى هذا وأنا لم أعمل أى عمل يقتضى أن أُرفع لتلك الدرجة فى الجنة.. فإذا بالحقِّ (جلَّ وعلا) يقول له: «**بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ**».

وفى الرواية الأخرى: «**فَيُقَالُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ**» أى تقول له الملائكة أنك رُفعت فى الجنة باستغفار ولدك لك.. ولا مانع من أن يقول الملائكة له ذلك ثم يقول الله له ذلك لتصل البشارة إلى ذروتها.

۞ ولو لم يكن فى النكاح وإنجاب الولد الصالح فضلٌ إلا هذا لكفى... فاحرص على اختيار الزوجة الصالحة التى تربى لك أولادك على الصلاح حتى إذا رحلت عن الدنيا يقيض الله عَزَّ وَجَلَّ أولادك ليستغفروا لك فتُرفع درجتك فى

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦١٧).

الجنة.

۞ وقيل إن الابن إذا كان أرفع درجة فى الجنة من أبيه سأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرفع له أباه فيُرفع إليه.. وكذلك الأب إذا كان أرفع درجة فى الجنة من ابنه سأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرفع له ابنه فيُرفع إليه.. وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[1].

(١) سورة الطور: الآية: (٢١).



(١٢٧) كثرة النوافل.. وإكمال الفرائض

۞ عن أَبي هُريْرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَوَّل مَا يُحاسَبُ بِهِ العبْدُ يَوْم القِيامةِ منْ عَملِهِ صلاتُهُ، فَإِنْ صَلَحت، فَقَد أَفلحَ وَأَنجح، وَإِنْ فَسدتْ، فَقَد خَابَ وخَسِر، فَإِنِ انْتقَص مِنْ فِريضتِهِ شَيْئًا، قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: انظُروا هَلْ لِعَبْدِي منْ تَطَوُّع، فَيُكَمَّلُ مِنْهَا مَا انْتَقَص مِنَ الفَرِيضَةِ؟ ثُمَّ تكونُ سَائِرُ أَعمالِهِ عَلى هَذَا**»[1].

۞ أى أن أول ما يُحاسَب عليه العبد من أعماله يوم القيامة الصلاة... وهذا بالنسبة لحق الخالق (جل وعلا) فإن صلحت الصلاة فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر.

وهذا لا يتعارض مع قوله ﷺ: «**أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ**»[2] لأن الأول محمولٌ على حق الخالق والثاني محمول على حق الخلق.

وقد جمع النسائي في روايته في حديث ابن مسعود بين الخبرين، ولفظه: «**أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلاَةُ وَأَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ**»[3].

۞ «**فإن انتقص من فريضته شيئًا**» يُنظَر فى أعماله هل له نوافل فإنها تُكمِّل بها الفرائض... ولهذا كان من فضل الله ورحمته ونعمته وإحسانه أن شرع لنا النوافل خلف الصلوات وقبلها وفى كل وقت إلا الأوقات المنهى عنها وذلك لأن الإنسان لا بد أن يكون فى صلاته خلل فيكمل الخلل بهذه النوافل.

كل هذه النوافل يزداد بها أجر المصلى ويكمل بها النقص الذى حصل فى الفريضة... وهذه من نعمة الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) صحيح: رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٢٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٣٣) كتاب الرقاق-ومسلم (١٦٧٨) كتاب القسامة.

(٣) فتح البارى (١١/ ٣٩٦) - والحديث رواه النسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٧٢).

قال القاضي أبو بكر بن العربي في العارضة: «يحتمل أن يكون يكمل له ما نقص من فرض الصلاة، وأعدادها بفضل التطوع ويحتمل ما نقصه من الخشوع والأول عندي أظهر لقوله: ثم الزكاة كذلك وسائر الأعمال وليس في الزكاة إلا فرض أو فضل ... فكما يكمل فرض الزكاة بفضلها كذلك الصلاة.

وفضل الله أوسع ووعده أنفذ وعزمه أعمّ وأتم».

قال الشيخ أحمد شاكر: «وهذا هو الظاهر والصواب».



(١٢٨) وسطية أمة النبى محمد ﷺ



۞ عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[(١)]» وَالوَسَطُ: العَدْلُ[(٢)].

۞ لقد أرسل الله عَزَّوَجَلَّ الرسل لكى يدعو الناس إلى عبادة الله عَزَّوَجَلَّ وتوحيده... قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[(٣)]. وليأخذوا بأيدى الناس من الظلمات إلى النور ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.... فلقد كانت دعوتهم جميعًا دعوة واحدة وهى الدعوة إلى الإسلام وإن كانت قد اختلفت شرائعهم.

۞ ولقد أخبرنا رسولُ الله ﷺ عن أمرين، يكونان بين نوحٍ عليه الصلاة والسلام، وبين أمةِ النبى محمد ﷺ.

الأمر الأول: هو استشفاعهم بنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ... فعندما يكونون فى أرض الموقف، يُعانون أهوالَ الحشر... يأتونَ إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، يستشفعون به، فيُحيلهم إلى نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

---

(١) سورة البقرة: الآية: (١٤٣).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٤٨٧) كتاب التفسير.

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٢٥).

روى البخاريُّ ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، فى حديث الشفاعة الطويل، أنه قال:

«.. فيقول لهم آدمُ عليه السلام اذهَبُوا إلى غَيْرى، اذْهَبُوا إلى نُوحٍ.

فيأْتون نُوحًا، فيقُولُون: يا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُل إلى أَهْلِ الأرضِ، وقَد سمَّاك الله عَبْدًا شَكُورًا، ألا تَرَى إلى مَا نَحنُ فيه؟ ألا تَرى إلى ما بلغَنَا؟

فيقُولُ لَهُمْ: إنَّ ربِّى غَضِبَ اليوْمَ غَضَبًا لمْ يغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، ولَنْ يَغْضَبَ بَعدَهُ مِثْلَهُ، وإنَّهُ قد كانَتْ لى دَعوةٌ، دَعَوْتُ بِها على قَوْمِى، نَفْسِى نَفسِى، اذهَبُوا إلى غَيْرى، اذْهَبُوا إلى إبْراهِيمَ ﷺ..»[1].

ويبقون يذهبون إلى الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام، يستشفعون بهم، حتى يَصِلوا إلى محمدٍ ﷺ، فيشفعُ لهم عند الله؛ لأنه صاحبُ مقام الشفاعة!

الأمر الثانى: شهادةُ أمةِ محمد ﷺ، لنوح (عليه الصلاة والسلام)، أنه بلَّغَ قومه، وذلك بعد أن يكذبَ قومُه، وينكروا تبليغَه لهم.

إن أمةَ محمد ﷺ هى الأمة الوسطُ العادلة، هى أمة العدالة والشهادة، التى تحبُّ الأنبياء السابقين جميعًا، ولذلك تشهدُ لهم بالصدق والعدل، بأنهم بلَّغوا أقوامهم، ولكن أقوامهم يُنكرون ويَكذبون.

ومن هذه الشهاداتِ الصادقة العادلة، هذه الشهادة التى يقدمونها لنبى الله نوح (عليه الصلاة والسلام) يوم القيامة، وقد عَلِموا ذلكَ من كتاب الله، ومن حديثِ رسولِ الله ﷺ، فآمنوا به وصدَّقوه، وشهدوا به[2].

۞ (عَنْ أَبِى سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يُجَاءُ) أَىْ: يُؤْتَى (بِنُوحٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ): وَهَذَا لَا يُنَافِى قَوْلَهُ تَعَالَى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٧١٢) كتاب التفسير - ومسلم (١٩٤) كتاب الإيمان.

(٢) القصص القرآنى / د. صلاح الخالدى (١/ ٢١٢-٢١٤) بتصرف كبير.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[1] لِأَنَّ الْإِجَابَةَ غَيْرُ التَّبْلِيغ، وَهِىَ تَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلٍ لَا يُحِيطُ بِكُنْهِهِ إِلَّا عِلْمُهُ سُبْحَانَهُ، بِخِلَافِ نَفْسِ التَّبْلِيغ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْعُلُوم الضَّرُورِيَّةِ الْبَدِيهِيَّةِ (فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ) أَىْ: أُمَّةُ الدَّعْوَةِ (هَلْ بَلَّغَكُمْ)؟ أَىْ: نُوحٌ رِسَالَتَهُ (فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ) أَىْ: ما جاءنا مُنْذِرٌ لَا هُوَ وَلَا غَيْرُهُ، مُبَالَغَةً فِى الْإِنْكَارِ، تَوَهُّمًا أَنَّهُ يَنْفَعُهُمُ الْكَذِبُ فِى ذَلِكَ الْيَوْمِ عَنِ الْخَلَاصِ مِنَ النَّارِ...وَنَظِيرُهُ قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْكُفَّارِ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[2]، (فَقَالَ) أَىْ: لِنُوحٍ (مَنْ شُهُودُكَ)؟ أو «مَن يشهد لَكَ» وَإِنَّمَا طُلِبَ مِنْ نُوحٍ شُهَدَاءُ عَلَى تَبْلِيغِهِ الرِّسَالَةَ أُمَّتَهُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِ إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ وَتَوضِيحًا لِمَنْزِلَةِ أَكَابِرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، (فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ): وَالْمَعْنَى أَنَّ أُمَّةَ النبى محمد ﷺ شُهَدَاءُ وَهُوَ مُزَكٍّ لَهُمْ، وَقُدِّمَ النبى ﷺ فِى الذِّكْرِ لِلتَّعْظِيم، وَلَا يَبْعُدُ أَنَّهُ ﷺ يَشْهَدُ لِنُوحٍ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَيْضًا؛ لِأَنَّهُ مَحَلُّ النُّصْرَةِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[3] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾[4]، (فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ: فَيُجَاءُ بِكُمْ): وَفِيهِ تَنْبِيهٌ نَبِيهٌ أَنَّهُ ﷺ حَاضِرٌ نَاظِرٌ فِى ذَلِكَ الْعَرْضِ الْأَكْبَرِ، فَيُؤْتَى بِالرُّسُلِ وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ، وَيُؤْتَى بِشُهُودِهِ وَهُمْ هَذِهِ الْأُمَّةُ (فَتَشْهَدُونَ) أَىْ: أَنْتُمْ (أَنَّهُ) أَىْ: أَنَّ نُوحًا (قَدْ بَلَّغَ) أَىْ: قَوْمَهُ رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَنَبِيُّكُمْ مُزَكٍّ لَكُمْ، أَوْ أَنْتُمْ وَنَبِيُّكُمْ مَعَكُمْ تَشْهَدُونَ، فَفِيهِ تَغْلِيبٌ، (ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ): اسْتِشْهَادًا بِالْآيَةِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[5]، أى: عُدُولًا وَخِيَارًا؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَغْلُوا غُلُوَّ النَّصَارَى، وَلَا قَصَّرُوا تَقْصِيرَ الْيَهُودِ فِى حَقِّ

---

(١) سورة المائدة: الآية: (١٠٩).

(٢) سورة الأنعام: الآية: (٢٣).

(٣) سورة آل عمران: الآية: (٨١).

(٤) سورة آل عمران: الآية: (٨١).

(٥) سورة البقرة: الآية: (١٤٣).

أَنْبِيَائِهِمْ بِالتَّكْذِيبِ وَالْقَتْلِ وَالصَّلْبِ...وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - تَفْسِيرُ الْوَسَطِ بِالْعَدْلِ...فَفِي النِّهَايَةِ يُقَالُ: هُوَ مِنْ وَسَطِ قَوْمِهِ أَيْ خِيَارِهِمْ، ﴿لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[1] أَيْ: عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ أَيْ: رَسُولُكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أَيْ: مُطَّلِعًا وَرَقِيبًا عَلَيْكُمْ، وَنَاظِرًا لِأَفْعَالِكُمْ، وَمُزَكِّيًا لِأَقْوَالِكُمْ.

أَقُولُ: الْأَظْهَرُ أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ هُوَ أَنَّ الْأُمَّةَ يَشْهَدُونَ عَلَى الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، وَأَنَّهُ ﷺ يَشْهَدُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ بِأَجْمَعِهِمْ يَشْهَدُونَ عَلَى الْكُلِّ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ...وَيُؤَيِّدُهُ مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ فِي قَوْلِهِ: لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، بِأَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا بِمَا عَمِلْتُمْ[2].

---

(١) سورة البقرة: الآية: (١٤٣).

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح.



(١٢٩) بل عبداً رسولاً



۞ عَـنْ أَبِـى هُرَيْـرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَـالَ: جَلَـسَ جِبْرِيـلُ إِلَـى النَّبِـيِّ ﷺ، فَنَظَـرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا نَـزَلَ مُنْذُ يَـوْم خُلِقَ، قَبْلَ السَّاعَةِ، فَلَمَّا نَـزَلَ قَـالَ: يَـا مُحَمَّـدُ، أَرْسَلَنِى إِلَيْكَ رَبُّكَ، قـال: أَفَمَلِكًـا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ، أَوْ عَبْدًا رَسُولًا؟ قَالَ جِبْرِيلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ. قَـالَ: «**بَلْ عَبْدًا رَسُولًا**»[(١)].

۞ ففى هذا الحديث أنه (جلس جبريل إلى النبى ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا مَلَكٌ ينزل، فقال له جبريل: هذا الملك ما نزل منذ خُلق قبل الساعة).

يعنى: فى يوم من الأيام وجبريل جالس مع النبى ﷺ نـزل ملـك مـن السماء، وأول مرة ينزل هذا الملك من السماء إلى الأرض من ساعة ما خلقه الله سبحانه وتعالى، فقال جبريل للنبى ﷺ: (هذا الملك ما نزل منذ خُلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد! أرسلنى إليك ربك: أَمَلِكًا أجعلك أم عبداً رسولاً؟)، يعنى: نـزل المَلَك يُخير النبى ﷺ يقول: أنت مقامك عـالٍ عند رب العـالمين، وهـو يحب أن يخير نبيه ﷺ.

والحكمة من أن ينزل مَلَكٌ آخر غير جبريـل لكـى يكـون جبريـل للنبـى ﷺ وزيـراً وناصـحـًا ومُـشيراً، فنـزل الملـك الآخـر يخيـر النبـى ﷺ: أتريـد أن تـصبح مَلِكـًا رسـولاً أم تبقـى عبـداً رسـولاً؟ فنظـر جبريـل إلـى النبـى ﷺ وأشـار إليه: تواضع لربك يا محمد! فربنا يخيرك، فإذا تواضعت فإنه ما زاد الله عبـدًا بتواضع إلا عِزًّا... فاختار النبى ﷺ وقال: (بل عبداً رسـولاً)، يعنـى: أكـون عبـداً رسولاً.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٠٠٢).

ولذلك كان يجلس جلسة العبيد، ويقعد على الأرض ولا يقعد على الكرسى أو على عرش، وينام على السرير، وكانت حبال السرير تُؤثِّر فى جنب النبى (صلوات الله وسلامه عليه)، فهنا كان ﷺ غاية فى التواضع ليرى الناس أن الدنيا لا تساوى شيئًا.

قال ابن مسعود: (نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثَّر فى جنبه)، أى: أعواد الحصير أثرت فى جنبه ﷺ، فقالوا للنبى ﷺ: (يا رسول الله! لو اتخذنا لك وِطاءً) أى: فراشًا لينًا، فقال ﷺ: (مالى وللدنيا، ما أنا فى الدنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح وتركها).

هذا هو النبى ﷺ يضرب هذا المثال العظيم الذى يُحدث الناس به حتى يزهدوا فى الدنيا، فيقول: أنا مثلى مع هذه الدنيا كراكب نزل تحت ظل شجرة... وفى رواية أخرى قال: (كراكبٍ سار فى يومٍ صائف فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها) الذى يسير فى الصيف ينزل تحت شجرة فى أثناء الطريق ليرتاح قليلاً ثم يُكمل سيره مرة أخرى[1].

۞ هكذا يُعلمنا النبى ﷺ أن نتحلَّى بخُلق التواضع لنفوز بمحبة الله عز وجل وليرفع الله قدرنا فى الدنيا والآخرة.

وفى الحقيقة إن نعمة التواضع من أجلِّ وأعظم النعم التى يمتن الله بها على عباده...

ولقد كان نصيب النبى ﷺ من هذا الخُلق هو النصيب الأعظم ... فلقد كان الحبيب ﷺ سيد المتواضعين حتى إنه لما أراد أن يخبر الأمة عن قدره ومكانته عند الله عز وجل قال بعدها: «ولا فخرَ» وهذا من فرط تواضعه ﷺ حتى لا يظن أحدٌ أن النبى ﷺ يقول ذلك تفاخرًا.

(١) شرح الترغيب والترهيب للشيخ أحمد حطيبة بتصرف.

قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ... وبيدى لواء الحمد ولا فخر وما من نبى يومئذٍ: آدم فمن سواه إلا تحت لوائى وأنا أول شافعٍ وأول مُشفَّع ولا فخر»(١).

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٤٦٨)، وأصله فى الصحيحين بلفظ: «أَنَا سيِّد النَّاس يوم القِيامَةِ» رواه البخارى (٤٧١٢) كتاب التفسير – ومسلم (١٩٤) كتاب الإيمان.




(١٣٠) اللهُمَّ بك أُحاول وبك أُصاول وبك أُقاتل

❁ عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ أَيَّامَ حُنَيْنٍ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ بَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ بِشَيْءٍ، لَمْ نَكُنْ نَرَاهُ يَفْعَلُهُ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَرَاكَ تَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ فَمَا هَذَا الَّذِي تُحَرِّكُ شَفَتَيْكَ؟ قَالَ: «**إِنَّ نَبِيًّا فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَعجبَتْهُ كَثْرَةُ أُمَّتِهِ، فَقَالَ: لَنْ يَرُومَ هَؤُلَاءِ شَيْءٌ فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: أَنْ خَيِّرْ أُمَّتَكَ بَيْنَ إِحدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ نُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَسْتَبِيحَهُمْ، أَوِ الْجُوعَ، وَإِمَّا أَنْ أُرْسِلَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ، فَشَاوَرَهُمْ، فَقَالُوا: أَمَّا الْعَدُوُّ، فَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ، وَأَمَّا الْجُوعُ فَلَا صَبْرَ لَنَا عَلَيْهِ، وَلَكِنِ الْمَوْتُ... فَأَرْسَلَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ، فَمَاتَ مِنْهُمْ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ سَبْعُونَ أَلْفًا**» قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَأَنَا أَقُولُ الْآنَ -حَيْثُ رَأَى كَثْرَتَهُمْ-: اللَّهُمَّ بِكَ أُحَاوِلُ، وَبِكَ أُصَاوِلُ، وَبِكَ أُقَاتِلُ**»[1].

❁ وَعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كانَ رسُولُ الله ﷺ إذا غزَا قال: «**اللَّهُمَّ أنت عَضُدِى ونَصيرى، بِكَ أحُولُ، وبِكَ أَصُولُ، وبِكَ أُقاتِلُ**»[2].

❁ وهنا يخبر أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ كان إذا غزا يدعو بهذا الدعاء العظيم ويقول: «**اللَّهُمَّ أنت عَضُدِى**» أى: أنت الذى تُقوى عضدى حتى أمسك السيف لأجاهد وأقاتل أعداءك.. فأنت الذي أعطيتنى القوة والتفكير والقدرة على مواجهة أعدائك.. «**ونَصيرى**» أى: مُعينى ومُغيثى وناصرى «**بِكَ أَحُولُ**» أى: بك وحدك أنتقل من مكانٍ إلى مكان.. ومن حالٍ إلى حال بحولك وقوتك وعونك ونُصرتك.

«**وبكَ أصولُ**» على أعداء الدين..يُقال صال القرن على قرنه إذا وثب عليه.. أى: بحولك وقوتك وقدرتك أثب على أعدائك وأكرّ عليهم وأنتصر عليهم.

---

(١) رواه أحمد بإسنادٍ صحيح.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٧٥٧).

«وبِكَ أُقَاتِل» أي: بحولك وقوتك أقاتل أعداءك حتى لا يبقى إلا مسلمٌ أو مُسالم... فهذا هو طريق النصر.. وهو الخروج والانخلاع من الحول والقوة إلى حول الله وقوته بالاعتماد والتوكل على الله.. وهذا هو معنى: لا حول ولا قوة إلا بالله... وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.




(١٣١) النهى عن الشحناء والخصام

۞ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فِى كُلِّ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ وَتُعْرَضُ الأَعْمَالُ فِى كُلِّ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ فَيَغْفِرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، إِلَّا الْمُتَشَاحِنَيْنِ، يَقُولُ اللهُ لِلْمَلَائِكَةِ: ذَرُوهُمَا حَتَّى يَصطَلِحَا**»[1].

۞ وفى رواية:

عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسُولَ الله ﷺ قال: «**تُفْتَحُ أَبْوابُ الجنَّة يومَ الإثنينِ ويومَ الخَمِيس، فيُغْفَرُ لِكُلِّ عبْدٍ لا يُشْرِكُ بالله شيئًا، إلا رجُلًا كانت بيْنَهُ وبينَ أخيهِ شَحنَاءُ فيُقال: أَنْظِرُوا هذيْنِ حتَّى يصطَلِحَا .. أَنظِروا هَذِينِ حَتَّى يَصطَلِحَا**»[2].

۞ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن أبواب الجنة تُفتح يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع وتُعرض فيهما الأعمال.. فإذا فُتحت أبواب الجنة وأنعم الله على عباده بهذه النعمة العظيمة قرن ذلك بنعمة أعظم منها ألا وهى: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يغفر لكل عبدٍ لا يُشرك بالله شيئًا.. فلا يحرم اللهُ عبدًا موحدًا من نعمة المغفرة أبدًا... لكن هناك صنف يحرمه الله من نعمة المغفرة مُؤقتًا فيا تُرى مَن هو؟.. إنه العبد الذى بينه وبين أخيه خصام وتشاحُن فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يحرمه من المغفرة مؤقتًا حتى يتصالح مع أخيه.. فإذا تصالح مع أخيه غفر الله له ولأخيه... ولذا جاء فى الحديث أن الله يأمر ملائكته ويقول لهم: «**أَنْظِرُوا هذيْنِ حتَّى يصطَلِحَا**» أى: أَجِّلُوا هذين حتى يصطلحا... فدلَّ ذلك على أنه يجب على المسلم أن يبادر بإزالة الشحناء والعداوة بينه وبين أخيه المسلم...

فإن كان الأمر ثقيلًا على النفس فلا مانع أن يُوسِّط بينهما رجلًا ليُمهد لذلك

---

(١) حسن: رواه أحمد (٢/ ٢٦٨) بإسنادٍ حسن - وأصله فى صحيح مسلم.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٥) كتاب البر والصلة والآداب.

الصُّلح دون أن يسبب حرجًا لأى طرفٍ من الطرفين ويكون له الأجر والمثوبة... فإذا حصل التصالح فاز الاثنان بمغفرة الرحمن (جل وعلا) لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: «**أَنْظِرُوا هذيْنِ حتَّى يصطَلِحَا**» وقد اصطلحا....وأما الذى أصلح بينهما فقد فاز بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة.. كما أخبر بذلك النبى ﷺ حيث قال: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ إصلاح ذات البين؛ فإن فساد ذات البين هى الحالقة**»[1].

وليس معنى ذلك أن الإنسان يُصلح بين الناس ويترك الصيام والصلاة والصدقة.. فالنبى ﷺ لا يتكلم عن أفضلية العمل وإنما يتكلم عن أفضلية الدرجة... لأن الإصلاح بين المسلمين يقوى شوكة المسلمين ويتعدى نفعُه إلى الغير.. وقد يكون المقصود أن درجة الإصلاح بين الناس أفضل من نوافل تلك العبادات.. والله أعلم.

---

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٩٥).

(١٣٢) شَرُّ البلدان أسواقها

۞ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِىَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَىُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟ قَالَ: فَقَالَ: «لَا أَدْرِى» فَلَمَّا أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «يَا جِبْرِيلُ، أَىُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟» قَالَ: لَا أَدْرِى حَتَّى أَسْأَلَ رَبِّى عَزَّ وَجَلَّ. فَانْطَلَقَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ سَأَلْتَنِى أَىُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ، فَقُلْتُ: لَا أَدرِى، وَإِنِّى سَأَلْتُ رَبِّى عَزَّ وَجَلَّ: أَىُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟ فَقَالَ: أَسْوَاقُهَا[1].

۞ من المعلوم أنه لا يُشبَّه المسجد بالسوق أبدًا... فالمسجد بيت الله عَزَّ وَجَلَّ يجب عليك أن تحترمه وتُعظمه...والسوق مكان الشيطان وفيه يرفع رايته.

ففى السوق الكذب، والغدر، والخداع، والغش، والخيانة، وأكل أموال الناس بالباطل، وفيه هيشات وصخب وضجيج...أما المسجد فلا يكون كذلك أبداً، ولذلك نهانا النبى ﷺ عن البيع والشراء فى المسجد وقال لنا: (إذا رأيتم مَن يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك، فإن المساجد لم تُبنَ لهذا).

فالمسجد لا يُشبَّه بالسوق أبداً، فلا تُرفع فيه الأصوات، ولا تكون فيه عقود البيع والشراء والإجارة ونحوها، ولا يكون فيه أمور تؤذى المصلين، كما أن الأسواق فيها الرائحة الكريهة...والمساجد يجب أن يكون فيها الروائح الطيبة، فلا تؤذِ أحداً فى المسجد لا بصوتٍ ولا بكلام ولا بضجيج، ولا ترفع صوتك إلا محتاجاً إلى ذلك، سواء كنت عالماً أو متعلماً سائلاً أو مسئولاً...وقد ترفع صوتك بالقراءة كصلاة الجماعة مثلاً، أو فى مجلس علم بشرط ألا تؤذى أحداً من المسلمين.

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١٦٧٩٠)، والحاكم، وصححه الألبانى فى صَحِيح الْجَامِع (١٦٧)، والمشكاة (٦٩٦) – وأصله فى صحيح مسلم.

وبعض الإخوة يدخل المسجد وقد ضبط ساعته على وقتٍ مُعين فيرتفع صوت الساعة فى المسجد وهذا تشبيه لها بالأسواق لأنه لم يحترمها، وكذلك الهاتف المحمول قد يدخل به المسجد وينسى أو يتعمد بأن يتركه ولا يغلقه أو يجعله صامتًا حتى يدخل فى الصلاة، ثم يتصل به أحد أقاربه أو أصدقائه فإذا بالهاتف يشغل المصلين... والهواتف أصبحت كلها موسيقى وأشياء تجعل الملائكة تنفر من المكان التى هى فيه؛ فلا تأتِ المسجد بالهاتف حتى لا تطرد الملائكة من المسجد، وحين تأتى إلى المسجد ضع هاتفك فى بيتك ولا تأتِ به إلى المسجد وإذا جئت به فأغلقه.

وقد يقول قائل: إذا كانت نغمة الهاتف موسيقى لكن على لحن الأذان؟

الجواب: الأذان لا يَصلُح فيه هذا أصلاً، والذى يؤذن ويتغنى فى الأذان واقع فى الحرام... فقد جاء عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه دخل مسجداً فسمع المؤذن يتغنى فى الأذان، فلما سمع المؤذن يتغنى لم يُصلِّ فى المسجد الذى فيه ذلك، فلحقه المؤذن وقال: ما هذا يا أبا عبد الرحمن والله إنى لأحبك فى الله.

قال أبو عبد الرحمن: والله إنى لأبغضك فى الله.

فقال: ولِمَ يا أبا عبد الرحمن؟ -وعبد الله بن عمر صحابى فاضل وهذا المؤذن تابعى- فقال له: لأنك تتغنى بالأذان وتأخذ عليه أجراً.

والتغنى يكون فى قراءة القرآن وليس فى الأذان...فكأنه يقول له: تريد أن تُشبه الأذان بالقرآن؟ والتغنى لا يكون إلا فى قراءة القرآن فقط...فقد جاء عن النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ليس منَّا مَن لم يتغنَّ بالقرآن).

فلا تَقنُت فى الصلاة أو تدعو فى الصلاة وتغنى فى الدعاء وتقول: إن الناس يعجبهم هذا، وإلا فكل إنسان سيفعل مثل ذلك حتى يُشبَّه الكلام العادى بكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ.

فالتغنى فقط بالقرآن لا بالأذان ولا بالدعاء ولا بغيره.

جاء عن أحد السلف أنه دخل المسجد ثم خرج وقال: أخرجتنى البدعة وذلك لأنه سمع المؤذن يتغنى بالأذان.

فإذا كان التغنى بالأذان ممنوع منه فما بالك بالموسيقى التى على صوت الأذان، وليست بأذانٍ أصلاً، فلا يجوز لك أن تدخل بها بيت الله سبحانه وتعالى...وقد تكون معذوراً بأن تكون محتاجاً لهذا الجهاز وفيه نغمات الموسيقى، لكن ليس معنى ذلك أن تدخل به المسجد والله أعلم[1].

(١) شرح الترغيب والترهيب لحطيبة.

(١٣٣) النهى عن قتل النمل

۞ عَنْ أَبى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ، فَأُحرِقَتْ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ الله**»[١].

۞ وفى رواية:

«**نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ تَحتَ شَجَرَةٍ، فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحتِهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِبَيْتِهَا فَأُحرِقَ بِالنَّارِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: فَهَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً**»[٢].

۞ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ: قَرَصَتْ): أَىْ لَسَعَتْ وَلَدَغَتْ. قَالَ الطِّيبِىُّ: الْقَرْصُ الْأَخْذُ بِأَطْرَافِ الْأَصَابِعِ، وَهُنَا يُرَادُ بِهِ الْعَضُّ، فَالْمَعْنَى عَضَّتْ (نَمْلَةٌ) وَاحِدَةٌ (نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ): قِيلَ: مُوسَى، وَقِيلَ: دَاوُدُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ (فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ): أَىْ مَسْكَنِهَا وَمَنْزِلِهَا... سُمِّىَ قَرْيَةً لِاجْتِمَاعِهَا فِيهِ، وَمِنْهُ الْقَرْيَةُ الْمُتَعَارَفَةُ لِاجْتِمَاعِ النَّاسِ فِيهَا... وَالْمَعْنَى فَأَمَرَ بِإِحرَاقِ قَرْيَةِ النَّمْلِ (فَأُحرِقَتْ)؟ قِيلَ الْمَعْنَى أَمَرَ بِإِحْرَاقِ شَجَرَةٍ فِيهَا تِلْكَ النَّمْلَةُ... وَقَدْ رَوَى الطَّبَرَانِىُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَهَى عَنْ قَتْلِ كُلِّ ذِى رُوحٍ إِلَّا أَنْ يُؤْذِىَ»، وَلَا يَخْفَى أَنَّ هَذَا نَظِيرٌ لِفِعْلِهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُطِيعِ، وَالْعَاصِى، وَلَا يَكُونُ تَعْذِيبُهُ تَشَفِّيًا بِخِلَافِ الْمَخْلُوقِ، بَلْ فِعْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ بَابِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ الَّذِى يَعْجَزُ عَنْ كُنْهِهِ عِلْمُ الْبَشَرِ... فَسُبْحَانَهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقَعَ مِنْهُ إِلَّا الْعَدْلُ أَوِ الْفَضْلُ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[٣] (فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَنْ قَرَصَتْكَ

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٠١٩) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (١٤٨) كتاب السلام.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣١٩) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (١٤٩) كتاب السلام.

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٢٣).

نَمْلَةٌ): أَيْ وَاحِدَةٌ (أَحْرَقْتَ أُمَّةً): أَيْ أَمَرْتَ بِإِحْرَاقِ طَائِفَةٍ عَظِيمَةٍ (مِنَ الْأُمَمِ): حَالَ كَوْنِهَا (تُسَبِّحُ).

قَالَ الطِّيبِيُّ: أَيْ أُمَّةً مُسَبِّحَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا وُضِعَ الفعل الْمُضَارِعُ (تُسبِّح) مَوْضِعَ مُسَبِّحَةٍ لِيَدُلَّ عَلَى الِاسْتِمْرَارِ وَمَزِيدًا لِلْإِنْكَارِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾، وَيُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ: أَحْرَقْتَ أُمَّةً جَوَازُ إِحْرَاقِ تِلْكَ الْقَارِصَةِ.

۞ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

هَذَا الْحَدِيثُ مَحمُولٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ جَائِزًا فِى شَرْعِ ذَلِكَ النَّبِيِّ جَوَازُ قَتْلِ النَّمْلِ وَجَوَازُ التَّعْذِيبِ بِالنَّارِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَقَعْ عَلَيْهِ الْعَتْبُ فِى أَصْلِ الْقَتْلِ وَلَا فِى الْإِحْرَاقِ بَلْ فِى الزِّيَادَةِ عَلَى النَّمْلَةِ الْوَاحِدَةِ، وَأَمَّا فِى شَرْعِنَا فَلَا يَجُوزُ إِحْرَاقُ الْحَيَوَانِ بِالنَّارِ إِلَّا فِى الْقِصَاصِ بِشَرْطِهِ، وَكَذَا لَا يَجُوزُ عندنَا قتل النَّمْلِ... لحَدِيث بن عَبَّاسٍ فِى السُّنَنِ: «أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ نَهَى عَنْ قَتْلِ النَّمْلَةِ وَالنَّحْلَةِ». وَقَدْ قَيَّدَ غَيْرُهُ كَالْخَطَّابِيِّ النَّهْىَ عَنْ قَتْلِهِ مِنَ النَّمْلِ بِالسُّلَيْمَانِيِّ.

وَقَالَ الْبَغَوِيُّ: النَّمْلُ الصَّغِيرُ الَّذِى يُقَالُ لَهُ الذَّرُّ يَجُوزُ قَتْلُهُ.

وَفِى قَوْلِهِ: أَنَّ الْقَتْلَ وَالْإِحْرَاقَ كَانَ جَائِزًا فِى شَرْعِ ذَلِكَ النَّبِىِّ نَظَرٌ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يُعَاتَبْ أَصْلًا وَرَأْسًا إِذَا ثَبَتَ أَنَّ الْأَذَى طَبْعُهُ.

وَقَالَ عِيَاضٌ: فِى هَذَا الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ قَتْلِ كُلِّ مُؤْذٍ. وَيُقَالُ: إِنَّ لِهَذِهِ الْقِصَّةِ سَبَبًا، وَهُوَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكَهَا اللهُ تَعَالَى بِذُنُوبِ أَهْلِهَا فَوَقَفَ مُتَعَجِّبًا فَقَالَ يَا رَبِّ قَدْ كَانَ فِيهِمْ صِبْيَانٌ وَدَوَابٌّ وَمَنْ لَمْ يَقْتَرِفْ ذَنْبًا، ثُمَّ نَزَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَجَرَتْ لَهُ هَذِهِ الْقِصَّةُ، فَنَبَّهَهُ اللهُ (جَلَّ وَعَلَا) عَلَى أَنَّ الْجِنْسَ الْمُؤْذِىَ يُقْتَلُ وَإِنْ لَمْ يُؤْذِ وَتُقْتَلُ أَوْلَادُهُ وَإِنْ لَمْ تَبْلُغِ الْأَذَى.

وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ وَإِنْ ثَبَتَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ تَعَيَّنَ الْمَصِيرُ إِلَيْهِ.

وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ لَمْ يُعَاتَبْ إِنْكَارًا لِمَا فَعَلَ بَلْ جَوَابًا لَهُ وَإِيضَاحًا لِحِكْمَةِ شُمُولِ

الْهَلَاكِ لِجَمِيعِ أَهْلِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ فَضَرَبَ لَهُ الْمَثَلَ بِذَلِكَ ... أَىْ إِذَا اخْتَلَطَ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِهْلَاكَ بِغَيْرِهِ وَتَعَيَّنَ إِهْلَاكُ الْجَمِيعِ طَرِيقًا إِلَى إِهْلَاكِ الْمُسْتَحِقِّ جَازَ إِهْلَاكُ الْجَمِيعِ ... وَلِهَذَا نَظَائِرُ كَتَتَرُّسِ الْكُفَّارِ بِالْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ... وَاللهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ الْكِرْمَانِيُّ النَّمْلُ غَيْرُ مُكَلَّفٍ فَكَيْفَ أُشِيرَ فِى الْحَدِيثِ إِلَى أَنَّهُ لَوْ أَحْرَقَ نَمْلَةً وَاحِدَةً جَازَ مَعَ أَنَّ الْقِصَاصَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْمِثلِ لقَوْله تَعَالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ ثُمَّ أَجَابَ بِتَجْوِيزِ أَنَّ التَّحْرِيقَ كَانَ جَائِزًا عِنْدَهُ ثُمَّ قَالَ يَرُدُّ عَلَى قَوْلِنَا كَانَ جَائِزًا: لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَا ذُمَّ عَلَيْهِ ... وَأَجَابَ بِأَنَّهُ قَدْ يُذَمُّ الرَّفِيعُ الْقَدْرِ عَلَى خِلَافِ الْأَوْلَى.

وَالتَّعْبِيرُ بِالذَّمِّ فِى هَذَا لَا يَلِيقُ بِمَقَامِ النَّبِىِّ فَيَنْبَغِى أَنْ يُعَبَّرَ بِالْعِتَابِ.

وَقَالَ الْقُرْطُبِىُّ: ظَاهِرُ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ هَذَا النَّبِىَّ إِنَّمَا عَاتَبَهُ اللهُ حَيْثُ انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ بِإِهْلَاكِ جَمْعٍ آذَاهُ مِنْهُ وَاحِدٌ وَكَانَ الْأَوْلَى بِهِ الصَّبْرُ وَالصَّفْحُ وَكَأَنَّهُ وَقَعَ لَهُ أَنَّ هَذَا النَّوْعَ مُؤْذٍ لِبَنِى آدَمَ وَحُرْمَةُ بَنِى آدَمَ أَعْظَمُ مِنْ حُرْمَةِ الْحَيَوَانِ فَلَوِ انْفَرَدَ هَذَا النّظر وَلم يَنْضَم إِلَيْهِ التَّشَفِّى لَمْ يُعَاتَبْ ... قَالَ: وَالَّذِى يُؤَيِّدُ هَذَا التَّمَسُّكَ بِأَصلِ عِصمَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَنَّهُمْ أَعْلَمُ بِاللهِ وَبِأَحْكَامِهِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً.

وَالنَّمْلُ أَعْظَمُ الْحَيَوَانَاتِ حِيلَةً فِى طَلَبِ الرِّزْقِ.

وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِهِ أَنَّهُ إِذَا وَجَدَ شَيْئًا وَلَوْ قَلَّ أَنْذَرَ الْبَاقِينَ وَيَحْتَكِرُ فِى زَمَنِ الصَّيْفِ لِلشِّتَاءِ وَإِذَا خَافَ الْعَفَنَ عَلَى الْحَبِّ أَخْرَجَهُ إِلَى ظَاهِرِ الْأَرْضِ وَإِذَا حَفَرَ مَكَانَهُ اتَّخَذَهَا تَعَارِيجَ لِئَلَّا يَجْرِىَ إِلَيْهَا مَاءُ الْمَطَرِ وَلَيْسَ فِى الْحَيَوَانِ مَا يَحْمِلُ أَثْقَلَ مِنْهُ غَيره .. وَالذَّر فِى النَّمْلِ كَالزُّنْبُورِ فِى النَّحْلِ.

قَوْلُهُ: «أُمَّةٌ من الأُمَم تُسبِّح الله» اسْتُدِلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْحَيَوَانَ يُسَبِّحُ اللهَ تَعَالَى حَقِيقَةً وَيَتَأَيَّدُ بِهِ قَوْلُ مَنْ حَمَلَ قَوْلَهُ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ عَلَى

الْحَقِيقَةِ. وَتُعُقِّبَ بِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُ الْحَمْلَ عَلَى الْمَجَازِ بِأَنْ يَكُونَ سَبَبًا لِلتَّسْبِيحِ[1].

---

(١) فتح الباري (٦/ ٤١٢-٤١٣) بتصرف.



(١٣٤) سيجعل لهم الرحمن وُدًّا

۞ عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَلْتَمِسُ مَرْضَاةَ اللهِ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ، فَيَقُولُ اللهُ عز وجل لِجِبْرِيلَ: إِنَّ فُلَانًا عَبْدِي يَلْتَمِسُ أَنْ يُرْضِيَنِي أَلَا وَإِنَّ رَحمَتِي عَلَيْهِ، فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: رَحمَةُ اللهِ عَلَى فُلَانٍ، وَيَقُولُهَا حَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَيَقُولُهَا مَنْ حَوْلَهُمْ حَتَّى يَقُولَهَا أَهْلُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، ثُمَّ تَهْبِطُ لَهُ إِلَى الْأَرْضِ»(١).

۞ وعَنْ ثَوْبَانَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَلْتَمِسُ مَرْضَاةَ اللهِ عز وجل، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ. فَيَقُولُ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ، إِنَّ عَبْدِي فُلَانًا يَلْتَمِسُ أَنْ يُرْضِيَنِي، فَرِضَائِي عَلَيْهِ». قَالَ: «فَيَقُولُ جِبْرِيلُ ﷺ: رَحمَةُ اللهِ عَلَى فُلَانٍ، وَتَقُولُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَيَقُولُ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَقُولَهُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، ثُمَّ يَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ» فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَهِيَ الْآيَةُ الَّتِي أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾(٢)، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَلْتَمِسُ سَخَطَ اللهِ، فَيَقُولُ اللهُ عز وجل: يَا جِبْرِيلُ، إِنَّ فُلَانًا يُسْخِطُنِي. أَلَا وَإِنَّ غَضَبِي عَلَيْهِ، فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: غَضِبَ اللهُ عَلَى فُلَانٍ، وَتَقُولُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَيَقُولُ مَنْ دُونَهُمْ، حَتَّى يَقُولَهُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، ثُمَّ يَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ»(٣).

۞ قوله: (إن العبد) أى الصالح (ليلتمس) أى يطلب (مرضاة الله) أى رضاه بأصناف الطاعات والبُعد عن المعاصى والسيئات والرضى بأقدار الله عز وجل (فلا يزال كذلك) أى فلا يزال يلتمس مرضاة الله مواظبًا على طاعته حتى يقول الله عز وجل لجبريل (إن فلانًا) كناية عن اسمه ووصفه (عبدى) أى المؤمن إضافة تشريف (يلتمس أن يُرضينى) أى لأن أرحمه (ألا) للتنبيه (وإن رحمتى)

(١) رواه أحمد، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن.

(٢) سورة مريم: الآية: (٩٦).

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط (٢/ ٥٧).

أى الكاملة (عليه) أى واقعة عليه ونازلة إليه (فيقول جبريل: رحمة الله على فلان) خبر أو دعاء وهو الأظهر. (ويقولها حملة العرش) هذه الجملة: رحمة الله على فلان (ويقولها مَن حولهم) أى جميعًا (ثم يهبط) أى تنزل الرحمة (له) أى لأجله (إلى الأرض) أى إلى أهل الأرض...قال القارى: يعنى محبة الله إياه ثم يُوضع له القبول فيها...قال الطيبى. هذا الحديث وحديث المحبة متقاربان - انتهى.

۞ ويريد بحديث المحبة ما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة: **«إن الله تعالى إذا أحب عبدًا دعا جبريل، فقال: إنى أحب فلانًا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى السماء فيقول إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض»**[1][2].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٠٩) كتاب بدء الخلق، (٧٤٨٥) كتاب التوحيد- ومسلم (٢٦٣٧) كتاب البر والصلة.

(٢) مرعاة المفاتيح (٨/ ١٠٨) بتصرف.



(١٣٥) عَجِبَ ربُّنا عَزَّوَجَلَّ من رجلين

۞ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «عَجِبَ رَبُّنَا عَزَّوَجَلَّ مِنْ رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ ثَارَ[١] عَنْ وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ[٢]، مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَحِبِّهِ إِلَى صَلَاتِهِ، فَيَقُولُ رَبُّنَا: أَيَا مَلَائِكَتِي، انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي، ثَارَ عَنْ فِرَاشِهِ وَوِطَائِهِ، مِنْ بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي... وَرَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَانْهَزَمَ أَصْحَابه، فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ فِي الانْهِزَامِ، وَمَا لَهُ فِي الرُّجُوعِ، فَرَجَعَ حَتَّى أُهْرِيقَ دَمُهُ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لِمَلَائِكَتِهِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي، رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَرَهْبَةً مِمَّا عِنْدِي، حَتَّى أُهَرِيقَ دَمُهُ».

وفي رواية قَالَ ﷺ: «عَجِبَ رَبُّنَا عَزَّوَجَلَّ مِنْ رَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ، فَرَجَعَ حَتَّى أُهَرِيقَ دَمُهُ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِمَلَائِكَتِهِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي حَتَّى أُهَرِيقَ دَمُهُ»[٣].

۞ من المعلوم أن المجاهد يشرى نفسه لله أى: يبيعها لله... قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[٤]، يعنى يبيعها.

وقال: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[٥] أى أنهم باعوها لله، وذلك بتقديمها فى سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ قوله: (عَجِب ربنا من رجلٍ غزا فى سبيل الله فانهزم أصحابه).

صفة العجب ثابتة لله عَزَّوَجَلَّ ولكنه ليس عجبًا كعجب المخلوقين.. فالله

---

(١) ثار: أى نهض ووثب.

(٢) الوطاء: أى المهاد الوطىء وهو خلاف الغطاء.

(٣) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٩٨١).

(٤) سورة البقرة: الآية: (٢٠٧).

(٥) سورة التوبة: الآية: (١١١).

عَزَّوَجَلَّ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وقد أخبر النبى ﷺ هنا أن الله قد عجب من رجلين: أما الأول فقد ترك فراشه وزوجته الجميلة من أجل أن يقف بين يدى الله ويصلى قيام الليل فيباهى الله به الملائكة ويقول: «**انْظُرُوا إِلَى عَبْدِى، ثَارَ عَنْ فِرَاشِهِ وَوِطَائِهِ، مِنْ بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلاتِهِ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِى**» أى من الأجر والثواب «**وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِى**» أى من العذاب والعقاب.

وأما الرجل الثانى الذى عجب الله عَزَّوَجَلَّ منه فهو رجلٌ خرج مجاهدًا وغازيًا فى سبيل الله عَزَّوَجَلَّ راجيًا أن يظفر بالنصر أو الشهادة فى سبيل الله فانهزم أصحابه الذين كانوا يُجاهدون معه بسبب قوة العدو أو كثرة عدده أو خوفٍ دَبَّ فى قلوبهم.

۞ قوله: (فعلم ما عليه).

أى: ما يجب عليه من الثبات حتى لا يقضى العدو عليهم... والمقصود بهذا أنه عند الفرار وعندما تحصل هزيمة يحصل ثباتٌ ولو كان العدد قليلاً، وذلك كما ثبت الرسول ﷺ فى غزوة حُنين حين انهزم أكثر أصحابه ولم يبقَ إلا عددٌ قليل، وبعد ذلك رجعوا.

۞ «فرجع حتى أُهريق دمه» هذا إنما يكون فيما إذا لم يكن الهلاك مُحقَّقًا، فإذا كان الهلاك مُحقَّقًا فليس للإنسان أن يَقدُم...كالذى يقتل نفسه بأى سبب من الأسباب، أو يسعى إلى قتل نفسه بشىء يزعم أن فيه نكاية بغيره، ثم يتسبب فى قتل نفسه، ويحمل العدو على إزهاق نفوس كثيرة بسبب هذا الذى قد حصل منه.

۞ «فيقول الله تعالى لملائكته: انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى».

أى: انظروا إلى عبدى رجع ليقاتل رغبة فيما عندى من الأجر والثواب،

وشفقة مما عندى من العقاب.

۞ «حتى أُهريق دمه» أى: حتى قُتل، ولكن إذا كان الإنسان لا يقوم بذلك الشىء إلا بأن يهلك نفسه فلا يُلقى بنفسه إلى التهلكة، وأما إذا كان فى ثباته تشجيع لغيره وتثبيت لهم حتى يعودون، ثم تحصل منهم النكاية فى العدو والانتصار عليه، فهذا هو الذى ينبغى أن يُعمَل[1].

(١) شرح سنن أبى داود للعباد - بتصرف كبير.



(١٣٦) قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين



۞ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِىَ خِدَاجٌ» ثَلَاثًا غَيْرُ تَمَامٍ. فَقِيلَ لِأَبِى هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ؟ فَقَالَ: «اقْرَأْ بِهَا فِى نَفْسِكَ»؛ فإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِى عَبْدِى، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَىَّ عَبْدِى، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قَالَ اللهُ تَعالَى: مَجَّدَنِى عَبْدِى - وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَىَّ عَبْدِى - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى، وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ»[1].

۞ قال العلماء: المراد بالصلاة هنا الفاتحة ... سُميت بذلك؛ لأنها لا تصح الصلاة إلا بها كقوله عَزَّ وَجَلَّ: «الحج عرفة» ففيه دليل على وجوبها بعينها فى الصلاة.

قال العلماء: والمراد قسمتها من جهة المعنى؛ لأن نصفها الأول تحميد لله تعالى، وتمجيد وثناء عليه، وتفويض إليه، والنصف الثانى سؤال وطلب وتضرُّع وافتقار.

واحتجَّ القائلون بأنَّ البسملة ليست من الفاتحة بهذا الحديث، وهو من أوضح ما احتجوا به ... قالوا: لأنها سبع آيات بالإجماع، فثلاث فى أولها ثناء أولها الحمد لله، وثلاث دعاء أولها اهدنا الصراط المستقيم، والسابعة متوسطة

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٩٥) كتاب الصلاة.

وهى إياك نعبد وإياك نستعين.

۞ ولقد أورد أبو داود رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا حديث أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَن صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهى خداج، فهى خداج غير تمام**» والمقصود بالخداج أنها غير صحيحة، أو أنها ناقصة غير تامة... وأصل الخداج مأخوذ من قولهم: أخدجت الناقة: إذا ألقت ما فى بطنها قطعة من الدم قبل أن تتخلق جنينًا، فذلك يكون شيئًا فاسدًا لا فائدة منه، فكذلك الصلاة التى لا يُقرأ فيها بأم الكتاب لا فائدة من ورائها، أو أنها لا تصح...إذًا فلا بد من قراءة الفاتحة.

فقال له الراوى عنه -وهو أبو السائب مولى بنى زهرة -: «إنى أكون وراء الإمام» فقال: «**اقرأ بها فى نفسك**»، أى: لا تترك القراءة وراء الإمام، بل اقرأ بها فى نفسك سِرًّا، وليس المقصود من ذلك أنه يقرأ بها فى نفسه بدون تحريك الشفتين؛ لأنَّ هذه ليست قراءة، وإنما المقصود بذلك أن يقرأ بها سِرًّا فى نفسه، وليس استذكارًا أو تأمُّلاً فى النفس دون أن يُحرك شفتيه ولسانه، فإن القراءة إنما تكون بذلك، قال: «**اقرأ بها فى نفسك**» أى: ولو كان الإمام يقرأ، لكن لا تجهر بها، ولا تُنازعه فى القراءة، ولا تُشوش عليه ولكن اقرأ بها فى نفسك، سواء أسرَّ الإمام أو جهر... ولكنه إذا كانت الصلاة سرية فللمأموم أن يقرأ شيئًا غير الفاتحة، وأما فى الجهرية فلا يقرأ إلا الفاتحة ثم يستمع.

ثم قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: **قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، ولعبدى ما سأل، قال رسول الله ﷺ: فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: حمدنى عبدى،.. فإذا قال العبد: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: أثنى علىَّ عبدى..فإذا قال العبد: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: مجَّدنى عبدى**» وهذه كلها لله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنها

ثناء عليه سبحانه وتعالى...فهذه ثلاث آيات من أول سورة الفاتحة كلها ثناء وتعظيم وتمجيد لله سبحانه وتعالى، «**فإذا قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يقول الله: هذه بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل**» فقوله: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ هذه لله؛ لأن العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، وقوله: ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ فيه طلب العون من الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا سؤال، لذلك قال: «**ولعبدي ما سأل**» إذًا: فالآية الرابعة هي بين الله وبين عبده.

ثم قال: «**يقول العبد: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ يقول الله: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل**».

فهذا الحديث ذكره أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مستدلًّا به على أن الإنسان يقرأ الفاتحة في نفسه، وذلك أن الصلاة قُسمت بين العبد وبين الله تعالى قسمان.

والمقصود بالصلاة في قوله سبحانه: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين**» المقصود بها القراءة، فقد فسرها بقوله: «**فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**» وليس المقصود بها الصلاة التي هي أقوال وأفعال مبتدأة بالتكبير ومنتهية بالتسليم، فإن ذلك لله وحده، وإنما الذي يكون لله وللعبد هو ما اشتملت عليه الفاتحة...فبعضها دعاء يرجع إلى العبد، وبعضها ثناء على الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيم له، ولهذا فكون الإنسان يقرأ الفاتحة، أو يدعو بهذا الدعاء الذي في الفاتحة بعد أن سبقه الحمد لله والثناء عليه هو من أسباب قبول الدعاء.

ثم خُتمت السورة بطلب الهداية: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وحاجة الناس إليه فوق كل حاجة، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة؛ لأن هدايتهم للصراط المستقيم فيه خروجهم من الظلمات إلى النور، وفيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، فلا شك في أن هذا أهم المهمات، وأعظم المطالب، وأجلُّ شيء

يدعو به الإنسان ربه أن يعطيه إياه.

وقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ هذا الدعاء يشتمل على أمرين: التثبيت على الهداية الحاصلة، وطلب المزيد من الهداية... فالهداية منها ما هو موجود فيطلب الإنسان التثبيت عليه، أو يطلب المزيد، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾، فهو يطلب بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ أن يثبته الله على ما حصل له من الهداية، وأن يوفقه لتحصيل زيادة فى الهداية.

۞ فقول الله عز وجل: **«قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين»** المقصود به القراءة وليس المقصود به الصلاة، وأطلق على الفاتحة أنها صلاة لأنها لازمة ومتعينة على كل مُصلٍّ، حيث تجب قراءتها فى الصلاة، ثم كون الإنسان يقرأ بها يُحصِّل هذه المطالب التى فى آخرها -التى تتعلق بالعبد- وقد قال الله عز وجل: **«هذه لعبدى ولعبدى ما سأل»**.

ثم إن هذا الحديث يدل على أن البسملة ليست آية من الفاتحة؛ لأنه لما قال: «**قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين**»، وذكر هذه السورة التى تُقرأ فى الصلاة وهى الفاتحة قال: «**فإذ قال العبد: الحمد لله رب العالمين**» ولم يَقُل: فإذا قال: بسم الله الرحمن الرحيم.

قال بعض أهل العلم: فدلَّ هذا على أن البسملة ليست من الفاتحة، فهى آية من القرآن تأتى قبل كل سورة، ولكنها ليست من الفاتحة ولا من غير الفاتحة، إلا بسم الله الرحمن الرحيم التى فى وسط سورة النمل، فهى بعض آية من سورة النمل، وإنما الكلام فى الآيات التى تكون فى أوائل السور، فهى آية من القرآن ولكنها ليست من السور، ولم يُروَ عن الصحابة رضي الله عنهم فى المصحف إلا ما هو قرآن، ولو كانت غير قرآن لما وضعوها فى وسط المصحف، ولميزوها عن غيرها، ولَبيَّنوا أنها ليست قرآنًا، فما دام أنهم ذكروها فى المصحف - ولا يكون

فى المصحف إلا القرآن - فهى قرآن، ولكنها ليست من الفاتحة[١].

۞ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: فَقَدْ ثَبَتَ بِهَذَا النَّصِّ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مُنْقَسِمَةٌ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ عَبْدِهِ وَأَنَّ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ مُقْتَسَمُ السُّورَةِ فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مَعَ مَا قَبْلَهُ لِلَّهِ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مَعَ مَا بَعْدَهُ لِلْعَبْدِ وَلَهُ مَا سَأَلَه.

وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنْ السَّلَفِ: نِصْفُهَا ثَنَاءٌ، وَنِصْفُهَا مَسْأَلَةٌ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ دُعَاءٌ.

وَإِذَا كَانَ اللهُ قَدْ فَرَضَ عَلَيْنَا أَنْ نُنَاجِيَهُ وَنَدْعُوَهُ بِهَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، فَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي أَنَّهُ فَرْضٌ عَلَيْنَا أَنْ نَعْبُدَهُ، وَأَنْ نَسْتَعِينَهُ؛ إذْ إيجَابُ الْقَوْلِ الَّذِي هُوَ إقْرَارٌ وَاعْتِرَافٌ وَدُعَاءٌ وَسُؤَالٌ هُوَ إيجَابٌ لِمَعْنَاهُ، لَيْسَ إيجَابًا لِمُجَرَّدِ لَفْظٍ لَا مَعْنَى لَهُ ... فَإِنَّ هَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ؛ بَلْ إيجَابُ ذَلِكَ أَبْلَغُ مِنْ إيجَابِ مُجَرَّدِ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ فَإِنَّ ذَلِكَ قَدْ يَحْصُلُ أَصْلُهُ بِمُجَرَّدِ الْقَلْبِ أَوْ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ ... بَلْ أَوْجَبَ دُعَاءَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُنَاجَاتَهُ وَتَكْلِيمَهُ وَمُخَاطَبَتَهُ بِذَلِكَ لِيَكُونَ الْوَاجِبُ مِنْ ذَلِكَ كَامِلًا صُورَةً وَمَعْنًى بِالْقَلْبِ وَبِسَائِرِ الْجَسَدِ[٢].

---

(١) شرح سنن أبى داود للعباد.

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٨).





(١٣٧) يعجب ربك من راعى غنم يؤذن

۞ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَعْجَبُ رَبُّكُمْ مِنْ رَاعِي غَنَمٍ فِي رَأْسِ شَظِيَّةٍ بِجَبَلٍ، يُؤَذِّنُ بِالصَّلَاةِ، وَيُصَلِّي، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا يُؤَذِّنُ، وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ، يَخَافُ مِنِّي، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي وَأَدْخَلْتُهُ الْجَنَّةَ**»[١].

۞ أورد أبو داود رَحِمَهُ اللهُ هذه الترجمة، وهي: [الأذان في السفر] كما يكونُ في الحضر... والإنسان المسافر يؤذن، سواءٌ أكان في جماعة أم كان وحده... ولذلك إذا أذَّن يَحصُل بأذانه ذِكرُ الله، ويَحصُل بأذانه كونه لا يسمعه شيء إلا شَهِدَ له، وكذلك -أيضًا- يمكن أنه يسمعه أحدٌ من الناس فيعرف دخول الوقت بهذا الأذان، ويمكن أن يأتي إليه ويصلي معه... كل ذلك من فوائد حصول الأذان في السفر.

فالمسافر يؤذن ويقيم، سواءٌ أكان في جماعة أم كان وحده.

وقد أورد أبو داود، حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي يدل على أذان الفرد إذا كان وحده في السفر، فإنه يؤذن ويصلي.

۞ قوله: «**يَعجَب ربكم من راعي غنم في رأس شظيةٍ بجبل**».

الشظية: قطعة من الجبل أو جزء منه أو ناحية من الجبل.

قوله: «**يؤذن بالصلاة ويصلي**».

يعني: يؤذن ويحصل منه الأذان والإقامة، وتحصل منه الصلاة.

قوله: «**فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: انظروا إلى عبدي هذا يؤذن ويقيم الصلاة، يخاف مني، قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة**».

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، والنسائي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤١).

هذا يدلنا على فضل هذه الأعمال فى السفر...فالصلاة لا بد منها، والأذان كذلك، حيث يشرع للإنسان المسافر أن يؤذن ولو كان وحده، وهذا الأجر مُركَّب على مجموع هذه الأمور... وكون الإنسان يؤذن ويقيم الصلاة يدل على أنه يخاف الله عَزَّوَجَلَّ...فالله تعالى يغفر له ذنوبه ويُدخله الجنة جزاءً على ذلك العمل الصالح الذى عمله.

وفى الحديث إثبات صفة العجب لله عَزَّوَجَلَّ، وقد جاء ذلك فى القرآن فى إحدى القراءتين لقوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾[1]، لأنه على قراءة (بل عجبتُ)، تكون من آيات الصفات، وعلى قراءة: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ لا تكون آية صفة... فالعجب صفة ثابتة لله عَزَّوَجَلَّ فى القرآن فى إحدى القراءات المتواترة.

وكذلك -أيضًا- جاء فى سنة رسول الله ﷺ فى أحاديث عديدة، منها هذا الحديث عن رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه[2].

۞ قال الشيخ الألبانى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإن مما يؤسف له حقًّا أن هذه العبادة العظيمة، والشعيرة الإسلامية، قد انصرف أكثر علماء المسلمين عنها فى بلادنا، فلا تكاد ترى أحدا منهم يؤذن فى مسجدٍ ما إلا ما شاء الله، بل ربما خجلوا من القيام بها، بينما تراهم يتهافتون على الإمامة، بل ويتخاصمون! فإلى الله المشتكى من غربة هذا الزمان»[3].

---

(١) سورة الصافات: الآية: (١٢).

(٢) شرح سنن أبى داود للعباد.

(٣) السلسلة الصحيحة (١/ ١٠٤).




(١٣٨) مُضاعفة الأجر لأمة الإسلام مع قلة عملهم

۞ عَنْ ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ:

«إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلاَةِ العَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِيَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ الإِنْجِيلَ، فَعَمِلُوا إِلَى صَلاَةِ العَصْرِ، ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِينَا القُرْآنَ، فَعَمِلْنَا إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَأُعْطِينَا قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، فَقَالَ أَهْلُ الكِتَابَيْنِ: أَيْ رَبَّنَا، أَعْطَيْتَ هَؤُلاَءِ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، وَأَعْطَيْتَنَا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، وَنَحْنُ كُنَّا أَكْثَرَ عَمَلًا؟ قَالَ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا: لاَ، قَالَ: فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»(١).

۞ وعنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ اليَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلاَةِ العَصرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ العَصرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ، فَغَضِبَتِ اليَهُودُ، وَالنَّصَارَى، فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا، وَأَقَلَّ عَطَاءً؟ قَالَ: «هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟» قَالُوا: لاَ، قَالَ: «فَذَلِكَ، فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»(٢).

۞ قوله: «إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس» أي: أن نسبة مدة هذه الأمة إلى مدة مَن تَقدَّم من الأمم، كنسبة ما بعد العصر إلى غروب الشمس، إلى بقية النهار.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٥٧) كتاب مواقيت الصلاة.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٢٦٨) كتاب الإجارة.

قوله: «**أُوتي أهل التوراة، التوراة**» إلى آخره... شرحٌ وبيانٌ لما تَقدَّم من تقدير مدة بقاء هذه الأمة بالنسبة لبقاء الأمم قبلها.

قوله: «**قيراطًا قيراطًا**» كرره ليدل على تقسيم القراريط على العمال؛ لأن العرب إذا أرادت تقسيم الشيء على متعدد كررته، فيقولون: قُسِّم هذا المال على بني فلان درهمًا درهمًا، أي: لكل واحدٍ درهم[1].

والقيراط: النصيب المُقدر، وهو في الأصل: نصف دانق، والدانق: سُدس درهم... وقد يُقصد بالقيراط، الشيء الكثير، كما في الحديث: «**مَنْ شَهِدَ الْجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ**»، قِيلَ: وَمَا الْقِيرَاطَانِ؟ قَالَ: «**مِثْلُ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ**»[2].

۞ قوله: «**ثُمَّ أُوتِينَا الْقُرْآنَ، فَعَمِلْنَا إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ**» مَثَّل انتهاء الدنيا باليوم الكامل، فجعل لليهود من أول النهار إلى صلاة الظهر، وللنصارى من صلاة الظهر إلى العصر، ولهذه الأمة من صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو نهاية الدنيا، فكان نصيب هذه الأمة من الزمن أقل، ونصيبهم من الأجر أكثر وأوفر... وعندما اعترض أصحاب العمل الأكثر على ذلك قال لهم: «**هل ظلمتكم من أجركم شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فهو فضلي أُوتيه مَن أشاء**».

وهذا هو المقصود من الحديث، أن مشيئة الله نافذة، لا يَحكُمها عُرف أو نظر أو غير ذلك، بل ما شاء فِعْلَهُ فَعَلَهُ، وما لم يشأ لا يقع.

وبهذا وأمثاله كثير يتبين ضلال المعتزلة، ومَن سلك طريقهم، الذين يحكمون على الله بعقولهم القاصرة، بأنه يجب أن يفعل كذا، ويمتنع أن يفعل كذا... كقولهم: يجب أن يعذب العاصي، ويثيب المطيع، بحكم العقل قياسًا

---

(١) الفتح (٢/ ٣٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٢٥) كتاب الجنائز – ومسلم (٩٤٥) كتاب الجنائز.

منهم على المخلوق...تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا[١].

۞ قَوْله: «**مثلكم ومثل أهل الْكِتَابيْنِ**»، الْمُرَاد بِهِ الْيَهُود وَالنَّصَارَى. قَوْله: «**كَمثل رجل**» فِيهِ حذف تَقْدِيره: مثلكُمْ مَعَ نَبيكُم وَمثل أهل الْكِتَابيْنِ مَعَ أَنْبِيَائهمْ كَمثل رجل اسْتَأْجر أُجَرَاء.... فالمثل مَضْرُوب للْأمة مَعَ نَبِيّهم، والمُمَثَّل بِهِ الأُجراء مَعَ مَن استأجرهم.... «**فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِى مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ**»... فكان مقدار الزمن الذى عملت فيه اليهود من الصباح إلى نصف النهار على قيراط.... «**ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِى مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلاَةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى**» فكان مقدار الزمن الذى عملت فيه النصارى من نصف النهار أى من الظهر إلى العصر على قيراط.

«**ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِى مِنَ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟**» فأنتم هم - يعنى المسلمين.

قَوْله: «**على قِيرَاط**» وَفِي رِوَايَة عبد الله بن دِينَار: على قِيرَاط قِيرَاط، وَالْمرَاد بالقيراط النَّصِيب، وَهُوَ فِي الأَصْل نصف دانق، والدانق سُدس دِرْهَم.... (فَغَضِبت الْيَهُود وَالنَّصَارَى)، أَي: الْكفَّار مِنْهُم... فقالوا: مَا لنا أَكثر عملًا وَأَقل عَطاء؟...

قَالَ الْكرْمَانِي: كَيفَ كَانُوا أَكثر عملًا وَوقت الظّهْر إِلَى الْعَصْر مثل وَقت الْعَصْر إِلَى الْمغرب؟ وَأَجَاب بِأَنَّهُ لَا يَلْزم من أكثرية الْعَمَل أكثرية الزَّمَان.

فقال تعالى: «**هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟**» قَالُوا: لاَ، قَالَ: «**فَذَلِكَ، فَضْلِى أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ**»...

قَوْله: «**فَذَلِك فضلى**»، فِيهِ حُجَّة لأهل السُّنة على أَن الثَّوَاب من الله على

---

(١) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (٢/ ٢٦٤).

سَبِيل الْإِحْسَان مِنْهُ»[١].

۞ فهم كانوا أكثر عملاً، من الصباح إلى منتصف النهار (مدة طويلة)، ومع ذلك عجزوا، أي: ما أتموا ما فرض الله عَزَّوَجَلَّ عليهم فأُعطوا قيراطًا قيراطًا، أي: وزعوا الأجر على العاملين، ولذلك كرر لفظة القيراط كما لو أردت أن تقول: إنك أعطيت فلانًا حقه كاملاً فتقول: أعطيته حقه درهمًا درهمًا، أي: ليس له عندك حق... فتكرير القيراط إشارة إلى أن كل عامل أخذ أجره على قدر ما عمل.

۞ وأخذ علماؤنا من هذا الحديث من قوله ﷺ: «**ثم عجزوا فأُعطوا قيراطًا قيراطًا**» أن المرء إذا كُلف بأمرٍ فعجز لظروفه الخاصة فإنه يأخذ أجره...ففى بنى إسرائيل يأخذ قيراطًا قيراطًا، وعندنا يأخذ أجره كاملاً، وهذا من جملة معاملة الله إيانا بالفضل.

كما قال النبى ﷺ: «**إذا سافر العبد أو مرض كُتب له ما كان يعمله صحيحًا مقيمًا**»، فإذا كان له وِردٌ من الليل يصليه، أو كان له قيام، أو كان له صدقة، فإذا سافر العبد فلم يستطع أن يعمل مثلما يعمله فى بلد الإقامة كُتب له أجره كاملاً كما لو كان مقيمًا...وإذا مرض العبد فعجز عن القيام بما كان يفعله فى حال الصحة كتب الله عَزَّوَجَلَّ له ذلك كاملاً: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ﴾[٢].

---

(١) عمدة القارى (١٢/ ٨٨).

(٢) سورة النساء: الآية: (٧٠).



(١٣٩) تحريم الانتحار

۞ عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ، فَجَزِعَ، فَأَخَذَ سِكِّينًا فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ، فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حَتَّى مَاتَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: بَادَرَنِى عَبْدِى بِنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ»(١).

۞ روى العالم الصالح الزاهد العابد، الحسن البصرى رحمه الله عن جندب بن عبد الله البجلى رضي الله عنه: أنه حدَّث فى مسجد الكوفة بهذا الحديث الذى معنا: أن النبى ﷺ حدَّث أصحابه عن رجل كان فيمن قبلنا من الأمم الماضية فيه جرح جزع منه، فأيس من رحمة الله تعالى وشفائه، ولم يصبر على ألمه رجاء ثوابه، لضعف داعى الإيمان واليقين فى قلبه، فأخذ سكينًا فقطع بها يده، فأصابه نزيف فى دمه، فلم يرقأ وينقطع حتى مات.

قال الله تعالى ما معناه: هذا عبدى استبطأ رحمتى وشفائى، ولم يكن له جَلَدٌ على بلائى، فعجل إلى نفسه بجنايته عليها، وظن أنه قصَّر أجله بقتله نفسه، لذا فقد حرمت عليه الجنة.

فكان هذا الهارب من وجع الجرح إلى عذاب النار، كالمستجير من الرمضاء بالنار. فنعوذ بالله تعالى من سوء الخاتمة.

۞ وحياة الإنسان ليست ملكًا له فهو لم يخلق نفسه، ولا عضوًا من أعضائه أو خلية من خلاياه، وإنما نفسه وديعة عنده استودعه الله إياها، فلا يجوز له التفريط فيها فكيف بالاعتداء عليها؟ فكيف بالتخلُّص منها؟

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾(٢).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٦٣) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (١١٣) كتاب الإيمان بدون ذكر «بادرنى عبدى بنفسه».

(٢) سورة النساء: الآية: (٢٩).

إن الإسلام يريد من المسلم أن يكون صلب العود قوى العزم فى مواجهة الشدائد ولم يُبح له بحالٍ أن يفر من الحياة، ويخلع ثوبها، لبلاءٍ نزل به، أو أمل كان يحلم به فخاب... فإن المؤمن خُلِقَ للجهاد لا للقعود، وللكفاح لا للفرار، وإيمانه وخُلقه يأبيان عليه أن يفر من ميدان الحياة، ومعه السلاح الذى لا يفلّ، والذخيرة التى لا تنفد: سلاح الإيمان المكين وذخيرة الخُلق المتين.

لقد أنذر الرسول ﷺ مَن يَقدُم على هذه الجريمة البشعة - جريمة الانتحار - بحرمانه من رحمة الله فى الجنة، واستحقاق غضب الله فى النار.

فإذا كان هذا حُرِّمت عليه الجنة من أجل جراحة لم يحتمل ألمها فقتل نفسه، فكيف بمن يقتل نفسه من أجل صفقة يخسر فيها قليلًا أو كثيرًا، أو من أجل امتحان يفشل فيه، أو فتاة صدَّت عنه؟!

ألا فليسمع ضِعاف العزائم هذا الوعيد الذى جاء به الحديث النبوى يبرق ويرعد:

«مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِى يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِى يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِى بَطْنِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»[١][٢].

❁ يُستفاد من هذا الحديث:

أ- تغليظ تحريم قتل النفس سواء كانت نفس القاتل أم غيره.

ب- ليس فى الحديث متمسك لمن قال بتخليد أصحاب المعاصى فى النار، فقد ورد عن رسول الله ﷺ ما يدحض هذا التوهم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٧٨) كتاب الطب - ومسلم (١٠٩) كتاب الإيمان.

(٢) الحلال والحرام فى الإسلام / د. يوسف القرضاوى (ص ٢٨٤-٢٨٥) بتصرف.

عَنْ جَابِرِ بنِ عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ الطُّفَيْلَ بْنَ عَمْرٍو الدَّوْسِيَّ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ لَكَ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ[1] وَمَنْعَةٍ؟[2] فَأَبَى ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ لِلَّذِي ذَخَرَ اللهُ لِلْأَنْصَارِ، فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، هَاجَرَ إِلَيْهِ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَهَاجَرَ مَعَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَاجْتَوَوُا[3] الْمَدِينَةَ، فَمَرِضَ، فَجَزِعَ، فَأَخَذَ مَشَاقِصَ[4] لَهُ، فَقَطَعَ بِهَا بَرَاجِمَهُ[5]، فَشَخَبَتْ يَدَاهُ[6] حَتَّى مَاتَ، فَرَآهُ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فِي مَنَامِهِ، فَرَآهُ وَهَيْئَتُهُ حَسَنَةٌ، وَرَآهُ مُغَطِّيًا يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: مَا صَنَعَ بِكَ رَبُّكَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي بِهِجْرَتِي إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ، فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكَ مُغَطِّيًا يَدَيْكَ؟ قَالَ: قِيلَ لِي: لَنْ نُصْلِحَ مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ، فَقَصَّهَا الطُّفَيْلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُمَّ وَلِيَدَيْهِ فَاغْفِرْ**»[7].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: فِيهِ حُجَّةٌ لِقَاعِدَةٍ عظيمة لِأَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ أَوِ ارْتَكَبَ مَعْصِيَةً غَيْرَهَا وَمَاتَ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ فَلَيْسَ بِكَافِرٍ وَلَا يُقْطَعُ لَهُ بِالنَّارِ بَلْ هُوَ فِي حُكْمِ الْمَشِيئَةِ، وَهَذَا الْحَدِيثُ شَرْحٌ لِلْأَحَادِيثِ الَّتِي قَبْلَهُ، الْمُوهِمُ ظَاهِرُهَا تَخْلِيدَ قَاتِلِ النَّفْسِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَصْحَابِ الْكَبَائِرِ فِي النَّارِ، وَفِيهِ: إِثْبَاتُ عُقُوبَةِ بَعْضِ أَصْحَابِ الْمَعَاصِي فَإِنَّ هَذَا عُوقِبَ فِي يَدَيْهِ فَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الْمُرْجِئَةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْمَعَاصِيَ لَا تَضُرُّ وَاللهُ أَعْلَمُ[8].

---

(١) أرض دوس وحصن كانت لهم فى الجاهلية.

(٢) عزة وامتناع.

(٣) فاجتووا: كرهوا المقام فيها لضجر وسقم يصيب الجوف.

(٤) مشاقص: جمع مشقص، وهو سهم فيه نصل عريض.

(٥) براجمه: جمع برجمة، وهى مفاصل الأصابع.

(٦) فشخبت يداه: سال دمها بقوة.

(٧) صحيح: رواه مسلم (١١٦) كتاب الإيمان.

(٨) شرح مسلم (١/ ١٧٣).

ت- مَن قتل نفسه يترك أهل العلم والفضل الصلاة عليه لعامة المسلمين ولا يصلون عليه ... لحديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَجُلٍ قَتَلَ نَفْسَهُ بِمَشَاقِصَ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ»(١).

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧٨) كتاب الجنائز.



(١٤٠) الإيمان بالقدر

* عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قَتَادَةَ السُّلَمِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ، وَقَالَ: هَؤُلاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلا أُبَالِي، وَهَؤُلاءِ فِي النَّارِ وَلا أُبَالِي**»، قَالَ: فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ فَعَلَى مَاذَا نَعْمَلُ؟ قَالَ: «**عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدَرِ**»(١).

* وعَنْ أَبِي نَضْرَةَ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُقَالُ لَهُ: أَبُو عَبْدِ اللهِ، دَخَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ يَعُودُونَهُ وَهُوَ يَبْكِي، فَقَالُوا لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ أَلَمْ يَقُلْ لَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خُذْ مِنْ شَارِبِكَ، ثُمَّ أَقِرَّهُ حَتَّى تَلْقَانِي**»؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَبَضَ قَبْضَةً بِيَمِينِهِ، وَقَبَضَ قَبْضَةً أُخْرَى** - يعنى بيده الْأُخْرَى - **فَقَالَ: هَذِهِ لِهَذِهِ، وَهَذِهِ لِهَذِهِ، وَلا أُبَالِي**» فَلَا أَدْرِي فِي أَيِّ الْقَبْضَتَيْنِ أَنَا(٢).

* وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خَلَقَ اللهُ آدَمَ حِينَ خَلَقَهُ، فَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُمْنَى، فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً بَيْضَاءَ، كَأَنَّهُمُ الذَّرُّ، وَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُسْرَى، فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً سَوْدَاءَ كَأَنَّهُمُ الْحُمَمُ، فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَمِينِهِ: إِلَى الْجَنَّةِ، وَلا أُبَالِي وَقَالَ: لِلَّذِي فِي كَتِفِهِ الْيُسْرَى: إِلَى النَّارِ وَلا أُبَالِي**»(٣).

* قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ:

إن كثيرًا من الناس يتوهمون أن هذه الأحاديث - ونحوها أحاديث كثيرة - تفيد أن الإنسان مجبورٌ على أعماله الاختيارية، ما دام أنه حُكم عليه منذ القديم

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٠).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩).

وقبل أن يُخلق بالجنة أو النار... وقد يتوهم آخرون أن الأمر فوضى أو حَظٌّ فمن وقع فى القبضة اليمنى كان من أهل السعادة، ومَن كان من القبضة الأخرى كان من أهل الشقاوة...فيجب أن يعلم هؤلاء جميعًا أن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لا فى ذاته ولا فى صفاته، فإذا قبض قبضة فهى بعلمه وعدله وحكمته، فهو تعالى قبض باليمنى على مَن عَلِمَ أنه سيُطيعه حين يُؤمَر بطاعته، وقبض بالأخرى على مَن سبق فى علمه تعالى أنه سيعصيه حين يُؤمَر بطاعته...ويستحيل على عدل الله تعالى أن يقبض باليمنى على مَن هو مستحقٌّ أن يكون من أهل القبضة الأخرى، والعكس بالعكس... كيف والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

ثم إن كلًّا من القبضتين ليس فيها إجبارٌ لأصحابهما أن يكونوا من أهل الجنة أو من أهل النار، بل هو حُكمٌ من الله تبارك وتعالى عليهم بما سيصدر منهم من إيمان يستلزم الجنة، أو كفر يقتضى النار والعياذ بالله تعالى منها.

وكُلٌّ من الإيمان أو الكفر أمران اختياريان، لا يُكره الله تبارك وتعالى أحدًا من خلقه على واحدٍ منهما ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، وهذا مُشاهَدٌ معلوم بالضرورة، ولولا ذلك لكان الثواب والعقاب عبثًا، والله مُنزَّهٌ عن ذلك.

ومن المؤسف حقًّا أن نسمع من كثير من الناس - حتى من بعض المشايخ- التصريح بأن الإنسان مجبور لا إرادة له! وبذلك يُلزمون أنفسهم القول بأن الله يجوز له أن يظلم الناس! مع تصريحه تعالى بأنه لا يظلمهم مثقال ذرة، وإعلانه بأنه قادر على الظلم ولكنه نَزَّه نفسه عنه كما فى الحديث القدسى المشهور:

«**يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى...**» وإذا جُوبهوا بهذه الحقيقة، بادروا إلى الاحتجاج بقوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، مُصرِّين بذلك على أن الله

تعالى قد يظلم ولكنه لا يُسأل عن ذلك!... تعالى الله عما يقول الظالمون عُلوًّا كبيرًا...وفاتهم أن الآية حُجة عليهم لأن المراد بها - كما حققه العلامة ابن القيم فى شفاء العليل وغيره - أن الله تعالى لحكمته وعدله فى حكمه ليس لأحدٍ أن يسأله عما يفعل، لأن كل أحكامه تعالى عدلٌ واضحٌ فلا داعى للسؤال.

وللشيخ يوسف الدجوى رسالة مفيدة فى تفسير هذه الآية لعله أخذ مادتها من كتاب الإمام ابن القيم المشار إليه آنفًا.

هذه كلمة سريعة حول الأحاديث المتقدمة حاولنا فيها إزالة شبهة بعض الناس حولها... فإن وُفِّقتُ لذلك فبها ونعمت، وإلا فإنى أُحيل القارىء إلى المُطوَّلات فى هذا البحث الخطير، مثل كتاب ابن القيم السابق، وكتب شيخه ابن تيمية الشاملة لمواضيع هامة هذا أحدها[1].

---

(١) «الصحيحة» (١/ ١/ ١١٥ - ١١٧) رقم (٤٨)، وموسوعة الألبانى فى العقيدة (٩/ ٦٦١-٦٦٥).




(١٤١) أربع ركعات فى أول النهار.. ومكافأة آخر النهار

۞ عن أبى الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ! صَلِّ لِي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ»(١).

۞ وفى رواية أن رسول الله ﷺ قال: قال الله عَزَّوَجَلَّ: «ابْنَ آدَمَ ارْكَعْ لِي مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ أَكْفِكَ آخِرَهُ»(٢).

۞ قال المباركفورى رَحِمَهُ اللَّهُ: «ابْنَ آدَمَ»: أى يا ابن آدم.

«ارْكَعْ»: أى صَلِّ «لِي»: أى خالصًا لوجهى «مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ»: قيل: المراد صلاة الضحى.

وفى رواية: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقول: يَا ابْنَ آدَمَ، اكْفِنِى أَوَّلَ النَّهَارِ بِأَرْبَعِ رَكَعَاتٍ، أَكْفِكَ بِهِنَّ آخِرَ يَوْمِكَ».

«اكْفِنِى أَوَّلَ النَّهَارِ بِأَرْبَعِ رَكَعَاتٍ»: معنى اكفنى هنا: أدِّها لى وافعلها من أجلى.

وإنما عبَّر بهذا اللفظ للمشاكلة فى قوله أكفك.

«أَكْفِكَ آخِره»: المراد بكفايته تعالى للعبد أن يقيه السوء ويحفظه من الشرور ويرزقه من حيث لا يحتسب وييسر له أموره.

قال الطيبى: أى أكفك شغلك وحوائجك وأدفع عنك ما تكرهه بعد صلاتك إلى آخر النهار. والمعنى: فَرِّغ بالك بعبادتى فى أول النهار أفرغ بالك فى آخره بقضاء حوائجك.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٣٩).

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى الإرواء (٤٦٥).

والظاهر من أقوال أهل العلم أن المراد بتلك الركعات هى (صلاة الضحى) فيا ليتنا نحرص عليها فقد قال الحبيب ﷺ: «**مَنْ صَلَّى الضُّحَى أَرْبَعًا وَقَبْلَ الأُولَى أَرْبَعًا بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الجَنَّةِ**»[1].

---

(١) حسن: رواه الطبرانى فى الأوسط، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٤٠).



(١٤٢) فضل الوضوء من الليل

۞ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: لَا أَقُولُ الْيَوْمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا لَمْ يَقُلْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ، فَلْيَتَبَوَّأْ بَيْتًا مِنْ جَهَنَّمَ».

وَسَمِعْتُه يَقُولُ: «الرَّجُلُ مِنْ أُمَّتِي يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ يُعَالِجُ نَفْسَهُ إِلَى الطَّهُورِ وَعَلَيْهِ عُقَدٌ فَيَتَوَضَّأُ، فَإِذَا وَضَّأَ يَدَيْهِ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا وَضَّأَ وَجْهَهُ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا مَسَحَ رَأْسَهُ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا وَضَّأَ رِجْلَيْهِ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَيَقُولُ اللهُ عز وجل لِلَّذِينَ وَرَاءَ الْحِجَابِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا يُعَالِجُ نَفْسَهُ ويَسْأَلُنِي... مَا سَأَلَنِي عَبْدِي هَذَا فَهُوَ لَهُ»[١].

۞ وهذا الحديث يوضح لنا أن كيد الشيطان يحتاج من المؤمن أن يعتصم بالملك (جلَّ وعلا) وأن يُجاهد نفسه بالطاعة ليتخلص من كيد الشيطان.

ومن بين تلك الأسلحة التي يتخلص بها المؤمن من كيد الشيطان (الوضوء)؛ فإن جاهد المؤمن نفسه وشيطانه وقام من الليل فتوضأ للصلاة؛ فإن الله الكريم يكافئ عبده المؤمن بقوله: «مَا سَأَلَنِي عَبْدِي هَذَا فَهُوَ لَهُ».

۞ قوله: «يُعالج نفسه» أي: يُدافع نفسه، والمقصود أن نفسه تميل إلى الراحة والنوم، ولكنه هو يُقاوم ذلك ويتوضأ ويُصلي.

۞ قوله: «عليه عُقد» أي: من فعل الشيطان.

۞ وقد تكاثرت النصوص عن النبي ﷺ بتكفير الخطايا بالوضوء، كما في «صحيح مسلم» عن عثمان رضي الله عنه أنه تَوَضَّأَ، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَوَضَّأَ

---

(١) حسن: رواه أحمد (٤/ ١٥٩)، وابن حبان (١٦٨- موارد)، وفي الإحسان (٢٥٤٦)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٦٣١)، وقال: حسن لغيره.

مِثْلَ وُضُوئِى هَذَا، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ تَوَضَّأَ هَكَذَا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَكَانَتْ صَلَاتُهُ وَمَشْيُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ نَافِلَةً**»[1].

وفيه أيضًا عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ، قال: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ - أَوْ فَيُسْبِغُ - الْوَضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ**»[2].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٩) كتاب الطهارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٣٤) كتاب الطهارة.



(١٤٣) أنفِق يا ابن آدم يُنفق عليكَ



۞ عَنْ أبى هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسولَ الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: أَنفِق يا ابْنَ آدمَ يُنْفَقْ عَلَيْكَ»[١].

۞ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ» هُوَ مَعنَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فَيَتَضَمَّن الْحَث عَلَى الإِنْفَاقِ مَعنَى فِى وُجُوهِ الْخَيْرِ وَالتَّبْشِيرِ بِالْخَلَفِ مِنْ فَضْلِ اللهُ تَعَالَى[٢].

وهل هناك بشرى أعظم من تلك البشرى.. فالله يأمرك بأن تنفق ويَعِدك بأنه هو الذى سينفق عليك ويُعوضك بالحلال الطيب الذى تغمره البركة من عند الله (سبحانه وتعالى).

ولكى تستشعر هذا المعنى فتأمل معى قوله ﷺ: «يَدُ اللهِ مَلأَى لاَ تَغِيضُهَا نَفقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْل وَالنَّهار، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِى يَدِهِ، وَكَانَ عَرشُهُ عَلَى المَاءِ، وَبِيَدِهِ المِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرفَعُ»[٣].

وقوله تعالى فى الحديث القدسى: «يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِى فَأَعطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِى إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدخِلَ البَحر»[٤].

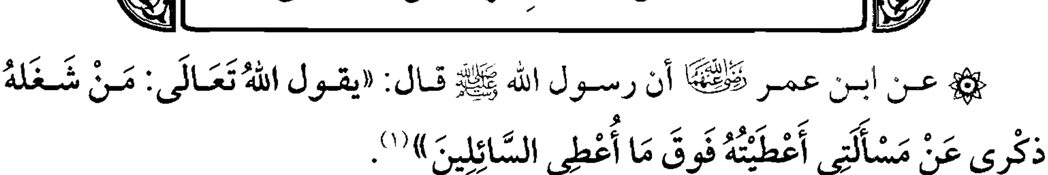
---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٣٥٢) كتاب النفقات-ومسلم (٩٩٣) (٣٦) كتاب الزكاة.

(٢) مسلم بشرح النووى (٧/ ١١٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٨٤) كتاب التفسير ، ومسلم (٩٩٣) (٣٧) كتاب الزكاة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة والآداب.



(١٤٤) مَن شَغَلهُ ذِكرى عن مسألتى

۞ عـن ابـن عمـر رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قـال: «**يقـول اللهُ تَعَـالَى: مَـنْ شَـغَلَهُ ذِكْرِى عَنْ مَسْأَلَتِى أَعْطَيْتُهُ فَوقَ مَا أُعْطِى السَّائِلِينَ**»(١).

۞ وليس معنى ذلك أن نترك الدعاء، ولكن معنى الحديث أشمل وأعظم من ذلك... فالذِّكر هنا هو التشريع كله بكل ما فيه من عبادات وتكاليف: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (٢).

فمن انشغل بالتكاليف والعبادات (ومن بينها الدعاء) فهذا أعظم عند الله ممن انشغل بالدعاء فقط، ولذلك وعده الله تعالى بأن يعطيه أفضل مما يعطى السائلين.

وهناك رأيٌ آخر: وهو أن من شغله الذكر والطاعة عن أن يسأل ربه كل ما يحتاج إليه من أمور الدنيا فإن الله يعوِّضه ويرزقه من كل الخيرات لانشغاله بطاعة رب الأرض والسماوات.

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾(٤).

---

(١) أخرجه البخارى فى خلق أفعال العباد (ص ١٠٩) والبيهقى فى شعب الإيمان (١/ ٤١٣، رقم ٥٧٢).

(٢) سورة الحجر: الآية: (٩).

(٣) سورة الشورى: الآية (٢٠).

(٤) سورة الإسراء: الآية (١٨).

فالله يرزقه الخير كله لانشغاله بالطاعة والعبادة والعمل لهذا الدين ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1].

(١) سورة الطلاق: الآيتان: (٢-٣).

(١٤٥) ائتيا طوعًا أو كرهًا

۞ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فى قوله تعالى: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾. أنه تعالى قَالَ لِلسَّمَاءِ: أَخْرِجِى شَمْسَكِ وَقَمَرَكِ وَنُجُومَكِ، وَقَالَ لِلْأَرْضِ: شَقِّقِى أَنْهَارَكِ وَأَخْرِجِى ثِمَارَكِ، فَقَالَتَا: أَتَيْنَا طَائِعِينَ[١].

۞ فمثل هذا الحديث وإن لم يرفعه ابن عباس إلى النبى ﷺ.. فمثله له حكم الرفع إلى النبى ﷺ لأنه من الغيب الذى لا يُعرَف إلا بالوحى.

۞ وفيه يُذكر بعض التفاصيل عن خلق السموات والأرض.. وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ذلك بشىءٍ من التفصيل فى سورة «فُصلت» فقال تعالى:

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[٢].

ينكر تعالى ويَعجب من كفر الكافرين به، الذين جعلوا معه أندادًا يُشركونهم معه، ويبذلون لهم ما يشاؤون من عباداتهم، ويُسَوُّونهم بالربِّ العظيم، الملك الكريم، الذى خلق الأرض الكثيفة العظيمة، فى يومين، ثم دحاها فى يومين، بأن جعل فيها رواسى من فوقها، تُرسيها عن الزوال والتزلزُل وعدم الاستقرار.

فكمَّل خلقها، ودحاها، وأخرج أقواتها، وتوابع ذلك ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً

(١) رواه الحاكم، وصححه، ووافقه الذهبى.

(٢) سورة فصلت: الآيات: (٩-١٢).

﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ عن ذلك، فلا يُنبئك مثلُ خبير، فهذا الخبر الصادق الذى لا زيادة فيه ولا نقص[١].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أى عمد إلى خلقها وقصد إلى تسويتها وهى بهيئة الدخان ... قال ابن كثير: والمراد بالدخان بخار الماء المتصاعد منه حين خُلقت الأرض[٢] ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أى استجيبا لأمرى طائعتين أو مكرهتين ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أى قالت السموات والأرض: أتينا أمرك طائعين... أى: ليس لنا إرادة تُخالف إرادتك.

۞ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ فتَمَّ خلق السماوات والأرض فى ستة أيام، أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، مع أن قدرة الله ومشيئته صالحة لخلق الجميع فى لحظة واحدة، ولكن مع أنه قدير، فهو حكيم رفيق.

فمن حكمته ورفقه، أن جعل خلقها فى هذه المدة المقدرة.... واعلم أن ظاهر هذه الآية، مع قوله تعالى فى النازعات، لما ذكر خلق السماوات قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ يظهر منهما التعارض، مع أن كتاب الله، لا تَعارُض فيه ولا اختلاف.

والجواب عن ذلك، ما قاله كثير من السلف: أن خلق الأرض وصورتها متقدم على خلق السماوات كما هنا، ودَحْىُ الأرض بأن ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ متأخر على خلق السماوات كما فى سورة النازعات، ولهذا قال فيها: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ إلى آخره ... ولم يقل: والأرض بعد ذلك خلقها[٣].

---

(١) تفسير السعدى (ص٨٨٢).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٧).

(٣) تفسير السعدى (ص ٨٨٢).

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾ أى أوحى فى كل سماء ما أراده، وما أمر به فيها قال ابن كثير: أى رتّب فى كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التى لا يعلمها إلا هو ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ﴾ أى وزينّا السماءَ الأولى القريبة منكم، بالكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، وحرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أى ذلك المذكور من الخلق والإبداع هو صنع الله، العزيز فى ملكه، العليم بمصالح خلقه[1].

---

(١) صفوة التفاسير (٣/ ١٠٩).



(١٤٦) فضل يوم عرفة

۞ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمِ الْمَلَائِكَةَ، فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟»(١).

وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ أَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ مِنْ أَيَّامِ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ»، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، هُنَّ أَفْضَلُ أَمْ عِدَّتُهُنَّ جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللهِ، قَالَ: «هُنَّ أَفْضَلُ مِنْ عِدَّتِهِنَّ جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا مِنْ يومٍ أَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ مِنْ يومِ عَرَفَةَ: يَنْزِلُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُبَاهِي بِأَهْلِ الْأَرْضِ أَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي جاءوا شُعْثًا غُبْرًا حَاجِّين جَاءُوا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ يَرْجُونَ رَحْمَتِي، وَلَمْ يَرَوْا عَذَابِي... فَلَمْ يُرَ يَوْمٌ أَكْثَرُ عَتِيقًا مِنَ النَّارِ مِنْ يومِ عَرَفَةَ»(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي مَلَائكته عَشِيَّةَ عَرَفَة بِأَهْلِ عَرَفَة، يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي أَتَونِي شُعْثًا غُبْرًا»(٣)

۞ فقوله: (ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة) لا يتعارض مع حديث: (خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة)، ووجه الجمع بين الحديثين: أن خير أيام الأسبوع هو يوم الجمعة، وخير أيام السَّنة هو يوم عرفة.

والدنو دنو حقيقي يليق بالله عَزَّ وَجَلَّ...والإمام النووي عليه رحمة الله كان يقع فى التأويل أحيانًا، وتلاميذه من فحول أهل العلم اعتذروا عن النووي بأنه لم

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٤٨) كتاب الحج.

(٢) حسن: رواه ابن حبان (٣٨٤٢-موارد)، والبزار (١١٢٨ - كشف الأستار).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والطبراني فى الكبير، وصححه الألباني فى صحيح الجامع (١٨٦٨).

يُتقن مسائل العقيدة، وتَصدَّر للتصنيف والتأليف فى الفقه والأصول وغير ذلك قبل أن يستيقن من مسائل الاعتقاد، فكلما مرت عليه المسألة فى أثناء تصنيفه تكلم فيها ونقل فيها عن أهل العلم... فتارة ينقل، وتارة يسكت، وتارة يوافق المتأولة.

وله تأثُّر بعلماء زمانه ومشايخه، وأنهم كانوا مُتأولة، فقد كانوا فى العقيدة أشاعرة، فقد قال النووى فى شرحه لهذا الحديث:

قال القاضى عياض: قال المازرى: معنى (يدنو) أى: تدنو رحمته وكرامته، لا دنو مسافة ومُماسة.

وهذا تأويل أيضًا، لأن دنو الرحمن صفة فعل لله عَزَّوَجَلَّ، وصفة أفعاله لا يعلم كيفيتها إلا الله عَزَّوَجَلَّ، كما لا يعلم صفات ذاته إلا هو سبحانه.

فأهل السُّنة يثبتون جميع الصفات لله عَزَّوَجَلَّ على المعنى اللائق به، ولا نخوض فيها بكيف ولا تأويل، إنما نؤمن بها كما جاءت ونُمرها كما أمرَّها سلفنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ...وهذا أسلم وأحكم وأعلم[1].

۞ ودنوه - جل وعلا - لا ينافى علوه تعالى...قال شيخ الإسلام فى الفتاوى: «وأصل هذا أن قُربه سبحانه ودُنوه من بعض مخلوقاته لا يستلزم أنْ تخلو ذاته من فوق العرش، بل هو فوق العرش، ويقرب من خلقه كيف يشاء، كما قال ذلك مَن قاله من السلف».

۞ وبلاغة التعبير بالأفضلية فى الحديث الشريف فى قوله ﷺ: «**ما من أيام عند الله أفضل من عشر ذى الحجة**»، بما فيها يوم عرفة، فهى عند الله أفضل من الجهاد فى سبيل الله لأنها من أفضل أيام السنة.

وبلغ التصوير الفنى قمته حين اقتصرت على المفاضلة بين أيام السنة لا بين

---

(١) شرح مسلم

شهورها، لأن رمضان أفضل شهورها على الإطلاق، ثم ما أروع التقييد بالتنصيص على لفظ الجلالة «عند الله» الكريم ذى الفضل العظيم، والله لا يُخلف الميعاد...ثم تأكدت الأفضلية بتفضيل يوم عرفة على بقية العشر، فى صور بلاغية أخرى فى قوله: «**وما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة**» لأن مَن فاته الوقوف بعرفة فى اليوم التاسع وليلة العاشر؛ فقد فاته الحج...للأحاديث الشريفة: «**الحج عرفة**»، «**من جاء ليلة جمع قبل طلوع الفجر فقد أدرك**» ووضح الحديث الشريف أسباب الأفضلية وهى أنه: «**ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيباهى بأهل الأرض أهل السماء، فيقول: انظروا إلى عبادى، جاءونى شعثًا غُبرًا حاجين، جاءوا من كل فجٍّ عميق، يرجون رحمتى، ولم يروا عذابى فلم يُرَ يومٌ أكثر عتيقًا من النار من يوم عرفة**».

۞ وبلاغة التصوير الفنى فى التعبير عن مباهاة الله بالحجيج فى يوم عرفة بصورة فنية بلغت القمة فى بلاغة الأسلوب النبوى الشريف، فعبَّر عن قُرب الله عَزَّوَجَلَّ، وسرعة استجابته لهم، وقبول مناسك الحج ومشاعره، بنزوله إلى السماء الدنيا؛ فيباهى بهم الملائكة وغيرهم من العوالم الأخرى ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ معجبًا بعباده وهو يقول: «**انظروا إلى عبادى**» بإضافة عبوديتهم إليه، وهو أعظم تشريف للحجيج فقد رضى عنهم، وكذلك بلاغة التصوير الفنى بالكناية عن اشتغالهم بمشاعر الحج صادقين فى إتقان مناسكهم مخلصين، غير مهتمين بمظاهر الحياة والتفاخر بمتاع الحياة الدنيا، حتى طالت شعورهم وأظافرهم، واغبَرَّت بالتراب والعرق أبدانهم وملابس إحرامهم، فلا يُؤبَه لهم وقد ضحوا فى سبيل ذلك بأوطانهم وأهليهم وأصدقائهم، ومُضحين بدماء النُّسك، وذبائح الهدى والأضحية كما فى الحديث الشريف: «**جاءونى شعثًا غبرًا ضاحين**»، وكذلك بلاغة التصوير لقدوم الحجيج من كل حدبٍ وصَوب على سبيل الكناية المعجزة، التى اقتبسها النبى ﷺ من التصوير القرآنى المعجز فى

سورة الحج: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

۞ والتصوير الأدبى فى بلاغة التعبير عن شدة عقاب الله عَزَّوَجَلَّ وشدة عذابه، مع تقديم رحمته التى وسعت كل شىء، فى قوله تعالى: «**يرجون رحمتى ولم يروا عذابى**»، فقدَّم الرحمة على العذاب، مما جعل الحجيج يستحقون المغفرة والرضوان من الله عَزَّوَجَلَّ...

قال أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وقف النبى ﷺ بعرفات وقد كادت الشمس أن تثوب، فقال: «**يا بلال أنصِت لى الناس**»، فقام بلال فقال: أنصتوا لرسول الله ﷺ، فأنصت الناس فقال: «**يا معشر الناس أتانى جبريل** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **آنفًا، فأقرأنى من ربى السلام وقال: إن الله** عَزَّوَجَلَّ **غفر لأهل عرفات، وأهل المشعر الحرام، وضَمِن عنهم التبعات**»، فقال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: يا رسول الله، هذه لنا خاصة؟ قال: «**هذا لكم ولمن أتى بعدكم إلى يوم القيامة**»، فقال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: كثُر خير الله وطاب.

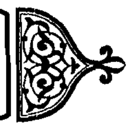
وعبَّر مع الرحمة بالرجاء، وهو حاصل ومتوقع من الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل شىء...وعبَّر مع العذاب بعدم الرؤية «ولم يروا عذابى» للدلالة على رفع العذاب عن الحجيج، وأن الله لا يرضى لعباده الكفر ولا العذاب، فهو منفى عنهم «بلم» الجازمة، وأن المغفرة والرحمة وجبت لهم كما ورد فى الأحاديث الشريفة: «**والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**»، «**مَن حج فلم يَرفُث ولم يَفسُق رجع كيوم ولدته أمه**»، «**ما رُئى الشيطان يومًا هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة**»[1].

«فَلَمْ يُرَ يَوْمٌ أَكْثَرُ عَتيقًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ».. ومع أنه فى شهر رمضان

---

(١) التصوير النبوى للقيم الخلقية والتشريعية فى الحديث الشريف (١/ ١٢٤-١٢٧).

فى كل ليلة «لله عتقاء من النار» لكن ذلك لا يوازى مقدار العتق الذى يُغدق الله به على عباده فى يوم عرفة... فهو أكثر يومٍ فى العام يعتق الله فيه عباده من النار.



(١٤٧) أجر العبد كاملاً إذا مرض أو سافر

۞ عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**لَيْسَ مِنْ عَمَلِ يَوْمٍ إِلَّا وَهُوَ يُخْتَمُ عَلَيْهِ، فَإِذَا مَرِضَ الْمُؤْمِنُ، قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبَّنَا، عَبْدُكَ فُلَانٌ قَدْ حَبَسْتَهُ، فَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: اخْتِمُوا لَهُ عَلَى مِثْلِ عَمَلِهِ حَتَّى يَبْرَأَ أَوْ يَمُوتَ**»[(١)].

۞ وَعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعملُ مُقِيمًا صَحِيحًا**»[(٢)].

۞ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الإنسان إذا كان من عادته أن يكون مواظبًا على أي عملٍ صالحٍ ثم مرض أو سافر فإنه يُكتب له الأجر كاملًا.

فإذا كان الإنسان مواظبًا على الصلوات الخمس في المسجد.. وكان محافظًا على السنن الرواتب الخاصة بالصلوات الخمس.. وكان يصلي قيام الليل ويقرأ كل يوم ثلاثة أجزاءٍ من القرآن ويُكثر من ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ...

فإذا مرض هذا الإنسان أو سافر فلم يُصلِّ إلا الصلوات الخمس فقط فإنه يُكتب له ما كان يعمله وهو صحيحٌ مقيم دون أن ينقص أي شيءٍ من أجره.

۞ وفي هذا تنبيه على أنه ينبغي لنا أن نجتهد في طاعة الله ما دُمنا في حال الصحة والفراغ حتى إذا عجزنا عن ذلك لمرضٍ أو سفرٍ كُتب لنا الأجر كاملًا.

ولهذا قال النبي ﷺ: «**نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة**

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٣٢).

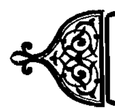
(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٩٩٦) كتاب الجهاد والسير.

والفراغ»[١].

وقال ابن عمر: «وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[٢].

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٤١٢) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٤١٦) كتاب الرقاق، موقوفًا على ابن عمر رضي الله عنهما




(١٤٨) لا ينبغى لعبد أن يقول: أنا خيرٌ من يونس عليه السلام

۞ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِىِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ - يَعْنِى اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: «لَا يَنْبَغِى لِعَبْدٍ لِى أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ ابْنِ مَتَّى عليه السلام»[١].

۞ قال الإمام النووى رحمه الله:

قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذِهِ الْأَحَادِيثُ تَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ ﷺ قَالَ هَذَا قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ... فَلَمَّا عَلِمَ ذَلِكَ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ» وَلَمْ يَقُلْ هُنَا: إِنَّ يُونُسَ أَفْضَلُ مِنْهُ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ.

وَالثَّانِى: أَنَّهُ ﷺ قَالَ هَذَا زَجْرًا عَنْ أَنْ يَتَخَيَّلَ أَحَدٌ مِنَ الْجَاهِلِينَ شَيْئًا مِنْ حَطِّ مَرْتَبَةِ يُونُسَ ﷺ مِنْ أَجْلِ مَا فِى الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ مِنْ قِصَّتِهِ[٢].

۞ ويونس بن مَتَّى (عليه الصلاة والسلام) أحد المرسلين الذين جاء ذكرهم فى القرآن فى عدة مواضع، وذكره الله باسمه، وذكره بوصفه فى موضعين، فقال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾[٣] يعنى: صاحب الحوت، والنون: اسم للحوت، وجمعه: نينان، كالحوت جمعه: حيتان... وقال فى وصفه: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[٤].

والرسول ﷺ قال هذا لما جاء فى القرآن عنه من أنه لم يصبر على ما حصل من قومه؛ فذهب مُغاضباً وحصل له ما حصل... والواجب توقير رسل الله

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤١٦) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (٢٣٧٦) كتاب الفضائل.

(٢) شرح مسلم للنووى (٨/ ١٤٥).

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٨٧).

(٤) سورة القلم: الآية: (٤٨).

(عليهم الصلاة والسلام) ومحبتهم والثناء عليهم وذكرهم بما يليق بهم، ولا يُقال في حق يونس أي شيء وقد حصل منه ما حصل، وقد نهى النبي عليه الصلاة والسلام أن يُقال: إنه خيرٌ منه، فقال: «**ما ينبغي لعبدٍ أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بن مَتَّى**» ومتَّى هو اسم أبيه[1].

(١) شرح سنن أبي داود للعباد.

(١٤٩) من وساوس الشيطان

۞ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّ أُمَّتَكَ لا يَزَالُونَ يَقُولُونَ: مَا كَذَا؟ مَا كَذَا؟ حَتَّى يَقُولُوا: هَذَا اللهُ خَلَقَ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللهَ»(١).

وقد يسأل سائلٌ ويقول: ماذا أصنع إذا جاءنى الشيطان بهذا الوسواس؟

وهنا تأتى الإجابة فى هذا الحديث العظيم.

فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَكَ؟ فَيَقُولُ: اللهُ، فَيَقُولُ: فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَقْرَأْ: آمَنْتُ بِاللهِ وَرُسُلِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَذْهَبُ عَنْهُ»(٢).

وفى رواية أخرى: «فَقُولُوا: اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ... ثُمَّ لِيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلاثًا وَلْيَسْتَعِذْ مِنَ الشَّيْطَانِ».

وفى رواية: «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ».

۞ قال الشيخ الألبانى رَحِمَهُ اللهُ:

دلَّت هذه الأحاديث الصحيحة على أنه يجب على مَن وسوس إليه الشيطان بقوله: مَن خلق الله؟ أن ينصرف عن مجادلته إلى إجابته بما جاء فى الأحاديث المذكورة.

وخلاصتها أن يقول: «آمنت بالله ورُسله، الله أحد، الله الصمد، لم يَلِد ولم يُولَد، ولم يكن له كُفوًا أحد. ثم يَتفُل عن يساره ثلاثًا، ويستعيذ بالله من الشيطان، ثم ينتهى عن الانسياق مع الوسوسة».

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٦) كتاب الإيمان.

(٢) حسن: رواه أحمد، وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١١٦).

وأعتقد أن مَن فعل ذلك طاعة لله ورسوله، مخلصًا فى ذلك أنه لابد أن تذهب الوسوسة عنه، ويندحر شيطانه لقوله ﷺ: «**فإن ذلك يَذهبُ عنه**».

وهذا التعليم النبوى الكريم أنفع وأقطع للوسوسة من المجادلة العقلية فى هذه القضية، فإن المجادلة قلَّما تنفع فى مثلها... ومن المؤسف أن أكثر الناس فى غفلة عن هذا التعليم النبوى الكريم، فتنبهوا أيها المسلمون، وتَعرَّفوا إلى سُنة نبيكم، واعملوا بها، فإن فيها شفاءكم وعِزَّكم[1].

---

(١) السلسلة الصحيحة (١/ ٢٣٦).



(١٥٠) كراهة قول الرجل: هلك الناس

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ رَجُلًا يَقُولُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ، يَقُولُ اللهُ: إِنَّهُ هُوَ هَالِكٌ»[١].

لفظ (الرجل) هنا لا مفهوم له، فالمرأة إذا قالت ذلك فإنها مثل الرجل.

وقوله: «إِذَا سَمِعْتُمْ رَجُلًا يَقُولُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ» يعني: أنه أسبقهم إلى هذا، وهو أولهم في الهلاك... وهذا الوصف للناس هو أَولَى الناس بالاتصاف به، أو: هو أَولَى من غيره، أو: هو أول مَن يتصف به.

وقد ذكر مالك رَحِمَهُ اللهُ: أن مَن قال ذلك تَحزُّنًا على ما يرى من الناس، فإن ذلك لا بأس به... ولكن كونه يرى لنفسه ميزة على غيره ويتصاغره ويحتقره، فإن هذا هو الذي يكون مذمومًا، ولاشك أن تَجنُّب ذلك هو الذي ينبغي.

هناك رواية لكلمة: (أهلَكَهُم) بالنَّصب، يعني أنه تسبب في هلاكهم، وأن مَن قال ذلك ييأس من الناس وييأسون هم بسبب مقالته[٢].

وجاء في حديث النبي ﷺ قال: «مَن قال: هلك الناس، فهو أهلكهم»، وكأن من علامات المغرور أن يقول: كل الناس عُصاة، وكل الناس في النار.

فأنت ترى مجموعة من الناس ولا ترى كل الناس، ولا حضرت كل الناس، ولا عرفت كيف ستكون نهايتهم، لذلك لا يجوز لإنسانٍ أن يقول: كل الناس هلكوا وسيدخلون النار، ولكن الإنسان يدعو لغيره برحمة رب العالمين، وأن يهديهم الله سبحانه وتعالى، وليس معنى ذلك أنه يرى المنكر ويتركه، ولكن يرى المنكر فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وليكن سبيله إليه التغيير برفق

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٧٢) بإسنادٍ حسن - وأصله عند مسلم.

(٢) شرح سنن أبي داود للعباد.

وليس بعنف[١].

۞ وبعض الناس مُغرَمٌ بالتَّشكِّي، ولا ينظر إلى الواقع إلا بعينٍ واحدة، ينظر إلى المساوئ فقط، ويدب إليه اليأس، فتجده دائمًا ينذر الناس ويحذرهم، ويقول: الناس هلكوا وما عاد فيهم خير... وبالمقابل بعض الناس لا ينظر إلا بالعين الأخرى، فلا ينظر إلا إلى المحاسن، ولا ينظر إلى شيء من المساوئ، فهو يُطمئن الناس... لكنه لا بد من التوسُّط، ولا بد من النظر بالعينين كلتيهما...لا ينظر إلى المساوئ فقط، ويُقنط الناس، ولا ينظر إلى المحاسن فقط، فيجعل الناس يأمنون من مكر الله، ولا يتوبون، ولا يثوبون، ولا يرجعون... بل عليه أن يكون بين هذا وهذا...عليه أن ينظر إلى المحاسن وإلى المساوئ... ينظر إلى المحاسن فيشيد بها ويذكرها، ويُشجع أهلها.. وينظر إلى المساوئ فيُحذر منها، لأنه ليس من الإنصاف أن تنظر إلى المساوئ فقط، ولا تذكر إلا المساوئ، وأيضًا ليس من النُّصح للراعي ولا للرعية، ألا ينظر إلا إلى المحاسن؛ لأنه إذا لم ينظر إلى المساوئ متى يرعوى الناس؟ ومتى يرتدعون؟ إذا أَمِنوا من مكر الله، قد يُؤخَذون على غِرة وهم لا يشعرون... وكُلٌّ من الأمن من مكر الله، واليأس والقنوط من رحمة الله من عظائم الأمور -نسأل الله السلامة والعافية-، فلا بد من التوسُّط... ينظر إلى المساوئ ليعالجها، وينظر إلى المحاسن ليشجع فاعلها، ويقتدى به[٢].

(١) شرح الترغيب والترهيب لحطيبة.

(٢) شرح الموطأ لعبد الكريم الخضير - بتصرف.



(١٥١) كذَّبنى ابنُ آدم

۞ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: كَذَّبَنِى ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِى وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّاىَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِى كَمَا بَدَأَنِى، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَىَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّاىَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِى كُفُوًا أَحَدٌ»[١].

وفى رواية: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَشْتُمُنِى ابْنُ آدَمَ، وَمَا يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يَشْتِمَنِى، وَيُكَذِّبُنِى وَمَا يَنْبَغِى لَهُ... أَمَّا شَتْمُهُ فَقَوْلُهُ: إِنَّ لِى وَلَدًا، وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ فَقَوْلُهُ: لَيْسَ يُعِيدُنِى كَمَا بَدَأَنِى»[٢].

۞ قوله: «كَذَّبَنِى ابْنُ آدَمَ» المراد به بعض ولد بنى آدم، وهم مَن أنكر البعث من العرب وغيرهم من عُبَّاد الأوثان والدهرية[٣].

۞ قوله: «يَشْتُمُنِى ابْنُ آدَمَ»: والشتم هو الوصف بما يقتضى النقص، ولا شك أن دعوى الولد لله يستلزم الإمكان المستلزم للحدوث، وذلك غاية النقص فى حق البارى سبحانه وتعالى[٤].

وإنما سَمَّاه شَتمًا لما فيه من التنقيص؛ لأن الولد يكون عن والدة تحمله ثم تضعه، ويستلزم ذلك سبق النكاح... والناكح يستدعى باعثًا له على ذلك، والله سبحانه مُنزَّهٌ عن جميع ذلك.

۞ «كَذَّبَنِى ابْنُ آدَمَ» أى: نسبنى إلى الكذب.

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٩٧٤، ٤٩٧٥) كتاب التفسير.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣١٩٣) كتاب بدء الخلق.

(٣) فتح البارى (٨/ ٦١٢).

(٤) فتح البارى (٦/ ٣٣٦).

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ) أَيْ مَا صَحَّ وَمَا اسْتَقَامَ، وَمَا كَانَ يَنْبَغِي لَهُ التَّكْذِيبُ.

(وَشَتَمَنِي): الشَّتْمُ تَوْصِيفُ الشَّيْءِ بِمَا هُوَ إِزْرَاءٌ وَنَقْصٌ فِيهِ.

(وَلَمْ يَكُنْ) لَائِقًا، وَحَقًّا (لَهُ ذَلِكَ) الشَّتْمُ (فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ): تَفْصِيلٌ لِمَا أَجْمَلَهُ، (فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي) الْإِعَادَةُ هِيَ الْإِيجَادُ بَعْدَ الْعَدَمِ الْمَسْبُوقِ بِالْوُجُودِ...فَالْمَعْنَى لَنْ يُحْيِيَنِي بَعْدَ مَوْتِي (كَمَا بَدَأَنِي) أَيْ كما أَوْجَدَنِي عَنْ عَدَمٍ وَخَلَقَنِي ابْتِدَاءً، أَيْ كَالْحَالَةِ الَّتِي كُنْتُ عَلَيْهَا حِينَ بَدَأَنِي، أَوْ إِعَادَةً مِثْلَ بَدْئِهِ إِيَّايَ، أَوْ لَنْ يُعِيدَنِي مُمَاثِلًا لِمَا بَدَأَنِي عَلَيْهِ، أَوْ لِبَدْئِهِ لِي مِنْ تُرَابٍ ...أَيْ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ...وَكُلُّ ذَلِكَ كُفْرٌ وَتَكْذِيبٌ بِالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى الْإِعَادَةِ الْجُسْمَانِيَّةِ خِلَافًا لِمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الحَمْقَى؛ وَلِذَا رَدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: (وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ) أي: لَيْسَ الْخَلْقُ الْأَوَّلُ لِلْمَخْلُوقَاتِ، أَوْ لَيْسَ أَوَّلُ خَلْقِ الْخَلْقِ، (وَالْخَلْقُ بِمَعْنَى الْمَخْلُوقِ، بِأَهْوَنَ) الْبَاءُ زَائِدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ، أَيْ لَيْسَ أَسْهَلَ (عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ) أَيِ الْمَخْلُوقِ أَوِ الشَّيْءِ، بَلْ هُمَا يَسْتَوِيَانِ فِي قُدْرَتِي.

(وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا) أَيِ اخْتَارَهُ سُبْحَانَهُ ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾[1] وَقَالَتِ الْعَرَبُ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ[2]. (وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ).

(الواحد الأحد) الذى لا شريك له فى إلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وملكوته وجبروته وعظمته وكبريائه وجلاله، لا ضِدَّ له ولا نِدَّ ولا شبيه ولا كُفؤ ولا عديل.

(الصمد) الذى يَصمُد إليه جميع الخلائق فى حوائجهم ومسائلهم فهو المقصود إليه فى الرغائب المُستغاث به عند المصائب، فإليه منتهى الطلبات،

---

(١) سورة التوبة: الآية: (٣٠).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٩٥).

ومنه يُسأل قضاء الحاجات، وهو الذى لا تعتريه الآفات، وهو حسبُنا ونِعم الوكيل.

(الَّذِى لَمْ أَلِدْ) أَىْ لَمْ أَكُنْ وَالِدًا لِأَحَدٍ؛ (وَلَمْ أُولَدْ) أَىْ: وَلَمْ أَكُنْ وَلَدًا لِأَحَدٍ... لِأَنَّهُ أَوَّلُ بِلَا ابْتِدَاءٍ كَمَا أَنَّهُ آخِرٌ بِلَا انْتِهَاءٍ.

فهو عَزَّوَجَلَّ من كماله أنه (لم يلد ولم يُولد) وذلك لكمال غِناه.

«ولم يكن لى كفؤًا أحد» أى ليس له مثيل فى أسمائه ولا فى صفاته ولا فى أفعاله (جلَّ وعلا).

۞ معنى الحديث: أن الله تعالى يقول فى الحديث القدسى: يتجرأ علىَّ هذا الإنسان بما لا أستحقه منه، وقد خلقته ورزقته، وأنعمت عليه بشتَّى النعم، فلم يقابل ذلك بالإيمان بالله وتوحيده، وتقديسه وتنزيهه عما لا يليق به، وإنما قابل هذه النعم العظيمة بالشرك والكفر والنُّكران...فبعض هؤلاء البشر شتمنى، والبعض منهم كذبنى. فأما الذين شتموا الله عَزَّوَجَلَّ فقد نسب إليه اليهود والنصارى وبعض المشركين الولد، وهو لا يليق به عَزَّوَجَلَّ حيث إنه يقتضى المجانسة والمشابهة، وهو عَزَّوَجَلَّ الواحد الأحد الذى لم يلد، ولم يُولد، ولم يكن له كفوًا أحد...وأما الذين كذبوا الله فقد أنكروا البعث، واستبعدوه مع علمهم بأن الله هو الذى خلقهم على غير مثالٍ سابق، فكيف يخلقهم ابتداءً، ثم يعجز عن إعادتهم مرة أخرى، مع أن الإعادة أسهل كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

۞ فقه الحديث: دَلَّ هذا الحديث على ما يأتى:

أولاً: أن نسبة الولد إلى الله تعالى شتيمة وإنكار لوحدانيته، وتشبيهٌ له بغيره، وهو شركٌ به، لأن الولد يشبه أباه، وهو عَزَّوَجَلَّ واحدٌ أحدٌ فى ذاته وصفاته وأفعاله، فكيف يكون له ولد يشبهه.

ثانيًا: أن إنكار البعث تكذيب لله ولوعده.

ثالثـًا: أنَّ الله هو الذى بدأ الخلق، وهو الذى يعيده، وفى ذلك إثبات لحدوث العالم وإعادة الإنسان بعد موته، وأن الله هو الذى يعيده يوم القيامة لمجازاته على أعماله.



(١٥٢) النفس تكره الموت

❁ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلنَّفَسِ: اخْرُجِى، قَالَتْ: لا أَخْرُجُ إِلَّا كَارِهَةً. قَالَ: اخرجى وإن كَرِهتِ»[١].

❁ هذا الحديث يُبين كراهية النفس للموت وشدة تعلُّقها بالحياة، وأنها مُرغَمة عليه وإن كرهته... قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

ولكن ما بال ما ورد فى الصحيحين وغيرهما من أن الله يحب لقاء عبده إذا أحب عبده لقاءه، ويكره لقاء عبده إذا كره عبده لقاءه.

والجواب فيما رواه الشيخان من حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ» فَقُلْتُ: يَا نَبِىَّ اللهِ أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ، فَقَالَ: «لَيْسَ كَذَلِكِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحمَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ، أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»[٢].

والمعنى: أنَّ النفس البشرية تكره الموت الذى هو مُفارقة الحياة، والانقطاع عما تحب، ولكنَّها حين النزع تتكشف لها حقائق الأمور...فإذا كانت النفس بَرة مؤمنة، رأت مقعدها من الجنة، وما أعدَّ الله لها من نعيمٍ دائم، وثوابٍ كريم، فحينذاك تفرح بلقاء الله، وتحب الموت، فيُحب الله لقاءها.

وإذا كانت النفس فاجرة خبيثة، رأت مقعدها من النار، وما أعدَّ الله لها من عذابٍ بئيسٍ، وعقابٍ شديدٍ، فحينذاك تكره لقاء الله، وترهب الموت، فيكره الله لقاءها.

---

(١) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٢٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٠٧) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٦٨٤) كتاب الذكر والدعاء.

(١٥٣) إثم القاتل بغير حق

۞ قال رسول الله ﷺ: «يجىء الرَّجلُ آخذًا بيد الرجل فيقول: يا رب! هذا قَتَلَنِى فَيَقُولُ الله لَهُ: لِمَ قتلْتَهُ؟ فيَقُولُ: قَتلْتُهُ لِتكُونَ الْعِزَّةُ لَكَ.. فَيقُولُ: فَإِنَّهَا لِى..وَيَجِىءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: أَىْ رب! إن هذا قَتَلَنِى فَيَقُولُ الله: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: لِتكُونَ الْعِزَّةُ لِفُلاَنٍ! فَيَقُولُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِفُلاَنٍ فَيَبُوءُ بإثمه»[١].

۞ لا يشك عاقل فى أنَّ القتل قد انتشر فى هذا الزمان بصورة لا تخطر على قلب بشر... فلا تكاد تمر ساعة إلا وتُطالعنا النشرات الإخبارية والصحف المحلية والعالمية بأخبار العشرات والمئات من المقتولين... ولا أكون مبالغًا إذا قلت أنه لم يصبح هناك أى حُرمة للدماء (وبخاصة الدماء المسلمة).

۞ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْهَرجُ» قَالُوا: وَمَا الْهَرجُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الْقَتْلُ الْقَتْلُ»[٢].

۞ وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أَيَّامُ الهَرجِ، يَزُولُ فِيهَا العِلْمُ وَيَظْهَرُ فِيهَا الجَهْلُ» قَالَ أَبُو مُوسَى: وَالهَرجُ: القَتْلُ بِلِسَانِ الحَبَشَةِ[٣].

۞ وَعَنْ أَبِى مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِىِّ ﷺ أنه قَالَ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ الْهَرجُ». فَقَالُوا: وَمَا الْهَرجُ؟ قَالَ: «الْقَتْلُ... إِنَّهُ لَيْسَ بِقَتْلِكُمُ الْمُشْرِكِينَ، وَلَكِنْ قَتْلُ بَعضِكُمْ بَعضًا». قَالُوا: وَمَعَنَا عُقُولُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «إِنَّهُ لَيُنْزَعُ عُقُولُ أَكْثَرِ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَيُخَلَّفُ لَهُ هَبَاءٌ مِنَ النَّاسِ يَحسَبُ أَكْثَرُهُمْ أَنَّهُ عَلَى شَيْءٍ وَلَيْسُوا عَلَى

---

(١) صحيح: رواه النسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٢٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٨٨) كتاب الفتن.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٧٠٦٦) كتاب الفتن.

شَىْءٍ»[1].

۞ وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا، حَتَّى يَأْتِىَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يَدرِى الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ، وَلَا الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ»** فَقِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟ قَالَ: **«الْهَرجُ... الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِى النَّارِ»**[2].

وما أخبر به ﷺ فى هذه الأحاديث قد وقع بعضٌ منه، فحدث القتال بين المسلمين فى عهد الصحابة رضي الله عنهم بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، ثم صارت الحروب تَكثُر فى بعض الأماكن دون بعض، وفى بعض الأزمان دون بعض، ودون أن تعرف أسباب أكثر تلك الحروب.

وإنَّ ما حصل فى القرون الأخيرة من الحروب المُدمِّرة بين الأمم والتى ذهب ضحيَّتها الألوف، وانتشرت الفتن بين الناس بسبب ذلك، حتى صار الواحد يقتل الآخر، ولا يعرف الباعث له على ذلك.

وكذلك؛ فإن انتشار الأسلحة الفتَّاكة التى تُدمِّر الشعوب والأمم له دورٌ كبيرٌ فى كثرة القتل، حتى صار الإنسان لا قيمة له... يُذْبَحُ كما تُذْبَحُ الشاة، وذلك بسبب الانحلال، وطيش العقول... فعند وقوع الفتن يُقتل الرجل، ولا يدرى لماذا قُتِلَ وفيمَ قُتِل، بل إننا نرى بعض الناس يقتل غيره لأسبابٍ تافهة، وذلك عند اضطراب الناس... ويَصدُق على ذلك قوله ﷺ: **«إنَّه ليُنزَع عقول أكثر أهل ذلك الزمان»**، نسأل الله العافية، ونعوذ به من الفتن؛ ما ظهر منها وما بطن.

وقد جاء أن هذه الأمة أمةٌ مرحومةٌ، ليس عليها عذابٌ فى الآخرة، وأنَّ الله تعالى جعل عذابها فى الدُّنيا الفتن والزلازل والقتل.

ففى الحديث عَن صدقة بن المُثنَّى قال: حدثنا رباح بن الحارث عن

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٢٠٤٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٠٨) كتاب الفتن.

أبى بُردة قال: بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِى السُّوقِ فِى إِمَارَةِ زِيَادٍ إِذْ ضَرَبْتُ بِإِحدَى يَدَىَّ عَلَى الْأُخْرَى تَعَجُّبًا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ -قَد كَانَتْ لِوَالِدِهِ صُحبَةٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ-: مِمَّا تَعجَبُ يَا أَبَا بُردَةَ؟ قُلْتُ: أَعجَبُ مِنْ قَوْمٍ دِينُهُمْ وَاحِدٌ وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ وَدَعوَتُهُمْ وَاحِدَةٌ وَحَجُّهُمْ وَاحِدٌ وَغَزْوُهُمْ وَاحِدٌ يَسْتَحِلُّ بَعضُهُمْ قَتْلَ بَعضٍ، قَالَ: فَلَا تَعجَبْ فَإِنِّى سَمِعتُ وَالِدِى، أَخْبَرَنِى أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أُمَّتِى أُمَّةٌ مَرحُومَةٌ لَيْسَ عَلَيْهَا فِى الآخِرَةِ حِسَابٌ وَلا عَذَابٌ، إِنَّمَا عَذَابُهَا فِى الْقَتْلِ وَالزَّلَازِلِ وَالْفِتَنِ**».

وفى رواية عن أبى موسى: «**إِنَّ أُمَّتِى أُمَّةٌ مَرحُومَةٌ لَيْسَ عَلَيْهَا فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ. إِنَّمَا عَذَابُهَا فِى الدُّنْيَا: الْقَتْلُ والْبَلَابِلُ وَالزَّلَازِلُ**»[1][2].

۞ وفى هذا الحديث الذى بين أيدينا يخبر النبى ﷺ عن ذلك المشهد العجيب.. وهو أنه فى يوم القيامة يجىء الرجل الذى قُتِلَ فى الدنيا ظُلمًا وعدوانًا آخذًا بيد القاتل الظالم ويقول: يا رب هذا قتلنى.. ولا يستطيع القاتل أن يُنكر ذلك أبدًا لأنه واقفٌ بين يدى الله عَزَّوَجَلَّ.. ولو أنكر لأنطق الله جوارحه لتشهد عليه.

فيسأل الله عَزَّوَجَلَّ ذلك الرجل القاتل ويقول له: لِمَ قتلته؟

فيقول القاتل: قتلته لتكون العزَّة لك.

فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: فإنَّها لى... أى أن العزة لله سواء قتلت أخاك أو لم تقتله، فلماذا قتلته ظُلمًا وعُدوانًا.

۞ ثُمَّ يخبر النبى ﷺ أنه يجىء رجلٌ آخر قد قُتِلَ فى الدنيا، وقد أخذ بيد مَن

---

(١) صحيح: رواه أبو داود والطبرانى والحاكم، وصححه العلامة الألبانى فى صحيح الجامع (١٣٩٦).

(٢) بتصرف من أشراط الساعة.

قتله، ويقول: يا رب إن هذا قتلنى.

ولا يستطيع القاتل أيضًا أن يُنكر ذلك أبدًا فيسأله الله عَزَّوَجَلَّ ويقول له: لِمَ قتلته؟

فيقول القاتل: قتلته لتكون العزَّة لفُلان - أى من البشر-.

فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: إنها ليست لفلانٍ... أى أن العزَّة لله عَزَّوَجَلَّ وليست لفلان... فيَبوء القاتل بإثمه لأنه قتل أخاه ظلمًا بغير حَقٍّ.. ولأنه فسد اعتقاده عندما قتله لتكون العزَّة لفلانٍ من البشر.. ألا فلنَحذر من الوقوع فى الدماء التى حرمها الله عَزَّوَجَلَّ.



(١٥٤) أُعطيهم من حلمي وعلمي

۞ عَنْ أَبِي حَلْبَسٍ يَزِيدَ بْنِ مَيْسَرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّ الدَّرْدَاءِ، تَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ يَقُولُ: - مَا سَمِعْتُهُ يُكَنِّيهِ قَبْلَهَا، وَلَا بَعْدَهَا - يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: يَا عِيسَى إِنِّي بَاعِثٌ مِنْ بَعْدِكَ أُمَّةً إِنْ أَصَابَهُمْ مَا يُحِبُّونَ، حَمِدُوا اللهَ وَشَكَرُوا، وَإِنْ أَصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ، احتَسَبُوا، وَصَبَرُوا، وَلَا حِلْمَ، وَلَا عِلْمَ ... قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ هَذَا لَهُمْ وَلَا حِلْمَ، وَلَا عِلْمَ؟! قَالَ: أُعْطِيهِمْ مِنْ حِلْمِي، وَعِلْمِي**»[(١)].

۞ (عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ قَالَتْ: سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: يَا عِيسَى، إِنِّي بَاعِثٌ) أَيْ: خَالِقٌ وَمُظْهِرٌ. (مِنْ بَعْدِكَ أُمَّةً) جَمَاعَةً عَظِيمَةً، أَوْ أُمَّةً لِنَبِيٍّ... وَالْمُرَادُ بِهِمْ صُلَحَاءُ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ. (إِذَا أَصَابَهُمْ مَا يُحِبُّونَ حَمِدُوا اللهَ) أَيْ: عَلَيْهِ. (وَإِنْ أَصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ احْتَسَبُوا وَصَبَرُوا) أَيْ: طَلَبُوا الثَّوَابَ مِنَ اللهِ. (وَصَبَرُوا) أَيْ: عَلَى حُكْمِ اللهِ وَقَضَائِهِ. (وَلَا حِلْمَ) أَيْ: وَالْحَالُ أَنَّهُمْ لَا حِلْمَ لَهُمْ. (وَلَا عِلْمَ) الذى يعلمون من خلاله كيفَ يَشكُرونَ اللهَ فى السَّرَّاءِ وكيفَ يصبرون على قضائه فى الضَّرَّاء. (فَقَالَ) أَيْ: عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ (يَا رَبِّ، كَيْفَ يَكُونُ هَذَا) أَيْ: مَا ذُكِرَ مِنَ الْكَمَالِ لَهُمْ. (وَلَا حِلْمَ وَلَا عِلْمَ؟ !) لِأَنَّ الْحِلْمَ هِيَ الصِّفَةُ الْمُعْتَدِلَةُ التى تَمْنَعُ الْإِنْسَانَ عَنِ الْعَجَلَةِ، وَتَبْعَثُهُ عَلَى التَّأَمُّلِ فِي الْقَضَايَا وَالْأَحْكَامِ، حَتَّى يَقُومَ بِمُقْتَضَى الْمَقَامِ، فَيَشْكُرَ عِنْدَ الْإِنْعَامِ، وَلَا يَبْطُرَ عَنِ الْإِنْعَامِ، وَيَصْبِرَ عَلَى الْمِحنَةِ، وَلَا يَجْزَعَ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ....وَالْعَقْلُ أو العلم يَمْنَعُهُ وَيَعْقِلُهُ عَمَّا لَا يَنْبَغِي، فَيَكُونُ مَانِعًا لَهُ مِنَ الْكُفْرَانِ، وَحَامِلًا وَبَاعِثًا لَهُ عَلَى حَمْدِ الْمَلِكِ الْمَنَّانِ سُبحانه وتعالى، وَبِهِ يَعْلَمُ

---

(١) حسن: رواه أحمد بإسنادٍ حسن.

الْإِنْسَانُ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِ اللهِ، وَالْخَيْرَ فِيمَا اخْتَارَهُ اللهُ، فَيَصْبِرُ عَلَى مَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ...وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حِلْمٌ وَلَا عَقْلٌ فَأَمْرُهُمْ غَرِيبٌ، وَحَالُهُمْ عَجِيبٌ. (قَالَ: أُعْطِيهِمْ مِنْ حِلْمِي وَعِلْمِي) أَيْ: عِنْدَ الْمِنْحَةِ وَالْمِحْنَةِ، لِيَشْكُرُوا حَالَ السَّرَّاءِ، وَيَصْبِرُوا حَالَ الضَّرَّاءِ عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ، وَيَكُونُوا جَامِعِينَ لِمَظْهَرِيَّةِ الْجَمَالِ وَالْجَلَالِ.

قَالَ الطِّيبِيُّ: قَوْلُهُ: وَلَا حِلْمَ وَلَا عَقْلَ. قِيلَ: هُوَ مُؤَكِّدٌ لِمَفْهُومِ احتَسَبُوا وَصَبَرُوا؛ لِأَنَّ الِاحتِسَابَ أَنْ يَحمِلَهُ عَلَى الْعَمَلِ وَالْإِخْلَاصِ، وَابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللهِ لَا الْحِلْمِ وَالْعَقْلِ، وَحِينَئِذٍ يَتَوَجَّهُ السُّؤَالُ أَيْ: كَيْفَ يَصْبِرُ وَيَحتَسِبُ مَنْ لَا عَقْلَ وَلَا حِلْمَ لَهُ؟! فَأَجَابَ: بِأَنَّهُ إِنْ فَنِيَ حِلْمُهُ وَعَقْلُهُ يَتَحَلَّمُ وَيَتَعَقَّلُ بِحِلْمِ اللهِ وَعِلْمِهِ، وَفِي وَضْعِ (عِلْمِي) مَوْضِعَ الْعَقْلِ إِشَارَةٌ إِلَى عَدَمِ جَوَازِ نِسْبَةِ الْعَقْلِ إِلَيْهِ - تَعَالَى اللهُ عَنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ عُلُوًّا كَبِيرًا - وَهُوَ الْقُوَّةُ الْمُتَهَيِّئَةُ لِقَبُولِ الْعِلْمِ اهـ.[1].

❊ ❊ ❊

(١) مرقاة المفاتيح (٣/ ١٢٥٤) بتصرف.



(١٥٥) واحدة لى.. وواحدة لك.. وواحدة بينى وبينك

۞ عَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ آدمَ قَالَ: يَا آدَمُ وَاحِدَةٌ لِى وَوَاحِدَةٌ لَكَ وَوَاحِدَةٌ بَيْنِى وَبَيْنِكَ، فَأَمَّا الَّتِى لِى فَتَعْبُدَنِى وَلَا تُشْرِكْ بِى شَيْئًا.. وَأَمَّا الَّتِى لَكَ فَمَا عَمِلْتَ مِنْ شَىْءٍ جَزَيْتُكَ بِهِ، وَإِنْ أَغْفِرْ فَأَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ... وَأَمَّا الَّتِى بَيْنِى وَبَيْنِكَ: فَمِنْكَ الْمَسْأَلَةُ وَالدُّعَاءُ وَعَلَىَّ الْإِجَابَةُ وَالْعَطَاءُ(١).

۞ (قال الله تعالى: يا آدم أو يا ابن آدم) الخطاب فى هذه الأحاديث للجنس أو يكون الخطاب لآدم عليه السلام .... وذريته تبعٌ له، (واحدة لى) عليك. (وواحدة لك وواحدة بينى وبينك) منك سببها ومنى مُسببها. (فأما التى لى) عليك واجبة. (فتعبدنى ولا تشرك بى شيئًا) بأن تَخُصنى بالعبادة وتُخلصها لى وتعيش على الإيمان والتوحيد. (وأما التى لك) علىَّ فضلاً منى وعِدَة صادقة لا أخلفها. (فما عملت من عمل) أى عمل خير وبِرٍّ كما يرشد إليه السياق. (جزيتك به) ويحتمل العموم كما يرشد إليه قوله. (فإن أغفر فأنا الغفور الرحيم) صفتى تقتضى ذلك.... وفى الاقتصار على هذا الطرف وإهمالِ ما يقابله دليل على سعة عفوه ورحمته. (وأما التى بينى وبينك فعليك الدعاء والمسألة) أى عليك أن تُكثر من الدعاء ولا تسأل غير الله وعليك أن تُحسن الظنّ بالله عز وجل (وعلىَّ الإجابة والعطاء) كذلك ويحتمل أن الدعاء أُريد به استدفاع المكروه، والمسألة استنزال المحبوب والاستجابة فى مقابلة الأول والعطاء فى مقابلة الثانى.

فإن قلت: العمل والجزاء بين العبد وربه أيضًا كالدعاء والإجابة..وهل الدعاء إلا من جملة الأعمال والإجابة من الجزاء.

---

(١) رواه أحمد فى كتاب الزهد بإسنادٍ صحيح موقوفًا على سلمان، ولكن مثل هذا لا يُقال بالرأى فهو فى حكم المرفوع.

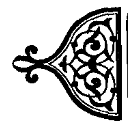
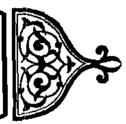
قلت: هذا دليل على أنه أُريد بالعمل أعم من الخير والشر كما أشرنا إليه فعطف الدعاء عطف الخاص على العام[١].

فاحرص على أن تعبد الله عَزَّوَجَلَّ وتُوحده وأن تتجنب الشرك بكل أنواعه لتكون بذلك قد أدَّيت حق الله عَزَّوَجَلَّ.. واعلم أنك لا تفعل أى طاعة أو تقوم بأى خير إلا وتجد ذلك عند الله أعظم ما يكون.. فقد قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾[٢] .... وأكثِر من الدعاء ولا تسأل غير الله، «وإذا سألت فاسأل الله» وتحلَّى بحُسن الظن بالله «**لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يُحسن الظن بالله**» وستجد الإجابة والعطاء الذى لا يخطر على قلب بشر من رب السموات والأرض (جلَّ وعلا).

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير (٨/ ٣٢) بتصرف كبير.

(٢) سورة المزمل: الآية: (٢٠).

(١٥٦) فليبلِّغ الشاهدُ منكم الغائبَ

۞ عَنْ بَهْزِ بن حكيم عن أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِىَّ ﷺ حِينَ أَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: وَاللهِ مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى حَلَفْتُ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ أُولَاءِ أَنْ لَا آتِيَكَ وَلَا آتِىَ دِينَكَ، - وَجَمَعَ بَهْزٌ بَيْنَ كَفَّيْهِ- وَقَدْ جِئْتُ امْرَأً لَا أَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا مَا عَلَّمَنِى اللهُ وَرَسُولُهُ ﷺ وَإِنِّى أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللهِ: بِمَ بَعَثَكَ اللهُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: «**بِالإِسْلَامِ**». قُلْتُ: وَمَا آيَاتُ الإِسْلَامِ؟ قَالَ: «**أَنْ تَقُولَ: أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَتَخَلَّيْتُ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِىَ الزَّكَاةَ. كُلُّ مُسْلِمٍ عَلَى مُسْلِمٍ مُحَرَّمٌ: أَخَوَانِ نَصِيرَانِ لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ مُشْرِكٍ أَشْرَكَ بَعْدَمَا أَسْلَمَ عَمَلًا، وَتُفَارِقَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ... مَا لِى أُمْسِكُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ؟ أَلَا إِنَّ رَبِّى دَاعِيَّ وَإِنَّهُ سَائِلِى: «هَلْ بَلَّغْتَ عِبَادِى؟» وَإِنِّى قَائِلٌ: رَبِّ إِنِّى قَدْ بَلَّغْتُهُمْ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الْغَائِبَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ مَدْعُوُّونَ مُفَدَّمَةً أَفْوَاهُكُمْ بِالْفِدَامِ، ثُمَّ إِنَّ أَوَّلَ مَا يُبِينُ عَنْ أَحَدِكُمْ لَفَخِذُهُ وَكَفُّهُ**». قُلْتُ يَا نَبِىَّ اللهِ: هَذَا دِينُنَا؟ قَالَ: «**هَذَا دِينُكُمْ وَأَيْنَمَا تُحسِنْ يَكْفِكَ**»[1].

۞ لا بد أن نعلم أولًا أن العبادة لا تكون إلا بكمال الحب لله سبحانه، وبكمال الخوف والذل بين يديه، وبكمال الرجاء فيما عنده (سبحانه وتعالى)، كما فى المسند عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده: أنه قال للنبى ﷺ: والله يا

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائى فى الكبرى، والحاكم، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٢٧١٣).

(تخليت): تخلى عن الأمر، ومنه أى تركه...والمعنى تخليت عن كل ما سوى الله وأسلمت وجهك لله وحده.

(حُجزكم): جمع حُجزة وهو موضع شد الإزار من الوسط، وموضع التكة من السراويل.

(مُفَدَّمَةٌ): أى مُغطاة أو مشدود عليها بالفدام.

(والفِدَام): ما يُشَدُّ على فم الإبريق أو الكوز من خِرقة لتصفية الشراب.

رسول الله! ما أتيتك إلا بعدما حلفت عدد أصابعى هذه ألا آتيك.

فلقد كان الكفرة يُحذرون الناس من الذهاب للنبى ﷺ، فكان أحدهم يمنع نفسه من الذهاب إلى النبى ﷺ .. بل ويحلف على ذلك عدة أيمان.

فيحكى بهز هنا أنه عَدَّ على أصابع يده أنه لن يذهب للنبى ﷺ ومع ذلك ذهب، والله عَزَّوَجَلَّ يهدى مَن يشاء.

يقول: أتيت النبى ﷺ حين أتيته فقلت: والله ما أتيتك حتى حلفت أكثر من عدد أولاء ألا آتيك ولا آتى دينك - وجمع بهز بين كفيه -يعنى حلف بعدد أصابعه العشرة أنه لن يدخل فى هذا الدين- قال: وقد جئت أمراً لا أعقل شيئاً إلا ما علمنى الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ يعنى: مَن يهدى الله فلا مُضل له... فقد أراد الله به الهداية مع أنه حلف هذه الأيمان، ومع ذلك ذهب إلى النبى ﷺ فاهتدى ودخل فى هذا الدين.

ثم قال: إنى سائلك بوجه الله -يعنى: أسألك وأُغلظ عليك فى اليمين- بِمَ بعثك الله إلينا؟ فقال النبى ﷺ: «**بالإسلام**».

قال: قلت: وما آيات الإسلام؟، أى: ما هى العلامات والآيات التى فيها الإسلام.

قال النبى ﷺ: «**أن تقول: أسلمت وجهى لله وتخلَّيتُ**».

وفى الرواية الأخرى: «**أن تُسلم قلبك وأن تُوجه وجهك إلى الله**».

الإسلام: أن تُسلم قلبك لخالقك سبحانه تعالى، وتُوجه وجهك وتستقيم على هذا الدين.

فلا تتوجه ولا تلتفت عنه إلى غيره سبحانه.

فقول النبى ﷺ: «**أن تقول: أسلمت وجهى لله وتخليت**»... هى كقوله تعالى:

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾[1].

فالإسلام تخلية من الشرك وتحلية بالإيمان والتوحيد

وهذا هو معنى كلمة لا إله إلا الله، أى: لا معبود بحقٍّ إلا الله... أى: أسلمت لله، ووجهت وجهى لله... آمنت بالله، وتخليت عن غيره من الآلهة، أى: تركت جميع الآلهة والأنداد من دون الله سبحانه وتعالى.

فتقول: لا إله إلا الله يعنى: تركت جميع الآلهة فلا أعبد إلا إلهـًا واحدًا.

قال النبى ﷺ: «**أن تقول: أسلمت وجهى لله وتخليت، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة... كل مسلم على مسلم مُحرَّم**».

يُعلمه النبى ﷺ هذا الدين العظيم، وأن المسلم أخٌ للمسلم لا يخذله، ولا يتركه، «**المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضـًا**».

ثم فقال ﷺ بعدما ذكر التوحيد والصلاة، والزكاة: (كل مسلم على مسلم محرم، أخوان نصيران، لا يقبل الله من مشرك أشرك بعدما أسلم عملاً).

فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۞ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾[2].

ثم قال ﷺ: «**وتفارق المشركين إلى المسلمين**».

يعنى: إذا أسلمت فاترك ديار الشرك وائتِ دار الإسلام وعِشْ مع المسلمين لتعبد الله تعالى بينهم، ولا تُكثِّر سَواد المشركين.

ثم قال النبى ﷺ فى الحديث نفسه: «**ما لى أمسك بحُجزكم عن النار؟**» يعنى: العجيب من أمرهم وأمره ﷺ أنه خائفٌ عليهم ويمسك بحُجزهم، والحُجزة

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٥٦).

(٢) سورة الزمر: الآيتان: (٦٥-٦٦).

هى موضع ربط الحزام -يعنى: كأنه أمسكهم من المكان الذى لا يفلتون منه- ومع ذلك يتفلتون بشركهم وبمعاصيهم فيقعون فى النار فيُعذَّبون... يعنى: أنا أدلكم على الخير، وأُحذركم من الشر، وآخذ بحُجزكم حتى أبعدكم عن النار، ومع ذلك أنتم تُصرون على الوقوع فيها.

ثم قال ﷺ: (ألا إن ربى عَزَّوَجَلَّ داعىَّ وإنه سائلى) أى: أن الله داعى النبى ﷺ يوم القيامة وسائله: «**هل بلَّغت عبادى؟**» أى أنه عَزَّوَجَلَّ سيسأل النبى ﷺ هل بلغ الناس ما أرسله الله به أم لا... وهو أعلم سبحانه وتعالى.

وأخبر النبى ﷺ أنه سيقول لله عَزَّوَجَلَّ: ربِّ إنِّى قد بلَّغتهم.. وذلك حتى يُلقى الله الحُجة على الناس فلا يستطيع أحد أن يُنكر أن رسالة الإسلام قد وصلت إليه.

ثم قال ﷺ: «**فليُبلغ الشاهدُ منكم الغائبَ، ثم إنكم مَدعُوُّون مُفَدَّمةً أفواهُكم بالفِدام**».

ومعنى: إنكم مَدعُوُّون أى: بين يدى الله عَزَّوَجَلَّ ليسألكم.

والفِدام: الرباط الذى يُوضَع على فم السِّقاء أو الإناء حتى لا ينسكب ما بداخله أو لتصفية الشراب الذى فيه.

و(مفدمة أفواهكم) يعنى: مغلق على (أفواهكم) يوم القيامة حتى تنطق جوارحكم... أى أنهم يُمنعون من الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم وتشهد عليهم.

قال: (ثم إن أول ما يُبين عن أحدكم لَفَخِذُه وكَفُّه)، أى: أن أول ما ينطق فخذ الإنسان وكفه...الفخذ يُنبئ ويخبر أنه عمل كذا وكذا، ووقع فى الحرام بكذا وكذا...وكَفُّ الإنسان أخذ مالاً حراماً، وسفك دماً حراماً، وتعاطى حراماً بكذا وكذا، فينطق هؤلاء ولسانه لا ينطق.

قال: قلت: (يا نبى الله! هذا ديننا؟ قال: هـذا دينكم، وأينمـا تُحسن يكفك) أى: فى أى مكانٍ وكيفما أحسنت يكفيك إحسانك عند الله عَزَّوَجَلَّ[1] .

(١) بتصرف من كتاب (فتح المجيد).



(١٥٧) سيئات العبد وحسناته

۞ عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ عن الروح الأمين -جبريل عليه السلام- قال: قال الرب تبارك وتعالى: «**يُؤتَى بسيئات العبد وحسناته فيُقتصُّ أو يقضى فإن بقيت له حسنةٌ وُسِّع له فى الجنة**»(١).

۞ ففى هذا الحديث يُخبر الحق (جلَّ وعلا) أنه يُؤتَى يوم القيامة بسيئات العبد وحسناته.. وقبل أن تُوزَن يُقتَص من هذا العبد لكل مَن ظلمهم حتى يأخذ كل واحدٍ ممن ظلمهم حقه كاملًا من حسنات ذلك العبد...فإن بقيت له حسنة دخل الجنة ووسع الله عليه فيها من صنوف النعم التى لا تخطر على قلب بشر... وهذا يجعلنا نحذر من ظلم العباد حتى لا تضيع حسناتنا يوم القيامة وتذهب للمظلومين لأنه إذا كان يوم القيامة كانت ثروة الإنسان ورأس ماله حسناته، فإذا كانت عليه مظالم للعباد فإنهم يأخذون من حسناته بقدر ما ظلمهم، فإن لم يكن له حسنات أو فنيت حسناته، فإنه يُؤخَذ من سيئاتهم فتُطرح فوق ظهره.

ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَجُعِلَتْ عَلَيْهِ**»(٢).

وهذا الذى يأخذ الناس حسناته، ثم يقذفون فوق ظهره بسيئاتهم هو المفلس، كما سمَّاه الرسول ﷺ... ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**». قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ.

---

(١) رواه البزار.. وإسناده حسنٌ لغيره.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٤٤٩) كتاب المظالم والغصب.

فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا. وَأَكَلَ مَالَ هَذَا. وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[1].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨١) كتاب البر والصلة والآداب.



(١٥٨) علِّمنى كلمات أقولهن فى صلاتى

۞ عَـنْ أَنَـسِ بْـنِ مَالِـكٍ ﵁، أَنَّ أُمَّ سُـلَيْمٍ، غَـدَتْ عَلَـى رَسُـولِ الله ﷺ، فَقَالَتْ: عَلِّمْنِى كَلِمَاتٍ أَقُولهُنَّ فِى صَلَاتِى، فَقَالَ: «**كَبِّرِى اللهَ عَشْرًا، وَسَبِّحِى اللهَ عَشْرًا، وَاحمَدِيهِ عَشْرًا، ثُمَّ سَلِى مَا شِئْتِ**»، يَقُولُ: نَعَمْ نَعَمْ[1].

۞ ففى هذا الحديث يُخبر أنس بن مالك ﵁ خادم رسول الله ﷺ أن أمه (أُمّ سُليم) ذهبت إلى النبى ﷺ لتقتبس من علمه وهديه فقالت له: يا رسول الله ﷺ عَلِّمْنِى كَلِمَاتٍ أَقُولهُنَّ فِى صَلَاتِى... أى دُبر الصلوات المكتوبات.. فأرشدها النبى ﷺ إلى أن تُكبر الله عشرًا وتُسبحه عشرًا وتحمده عشرًا.. ثم أخبرها أنها إذا قالت هذا الذكر ثم سألت الله ما شاءت من خير الدنيا أو الآخرة فإن الله ﷻ يستجيب لها ويقول: نعم نعم.

قَوْلُهُ: (كَبِّرِى اللهَ عَشْرًا وَسَبِّحِى اللهَ عَشْرًا وَاحْمَدِيهِ عَشْرًا).

قَالَ الْعِرَاقِىُّ: إِيرَادُ هَذَا الْحَدِيثِ فِى بَابِ صَلَاةِ التَّسْبِيحِ فِيهِ نَظَرٌ، فَإِنَّ الْمَعْرُوفَ أَنَّهُ وَرَدَ فِى التَّسْبِيحِ عَقِبَ الصَّلَوَاتِ لَا فِى صَلَاةِ التَّسْبِيحِ، وَذَلِكَ مُبَيَّنٌ فِى عِدَّةِ طُرُقٍ مِنْهَا فِى مُسْنَدِ أَبِى يَعْلَى وَالدُّعَاءِ لِلطَّبَرَانِىِّ فَقَالَ: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ إِذَا صَلَّيْتِ الْمَكْتُوبَةَ فَقُولِى: سُبْحَانَ اللهِ عَشْرًا واحمدى الله عشرًا، وكَبِّرى الله عشرًا...إِلَى آخِرِهِ.

وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمَدَنِىُّ: أَجَابَ عَنْهُ بَعْضُ الْفُضَلَاءِ بِأَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ عَلَّمَهَا النَّبِىُّ ﷺ أَنْ تَقُولَ فِى الصَّلَاةِ وَأَنْ تَقُولَ بَعْدَهَا، وَهُوَ الَّذِى فَهِمَهُ الْمُصَنِّفُ وَبِهِ يَحصُلُ التَّوْفِيقُ مَعَ بَقَاءِ كُلِّ رِوَايَةٍ عَلَى ظَاهِرِهَا.

قَالَ: وَيُؤَيِّدُ أَنَّهُ عَلَّمَهَا ﷺ أَنْ تَقُولَهَا فِى الصَّلَوَاتِ .

---

(١) صحيح لغيره: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (٦٧٩).

۞ قولها: «**أقولهنَّ فى صلاتى**» لَمْ يَذْهَبْ أَحَدٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ إِلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِى صَلَاةِ التَّسْبِيحِ... فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ بِحَذْفِ الْمُضَافِ أَىْ أَقُولُهُنَّ فِى دُبُرِ صَلَاتِى[١].

(١) تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذى.



(١٥٩) النهى عن الحلف بالله كاذبًا



۞ قال رسول الله ﷺ: «إنّ اللهَ أذِنَ لِي أنْ أُحَدِّثَ عَنْ دِيكٍ قَدْ مَرَقَتْ رجلاهُ الأَرْضَ وَعُنُقُهُ مثْنِيَةٌ تَحتَ العَرْشِ وهُوَ يَقُولُ: سُبْحانَكَ مَا أعظَمَكَ! فَيردُّ علَيْهِ: لَا يَعْلَمُ ذِلِكَ مَنْ حَلَفَ بِى كاذِبًا»[١].

۞ (إن الله أَذِنَ لى أن أحدث عن ديك) أى عن عظمة جثة ديك من خلق الله تعالى... يعنى عن مَلَكٍ فى صورة ديك وليس بديكٍ حقيقة كما يصرح به قوله فى رواية إن لله تعالى مَلَكاً فى السماء يقال له الديك... إلخ (قد مرقت رجلاه الأرض) أى وصلتا إليها وخرقتاها من جانبها الآخر... قال فى الصحاح: مرق السهم خرج من الجانب الآخر (وعنقه مثنية تحت العرش) أى عرش الإله (وهو يقول) أى هُجيراه وشعاره قوله: (سبحانك ما أعظمك) أى: أُنزهك يا رب عن كلِّ النقائص والعيوب (فيرد عليه) أى فيجيبه الله الذى خلقه بقوله (لا يعلم ذلك) أى لا يعلم عظمة سلطانى وسطوة انتقامى (مَن حلف بى كاذبًا) فإنه لو نظر إلى كمال الجلال وتأمل بعين بصيرته فى عِظَم المخلوقات الدالة على عِظَم الخالق لم يتجرأ على اسمه ويقسم به على خلاف الواقع... فالجرأة على اليمين الكاذبة إنما تنشأ عن كمال الجهل بالله تعالى ومن ثَمَّ كانت اليمين الغموس من أكبر الكبائر وإن كانت على قضيبٍ من أراك[٢].

۞ **الدروس المستفادة من الحديث:**

(١) تحريم الحلف بالله كاذبًا.

---

(١) صحيح: رواه أبو الشيخ فى العظمة، والطبرانى فى الأوسط، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧١٤).

(٢) فيض القدير (٢/ ٢٠٨) بتصرف.

(٢) أنه ينبغى على كل مَن حلف بالله أن يكون صادقًا.. وينبغى على مَن حُلف له بالله أن يكون راضيًا بذلك.

۞ عَنِ عَبدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا يَحلِفُ بِأَبِيهِ، فَقَالَ: «لَا تَحلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِاللهِ، فَلَيْسَ مِنَ اللهِ»[1].

وضرب رسول الله ﷺ فى هذا الباب مثلًا حسنًا بكلمة الله وعبده وروحه عيسى بن مريم (عليه الصلاة والسلام).... ففى حديث أَبِى هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِىِّ ﷺ، قَالَ: «رَأَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَجُلًا يَسْرِقُ، فَقَالَ لَهُ: أَسَرَقْتَ؟ قَالَ: كَلَّا وَاللهِ الَّذِى لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللهِ، وَكَذَّبْتُ عَيْنِى»[2].

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٢٤٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٤٤) كتاب أحاديث الأنبياء-ومسلم (٢٣٦٨) كتاب الفضائل.



(١٦٠) هذا هو المحروم

۞ عَنْ أَبِى سَعِيدٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ: إِنَّ عَبْدًا أَصحَحتُ لَهُ جِسْمَهُ، وَأَوْسَعْتُ عَلَيْهِ فِى مَعِيشَتِهِ تَمْضِى عَلَيْهِ خَمْسَةُ أَعْوَامٍ لا يَفِدُ إِلَىَّ لَمَحْرُومٌ**»[١].

۞ (لا يفد): أى لا يأتى إلى الحج.

وفى هذا الحديث عتاب من الله عز وجل لكل مَن رزقه الله نعمة الصحة والمال ثم لا يأتى للحج... فهذا هو المحروم.

۞ الوفد: هم القوم يجتمعون، ويَرِدون البلاد...واحدهم: وافد. وكذلك الذين يقصدون الأمراء لزيارةٍ، وغير ذلك...والمعنى -والله أعلم-: أن العبد إذا كان صحيح الجسم، كثير الرزق، فحقٌّ عليه أن يتذكر ذلك، ويعلم أن هذا من مولاه تَفَضُّل منه وإحسان، فيقوم ببعض حق الشكر له تبارك وتعالى بالزيارة إلى بيته - وهو الكعبة- ومَن لم يفعل ذلك، وتناءى، وكسل؛ فهو محروم من نعم الله عز وجل، وإحساناته، ولا يخفى أن مَن كان هذا حاله لحقيقٌ بالحرمان...والله أعلم[٢].

۞ ولكى تحرص على الحج فإليك بعض فضائل الحج لتعرف قدر تلك الفريضة.

قال ﷺ: « **مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ** »[٣].

وقال ﷺ: «**الحَجَّ يَهْدِمُ مَا قَبْلَهُ**»[٤].

---

(١) صحيح: رواه أبو يعلى، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٠٩).

(٢) الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية (١/ ٤٤) بتصرف.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٥٢١) كتاب الحج - ومسلم (١٣٥٠). كتاب الحج

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٢١) كتاب الإيمان.

وقال ﷺ: « العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الجَنَّةُ »(١).

وقال ﷺ: « تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ، وَالذَّهَبِ، وَالفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ المَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الجَنَّةُ»(٢).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: « ثَلاثَةٌ فِي ضَمانِ الله عز وجل: رَجُلٌ خَرَجَ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ مَساجِدِ الله عز وجل، وَرَجُلٌ خَرَجَ غازِيًا فِي سَبِيلِ الله تَعالى، ورَجُلٌ خَرَجَ حَاجًّا »(٣).

قال المناوى: «فى ضمان الله عز وجل» أى: فى حفظه وكلاءته ورعايته». اهـ(٤).

وقال ﷺ: « الحُجَّاجُ والعُمَّارُ وَفْدُ الله دَعاهُمْ فأجابُوهُ وَسَأَلُوهُ فأعطاهم »(٥).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال: « مَا تَرْفَعُ إِبِلُ الحَاجِّ رِجْلاً وَلاَ تَضَعُ يَداً إِلاَّ كَتَبَ الله تَعَالَى لَهُ بِهَا حَسَنَةً أَوْ مَحا عَنْهُ سَيِّئَةً أَوْ رَفَعَهُ بها درجة »(٦).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٧٧٣) كتاب الحج - ومسلم (١٣٤٩) كتاب الحج.

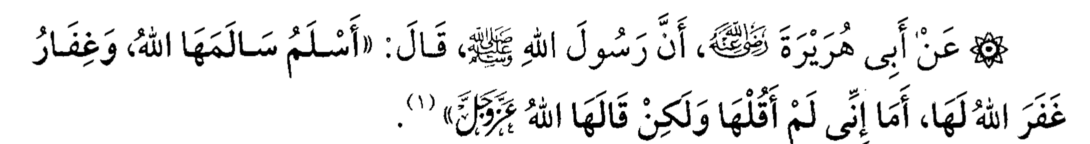
(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، والنسائى، وصححه الشيخ الألبانى فى الصحيحة (١٢٠٠)، وصحيح الجامع (٢٩٠١).

(٣) صحيح: رواه أبو نعيم فى الحلية، وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٥١).

(٤) فيض القدير للمناوى (٣/ ٣١٩).

(٥) حسن: رواه البزار عن جابر، وحسنه العلامة الألبانى فى صحيح الجامع (٣١٧٣).

(٦) حسن: أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان، وحسنه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع (٥٥٩٦).



(١٦١) أسلم سالَمها الله.. وغِفار غفر الله لها

۞ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِّوَلِيَّهُعَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «أَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ، وَغِفَارُ غَفَرَ اللهُ لَهَا، أَمَا إِنِّى لَمْ أَقُلْهَا وَلَكِنْ قَالَهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ»(١).

۞ قوله: «أسلم سالمها الله - الحديث - ما أنا قلته، ولكن قالها الله»: ظاهره أن هذا اللفظ أُوحى إليه، ويحتمل معناه دون لفظه(٢).

۞ قَوْله ﷺ: (أَسْلَم سَالَمَهَا الله) قَالَ الْعُلَمَاء: مِنْ الْمُسَالَمَة وَتَرْك الْحَرب. قِيلَ: هُوَ دُعَاء، وَقِيلَ: خَبَر. قَالَ الْقَاضِى فِى الْمَشَارِق: هُوَ مِنْ أَحسَن الْكَلَام، مَأْخُوذ مِنْ سَالَمْته إِذَا لَمْ تَرَ مِنْهُ مَكْرُوهًا، فَكَأَنَّهُ دَعَا لَهُمْ بِأَنْ يَصنَع الله بِهِمْ مَا يُوَافِقهُمْ، فَيَكُون سَالَمَهَا بِمَعْنَى سَلَّمَهَا(٣).

وإذا أردت أن تعرف تأثير الأسماء فى مُسمياتها فتأمل الحديث: عندما قَدِمَ (حَزَن) على رسول الله ﷺ وهو جَدُّ سعيد بن المسيب رَحِمَهُٱللَّهُ فغيَّر رسول الله ﷺ اسم حَزَن إلى سهل، فقال ذلك الرجل: لا أُغير اسمًا سمَّانيه أبى... فيقول سعيدٌ رَحِمَهُٱللَّهُ: «فما زالت تلك الحزونة فينا بعد» والحزونة هى الشدة والصلابة والعُسر قال: لا زالت تلك الشدة معروفة فى عائلتنا وأسرتنا لقاء عصيان ذلك الرجل تسمية رسول الله ﷺ له باسم سهلٍ وإصراره على اسم حزن مع ما يتضمنه ذلك الاسم من القُبح، فصارت تلك الغلظة فى طبعهم وأخلاقهم موجودة لقاء ذلك العصيان.

۞ ومَن تأمل السُّنة وجد معانى فى الأسماء مرتبطة بها، حتى كأن المعانى

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥١٦) كتاب فضائل الصحابة.

أسلم: اسم قبيلة - غِفار: اسم قبيلة.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٧/ ٥٥٧).

(٣) شرح النووى على مسلم.

مأخوذة من تلك الأسماء، وكأن الأسماء مشتقة من تلك المعاني ... فتأمل قوله ﷺ مثلاً: (أسلَم سالمها الله، وغِفار غفر الله لها -ولكن قبيلة عُصية قال:- عُصية عَصت الله ورسوله) فالأحداث التاريخية تخبر بأن أسلم وغِفار تلكما القبيلتين قد أسلمتا لله رب العالمين وجاء أفرادهما إلى رسول الله ﷺ، أما عُصية فإنها حاربت رسول الله ﷺ واشتركت مع رعل وذكوان فى قتل أصحابه (عليه الصلاة والسلام)، فتأمل كيف جرى ذلك القدر أن يكون أسلم وغِفار ممن جاءوا إلى رسول الله ﷺ منيبين مهتدين... وأما عُصيَّة فقد عصت الله ورسوله ﷺ.

۞ ولما نزل الحسين رضي الله عنه وأصحابه فى كربلاء سأل عن اسمها، فقيل له: كربلاء، فقال: كربٌ وبلاء... وكان ذلك فعلاً.

ولما وقفت حليمة السعدية على (عبد المطلب) تسأله رضاع رسول الله ﷺ وهو صغير قال لها: ومَن أنتِ؟ قالت: امرأة من بنى سعد، قال: ما اسمك؟ قالت حليمة السعدية. قال: بخٍ بخٍ سعدٌ وحلمٌ هاتان خلتان فيهما غناء الدهر.

ولأجل هذا كان من الأسباب التى تدفع إلى اختيار الاسم الطيب الذى يحمل من المعانى أشياء حسنة... فيُسمى به الوالد ولده من ذكرٍ أو أنثى، والله سبحانه بحكمته فى قضائه وقدره يُلهم النفوس أن تضع الأسماء على حسب مسمياتها.... ولتناسُب حكمة الله بين اللفظ ومعناه كما تتناسب بين الأسباب ومسبباتها.

قوله: (أسلم سَالَمَهَا الله)، هو من المُسالمة وترك الحرب، ويحتَمل أَن يكون دُعَاء لَهَا أَن يُسالمها الله تَعَالَى، وَلَا يَأْمر بحربها، أَو يكون إِخْبَارًا بِأَن الله قد سَالَمَهَا وَمنع من حربها.

وَإِنَّمَا خُصَّت هَاتَانِ القبيلتان بِالدُّعَاءِ لِأَن غِفارًا أَسْلمُوا قَدِيمًا، وَأسلم سالموا النَّبِى ﷺ.

وَفِيه: الدُّعَاء بِمَا يُشتق من الِاسْم، كَمَا يُقَال لِأَحْمَد: أَحْمد الله عاقبتك، ولعليٍّ أعلاك الله وَهُوَ من جناس الِاشْتِقَاق ... وَفِيه الدُّعَاء على الظَّالِم بِالْهَلَاكِ وَالدُّعَاء للْمُؤْمِنين بالنجاة ... وَقَالَ بَعضهم: إِن كَانُوا منتهكين لحُرمَة الدّين يُدعَى عَلَيْهِم بِالْهَلَاكِ، وإِلَّا يُدعَى لَهُم بِالتَّوْبَةِ، كَمَا قَالَ ﷺ: «**اللَّهُمَّ اهدِ دوسًا وائتِ بهم**». وَرُوِيَ أَن أَبَا بكر وَزَوجته رضي الله عنهما كَانَا يدعوان على عبد الرَّحْمَن ابنهما يَوْم بدر بِالْهَلَاكِ إِذا حمل على الْمُسلمين، وَإِذا أدبر يدعوان لَهُ بِالتَّوْبَةِ[1].

---

(١) عمدة القاري (٧/ ٢٧).



(١٦٢) الطاعون.. ودرجة الشهداء

عَنْ العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يَخْتَصِمُ الشُّهَدَاءُ وَالْمُتَوَفَّوْنَ عَلَى فُرُشِهِمْ إِلَى رَبِّنَا عَزَّ وَجَلَّ فِي الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنَ الطَّاعُونِ، فَيَقُولُ الشُّهَدَاءُ: إِخْوَانُنَا قُتِلُوا كَمَا قُتِلْنَا، وَيَقُولُ الْمُتَوَفَّوْنَ عَلَى فُرُشِهِمْ: إِخْوَانُنَا مَاتُوا عَلَى فُرُشِهِمْ كَمَا مِتْنَا عَلَى فُرُشِنَا، فَيَقُولُ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا إِلَى جِرَاحِهِمْ، فَإِنْ أَشْبَهَتْ جِرَاحُهُمْ جِرَاحَ الْمَقْتُولِينَ، فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ وَمَعَهُمْ، فَإِذَا جِرَاحُهُمْ قَدْ أَشْبَهَتْ جِرَاحَهُمْ**»(١).

ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ عن هذا المَشهد المَهيب فيقول: (يختصم الشهداء) أى الذين قُتلوا فى سبيل الله (والمتوفَّون) بتشديد الفاء المفتوحة (إلى ربنا) أى رافعين اختصامهم إلى الله، ومتحاكمون إليه (فى الذين) متعلق بيختصم (يُتوفون من الطاعون) أى بسببه (فيقول الشهداء) بيان الاختصام (إخواننا) خبر لمبتدأ هو (هم) أى المطعونون إخواننا (قُتلوا كما قُتلنا) بيان المشابهة، ولا شك أن مقصود الشهداء بذلك إلحاق المطعون معهم ورفع درجته إلى درجاتهم. وأما الأموات على الفُرش فلعلَّه ليس مقصودهم أصالة أن لا تُرفَع درجة المطعون إلى درجات الشهداء، فإن ذلك حسدٌ مذموم، وهو منزوع عن القلوب فى تلك الدار. وإنما مرادهم أن ينال الذين ماتوا فى الطاعون درجات الشهداء... وأن ينال الذين ماتوا على فُرشهم درجة الشهداء كما نال المطعون مع موته على الفراش أيضًا...فمعنى قولهم: إخواننا ماتوا على فُرشهم كما متنا أى فإن نالوا مع ذلك درجات الشهداء ينبغى أن ننالها أيضـًا. وعلى هذا فينبغى أن يُعتبر هذا الخصام خارج الجنة وإلا فقد جاء

(١) حسن: رواه أحمد، وحسنه الحافظ فى الفتح (١٠/ ١٩٤)، وقال الأرناؤوط: حسن لغيره.

فيهـا ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ وإذا اشـتهوا أى شيء فقد قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾، فينبغى أن ينال درجة الشهداء مَن يشتهيها فى الجنة...والظاهر أن الله تعالى ينزع من قلب كل أحدٍ فى الجنة أن يشتهى درجة مَن فوقه ويُرضيه بدرجته والله تعالى أعلم.

۞ فيقول ربنا عَزَّوَجَلَّ: (انْظُرُوا) أَىْ تَأَمَّلُوا لِيَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْحُكْمُ وَأَبْصِرُوا (إِلَى جِرَاحَتِهِمْ) وَيُفْتَحُ الْخِطَابُ لِلْمَلَائِكَةِ أَوْ لِلْفَرِيقَيْنِ الْمُخْتَصِمَيْنِ. (فَإِنْ أَشْبَهَتْ جِرَاحُهُمْ) جَمْعُ جِرَاحَةٍ. (جِرَاحَ الْمَقْتُولِينَ ؛ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ) يَعْنِى مُلْحَقٌ بِهِمْ فِى ثَوَابِهِمْ. (وَمَعَهُمْ) أَىْ: فِى حَشْرِهِمْ وَمَقَامِهِمْ، وَإِنْ لَمْ تُشْبِهْ فَإِنَّهُمْ مِنَ الْمَيِّتِينَ عَلَى فُرُشِهِمْ ... فَنَظَرُوا. (فَإِذَا جِرَاحُهُمْ) أَىْ: جِرَاحُ الْمَطْعُونِينَ. (قَدْ أَشْبَهَتْ جِرَاحَهُمْ) أَىْ: جِرَاحَ الْمَقْتُولِينَ... زاد فى رواية أحمد: فيلحقون معهم... وَفِيهِ إِشَارَةٌ لِقُوَّةِ الْقِيَاسِ وَالِاعْتِبَارِ حَتَّى فِى دَارِ الْقَرَارِ.

۞ وله شاهد من حديث عُقبة عن النبى ﷺ أنه قال:

«يَأْتِى الشُّهَدَاءُ وَالْمُتَوَفَّوْنَ بِالطَّاعُونِ فَيَقُولُ أَصحَابُ الطَّاعُونِ: نَحنُ شُهَدَاءُ. فَيُقَالُ: انْظُرُوا فَإِنْ كَانَتْ جِرَاحُهُمْ كَجِرَاحِ الشُّهَدَاءِ تَسِيلُ دَمًا كَرِيحِ الْمِسْكِ فَهُمْ شُهَدَاءُ»[1].

---

(١) بتصرف من (مرقاة المفاتيح).



(١٦٣) عبدي يحمدني وأنا أنزع نفسه

۞ قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: إِنَّ عَبْدِى الْمُؤْمِنَ عِنْدِى بِمَنْزِلَةِ كُلِّ خَيْرٍ، يَحمَدُنِى وَأَنَا أَنْزِعُ نَفْسَهُ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ»(١).

۞ وفى رواية قال ﷺ: «قَالَ الله تَعَالَى: إِنَّ الْمُؤْمِنَ مِنِّى بِعَرْضِ كُلِّ خَيْرٍ إِنِّى أَنْزِعُ نَفْسَهُ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ وَهُوَ يَحمَدُنِى»(٢).

۞ (قال الله تعالى: إن المؤمن منى بعرض) أى معرض (كل خير) فكل ما يناله فهو خير له كما بيَّنه بقوله: (إنى أنزع نفسه من بين جنبيه) أقتصها والمراد بالنفس هنا الروح(٣) ومنه خرجت نفسه، ومن بين جنبيه كناية عن ذاته أو أن النزع يقع بين ذلك حقيقة بعد جمع الروح من أجزاء بدنه إليه. (وهو يحمدنى) وذلك من أعظم الخير له أن يناله أعظم الأشياء وهى مصيبة الموت وهو حامد الله تعالى وكل ذلك بفضل الله عليه ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾(٤)(٥).

قال الإمام الرازى: حكمة سؤال الملكين أن الملائكة لما طعنت فى بنى آدم بعث الله إليه ملكين يسألانه عن ربه ودينه فيقول ربى الله ودينى الإسلام فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: انظروا إليه أخذت روحه وماله وزوجته: فماله لعدوه وزوجته تحت غيره ومع ذلك هو مُقِرٌّ بتوحيدى وتنزيهى لتعلموا أنى أعلم ما لا تعلمون(٦).

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩١٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والحكيم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣١٨).

(٣) القاموس المحيط (ص ٧٤٥).

(٤) سورة النور: الآية: (٢١).

(٥) التنوير شرح الجامع الصغير للأمير الصنعانى (٨/ ٢٣).

(٦) فيض القدير للمناوى (٤/ ٤٩٣).

۞ والمقصود هنا أن المؤمن الذى امتلأ قلبه بحب الله عَزَّوَجَلَّ يعيش حياته كلها راضيًا عن قضاء الله ولا يعترض أبدًا ؛ لأنه يعلم أن حلاوة الأجر والثواب تُنسى مرارة الألم.. فيظل المؤمن راضيًا بقضاء الله مُشتاقًا للقاء الله عَزَّوَجَلَّ حتى إذا جاءت اللحظة الحاسمة فى حياته كلها ودخل عليه ملك الموت لينزع روحه فإنه يجده حامدًا شاكرًا راضيًا بقضاء الله مُحبًّا للقائه... وهذا الحديث هو الترجمة الحقيقية لحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ أحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، ومَن كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لقاءَهُ**» فقلتُ: يا رسُولَ الله، أكَراهِيَةُ الموْتِ؟ فكُلُّنا نكْرَهُ الموْتَ، قال: «**لَيْس كَذَلِكَ، ولكنَّ المؤمنَ إذا بُشِّرَ بِرَحمَةِ الله ورِضْوانِهِ وَجنَّتِهِ أحَبَّ لِقَاء الله، فأحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وإنَّ الكَافِرَ إذا بُشِّرَ بعذابِ الله وسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ الله، وكَرِهَ اللهُ لِقَاءهُ**»[1].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٠٧) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٦٨٤) كتاب الذكر والدعاء.




(١٦٤) الحثُّ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

۞ عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يَقُولَ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ؟ فَإِذَا لَقَّنَ اللهُ العَبْدَ حُجَّتَهُ، قَالَ: يَا رَبِّ رَجَوْتُكَ، وَفَرِقْتُ مِنَ النَّاسِ**»(١).

أي: خفت من الناس.

۞ (إن الله تعالى ليسأل العبد يوم القيامة) أي عن كل شيء (حتى يسأله ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره) فإنه فُرض عليك إنكاره فلِمَ تركت ما فُرض عليك (فإذا لقن الله) من التلقين التفهيم أي فَهَّم (العبد حُجته) بُرهانه في جوابه على ربه.. أي ألهمه إياها (قال يا رب رجوتك) أن تغفر لي ولا تؤاخذني بترك النكير (وفرقت) خِفت لفظًا ومعنًى (من الناس).

إن قلت: يعارضه حديث أبي سعيد الماضي قريبًا: «ألا، لا يمنعن رجلاً مهابة الناس أن يتكلم بالحق إذا علمه».

قلت: لعلَّ الأول في مهابة لا تقضي إلى شيء ينزل به وهذا في خوفٍ حصل منه ظن إنزال المكروه به ... ولذا عبَّر هنالك بتهاب وهنا بِفَرَق .. وفيه دليل على أنه لا يسقط الإنكار مخافة شر مَن ينكر عليه إذ لو سقط لما سُئل عنه وعُوقب على تَرْكِه(٢).

۞ ومن المعلوم أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سببٌ لنزول العقوبات ولعدم إجابة الدعوات.

عَنْ حذيفةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بيَده لَتَأْمُرُنَّ بالْمعرُوفِ،**

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨١٨).

(٢) التنوير شرح الجامع الصغير (٣/ ٣٤٤).

ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ الله أَنْ يَبْعثَ عَلَيْكمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدعُونَهُ فَلاَ يُسْتَجابُ لَكُمْ»(١).

۞ قوله ﷺ: «وَالَّذِى نَفْسى بيَده» أى أن النبى ﷺ يُقسم بالله عَزَّوَجَلَّ... وكان النبى ﷺ يُقسم أحيانًا ويقول: «وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَده» لأن نفس النبى ﷺ هى أطيب الأنفُس... وفى هذا الحديث أقسم النبى ﷺ وقال: «وَالَّذِى نَفْسى بيَده» وذلك لأن أنفُس العباد بيد الله عَزَّوَجَلَّ.. يهديها إن شاء، ويُضلها إن شاء، ويُميتها إن شاء، ويُبقيها إن شاء... فالأنفُس بيد الله هدايةً وضلالة، وإحياءً وإماتة.

۞ ثم ذكر النبى ﷺ المُقسَم عليه وهو: «لَتَأْمُرُنَّ بالْمعرُوفِ، ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ» لأننا إن لم نفعل ذلك فسوف يبعث الله علينا عقابًا شديدًا ثم إذا دعوناه (سبحانه وتعالى) أن يرفع عنَّا هذا العقاب وذلك العذاب فلن يستجيب دعاءنا.

۞ وقد ذكرنا قبل ذلك الأحاديث التى تدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتحذير من تَرْكِه.. فالواجب علينا جميعًا أن نأمر بالمعروف - ولكن بكلِّ معروفٍ - وأن ننهى عن المنكر - ولكن بغير منكر-.

فإذا رأينا أخًا لنا قد ترك واجبًا أو قصَّر فيه أمرناه بالمعروف وحذَّرناه من ترك ذلك الواجب.. وإذا رأيناه قد أتى مُنكرًا نهيناه عن ذلك ولكن بكلِّ رحمة.

حتى نكون أمة واحدة.. لأننا إذا لم نفعل ذلك فسوف تتفرق الأمة وسوف يبعث الله عليها عذابًا ثم لا يستجيب دعاءنا إذا دعوناه بأن يرفع عنَّا هذا العذاب.

ولا بد أن يكون قصدنا هو إصلاح مَن نأمره بالمعروف أو ننهاه عن المنكر.. ولا يكون قصدنا الانتقام منه أو الاستئثار عليه.

---

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٠٧٠).

(١٦٥) غفرت له ولا أبالي

۞ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: مَنْ عَلِمَ أَنِّي ذُو قُدرَةٍ عَلَى مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ غَفَرْتُ لَهُ وَلا أُبَالِي، مَا لَمْ يُشْرِكْ بِي شَيْئًا»[(١)].

۞ فالمراد أن مَن عَلِم أن الله تعالى غفورٌ رحيم عَفوٌّ كريم.. وأنه لا يقدر على مغفرة الذنوب إلا هو فإنَّ الله يغفر له ذنوبه ولا يبالي... ولماذا لا يبالي؟.. لأنه سبحانه وتعالى ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[(٢)].

قال الطيبي رحمه الله: دلَّ على أنَّ اعتراف العبد بذلك سبب للغُفران، وهو نظيرُ قوله: «أنا عند ظَنِّ عبدي بي».

وقد عَيَّر الله قومًا فقال: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾[(٣)] ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾[(٤)].

(ما لم يُشرك بي شيئًا) الحديث مشتق من الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[(٥)][(٦)].

رُوِيَ أَنَّ حَمَّادَ بْنَ سَلَمَةَ عَادَ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ فَقَالَ لَهُ سُفْيَانُ: أَتُرَى أَنَّ اللهَ يَغْفِرُ لِمِثْلِي؟ فَقَالَ حَمَّادٌ: لَوْ خُيِّرْتُ بَيْنَ مُحَاسَبَةِ اللهِ إِيَّايَ وَبَيْنَ مُحَاسَبَةِ أَبَوَيَّ لَاخْتَرْتُ مُحَاسَبَةَ اللهِ عَلَى مُحَاسَبَةِ أَبَوَيَّ ؛ لِأَنَّ اللهَ أَرْحَمُ بِي مِنْ أَبَوَيَّ.

---

(١) حسن: رواه الطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٣٠).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٢٣).

(٣) سورة فصلت: الآية: (٢٣).

(٤) سورة الفتح: الآية: (١٢).

(٥) سورة النساء: الآية: (٤٨).

(٦) التنوير شرح الجامع الصغير (٨/ ٢٣).

(١٦٦) وتزودوا فإن خير الزاد التقوى

۞ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الآيَةَ: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[1] قَالَ: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أَهْلٌ أَنْ أُتَّقَى، فَمَنْ اتَّقَانِي فَلَمْ يَجْعَلْ مَعِي إِلَهًا آخر، فَأَنَا أَهْلٌ أَنْ أَغْفِرَ لَهُ»[2].

۞ (قال الله عَزَّ وَجَلَّ: أنا أهلٌ أن أُتقى) أي أُخاف وأُحذر... فالحذر أن أُوصف بما وصفني به المشركون ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ ورأس الاتقاء اتقاء كلمة الكفر كما قال (فلا يجعل معي إلهًا) لأنه لا إله غيري (فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهًا آخر فأنا أهلٌ أن أغفر له) هذا على نسق التنزيل نسب الأهلية إلى نفسه في الفعلين لأنه شكور ولا يضيع أجر المحسنين.... فمن زعم أن أحدًا من الموحدين يُخلَّد في النار فقد أعظم الفرية ونسب ربه إلى الجَور (تعالى الله عن ذلك).

وقول بعض السلف بخلود أهل الكبائر أراد به طول المُكث وأبهمه زَجرًا وتخويفًا فلم يفهم أولئك مُراده فضَلُّوا وأضلوا....

قال الإمام الرازي: سَمَّى نفسه أهل التقوى وسَمَّى الموحدين أهل كلمة التقوى فكأنه يقول: أنا أهلٌ أن أكون مذكورًا بهذه الكلمة وأنت أهل أن تكون ذاكرها ... فما أعظم هذا الشرف...

وقال الطيبي: أهل الرجل مَن يجمعه وإياهم نَسبٌ أو دين ثم تُجوِّز واستُعمل في معنى الخليق والجدير فقيل: فلان أهلٌ لكذا أي خليقٌ به وهو

---

(١) سورة المدثر: الآية: (٥٦).

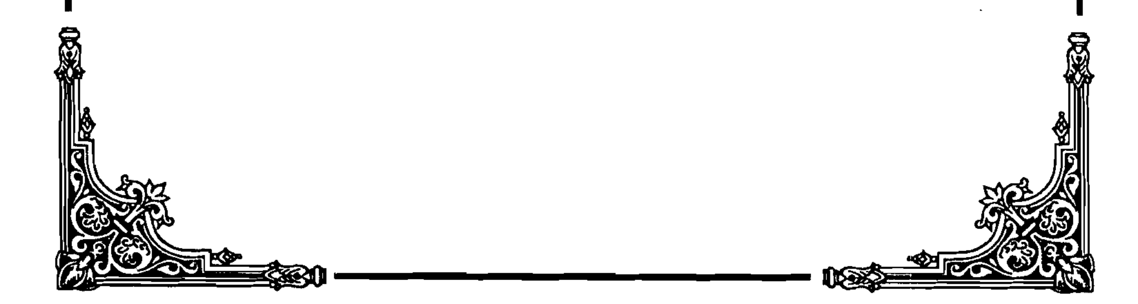
(٢) حسن: رواه الترمذي، وحسنه الألباني في السُّنة لابن أبي عاصم (٢/ ٩٦٩).

المعنى بقوله: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ فأخبر بأنه حقيق بأن يُتقى منه وخليق بأن يَغفر لمن اتقاه [١].

---

(١) فيض القدير (٤/ ٤٩٨).

فهرس الموضوعات





فهرس الموضوعات


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
شرح
رياض الصالحين
من كلام سيد المرسلين ﷺ
للإمام أبي زكريا
يحيى بن شرف النووي
شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري
أبو عمار
١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧
شرح
الأحاديث القدسية
E_mail
elmarwahprint@yahoo.com
١٢٧ ميدان الأزهر أمام الجامع الأزهر القاهرة ت ٢٥١٤٧٣٢٠
درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ت ٠١٠٠١٤٣١١١٤ تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤
زوروا صفحتنا على الفيس بوك
مكتبة الصفا للنشر والتوزيع